السيدة باربارا

المجلس الأعلى للثقافة

المشروع القومي للترجمة

تأليف : رومولو جاييجوس

ترجمة: محمود على مكى

274

المشروع القومى للترجمة

السيدة باربارا

تأليف :

رومولو جاييجوس

ترجمة الدكتور :

محمود على مكى



٢٠٠٢

الخطوط للفنان : **حامد العويضى** .

المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

DOÑA BARBARA

Rómulo Gallegos

iustrado por : Alirio Palacios

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 **Fax :** 7358084 **E. Mail :** asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

تقديم المترجم

- ١ -

هذا العالم العريض - عالم أمريكا اللاتينية - ما زال جديداً مجهولا بالنسبة لنا فى العالم العربى ، فنحن لا نكاد نعرف عنه إلا القليل ، مع أنه كان ينبغى أن يكون أكثر ألفة لنا وأوثق صلة بنا من كثير من بلاد العالم ، وهذا من المفارقات التى ينبغى أن نعمل على تصحيح ما انقلب من الأوضاع فيها وتقويم المعوج ، ويشبه ذلك ما نلاحظه حول علاقتنا بإسبانيا ، فهى أقل بلاد أوربا نصيباً من اهتمامنا، مع أنها البلد الأوربى الوحيد الذى اشترك مع الأمة العربية فى حقبة طويلة من التاريخ الحضارى الرائع استمرت على طول عشرة قرون ، وتأثر بثقافتنا العربية تأثراً ما زال محسوساً ماثلا حتى اليوم . وقد كان المنطق الطبيعى يقتضى أن تتوثق علاقتنا بإسبانيا وبذلك العالم الكبير الذى انحدر من صلبها على صورة أقوى وأعمق مما هو قائم اليوم ، وأن نعرف عنهم أكثر مما نعرف ، وأن يعرفوا هم عنا أكثر مما يعرفون .

وقد اتصلت أمريكا اللاتينية بالحضارة العربية عن طريق تيارين كبيرين ولدا فى ظروف تاريخية مختلفة كل الاختلاف ، وفصلت بينهما قرون عديدة .

أما الأول فقديم يرجع إلى تاريخ الكشف الإسبانى نفسه فى سنة ١٤٩٢ ، وقد كان من غريب الموافقات أن هذه السنة التى وصل فيها كريستوفر كولمبس (كريستوبل كولون بالإسبانية) إلى شواطئ جزر البحر الكاريبى هى نفسها التى سقطت فيها غرناطة آخر معاقل الإسلام بالأندلس فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيزابيل ، وكأن اتفاق هذين الحدثين الكبيرين كان رمزاً له مدلوله : فالحضارة العربية الإسلامية التى ازدهرت فى شبه جزيرة إيبريا

طوال القرون الثمانية الماضية كان قد أدركها الهرم ، فعجزت عن مواصلة القيام بدورها ، وبدا كأنما استنفدت رسالتها الحضارية الكبرى باعتبارها المركز الثقافى الأعظم الذى تتلمذت أوربا عن طريقه على حضارة العرب والإسلام، ولم يكن ذلك بغريب؛ فالعالم العربى كله فى ذلك الوقت كان قد نضب معين حيويته فأسلم قياده إلى قوة جديدة فتية غريبة عن العالم العربى ، وإن كان يجمعها الإسلام به ، هى الدولة التركية العثمانية ، هذا بينما كانت أوربا فى أواخر القرن الخامس عشر قد تمثلت ما أخذته عن الحضارة العربية ، واستوعبت ماقدمته إليها ثقافة الإسلام فى كرم وسخاء طوال القرون الماضية ، فبدأت تقيم بناء نهضتها الحديثة ، كانت سنة ١٤٩٢ تاريخًا له دلالته الكبرى ، وكأن أبا عبد الله آخر سلاطين غرناطة وهو يقدم إلى الملكين الكاثوليكيين مفتاح المدينة فى الثانى من يناير من هذه السنة إنما كان يختم هذا الفصل المجيد الذى اضطلع به الإسلام فى تاريخ شبه الجزيرة خلال العصور الوسطى ، بل كأن العالم العربى كله كان فى ذلك الحفل الحزين المهيب يعلن انسحابه من الميدان وإسلام رسالة الحضارة إلى أوربا ، ولم تمض على ذلك التاريخ سبعة شهور حتى كانت سفن الاستكشاف الثلاثة التى يقودها كريستوبل كولون تخرج من ميناء شلوقه العربية (سان لوكر الإسبانية) متوجهة إلى العالم الجديد فى ٣ من أغسطس سنة ١٤٩٢ .

ولكن استسلام غرناطة وانهيار سلطان المسلمين السياسى لم يعنيا نهاية الشعب العربى المسلم ، فقد خلف الإسلام فى شبه الجزيرة وفى شعوبها آثاراً مازالت باقية من دمائه وروحه ولغته وتقاليده وأوضاع حضارته ، بل إن الكشف عن شواطئ القارة الأمريكية لم يتم إلا بفضل خرائط عربية وملاحين مسلمين .

ومن الطبيعى بعد ذلك أن نتصور كيف دخل كثير من آثار الحضارة العربية إلى القارة الجديدة عن طريق الفاتحين الإسبان ، فقد حملوا معهم كثيراً من العناصر العربية التى جرت فى دمائهم واستقرت فى نفوسهم خلال القرون الثمانية الماضية ، ونحن نعرف أن المسلمين تعرضوا خلال القرنين التاليين

لسقوط غـرناطة لكثير من الاضطهاد الدينى ، وأرغـمت جماعات كـثيرة منهم على التنصـر ، مما حـمل الكـثـيريين مـنهم على الهـجـرة فـراراً بدينهم إلى مـا جاورهم من بلاد الإسلام ، ووجد بعضهم فى فتح العالم الجديد فرصة يهربون فـيهـا بعقـيـدتهم من وطأة الاضطهاد ، فـانتـقل بالفعـل عدد كـبيـر من هؤلاء المسـلمين المتـظاهريـن بالتنـصـــر (الموريسكـيين Los Moriscos) إلى القـــارة الأمريكية، وإن كانت محـاكم التحقيق قد لاحقتهم هناك فلم يسـتطيعوا الجهر بعقيـدتهم ، واضطروا إلى الاندماج فى المجتمع الجـديد ، واندثر الإسلام بينهم كما اندثر من شـبه الجزيرة نفسها ؛ فـالعقيدة قد تكتم جيـلا أو جيلين ، ولكنها لاتلبث بعد ذلك أن تنسى وتنقرض .

هذا هو التيـار الأول الذى دخلت معه العناصر العـربية والإسلاميـة بصفة غيـر مبـاشرة إلى القـارة الأمريكيـة الجديدة ، أمـا الثانى فـإنه حدث بعـد قرون طويلة؛ إذ لـم يبدأ إلا فى أواخـر القرن الماضى مع الهجرات العربـية إلى أمريكا اللاتينيـة ، حيث استـقرت جاليـاتهم واندمجت فى المجـتمع الأمـريكى ، وكان مـعظم المهـاجـرين العـرب من بلاد الشـام بمعناها الكبـيـر : من سـورية ولبنان وفلسطين والأردن ، وهـم يبلغـون اليوم عدة ملايين، وتـعتبر جـالياتهم مفـخرة للعـالم العربى ، فـهى من أكثـر الجاليـات الأجنبيـة نشاطًا وأعـمقـها إخـلاصًا للمـجـتمع الجـديد ، وإن كـان أفرادهـا فى الوقت نفسـه لم يقطعـوا صـلاتهم بوطنهم العربى الأم ، وكان لهم – وما زال – أثر كبير فى الحياة الأمريكية ، كما أن ثقافـتنا نحن تأثرت بهم ؛ إذ أنتج لنا مفكروهم وأدباؤهم ألوانًا جديـدة حية من الأدب الجدير منا بمزيد من الاهتـمام ، هو أدب المهجـر ، وربما كان من أهم مـايسر لهـؤلاء المهـاجرين العـرب الإقامـة فى جنبـات هذه القـارة الفسيحـة و«التأقلـم» فيهـا ما جمع قـديمًا بين العرب من ناحـية وإسـبانيا والعـالم الناطق بالإسبانيـة من ناحية أخرى من روابط عـريقة وثيقة . وهذا هو مـا جعل أولئك العـرب يرون أنفـسهم فى بـلاد، ليست غـريبـة كل الغـرابة على بلادهم ، وإن اختلفت اللغة والبيئة والدين .

ومن أجل هذا ذكرنا أنه ينبغي أن تكون علاقتنا بهذا العالم الجديد أوثق مما هي عليه ، فهو عالم بعيد عنا من الناحية الجغرافية ، ولكنه قريب إلينا من نواح كثيرة ، حتى الظروف السياسية والاجتماعية التي مرت على أممه في القرن الأخير من تاريخنا الحديث قريبة مما تعرضت أممنا له ، وحتى الرغبة في توحيد كلمته وجمع شمله أشبه بما نسعى إليه في عالمنا العربي من إزالة الحواجز والحدود المصطنعة لنصبح - كما كنا - أمة واحدة كبيرة .

ومع ذلك فإننا نعود إلى ماقلناه في أول هذا الكلام . لسنا نعرف عن هذا العالم مايجب أن نعرف ، وقد حانت الساعة لكي نطلع على أحواله ونتفهم قضاياه ونعينه على التعرف علينا والاهتمام بمشاكلنا ، وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالدراسة العلمية الجادة والبحث المنهجي القويم .

وإذا كنا قد بدأنا اليوم نولي أمريكا اللاتينية بعض اهتمامنا ولاسيما في ميداني السياسة والاقتصاد - وقد بذلت في هذه السبيل جهود طيبة سيكون لها أثر كبير في توثيق علاقتنا بهذه القارة - فإننا ما زلنا بعيدين حتى اليوم عن مد هذا الاهتمام إلى ميادين الثقافة والفكر ، وهذا أمر لابد أن يأتي بمضي الوقت ؛ فصلاتنا بهذا العالم الواسع إنما ترجع إلى عدة سنوات مضت ، ولو أننا اهتممنا منذ الآن بإعداد أجيال تتخصص في دراسات أمريكا اللاتينية لأمكن أن نصل خلال السنوات المقبلة إلى توثيق روابط التعاون والصداقة مع بلاد هذه القارة ، وهو أمر سيعود بكثير من الفوائد الجليلة على العالمين العربي والأمريكي اللاتيني على السواء .

والنص الذي نقدمه إلى القارئ اليوم يعتبر من أبرز معالم أدب أمريكا الناطقة بالإسبانية ، ولعله أول أثر أدبي كامل يطلع عليه قراء العربية من النتاج الفكري لهذه القارة الفتية ، وقد عملت على أن أختاره من أدب الرواية الطويلة؛ إذ إن الأدب القصصي هو أصدق تصويراً للحياة ولاسيما في الأمم النامية التي تسعى جاهدة للحاق بموكب الحضارة ، وسيرى القارئ في هذه

الرواية تمثيلا حبًا صادقًا لا للحياة فى سهول فنزويلا فحسب ، بل لحياة القارة الأمريكية اللاتينية كلها بمافيها من عيوب وفضائل ، وبما تضطرب به نفوس أهلها من آلام ويختلج فيها من آمال ، سيشاهد القارئ فيها كثيراً من مظاهر التشابه الذى أشرنا إليه بين روح تلك البلاد ونفسية شعوبها والنماذج البشرية التى تضطرب فيها ، وبين ما لدينا نحن على الرغم من بعد المسافة التى تفصلنا عن تلك البلاد ، وهو مانبهنا إلى أنه سيكون من أهم الدعائم التى يمكن أن يقوم عليها تعاوننا فى مختلف الميادين من أهل هذا العالم الفتى الجديد .

- ٢ -

مؤلف هذه الرواية كاتب وسياسى ومفكر له مكانة عظمى فى تاريخ الأدب والثقافة فى أمريكا اللاتينية ؛ وقد ولد « رومولو جاييجوس فريرى Rómulo Gallegos Freire» - وهذا هو اسمه - فى مدينة كاراكاس عاصمة جمهورية فنزويلا فى الثانى من أغسطس سنة ١٨٨٤ ، واتجه منذ صغره إلى دراسات اللاهوت حتى ينخرط فى سلك الرهبنة ، ولكنه لم يلبث أن انصرف عن ذلك بعد موت أمه سنة ١٨٩٦ ، وأخيراً أنهى دراسته الثانوية فى سنة ١٩٠٣ ، والتحق بجامعة كاراكاس ، ولكنه لم يستطع إكمال دراسته بسبب قلة الموارد ، مما اضطره إلى العمل موظفًا بمصلحة البريد بين سنتى ١٩٠٦ و ١٩٠٨، ثم هجر هذه الوظيفة لكى يشتغل بالصحافة الأدبية ؛ فأسس فى سنة ١٩٠٩ مجلة فكرية أطلق عليها اسم « الفجر la Alborada » ، واشترك معه فى تحريرها أربعة من أصدقائه كانوا فى مثل سنه وحماسته لإصلاح مجتمع بلادهم وتحريره ، ولكن هذه المجلة انقطعت عن الصدور بعد فترة وجيزة ، واشتغل جاييجوس بالتعليم ، فعين مديراً للمعهد الاتحادى فى مدينة برشلونة عاصمة مقاطعة أنسواتيجى فى شمال شرق فنزويلا ، ثم وكيلا لمعهد آخر استمر فيه حتى سنة ١٩٣٠ ، وواصل فى الوقت نفسه العمل فى الصحافة ،

فقد أصبح منذ ١٩٢٠ مديراً لتحرير مجلة « العالم الحاضر Actualidad » وبعد ذلك بسنتين أسس مجلة أخرى باسم « الرواية الأسبوعية La Novela Semanal » وكان خلال هذه المدة ينشر فى تلك المجلات وغيرها مجموعات من القصص القصيرة أتاحت لاسمه حظًا من الشهرة ، وكان من أهمها مجموعة تحمل اسم « المغامرون Los aventureros » (سنة ١٩١٣) .

وفى سنة ١٩٢٠ نشر أولى روايته الطويلة : « آخر سلالة سولار El último Solar » (التى عدل اسمها فى الطبعات التالية إلى « رينالدو سولار Reinaldo Solar ») وقد وطدت هذه الرواية قدمه فى عالم القصة الطويلة ، ثم أتبعها فى سنة ١٩٢٥ برواية « المتسلقة La Trepadora» المعدودة من روائع إنتاجه القصصى .

وفى سنة ١٩٢٩ نشر رواية « السيدة باربارا Doña Bárbara » التى تعتبر قمة إنتاجه الأدبى كله ، وبها طار صيت رومولو جاييجوس فى أنحاء القارة الأمريكية كلها ، وكان لنشرها أثر كبير فى سيرة حياته ؛ إذ إن خوان فيثنتى جومث Juan Vicente Gómez دكتاتور فنزويلا فى ذلك الوقت أراد أن يعبر عن إعجابه بالرواية ومؤلفها فعرض عليه أن يعينه عضواً فى مجلس الشيوخ عن مقاطعة أبورى Apure التى تدور فى سهولها الرواية ، ولكن جاييجوس كان رجلا ثائراً مطالبًا بالإصلاح قبل كل شئ ، بل إن روايته هذه إنما كانت - إلى جانب اعتبارها أثراً أدبيا من الطراز الأول - صرخة تدعو إلى الإصلاح وتندد بالإقطاع والاستبداد ، وما كان مثل هذا الرجل ليقبل مثل تلك الرشوة من حاكم كان يعد من أسوأ من ابتليت بهم فنزويلا من الطغاة ، ولهذا فقد رفض جاييجوس ذلك المنصب ، ضاربًا بفعله مثلا عاليًا فى التمسك بالمبدأ والحرص على الكرامة ، ثم آثر أن ينفى نفسه عن بلاده ، فتوجه فى سنة ١٩٣١ إلى نيويورك ، ولكن مقامه فى الولايات المتحدة لم يطل ؛ إذ سرعان ما رحل إلى إسبانيا ، وهناك أقام عدة سنوات يعمل فى مؤسسة تجارية ، وقد كانت السنوات الخمس التى قضاها رومولو جاييجوس فى « الوطن الأم » من

أخصب سني حياته وأكثرها إنتاجًا ؛ فقد نشر هناك روايته : « كانتـــا كـــلارو Cantaclaro » (ســــــنة ١٩٣٤) ، ثـــم «كنـايما Canaima » (سنة ١٩٣٥) ، وهما الروايتان اللتـان تؤلفان مع « السيدة باربارا» الثالوث الروائى الذى يعتبر خير ما أنتجه هذا الأديب فى ميدان القصة .

وواصل رومـولو جاييجوس فـى منفاه كـفاحـه ضـد النظام الدكتـاتورى الفاسد الذى كان يمثله خوان فيثنتي جومث ، حتى انتهى الأمر بسقوط الطاغية، وحينئذ عاد إلى بلاده ، فلم يلبث أن عين وزيراً للتربية والتعليم فى سنة ١٩٣٦ فى ظل النظام السياسى الجديد ، كذلك انتخب عضواً فى المجلس النيابى خلال الفترة المنحصرة بين سنتى ١٩٣٧ و ١٩٤٠ ، وخـــلال هذه الفترة نشر روايتـــه « مسكين هذا الأسود Pobre negro » التى عالج فيها مـشكلة التفرقة العنصرية فى أمريكا اللاتينيـة ، وقد استوحى فيهـا حياة الفلاحين الزنوج فى حـقول الكاكاو فى فنزويلا .

وفى سنة ١٩٤١ انتـخب رئيـسًـا لحزب « الـعمل الديمـقراطى » ورئيـسًـا للمـجلس البلدى لمـدينة كـاراكاس ، وفى هـذه الأثناء ألف روايتـه « على هذه الأرض نفسها Sobre la misma tierra» ، وحوادثها تدور فى حـقول البترول فى ماراكيبو Maracaibo ، وهو يعالج فيها مشكلة البترول الذى نعرف كيف تسيطر عليه الولايات المتحـدة حارمة شعب فنزويلا من هذا المورد الحيوى الذى يـعتبر من أهم موارد ثروتها .

وفى سنة ١٩٤٧ تقدم رومولو جاييجوس إلى انتخابات رياسة الجمهورية، ففاز بالرياسة بأغلبية ٧٢ ٪ من مجمـوع الأصوات ، ولكن حكمه لم يدم طويلا على الرغم من شعبيـته ومن محاولته تطبيق تلك المبـادئ المثالية التى كان ينادى بها دائمًا من أجل إصلاح أوضاع بلده ، ومـن يدرى ؟ فربما كان ذلك نفسه هو الذى قذف بهـذا الرجل المخلص عن كرسى الرياسـة ! إذ لم ترض عنه القوى السيـاسية الرجعـية ولا قوى الاستـعمار الأجنبى التى نعرف مـدى تدخلها فى

شئون أمريكا اللاتينية ومحاولتها عرقلة كل إصلاح ثورى فيها ، لم يطل حكم هذا المناضل البطل ؛ إذ سرعان ما دبرت له مؤامرة عسكرية من ذلك النوع الذى اعتدناه فى أمريكا اللاتينية كلما ضاقت بالأحرار فيها قوى الرجعية والاستعمار الأمريكى ، فلم يلبث الانقلاب المدبر أن أطاح بذلك البطل فى ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، فاضطره إلى مغادرة وطنه من جديد ، وكانت رحلته هذه المرة إلى المكسيك ثم إلى كوبا ، وهناك وضع روايته « حزمة من القش فى مهب الريح La brizna de paja en el viento » (سنة ١٩٥٢) ، وفيها تصوير لكفاح نفر من الجامعيين الثائرين على حكم دكتاتور كوبا فى ذلك الوقت : ماتشادو Machado.

وتعتبر هذه الرواية من آخر ما أنتجه رومولو جاييجوس ، الذى عاد بعد ذلك إلى بلاده لينعم بشئ من القرار والسكينة بعد أن قضى حياته كلها فى كفاح مستمر متواصل لايعرف الهدوء ولا الراحة ، وهو مايزال مقيما فى كاراكاس موضعًا لتكريم كل شعوب أمريكا اللاتينية التى تنظر إليه فى إجلال يقارب التقديس .

وقد انتاب رومولو جاييجوس فى أوائل هذه السنة مرض شديد ، فهو الآن قد جاوز الثمانين من عمره ، حتى كاد يشفى على الهلاك ، ولكنه تماثل للشفاء وإن كانت صحته قد ضعفت كثيراً فى الفترة الأخيرة(*) .

(*) كتبت هذه السطور حينما كان الأديب الكبير لايزال حيا ، ثم بلغنا نبأوفاته بعد ذلك بقليل فى الخامس من أبريل سنة ١٩٦٩ وهو فى الخامسة والثمانين من عمره.

لا تتسع هذه العجالة للحديث عن إنتاج رومولو جاييجوس الخصب فى عالم الرواية ولا عن القيمة الفنية لروايته « السيدة باربارا » التى تعتبر قمة إنتاجه القصصى ، على أنه يجب علينا - قبل أن نلمح إلى شئ من ذلك - أن نشير إشارة سريعة إلى فن الرواية فى أمريكا اللاتينية(*) .

فقد مر الفن الروائى فى أمريكا اللاتينية بمراحل مختلفة ومدارس متعددة منذ القرن التاسع عشر حتى اليوم ، عرف أولا الاتجاه الرومانسى الذى كان غالبًا على أوربا أيضًا فى أوائل القرن الماضى ، ثم بدأ يتجه إلى الواقعية ، منذ أواخر ذلك القرن، وبالغ بعض الروائيين والقصاص فى الواقعية ، فارتفعوا بها إلى مايعرف فى تاريخ الأدب باسم « الطبيعية أو مافوق الواقعية » ، وهو تسجيل كل دقيقة من دقائق البيئة التى تجرى فيها أحداث الرواية ، مهما كانت مبتذلة أو غير موحية فى الظاهر بأى تعبير أدبى أو فنى .

وفى سنة ١٨٨٨ أصدر الشاعر روبن داريو Ruben Dario (وأصله من نيكاراجوا Nicaragua فى أمريكا الوسطى) ديوانه «أزرق Azul» الذى يُعَدُّ ثورة فى عالم الآداب الإسبانية ؛ إذ إنه رسم به اتجاهًا يعرف فى تاريخ هذه الآداب باسم « الاتجاه الحديث » ، وأهم ما يميزه هو السمو بالنثر إلى قمة قريبة من التعبير الشعرى ، بعد أن كان الاتجاهان الواقعى والطبيعى قد وصلا بالتعبير الأدبى إلى ابتذال لم يكن يستطيع البقاء بمنجى منه إلا الفنان المقتدر .

وظهرت بعد ذلك اتجاهات أخرى فى أدب أمريكا اللاتينية فى أوائل القرن العشرين ، ولا سيما فى الفترة المنحصرة بين الحربين العالميتين ، أهمها الاتجاه

(*) أفردنا لهذا الموضوع مقالا مفصلا تحت عنوان : « الفن القصصى فى أدب أمريكا اللاتينية » فى « المجلة » ، العدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ، ص ٧٢ - ٨٧ .

المعروف باسم « الكريويو Criollo ، وهو لفظ يقصد به الاتجاه القومي المميز لأمريكا اللاتينية . وكانت أنظار أدباء هذه القارة قبل ذلك تتجه دائمًا إلى أوربا والولايات المتحدة على أنهما مصدر الحضارة والثقافة ، وحاملتا مشعل النور والتقدم ، ولكن الحرب العالمية الأولى خيبت آمال شعوب أمريكا اللاتينية فى أوربا ، ثم أتت الأزمة الاقتصادية فى الولايات المتحدة سنة ١٩٢٩ ، وكشفت هذه « الأخت الكبرى » عن مطامعها فى نصف القارة الجنوبى ، فأقبلت تتدخل فى شئون جمهوريات أمريكا اللاتينية تدخلا سافراً وتعتدى على حريتها اعتداءً صارخًا ما زلنا نراه حتى اليوم . فأدى كل ذلك إلى انهيار ما بقى من مكانة الولايات المتحدة فى تلك البلاد التى كانت من قبل تنظر إليها على أنها حامية الحضارة ورمز التقدم . ومن هنا بدأ أدباء أمريكا اللاتينية فى البحث – فى صميم أرضهم – عن القيم التى نشدوها خارج حدودهم فلم يجدوها . ونبهت تلك الصدمات فيهم وعيًا قوميًا جديداً هو الذى عرف باسم «الكريويَو»، أى النابع من الشعوب الأمريكية اللاتينية نفسها ، وهذا الاتجاه هو الذى مازال غالبًا على أدب هذه البلاد حتى اليوم .

ولو أننا تأملنا أدب رومولو جاييجوس ، ولا سيما روايته التى نقدمها بهذا الحديث، لوجدنا فيها مزيجًا عبقريًا رائعًا من خصائص كل تلك المذاهب والاتجاهات ، مزيجًا قدرت حسابه يد فنان مقتدر مبدع ، فجاءت قطعة فنية مكتملة : نحن نرى فيها الرومانسية بغير تهويل الرومانسيين ومبالغاتهم وتعابيرهم الطنانة المتكلفة ، ونرى الواقعية دون أن تكون مجرد تسجيل وصفى بارد ، ونجد الطبيعية ولكن بغير إسفاف ولا ابتذال ، ونحس بالاعتداد بالقومية الأمريكية ، إلا أنه اعتداد بعيد عن التظاهر الأجوف أو التمدح الرخيص ، وأخيراً نقرأ فيها الأسلوب الرفيع الذى يسمو بنثرها حقًا إلى مستوى قد لا يصل إليه التعبير الشعرى نفسه .

ورومولو جاييجوس كاتب موضوعى هادف ، هو أديب ليس بمعزل عن الحياة ، لايعيش فى برج عاجى على هامش مشكلات بلاده بل هو يصور لنا مجتمع بلاده فنزويلا بكل مافيه من فضائل وعيوب ، وهو مصلح سياسى

اجتماعى ، ولكنه عرف كيف يخرج لنا فى هذه الرواية أدبًا بعيداً عن خطابة الساسة بما فيها من بلاغية متكلفة ، أو أبحاث علماء الاجتماع بما يسودها من جفاف وثقل ، وهو أدب محض يستطيع القارئ مع ذلك أن يتبين فيه آراء الأديب ومثله فيما بين السطور .

وتدور الرواية حول الكفاح الذى يضطلع به سانتوس لوثاردو الشاب الجامعى القادم من المدينة إلى سهول نهرى أبورى Apure والأراوكا El Arauca ، ضد عوامل الفساد الممثلة فى تلك السيطرة الإقطاعية التى تبسطها على السهول امرأة غامضة رهيبة هى السيدة باربارا ، تعاونها فى ذلك مجموعة متنافرة من الرجال لم تجمع بينهم إلا نوازع الشر وفنون الإجرام .

ولكن رومولو جاييجوس متفائل يؤمن بغلبة الخير على الشر ، وبأن الحق لابد أن ينتصر فى النهاية ؛ فنحن نرى أنه على الرغم من كل ما اعترض طريق سانتوس لوثاردو من عقبات فإنه قد أدرك النصر أخيراً : اختفت « إقطاعية حوض الأراوكا» ، وها هو ذا الأمريكى المغامر يعلق بندقيته على كتفه ويعلن أنه ذاهب ، و « الأرض التى كانت كلها طرقًا لايحصيها العد قد خطت فيها الآن طريق واحدة مستقيمة .. إلى المستقبل » .

هذه هى الفكرة الأيديولوجية محور الرواية ، يوحى بها الكاتب فى رفق ومهارة ، وكأنه يرسم بها برنامجًا شاملا للإصلاح فى بلاده ، ولكنه برنامج يستخلصه القارئ فى أثناء الكلام دون أن يلح عليه بصفة مباشرة ، ولو فعل لبعدت بالرواية عن ميدان الأدب المحض ، ومن هنا كان اقتدار رومولو جاييجوس ، فهو يصور الحقائق الاجتماعية والإنسانية تصويراً فنيا بديعا على أساس من الملاحظة الدقيقة الثاقبة ، وقد يختلف النقاد فى وجهات النظر التى يحكمون بها على روايته ، ولكنهم يجمعون مع ذلك على شئ واحد : هى أنها قطعة فنية رائعة .

ونتأمل بعد ذلك وصف البيئة لدى رومولو جاييجوس ، فنرى كيف لم يترك صغيرة ولا كبيرة فى سهول فنزويلا التى تدور فيها أحداث الرواية إلا ومثلها لنا كأننا نراها رأى العين : نحن نجد وصف تلك السهول العريضة التى جمعت بين الجمال والرهبة والتى تتعايش فى جنباتها الحياة الرائعة الجذابة والموت الهائل الشنيع ، نرى هذه المروج الفسيحة الموحشة التى لا يحدها البصر، تموج فيها قطعان الثيران والخيول البرية الطليقة التى لم تستأنس بعد .

ونحن نرى بعد ذلك حياة رعاة السهول فى عملهم الشاق ومحاولاتهم اليومية للثيران أو استئناسهم للخيول ، وفى أوقات فراغهم وفى سهراتهم ولهوهم ، ونتسمع إلى أحاديثهم ونوادرهم ، ونطلع على خرافاتهم وأوهامهم وعقائدهم ، وغير ذلك من ألوان حياتهم .

كل هذا صوره لنا رومولو جاييجوس كأننا نعيش معه ومع أبطال روايته هذه الحياة ، ونضطرب معهم كما يضطربون فيها ساعة بساعة ، ونحن نحس معه بجمال هذه الحياة البدائية ، وبأثر تلك البيئة الخشنة القوية الرهيبة على الناس ، حتى إننا نجد فى شخصيات الرواية مرآة تعكس لنا صورة السهول بكل ما فيها من خير وشر .

إننا نطالع أولا شخصية بطلة الرواية : السيدة باربارا ... « صائدة الرجال»، وليدة هذه الحياة المتوحشة وضحيتها ، امرأة جنت عليها قسوة الرجال وهى بعد فى غضاضة الصبا ، فإذا بها تتحول إلى مخلوق غريب رهيب لم يعد له فى الحياة إلا هدف واحد : هو إذلال الرجل والانتقام منه ... أصبحت مزيجًا مضطربًا من الغريزة الطاغية والإيمان بالخرافة والشعوذة والشراهة إلى المال والقسوة المريرة الناضحة بالشر . إن « إقطاعية حوض الأراوكا » هى التى تمثل

لنا كل ما تعانيه شعوب أمـريكا اللاتينية من المعوقات فى طريق الحضارة ، نرى ذلك خلال صراعـها العنيف المرير مع سانتوس لوثاردو ، الـرجل الوحيد الذى لم تداخل نفسه الرغبة فيها ولا الخوف منها .

ومع ذلك فإن السيدة باربارا ليست شراً محـضًا خالصًا ، فقد كان يقبع فى أعماق نفسها المظلمة ركن صغـير طاهر ، هو ذكرى حب مر على روحها مرور الطيف، حب كان من الممـكن أن يحولها إلى امـرأة طيبة لو لـم تخنقـه فى المهد قسوة أولئك القراصنة الذين كانت باربارا تشاركهم حـياة الوحشية الدامية التى كانوا يجـرونها وهم على ظهـر قارب يشق بهم صـفحـة الأنهار العريـضة التى تكتنفها الغابات ، ولكن ذكرى هذا الحـب الصغير الخاطف ، الكامنة فى حطام روح باربارا ، هى التى سيقـدر لها فى النهاية أن ترد إليها عاطفـــة الأمومة بعد أن كانت قد خـمدت فى نفسهـــا ، وهى التى ستطفئ نـــار الوحـشية المتلظيـــة فى دمائها.

ويرى بعض النقاد أن رومولو جـاييجوس استلهم شخصـية السيدة باربارا من حـيـاة امـرأة كـانت تدعى فـرنسـسكا فـاثكث Francisca Vázquez وكانت إقطاعية اشتهرت فى حوض الأراوكا بكثير من الصفات التى نراها فى شخصية باربارا ، ولعل هذا مما يفسر لنا تلك الواقعية الحية التى تتسم بها هذه الشخصية، حتى إنها تعتبر من أبدع النماذج الأدبية التى خلقها خيال أديب .

وغريم السيدة باربارا فى هذا الصـراع العنيف هو سانتوس لوثاردو ، ذلك المحامى الشاب الذى يعود إلى أرضه بعد غياب طويل وهو عازم فى أول الأمر على هجرها وبيـعهـــا وتجنب ما يربطـــه بتـــلك الأرض من عـلاقة لا تـــورث إلا المتاعب والمشكلات ، ولكن ما يسمعه عن السـيدة باربارا وما يراه من جبروتها وطغيـانها يذكى فـى نفسه جـذوة الرجولة والكـفاح ، ويفتح عـينيه عـلى مدى مايمكن أن تبلغه هذه الأرض وساكنوها من تقدم وحضارة لو أن القانون فرض فيها سلطانه .

وهو مع ذلك ليس كأبطال القصص الرومانسية مثلا مفتعلا متكلفًا للخير والفضائل كلها ، بل هو بشر نرى فى الرواية فضائله وعيوبه ، فهو يوشك أن يتردى فى هوة العنف والقسوة التى اجتهد فى أول الأمر فى استئصال جراثيمها من نفسه ومن نفوس أتباعه ، ولا ينقذه من ذلك إلا أولئك المخلصون من أمثال أنتونيو ساندوفال الذين تهذبت أرواحهم وتطهرت قلوبهم بفضله هو نفسه .

وماريسيلا نموذج طيب لما يمثله العمل الحضارى القائم على التربية الصحيحة فى تحويل هذه المخلوقة الجميلة المتوحشة إلى امرأة طيبة صالحة . إنها قبل كل شيء ثمرة ارتباط غير شرعى بين رجل ذهب عقله وانحطت أخلاقه وامرأة مشئومة خبيثة . هى ساذجة بسيطة حقًا كالطبيعة ، ولكن فيها ما يثير القلق والتوجس تمامًا مثلما يكمن فى مظاهر الطبيعة الهائلة الرهيبة . صحيح أنها استجابت لجهود سانتوس فى تهذيبها وتربيتها ، ولكنها تبدو كما لو كان معين رقة العاطفة وحنان المشاعر قد نضب فى أعماق روحها . وسانتوس يلاحظ ذلك فى معاملتها لأبيها ، تلك المعاملة التى كانت تخلو من كل ما يمكن أن يشف عن رقة أو برٍّ حقيقى خالص . ولكن عودة الفتاة مع أبيها إلى مرج النخيل ووقوعهما من جديد تحت رحمة الأمريكى المغامر « مستر دينجر» ينبه فى نفسها شعورًا جديدًا لم تعرفه من قبل : إن معاناة الألم تفجر فى روحها ينبوع الرقة والبر ، وتلقى الضياء على ذلك الركن الذى كان ما يزال غارقًا فى الظلمات من أركان نفسها .

ومستر دينجر شخصية جديرة بأن نقف عندها وقفة قصيرة ، فهى التى تمثل فى الرواية رمزًا للاستعمار الأمريكى الذى يسيطر على أمريكا اللاتينية ، ويحول بينها وبين كل تقدم ورخاء . وقد أبدع رومولو جاييجوس رسم شخصية هذا المغامر الأمريكى «الرجل الذى لا وطن له » . إنه صائد نمور وتماسيح قدم إلى هذه الأرض التى يسكنها قوم هم فى نظره أدنى منه فى درجات البشرية ؛ لأنهم لم يكونوا مثله شقر الشعور زرق العيون ، ولكن الناس هناك فى طيبة وسذاجة يفتحون له كل الأبواب ، ويقبلون عليه منتظرين

أنهار الدولارات التي كانوا يأملون أن تتفجر على يديه في تلك السهول . إلا أن الأمريكي الأفاق لم يفعل أكثر من أنه أقام مسكنه في أرض لم يستأذن على أهلها ، ثم تحالف مع السيدة باربارا تحالف مصلحة .. تمامًا كما نرى من تحالف السلطات الإقطاعية الحاكمة في كثير من بلاد أمريكا اللاتينية مع الاستعمار الأمريكي. وهو لا يفتأ يرسل إلى لورنثو باركيرو زجاجات البراندي والخمر الرخيصة من أجل تفتيت إرادته والقضاء على البقية الباقية من شخصيته ... تمامًا كما نرى في كثير من برامج « المعونة » الأمريكية التي « تغدقها » الولايات المتحدة على نفر من ساسة أمريكا اللاتينية الدائرين في فلكها . ولا يمضي قليل حتى يعتبر مستر دينجر نفسه مالكا للأرض التي احتلها ، ذا « حقوق » فيها لا تقبل مناقشة . وكل هذا شيء لا نحتاج إلى أن نضرب عليه أمثلة حية من واقع أمريكا اللاتينية اليوم في علاقاتها « بالأخت الكبرى » التي تجاورها في الشمال .

ويقدم لنا رومولو جاييجوس صورة للحكومات الفاسدة التي تحكم كثيراً من شعوب القارة : لنر مثلا شخصية السيد بير ناليتي الذي يطلق عليه مرء وسوه لقب الجنرال تطوعًا وملقًا ، إنه ليس إلا قاطع طريق أبلغه الفساد المنتشر هناك إلى منصب الحاكم المدني للإقليم ، وهو رجل فظ مستبد بطبعه لايجد بأسًا في قبول الرشوة من السيدة باربارا وصديقها مستر دينجر ، وهو حاكم بأمره لايقبل أن تكون آراؤه محلا لأي اعتراض بل مناقشة ، وهو يجري العدالة على صورة غريبة يطلق هو عليها تعبير «وضع النقط على الألفات » ؛ إذ إنه إذا عرضت قضية فإنه ينزل إلى الشارع ، فيسأل ويتحرى عمن هو المحق ومن المخطئ - هكذا يقول - ثم يأتي إلى مكتب قاضي المنطقة، فيقول للسيد الجالس إليه: إن المحق هو فلان ، فأصدر الحكم على الفور في صالحه !

هكذا يطبق العدالة هؤلاء الحكام المدنيون الذين عرض لنا رومولو جاييجوس صورة لهم في سخرية لاذعة مريرة .

وللسيد بير نالـــيتى مرءوس هو أحيانا سكرتير له ، فإذا غضب عليه عينه «قاضيًـا» ... هكذا بجرة قلم ! وموخيكيـتا هذا نموذج طريف للبيـروقراطية فى أمريكا اللاتينيـة . إنه شاب ترك كلية الحقـوق بعد أن أمضى فيـها سنة واحدة ، وهو يعمل موظفًا فى الحكم المدنى ويدير فى الوقت نفسـه مشربًا متواضعًا . إنه صـورة لهؤلاء الموظفين الصـغـار المساكين الذين يصـب عليهم رؤسـاؤهـم من أمثـال بيرناليتى ألوانًا من الإذلال والإهـانة كلما حاولوا أن يدافـعوا عن حق أو يهرعوا لنصــــرة مظلوم ، فالحق أن الرجل طيب خير ، ولكنه عاجز مستضعف لا يملك أمام رئيسه الطاغيـة إلا الخنوع والملق ، بل إننا نراه لا يتورع عن التصريح بأنه لا يبـاشر عملـه فى « المحكمة » ليـقضى بعدل أو لـيرد حقًـا إلى أهله ، بل ليهـيئ لأبنائه ما يسـد فراغ بطونهم من الخبـز ؛ إذ إن ما يأتيـه من دخل المشرب لايكفى لسد ذلك الفراغ .

و « محكمة » موخيكيتا نموذج مبك مضحك لفساد الإدارات ، فهى ليست إلا قـاعة قـديمة متـهـالكة البناء قـذرة ، لها باب بلا مـفـتاح ولا مـزلاج ، تعلو كراسيـها طبقة كـثيفة من الغبـار ، مسقوفة بالخـوص والسعف ، وفى ركن من أركانها استقرت دجاجة قد حضنت بيضها ورقدت عليه فى هدوء ! ...

إن رومولو جاييجـوس يصور كل هذا من عيوب بلاده فى صراحـة قاسية وسخـرية جارحـة ، لا للغض من شأن بلـده بطبيـعة الحال ، بل تحـدو به نوازع الإخلاص لهـذا البلد والولاء له . ومن واجبنا أن نقدر هـذه النزاهة فى تصوير تلك العيـوب على النحو الفنى الرائع الذى نراه فى الـرواية . فهو إذ ينتـقد إنما يسعى إلى مـد إصبع الاتهام وإلى بيـان طريق الخلاص . هذه هى مهـمة الأدب الهـادف حـقيـقـة ، وتلك هى رسـالة الأديب الذى يشـعـر بأن لبلده عليـه دينًا يقتضى الأداء .

ولورنثـوباركيـرو نموذج بشرى تتـركز فى صـورته مأسـاة رهيبـة : مأسـاة الشاب الجامعـى المثقف الذى تختلج فى نفسه نزعات الإصـلاح ، ولكن حياته تتعرض لأزمتين لا تلبثان أن تنحدرا بروحه إلى درك من الحيوانية ، يقضى على

كل ما كان معقوداً عليه من آمـال : الأولى مصرع أبيه على أيدى أسرة أخواله ، وحينئذ ترسل إليه أمه ليأخـذ بالثأر ... والاقتصاص باليد دون انتظار لحكم الله أو العدالة هو شر مـا يميز تلك البيئة البدائيـة القبلية التى تعتز بالرجـولة اعتزازاً ينحرف بـها إلى الوحشـية . أمـا الأزمة الثانيـة فهى لقـاؤه بباربارا ووقـوعه فى شـباك غـرامهـا . ونحن نرى فى وصف المراحـل التى مرت بهـا حـياة لورنشـو باركيرو كـما يصورها لنا رومولو جـاييجوس مأسـاة هذا الشاب ، الذى تحول إلى حطام رجل بسبب ظروف هـذه البيئة التى تجـمع بين جمال الفطرة وقـسوة الطبيعـة التى لم تهذبها بعد يد الإنسان المتحـضر . ولعل الصفحات التى كـتبها جاييـجوس فى تحليل شخصـية هذا الرجل من أجمل ما جـادت به يراع كاتب وأوقعه تأثيراً فى النفس .

وفى الرواية بعـد ذلك نماذج أخرى أبدع الكاتب رسـمها : « بـاخاروتى » ذلك التابـع المخلص الأمين ذو الأحاديث الغـريبة المرحة بما فـيهـا من مبـالغات وأكاذيب ، وهو مع ذلك حينما يجد الجد رجل كامل المـــــروءة حق الرجولة ، و « خوان بريميتـو » الأبله المعتوه صاحب النوادر المأثورة . إنه « ترمـومتر » حى لغرائز السيدة باربارا ، فهو مقبـل على أوعيته يملؤها بتلك السوائل الغريبة لكى تشرب منها « طيور الشؤم » ، وهى رمـوز لما كان يضطرب فى نفس سيدته من نزعات الشر . وملكيادس جامارا «الساحر» بما استقر فى نفسه من خبث يكمن تحت ظاهر ناعم لزج ...

ويطول الأمر لو تتـبعنا شخـصيات الرواية بالبحث أو الـتحليل . فلنكتف بهذا القدر ولندع للقـارئ تأمل هذه الشخصيات التى عكس فيـها الكاتب حياة قارته كلها وما يضطرب فيها من أنواع البشر .

وقد ترجمت هذه الرواية إلى معظم لغات العالم ، ولقيت من عناية العلماء والباحثين ما لم يلقه أى إنتاج فنى آخر لأديب من أمريكا اللاتينية ، وعكف عليها الدارسون من بلاد القارة وفى الخارج حيث تعتبر من أعظم الأعمال الأدبية على المستوى العالمى .

كذلك خرجت قصة السيدة باربارا إلى السينما منذ عدة سنوات . ويجرى إعدادها من جديد لرواية سينمائية تضطلع فيها بدور السيدة باربارا الممثلة المكسيكية القديرة ماريا فيلكس Maria Félix ، وستتضافر جهود الفنيين فى إسبانيا وفنزويلا وعدد من بلاد أمريكا اللاتينية الأخرى لهذه « الطبعة الجديدة » من تلك الرواية التى يتنبأ لها الجميع بنجاح عظيم(*) .

وقد حرصت فى ترجمة النص على التزام الدقة فيه والمحافظة عليه بقدر ما وسعت معرفتى ، ولا أكتم أن ذلك كلفنى جهداً كبيراً ، ولاسيما فى ترجمة التعابير التى تتميز بها إسبانية أمريكا اللاتينية عامة وفنزويلا بوجه خاص ، مما لم تذكره معاجم اللغة الإسبانية التى يصدرها المجمع اللغوى الملكى فى مدريد.

وأنا أنتهز هذه الفرصة لكى أوجه خالص شكرى على المعونة الكريمة التى لقيتها من الأديبة الكولومبية السيدة مريم إستير أرانجو دى ساليناس فى أثناء قيامى بالترجمة من توضيح بعض ما غمض على من عبارات الرواية .

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفقت إلى خدمة قراء العربية إذ أقدم إليهم هذا الجهد المتواضع ، مطلعاً إياهم على هذه الصفحة البديعة من أدب أمريكا اللاتينية .

وبالله الاستعانة ومنه التوفيق .

محمود على مكى

(*) تم بالفعل إنتاج هذا الفيلم ببطولة ماريا فيلكس ، وحظى بما كان يتوقع له من نجاح عظيم .

ثبت بالمراجع

التي تناولت الكاتب الفنزويلي رومولو جاييجوس وانتاجه الأدبي بالدراسة أو التحليل

في هذه القائمة سنورد عناوين أهم البحوث التي كتبت عن رومولو جاييجوس ومظانها .

أما في المكتبة العربية فلا يعرف عنه إلا بعض بحوث سبق أن نشرتها في بعض المجلات الأدبية أذكر منها :

« رد اعتبار » (قصة قصيرة بقلم رومولو جاييجوس) في « المجلة » العدد ٨٣ - نوفمبر سنة ١٩٦٣ ص ٧٥ - ٨١ .

« الفن القصصي في أدب أمريكا اللاتينية » (دراسة عامة) في « المجلة » العدد ٩٣ ، سبتمبر ١٩٦٤ ص ٧٢ - ٨٧ (وقد أفردت بعض فقرات هذا المقال للحديث عن رومولو جاييجوس - ص ٨٥ - ٨٦)

«كنايما » (عرض وتلخيص لهذه الرواية) في مجلة « المعرفة » التي تصدر في دمشق ، عدد أبريل سنة ١٩٦٤ .

وفيما يلي بيان بالمراجع الأوربية والأمريكية :

R. Angarita Arvelo: Historia y critica de la novela en Venzuela, Berlin, 1938.

(موضوع هذا الكتاب : تاريخ نقدي لفن الرواية في فنزويلا)

Mariano Picón - Salas : Formación y proceso de la literatura venezolana, Caracas, 1940.

(نشأة الأدب الفنزويلي وتطوره)

Arturo Torres Rioseco : Grandes novelistas de América Hispana.

(كبار رواد القصة في أمريكا الناطقة بالإسبانية ، والفصل الخاص بروموليو جاييجوس يقع في هذا الكتاب بين صفحتي ٤٣ و ٧٦) .

Felipe Massiani : El hombre y la naturaleza venezolana en Rómulo Gallegos, Caracas, 1943.

(الرجل والطبيعة الفنزويلية في أدب رومولو جاييجوس)

Raúl Ramos Calles : Los personajes de Rómulo Gallegos a través del psicoanálisis, Caracas, 1947.

(شخصيات رومولو جاييجوس من خلال التحليل النفسي)

Andrés Iduarte : Veinte años con Rómulo Gallegos, Méjico, 1954.

(عشرون سنة مع رومولو جاييجوس)

Ulrich Leo : Rómulo Gallegos. Estudio sobre el arte de novelar, Méjico, 1954.

(رومولو جاييجوس : دراسة حول فن التأليف القصصي)

Orlando Araujo : Lengua y creación en la obra de Rómulo Gallegos, Buenos Aires, 1955.

(اللغة والإبداع في الإنتاج الأدبي لرومولو جاييجوس)

Lowell Dunham : Rómulo Gallegos, Vida y obra, Méjico, 1957.

(رومولو جاييجوس ، حياته وأدبه)

Arturo Uslar Pietri : Letras y nombres de Venezuela, Méjico, 1948.

(أدب ورجال من فنزويلا)

José Vila Selma : Procedimientos y técnicas en Rómulo Gallegos, Sevilla, 1954.

(طرق التعبير والصياغة لدى رومولو جاييجوس)

John E. Englekirk : Doña Bárbara, legend of the Llano, 31, Hispania, 1948, pp. 259-270.

(السيدة باربارا : أسطورة السهول)

John A. Crow : The Essays of Rómulo Gallegos, Hispania, 38, 1955, pp. 35-40.

(مقالات رومولو جاييجوس)

Angel Valbuena Briones : Literatura hispano americana, Barcelona, 1962.

(أدب أمـريكا الناطقـة بالإسـبانيـة - في هذا الكتـاب بحث جـيـد مفـرد لرومولوجاييجوس يقع ما بين صفحتى ٣٥٠ و ٣٦٤).

E. Anderson Imbert: Historia de la literatura hispano americana, México, 1961.

(تاريخ الأدب الأمريكى الإسبانى - انظر بصفـــة خـــاصة الجـزء الثانى ص ١١ ، ٨٤ - ٨٦ ، ٢٥٠).

ثبت بأهم شخصيات الرواية
كما وردت أسماؤهم في الأصل

Santos Luzardo	سانتوس لوثاردو
Doña Bárbara	السيدة باربارا
Melquíades Gamarra	ملكيادس جامارا
(El Brujeador)	(المعروف بلقب الساحر)
Marisela	ماريسيلا
Lorenzo Barquero	لورنثو باركيرو
Antonio Sandoval	أنتونيو ساندوفال
Juan Palacios (Pajarote)	خوان بالاثيوس (الملقب بـ « باخاروتى »)
María Nieves	ماريانييبس
Venancio	فنانثيو
Balbino Paiba	بالبينو بايبا
Carmelito López	كارمليتولوبث
Coronel Apolinar	الكولونيل أبو لينار
Guillermo Danger	مستر وليم دنجر
(Mister Peligro)	(جير مو دينجر)
Ño Pernalete	السيد بيرناليتى
Juan Primito	خوان بريميتو
Mujiquita	موخيكيتا

القسم الأول

الفصل الأول

مع من تذهب ؟

قارب يشق مياه « الأراوكا » مصعداً فيه محاذيًا لضفة النهر اليمنى متجنبًا ما يحف بها من صخور ...

واثنان من الملاحين يدفعان به إلى الأمام فى مشقة وعسر ، وكأنهما قد فقدا الحساسية تحت حرارة الشمس التى تصهر الأجسام ، وإن كان جسداهما البرنزيان العاريان - إلا من سراويل قصيرة قذرة قد شمراها عن أفخاذهما - قد نضحا بالعرق الغزير ، وهما يستعينان فى تسيير القارب بمجاذيف طويلة يغرسانها فى قاع النهر ، ويتكئان على أطرافها العليا بأضلاعهما القوية الصلبة ، وهما فى حركة دائمة على القارب من رأسه إلى مؤخرته ، فى خطوات بطيئة متثاقلة ، وبين الحين والحين يتبادلان حديثًا متقطعًا يخفف عنهما ما يلاقيان من نصب ، أو ترتفع عقيرة أحدهما بعد زفرة عميقة بأغنية حزينة تتحدث عما يقاسيه هؤلاء الملاحون فى عملهم اليومى من جهد وعناء : أميال وأميال من السفر على ظهر مركبهم الخشبى الذى لا يتحرك إلا بتلك المجاذيف ، وكأنهم يدفعونه بأذرعتهم دفعًا ، متسللين به ما بين الأدغال الكثيفة التى تحف جنبات النهر .

وفى مقدمة المركب يجلس القبطان العجوز الذى حنكته التجارب فى تصعيده وتصويبه فى أنهار السهول المحيطة بنهر « أبورى » وقنواته ، ويمينه على تروس عجلة القيادة ، وهو يتطلع إلى مجرى النهر فى انتباه وحذر ، حرصًا على تجنب المساقط المائية التى كثيراً ما تعترض تياره بين الأدغال المتكاثفة ، أو خوفًا من حركة مفاجئة تهز الماء بعنف منبئة عن وجود تمساح قريب متربص .

وكان فى القارب اثنان من الركاب ، أما أولهما - وكان يستلقى تحت مظلة القماش التى تغطى المركب - فشاب قوى البنية وإن لم يبد رياضى القوام ، تدل قسمات وجهه المعبرة على قوة الشكيمة ، وتضفى عليها مظهراً من النبل والكبرياء ، غير أن زيه وهيئته يدلان على أنه غريب عن هذه المنطقة قادم إليها من المدينة ، يبدو ذلك فى حرصه على نظافة ملبسه وأناقته وعنايته بمظهره ، وكانت نظراته إلى ما يحيط به تبدو كما لو كانت تعبر عن شعورين متضاربين يصطرعان فى أعماق روحه ، إذ كانت عيناه تلتمعان حينًا ببريق من الحماسة ، وتطل منهما قوة العزيمة وصلابتها وهو يتأمل المنظر الذى يطالعه ، ثم لا يلبث أن ينطفئ ذلك البريق ، ويتجهم وجهه ، وتسوده سحابة قاتمة تنم عن الضيق والضجر .

أما رفيقه فى الرحلة فقد كان واحداً من هؤلاء الرجال الذين لا يخلو أن يلتقى بهم السائر فى هذه الجهات ، ذا ملامح أسيوية مغولية ، تلقى فى الروع أنه ينحدر من سلالة تترية لايدرى متى ولا كيف حلت فى هذا الصقع من القارة الأمريكية ، كانت قسمات وجهه قاتمة تدل على القسوة ، وتثير القلق والخوف ، مختلفة عن ملامح قاطنى هذه السهول ، وكان مستلقيا على كساء له بعيداً عن ظل غطاء المركب ، وهو متظاهر بالنوم ، وإن كان القبطان والملاحان يلحظونه خفية دون أن يرفعوا نظرهم عنه .

وكانت الشمس تلقى أشعتها الملتهبة فى هذه الساعة من وقت الظهيرة على مياه نهر « الأراوكا » الصفراء وعلى الأشجار الكثيفة التى تحيط بمجراه ، وضياؤها الساطع يكاد يعمى الأبصار ، وبين الفينة والفينة ينجلى المنظر أمام ركاب القارب من خلال الأدغال الكثيفة ، فيطلان من اليمين على حوض نهر « الأبورى » وما يحيط به من سهول تحفها الحشائش وأشجار النخيل ، ومن اليسار حوض نهر « الأراوكا» وما يمتد على ضفتيه من مراع واسعة يتيه فيها النظر حتى يصطدم بالأفق البعيد ، ولا تكاد تلحظ العين فى هذه المراعى الخضراء إلا عدداً قليلا متناثراً من البقر يسرح بين جنباتها .

كان الصمت الذى يسود المكان عميقًا لا تكاد تعكر من صفوه إلا خطوات الملاحين الرتيبة المثيرة للأعصاب على ظهر المركب ، أو الصوت المنبعث من محارة اتخذها القبطان بوقا له ، وهو بين وقت وآخر يوجه منها نداء مستطيلا أجش كأنه أنين ، فيرسله يتردد فى الأفق البعيد حتى يموت فى قاع هذا الفراغ الأصم ، ولا يكاد القبطان يرسل هذا النداء حتى يتردد من بعيد حول بعض الربى التى تحف النهر نقيق الهوام والجنادب أو هزيم التماسيح المستلقية فى استرخاء تحت أشعة الشمس على ضفاف النهر المهجورة الخالية ، والتماسيح هناك هى ملوك هذا النهر العريض الصامت ، تفرض عليه سلطانها الرهيب .

وكان النهار قد انتصف ، والقيظ يلفح الوجوه بشواظ من نار ، ومن مياه النهر الساخنة التى يشقها المركب تنبعث رائحة تفعم الحواس ... رائحة الطمى والطين الذى يجرفه التيار . ويتوقف الملاحان عن ترديد أغانيهم الرتيبة الحزينة ، ويخيم على الجو كله صمت هائل عميق يعكس فى المشاعر إحساسًا بضعف الإنسان وضآلته أمام عظمة الطبيعة ... إحساس السائر الوحيد التائه فى رمال الصحراء .

وأخيراً ينقطع حبل الصمت على صوت القبطان وهو يقول موجهًا الكلام إلى الراكب المستظل بغطاء المركب ، ومشيراً إلى شجرة ضخمة وارفة على الضفة القريبة .

- ها نحن هؤلاء قد وصلنا إلى شجرة « عصا الماء » . هنا تستطيع ياسيدى أن تتناول غداءك فى ظل هذه الشجرة ، ثم تنال قسطًا من نوم القيلولة .

ويفتح الراكب المغولى الملامح جفنيه المعوجين فى استرخاء ، وقد أيقظته كلمات القبطان ، ثم يقول فى صوت لا يكاد يبين :

- لم يبق إلا قليل ، ونصل إلى « مجاز الخوار » ، وأنا أعرف هناك مكانًا رائعًا هو أصلح للراحة والنوم .

ولكن القبطان يرد فى خشونة وجفاف مشيراً إلى الراكب الآخر :

- إن السيد ، وهو صاحب الأمر والنهى فى المركب ، لايهمه « مجاز الخوار » ولا يريد النزول لديه .

وينظر الرجل إلى القبطان من أطراف عينيه ثم يقول فى صوت لين رقيق لزج كأنه الوحل المحيط بمستنقعات تلك السهول :

- إذن فاعتبرنى ياسيدى القبطان كما لو أنى لم أفتح فمى بكلمة .

وأدار « سانتوس لوثاردو » رأسه إلى هذا الراكب الغريب ، وكأنه لم يكن يشعر بوجوده حتى أفاق على نبرات صوته ... إن هذا الصوت لم يكن غريبًا عليه كل الغرابة، وهو الآن يذكره ويذكر صاحبه .

أما أول مرة التقى فيها بذلك الرجل فقد كانت فى « سان فرناندو » وهو فى أحد مشاربها ، وكان بعض الأجراء من رعاة البقر هناك يتحدثون عن شئون عملهم ، ولاحظ سانتوس لوثاردو أن هذا الرجل كان هناك مع هؤلاء الرعاة ، وأن الذى كان يتحدث لم يكد يراه حتى قطع ما كان فيه من حديث ، وهمس إلى رفاقه قائلا :

- هذا هو الرجل !

وأما المرة الثانية فقد كانت فى أحد الفنادق المتواضعة التى يأوى إليها المسافرون فى الطريق . وكانت أمسية شديدة الحر ألجأت سانتوس لوثاردو إلى الخروج إلى فناء الفندق بحثًا عن نسمة باردة ، وهو يذكر أن عينه لمحت ذلك الرجل فى اجتيازه أحد ممرات الفندق ، وكان يتحدث إلى رفيق له وهما يتأرجحان على كرسيين هزازين ، والتقطت أذناه آخر هذا الحديث :

- إننى لم أفعل شيئًا أكثر من تقريبى الحربة إلى جسده ، وأما مابقى فقد تكفل به القتيل نفسه ، فقد ظل يغرسها فى جسمه قليلا قليلا كما لو كان تواقًا إلى برد الحديد !

وكانت المرة الأخيرة التى رآه فيها فى الليلة السابقة ، وكان سانتوس قد اضطر إلى ترك حصانه فى الموضع الذى يخاض منه إلى نهر « الأراوكا» ، وهكذا لم يجد بدًا من قضاء الليلة فى ذلك الموضع حتى يواصل رحلته فى اليوم التالى على ظهر مركب كان قادمًا إلى هناك ليحمل شحنة من الجلود إلى «سان فرناندو» ، وأنهى سانتوس لوثاردو الاتفاق مع صاحب المركب على أن تقلع فى فجر اليوم التالى ، ثم توجه إلى غرفته ليأخذ قسطًا من النوم ، وهو يذكر أنه سمع حينئذ صاحب ذلك الصوت الغريب وهو يقول لبعض من كان معه :

– اذهب أنت ياصديقى أولا ، وأما أنا فسأرى ما إذا كنت أستطيع أن أجد مكانًا على ظهر هذا المركب .

كانت ثلاث صور واضحة محددة المعالم لمعت فى ذاكرة سانتوس لوثاردو فجأة وهو يسمع صوت الراكب الغريب ، وانتهى من تفكيره إلى نتيجة لم يكن هناك مجال للارتياب فى صحتها : إن هذا الرجل لاشك فى أنه كان يتبع خطواتى منذ خروجى من «سان فرناندو » ، أما ما تظاهر به من الحمى فإنه لم يكن إلا حيلة اصطنعها لكى يرافقنى فى هذه الرحلة على ظهر المركب . كيف لم أتنبه إلى ذلك منذ هذا الصباح ؟ .

وكان الأمر كذلك بالفعل ، فقد كان سانتوس لوثاردو يستعد فى صباح هذا اليوم لبدء رحلته على ظهر المركب ، وكان القبطان يوشك على الإقلاع حينما ظهر ذلك الرجل وهو يرتعد وأسنانه تصطك وقد غطى جسده بملحفة ثقيلة ، وإذا به يستوقف القبطان ويقول له :

– ألا يمكنك ياسيدى أن تؤجر لى مكانًا على ظهر مركبك ؟ فإنى أريد أن أصل اليوم إلى « مجاز الخوار » ، ولكن الحمى التى داهمتنى لم تعد تسمح لى بأن أستقر على ظهر الحصان . إننى مستعد لأن أدفع لك ماتريد .

وألقى القبطان عليه نظرة فاحصة فيها الكثير من التشكك وسوء الظن ، ثم أجاب :

- إننى آسف ياصديقى ، فإن هذا السيد قد استأجره لحسابه ، وهو يريد السفر بمفرده .

ولكن سانتوس لوثاردو تسرع فى هذه اللحظة ولم يفطن لإشارة القبطان وهو يغمز له بعينه ، فأمره بأن يسمح لذلك الرجل بالركوب .

وما إن وصل سانتوس لوثاردو فى تفكيره إلى هذه المرحلة حتى عاد ينظر إلى الرجل فى خفية متفحصًا إياه فى إمعان ويتساءل : ترى ما الذى يدور فى رأس هذا الرجل ؟ أما إن كان الهدف من إرساله يتعقب خطواته هو تدبير كمين لاغتياله فقد سنحت الفرصة لذلك من قبل ، فليس هناك شك فى أن هذا الرجل ليس إلا واحدًا من العصابة التى تحكم فى « ضيعة الرعب » .

ولكن .. لِمَ العجلة ؟ سيتبين كلّ شىء ، وإن غدًا لناظره قريب .

وعزم سانتوس على أن يسبر غور الرجل ، فتعمد أن يرفع صوته وهو يسأل القبطان :

- قل لى ياسيدى القبطان : أتعرف هذه المرأة المشهورة التى يدعونها « السيدة باربارا » والتى طالما يقص الناس عنها فى منطقة « الأبورى » حكايات غريبة ؟ .

وما إن ألقى لوثاردو بسؤاله حتى توقف الملاحان عن التجذيف ، وقد علتهما وجمة مفاجئة وتبادلا نظرات قلقة ؛ وأما القبطان فقد صمت برهة ، ثم أجاب فى اقتضاب بتلك الجملة التى لم تكن إلا تهربًا من الجواب ، والتى كثيرًا ما كان يستخدمها القاطنون لهذه الجهات بما اعتادوا عليه من حذر وتوجس :

- اسمع يافتى ... سأقول لك : إننى أعيش بعيداً عن هذا المكان .

وابتسم لوثاردو فى إشفاق وتقدير للموقف ، غير أنه فى إصراره على استطلاع نوايا الراكب الغريب لم يشأ أن ينهى الحديث دون أن يقول :

- إنهم يقولون عنها أشياء فظيعة ، إذ يذكرون أنها امرأة رهيبة ... زعيمة عصابة من قطاع الطرق لا هم لهم إلا اغتيال كل من يجرؤ على الوقوف فى طريقها خيانة وغدراً .

ولاحظ سانتوس أن يمين القبطان التى كانت على عجلة القيادة قد اضطربت فى حركة عنيفة مفاجئة ، جعلت المركب يثب وثبة قوية على ظهر الماء . بينما أشار أحد الملاحين إلى أن قاع المركب قد اصطدم فيما يبدو بكومة من جذوع الشجر تكدست على مقربة من ضفة النهر اليمنى ، والتفت الملاح إلى لوثاردو وصاح به :

- انظر ... لقد كنت تريد إطلاق النار على التماسيح ، فها قد سنحت لك الفرصة، وها أنت ذا ترى هناك عند رأس الشاطئ المقابل عدداً منها .

وابتسم لوثاردو ابتسامة العاذر المقدر للموقف ، ثم نهض وصوب بندقيته التى كان يحملها معه ، وأطلق النار ، ولكنه لم يصب الهدف ، واندفعت التماسيح الضخمة منحدرة إلى الماء وهى تثير حولها زوبعة من الزبد .

وكان الرجل الغريب رفيق سانتوس لوثاردو فى الرحلة قد ظل طول هذا الوقت صامتًا لا ينبس بكلمة ، غير أنه حين رأى التماسيح تغوص تحت الماء دون أن تتعرض لسوء ، لم يتمالك نفسه من التعليق بصوت لا يكاد يسمع ، بينما ارتسمت على شفتيه ابتسامة خفيفة ساخرة لمعت خلال الشعر الكثيف الذى كان يغطى وجهه :

- حشرات وثبت إلى الماء حية متحركة الذيول ... لم يصب منها واحد !

وكان القبطان وحده هو الذى استطاع فهم ماكان يرمي إليه هذا الرجل بتلك الكلمات ، فبقى يصعد نظره فيه ويصوبه كأنما كان يريد أن يزن ماقصد الرجل الغامض المشئوم بتعليقه ، ولكن هذا لم يحرك ساكنًا ، متظاهراً بالانصراف إلى شأنه، ثم تمطى وتثاءب فى بطء وتثاقل ، وقال بعد أن أصلح من ثيابه وهيئته :

– حسنًا . لقد وصلنا إلى شجرة « عصا الماء »(*) ، وقد تصبب من جسمى العرق بما فيه الكفاية لشفائى من الحمى ، ومن أسف أنها قد فارقتنى سريعًا ، فما كان ألذ هذه الحمى !

أما لوثاردو فقد كان مخلدًا إلى صمت عميق وقد أظلم وجهه ، بينما كان المركب يرسى فى الموضع الذى اختاره القبطان لوقوفه حتى يأخذ الركب قسطًا من الراحة .

ونزل الجميع إلى الأرض ، ودق الملاحان وتدًا ضخمًا فى رمال الشاطئ وربطا إليه المركب ، أما الرجل الغريب فقد مضى قدمًا مخترقا الأعشاب والأشجار المتكاثفة على الجبل ، وظل لوثاردو صامتًا حتى ابتعد الرجل ، ثم اتجه إلى القبطان يسأله :

– أتعرف هذا الرجل ؟

– أما معرفته حق المعرفة فلا ؛ إذ إن هذه هى أول مرة ألتقى فيها به ، ولكنى أظن حسبما أسمع هنا من حديث أهل السهول ووصفهم إياه أنه لابد أن يكون الرجل الذى يطلقون عليه اسم « الساحر » .

وأضاف إلى ذلك أحد الملاحين :

– وإنك لعلى حق ياسيدى القبطان . نعم إنه هو هذا الرجل .

وعاد لوثاردو إلى التساؤل :

– وهذا « الساحر » أى نوع من الرجال هو ؟

فأجاب القبطان :

– لست أجيبك عن هذا السؤال ، ولكن ظن به أسوأ الظنون ، فإنك لن تخطئ أو تبالغ . إنه رجل ليس من أهل هذه البقاع الأصليين ، هو أجنبى كما نسميه هنا ، ويقولون عنه إنه كان قاطع طريق فى جبل « سان كاميلو » ، ثم نزل

عن ذلك الجبل منذ سنوات ، وما زال يتنقل فى مختلف قرى حوض « الأراوكا» حتى انتهى إلى إقطاع السيدة باربارا حيث يعمل الآن ، وقد صدق فيه وفيها المثل الذى يقول : الله يخلقهم ، ثم إن الشيطان هو الذى يتكفل بضم بعضهم إلى بعض . وأما اللقب الذى يطلقونه عليه وهو « الساحر » فإنه يرجع إلى ما يقولون إنه مهنته ، فهو « يسحر » الخيل ، ولايخلو فمه أبدًا من عبارات غريبة يزعمون هنا أنها رقى ناجعة تخرج الدود من أجسام البقر وغيرها من الماشية . على أنى أعتقد أن عمله الحقيقى ليس من ذلك فى شىء ، بل هو ما عرضت أنت نفسك به حينما كاد حديثك يؤدى بى إلى التسبب فى اصطدام المركب، ويكفى أن أقول لك إنه يعتبر حارس السيدة باربارا وحامى ظهرها المفضل .

- إذن لم أكن مخطئًا فيما قلت .

- لا ... لم تكن مخطئًا ، غير أنك أخطأت إذ سمحت بأن يرافقك فى رحلتك مثل هذا الرجل . واسمح لى ياسيدى بأن أوجه إليك نصيحة قد تنفعك فى المستقبل ، فإنك مازلت فى مقتبل شبابك ، ويبدو عليك أنك غريب عن هذه الناحية : لاتعد أبدًا إلى قبول رفقة أحد لا تعرفه كما تعرف راحة يدك ، وما دمت قد أبحت لنفسى أن أوجه إليك نصيحة فلا بأس فى أن أتبعها بأخرى ، وما لى فى ذلك من غرض ولامصلحة إلا أننى أجدك خفيفًا على قلبى ، وقد توسمت فيك الخير منذ رأيتك ، ونصيحتى إليك هى أن تأخذ حذرك من السيدة باربارا . إنك متوجه إلى ضيعة « ألتاميرا» ، ومعنى ذلك أنك ستستقر فيما يعتبر ميدان عملها ومجال نفوذها . ولست أرى الآن بأسًا فى أن أحدثك ببعض ما أعرفه عنها : إنها امرأة غررت بكثير من الرجال ، فإذا استعصى رجل على معسول كلامها وطيب ظاهرها فإنه لا يلبث أن ينقاد لها بعد ذلك بشراب مسحور تعده له ، أو برقية تحتال حتى تشدها إلى ثيابه ، فهى - كما يحدثون عنها - خبيرة بكل أعمال السحر والتعاويذ . أما إذا عادت أحدًا ولم يبق مفر من أن تصارحه بالخصومة فإن عينها لا تقر حتى تزيله عن طريقها ، وهنا تعهد إلى هذا « الساحر » بأداء دوره... لقد أشرت أنت إلى

ذلك فى حديثك وإن كنت لا تعرف هذه التفاصيل ، وما بعدت عن الصواب . إننى لا أعرف ما الذى أتيت تنشده فى هذه البقاع ، ولكنى لا أرى بأسًا فى أن أكرر لك النصيحة: سر على حذر ، فإن تلك المرأة لديها مقبرة ! ولتفهم ما أقول.

وكان سانتوس ينصت فى اهتمام إلى كلمات القبطان ، أما هذا فإنه شعر بأنه أطلق لسانه أكثر مما ينبغى ، فتوقف لحظة ثم أضاف أخيرًا وكأنه كان يريد أن يلقى فى روع الفتى شيئًا من الطمأنينة بعد تلك الكلمات المثيرة للقلق والرهبة :

- على أنى كما قلت لك هذا فإنى أقول لك شيئًا آخر : إن كل ما ذكرت ليس إلا ما تلوكه ألسنة الناس هنا ، غير أنه ينبغى ألا تولى كثيرًا من الثقة إلى جميع ما تردده الأفواه ، فسكان السهول هنا كاذبون بالفطرة ، أعترف بذلك وإن لم يكن أمرًا يُعْتَزّ به أو يفخر لأجله ، وهم حتى إذا رووا حقيقة فإنهم ما يزالون يضفون عليها من المبالغة والإغراق ما يحيلها إلى أكذوبة ، ثم إنه ما عليك حتى هذه اللحظة أن تقلق أو تخاف ، فنحن هنا الآن أربعة رجال مسلحون ، فضلا عن عناية الله ترافقنا فى مسيرنا .

وكان لوثاردو يتبادل هذا الحديث مع القبطان على شاطئ النهر دون أن يفطن أحد إلى أن « الساحر » الذى سبقهم إلى النزول كان مختبئًا وراء ربوة قريبة متسمعًا ذلك الحديث كله ، بينما كان يتناول غداءه الذى كان يحمله فى جعبته بهذا البطء والتثاقل اللذى كانت حركاته تتميز بهما .

وكان الملاحان قد فرشا تحت شجرة « عصا الماء » ملحفة لوثاردو ، ووضعا عليها حقيبته الصغيرة التى كان أودعها ما كان يحمل من طعام ، ثم أخرجا من المركب طعامهما ، ولحق بهم القبطان ، وجلس الجميع فى ظل الشجرة الضخمة يتناولون غداءهم البسيط ، بينما كان لوثاردو يحدثهم عن ذكريات صباه فى سهول هذه المنطقة وبين أنهارها وقنواتها .

فلمـا فرغـوا من الطعام أخلـد الجمـيع إلى الصمت ، وكـانت الحرارة قـد بلغت أوج شدتها ، وساد السكون المكان ، لا يعكره إلا ضجيج ارتطام الأمواج بالمركب المشدود إلى رمال الشاطئ .

وكان الإرهاق قـد بلغ مبـلغه من الجمـيع ، فاسـتلقى الملاحان عـلى رمال الشاطئ ، ولم تمض لحظة حتى تعالـى شخيرهما واستغرقـا فى نوم عميق ، أما لوثاردو فقـد أسند ظهره إلى جـذع الشجـرة وقد استـولى على نفسـه الصمت الهائل المتوحش الذى يسود المكان حتى لم يعـد قادراً على مجرد التفكير ، ولم يلبث إلا قليلا حتى غلبه النعاس ، ثم أفاق بعد أن نال نصيبًا من الراحة ، وكان القبطان هو المكلف بالحراسة ، فلم يستيقظ لوثاردو حتى خاطبه القبطان قائلا :

- لقد استغرقت فى النوم طويلا ياسيدى .

ونظر لوثاردو فيما حوله ، فرأى أشعـة الأصيل تؤذن بقرب مغيب الشمس ، وأحس بنسـمـات رطبة تهـب على ميـاه « الأراوكـا » ، وعـاد يرجع النظر إلى أمواج النهر العـريض ، فرآها وقد ملأتها مئـات من النقط السوداء ، لم تكـن إلا معاطف من رءوس التماسيح وغيـرها من حيوانات الماء وهى جامدة لا تتحرك، وقد أخذتها سنة من النعاس ، والأمواج العكرة تعابثها رائحة غادية . وفجأة بدأ يظهر فى وسط النهر رأس تمساح هائل الحجم ، ومـا زال يرتفع حتى بدا جسمه كله طافيا على سطح الماء ، ثم بدأ يحرك فى تثاقل أجفانه التى تغطيها القشور .

وأسرع سانتـوس لوثاردو فشهر بندقيـته ووقف على قدميه بسـرعة وشرع فى التصويب إلى الـتمساح الضخم ، وكـأنه يريد أن يرد اعتبار نفـسه بالإصابة فى هذه المرة ، بعـد أن أخطأ الهـدف فى المرة السـابقـة ، ولكن القـبطان أسـرع بالتدخل .

- لا تطلق النار .

- ولماذا ؟

- لأن ... لأنك لو أصبته فقد يقع علينا انتقام رفيق له ، ولو أنك أخطأت رميه فإن من الممكن أن نتعرض لهجومه ، ثم إن هذا التمساح هو الذى يعرف هنا باسم « أعور مجاز الخوار » الذى لا يثقب الرصاص جسده .

ولكن لوثاردو أصر على أن يطلق النار عليه ، فعاد القبطان يقول له فى تصميم :

- حذار يافتى من أن تتعرض له ، وألق بالا إلى ما أقول .

وفيما هما فى هذا الحديث إذا بهما يلاحظان فجأة شبحًا وراء الربوة ، فاتجهت نظراتهما على صورة آلية إلى هناك ، وإذا بهما يريان « الساحر » متكئًا على جذع شجرة وهو يتصنع النوم .

وترك لوثاردو بندقيته حيث كانت ، وتوجه إلى حيث كان « الساحر » فدار حول الشجرة التى كان مسنداً ظهره إليها ، ثم اتجه إليه بالكلام دون أن يلقى بالا إلى ما كان يتظاهر به من الإغراق فى النوم .

- إذن أنت من هؤلاء الذين يعجبهم التلصص على الناس والتسمع إلى مايدور بينهم من حديث !

وفتح « الساحر » عينيه فى بطء ... تماما كما فعل التمساح الهائل قبل ذلك بلحظات ، وأجاب فى هدوء وبرود :

- لست إلا من هؤلاء الذين يعجبهم أن ينصرفوا إلى أمورهم ويفكروا فيما يهمهم من شئون .

- كم كنت أود أن أعرف ما يدور بتفكيرك وأنت تتصنع النعاس !

- ما أصدق ما قال الله لنا من أن هذه الأرض فسيحة تسعنا جميعًا ، نضرب فى مناكبها دون أن يحتاج أحدنا إلى مضايقة أخيه ، ومع ذلك فإنى أعتذر لك ياسيدى من إسناد ظهرى إلى هذه الشجرة مادام ذلك يسوؤك !

نطق « الساحـر » بهذه العبارة ، ثم نهض ومـضى إلى شجرة أخرى بـعيدة فاستلقى فى ظلها على ظهره مسنداً رأسه على يديه تحت عنقه .

وكـان المشهـد القـصيـر يدور تحت النظرات المتطـلعة التى كـان يوجـهها القبطان والملاحان ، وكانا قد استيقظا بسرعة على صوت لوثاردو و « الساحر »، والناس فى هذه المنطقـة متـعودون على الانتـقال السـريع من النوم العمـيق إلى اليـقظة المفاجـئة ، شـأن كل من اعتـاد النوم بين مـتوقع الأخطار ، وتمتم واحـد منهما :

- يا للخبيث ! ... يواصل نومه فى هدوء ، كما لو لم يكن يحفل بما يمكن أن يتعرض له من أخطار فى هذه المروج !

وتوجه لوثاردو إلى القبطان وقال له :

لنتابع الرحلة حينما تأمر ، لقد نلنا جميعاً نصيبنا من الراحة .

- إذن لنصعد إلى ظهر المركب الآن .

تم تطلع القـبطان إلى « الساحـر » المستلقى على ظهـره وقال له فى لهـجة آمرة :

- كفاك نومًا وانهض ، فنحن متابعون للسير الآن .

ولم يتحرك الرجل من وضعه وقال :

- شكراً ياسيـدى ... شكراً على ماتفضـلت به من دعوتى لمرافقـتكم حتى النهاية ، غير أنى أفضل مواصلة سـفرى على قدمى من هنا ، إذ لست بعيداً عن منزلى ، ولست أسألك كم ينبغى أن أدفع لك لقاء إيصالكم إياى إلى هنا ، فما كان السادة الكرام من أمثالكم ليتقاضوا ثمنا على ذلك من أمثالى من المساكين ، ولكنى أضع نفسى فى خدمتكم . إن اسمى هو « ملكيادس جامارا» وإنى أتمنى لكم جميعًا سفرًا موفقًا .

وكان سانتوس قد توجه إلى المركب ، وأما القبطان فإنه وقف يتبادل بعض الكلمات مع الملاحين فى صوت خفيض ، ثم استوقفهما ، وتوجه بالكلام إلى سانتوس لوثاردو :

- انتظر قليلا . إنى لا أستطيع أن أدع هذا الرجل يتلصص وراءنا فى أدغال الجبل . فإما أن ننتظر حتى يذهب أمامنا ، وإما أن نحمله معنا فى المركب .

وكان « الساحر » قد نصب أذنيه ، والتقط سمعه الحاد كل ما قال القبطان فرفع صوته يقول :

- لا تخف ياسيدى القبطان ، فهأنذا ذاهب قبلكم ، وأشكرك ياسيدى على «التوصيات » التى تفضلت بإعطائها على وما تضمنته من عاطر الثناء ؛ إذ إنى أود أن أقول لك إننى سمعت كل ما وصفتنى به من قبل .

وما إن قال ذلك حتى نهض واقفًا ، ورفع عن الأرض ملحفته وألقى كيسه على كتفه ، كل ذلك فى هدوء كامل . ثم انطلق سائراً فى السهل الواسع الممتد إلى ما وراء الغابات التى تحف ضفة النهر .

أما لوثاردر ورفاقه فقد مضوا إلى مركبهم فصعدوا إليه ، وفك الملاحان الحبل الذى شدا به المركب إلى الوتد، ثم دفعاه إلى الماء ، ووثبا إلى المركب ، وأخذ القبطان مكانه أمام عجلة القيادة ، ثم التفت فجأة إلى لوثاردو وسأله :

- اعذرنى ياسيدى إذ أوجه إليك هذا السؤال : هل أنت رامٍ ماهر ؟

- لقد دلت التجربة لسوء حظى أننى رام قليل التوفيق إلى حد أنك اعترضتنى إذ عزمت على تكرارها ، ومع ذلك فقد كنت أحسن حظًا فى مناسبات أخرى .

وصاح القبطان :

- أترى ؟ لقد صدقت فراستى فيك ، فإنك لست راميًا عاجزًا عن الإصابة، تبين لى ذلك من طريقتك فى تقريب البندقية من وجهك لتسديد الرمية ، ومع ذلك فإن الطلقة أخطأت هدف كتلة التماسيح الطافية بنحو ثلاثة أذرع .

- إن المثل يقول : قد يخطئ الأرنب أمهر الصيادين !

- نعم ، بلا شك ، ولكن الأمر بالنسبة لك مختلف عن ذلك ؛ إذ إنك أخطأت الهدف على الرغم مما أنا متأكد منه من كونك راميًا جيدًا كثير التوفيق. أتعرف لماذا ؟ لأنه كان إلى جوارك شخص لا يريد لك أن تصيب التماسيح ، ولو أنى تركتك تطلق الرصاص فى المرة الثانية لما كنت أسعد حظًا منك فى الأولى .

- الساحر ؟ أليس كذلك ؟ وهل تعتقد ياسيدى القبطان أن ذلك الرجل له حقًا مثل هذه القوة الخارقة للعادة ؟

- إنك ما زلت شابًا ولم تر شيئًا بعد . إن السحر حقيقة لاشك فى وجودها ، ولو أنك عرفت بعض ما حدثونى به عما يقع لهذا الرجل ؟ ... وعلى أية حال فإنى سأقص الخبر عليك حتى تكون على بينة وحذر منه ..

وبصق الرجل مصاصة التبغ التى كان يلوكها بين أسنانه ، واستعد لرواية الخبر حينما قاطعه أحد الملاحين قائلا :

- أو سنذهب وحدنا ياسيدى القبطان ؟

- حقًا ... كيف نسينا ذلك ؟ إنه « عمل » آخر من سحر ذلك الرجل المشئوم قاتله الله . لنعد إلى الشاطئ مرة أخرى .

وعلت الدهشة وجه لوثاردو وتساءل :

- ما الذى حدث ؟

- لقد نسينا « الله » على الشاطئ !

وإذا بالمركب يعود مرة أخرى إلى نفس المكان الذى كان راسيًا فيه منذ قليل ، ومن جديد أعطى القبطان إشارة الإبحار ، ثم رفع صوته متجها بالسؤال إلى الملاحين وهو يمد النبرات فى ترنم :

- مع من نذهب ؟

- مع الله !

صدح بها صوت الملاحين فى نغم واحد مستطيل .

وعقب على ذلك القبطان مترنما :

- ومع العذراء المقدسة !

ثم التفت إلى لوثاردو الذى وقف ينظر إلى ذلك الطقس الغريب يؤديه الرجال الثلاثة فى خشوع كأنهم يصلون فى معبد وقال :

- كان هذا هو مانسيناه عند إقلاعنا من موضع رسو المركب ، فجميع البحارة الذين يشقون أنهار هذه السهول لابد أن يكرروا هذه العبارة ويجهروا بها قبل البدء فى أية رحلة . فالأخطار فى هذه الأنهار كثيرة ، وإذا لم يكن الملاح واثقًا من وجود الله معه فإن الطمأنينة لا تجد سبيلا إلى قلبه ، فالتمساح يمكن أن يطل عليه فى أى لحظة دون أن يشعر باقترابه منه ، وأسماك « الرعاد » و « البرق » و « المنشار » وأسراب القراقير وغيرها من الحيتان الوحشية تستطيع أن تترك الرجل منا ولم يبق منه إلا عظامه فى لحظة واحدة قبل أن تتيح له فرصة التشهد أو الاستغاثة بكرامة الأسماء الثلاثة المقدسة !

وتأمل لوثاردو ما حوله : سهول شاسعة يتيه فيها البصر ، طبيعة هائلة متوحشة ، مروج ليس لها حدود ولا يتنفس فيها إنسان ، أنهار عميقة وحيدة صماء ! ... ما أقل جدوى صرخة الاستغاثة هنا إزاء ضربة واحدة من ذيل تمساح مهاجم ، فى هذه البقاع الهائلة المهجورة ! نعم ، إن هؤلاء الملاحين البسطاء معذورون ، لم يبق لهم إلا الإيمان الساذج البرئ بما فيه من خير وشر يلجأون إليه إذا دهمهم الخطر ، هذا الإيمان الذى يجعلهم يتمسكون بتكرار عبارتهم المعتادة « مع الله ! » ، وإن كان هو الذى يحملهم مع ذلك على أن ينسبوا « كرامات » و « معجزات » خارقة للعادة إلى شخص مثل « الساحر » المشئوم !

« مع الله ! ... »

هكذا عرف سانتوس لوثاردو طقوس الملاحين عند إقدامهم على أية رحلة عبر تلك الأنهار فى منطقة « الأبورى » ، وأمعن لوثاردو التفكير فى حاله هو : إنه يمكن أن يطبق على نفسه هذه العبارة نفسها وهو يبدأ هذه الرحلة إلى عالم مجهول تتوثب فيه من حوله الأخطار .

ما أشبه حاله بحال هؤلاء الملاحين ! ...

ليكن الله معه !

الفصل الثانى

سليل الكونافتشيرو

كـان إقطاع « ألتامـيـرا » يقع فى أكثـر مناطق حـوض « الأراوكا» وعـورة وأقلها سكاناً ، وكانت مـساحته فى أول الأمر تبلغ نحو مائتـى فرسخ فى مثلها فى منطقة تعتبر من أخصب ما يوجد فى تلك السهول وأغناها ، ولهذا فقد كان من الطبيـعى أن يعد المستـحوذ على هذه المساحة الـهائلة من الأراضى من أغنى أهل تلك البقاع .

وقد أسس ذلـك الإقطاع الكبيـر منذ عهـد بعيد « إدواردو لـوثاردو » أحد هؤلاء الرعـاة الرحل ، الذين كانوا - ولا يزالون - يضـربون فى تلك السـهول بقطعانهم باحثين عن المرعى الصالح فى مـروج نهر « الكونافتشى » ، ومتنقلين بينها وبين حوض «الأراوكا » الذى كان أقرب إلى المدن العامرة . أما أبناؤه فقد نشأوا كأبيـهم رعاة خلصا ممن درج الناس هناك على أن يطلقوا عليـهم « حفاة الأقدام الذين يرتدون أفـخر الثياب » ، وتـعاقبت أجيـال أسرة لوثاردو فى هذا الإقطاع ، واستقروا فيه ، وما زالوا بجدهم وعملهم يوسعون رقعته ويضاعفون من ثروته حـتى أصبحت ضـيعـتهم أغنى ضـياع تلك الجـهات ، غيـر أن تكاثر العائلة وتزايد أمـوال أفرادها أدى إلى مالابد منه : وهو تفرقـها وانتشارهـا ، فقد آثر البـعض حيـاة المدن ، فانتـقلوا عن موضـعهم ، وبقى آخـرون تحت سـقوف سعف النخيل محافظين على تلك الحياة القبلية التقليدية بما فيها من خير وشر .

وإذا كانت هذه الحـياة تعتـمد فى الغالب على عـصبيـة الأسرة وتماسكها فـإنها كثـيراً ما تؤدي إلى عكس ذلك من الـتنافر والاختـلاف والنزاع حينما تتـشعب فـروع الأسـرة ويتكاثر أفـرادها ، وكان هذا هـو ما حـدث لأسـرة لوثاردو ؛ إذ

نشبت الخصومة بين أعضائها حتى أدت إلى عواقب وخيمة طبعت على حياتها طابع المأساة الرهيبة .

وكان آخر ملاك إقطاع « ألتاميرا» من هذه العائلة هو « خوسيه دى لوس سانتوس » الذى أراد أن يحافظ على أملاك الأسرة من التفتت والتمزق مما لم يكن منه بد بحكم كثرة عدد الورثة من قرابته ، فآثر أن يشترى من هؤلاء ما كانوا يستحقون من الميراث ، ولم يتمكن من ذلك إلا بعد حياة طويلة من الحرمان والعمل الشاق الذى لا يعرف نصبا ولا كلالا ، فلما مات الرجل ترك ولداً وبنتًا : « خوسيه » و « بانتشيتا» التى تزوجت من رجل يدعى « سباستيان باركيرو » . واتفق الوارثان على تقسيم الأرض فيما بينهما . أما خوسيه فقد احتفظ لنصيبه بالاسم القديم للإقطاع : «ألتاميرا» وأما نصيب البنت فقد تغير وأصبح يحمل اسم زوجها ، ولهذا فقد سمى «الباركيرينيا » نسبة إلى « باركيرو» .

ومنذ أن انقسمت الأرض على هذه الصورة دبت نوازع الخلاف من جديد بين الأخوين ، وكان ذلك بسبب عبارة غامضة المعنى وردت فى وثيقة التقسيم فى معرض تحديد ما يخص كلا من الأخوين ، إذ جاء فيها أن الحد الفاصل بين الملكين هو « مرج النخيل الواقع فى موضع لاتشو سميتا » ، فقد كان كل منهما يؤول النص على أن هذا الموضع ينبغى أن يدخل فى ملكه هو ، ووصل النزاع إلى ساحة القضاء ، وكان من نوع هذه الخصومات الطويلة التى تستنزف موارد المتنازعين ولا تعود بالخير والثروة إلا على عدة أجيال من المحامين ، والغريب أن الخصمين لم يكونا يباليان بأى نفقة فى سبيل كسب القضية من أجل المحصول فى النهاية على قطعة أرض ضئيلة مجدبة لاقيمة لها فى الحقيقة ، كان منطقهما فى ذلك يقوم على العبارة التى كثيراً ما يرددها أهل تلك السهول فى منازعاتهم : « إما أن أكسب الكل أو أفقد الكل ! » منطق العناد الصلب المتعصب الذى لا يعرف من الأمور وسطا .

ولما كان كسب الكل مستحيلا بالنسبة للخصمين ، فقد آثر كلاهما أن يخسر كل شيء ، وهكذا أنفقا على تلك القضية المشئومة ما تقلصت به أراضيهما ، وانتهيا إلى أن يقوم كل منهما من جانبه بتسوير موضع « لا تشو سميتا » متعهدا بألا يمسه حتى تنتهى المحاكم إلى قرار فى النزاع .

ولكن الأمر لم ينته عند ذلك ، فقد كان فى وسط ذلك الموضع قناة قديمة جافة إلا أنها كانت فى فصل الشتاء تحول المكان كله إلى مستنقع بفضل ما كانت تقذفه من الطمى ، ولم يكن يقترب منها أى كائن حى إلا وأغرقته فى أمواجها الرجراجة من الطين والوحل . وفى أحد الأيام بدت على سطحها جثة طافية لبقرة تحمل سمة آل « باركيرو » ، فلم يكن من « خوسيه لوثاردو » إلا أن ذهب إلى صهره يحتج على انتهاكه لتلك الأرض الحرام بدليل جثة تلك البقرة الغارقة فى مستنقعها ، وارتفع لجاج الرجلين وكادا يتماسكان ، واحتد باركيرو فى النقاش ، فرفع خنجراً كبيراً امتدت إليه يده فشهره فى وجه لوثاردو مهدداً ، ولكن هذا أعجله عن العدوان ، فأخرج مسدسه وأطلق عليه رصاصة اخترقت جبهته ، فخر من فوق ظهر حصانه جثة هامدة .

وتتابعت الترات وأعمال الانتقام على صورة رهيبة بين عائلتى باركيرو ولوثاردو حتى كادتا تتفانيان .

وكأن ذلك لم يكن كافيًا ؛ إذ دبت الشحناء والخصومات فى صميم أسرة لوثاردو فى أثناء الحرب التى دارت بين إسبانيا والولايات المتحدة ، وكان خوسيه لوثاردو يعبر دائمًا فى مجالسه عن ولائه « للوطن الأم » - كما كان يقول - باعتبار الدماء الإسبانية التى تجرى فى عروقه ، هذا بينما كان ابنه الأكبر فليكس يعلن تأييده للأمريكيين ويتمنى انتصارهم فى تلك الحرب ، ولم يكن الخلاف فى ذلك بين الأب وابنه إلا رمزاً للصراع الدائم بين جيلين : جيل قديم كان مايزال يذكر الوطن الأول الذى انحدرت منه أصوله ، وجيل جديد مستوطن انقطعت الصلة بينه وبين أرض آبائه ، فلم يعد يؤمن إلا بوطنه الجديد،

ووصلت إلى الضيعة صحف كارا كاس - وكانت لا تصل إلا شهراً بشهر - وفيها أنباء تلك الحرب ووقائعها ، ولم يكد الفتى يقرأ تلك الأخبار - إذ كان الأب قد ضعف بصره حتى لم يعد يقوى على القراءة - حتى ثارت مناقشة حامية عنيفة انتهت بقول العجوز :

- لا بد أن يكون المرء مجنونًا أحمق إذا اعتقد أننا سنخسر الحرب أمام هؤلاء الأوغاد الأمريكيين من باعة شطائر اللحم فى واشنجتون .

وامتقع وجه ابنه فليكس غضبا واضطربت الكلمات على شفتيه وهو يقول:

- أما أن ينتصر الإسبان فى هذه الحرب فهو أمر قد يكون محتملا ، ولكن الذى لا أحتمله هو أن توجه إلى الإهانة دون مبرر يقتضى ذلك .

ونظر إليه الأب فى احتقار من رأسه إلى قدمه ، ثم أطلق ضحكة عالية ساخرة ، وفقد الفتى أعصابه ، فامتدت يده بغير شعور إلى المسدس الذى كان يحمله فى نطاقه، وجفت الضحكة على فم الأب فجأة ، ثم توجه بالخطاب إلى ابنه فى هدوء وبطء دون أن يتحرك من مقعده ، وإن كان قد ارتسم على وجهه تعبير وحشى رهيب :

- أطلق النار عَلَىَّ إن كنت رجلا حقًا ، ولكنى أقسم لك أنك إذا أخطأتنى فلأصلبنك على هذا الحائط بعد أن أنفذ فى صدرك حربة !

وكان هذا يدور فى البيت الريفى القائم وسط الضيعة ، وذلك بعد تناول طعام الغداء بقليل ، وكانت الأسرة مجتمعة فى قاعة الجلوس حول المصباح المنصوب على المائدة . واكفهرت وجوه الحاضرين ، وأسرعت السيدة أسونثيون زوجة خوسيه لوثاردو، فوقفت تحول بين زوجها وابنها .

إن سانتوس لوثاردو يذكر هذا المشهد كما لو كان بالأمس ، وكان يبلغ فى ذلك الوقت أربعة عشر عاما وهو يستعيد المنظر فى ذاكرته ويرى نفسه وقد

شلت حركتـه إزاء رهبة الموقف بين أبيه وأخيـه الأكبر ، وقد كاد الأمـر يتحول إلى كارثة .

وهو يذكر أن فليكس رد مسدسه إلى حزامـه ، ولعله ندم فى هذه اللحظة على ما تسرع به إزاء والده ، أو ربما رد عقله إليه فى هذه الساعة ما قابله به أبوه من هدوء الأعصـاب ورباطة الجأش ، ومن يدرى ؟ فلعله جبن وخـاف إذ كان يعلم أن أباه كان جاداً فيما قـال ، وأنه لم يكن ليعدل عن توقيع ما أوعده به من العقاب لو أنه أخطأ الهدف .

وعلى أية حـال فإن فليكس غـادر القاعـة فى تلك اللحظة ، ثم توجه بـعد ذلك إلى الحظيـرة ، فأسـرج حصانـه وقد عزم علـى مغادرة بيـت أبيه إلى غـير رجعـة ، ولـم تفلح أمه بإلحاحـها فى الرجاء ولا بدمـوعها الحـزينة فى أن تحمله على العدول عما استقرت عليه عزيمـته ، أما الأب فإنه لم يتحول عن موضعه ، وثبت نظارته على عينيـه ومضى يقرأ صـحيفتـه كأن شيئًـا لـم يحدث ، على أن أنباء الصـحيـفة لم تكن لتلقى فى نفـسه سروراً ولا تفـاؤلا ، فقـد كانت تروى تفاصيل الهزيمة المنكرة التى أوقعها الأمريكيون بالقوات الإسبانية فى «كابيتى»(*) .

أما فليكس فـإنه لـم يكتف بترك دار أبيه مغـاضباً إياه ، بل لجأ إلـى خصوم أسرته من عـائلة باركيـرو ليعيش فى كنفـهم ويؤيدهم فى تلك الحرب الدامـية التى كانت مستعرة بينهم وبين أسرة أبيــه، والتى كــانت تهيج لهيبهـــا عمته « بانتشيتا » زوجة سباستـيان باركيرو . وكانت سلطات الأمن تغمض عيونها عن تلك الحرب الطاحنة؛ إذ كانت تدرك مدى عجزها عن وقف تلك المجزرة ، فقد كانت أسرتا لوثاردو وباركـيرو تتقاسمان السيطرة عـلى حوض نهر الأراوكا ، وتفرضان عـلى تلك الأراضى الشاسعة سلطتـهما الإقطاعيـة التى لم يكن أمام الحكومة إزاءها إلا التجاهل والاستسلام .

واستمرت الحرب على أشدها بين الأسرتين بعد لجوء فليكس لوثاردو إلى خصـوم أبيه ، وسـقط فى الأعمال الانـتقامـية التى كـان الطرفان يرتكبـانها مع

معظم أفراد الأسرتين ، حتى كان ذلك الحادث المشئوم الذى راح ضحيته فليكس لوثاردو .

كانت ليلة من تلك الليالى التى يجتمع فيها أهل القرية لمشاهدة صراع الديكة ، وكان فليكس قد علم بأن أباه حاضر ذلك المشهد ، فعزم على استثارته واستفزازه بتحريض من ابن عمته « لورنثو باركيرو » ، وكان قد أفرط ليلتها فى الشراب ، فما إن بدأ العرض حتى وثب فليكس إلى الحلبة المعدة للصراع وقد حمل بين يديه ديكا ، وأقبل يصيح :

– ها هو ذا ديك من « بورتوريكو »(*) – من بلد صغير أصبح تابعًا للولايات المتحدة – وأنا أتحدى من يأتى له بديك إسبانى يقف فى وجهه ، ولم آت بديك أمريكى لأنى أعرف أنه لن يجد فى ديوك إسبانيا كلها ما يصلح أن يكون كفئًا له !

وكانت الحرب بين الولايات المتحدة وإسبانيا قد انتهت كما كان لابد أن تنتهى : بانتصار الأمريكيين أصحاب القوة والعدد ، ولم يفه فيلكس بجملته هذه إلا شماتة بأبيه وإمعانًا فى إغاظته والسخرية منه ، ولم يملك الرجل نفسه ، فوثب إلى الحلبة وفى يده سكين كبير أراد أن يعاقب به ابنه على تلك الإهانة الوقحة ، وامتدت يد الابن إلى مسدسه ، على أن أباه كان أسرع منه ، إذ أخرج مسدسه ولم يتردد فى إطلاقه على الولد العاق .

وفى هذه الليلة عاد الأب بعد لحظات إلى داره وقد أظلم وجهه وتحطم كيانه ، وبدا كما لو كانت السن قد تقدمت به سنوات ، وكان أول ما قاله لامرأته :

– لقد قتلت فليكس الآن ... وهم سيأتون إليك بجسده !

ثم أسرج حصانه ، وخرج إلى البيت الريفى حيث وقع أول مشاهد هذه المأساة بينه وبين ولده الأكبر ، ودخل إلى القاعة بعد أن أمر ألا يزعجه أحد ، ثم خلع عن حزامه الحربة القصيرة التى كانت معلقة به ، وأغمدها بقوة إلى

مقبضها فى الحائط الخشبى الذى كان قد أنذر ابنه بأن يصلبه إليه فى ذلك اليوم المشئوم الذى جرى فيه النقاش بينهما ، ويقول الناس هناك إن خوسيه لوثاردو كان يعتبر ذلك اليوم هو تاريخ مصرع ابنه الحقيقى ، وإنه ظل مشدودًا إلى مقعده وهو شاخص بعينيه إلى الحربة الغائصة فى الحائط ، كأنه يرى فى نظره الدائم إلى ذلك المشهد تذكيرا دائمًا له بقتله ابنه وإشعارًا له بقسوة الجريمة التى ارتكبها وعقابًا لنفسه على ما فعل .

ومضت عدة أيام ، والرجل لا يتحول عن موضعه على مقعده ، ونظره مثبت إلى الحربة ، وعيناه لا تكادان تطرفان وقد تعودتا النظر فى ظلام الليل .. مضت الأيام دون أن يتناول الرجل طعامًا ولا شرابًا وهو ينتظر الموت الذى حكم على نفسه به تكفيرًا عن جريمته ، وهناك وجده أهله بعد أيام ، وقد تصلب جسده الميت على المقعد . ونظره معلق بالحائط مفتوح الحدقتين فى تعبير رهيب مخيف .

وحينما وصلت سلطات الأمن للتحقيق - أو بتعبير أصح لتمثيل المهزلة المعروفة - لم يكن هنالك حاجة لتَحَرٍّ أو بحث ، ويقول الناس إن إغلاق عينى الرجل الشاخصتين إلى الحائط قدَ اقتضى من أهله مجهودًا كبيرًا قبل أن يسوقوا جسده إلى مثواه الأخير .

* * *

ولم تمض عدة أيام على وفاة خوسيه لوثاردو حتى كانت أرملته السيدة أسونثيون قد غادرت الضيعة منتقلة إلى كاراكاس لتقضى فيها مابقى من أيامها ، وقد حملت معها ابنها سانتوس ، الوحيد الذى بقى حيًا بعد تلك المجزرة المتوحشة ، وكانت أمه تريد أن تنقذه من ذلك الجو الرهيب الذى كان يسود السهول وتوفر له بيئة مختلفة بعيدة تنسيه وهو فى غضاضة الصبا ما كان تعاقب على أسرته من مآس مفزعة . وكانت النقلة مفاجئة على نفس الصبى : من بيئة ريفية خشنة تترك على نفوس أهلها طابعًا من القسوة والصرامة وصلابة

المكسـر إلى جو المدينة بما فـيها مـن رخاوة ونعومـة، بين أربعة جـدران فى بيت هادئ حزين ، وإلى جـوار أم محطمة قـد هدت أعصابهـا المصائب المتلاحـقة ، كل ذلك خلف فى نفس الصبى آثاراً هزت شخـصيته هزاً عنيفًـا . فقد كان فى حياته الماضية فى ضيعة أبيه متوقد الذكاء تواقًا إلى الحركة وثاب العزيمة جريء القلب ، وطالما كان أبوه يعـبر عن إعجـابه وافتخاره به حـينما يراه وهو يروض جواداً جموحا ، أو يباشر مختلف الأعمال الخشنة القاسية فى تلك المراعى دون أن يبالى بما يتـعرض له من أخطارها وهو بعد غض الإهاب ، وكـان أبوه يقول فى معرض الفخر به إنه حقًا ابن أبيه وسليل مجيد لأجداد لم يعرف الخوف إلى قلوبهم سبيلا قط، أجداد خلدت أسـماء الكثيرين منهم فى تلك الأرض ، وإن كان الكثيرون منهم قد اشتـهروا بأنهم لم يكونوا أكثر من قطاع طرق ولصوص مواش وسـفاكى دمـاء ، أما الأم فقـد كانت تعلق الكثـير من الآمال عـلى ابنها الأصغَر هذا حـينما تسمعـه يفوه بعبارات تدل على ذكـاء حاد وحس مرهف ، وميل مبكر إلى التفكير العميق والنظرة السديدة الصائبة ، ولكن بيئة المدينة التى انتقل إليـها فجـأة قد أفقـدته بريق شخصـيته الأولى ، فـعاد خائر العـزيمة شارد الذهن ساهم النظرات .

وكانت أمه تنظر إليـه وتقول وهى بعد لم تفارقها تلك التـعابير الجارية بين أهل السهول والمراعى :

- عجـباً لك يـابنى ، لقد تغـيرت طبـاعك حتى إنى لأنظر إليـك ولا أكاد أتعرف عليك ، وكأنك جواد مستأنس خرج إلى السهول فتأبد واستوحش !

وتجيبها صديقاتها وهن يردن أن يدخلن الطمأنينة إلى قلبها :

- إن هذا طبيـعى يحدث للصبـيان فى مثل هذه السن التى يتـحولون فيـها إلى الرجولة ... هذه هى طبيعة النمو والتطور .

وترد هى قائلة :

- بل هو الأثر السيئ الذى تركته فى نفس الصبى المآسى والأهوال التى قاسيناها هناك ...

والواقع أن الرأيين كان لهما نصيبهما من الصواب ، وكان إلى جانب ذلك سبب آخر : هو التحول المفاجئ من بيئة إلى بيئة ؛ إذ لم يكن الصبى معتاداً لهذا الجو المغلق الضيق بعد نشأته فى تلك المراعى الفسيحة التى يمتد فيها الأفق واسعًا عريضًا أمام عينيه ، والريح الحارة الطليقة تلفح وجهه ، والأغنية الخشنة القوية على أفواه الرعاة تصك أذنيه ... حيث الفضاء الهائل الأصم يحيط به ويملك عليه لبه . كان سانتوس لوثاردو أشبه بباقة من الزهرات البرية قد أتى بها من السهول ثم اتخذت مكانها فى سجن من الفخار تذبل فيه قليلا قليلا .

وكثيراً ما كانت السيدة أسونثيون تفاجئ ابنها وقد اعتزل فى حظيرة الدار وهو مستلق على ظهره فوق كوم من التبن والعشب ، وهو مستغرق فى أحلام اليقظة ، وكأنه ثور « معشب » وهو تعبير يطلقه أهل السهول على الثور الذى يلجأ إلى الأعشاب والحشائش فيظل باركا مستترا فيها أيامًا كاملة دون أن يذوق طعامًا ولا شرابًا ، وهو يلقى بين الفينة والفينة خواراً يعبر عن غيظ العاجز المغلوب على أمره ، وذلك حين يلحقون به من التشويه والمثلة ما يفقده ذكورته وينتزع منه زعامة القطيع .

ولكن المدينة تغلبت أخيراً على روح الغلام العصية المتمردة ، ولم يفق سانتوس لوثارود من سحر الحنين إلى بيئته الأولى ويعتد الجو الجديد حتى رأى نفسه وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وهو مع ذلك لم ينل من التعليم قسطًا يزيد بكثير على ما أتى به من حوض الأراوكا ، ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته ؛ إذ سرعان ما صمم على أن يسترجع ما أضاع من عمر وأقبل على دراسته فى جد وعناية .

أما أمه السيدة أسونثيون فإنها لم تقدم على بيع ضيعة « ألتاميرا» على الرغم من الأسباب القوية التى كانت تدفعها إلى كراهية تلك الضيعة وإلى

التفكير فى التخلص منها ومن ذكرياتها السود ، فقد كانت أولاً وأخيراً امرأة تربت وعاشت فى تلك السهول، ولم يكن من اليسير على البيئة المدنية اللينة أن تغير من الطبيعة التى يتميز بها أهل تلك الجهات من صلابة وعناد وتعلق شديد بالأرض التى رأوا فيها النور لأول مرة ، وعلى الرغم من أنها قررت قراراً لا رجعة فيه ألا تعود أبداً إلى « ألتاميرا» فإنها لم تشأ أن تقطع صلتها بهذه الأرض قطعًا باتًا ، ولا سيما أنها رأت ألا مبرر لذلك مادام فى الضيعة وكيل مخلص أمين يقوم على رعاية شئونها ويرسل إليها من ريعها كل شهر ما يكفى نفقاتها ويزيد .

وكانت كثيراً ما تقول لمن يثير أمامها مسألة بيع الضيعة :

- فليبعها سانتوس بعد أن أموت ، أما وأنا حية فلا ...

ولكنها وهى على فراش الموت أوصت ابنها قائلة :

- يابنى ، لا تبع « ألتاميرا » طالما أمكنك أن تحتفظ بها .

أطاع سانتوس وصية أمه ، لا لشىء إلا احترامًا لذكراها ، فاحتفظ بالأرض ، لاسيما وأن ريعها كان يسمح له بأن يسد حاجات حياته المعتدلة المقتصدة ، ولولا ذلك لأقدم فى غير تردد على بيعها ، أما شعور الارتباط بالأرض فقد زال من نفسه . ولم يعد يعنيه كثيراً أن يحتفظ بتلك الأرض التى درج عليها ، بل لم يكن يهمه أن يظل فى وطنه ؛ إذ إن فقد الإحساس الإقليمى لم يلبث أن انتزع من نفسه حتى الشعور بارتباطه بوطنه الأكبر ، وذلك أن تعوده على الحياة فى المدينة وانغماسه فى جوها المتحضر المثقف قد قتل فى نفسه تلك النزعة القديمة إلى حياة المراعى البدائية الطليقة، ولكن هذا الشعور نفسه هو الذى جعله أخيراً لا يرضى عن حياته فى العاصمة ؛ إذ كانت هذه بعيدة عن أن ترضى طموحه . إن كارا كاس لم تكن حينئذ إلا قرية كبيرة ، أكبر قليلا من تلك التى قضى طفولته فيها قبل أن تدمرها الخصومات والمعارك الدموية التى نشبت فى صميم أسرته ، ولكنها قرية على أية حال ، محط

للمغامرين الجشعين الذين كانوا لا يكفون عن القدوم إليها لجمع الثروة والمال على أية صورة . كانت كاراكاس بعيدة عن أن يتجسم فيها المثل الأعلى للمدينة الكاملة ، وكان سانتوس لوثاردو فى مثاليته هذه يعتقد أن مثل هذه المدينة لا يمكن أن توجد إلا فى القارة الأوربية ذات التقاليد العريقة والحضارة المتأصلة ، ومن هنا راودت الفتى فكرة مغادرة بلاده نهائيًا إلى أوربا بمجرد إتمام دراسته الجامعية .

وكان يرى أن أمله هذا يسير التحقيق بفضل الريع الذى تدره عليه الضيعة، فإذا أنهى دراسته باعها واستغل ثمنها فى الانتقال إلى أوربا ؛ حيث يمكنه أن يستثمر ماله فى أعمال البناء بأحد بلادها ؛ إذ كان يقدر أنه لن يكون من السهل عليه أن يباشر مهنته محاميًا فى تلك البلاد . كانت هذه هى الخطة التى رسمها لوثاردو لنفسه ، غير أن الأحوال قد تغيرت فى ذلك الوقت فى « ألتاميرا» ؛ إذ لم يعد فيها ذلك الوكيل الأمين المخلص الذى كان يدبر شئونها على عهد أمه ، « فقد خلفه وكلاء بعيدون عن النزاهة والأمانة استغلوا إهماله لأمر أرضه ؛ إذ كان قد اعتاد على أن يلقى على حساباتها نظرة سريعة عارضة . بينما كانوا ينهبون منهاما وسعهم النهب ، بل إنهم كانوا يدعون ميدانها طليقًا يقتحمه كل لص من لصوص المواشى ، فيسطو على ماحلا له ، وما أكثر ما كان هؤلاء ينتزعون من الضيعة ما كان يرعى فيها من رءوس البقر . فيسمونها بأسمائهم وشارات ضياعهم حتى تصير حقًا لهم لاينازعهم فيه منازع ، ولم ينج من ذلك حتى المواشى الرضيعة ، كل هذا دون أن يحرك أحد فى وجوههم ساكنًا .

ثم بدأت بعد ذلك القضايا والخصومات مع السيدة باربارا صاحبة الضيعة المجاورة ، ولم يمض وقت طويل حتى انتقلت إلى ملكها مساحات واسعة من ضيعة «ألتاميرا» لاببيع ولا شراء ، وإنما بفضل تلك الأحكام الظالمة التى كانت تصدرها محاكم الدولة .

فلما أتم سانتوس دراسته توجه إلى « سان فرناندو » من أجل الاطلاع على ملفات تلك القضايا حتى يرى ما إذا كان من الممكن له أن يستنقد

بعض مافقد ، أو يطالب بما انتزع من أرضه غصبًا وعدوانًا ، ولكنه تبين بعد ترداد النظر فى الأوراق وفحص حيثيات الأحكام التى صدرت فى مصلحة تلك المرأة أنها كانت تتمتع بسلطان هائل كان يذلل أمامها كل العقبات ، وأن هذه الإقطاعية الداهية كانت لاتتورع عن ارتكاب أى عمل يعينها على تحقيق مآربها من رشوة أو تهديد أو اغتصاب مسلح صريح ، كذلك اكتشف أن كل ما استولت عليه من أراضيه وأملاكه إنما كان نتيجة ترتبت على الغموض والاضطراب فى الوثائق التى تثبت ملكية أهله الشرعية فى تلك الأراضى ، وكان ذلك أمرًا طبيعيًا فى الأوقات الماضية التى كانت تلك السهول فيها طعمة سائغة لمن يضع عليها اليد من المغامرين الذين لاخلاق لهم ، والحق أن جده الأعلى إيفارستو المعروف باسم « الكونافتشيرو » لم يكن إلا واحدًا من هؤلاء .

وما إن وصل سانتوس إلى هذه النتيجة حتى رأى ألا فائدة من مواصلة النزاع والمقاضاة ، فقرر بيع الضيعة ، غير أن الأمر لم يكن من اليسر بحيث يعتقد ؛ إذ لم يكن هناك أحد مستعد لأن « يحظى » بجوار السيدة باربارا هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت الثورات المتتابعة التى سادت البلاد قد أفقرت أهل السهول وقللت من عدد القادرين منهم على الشراء ، وهكذا أضاع سانتوس وقتًا طويلا فى البحث عن مشتر يريحه من عناء تلك الضيعة ، وأخيراً تقدم إليه رجل أبدى استعداده للشراء ، ولكنه قال له وهو يفاوضه :

- إن هذه الصفقة لايمكن أن نعقدها هنا ياسيدى الدكتور ؛ إذ يجب عليك أن ترى بعينك ما استحالت إليه « ألتاميرا» . إن مراعى الضيعة قد أقفرت وأجدبت ، ولم يعد فيها من رءوس الماشية إلا قلة مهزولة عجفاء ، من الخير ياسيدى أن تذهب إلى هناك وتنتظرنى ، فأنا ذاهب إلى كاراكاس الآن لأبيع قطيعًا من البقر ، وسأغيب نحو شهر ثم أمر عليك فى « ألتاميرا» ، وهناك يمكننا التحدث فى الأمر على نحو أفضل .

ووافق سانتوس على أن ينتظر الرجل هناك ، وفى نفس اليوم قرر مواصلة السفر إلى « ألتاميرا» .

وعلى طول الطريق تواردت الخواطر على ذهن سانتوس مصطرعة متضاربة وهو يطالع السهول الفسيحة المهجورة . لِمَ لا يعود إلى هذه الأرض ، فيدافع عن حقوقه فيها ويذود عنها أعداءه ؟ لِمَ لَا يجاهد فى سبيل إقرار الحق والقانون والقضاء على السلطان الرهيب المشئوم الذى يباشره هناك الإقطاعيون اللصوص من أمثال السيدة باربارا ؟ لماذا يفر من المعركة ويترك أرضه وأرض غيره بمن فيها وما فيها تحت رحمة قوم ليس فى قلوبهم رحمة ، وطبيعة قاسية تكاد تفنى أهل تلك البقاع ؟ وكأنما لم يكفهم ما يلاقونه من عنت هؤلاء السادة وظلمهم حتى كان عليهم أن يقاسوا ويلات الطبيعة من جو يعين على نشر الأوبئة والأمراض ، وتتعاقب عليه السيول الجارفة المدمرة والجفاف الشديد الذى كثيراً ما يحيل السهول إلى صحراء قاحلة تقف بين أهلها وبين الحضارة سداً مصمتًا منيعًا !

ولكن ذلك كله لم يكن إلا أفكاراً عابرة عارضة لا تكاد تلقى فى نفسه بصيصًا من الأمل والتفاؤل والرغبة فى الصمود حتى تطردها أفكار أخرى يسودها اليأس والتشاؤم :

– نعم . إن كل هذا جميل جدير بأن يكافح من أجله ، ولكنه يحتاج إلى جهود جبارة لا تفى بها إرادة رجل واحد . وما قيمة أن يقضى على نفوذ السيدة باربارا الإقطاعى فى وادى « الأراوكا» إذا كان من المحتمل أن يحل محله نفوذ جديد تحت اسم آخر ؟ إن حجر الأساس هنا ألا قيمة للقضاء على الشر نفسه ، وإنما ينبغى أن تستأصل جذور هذا الشر ، وأن تتغير ظروف الحياة التى يتولد عنها . والسبيل الوحيدة لبلوغ هذه الغاية هى أن تستصلح هذه الأرض بناس تجرى فى عروقهم دماء جديدة ، ولكن كيف يمكن ذلك إلا بعد تطهير الفاسد أولا ؟ ... حلقة مفرغة لا مخرج منها ولا مخلص !

ظلت هذه الأفكار تدور فى خلد سانتوس حتى استطاع حادث صغير تافه أن يغير مجرى الأمور وأن يتجه به إلى أن يستقر على رأى نهائى لا رجعة فيه : كان ذلك هو لقاءه « للساحر » ، وكلمات قبطان المركب وهو يحذره من اعتراض طريق السيدة باربارا ، وينصحه بأن يتجنب الاصطدام بها ، فقد جاء ذلك فى وقت اشتد فيه الصراع الداخلى فى نفسه بين التفكير المتعقل المتزن والعاطفة الحارة المندفعة ، فكان النصر أخيراً لهذه العزيمة التى رأت من العار على رجولته أن يفر من ميدان المعركة ، وهكذا ثارت فى نفسه تلك الإرادة القوية المصممة على الكفاح .

كانت هذه الروح - روح الاندفاع الجرئ - هى الجذوة التى أورثه إياها أجداده من أسرة لوثاردو ممن عرفوا بالتهور والمغامرة ، والتى أدت بعد ذلك إلى ماحل بهم من كوارث ، ولكن الأمر لدى سانتوس كان مختلفًا بعض الشىء ، فقد كان الاندفاع لديه لا من أجل المغامرة فى حد ذاتها ، بل كان من أجل هدف أسمى وأنبل : هو القضاء على نفوذ السيدة باربارا وسلطانها باعتبارها المثل الذى يتجسد فيه الإقطاع بكل ما فيه من شرور وفساد . لم يستقر عزم سانتوس على الصمود من أجل استنقاذ « ألتاميرا» فحسب ، بل لكى يساهم فى مقاتلة تلك العناصر الفاسدة المفسدة التى كانت تحول بين السهول وبين الحضارة والعمران .

وقرر سانتوس أن يلقى بنفسه فى المعمعة بكل ما كانت تمتاز به ذرية «الكونافتشيرو » من إقدام واقتحام للمهالك ، وإن كان يزيد عليهم بما كان يسعى إليه من مثل عليا يأمل تحقيقها فى سبيل خير تلك الأرض ورقيها ...

الفصل الثالث

صائدة الرجال

... من مكان بعيد ... فيما وراء نهر « الكونافتشى » ... فيما وراء «الثيناروكو» ... فيما وراء « الميتا » ... من أبعد مكان يمكن تصوره في الوجود ! هكذا كانوا يقولون عنها فى سهول نهر « الأراوكا » على الرغم من أن المسافات لم تكن تعنى عندهم شيئًا بحكم تعودهم على انبساط الأرض أمامهم وانفساح رقعتها فى وجوههم ، حتى إنهم كثيراً ما يسألون عن مكان يعتبر فى نظر غيرهم من الناس بعيداً شاسعًا ، فيجيبون فى استخفاف : « ... هناك على بعد رمية حجر ... وراء ذلك الدغل » .

هكذا كان يجيب أهل سهول الأراوكا حينما يسألون عن أصل السيدة باربارا ... من هناك قدمت تلك المرأة اللعينة المشئومة . كانت هجينة مولدة : ثمرة لاستهتار الرجل الأبيض المغامر واستسلام الهندية وانقيادها لغريزتها المظلمة . أما من هو الرجل ومن هى المرأة فقد كان سراً لم يعرفه أحد ، مستغلقًا استغلاق الغابة العذراء التى لم تطأها قدم إنسان .

كانت باربارا تعود إلى الوراء تنظر إلى أعماق ذكرياتها السوداء فترى نفسها فى قارب صغير يشق الأنهار الواسعة التى تخترق الغابات الحافة بضفتى « الأورينوكو » ، وعلى ظهر القارب ستة رجال بينهم القبطان الذى كان تسميه « تايتا » ، وهى تذكر كيف كان الجميع - فيما عدا العجوز إيوستاكيو - لا يكفون عن مداعبتها وتحسس جسدها فى غلظة وقسوة ، وعن نهش وجهها بقبل تفوح منها روائح التبغ والخمور الرخيصة .

أما عـمل صاحب القـارب وزملائه فـقد كان فى ظاهره تجـارة مشـروعة ، ولكنه لم يكن فى الحـقـيقة إلا ضـربًا من ضـروب القـرصنة ابتليت به هذه المنطقة من مدينة « بوليفار» إلى « النهر الأسود » : كانوا يخرجون بالقارب من المدينة محـملين ببراميل الخـمر وأحمـال القماش الرخـيص والحلى الزائفة وأطعـمة أكـثرها فاسـد ، ثم يعـودون وقد مـلأوا مراكـبـهم بالمطاط والعطور والأفـاويه . وكان عـملهم فى بعض القرى يـقوم أحـيانًا على مـقايضـة الهنود فيـستبـدلون بما أتوا به إليهم ما يأخـذونه مقتـصرين على خداعـهم بكل وسيلة ممكنة ، غير أنهم كانوا فى أكثر الأحيـان يرسون قاربهم ، ثم يثبون إلى الشاطئ وقد حـملوا بنادقـهم على أكتـافهم ثم يقـتحـمون الغابـات والمروج المجاورة ، ويعودون بعد ذلك بأحمالهم من المطاط الأسود أو الأفاويه العطرة وقد خضبت بالدماء .

وهى تذكر أنهم كـانوا يستعدون للإبحـار من « مدينة بوليفار » فـى عصر أحـد الأيام ، حـينمـا تقـدم إلى الـقبـطان شـاب فى مـلابس رثة ممزقـة أشـبـه بالمتسولين، وعلى وجهـه سيماء الفقر والجوع ، وكـانت باربارا قد رأته من قبل ذلك أكـثر من مـرة واقـفًا عـلى سور الميناء يـرمقـهـا بعينين تكـادان تثبـان من محجـريهما، بينما هى مشـتغلة بإعداد الطعام لقراصنة القـارب . وعرَّف الفتى صاحب القارب باسمه - أسدروبال - ثم قال :

- إننى مـحتـاج للسفـر إلى « مناوس » ولست أملك أجرة الطريـق . فإذا كنت ياسيدى تتفـضل بحملى إلى « النهر الأسود » فإنى مسـتعد فى نظير ذلك لخدمتك فيـما تأمرنى به : فأنا طباخ أو كاتب حسـابات ، أو ماشئت من عمل ؛ إذ لن تعدموا وجهًا يمكننى أن أخدمكم فيه .

وكان الفتى خـفيفًا لبقًـا فى عرض خدماته ، وبدا فى كلامـه لطيف المعشر رقيق الألفاظ شأن أمـثاله من المتشردين الذين يجمعـون إلى الذكاء خفة الروح ودماثـة الخلق وطلاوة الحديث ، مما جـعل القبطان يسـتطيب رفقـته ويسـمح له

بالصعود على ظهر قاربه، على أن يتكفل بالطبخ حتى يريح باربارا من عناء هذا العمل ، وكان القبطان قد بدأ يدلل الفتاة الصغيرة الجميلة التى لم تكن تناهز الخامسة عشرة من عمرها .

ومضت عدة أيام ، واعتاد الرجال رفقة « أسد روبال » ولا سيما فى أوقات راحتهم أو فى الأمسيات التى كانوا يقضونها على شاطئ النهر وقد أوقدوا النار وجلسوا حولها يتجاذبون أطراف الحديث ؛ إذ كان يسليهم بحديثه الممتع وأقاصيصه الغريبة التى كان يرويها عن حياته المتنقلة المطوفة ، وكانت باربارا تكاد تنفجر من الضحك وهى تنصت إلى حديثه الطلى ، ولكنه كان إذا توقف عن الكلام وقد سره وأعجبه ما أدخله على نفسها من سرور إذا بها تقطع ضحكها فجأة ، وتغض بصرها فى قلق ، وصدرها الناهد يعلو ويهبط فى ضيق وانقباض لم يكن الفتى يدرى مصدرهما . وفى ذات يوم همست فى أذنه قائلة :

- كفى لا تنظر إلىَّ هكذا ، فإن سيدى لم يعد مرتاحًا إلى ذلك .

وكان ذلك حقًا ، فقد بدأ القبطان يندم على سماحه للفتى بمرافقتهم ، إذ رأى أن الخدمات التى كان الشاب يقدمها توشك أن تكلفه ثمنًا غاليًا ، ولاسيما ما تطوع به الفتى - دون أن يكلفه أحد بذلك - من تعليم باربارا القراءة والكتابة ، فقد كان أسدروبال يبذل فى تلك الدروس غاية جهده . وكثيراً ما كان يأخذ بيد باربارا ليدربها على خط ما يعلمها من حروف ، فيزيد ذلك من دنوه منها ، وكان من الطبيعى أن تذكى هذه العلاقة الخطرة من غيرة القبطان .

وفى عصر يوم من الأيام ، وكان أسدروبال قد انتهى من درسه مع باربارا ، بدأ يقص عليها الجانب الحزين من قصة حياته : سنى طفولته فى كنف أب متجرد من الأبوة بلغ من قسوته أن طرده من منزله وهو فى تلك السن المبكرة ، ومغامراته الفاشلة الحزينة فى البحث عن لقمة العيش ، وتجواله الهائم فى الأرض دون هدف ولا غاية ، وماقاساه من عض الجوع ومشقة العمل فى

مناجم « اليوروارى » ، وصراعه المستيئس مع الموت وهو على فراش متواضع فى أحد المستشفيات ، وأخيراً روى لها ما كان قد رسمه لنفسه من خطط : فهو ذاهب فى تلك الرحلة إلى «مناوس » باحثًا عن الثروة فى عمل ثابت مستقر ، فقد أدركه الملل من هذه الحياة الهائمة الجوالة ، وهو الآن يسعى إلى حياة ينعم فيها بالاستقرار والهدوء .

وبدا على أسدروبال كما لو كان يريد أن يضيف إلى ما قال شيئًا آخر ، ولكنه توقف فجأة ، وظل يتأمل النهر الذى كان ينساب بين أيديهما وقد حفت بجانبيه الغابات الكثيفة السوداء .

وأدركت باربارا أنها لم تكن تحتل من مشروعات الفتى المستقبلة ما كانت تقدر ، فاغرورقت عيناها بالدموع ، وسادت بعد ذلك فترة صمت طويلة ... يالها من أمسية ! إن ذكراها لم تفارق أبدًا مخيلة باربارا ... كان الصمت مطبقًا وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج « الأتورس » وكأنها أنين مريض .

وفجأة يقطع أسدروبال الصمت المخيم ، وينظر إلى عينيها ثم يقول :

- أتعرفين ما ينوى أن يفعل بك القبطان ؟

وسرت فى بدن باربارا رعدة مفاجئة ، ودارت برأسها الأفكار السود وأحست كأن كارثة توشك أن تحل بها عن قريب ، وصاحت :

- سيدى « التايتا »(*) ؟

- إنه لا يستحق منك أن تطلقى عليه هذا اللقب ، فهو يريد أن يبيعك للتركى .

وكان أسدروبال يشير إلى تركى ممرور أبرص كان قد جمع ثروة طائلة من المطاط، وكان مقيمًا فى غابات نهر « الأورينوكو» قد اعتزل الناس واعتزلوه بسبب المرض الفظيع الذى كان يلتهم جسده ، ولكنه رغم ذلك كان متعطشًا

إلى متع الحياة ، فكان يحيط نفسه بمجموعة من النساء التعسات فى مقتبل العمر ، بعضهم خطفن أو اغتصبن بالقوة ، وأخريات اشتراهن من آبائهن ، وكان فى ذلك لايهدف إلى إرواء ظمأ شهوته فحسب ، بل كأنه كان - بحكم مرضه الذى لاشفاء منه - يود أن ينفس عن حقده المسعور على الأصحاء ناقلا إليهم جراثيم مرضه الرهيب .

وكان أسدروبال قد اكتشف فى بعض ما تسمعه من أحاديث بحارة المركب أن هذا الرجل المشئوم سلطان غابات المطاط قد عرض على القبطان عشرين قطعة ذهبية ثمنًا لباربارا ، وأن هذه الصفقة إذا كانت لم تتم بعد فما ذلك إلا لأن القبطان كان يطمع فى ثمن أعلى ، وهو أمر لم يعد عسيرًابعد أن تحولت الصبية الغريرة خلال عدة شهور إلى امرأة ناضجة يطير جمالها الألباب .

ولم يكن يغيب على باربارا أن مصيرها سينتهى إلى شىء من ذلك ، غير أن الظروف التعسة التى كانت تحيط بها لم تكن لتثير فى نفسها حتى هذه الساعة إلا مزيجا من الأسف والخوف والرضا فى وقت واحد ، فقد كان يرضى أنوثتها أن ترى نفسها محاطة بنظرات الإعجاب الحيوانية التى كان يوجهها إليها أولئك الذين كانت تشاركهم تلك الحياة الضيقة المحدودة على ظهر القارب .

غير أنها منذ أن تعلق قلبها بحب أسدروبال استيقظت فى أعماقها تلك الروح الميتة الخامدة ، فشعرت بمدى هول المصير الذى يتربص بها ، وامتلأ قلبها ذعرًا وفزعًا، وكانت تهم بأن تصيح به :

- أنقذنى ! ... أنقذنى ! .. احملنى معك إلى حيث تذهب !

ولكنها صمتت عن الكلام وهى ترى القبطان فى هذه اللحظة يقترب منها وبندقيته على كتفه .

- والآن يافتى ، أرى أنك قـد تحدثت بما فيه الكفـاية ، وقد آن الأوان لكى تقوم بشىء أكثـر جدوى من تضييع الوقت فى الـكلام . إن « الضفدع » ذاهب الآن لتسلم شـحنة من الأفاويه تنتظرنا هنا ، وعليك بمرافـقته ، فخـذ معك هذا لتدافع عن نفسك إذا هاجمك الهنود .

قال القبطان هذا وهو يقدم البندقية لأسدروبال .

وبقى الفتى واقـفًا لحظة يفكر ... ترى هل سـمعه القـبطان وهو يذيع سره للفتاة ؟ وهذه المهـمة التى عهد بها إليه الآن : ترى هل لهـا علاقة بذلك ؟ على أية حال ليس هناك الآن مفر من الصدوع بالأمر ومواجهة الموقف .

وحينما هم أسـدروبال بالنهوض منفذًا ما أمره بـه القبطان حاولت باربارا أن تمنعه موجهة إليه نظرة توسل واستعطاف ، ولكنه غـمز لها بعينه غمزة سريعة ، وهو ينهض فى عـزم مغـادراً المكان فى أثر « الضـفدع » . أمـا هذا الرجل الذى كان يحمل ذلك اللقب الكريه فـقد كان نائب القبطان وساعـده الأيمن فى مهام القـرصنة وغيـرها من الأعـمال المشـئومـة التى كـان رئيسـه يكلفـه بها . كـان أسدروبال يعلم ذلك حق العلم ، ولكنه كـان يــدرك أنه إذا بدا عليــه الخوف أو حاول الامتناع عن تنفيذ ما أمره القـبطان به فهو هالك لا محالة ، وحاول أن يطمئن نفسه قائلا إنه الآن يحمل بندقيـة ، وسيكون خصمه على أية حال رجلا واحدًا بينمـا هو فى المعسكر واحد ضد خـمسة رجال . ومـضى أسدروبال فى طريقه بينمـا كانت باربارا تتبعـه بعينيها حـتى اختفى وراء مرتفع صـغير ، فظل نظرها ثابتًا شاخصًا إلى ذلك المكان عدة لحظات .

وتبادل الملاحون فى أثناء ذلك نظرات ذات مغزى تدل على تفاهمهم فيما بينهم ، وبـقى الجـمـيع فى المـكان لحظات ثم توجـه إلـيـهم القـبطـان يأمـرهم باستطلاع الموضع خوفًـا من أن يقوم الهنود بمهاجمته على حـين غرة ، وكان قد أدلى قبل ذلك بأمر مماثل لأيوستاكيو الـعجوز ، وفهم الجميع أن القبطان لم يرد إبعادهم عن المعسكر إلا رغبة فى أن يخلو هو بالفتاة .

وامتعض الملاحون فظلوا يتمتمون بكلمات تدل على الضيق يلوكونها بين أسنانهم، ثم تشجع أحدهم فقال فى صراحة :

- دع هذا إلى ما بعد ياسيدى القبطان ، فنحن نريد الآن أن نستريح .

وكانت هذه الكلمات هي بوادر الثورة التى كانت تختمر فى نفوس هؤلاء الرجال بسبب الفتاة وجمالها المطير للعقول ، واضطر القبطان إلى السكوت ؛ إذ لم يفته أن الرجال كانوا على اتفاق فيما بينهم ، وأنهم على استعداد لكل شيء ، ولهذا فقد آثر أن يؤجل تأديبهم وعقابهم حتى يعود « الضفدع » تابعه المخلص الأمين .

أما باربارا فقد فطنت إلى الغرض الخبيث الذى أراد القبطان من أجله أن ينفرد بها ، فوجهت نظرها إلى البحارة الذين كانوا على وشك الثورة ، ولكنها لم تر نظراتهم الجائعة إليها حتى جمد قلبها الخوف ، ولم تملك نفسها من النظر إلى المكان الذى ودعت فيها أسدروبال وهو فى طريقه إلى الغابة .

وفجأة تردد فى الأفق نعيب « الياكابو »(*) ... بصوته المجلجل الحزين الذى انطلق كأنه أجراس جنائزية فى جو الغابة المظلم قاطعًا صمتها المخيم الرهيب :

- يا ... كا ... بو ... و ... و ... ! يا ... كا ... بو ... و ... و ! ...

وهى لاتدرى : أترى هذا حقًا نعيب ذلك الطائر نذير الشؤم وجالب الشرور ، أم كان صرخة الموت أطلقها أسدروبال فترددت أصداؤها فى الفضاء ؟ أتراها سمعت حقًا هذا الصوت أم أنه كان ضربًا من ضروب التخيل صورته لها أوهام الخوف والفزع والتوجس بما كان يوشك أن يقع لها ؟ أم أنه كان صدى صادقًا خفق به قلبها وشعرت به شعوراً غامضًا خفيًا لصوت آخر بعيد : صوت الطلقة النارية التى وجهتها فى تلك اللحظة نفسها بندقية « الضفدع » إلى عنق أسدروبال ؟

إنها لا تذكر إلا أنها سقطت على وجهها وقد استولى عليها انفعال عنيف مفاجئ، بعد أن أطلقت صرخة حبيسة فى حنجرتها .

وأما الباقى فقد حدث دون أن تشعر : ثورة البحارة المفاجئة ، ومقتل القبطان ثم مساعده « الضفدع » على أثر عودته وحيداً إلى المعسكر ، ثم الوليمة الصاخبة الحمراء التى كان جسد باربارا فيها قرباناً قدم إلى الرجال الذين انتقموا لمقتل أسدروبال وإن لم يقصدوا إلى ذلك أو يتعمدوه .

وحينما أقبل العجوز إيوستاكيو على صوت الصرخات التى كانت باربارا تطلقها فى المعركة غير المتكافئة كان البحارة قد أشبعوا نهمهم وقضوا وطرهم ، وكان واحد منهم يقول لرفاقه :

- الآن يمكننا أن نسلمها للتركى ، حتى ولو كان فى مقابل القطع الذهبية العشرين التى عرضها من قبل .

* * *

وهج النيران وألسنة اللهيب تضئ ظلام الليل ، وفى الجو تتردد أصوات مختلطة وحشية : إنه وقت صيد « الجفان »(*) ، والهنود متعودون فى موسمه على إضرام النيران فى مواضع مختلفة متقاربة حول برك الماء المختفية فى قلب الغابة ، فتعلى أسراب «الجفان » طيرانها فى الجو وقد أصابها الذعر من النار واللغط ، وقد اصطبغت أجنحتها بلون مورد من وهج اللهيب المضطرم فى وسط الظلام الفاحم ، ولكن الصائدين يصمتون فجأة ، ويطفئون فى سرعة ما كانوا أضرموه من شعل ، فإذا بالطيور التى بهر عيونها بريق النار تسقط بين أيدى الصائدين فى سهولة ودون أدنى مقاومة .

شيء قريب من هذا وقع فى حياة باربارا ، فقد كان حب أسدروبال أشبه ما يكون بومضة خاطفة قصيرة ، خفقة جناح مهيض فى قلب الفتاة المسكينة التى ذاقت لأول مرة طعم شعور طاهر نقى فى حياة الوحل التى كانت منغمسة

فيها ، ولكن هذا الشعور العارض لم يلبث أن خنقه فى مهده بقسوة ووحشية أولئك الرجال صائدو اللذة بما ارتكبوه مع الصبية العاجزة الضعيفة .

ولم ينقذها فى هذه الليلة من أيدى أولئك الذئاب إلا إيوستاكيو العجوز ، وهو هندى من قبيلة « البانيبا » كان يعمل دليلا للقراصنة على ظهر القارب ، وكان يشعر بالعطف على الصبية منذ أن عهدت أمها إليه بها - وكانت من نفس قبيلته - قبل أن تقضى نحبها من جراء المعاملة السيئة التى كان يصبها عليها القبطان ؛ إذ أوصته أن يرعى الطفلة بقدر ما يستطيع .

وعاشت باربارا بعد ذلك فى كنف الهندى العجوز ، غير أن ذكرى تلك الليلة السوداء لم تفارق خيالها قط ، ولم يعف على جراح قلبها منذ ذلك اليوم مرور الزمن ولا الحياة الهادئة التى أخلدت إليها فى ظل الكهل الطيب ، ولا طبيعة الاستسلام والرضا بالقضاء التى كانت تثيرها أحيانًا فى أعماق روحها الهندية نغمات الناى الحزينة التى طالما كانت تنصت إلى ترجيعها فى بيئتها الجديدة .

لم يعد فى قلب باربارا محل إلا للبغض الهائل والرغبة العارمة فى الانتقام، ولم تكن تشعر بالراحة واللذة إلا لمنظر الرجل وهو يتضور فى براثن قوى الشر المدمرة . ولهذا فإنها أقبلت فى الوسط الجديد على استكناه أسرار السحر ، واللعنات التى يصبها على الناس « كاماخاى - مينارى » إله الشر فى غابات الأورينوكو ، والقوى الشيطانية المستقرة فى أحداق السحرة ، والفوائد العجيبة التى تنسبها الهنديات إلى بعض الأعشاب وجذور النبات ، فيستخرجن منها مادة « البوسانا » التى يزعمن أنها تقوى فحولة الرجال وتهيج من شهوتهم، وإن كانت تحل عزيمتهم وتضعف إرادتهم أمام إغرائهن ودلالهن ، كل ذلك أقبلت باربارا تتعلمه فى شغف وحماسة ، حتى إنها لم تعد تعيش إلا من أجل معرفة الطرق الخفية التى يصل بها النساء إلى سحر الرجال وقيادة أزمتهم .

لم تأل باربارا جهداً فى انتحال مبادئ هذا العلم الأسود من أساطينه من طوائف السحرة والكهان التى تغمر هذه البقاع ، وهو علم يدين بوجوده لتلك الحياة الهمجية المتوحشة التى يباشرها الهنود ، تتلمذت الفتاة على أهل الحسد ممن يزعمون أنهم يستطيعون إلحاق أغرب الأمراض وأفظعها بمجرد تسليط النظر على الضحية ، وعلى النافثين ممن يدعون أنهم يشفون من كل مرض إذا نفخوا فى موضع الداء ترياق لعابهم المبارك ، والمعوذين الذين لا تخلو علة من أن يجدوا لها دعاء يجلب البرء السريع إذا لاكته ألسنتهم وهم متوجهون بنظرهم إلى مكان الوجع حتى ولو كان بينهم وبين المريض عشرات الفراسخ . كل هؤلاء أذاعوا لباربارا أسرار حكمتهم وملأوا روحها بذلك خرافات وعمروا عقلها أساطير .

وكان جمال الفتاة الهجينة قد بدأ يعكر صفو القرية ، فقد كان الشبان يلاحقونها ويتمنى كل منهم الظفر بها ، أما النساء فقد كن يراقبنها فى حذر وغيرة ، وأخيراً أشار بعض الكهول من أولى الرأى والسداد على إيوستاكيو بأن يحملها بعيداً عن القرية بقدر ما يستطيع .

ومرة أخرى تعود باربارا إلى حياة التطواف والرحلة على طول مجارى الأنهار وهى على ظهر مركب فى رفقة الملاحين الهنود .

* * *

« الأورينوكو » نهر تصطبغ أمواجه بلون جلود السباع ، أما « الجوانينيا » فإنه يجرها سوداء قاتمة ، وفى قلب الغابة تلتقى مياه هذا بذاك ، ولكنهما لاتختلطان إلا بعد مسافة طويلة تحتفظ فيها كل منهما بلونها الخاص ، وقد حدث مثل ذلك فى نفس الفتاة الهجينة ؛ إذ بقى فيها تياران منفصلان من الغريزة العارمة العنيفة ومن البغض الأسود للرجال ، ولم يمتزج هذان الإحساسان فى أعماق نفسها إلا بعد مضى سنوات عدة .

وكان أول ضحية لهذا المزيج الرهيب من العواطف الجارفة هو « لورنثو باركيرو» أصغر أبناء « سباستيان باركيرو» ، وكان قد ذهب يطلب العلم فى كاراكاس، وكان يوشك على إنهاء دراسته فى كلية الحقوق بتفوق يبشر له بمستقبل عظيم، ويهم بالزواج من فتاة جميلة كريمة العائلة تعلق بها قلبه - حينما ثارت المنازعات الأولى بين عائلتى لوثاردو وباركيرو ، ووافق ذلك تطور مفاجئ غريب فى شخصية لورنثو باركيرو ، فقد ظهرت عليه بغتة أعراض انحطاط خلقى وعقلى غريب، إذ كان كثيراً ما تنتابه نوبات من شرود العقل وانطفاء الذاكرة وخمود الذهن دون أن يدرى أحد لذلك تفسيراً ، وما زال هذا الداء المفاجئ يلح عليه حتى قرر أخيراً أن يقطع تعليمه ويهجر قاعات الجامعة، ويتولاه نفور من حياة العاصمة بما فيها من مغريات، فإذا به يعود إلى ضيعة أسرته، ثم يختار لنفسه منها مرجًا بعيداً خاليًا ، ويظل فيه مستلقيًا على كرسى طويل أيامًا متوالية ، وحيداً صامتًا زائغ النظرات شارد العقل، كأنه وحش مريض منطو على نفسه فى أعماق جحره ، وما زال الأمر كذلك حتى عزم عزمًا قاطعًا على الزهد فى كاركاس وفى كل ما كان يحبب إليه الحياة فى تلك العاصمة: هجر دراسته وحياة المجتمع الرفيع التى كانت تنتظره، وقطع صلته بخطيبته، وقرر العودة النهائية إلى السهول لكى يتردى فى دوامة المأساة التى كانت تترقبه هناك .

وهناك شاء القدر له أن يلتقى فى عصر أحد الأيام بباربارا ، وكان لورنثو يقود قطيعًا من الماشية إلى جوار ضفة الأراوكا ؛ حيث توقف لكى يتسلم حملا من المؤن والأغذية إلى ضيعة أسرته «الباركيرينيا» ، وتصادف فى ذلك الوقت أن توقف قارب إيوستاكيو فى « مجاز الخوار ».

وتكرر لقاء لورنثو وباربارا ، واتصلت العلاقات بينهما ، وكانت فرصة انطلق فيها هذا المزيج المتفجر من عواطف الرغبة والكراهية الذى كان حبيسًا فى قلب الفتاة الهجينة، كما لو كان عاصفة من تلك العواصف الهوجاء العنيفة التى اعتاد أهل السهول على رؤيتها تتفجر فى بضع لحظات ، ولكن باربارا لم

تحاول أن تخفى عن لورنثو ما تضطرم به نفسها من شعور البغض للرجال، فقالت له مرة بعد أن قصت عليه مأساة حياتها التعسة المثيرة :

- لقد بدوت لى حينما رأيتك لأول مرة كما لو كنت أسدروبال، ولكنى لاأرى فيك الآن إلا الآخرين: فأنت مرة القبطان، ومرة أخرى « الضفدع» .

ولكنه يجيبها فى غرور المنتصر الواثق من ظفره :

- نعم . كل واحد من هؤلاء الرجال الذين لا تحملين لهم إلا أشد الكراهية سيتحول إلى إنسان آخر ما دام يتمثل فى شخصى ، وسترين كيف أستطيع أن أجعلك تحبينهم جميعًا واحدًا واحدًا فى شخصى أنا .

وتعود هى فتقول فى حشرجة تشبه الزئير :

- وسترى أنت كيف سأنتقم منهم جميعًا وسأحطمهم فى شخصك أنت ! .

وأحب لورنثو الفتاة ، وكان حبًا وحشيًا لم يخل من طرافة جعلت له فى قلب الشاب طعمًا غريبًا غير معهود، وأضفت على مغامرته مع فتاة القارب مسحة مثيرة من الأصالة ، وانتهت هذه العلاقة بالقضاء على البقية الباقية من روح لورنثو باركيرو والثمالة الأخيرة من وعيه وتفكيره .

وحملت منه باربارا ، ولكن الأمومة لم تخفف من حدة هذه الكراهية العارمة التى كانت تملأ نفس تلك المرأة « صائدة الرجال» ، بل على العكس زادت من تهييجها وإضرام شعلتها ، فإن وجود جنين فى أحشائها لم يكن يعنى بالنسبة لها إلا مظهراً من مظاهر انتصار الذكر عليها ، وصورة من صور عبث الرجل بها وإذلاله لها، وأخيراً ولدت وهى تحت نفوذ هذا الشعور الجارف : شعور الكراهية المتزايدة للرجال ، فكان المولود أنثى ، ولكن باربارا لم تشأ حتى مجرد رؤيتها فضلا عن إرضاعها وتربيتها ، بل ألقت بالطفلة الوليدة إلى نساء أخر كان فى قلوبهن من الرحمة ما لم يكن فى قلب أمها .

أما لورنثـو أبوها فإنه لم يكن أكثر اهتـمامًا بابنته من باربارا ، وأى اهـتمام كان يسـتطيع أن يوليه للطفـلة رجل عقد حلفًـا مع الشيطان مـتجـسدًا فى تلك المرأة التى لم تكن تشـبع؟! رجل راح ضحيـة « العمل » السحـرى الذى كانت المرأة الشـيطانية تخلـطه له فى مطعمـه ومشـربه حـتى تمتص آخر قطرة من مـاء رجـولته! وهكذا لم يمض وقت طـويل حتى لم يبق من الـشبـاب الناضر لهـذا الرجل الذى كان مـؤهلا لمستـقبل باسم إلا جـسد قد التـهمـته الرذائل، وإرادة مهـيضة مـحطمة ، وروح كـانت تنتقل بسرعـة من الإنسانيـة إلى أدنى درجات الحيوانية المتوحشة .

ولم يعد لورنثو بقادر على الإحساس ولا التفكير، حتى إنه كان يظل أيامًا متـوالية وهو متهـالك على نفسه فى غيـبوبة لا يستطيع لهـا مغالبة ، بينمـا كان يسرى فى جسده سم « البوسانا» التى كانت باربارا تعدها له بفضل ماتلقتته من سحرة الهنود ، فتؤجج نار شهـوته ، وتنضب معين رجولته ، وتسحق ما بقى له من ملكة التفكير والإرادة ، ولم تضـّيع الخبيثة وقتهـا فى أثناء ذلك ، فلم يكفها مافعلت بالرجل ، بل كان هدفها هو أن تنزع منه كل ما يملك .

وكـان الذى أدلى إليـهـا بـهـذه الفكرة رجل كـانوا يدعـونه « الـكولونيل أبولينار» كان يجوب هذه الجهات باحثًا عن أرض يشتريها بفضل ما جمعه من أموال الغـصب والرشوة فى أثناء توليه منصـبًا كبيـرًا فى الحكم الإدارى لبعض أقاليم المنطقة ، يواطئه على ذلك أعوانه من رجال الأمن الذين هم أشبه بالطيور الجارحة الكاسـرة ، ولهذا فقد كان « الكولونيل » أعـرف الناس بطرق التحايل على القانون واصطناع صيغ فى السـرقة والغصب ليس عليها غبـار من الناحية القضائيـة . ورأى أبو لينار الفرصة سانحـة: رجل محطم لا إرادة له ولا حول، وامرأة لا خلق لهـا ولا ضميـر ، كل همهـا - فيمـا يبدو - أن تجد رجـلا يشبع غريزتهـا ، فرسم خطته بسرعـة وبدأ يتودد إليها ويحـاول إيقاعها فى حـبائله ، وفى أحد الأيام عرض لها باقتراح كان يرجو أن ينال به ودها :

- إن لدى طريقة فى غاية البساطة تمكن لك من أن تصبحى المالكة الوحيدة لضيعة « الباركيرينيا » ، وهى طريقة مؤكدة النجاح لن تحتاجى معها إلى الزواج من لورنثو باركيرو مادمت تنفرين - كما تقولين - من كل رباط يجعل لرجل الحق فى أن يدعوك امرأته ، وهى تنحصر فى بيع صورى ، وكل ما عليك أن تفعلى هو أن تحمليه على توقيع الوثيقة ، وذلك أمر لن يكون من العسير عليك إنهاؤه ، وأنا مستعد لكى أعدلك الصيغة القانونية للمبايعة بالشكل الذى لا يدع مجالا لأفراد أسرة لورنثو للقيام بأى اعتراض قد يتسبب فى أى صعوبة .

ووجدت الفكرة قبولا من جانب باربارا :

- أنا موافقة على ذلك ، فاكتب لى هذه الصيغة ، وأنا كفيلة بحمله على توقيعها .

وتم الأمر على مارسم أبو لينار، ووقع لورنثو الوثيقة دون أدنى مقاومة ، ولكن باربارا حينما ذهبت لتسجيلها لدى الموثق اكتشفت أنها تتضمن مادة تنص على أنها تسلمت من أبو لينار ثمن الضيعة كما لو كان قرضًا تتعهد بأن تسدده فى أجل محدود، وأنها تجعل الضيعة خلال هذا الأجل رهنًا حتى تؤدى إليه دينه .

ولم يجد أبو لينار عناء فى أن يدلى لها بالتفسير المناسب :

- إنى لم أجد بدًا من وضع هذه المادة حتى تحمينا من أى تدخل من جانب أقرباء لورنثو ، فإنهم لو عرفوا أن البيع صورى فإنهم قد يطالبون بالغائه واعتباره باطلا ، ولهذا فإنى رأيت من أجل رفع كل شك أن أسلمك هذا المبلغ فى محضر الموثق، غير أن هذا ليس إلا مهزلة فيما بيننا نذر بها الرماد فى العيون، إذ تعيدين أنت إلى نقودى بعد ذلك فى مقابل وثيقة أسلمك إياها ، تكون ملغية لما جاء فى المادة السابقة الواردة فى عقد البيع .

وأطلعـها أبو لينار عـلى هذه الوثيقـة الخاصـة ، وكـان قد احـتاط للأمـر ، فأعدها بصورة لا تجعل لها أية قيمة قانونية .

وفطنت باربارا لما كان يدبره أبولينار ، ولكن لم يكن هناك وقت للتراجع ، لا سيمـا وأنها كانت بدورها قد أعـدت خطتها للاستـيلاء على هذا المال الذى كان أبو لينار يعـزم على استثماره فى ضيـاع مغتـصبة ، فأعـادت إليه وثيقـته ، وأجابته فى لهجة ودودة لينة :

- حسنًا ... سيتم كل شىء على ما ترغب .

وداخل الزهو نفـس « الكولونيل » الذى رأى فى لهـجـة بـاربارا الطيـعـة المنقادة مابشره بنجاح خطته من ناحية ، ومن ناحية أخرى بأن باربارا فى طريقها إلى الاستسـلام له ومنحه ما كان يسـعى إليه من إيقاعها فـى شباك هواه . وهنأ الرجل نفسه: هاهـى تلك المرأة توشك أن تمنحه جسدها ، ولن تتـأخر بعد ذلك عن تسليمه الضيعة ، وتعود إليه نقوده كاملة عدًا ونقدًا .

ومرت بضـعة أيام ، ثم ذهبت باربارا إلى لورنثو ، وأبلغتـه ما استقـر عليه عزمها :

- لقد قررت أن أستبدل بك رجـلا آخر : الكولونيل ، ولهذا فلتعلم أنه لم يعد لك مكان فى هذا البيت .

ولم يفتح الله على التعس إلا بأن يفوه بهذه الأضحوكة :

- ... ولكنى على استعداد لأن أتخذك زوجة شرعية .

ولم تتمالك الخبيثة نفسـها من إطلاق قهقهة عالية ، واضطر المخلوق الذى كـان رجـلا إلى أن يغـادر مـنزله إلى الأبد ، ويمضى طريدًا لاجـئًـا إلى الكوخ المتواضع الذى كانت باربارا قد ألقت فيه بـابنتها بعيدًا عن أنظارها ، وكان هذا الكوخ قائمًا فى مـوضع « لاتشو سميتـا» الذى لم يكن فى الحقيقـة من أملاكه

السابقة ولا من أملاك أسرته ، وذلك منذ أن اتفـقت أمه وخاله خوسيه لوثاردو على أن يظل « أرضًا حرامًا » حتى ينتهى القضاء فيه إلى حكم أخير .

ومنذ أن آل ملك ضـيعـة أسرة باركيـرو إلى المرأة الملعـونة تغيـر فيهـا كل شيء، حتى اسم « البـاركيرينيـا » الذى كان آخر مـا يدل على نسبتـها إلى تلك الأسرة لم يـعد قائمًـا ؛ إذ قررت المرأة أن تسـتبـدل به اسم « ضيعـة الرعب » ، وكأنما كانت تريد أن تعبر بالاسم الجديد عن كل ماكان قلبها يكنه من الكراهية لكل من حولها وما حولها .

ومـا كان هذا النجـاح الذى أتيح للمـرأة الطمـوح ليثـير فـى قلبهـا المظلم الحقود إلا مـزيدًا من الطمع والرغبة ، فـقررت ألا يهدأ لها بال إلا إذا اسـتولت على جـمـيع الأراضى التى يشـتمـل عليهـا حـوض الأراوكـا ، وتهيـأ لهـا من الكولونيل أبو لينار خـير معين على تحـقيق مآربـها بما له من خبـرة وتجارب فى طرق التحايل على القـانون ، فبدأت ترفع القضايا على جيـرانها ، فإذا رأت من القانون صـلابة مكسر اتجهت إلى رشـوة من لا مانع لديه من قبـول الرشوة من القـضاة ، ومـا أكثـرهم فى مـحاكم هذه الجـهات ! وهـكذا حتى لـم تعـد لدى عاشقها الجديد حيلة لم تتعلمها ، ولا سر من أسرار « المهنة » لم يفض إليها به، وحينئـذ رأت أنه لم تعد بهـا إليه من حـاجة ، ولا سـيما بـعد أن أدى دوره فى خدمتها فأحسن الأداء ، وأعانها على مد رقعة أرضها والاستيلاء على كثير من أرض جـيـرانهـا ، وهكذا قررت الـتخلـص منه ، ولم يمض وقت طويل حـتى اختفى الكولونيل أبو لينار من هذه المـنطقة على صورة غامضة خـفية ، وانتهت باربارا من ذلك الرجل الذى كان - بما طبع عليه من غـرور - يفتخر بين الناس بأنه مالك قيادها .

واتجه نـظر المرأة بعد ذلك إلى ضـيعـة « ألتامـيرا » التى كـان صاحـبهـا قد أهملها وتركـها فى أيدى وكلاء لم تجد بـاربارا مشقة فى شـراء ذممهم بما كانت تغدقه عليهم من الرشا ، وهكذا لـم تلبث ضيعـة ألتاميرا أن أصبحت « الفريسة

المفضلة » للمرأة الشـرهة الطامعة دائمًا فى المزيد . ولجـأت باربارا إلى وسائلها المعتـادة ، فأقبلت تـرفع القضايا على صـاحب « ألتاميـرا» ، وتمكنت بذلك من التهـام مساحـات كبيـرة من هذه الضيعـة ، وظلت الحدود الفاصلة بين أرضـها وأرض جـارها تتقـدم بفضل الأحكام التـى حصلت عليـها من المحـاكم ، ولـم تكتف بذلك ، بل كانت تعمـد أيضًا إلى طريقة أخرى أكثر سـهولة وأقل مؤونة ؛ إذ كانت تأمر أعوانها بدق الحدود الفاصلة بين الأرضين على صورة تضمن لها أكثر مما تستحـق ، وكانت تتخذ من غموض الأحكام القضائيـة وعدم دقتها فى التحديـد ذريعة لما تغتصـبه من ضيعة ألـتاميرا ، كمـا كانت تعتمـد على تجاهل وكلاء لوثاردو وتغافلهم ؛ إذ كانوا على اتفاق مـعها بحكم ما كانت ترشوهم به ، ولهذا فإنهم كانوا لا يحركون ساكنًا إزاء ما تفعله .

وأما سـانتوس لوثاردو فـقد كان كلمـا أتته أنباء خـيانة وكـيل من وكلائه وتفريطه فى حقـوقه عمد إلى تغييره واسـتبدل به وكيلا آخر، ولكن مـا أكثر ما كان الوكـيل الجديد يتكشف عمـا هو أسوأ مما كان يرتكبـه سلفه، وهكذا ظلت ضيعـة لوثاردو تنتقل من يد إلى يد حتى انتهت أخيـراً إلى رجل يدعى « بالبينو بابيا» ، وكان تاجر خيول شاءت الظروف أن يذهب إلى « ضيعة الرعب » لكى يفاوض صـاحبتهـا فى شراء عدد من خيـولها، واتفق أن وجه الرجل إليـها فى أثناء الحديث عبارة غزل جريئة وقعت منها موقع القبول، وكان ذلك فى الوقت الذى انهمكت المرأة فـى البحث عن وكيل يدبر شـئون ضيـعة ألتامـيرا دون أن يشك أحد فى حقيقة ما كان بينهما من تفاهم واتفاق.

وسنحت الفرصة أخيراً فى أعـقاب آخر قضية كسبتـها السيدة باربارا ضد سانتوس لوثاردو ، وكانت المـرأة الماكرة قد أوقعت محامى خصـمها فى أشراك غرامـها مما جـعله يتهـاون فى حقوق مـوكله، وكان الحكم فى هذه القـضيـة قد صدر بفضل معاونة هذا المحامى بإضافة خمـسة عشر فرسخًا من أرض ألتاميرا إلى « ضيعة الرعب»، وقد قنعت السـيدة باربارا بهذا القدر فلم تحاول هذه المرة أن تنتهز الفـرصة فتضيف إليه مـساحة أخرى كما اعـتادت، ولكنها طلبت إلى

ذلك المحامى أن يوصى سانتوس لوثاردو بأن يعهد بمنصب إدارة أعماله الشاغر إلى « بالبينو بابيا » ، ومنذ ذلك الوقت حملت أعوانها على أن يقتنصوا أكبر عدد من الثيران ورءوس الماشية التى كانت ترعى فى تلك المروج ، فيسموها بميسم « الرعب» ، وتلى ذلك عملية نقل الحدود الفاصلة بين الضيعتين ، موسعة بذلك أرضها على حساب الضيعة التى لم يكن لها حام ولا نصير .

وبينما كانت أرض المرأة الخبيثة تتزايد كل يوم وثروتها تتضخم بسرعة غريبة كان كل ما يقع إلى يديها من النقود ينقطع عن التداول ، ويقولون إنه كان لديها عدد من مكاييل الفخار مملوءة بالقطع الذهبية، فقد كانت تفضل هذا النوع من النقود، وكانت تدفن تلك المكاييل فى أمكنة لا يعرفها أحد غيرها، ويزعم الناس أن تاجراً غنيًا من تجار الماشية كان جاراً لها ذهب إليها يومًا ليقترض منها مبلغًا من المال، وكان يعرف عنها عادتها فى أنها لا تقدر المال بالعد وإنما بالكيل ، فتوجه إليها قائلا:

- هل تسمحين ياسيدتى بأن تقرضينى « ربعًا » من القطع الذهبية ؟

ويزعم الناس أن باربارا غابت قليلا ثم أتته بالكيل ، وقد ملأته بالقطع حتى زادت عن سطحه وتكومت فوق حافاته ، ثم سألته :

- أهكذا تريده مكوما أم تفضله مسطحًا مستويًا ؟

- لابل مسطحًا مستويًا ياسيدتى، فإن هذه الزيادة قد تكلفنى كثيراً عندما يحين موعد سداد الدين!

ويقولون إن المرأة أزالت الزيادة فى الكيل بمسطرة مسطحة كانت قد أعدتها لذلك، وقالت للرجل :

- انظر ياصديقى. حينما تعيد المال إلى فإنى أريده هكذا : فى مثل هذا الكيل وقد ملأته إلى قمته ، ثم سويت سطحه بضربة واحدة بالمسطرة !

هكذا كـان الناس يحكون عنهـا ، وربما كـان في هذه القـصص كـثيـر من الخيـال والمبالغة ، ولكن الحقـيقة التي لا شك فـيها هي أن السيـدة باربارا كانت على قدر عظيم من الغنى ومن البخل في وقت واحد.

أما مـا كانوا يقصـونه عن قدرتهـا على السـحر فلم يكن كله ثمرة الخـيال الخصب أو الاختـراع المفتن، فالواقع أنها كانت تعتـقد حقيقة في قـواها الخارقة للعادة ، وكثيراً ما كانت تتحدث عن « شريك » خفي أنقذها من الموت في ذات ليلة عزم فيها أحـد القتلة المأجورين من قبل بعض خصومها عـلى اغتيالها وهي على فراشهـا، فلم يكن من «الشريك» المزعوم إلا أن أشعل لها شمـعة وأيقظها قـبل أن يقـتـحم الرجل مـخـدعـهـا بلحظات. ومنـذ ذلك الوقت أصـبح هذا «الشريك » ناصحًا معينًا لها يشير عليها في المواقف الحرجة بما ينبغي أن تفعل ، أو يكشف لها عما يهمها من الأحداث المسـتقبلة أو الواقعة في مكان بعيد . أما هي فكـــانت تزعم أنه ليس إلا روح المسيح المقـــدس المنصوب في منطقـــة « أتشاجواس » ، وإن كـانت تسميه « الشريك » فـي بساطة ودون تصنع ، وأما الناس في تلك الجـهات فـقد كانوا يـعتقـدون أنه الشيطان ، وأن هـذه المرأة قد عقدت حلفًا مع قوى الشر الرهيبة التي تستحوذ عليها الشياطين .

على أن الله والشيطان لـم يكونا بالنسبة لها إلا شـيئًا واحداً ؛ إذ إن روحها كـانت مسـتودعـا لهـذا المزيج الغـريب المختلط من السـحـر والإيمان بالله، من لعنات المشـعوذين وصلوات المتـدينين، كل ذلك في كتلة واحـدة من العقـيدة، ولهذا لم يكـن من الغريب أن تضع السـيدة باربارا على صدرها مـجمـوعة من صور مـريم العذراء ومن رقى السـحرة الهنود وتعـاويذهم في نسق واحـــد ، ولا أن تجتمـع على رفــــوف الغرف التي خصصتها «محرابًا » تتلقـــى فيه وحي « الشريك » الخفي صور للمسيح والقديسين وصلبان مصنوعة من سعف النخيل المبارك، مع عوذ سحـرية من أنياب التماسيح أو الأحجـار ذات القوى الروحية الغريـبة على زعم الكهـان، أو الطواطم التي كانت قـد جلبتـها مـعهـا من قرى الهنود؛ كل ذلك كان يستقي شعلته التي لا تنطفئ من سراج زيتي مشترك.

أمـا هذا المـزيج الغـريب الذى كـــان يضطرب فى قـرارة نفـس « صـائدة الرجال» من الشـهوة الحسـية الطاغيـة ومن الكراهية العـارمة للرجال، فـقد بدأ يتطور بحكم مرور الزمن واختلاف الظروف التى كانت تعيش فيها ، فقد طغى الشره الشديد إلى المال والثروة على غريزتها ورغبـاتها ، وأفقدها الجانب الأكبر من أنوثتها، حـتى تحولت إلى امرأة « مسترجلة» لا تخلع عنهـا ملابس الرجال، وكانت كثيراً ما تقوم بنفـسها بقيادة قطعان مواشيها مسـتخدمة عقد الحبال على ماجرت به عادة البقارين هناك، أو مروضة الخيول المتوحشة كخير ما يستطيع أن يفعل أمهر رعاة البقر ممن كانوا يعملون فى خدمتها ، وقلما كانت ترى إلا وقد تدلى من حـزامهـا الرمح القـصيـر والمسـدس المحشـو الذى لم تكن تتـردد فى استخدامه عند الضرورة ؛ إذ لم يكن هدفها من حمله هو مجرد الإرهاب.

كل ذلك باعد بينها وبين النساء ، وإن كـانت لا تحجم فى بعض المناسبات عن اصطناع الأنوثة إذا رأت فى ذلـك ما يعـينهـا على بلوغ مـأرب من رجل ، كأن يكون عونًا مخلصًا مـتفانيًا فى خدمتها، أو آلة طيعـة لها فى ميدان العدو - كمـا كان الأمر مع «بالبـينو بايبا» جـاسوسهـا وصنيعتـها فى ضـيعة سـانتوس لوثاردو منذ أن استطاعت بحـيلتها وكيدها أن تمهـد لتعيينه مـديراً لأعمال هذه الضيعة ، فـقد كانت لاتتورع فى بعض الأحيان عن التنازل له بمداعبـة رقيقـة أو السماح له بأن يوجه لها عبارة غزل. وفـيما عدا ذلك فقد كانت ترى الأنوثة مظهراً للضعف والاستسلام، بينما كانت عقيدتها فى الحياة أنها ينبغى أن تكون للقوى الذى يأخذ لا للضعيف الذى يعطى وينقاد، وقـد بقيت كراهيتها للرجل مستقرة فى نفسها ، وإن كانت قد تحولت إلى احتقار شديد له ، وإلى رغبة قوية فى إذلاله وإخضاعه .

وعلى الرغم من هذه الحـيـاة البـعـيدة عن الأنوثـة ومن سن الأربعين التى كانت قـد ناهزتها ، فقـد ظلت امرأة جمـيلة يشتهيـها الرجال ، وإذا كـانت قد فقدت الكثير من سحر الأنوثة ورقتهـا فإن مظهرها المسترجل كان يضفى عليها طابعًا غريبًا أصيلا من الفتنة : مزاجًا من الوحشية والجمال والرهبة الغامضة فى وقت واحد .

هكذا كـانت السيـدة باربارا : غريزة طاغـية ، وإيمان بالخـرافة والشـعوذة ، شراهة إلـى المال وقسوة مـريرة تنضح بالشر ، وعـلى الرغم من ذلك فقـد كان يقبع فى أعماق نفسها المظلمـة شىء صغير طاهر ، هو ذكرى أسدروبال المؤلمة، ذكرى الحب الوحيد الذى مر على روحها مرور الطيف، والذى كان من الممكن أن يحولها إلى امرأة طيـبة ، ولكن هذه الذكرى نفسها كـانت أشبه بإله من آلهة الشر لا تتم طقوس عبادته إلا إذا قدمت إليه قرابين من التضحيات الغالية ، فقد كانت تلح عليها دائمًا ذكرى أسدروبال كلما جمعها القدر برجل يستحق منها أن تنصب له الحبائل ؛

الفصل الرابع

طريق واحدة وألف طريق مختلفة

مجاز « شجرة الخروب » يؤدى إلى ضيعة « ألتاميرا » بعد أن يخترق عدة منخفضات تحدد وجه الربى الحافة بمجرى « الأراوكا » .

وما إن نزل سانتوس لوثاردو من القارب الذى كان يحمله وقرب من ذلك المجاز حتى خرج يعلن عن وصوله نافخًا فى بوق من المحار ، وعلى صوت ذلك البشير خرجت عدة فتيات مطلات من أعلى الربوة لينظرن إلى القادم الجديد ، بينما هرع إلى شاطئ النهر ثلاثة صبيان ورجلان .

وتفرس سانتوس لوثاردو هذين الرجلين ، فعرف فى أحدهما « أنتونيو ساندوفال » بوجهه المستدير ولونه الزيتونى وسحنته التى يتميز بها أهل وادى « الأراوكا » ، كان هو أنتونيو « راعى البقر » كما كان سانتوس يدعوه فى أيام طفولته فى ضيعة ألتاميرا ، ورفيق صباه فى جولاته من أجل اشتيار عسل النحل والبحث عن أوكار العصافير .

وما إن تقدم سانتوس من الرجل حتى رفع هذا قبعته على رأسه محييًا فى احترام ، ولكن سانتوس ألقى عليه ذراعيه يعانقه على نفس الصورة التى سبق أن ودعه بها منذ ثلاث عشرة سنة مضت ، وتأثر التابع الأجير ؛ فانطلقت منه صيحة انفعال :

– سانتوس !

وقال له لوثاردو ويداه ما تزالان على كتفيه :

– إن ملامحك لم تتغير أبدًا منذ افترقنا يا أنتونيو !

وعـــاد التابع إلى تمالك شـعـوره بالفــرح وإلى مخاطبتــه باحـترام التابع إلى سيده :

- أما أنـت يا سيـدى فـقـد تغيـرت كثـيراً ، وتحـولت إلى شخص آخـر ، بحيث لو لم أكن أعلم بنبأ وصولك على المركب لما تعرفت عليك !

- إذن لم يكن قـدومى مـفاجـئًـا لك كمـا كنت أظن ! ومـا الذى أدراكم بوصولى على ظهر ذلك المركب ؟

- يبدو أن الخـبر أتى به إلى « ضـيعـة الرعـب » التابع الأجيــر الذى كان يرافق « الساحر » .

- آه ! . . . حقًـا . . . لقد كانا رجلين ، ولا بد أن يكون أولهمـا قد وصل مساء أمس بطريق البر .

- إن الذى أوصل إلى الخـبر هو « خوان بريميـتو » : وهو رجل أبله يـعمل هناك فى « ضـيعـة الرعب » ، وهو مع ذلك لا تخـفى عليه شـاردة ولا واردة ، حتى إنه أشبه ما يكون بجهاز استـقبال برقي يلتقط الأنباء ويذيعها فى لحظات . وبهذه المناسبـة فإنى ظللت طوال اليوم مشـغولاً قلقًا بسبب ما تبـينته من إلحاح «الساحـر» على مرافـقتك فى المركب ، وقـد كنت أتحدث عن ذلك مع رفـيقى «كارمليتو» حينما انطلق صوت البوق مبشراً بقدومك .

وكان يشير إلى زميله الذي يرافقه ، واستطرد مقدمًا إياه إلى سانتوس لوثاردو .

- « كارمليـتو لويث » . . . رجل يمكنك يـاسيدى أن تثق به ثقـة عمـياء ، وهو حديث العـهد بالخدمة هنا ، ولكنه من المعـروفين بالولاء والإخلاص لكم إلى أبعد حد ممكن .

- فى خدمتكم ياسيدى .

قالها الرجل فى اقتضاب وجفـاف وهو يرفع يده إلى قبعته فى احترام بارد دون أن تدرك أنامله حـافة القـبعـة ، وكان « كـارمليتـو » رجلا حـاد التقـاطيع

مستقيم خطوط الوجه مقرون الحاجبين ، يبدو لأول وهلة كما لو كان رجلا بعيداً عن الدماثة ولطف المعشر ، شديد التحفظ والانطواء ، ولاسيما فى محضر الغرباء الأجانب .

وعلى الرغم من هذا المظهر الجاف البارد فإن ما وصفه به أنتونيو جعل سانتوس لوثاردو يطمئن إليه ويشعر نحوه بالارتياح والثقة ، وإن كان قد فطن إلى أن هذا الشعور لم يكن متبادلاً بين الجانبين ، فقد شعر فى نظرات «كارمليتو» إليه بأنه لم يلق منه قبولا طيبًا .

والواقع أن كارمليتو كان كما وصف رفيقه أنتونيو من الإخلاص لأسرة لوثاردو ، فقد كان من التابعين الثلاثة أو الأربعة الذين ظلوا متمسكين بالولاء لتلك الأسرة ، والذين كانوا مستعدين للتضحية بكل شيء من أجل إعانة سيدهم على تلك الحرب التى قرر أن يشنها على أعداء عائلته وهاضمى حقوقه ، ولم يكن قد مر على التحاق كارمليتو بخدمة سانتوس إلا زمن قصير ، ولكنه لم يفكر فى مغادرة الضيعة على الرغم مما كان يتعرض له من مضايقات « بالبينو بايبا » وعنته ، وإذا كان قد بقى فى « ألتاميرا » فما كان ذلك إلا نزولا على رغبة صديقه أنتونيو الذى كان محافظًا كل المحافظة على سلوك أسرته التقليدى فى الإخلاص لآل لوثاردو والتفانى فى خدمتهم ، ومن أجل ذلك كان يجتهد بكل ما وسعته قوته فى الإبقاء على القلة الباقية من الأجراء الأوفياء فى « ألتاميرا » ، وكان يمنيهم بقرب اليوم الذى سيأتى فيه سانتوس لوثاردو لكى يتكفل هو بنفسه بأمر الضيعة ويرعى شئونها ، ولهذا فإن كارمليتو ، مثله فى ذلك كمثل صديقه أنتونيو ، لم يسمع بخبر قدوم سانتوس حتى ابتهج واستبشر ، فقد قدر على الفور أن « بالبينو بايبا » سيطرد من العمل الذى كان يتولاه ، وسيطالب بتقديم حساب عن سرقاته وخياناته ، وأنه سيوضع أخيراً حد للجرائم التى ارتكبتها السيدة باربارا ، وبهذا تستقيم الأمور وتصلح ، وتعود المياه إلى مجاريها .

غيـر أن كارميلتـو لم ير سانتوس لـوثاردو حتى خاب فـيه ظنه ، فقـد كان بالنسبـة له أبعد ما يكون عن مـثال الرجولة الذى كـان يتخيله فـيه ، بدا له ذلك منذ اللحظات الأولى التى وثب فـيهـا عن ظهر المركب ، فـقد رأى فى مظـهره المعتـد بنـفسـه غــروراً وخيـلاء ، ولم ترق له دقة تقـاطيع وجهه ورقـة بشرته التى لم تلوحـها الشـمس إلا مدة أيام رحلتـه ، ولا إشاراته المهـذبة المعبـرة عن دماثة الخلق ، ولا شـاربه الحليق فى جهات يعـتبر الشـارب الكثيف فيهـا رمزاً للرجولة ، ولا ثيابه الأنيقة الضيقة ، ولا سراويله الواسعة من أعلى والتى تضيق حـتى تلتـصق بالركـبـتين بـدلا من حـذاء الركـوب الطويل الذى كـان شـائع الاستعـمال هناك ، ولا رباط عنقه الذى ينم عن إسراف فى التـأنق فى مثل هذه الأراضى البـدوية الخشنة ؛ كل ذلك بدا لكارمـليتـو مـن مظاهر اللين والميوعـة التى لا تبعث على الاحترام .

وصر الرجل على أسنانه وتمتم فى غيظ :

- أهذا هو الرجل الذى علقنا آمـالنا عليـه ؟ وما الذى يصلح له مـثل هذا الفتى المرفه الرقيق ؟ .

وفى هذا الوقت كان أبو أنتونيو يتوجه إلى المرسى الذى نزل به سانتوس ، وكـان عجـوزاً قـد تغـضـن وجـهـه وإن كان شـعـره قد ظل فـاحم السـواد ، وكان يتمايل فى مشيته كأنه يظلع ، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه .

ولم يشاهده سانتوس حتى هرع إليه يصافحه فى حرارة وهو يصيح :

- « مليسـيو » العـجوز ! . . . الذى لم يترك مـر السنين على رأسه شـعرة واحدة بيضاء !

وأجاب الكهل ضاحكا :

- . . . ولا الهنود يقدرون على رسمها ياطفلى العزيز !

وبقى يمازح سانتوس لحظة وقد انفرجت أساريره بالضحك . . . ضحكة صامتة بدا خلالها فمه الأهتم ولثاته التى سودها ما يلوكه من التبغ ، ثم واصل حديثه قائلاً :

- . . . وهكذا أرى أن « الولد سانتوس » لم ينسنى بعد ! ولتدعنى أخاطبك هكذا بلفظ « الولد » كما كنت أخاطبك منذ أن كنت طفلا تحبو حتى أتعود على تلقيبك بالدكتور ، فأنت تعرف أن الشيوخ من أمثالنا لا تنقاد ألسنتهم اليابسة بسرعة للألقاب الجديدة .

وأجاب سانتوس وهو يبتسم :

- لك أن تدعونى بما شئت أيها العجوز !

- وإن كان ذلك لا يمنع الاحترام الواجب ، أليس كذلك ياولد ؟ والآن تعال إلى منزلى لتنال قسطًا من الراحة قبل أن تواصل المسير إلى الضيعة .

ومضى الركب فى طريقه صاعدين فى السكة المنحدرة الخارجة من المرسى ، وكانت تمتد على يمين الطريق أسيجة الحظائر التى كانت تتجمع فيها قطعان الماشية الخارجة من هناك إلى المراعى المجاورة ، وقد ابيض خشبها من تعرضها للجو ، وعلى اليسار كانت ترى مجموعة من المساكن التى تتميز بها هذه السهول : بيتان بنيت جدرانهما من روث الماشية وسعف النخيل كانا مسكن مليسير وأسرته ، وفيما بينهما كوخ مستدير له سقف واطئ غليظ من السعف ، وفى وسطه مائدة طويلة يحيط بها عدد من المقاعد الخشبية الطويلة ، وعلى مقربة منه كوخ آخر أوسع وأعلى سقفًا قد ربطت إلى أعمدته ركائب أنتونيو وكارمليتو والمطية التى سبق لهما إحضارها من الضيعة من أجل سانتوس ، وتدلت من حواجزه المصنوعة من خشب النخيل قطع من جلود الظباء وحيوان «التشجويرى»* حديثة العهد بالدبغ ، إذ كانت تنبعث منها رائحة كريهة نفاذة .

وإلى وراء هذا الكوخ امتد صف من أشجار البرقوق الوارفة وشجرة الخروب الفارعة التى سمى باسمها المجاز المؤدى إلى ضيعة التاميرا . وفيما عدا ذلك لم يكن الناظر يرى أمامه إلا السهول الواسعة المنبسطة والمراعى التى لا يحيط بنهايتها إلا الأفق المستدير ، وفى وسط هذا الامتداد الهائل الأجرد بدت كتلة سوداء من الشجر معلقة فى الجو كما لو كانت سرابًا ، وهى غابة منعزلة جرى أهل السهول على أن يطلقوا عليها اسم « الخميلة » .

ومد سانتوس بصره فى الفضاء وصاح فى انفعال :

- ألتاميرا ! . . . كم من السنوات مضت دون أن أراك ؟!

وكانت الفتيات اللاتى أطللن من الربوة على القادم الجديد قد هرعن إلى داخل البيتين المجاورين ، ونظر إليهن مليسيو الكهل ثم علق يقول :

- إنهن حفيداتى . . . فتيات «لم يستأنسن» بعد كما اعتدنا هنا أن نقول . . . لقد ظللن طوال عصر اليوم وعيونهن معلقة بشاطئ النهر فى انتظارك ، فلا تكاد تصل حتى يتهربن ويختبئن فى داخل البيت !

وتوجه سانتوس بالسؤال إلى أنتونيو :

- أهن بناتك يا أنتونيو ؟

- لا ياسيدى ، فأنا لم أثقل نفسى بعد بمثل هذا العبء والحمد للّه .

وأضاف مليسيو الشيخ :

- هن حفيداتى ، ولكن من أبنائى الآخرين . . . الذين انتقلوا إلى رحمة اللّه .

وانتقل الرجال الأربعة إلى ناحية الكوخ الأصغر ، وكانت أرضه قد كنست بعناية ، أما المقاعد الخشبية فقد صنعت على هيئة حدوة الحصان كما لو كانت أعدت لقضاء سهرة من تلك السهرات الصاخبة التى يقضيها الرعاة فى الغناء والرقص للتفريج عن أنفسهم ، وفى وسط هذه المقاعد المتراصة ،

وفى مكان الشرف منها كرسى وثير قديم يعد من مظاهر الترف فى وسط الأثاث البسيط المتواضع الذى تشتمل عليه بيوت أهل السهول ، وقد كان من الواضح أن هذا الكرسى أعد لجلوس الضيف موضع الحفاوة . وصاح مليسيو بعد لحظات :

- آخرجن يابنات ... وكفاكن اصطناعا للخجل ... أقبلن لتحية الدكتور.

وكانت حفيداته الثمانى قد توارين خلف الأبواب ، وكن بالفعل مشوقات إلى تحية الضيف القادم ، وإن كن يحاولن إخفاء خجلهن بالتضاحك والتدافع فيما بينهن .

- اخرجى أنت أولا .

- ولماذا لا تخرجين أنت ؟

وأخيراً أقبلن فى صف واحد ، واحدة وراء الأخرى ، كأنهن يمشين على حافة طريق ضيق ، وهن يكررن جملة واحدة لا تتغير كأنهن ينشدن قطعة من المحفوظات :

- كيف حالك ياسيدى ؟ كيف حالك ياسيدى ؟ كيف حالك ياسيدى ؟

بينما كان مليسيو يتولى مهمة تقديمهن :

- هذه هى « خرفاسيا » بنت « مانويل » ، وتلك هى « فرنسسكا » بنت « أندريس رامون » ، وهذه الأخرى هى « خنوفيفا » ، والتى تليها هى «ألتاجراسيا» . . . بُقَيْرات أسرة ساندوفال كما يسميهن الناس هنا ، أما من الذكور فليس لى إلا الصبيان الثلاثة الذين أنزلوا أمتعتك وحقائبك من القارب . . . هذه هى التركة التى أورثنى إياها الأبناء . . أحد عشر فما كل منها كامل عدد الأسنان .

فلما زال عنهن خجل التحية الأولى والتقديم أقبلن يجلسن على المقاعد المصفوفة واحدة إلى جانب الأخرى بنفس الترتيب الذى دخلن به ، وبقين لحظات لا يعرفن خلالها ما يصنعن بأيديهن ولا أين يتجهن بأبصارهن ولم تكن كبراهن « خينوفيفا » تجاوز السابعة عشرة ، ونظر سانتوس إليهن ، فرأى من بينهن فتيات على جانب من الوسامة قمحيات البشرة وإن كان لونهن مشربًا بالحمرة ، سود العيون ، لامعات النظرة ، يدل مظهرهن على الصحة وقوة البنية .

وبدأ سانتوس الكلام متوجها إلى مليسيو :

- إنى أغبطك يامليسيو على هذه الأسرة التى يبعث أفرادها الابتهاج والسرور فى النفس ، فكلهم أقوياء أصحاء الجسوم ، وأرى من ذلك أن هذه المنطقة لا تسودها الأمراض التى طالما تفتك بسكان هذه السهول .

وأجاب العجوز وهو ينقل مصاصة التبغ من فك إلى فك :

- سأقول لك ياولدى : حقا إن جو هذه المنطقة لا تكثر فيه الأمراض كما تكثر فى غيرها من السهول التى مررت عليها فى طريقك ، ولكن لا تحسب أننا بمنجاة من بلائها . ولك فى محدثك عبرة : فقد أنجبت أحد عشر ولداً لم يصل منهم إلى سن الرجولة إلا سبعة فقط ، وها أنت ذا ترى أنه لم يبق لى الآن منهم إلا أنتونيو ، وبمثل ما أقول لك يمكنك أن تسمع من كثير من أهل هذه النواحى ، ولكننا في هذه الأرض نحسن الصبر ونوطن أنفسنا على الاحتمال ، جعلها اللّه ساعة سعد وفألا طيبًا تلك التى أقول فيها مثل هذا الكلام ، وأبعد الحسد عن جميع الحاضرين فى هذا المجلس بمنه وفضله ، ولكنى أود أن أذكرك بأن الأمراض هنا ليست قليلة ولا خفيفة المئونة .

وتوقف الشيخ لحظة بصق فيها مصاصة التبغ المرة ، ثم واصل الحديث عائدًا إلى اللغة المجازية التى يستخدمها أولئك الرعاة الذين درجوا ونشأوا بين الماشية ، وخاتمًا كلامه فى لهجة استسلام للقدر تشوبه الدعابة :

- وإذا كنت فى شك مما أقول فانظر إلىّ : لم يبق لى الموت إلا صغار الرءوس أما الماشية الكبرى - أعنى الأبناء وزوجات الأبناء - فقد أتى عليها دود الأرض .

وأطلق مليسيو ضحكته الخافته الصامتة من جديد .

وأراد سانتوس أن يغير مجرى الحديث حتى يبتعد به عن هذا الموضوع الحزين المثير لذكريات الأسى فى نفس الشيخ ، فقال :

- ومع ذلك فكم من الشيوخ من أمثالك يا مليسيو يتمنون أن يكونوا فى مثل موضعك يحيط بهم هذا العدد الكبير من الحفيدات الجميلات ، وتمتمت خنوفيفا كبرى البنات :

- هذا من تلطفك ورقتك ياسيدى .

بينما همهمت الأخريات بمثل هذه العبارة وقد علت وجوههن حمرة الخجل ، وأطلق العجوز زفرة عميقة ثم قال :

- وهل تظن أن ذلك ما يملأ النفس بالسعادة والفرح ؟ إننى ما أكثر ما أتمنى أن يكون اللّه قد أبدلنى بهن سربا من الدميمات إذ إن أمثال هؤلاء يمكن لهن أن يرعين طليقات دون أن يتجشم المرء عناء حراستهن أو مراقبتهن ، أما الجميلات فما أشد ما يكلفننى من نصب ، حتى النوم لا أستطيع أن آخذ منه قسطا فى هدوء وسكينة ، بل إنى لا أستقر على فراشى إلا كما يستقر الكروان الذى ينصب أذنيه دائمًا في حذر وترقب خوفًا من الثعلب ، وهكذا أنا : كثيراً ما أنهض من فراشى بين لحظة وأخرى ، فأهرع إلى حيث يرقدن لكى أعدهن واحدة واحدة ، ولا يستريح لى بال حتى أطمئن إلى وجود الفتيات الثمانى بالتمام والكمال .

وعادت الضحكة الصامتة إلى الارتسام على وجهه الذى رسمت الغضون والتجاعيد عليه ألف خط ، أما البنات فقد عادت حمرة الخجل تصبغ وجوههن ، وهن يجتهدن فى التغلب على الضحك ، ويقلن فى همهمة لا تكاد تبين :

- تبارك اللّه ياجدى ! أي كلام تقول ؟ !

وظل المجتمعون في حديث متبسط وقد ارتفعت الكلفة بين سانتوس وأصحابه ، وهو بين الفينة والأخرى يداعب الفتيات بعبارة مرحة ، وهن يتصايحن مرحات أو يخفضن رءوسهن فى حياء ، ومليسيو العجوز ينظر إليهن وقد ارتسمت على وجهه المغضن ضحكته الصامتة ، وأنتونيو يرمق سانتوس بنظرة ملؤها الإعجاب والولاء .

وقدم فى تلك الأثناء أحد الصبيان بأقداح القهوة التى لا يخلو منها أبداً بيت أحد من سكان السهول من أجل تحية الضيف الطارق .

وقال مليسيو والغلام يقدم قدح القهوة إلى سانتوس :

- إنك ستشرب القهوة من نفس القدح الذى كان يحتسيها فيه والدك أظله اللّه برحماته .

وسادت لحظة صمت قطعه العجوز أخيراً بقوله :

- وهكذا كان من نعمة اللّه علىَّ أننى لم أمت قبل أن أرى « سانتوس » الولد من جديد !

- شكراً لك ياعم .

- مالك أن تشكرنى عل ذلك ، فلست أقول هذا مجاملة لك ، لقد ولدت أنا وتربيت فى أسرتكم ، وفى أسرتكم ينبغى أن أموت ، إن الناس فى هذه الجهات يقولون عن عائلتنا حينما يعرض ذكرها إن أهل « ساندوفال » حينما يولد لهم ولد يَسِمُون ظهره بميسم أسرة لوثاردو .

- نعم . لقد كنتم دائما تقاسموننا حياتنا : حلوها ومرها ، خيرها وشرها .

- هكذا كنا ، وأرجو أن نظل أوفياء لكم دائمًا ، أبعد اللّه عنا شر الحسد ، وأنا أكرر ذلك لكى يسمعه هؤلاء الصبيان الحاضرون لمجلسنا حتى يسيروا فى نفس الطريق . نعم ياسيدى ، قاسمناكم حياتكم دائما وأخلصنا لكم رغم كل شىء ، وسنظل مخلصين : نتكلم حينما يأتى علينا دور الكلام ، ونسكت طالما لم نسأل ، على أننا لم نتخل فى يوم من الأيام عن واجب كان علينا أداؤه. وإذا كانت قد حدثت هَنَاتٌ لا أريد الخوض فيها الآن ، فمن يكن سائلا لنا عن ذلك فإليه الجواب - وهو ما كنت أردده دائمًا لابنى أنتونيو - : إن بنى ساندوفال لا يتخلون أبدًا عن بنى لوثاردو إلا إذا بدا لكم أن تخرجونا عن أرضكم . . . فعندئذ . . .

وقاطعه ابنه أنتونيو قائلا وهو يبتسم :

- كفى ، كفى يا أبى . . . فإنهم لم يسألونا عن شىء بعد !

وأدرك سانتوس ما كان يرمى إليه مليسيو بقوله « ونسكت طالما لم نسأل » إذ أراد العجوز بهذه العبارة أن يسبق ما كان يمكن أن يوجهه سانتوس إليه وإلى أسرته من عتاب على كونهم لم يبلغوه بما كان يرتكبه وكلاؤه ومدبرو أمره من سرقات ، كما عبر بها عن امتعاضه وامتعاض أمثاله من المخلصين لأسرة لوثاردو لاضطرارهم إلى الخضوع لهؤلاء الوكلاء اللصوص المرتشين من أمثال بالبينو بايبا الذى كان دخيلا على تلك الأرض ، بل إن لوثاردو لم يكن رآه قط من قبل ، وأراد سانتوس أن يلطف الجو فقال :

- نعم إنى أدرك تماما ، وأعترف بأن المخطئ والمسئول الوحيد عما حدث هو أنا ، إذ كان ينبغى علىَّ أن أعهد إليكم أنتم برعاية مصالحى هنا بدلا من أولئك الدخلاء ، ولكن الحقيقة هى أننى لم أهتم أبدًا بتلك المصالح ولا بالضيعة نفسها .

وقال أنتونيو فى معرض الاعتذار والتبرير :

- إن دراساته لم تدع له وقتا كافيا لذلك .

وأضاف سانتوس :

- نعم ، والبعد الطويل عن هذه الأرض .

وعلق مليسيو :

- البعد عن هذه الأرض ! . . . نعم ، هذا أسوأ ما فى الأمر يابنى .

وواصل سانتوس كلامه قائلا :

- إننى أدرك الآن تماما مدى حرج موقفكم فى « ألتاميرا » إزاء كل ذلك .

فقال أنتونيو :

- نعم . مقومين ما اعوج من أمورنا بقدر ما نستطيع .

وأضاف العجوز بأسلوبه المجازى المعهود :

- وما أكثر ما تعرضنا له من العنت والإرهاق حتى اضطررنا أخيراً إلى أن نتظاهر بأنه قد رُوِّضَ منا العصى واستؤنس الجامح ، بل إن أنتونيو لم يجد بدا من أن يعلن خضوعه وطاعته لذلك النذل « بالبينو » ، وأن يتظاهر بالانقلاب عليك والعداوة لك حتى لا يأمر بطرده . وبهذه المناسبة أظنك قد لاحظت أن هذا الرجل لم يأت لاستقبالك ! .

فأجاب سانتوس :

- نعم ، وأحمد الله على ذلك ، فلعله خير وأفضل ، بل ليته يرحل عن الضيعة قبل أن أصل أنا إليها ، وإلا فأىَ حساب يمكن أن يقدمه إلىَّ إلا ما اعتاد أن يقدمه هو ومن سبقوه من سرقة وغش وتزوير ؟ وعلى أية حال فأى عقاب أستطيع أن ألحقه به إذا كنت أنا المسئول عن كل ما وقع ؟

وكان كـارمليتـو فى هذا الوقت يحكم وضع السروج على الخـيل المربوطة إلى أعمدة الكوخ الكبير ، فما إن سمع جواب سانتوس حتى تمتم قائلاً لنفسه :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ ها هـو ذا يتـمنى اجـتناب أى تصـادم له مع الوكـيل الخـائن على الرغم من اعتـرافه بغشه وسرقـته . ياله من رجـل ! لقـد حـدث ما توقـعت ، وما كنت مـخطئا حينمـا قلت إن هذا الفتى الرقـيق الناعم لا أمل يرجى من ورائه . أما الرحـيل عن هذه الضيعة فلأكـونن أنا أول راحـل ؛ فإننى لا أقبل المقام فى مثل هذا الجو بعد اليوم .

وربما دار فى نفس أنتـونيـو مثل هذا التـفكيـر أيضًـا على الرغم من الولاء الذي كان يملأ نفسه نحـو سانتوس حينما سمع هذا يُصَرِّحُ بالرغـبة فى السماح لوكيله بالمضى عـن الـضيعة فى هــدوء دون أن يحـاسبه عــلى مـا قدمت يداه من خيانة ، فزوى أنتونيو ما بين حاجبيه فى استياء وظل صامتا .

أما سانتوس فـقد أقبل يحتسى قهوته رشفة رشفـة فى تلذذ على عادة أهل السهـول الذين لا شيء عندهم يعـدل المتعة التـى يجـدونهـا فى ترشف قــدح من تلك القـهـوة السـوداء ذات الرائحـة الذكـيـة ، ومع هذه الرشـفـات أحس سانتوس بشعور عنيف يهز نفسه وهو يتأمل المروج الممتدة أمام بصره .

كان كل مـا حوله يجدد فى نفسـه ذكرى هذه الأرض التى قضى فيـها أيام طفولتـه : أشعـة الأصيل المنسكبـة على السهول الهـائلة المنبسطة الـتى يسودها سكون مطبق ، والكوخ المتـواضع الذى كـان جالـسا فى ظله يتـمـتع بنسمـات العصر البـاردة ، والفتيات الجالسات أمامـه فى حياء وقد لبسن حـفاوة به أفخر مـلابسهن وزين رءوسـهن بأزهار برية جـمعنهـا من تلك المروج بعـد أن ظللن اليـوم كله يتـرقبن وصـوله ، وفـرحة العـجـوز الصـادقـة وهو يرى أن « الولد سانتـوس » لم ينسه بعد ، والولاء الصـامت النبيل الذى يطل من عينى أنتـونيو

وإن كان يشـــوبه بعض امتـعــاض واستيـــاء ، كل ذلك كان يقـول لسانتوس إن في هــذه الأرض خيراً وطيبة ، وإن العـداء والشر لم يكونا فيها كل شيء ، إن تلك الأرض التي فكر في هجرها وقطع صلته بها مـازال فيها ناس صالحون يحبون ويقاسون ، ولا ييأسون .

وغادر سـانتوس دار مليـسيو ، وهذا الشـعور الذي أزال الجفـوة بينه وبين هذه الأرض يملأ عليه نفسه ، وكانت الشمس قد انحدرت للمغيب .

مضى ســانتوس عـبر السهــول العـريضـة . . . السهول التي تبدو للناظر كما لو كانت طريقا واحدة . . . وألف طريق مختلفة في الوقت ذاته .

الفصل الخامس

حربة في الحائط

كان الركب يتقدم ببطء فى الطريق الضيق الذى شقته حوافر الماشية فى وسط المروج ، وكانت الخفافيش تتطاير عن جانبيه وقد أعشت أبصارها الأشعة الأخيرة للشمس المنحدرة للغروب ، ومن هنا وهناك كانت أصوات الكروان الحادة تشق الصمت المخيم العميق .

وعن بعيد بدت بعض الظباء وهى تغذ الجرى هاربة أزواجًا ، حتى تغيب عن النظر فى نهاية الأفق . وكانت ألوان الشفق الدافئة الصارخة تصبغ المروج الفسيحة ، وقد لاح فى وسطها شخص فارس يقود قطيعًا من الماشية وهو على على صهوة جواده ، وقد انفلتت من مجموعته هنا وهناك ثيران وحشية قد شهرت قرونها فى تَحَدٍّ وزهو ، أو انطلقت تجرى فى جموح واستعصاء ، بينما انقاد سائرها المستأنس فى طريقه خطوةً إلى الحظائر ، حيث ارتفعت سحب من الدخان الأبيض مما اعتاد الرعاة على أن يحرقوه من روث البقر عندما يجن الليل حتى يبعدوا عنهم أسراب البعوض التى تقلق نوم الناس والماشية ، وتراءت عن بعد عاصفة من الغبار أثارتها حوافر فوج من الخيول المتوحشة ، بينما كانت جماعة من الطيور البَلَشُون(*) متخذة سبيلها فى الفضاء متجهة إلى الجنوب واحدة وراء الأخرى فى نظام واتساق .

غير أن المنظر فى السهول المنبسطة أمام ناظرى سانتوس كان يثير الانقباض فى النفس ، وقد كان يذكر ما قيل له من قبل إن ضيعة « ألتاميرا » لم يعد فيها من الماشية إلا رءوس قليلة مهزولة ، ولكنه كان يعتقد أن ذلك لم يكن إلا ضربًا

من ضروب المبالغة ، على أنه يرى بعينيه كيف لم يبق على بسيط المروج الهائلة إلا ما يبلغ نحو مائة من الرءوس المستأنسة والمتوحشة ، بينما كانت فى أيام أبيه خوسيه لوثاردو قطعانًا من البقر والخيول لا يحصيها العد .

ولم يتمالك سانتوس نفسه وهو يرى حطام هذه الثروة من أن يهتف فى غيظ وقنوط :

- لقد انتهى كل هذا ! . . . وماذا أتيت أستنقذ فى هذه الأرض إذا لم يعد فيها ما يستحق الإنقاذ ؟!

وأجابه أنتونيو :

- عليك ياسيدى أن تقدر الموقف: إن ماشية هذه الأرض كانت بين نارين: فالسيدة باربارا من ناحية ، ثم عصابة من الوكلاء الخونة لا مجال للمفاضلة بينهم فى باب السرقة واللصوصية من ناحية أخرى ، وقطاع الطرق ممن تخصصوا فى السطو على المواشى منقضين عليها من أوكارهم على ضفاف « الكونافيتشى » لكى يحملوا منها ما طاب لهم كما ينقض الفيضان على أرض العبيد التى لا يحميها أحد ، وأضف إلى ذلك ما ألحقت بها الثورات المتعاقبة وما خلفته من خراب فى هذه المنطقة ، ثم لجان الحكومة التى كانت تأتى إلى هذه الأرض لكى تبحث عن الخيول ، وكانت تستسهل أخذها من هنا ؛ إذ إن السيدة باربارا هى التى كانت تدلهم على هذه الضيعة حتى لا يستولوا على خيولها هى .

وختم سانتوس كلامه قائلا :

- إنها لمصيبة ! . . . الخراب الذى حل بهذه الأرض وإن كنت أستحقه وأكثر منه !

ولكن أنتونيو استطرد وهو يحاول التخفيف عن سيده :

– ومع ذلك ياسيدى الدكتور فما زالت فى هذه الأرض حتى الآن ثروة كبيرة من الأبقار الوحشية ، ولله الحمد على ذلك ؛ إذ كان من الممكن أن تمتد إليها الأيدى أيضًا ، فقد كان من حسن الحظ أن حملات النهب والاغتصاب من «ألتاميرا» قد اقتصرت على الماشية المستأنسة ولا سيما منذ أن كثرت العناية بصناعة الجبن ، ولهذا فقد اكتفى الوكلاء حتى الآن بالسطو على ما يستطيعون منها ، وأعرضوا عن الأبقار الوحشية لا زهدًا فيها ، وإنما من أجل العناء الذى كانوا يجدونه فى استئناسها ، وكان من لطف اللّه بنا أن بقى الكثير من هذه الأبقار ، وسوف تمضى فى ليلة من الليالى القادمة إذا شئت إلى المرج الذى ندعوه « الخميلة اللوثاردية » حتى ترى بنفسك مدى الثروة التى تعنيها تلك القطعان والتى تستحق أن تجاهد من أجل المحافظة عليها والدفاع عنها . ولو أنك تأخرت فى القدوم عدة أيام فقط لما وجدت حتى هذه الرءوس ، فقد كان « بالبينو بابيا » قد عزم على الفتك بها ليقتسمها مع السيدة باربارا ، وما ذلك بغريب منذ أن حل غرامها بقلبه ! . . .

وتساءل سانتوس وقد علته الدهشة :

– ماذا ؟ إذن بابيا هو العشيق الجديد للسيدة باربارا ؟

– ولكن . . . ألم تكن تعلم بهذا يادكتور ؟ ألم تكن تعرف أن هذا هو السبب الذى أتى من أجله إلى هنا؟ هذا هو على الأقل ما تقوله السيدة باربارا ؛ إذ تؤكد أنها هى صاحبة الفضل فى اضطلاعه بإدارة أعمالك فى « ألتاميرا » .

وأدرك سانتوس فى هذه اللحظة مدى خيانة ذلك المحامى الذى أوصاه باختيار بابيا وكيلا له ومدبرًا لأموره فى الضيعة ، فضلا عن كونه قد تسبب بإهماله وتواطئه مع غريمته فى فقد القضية التى رفعتها عليه ، وأربدّ وجه سانتوس وارتسم على قسماته المحنقة تعبير عن الصرامة والرجولة والعزم على الانتقام ، ولم يغب على كارمليتو ما يعنيه هذا التعبير الجديد الذى لم يكن ينتظره من رجل كان قليل الثقة فى نخوته ، فلاحت على شفتيه ابتسامة خفيفة ،

وكأنه شعر بالندم على ما حدثته به نفسه قبل ذلك بلحظات من الاستهانة بشأن سانتوس ، والارتياب في قدرته على الكفاح . أما أنتونيو فما كان ليفوت نظراته النافذة ما بدا على كارمليتو من تغير في نظرته إلى الفتى ، وداخل السرور نفسه من أجل ذلك ، لا سيما بعد أن كان قد بدأ هو نفسه يرتاب أيضًا في رجولة سانتوس وصلابة عزيمته .

وحدث أنتونيو نفسه وهو مسرور باكتشافه :

- لقد منَّ اللّه علينا برجل حقًا : إن سلالة « لوثاردو » لم تنقرض بعد !

وظل التابع الأمين ساكتًا وقد غمر نفسه شعور من الاحترام ، أما كارمليتو فلم يعلق بشيء ، وسادت فترة صمت طويلة لم يكن يسمع خلالها إلا وقع حوافر الخيل على أرض الطريق ، ومن بعيد بدا شبح الفارس الذى كان يقود القطيع ، وقد استحال إلى ظل أسود فى وسط الأضواء الخفيفة التى تلقيها على الأفق الشمس المحتضرة بينما انطلق فى الفراغ الهائل الأصم صوت غناء مستطيل النبرات يرجع أغنية من أغانى الرعاة .

ومضى سانتوس يتأمل المنظر المحيط به وذاكرته تعود به إلى أيام طفولته وصباه التى قضاها بين هذه الربوع ، فترك عينيه تجولان فى أنحائها ، واستولى على نفسه شعور من الحنين ألقى على روحه راحة وسكينة ، وأفرغ على قلبه بردًا وسلامًا ، فانبسطت أساريره ، وتواثبت على شفتيه أسماء تلك المروج التى طالما رتع بين جنباتها فى صباه :

- « الخميلة القاتمة » ، « الكرمة » ، « مرج النخيل » ، « لاتشوسميتا » . .

وما إن نطق سانتوس باسم هذا الموضع المشئوم ناشر سموم الخلاف والنزاع التى أدت إلى تفريق شمل أسرته وتدميرها حتى عصفت بنفسه نوازع من الحقد والغضب والمرارة عكرت عليه ما كانت نفسه قد استعادت من السكينة والسلام . ترى أكان ذلك نكسة من نكسات تلك الكراهية التقليدية الموروثة بين عائلته وأسرة « باركيرو » والتى كان يظن الزمن قد سحب عليها ذيول النسيان ؟

وبينما كان سانتوس يبحث فى قرارة نفسه عن جواب لهذا السؤال الذى كان مجرد تفكيره فيه يدل على وعى جديد ، إذا به يسمع «أنتونيو» وهو يتمتم، وقد استولى على نفسه أيضًا ذلك الشعور الحقود الذى كانت أسرته تحمله - بحكم التبعية والإخلاص - إزاء أسرة « باركيرو » :

- « مرج لاتشو سميتا » الملعون ! نعم ياسيدى ! . . . حيث يقيم الآن ذلك الشقى الذى حرض الابن على أبيه ، وكأنه يحاول أن يكفر بحياته البائسة التعسة عن خطيئته الشنعاء !

وكان أنتونيو يشير بعبارته إلى « لورنثو باركيرو » ابن عمة سانتوس الذى حرض فليكس لوثاردو على استفزاز أبيه فى تلك الليلة المنكودة التى اجتمع فيها أهل القرية فى حلبة مصارعة الديكة ، والتى انتهت بقتل خوسيه لوثاردو ابنه الأكبر . كان فى نبرات أنتونيو وهو ينطق بهذه الكلمات تَشَفٍّ هائل وشماتة مسعورة كما لو كان ما فعله لورنثو باركيرو موجهًا إلى أسرته لا أسرة سيده .

ولكن لهجة أنتونيو حركت فى نفس سانتوس من يقظة الضمير ما كانت حزازات الثأر القديم توشك أن تخمده ، فعادت إلى قلبه السكينة وغمره شعور من الغفران والرثاء لما حل بذلك الرجل ، فسأل تابعه وقد أحس بالراحة لتجرده من الشماتة :

- أما يزال لورنثو المسكين على قيد الحياة ؟

- بلى . . . إذا كانت الحياة هى مجرد تردد النفس ؛ إذ إن ذلك هو كل ما بقى له من الحياة ، إن الناس يطلقون عليه هنا اسم « شبح الباركيرينيا » فهو فى الحقيقة ليس إلا حطام رجل ، وهم يقولون إن « باربارا » هى التى أحالته إلي هذا المصير ، ولكنى أعتقد أن الأمر لم يكن إلا انتقاما رهيبًا أوقعه اللّه به بما قدمت يداه إذ إن شبابه قد بدأ يجف ويذبل قبل أن يعرف باربارا . . . منذ أن أغمد المرحوم خوسيه لوثاردو فى روحه حربته ! . . .

ولم يفـهـم سانتـوس ما كان يقـصده أنتـونيو على وجـه التحـديد من هذه العبارة الأخيرة ، ولكنه استـاء لزج ذكرى أبيه فى هذا الأمر المثير لكوامن المرارة والأسى ، ولهذا فقد غيـر مجرى الحديث ملقيًا على صاحـبه بسؤال عابر حول الماشية التى كانت ترعى هناك .

وغابت الشـمس أخيراً ، ولكن الشـفق الذى خلفـته وراءها ظـل مـعلقًا فى الأفـق وقتاً طـويلاً ، وقد خـط على الجو أشرطة عريضة من الألوان القاتمة لم يكن يقطعـها إلا الخط الدائرى الطويل الذى تـلتقى فـيه الأرض بالسـماء ، بينمـا أطل فى الاتجاه المقـابل قمـر هائل كامل الاسـتدارة ، كـان يصب ضـياءه المفـضضـة على أسطح البيـوت الصـغيـرة المتناثرة التى تتـوجت هاماتهـا بالتبن والسعف ، وكأنها غلالة بيضاء شفـافة . ومضى الركب فى طريقه إلى ألتاميرا ، فلم يصل إلى هناك إلا بعد أن خيم الليل وتراكب الظلام .

وأخيـراً بدت لسانتوس مـعالم البيت الكبـير الذى بنى من الطين والروث وقد اعـوجت جدرانه ، وتمزقت أسطحه ، وكانـت دهاليزه قد سقـفت بالصاج وأحيط بسور يحميه من الماشيـة ، ومن ورائه فناء قد زرعت فيه بعض الأشجار القصـيرة ، فأهل السهـول لا يدعون الشجـر الطويل إلى جوار منازلهم خشـية الصواعق ، وفى قـاع البيت المطبخ وعـدة غرف صغـيرة أعدت لتكون مـخازن للبطاطس والفول وغير ذلك من الخضر والغـلال اللازمة لقوت خدم الضيعة ، وإلى يمين المنزل الكبير انتثرت بيوت صغـيرة أحدها مخصص لسروج الركائب والخيول ، والأخرى لإقامة الخدم وإيواء الأجراء ، وقد بسطت فيما بينها ألواح عريضـة من الخشب أعدت لـكى تفرش عليهـا شرائح اللحم المملح للتـعرض للشـمس والهواء حـتى تجـفف وتقدد ، وإن كـانت لا تنجـو من تجمع أسـراب الذباب عليـها ، وإلى اليـسار مـخازن أخـرى لحفظ الذرة الشـامية والحـمص ، وللأخـشاب والحـبـال ، ثم حظائر للمـاشيـة والدواجن والخنازير . هكذا كـان المنزل الكبير القائم فى ضيعة ألتـامـــيرا ، على نفس الهيئة التى بناه بها مؤسس

الإقطاع إيفارستو « الكونافتشيرو » منذ سنوات طويلة مضت ، باستثناء ما أضيف إليه من الآجر والصاج ، فقد كان ذلك من الإصلاحات التى أدخلها عليه خوسيه لوثاردو والد سانتوس ، أما فيما عدا ذلك فقد ظلت الدار كما هى - بعيدة عن تهذيب المدينة وعنوانًا على هذه الحياة البدوية الخشنة التى يحياها أهل السهول .

ولم يدخل سانتوس ورفيقاه الدار حتى دبت الحركة فيها : فقد خرجت امرأتان كانتا فى المطبخ تطلان فى فضول لرؤية القادم الجديد ، وهرع ثلاثة رجال إلى مدخل البيت ، وكان هؤلاء هم كل من يقطن فى تلك الدار . وبدأ أنتونيو فى تقديمهم بأسمائهم وأعمالهم وصفاتهم إلى رب البيت :

أما الأول فكان رجلا ذا بشرة فى لون الليمون ، له شارب لا يتجاوز بضع شعرات مسترسلة ، وقدمه أنتونيو قائلا :

- « فنانثيو » المروض ابن « السيد فنانثيو » متولي صناعة الجبن . أتراك تذكر أباه ؟

- بغير شك . . . أسرة مرتبطة بأسرتنا منذ وقت لا يعرف إلا اللّه مداه .

فقال الرجل باقتضاب :

- ليس لدى ما أضيفه إلى ما قلت ياسيدى .

غير أن سانتوس رأى في وجه « فنانثيو » هذا ما سبق أن لحظة على وجه كارمليتو حينما قدم إليه من مظاهر الجفاف والبرود .

وواصل أنتونيو تقديمه للرجل الثانى ، وكان أشقر أحمر الشعر أزرق العينين يبدو من الهجناء المولدين .

- قائد القطعان « ماريانييبس » ، رجل من رجال السهول الخلص ، داهية بعيد الغور حتى فى اسمه الذى يبدو كما لو كان اسم امرأة ، وسوف ترى ياسيدى أى نوع من الرجال هو . . . إننى لا أقدم إلا الخلاصة والصفوة ! .

وأجاب الرجل فى أدب :

- هذا من تلطفك يا أنتونيو .

ثم عاد إلى سانتوس فقال :

- أنا يا سيدى فى خدمتك فى حدود القليل الذى أصلح له .

أما الثالث فقد كان رجلا شديد السمرة تدل تقاطيع وجهه على أن دماءه تجمع بين جنسى الهنود والزنوج ، وكان طويلا مهزول عظم الساقين والذراعين ، يتألق وجهه بالبشر والمرح رغم رثاثة ثيابه وبذاذة هيئته ، ولم يدع الرجل فرصة لأنتونيو حتى يقوم بتقديمه ، إذ سبق صاحبه قائلا :

- بعد إذنك يا سيدى الدكتور سأقوم أنا بتقديم نفسى حتى أتجنب ما يمكن أن يسبق به لسان رفيقى أنتونيو من إساءة وصفى والكشف عن عيوبى ؛ إذ إننى أرى الخبث مرتسما فى عينيه . أنا «خوان بالاثيوس» ولكنهم يطلقون علىّ هنا لقب «باخاروتى» ، وبه يمكن لك أن تدعونى ، ولست من أسرة « مرتبطة بأسرتكم منذ وقت لا يعرف إلا اللّه مداه » كما سبق أن قلت من قبل ، ولكنك تستطيع أن تعتمد علىّ فى كل ما تسع طاقتى ، ويكفيك أن تنظر إلىّ لكى تعرفنى ، فأنا رجل لا يختلف ظاهره عن باطنه ، بهذه الكلمات التى أرجو ألا أكون فيها مثقلا عليك أضع تحت تصرفك يا سيدى رجلا أسود البشرة يدعونه « باخاروتى » .

ومد الرجل يده مصافحًا سانتوس ، فشد عليها هذا بحرارة ، وقد أعجبه منه أسلوبه الصريح المرح ، أما أنتونيو فقد تمتم فى إعجاب بطلاقة رفيقه فى الكلام :

- هكذا يقال ياباخاروتى !

فأجاب الرجل فى زهو ساذج :

- نعم ، فإن اللّه لم يخلق الكلمات إلا لكى تقال ! .

وتبادل سانتوس مع رجاله بعض الكلمات ، ثم أوى إلى إحدى غرف البيت لكى ينال قسطًا من الراحة ، فلما خلا أنتونيو برفاقه الثلاثة وجه إليهم هذا السؤال الذى لم ير من الحكمة أن يفوه به فى حضرة سيده :

- كيف لم يبق فى الدار غيركم ؟ وماذا فعل الرجال الآخرون ؟

فأجابه فنانثيو :

- لقد ذهبوا عن الضيعة ، إنكم لم تكادوا أنتم تخرجون لاستقبال سانتوس حتى أسرجوا خيولهم وتوجهوا إلى « ضيعة الرعب » .

- والسيد بالبينو بابيا . . . أو لم يأت إلى هنا ؟

- لا . . . ولكن ذلك كله لم يكن إلا تدبيرًا منه ، ولقد كنت منذ زمن أشك فى كونه هو الذى يشجع الرجال على ترك الخدمة هنا حتى تحقق ظنى أخيرًا .

وقال أنتونيو بعد تفكير قصير :

- على أية حال لم نفقد الكثير بذهابهم عنا ، فقد كانوا جميعًا قومًا على غير خلق ولا أمانة ، كثيرى التظاهر بالعمل وهم لا يعملون فى الحقيقة شيئاً فضلا عن كونهم من صنائع بالبينو وأعوانه على دسائسه ومؤامراته .

وفى هذه الأثناء كان سانتوس لوثاردو قد استلقى على الفراش الذى أعد له فى إحدى غرف الدار ، وكان الإعياء والإرهاق بعد يومه المثقل بمشاق السفر قد أخذا منه كل مأخذ ، ولكن روحه كانت متيقظة وأعصابه متوترة ، فلم يذق طعمًا للنوم ، بل أخلد إلى تفكير عميق وأقبل يحلل أحاسيسه ومشاعره ويقلب موقفه على جميع الوجوه .

كانت نفسه حائرة قلقة بين تيارين يتجاذبانها : واحد منهما كان يدفعه إلى تحقيق ما كان يتراءى له من مثل نبيلة عالية ، والآخر يثبط من عزمه ويدعوه إلى الأخذ بالحذر وانتهاج سبيل عملية واقعية دون أن يورط نفسه فى مزيد من المتاعب والمشكلات .

كان يستولى عليه ذلك التفكير الذى تمخضت عنه تأملاته لتلك السهول الشاسعة المهجورة وهو فى طريقه إلى الضيعة : الرغبة فى أن يكرس حياته لخدمة هذه الأرض والعمل فى سبيلها من أجل غاية قومية سامية ، مكافحًا فى سبيل تخليصها مما هى معرضة له من عوامل الفساد سواء من قبل الطبيعة أو من قبل العناصر البشرية السيئة ، ومناديًا بالإصلاح الذى يمكن أن يوفر لسكان هذه البقعة ما يستحقون من رخاء ورفاهية ، كان سانتوس يشعر بهذا شعوراً ملحًا ، وكان يحس أنه فى ذلك لم يكن ينطق عن هوى أو رغبة ، بل كان إيمانًا مجرداً نزيهًا بواجبه إزاء بلده ووطنه إذ إن استرداد أرضه المغتصبة وحقوقه المهضومة كان أمراً غير ذى بال بالنسبة له ، وعلى أية حال فهو وسيلة لا غاية .

ولكنه يحس أن هذا الهدف الذى كان تفكيره يسمو إليه لم يكن يخلو من هذه النزعة الجريئة المندفعة المتحررة من قيود المنطق المتزن والقياس العقلى الذى يقدر المقدمات والنتائج ، فهو إلى حد كبير وليد تلك البيئة الجافية الخشنة التى ظلت حتى ذلك الوقت نصف همجية ، وتلك الأرض «أرض الرجال الذكور» كما كان أبوه معتاداً على تسميتها ، فالواقع أن جانبًا كبيراً من عزمه على الاحتفاظ بالضيعة ومقاومة السيدة باربارا إنما كان يرجع إلى هذا الحديث الذى دار بينه وبين قبطان المركب الذي أتى على ظهره من تحذير له من التعرض لتلك المرأة وتخويفه من بطشها ودسائسها ، لم يكن هذا التفكير فى البقاء إلا مظهراً من مظاهر تلك الشخصية العنيدة المقاتلة الكامنة فى نفسه .

وهو يتساءل أخيراً : ألم يكن هذا الاحتكاك بتلك البيئة هو الذى ولد فى نفسه من جديد مشاعر الكراهية التقليدية القديمة ، ونفض الرماد عن جذوة ذلك الثأر القديم بينه وبين أسرة باركيرو ، وذلك منذ طالعت عيناه موضع « لاتشوسميتا » الذى كان مصدر تلك الفتنة المهلكة ؟ أليس فى هذه العودة المفاجئة إلى تلك العصبية القديمة وإلى ما تولده فى النفس من عنف ونزعة

إلى الانتقام نذير له بمدى ما تباشره هذه الأرض من نفوذ على من يعودون إليها ؟ لقد عاش سانتوس لوثاردو طوال السنوات الماضية منذ هجرته إلى العاصمة فى جهاد مع نفسه يحاول أن يخمد فيها تلك الشرارة الهمجية الكامنة فيها وتلك النزعة الموروثة إلى العنف والاعتداد بالقوة ، وكان يظن أن حياته الجديدة بما فيها من تحضر وتهذيب قد قتلت فى نفسه تلك المشاعر المنطلقة المتحررة من كل قيد لنظام أو قانون ، ولكنه الآن يرى بعد أن عاد إلى هذه الأرض أن عدواها قد بدأت تصيبه وأنها توشك أن تفسد عليه كل ما اجتهد فى بنائه خلال السنوات الماضية . هو الآن يرى فى نفسه ذلك الأثر المخرب الذى تتركه تلك الحياة القاسيــــة الخشنة التى يحياها أهل السهول بما توصله فى نفوسهم من النزوع إلى الشر والعدوان ، وبما تطبعه فى أذهانهم من صور مشوهة للرجولة إذ الرجل الحق عندهم هو الذى يعرف كيف يستقيم على صهوة جواده ويجول فى أنحاء هذه الأرض الفسيحة شامخًا بأنفه وكأنها ملك خالص له .

ولكنه لا يلبث أن يعود إلى التفكير الهادئ المتزن : إن الغرض الأساسى الذى من أجله قدم إلى الضيعة هو بيعها والتخلص منها ، ولعل ذلك أقرب إلى الحكمة والتعقل ، وأوفق لما كان قد خطه لنفسه من مشروعات مستقبلة ، أما ماخطر بذهنه وهو على ظهر المركب من احتفاظ بالأرض وكفاح من أجل ما سما إليه من مثل عالية فربما كان خاطراً عارضًا عبر بذهنه وهو يتأمل تلك السهول التى رأى فيها النور لأول مرة ، وإلا فهل هو حقًا مستعد للعمل الكبير الذى يتطلبه تحقيق تلك المثل ؟ وهل له من التجربة والخبرة ما يسمح له برعاية مثل تلك الضيعة والسهر على مصالحها وتصحيح أوضاع بدائية جرى عليها الناس هناك منذ أجيال عديدة دون أن يفكر أحد فى إصلاحها أو التطور بها ؟ إن الخطوط العامة لبرنامج إصلاحى لم تكن لتغيب عن ذهنه ، ولكن التفاصيل والدقائق . . . أتراه قادراً على تبين معالمها الحقيقية وتنفيذها بعد ذلك ؟

وهل سيكون من اليسير عليه الانتقال من عالم النظريات والمثل الذى كان يحلق فيه إلى عالم الواقع المادى المحسوس المتمثل فى الدقائق التى تعنيها إدارة ضيعة فى مثل تلك الأرض . أم يتبين للجميع عجزه وسوء تصرفه فى « ألتاميرا » مما انتهى بها إلى ما يراه الآن ؟

ومن هنا كان التردد والإحجام يداخلان قلب سانتوس لوثاردو فقد كان يتهيب العواقب ، ولا يأنس فى نفسه القوة الكافية لمواجهة ما يترتب على الاحتفاظ بالأرض والصمود لعوامل الفساد المستشرى فيها ، كان الحذر يقعد به عن المقام والثبوت ، ولعله كان مبالغًا فى تقدير الأخطار المحيطة به .

وقطع عليه حبل تفكيره أنتونيو الذى دخل عليه فى تلك اللحظة معلنًا إليه أن المائدة معدة لتناول طعام العشاء ، غير أنه اعتذر قائلا إنه لا توجد لديه شهية للأكل .

وقال أنتونيو معلقًا :

– حقاً ، فإن التعب والإعياء كثيراً ما يؤديان إلي فقد الرغبة فى الطعام .

ثم أضاف :

– سوف تنام هذه الليلة يا سيدى فى هذه الغرفة على ما هى عليه ، إذ لم يكن لدينا وقت إلا لكنسها وتنظيفها قليلا ، وسنعمل غداً على تبييض الجدران وتنظيف البيت كله بعناية ، إلا إذا كنت تأمر بترميم الدار وإصلاحها إصلاحًا عامًا شاملًا ، لأنها فى الواقع لا تصلح للسكنى على حالتها الراهنة .

– لست أرى حاجة إلى ذلك الآن ، فلندعها على ما هى عليه ؛ إذ إننى قد أبيع الضيعة ، وسيمر السيد « إنكار ناثيون ماتوتى » من هنا خلال شهر ، وكنت قد فاوضته فى أمر بيع الضيعة له ، فلو عرض عَلَىَّ لها ثمنًا مقبولا فإننى سأبيع له «ألتاميرا» دون تردد .

وظل أنتونيو لحظات يفكر فى صمت ، ثم قال :

- ما دمت قد عزمت على ذلك فهكذا سيكون .

ثم قدم إليه مجموعة من المفاتيح وأضاف :

- تلك هي مفاتيح الدار ، وهذا الذى يبدو أكثرها صدءاً هو مفتاح القاعة ، ولعله الآن لا يصلح لفتح بابها ؛ إذ إنه لم يعد أحد إلي دخول تلك القاعة مرة أخرى ، فكل شيء فيها مازال بحاله لم تمسسه يد كما تركها المرحوم تغمده اللّه بعفوه وغفرانه .

«كما تركها المرحوم . . .»! «. . . منذ أن أغمد المرحوم فى روحه حربته ...»!

جملتان كررهما أنتونيو على مسمع سانتوس لوثاردو فى هذه الليلة ، وقد جمع بينهما فى هذه اللحظة ترابط المعانى وتداعيها فى ذهن الفتى ، ملحة عليه بذكرى تلك الليلة المشئومة التى قتل أبوه فيها أخاه الأكبر . . ولم يكن أحد يستطيع أن يقدر أن مثول هذه الذكرى فى ذهنه ستكون بداية لمرحلة حاسمة فى حياته . . .

فقد نهض سانتوس من فراشه ، وتناول الشمعدان الموضوع على المائدة ، وقال لتابعه :

- افتح القاعة .

وصدع أنتونيو بالأمر ، فأولج المفتاح فى القفل الذى ران عليه الصدأ المتراكب ، وتمكن أخيراً وبعد جهد غير قليل من فتح الباب الذى ظل مغلقاً نحو ثلاثة عشر عاما متوالية .

وصكت وجه سانتوس موجة من الهواء الراكد المنتن أرغمته على التراجع خطوة وبدا كأن شيئًا أسود قذراً يثير الاشمئزاز قد انقض عليه من ثنايا الظلام المخيم ، وإذا به خفاش أصاب بجناحيه الشمعة فأطفأها فعاد سانتوس إلى إشعالها واقتحم الغرفة يتبعه أنتونيو .

وكان الأمر فى الواقع على ما ذكر أنتونيو : كان كل شىء فى الغرفة مازال على حاله كما تركها خوسيه لوثاردو : المقعد الهزاز الذى مات وهو متصلب فى جلسته عليه ، والحربة الغائصة فى الحائط الخشبى .

ووقف سانتوس لوثاردو لحظة يتأمل الحجرة وقد غلبه تأثر عميق ، ولم ينطق بكلمة ، ولكنه لم يلبث أن تقدم من الحائط فى تصميم وعزم كما لوكان يشعر شعوراً متيقظًا واعيًا بأنه مقدم على عمل حاسم بعيد الأثر ، فانتزع الحربة بحركة لا تقل فى قوتها وعنفها عن تلك التى أغمدها بها أبوه فى ذلك اليوم المشئوم . وبدت صفحة السنان وقد غطتها طبقة من الصدأ المتراكم الأحمر كأنما قد اصطبغت بالدماء ، وألقى سانتوس بالحربة بعيداً عنه وهو يقول لأنتونيو :

– أرأيت كيف صنعت أنا بهذا ؟ فلتصنع أنت مثل ذلك بهذا الحقد الذى كان لسانك ينطق به منذ لحظات ، انزع عن قلبك ذلك البغض الذى ما كان لك أن تحمله ، فهو لم يستقر فى نفسك إلا غضبًا وحمية لما لم يرتكب فى حقك ولاحق أهلك . إن فرداً من أسرة « لوثاردو » قد غرسه فى قلبك باعتباره فرضاً من فروض الولاء ، والآن قد أتى آخر من أفراد هذه الأسرة لكى يحل عن عنقك منذ هذه اللحظة ربقة ذلك الفرض الكريه . وليكفنا ما فعلت الأحقاد بهذه الأرض حتى الآن ! . .

وبدا على وجه أنتونيو التأثر العميق الذى خلفته فى نفسه كلمات سانتوس ، وبينما كان يمضى منصرفًا عن القاعة فى صمت إذا بسيده يقول له فى لهجة حازمة :

– اتخذ العدة منذ صباح الغد لإصلاح المنزل وتهيئته للإقامة ، فإننى لن أبيع الضيعة .

وعاد سانتـوس إلى فراشه ، وقد قـرت نفسه وسكنت سريرته ، ومـلأ قلبه الثقة والتفاؤل .

واستـسلم الفتى لنوم عمـيق تهدهده فى الخارج تـلك الأصوات التى طالما رافقت أحـلامه فى أيام صـباه التى قـضاها بين جنبـات تلك السهـول : نبرات القيـثارة المنبـعثة من كـوخ الرعاة المجاور ، ونهـيق الحمـير المتمـرغة فى الأرض الحارة الرطبة ، ورغاء الماشية فى الحظائر ، ونقيق الضفادع فى البرك المتناثرة بين المروج ، والألحان الرتيـبة التى توقعـها أسراب الجنادب فى غـير ملل ، ثم ذلك الصمت العميق الهـائل الذى يسود السهول المستسلمـة للنوم فى ضوء القمر ، ذلك الصـمت الذى يـتـرك فى النفـوس صـدى أوقع وأبلغ مـن جـمـيع تلك الأصوات . . .

الفصل السادس

ذكرى أسدروبال

... نفس هذه الليلة فى «ضيعة الرعب» .

كان «الساحر» قد وصل قرب مغيب الشمس إلى دار السيدة باربارا وأبلغه خدم الدار أنها قد جلست فى هذه اللحظة إلى المائدة وشرعت فى تناول العشاء ، ولكنه لم يشأ أن ينتظر حتى تفرغ من طعامها ؛ إذ كان لديه من الحساب ما يريد أن يسويه معها ومن الأخبار الجديدة ما يود أن يبلغها إياه ، فضلاً عن رغبته فى أن يأوى إلى فراشه ليأخذ نصيبه من الراحة بعد يومه المجهد ، ولهذا فقد آثر أن يدخل إليها فور وصوله ، وقد ألقى على كتفه ملحفته ، لم يخلعها بعد .

ولكنه لم يكد يشارف باب الغرفة التى كانت تتناول فيها الطعام حتى ندم على تسرعه ، فقد رأى أنها لم تكن وحدها ؛ إذ كان يجلس إلى مائدتها «بالبينو بابيا» الذى لم يكن يشعر نحوه بأى احترام أو مودة ، وحاول «الساحر» أن ينكص عائداً على عقبيه ، ولكن باربارا خاطبته فى هذه اللحظة :

- ادخل يا «ملكيادس» .

- سأعود بعد قليل ياسيدتى ، فواصلى تناول عشائك فى هدوء .

ورمقه بالبينو بنظرة استخفاف وسخرية ، وهو يجفف شاربيه الكبيرين مما علق بهما من دسم الحساء متحسساً لهما بأصابع يده الغليظة وقال :

- تقدم ياملكيادس ، ولا تخف ، فليس هنا كلاب .

وقابله «الساحر» بنظرة عداء وكراهية وأجابه فى تعريض يطفح بالخبث :

- أتراك متأكدًا من ذلك ياسيد بالبينو ؟

ولم يفهم بالبينو ما كان يقصده «الساحر» من سؤاله المتهكم ، أما هذا فقد واصل كلامه متوجهًا إلى السيدة باربارا :

- لقد أتيت لكى أبلغك بأن الماشية قد وصلت سليمة إلى «سان فرناندو» ، ولكى أسلمك الثمن الذى بيعت به .

وترك الرجل ملحفته على مقعد ، وأخرج من حزامه كيسًا أفرغه على المائدة ، فتكومت أمام المرأة كومة من القطع الذهبية ، بينما قال لها :

- عديها ياسيدتى لترى ما إذا كان المبلغ كاملاً .

أما بالبينو فقد نظر فى شراهة إلى كومة النقود بطرفى عينيه ، وصاح فى تظرف وهو يعرض بعادة باربارا فى إخفاء الذهب دافنة إياه فى مخابئ لا يعرفها أحد غيرها :

- ذهب ؟! أسعد الله عيونًا اكتحلت برؤيتك !.

ومضى يعلك مضغة اللحم الكبيرة التى حشا بها فمه ، وإن كانت عيناه لا تفارقان كومة القطع الذهبية فى طمع وشراهة .

وتقطبت أسارير السيدة باربارا ، ثم انفرجت فى سرعة ، كما ينقبض جناحا الصقر وينبسطان فى لمحة ، فقد أغضبها ما قاله بايبا معرضًا بها ؛ إذ لم تكن متعودة على أن تسمح لعاشق من عشاقها بأن يصطنع الظرف على حسابها بمحضر الآخرين ، كما أنها لم تكن تسمح لنفسها بالتبسط مع أحد تبسطًا يوحى بمظهر من مظاهر الأنوثة التى قد تشعرها بالضعف إزاء الرجال ، ولم يكن يهمها من ذلك حديث الناس أو لوكهم سمعتها بما يعرض لهم ، فقد

كانت تحتقر كل من حولها ولا يهمها ما يتكلمون به عنها من خير أو شر ، ولكنها كانت تصدر فى ذلك عن طبيعتها المسترجلة المتعالية . أما بالنسبة إلى بالبينو بابيا فقد كانت تكن له شعوراً من الاحتقار العميق .

ولم يكن هذا بدوره يجهل شعور باربارا نحوه ، ولكن غباءه وغروره كانا يحملانه على أن ينتهز كل فرصة تسنح له أمام الناس لكى يظهر ما يعتقد أنه دليل سيطرته عليها ودالته عندها ، حتى ولو جابهته فى كل مرة برد مخجل ملجم للسان ، وكان التعريض الذى قذف به فى هذه المرة من أقل ما يمكن أن تحتمله هذه المرأة التى اشتهرت بالبخل أو تسكت عليه ، ولهذا فإنها لم تتردد فى مقابلة الصفعة بمثلها ، وأتى ردها سريعًا وهى تحتفظ بالنقود دون أن تعدها :

- لا حاجة بى إلى عدها ، فهى كاملة بغير شك، إنك لا تخطىء أبدًا ياملكيادس... ليست لديك مثل هذه العادة الذميمة .

وامتدت أصابع بالبينو الغليظة إلى شاربيه الكثيفين لا لينظفهما هذه المرة ، وإنما كان يفعل ذلك دائمًا كلما بوغت بأمر يضيق به ذرعه أو يحرج له صدره ، فهو لم يحظ أبدًا من السيدة باربارا بمثل هذا المظهر من مظاهر الثقة ، بل كانت تعد كل ما يسلمها من نقود عدًا حريصًا دقيقًا ، فلو رأت المبلغ ناقصًا - وكثيراً ما كان يحدث مثل ذلك - أقبلت تنظر إليه طويلاً دون أن تفوه بكلمة ، حتى يتظاهر هو بأنه قد فطن إلى نقص المبلغ باعتبار ذلك سهواً غير متعمد ، فيكمله لها مما أبقاه فى جيبه . ثم إن ما ذكرته المرأة من أمر تلك «العادة الذميمة» لم يكن إلا تعريضًا به هو ، فها هو ذا يرى أنه على الرغم من الخدمات الجليلة التى قدمها إليها بحكم المنصب الذى كان يتولاه فى إدارة أعمال ضيعة «ألتاميرا» فإنها لم توله أدنى نصيب من الشقة ، بل لم تحتمل منه مجرد عبارة سبق بها لسانه تظرفًا ومداعبة !.

وواصلت باربارا كلامها موجهة الخطاب إلى «الساحر» :

- والآن يا ملكيادس ، أى جديد من الأنباء لديك ؟ ولماذا أرسلت الأجير قبل قدومك ؟

وقابل ملكيادس سؤالها بسؤال مثله ، محاولاً أن يتجنب الإفاضة فى الكلام أمام بالبينو الذى لم يكن يستحق منه كثيراً من الثقة :

- ألم يقص عليك هو كل شىء ؟

- نعم ، لقد روى لى أشياء ، ولكنى أريد التفاصيل منك كاملة .

وكانت باربارا فى حديثها إلى تابعها تتجنب النظر إلى وجهه ، بل كانت متجهة إلى الطبق الموضوع أمامها ، وكان هو يحدثها كذلك دون أن يرفع إليها بصره ، فقد كان كل منهما يعتقد أنه ساحر ، وقد تعلما من أساتذتهما الهنود فى أصول السحر أنه يجب عليهما ألا ينظر أحدهما إلى عينى الآخر فى أثناء خطابه له :

- إذن فإليك الحديث : كنت قد سمعت وأنا فى «سان فرناندو» بنبأ وصول الدكتور سانتوس لوثاردو ، وكانوا هناك يتحدثون بأنه لم يقدم إلا لكى ينازعك ما كنت قد كسبته من القضايا التى سبق أن رفعتها عليه واحدة واحدة ، وزاد ذلك من رغبتى فى التعرف عليه ، وأخيراً وفقت إلى أن يدلونى عليه ، ولكنى فقدت أثره بعد ذلك ، حتى كان عصر الأمس ، وكنت أستعد لإسراج حصانى من أجل الشروع فى السفر طيلة الليل حتى أصل إلى هنا مع فجر اليوم ، وبينما أنا فى ذلك إذا بى أسمع بوصول مسافر يذكر أن مطيته قد أصيبت بعلة تمنعها من مواصلة الرحلة ، وأنه يرغب فى استئجار مركب اتفق رسوها هناك لنقل شحنة من الجلود حتى توصله إلى «مجاز شجرة الخروب» الذى يؤدى إلى ضيعة «ألتاميرا» ، وحينئذ قلت لنفسى : «هذا الرجل ينبغى أن

يكون ضالتي المنشودة بغير شكّ» ، فأنزلت على الفور سرجي عن ظهر الحصان ، والتففت بملحفتي ومضيت قدمًا إلى الفندق الذى كانوا سيقدمون فيه الطعام إليه ، واجتهدت فى أن أتسمع إلى كل ما قد يبدر منه من حديث .

– وسمعت بطبيعة الحال أشياء كثيرة ... هذا هو ما أتصوره عنك .

– أقول لك الحق : لم أسمع منه ما يبرر للمرء أن يتصبب جسده عرقًا من أجل إصابة الآخرين بالحمى كما يقول المثل ، ولكنى لا أكتمك أننى لم أتمالك شعورى بالإعجاب بصديقنا الدكتور حينما تحل عقدة لسانه، فهو لطيف المحاورة عذب الحديث، ولهذا فإنه لم تتح لى فرصة التسمع إلى كلامه حتى خاطبت نفسى قائلاً : «إن رجلاً مثله يشعر بإعجاب الناس بحديثه وتشوفهم إليه لا يمكن أن يلتزم الصمت طويلاً ، فالأمر – إذن – لا يعدو أن أعتصم بالصبر وأن أنصب أذنى لالتقاط كل ما يمكن أن يتفوه به» ، وعزمت على ملاحقته بقدر ما أستطيع ، فتركت حصانى لرفيقى لكى يواصل السفر به براً ، وقلت له إنى سأحتال فى أن أجد مكانًا على ظهر المركب الذى استأجره صديقنا الدكتور .

ثم قص بعد ذلك على سيدته ما دار بينه وبين سانتوس لوثاردو لدى شجرة «عصا الماء» مصوراً إياه بصورة الرجل المغامر الجسور .

وكان هذا الرجل الذى اختارته السيدة باربارا حاميًا لظهرها من هؤلاء الأفراد الملتوين المنافقين الذين لا يدل ظاهرهم على حقيقتهم ، ممن يبدون كما لو كانوا دائمًا فى حاجة إلى إظهار عكس ما يشعرون به فى قرارة أنفسهم ، كان ذلك يظهر فى تعابير وجهه وحركات يديه الناطقة باللين والرقة ، وفى كلماته الهادئة الناعمة ، وفى العادة التى جرى عليها من إبداء الإعجاب دائمًا برجولة الآخرين ، كل ذلك كان يحمل فى طويته من الخبث العميق والنزوع المتأصل إلى الشر والأذى ما يجاوز كل حد معقول .

ولم يرق بالبينو ما أسبغه «الساحر» على سانتوس لوثاردو من صفات الجرأة وقوة الشكيمة ، فقال له :

- خفض عليك ولا تطأطئ الرأس كثيراً يا ماكر ، فإننا نعلم أنك لست من الرجال الذين يبهر أنظارهم مثل هذا الفتى المخنث !

- انظر ياسيد بالبينو وأصغ لما أقوله لك ، إننى - كما قلت - لست ممن يطأطئون الرءوس ، ولكن الرجل منتصب القامة شامخ الرأس ، وهو يعرف كيف يزداد انتصابًا وشموخًا إذا اقتضى الأمر منه ذلك .

ولم يكن بالبينو ممن يسلمون القياد للخصم بسرعة ، فعقب على هذه الجملة بقوله :

- إذا كان الأمر كذلك فإننا فى الغد سنعرف كيف نطامن من شموخه ، ونخفض من رأسه ، ونذل من قياده .

وابتسم «الساحر» ، وصمت قليلاً ، ثم قال فى لهجة واعظة حكيمة :

- تذكر ياسيد بالبينو أنه خير لك أن تأخذ الثمرة من أن تؤخذ منك .

- لا تخف ياملكيادس ، فأنا أعرف كيف آخذ من الثمرات غداً ما غرسته اليوم .

وكان بالبينو يشير بذلك إلى الخطة التى أعدها من أجل إذلال كبرياء سانتوس لوثاردو وبث هيبته فى نفسه ، وكانت تقوم على إغراء الأجراء الذين يعملون فى ضيعته بترك الخدمة هناك منذ هذه الليلة ، فإذا كان الغد ظهر بالبينو فى ألتاميرا واصطنع نزاعًا مع أول من يلتقى به ممن بقى فى خدمة لوثاردو، ثم اتخذ من ذلك حجة يطرده بها من العمل بغير أن يحفل بوجود صاحب الضيعة هناك .

وكـــان بالبـينو من هـــؤلاء الذين لا تستـقر فى رء وسـهم فكرة شـريرة إلا أعلنوا عنها ، ثم إنه كان يود أن يظهر لملكيـادس أنه لا يهاب سانتوس لوثاردو ، وأنه هو الذى يجرؤ على الصمود فى وجهه ، ولم يكفه ما سبق أن ألمح إليه من خططه ، ولهـذا فقد ابـتلع اللقمـة التى كانت تسـد فمـه بسرعة ، وأقـبل على تفصيل تلك الخطط ، فمضى يقول :

- غداً فى الصـباح الباكر سـيرى الدكتـور لوثاردو أى نوع من الرجال هو وكيله ومدير أعماله بالبينو بابيا ...

ولكنه قطع كـلامه فـجأة لكى يراقـب فى دهشة مـا كانت تصنعـه فى هذه الأثناء السيدة باربارا .

كانت قـد صبت لنفسـها كوبًا من المـاء ورفـعته إلى شفـتيهـا ، ولكنها لم تلبث أن هزت رأسـهـا إلى الوراء ، وقـد ارتسـمت على وجـهـهـا عـلامـات الاستغراب ، وبقيت شاخصة بعينيها إلى الكوب المعلق فى الهواء أمامها ، وقد اتسعت حدقتاها فى دهشة:

وسألها بالبينو :

- ما الذى حدث ؟

- لا شىء ... سـوى أن الدكتـور لوثاردو أراد أن يأتى بنفسـه لكى يرينى صورته .

قالت هذه الكلمات ونظرها مازال مثبتًا فى الكوب المغلق .

وندت من بالبينو حركة تدل على القلق والشك ، وأما ملكيادس فقد تقدم إلى المـائدة واتكأ بيمناه على حـافتها ، ثم مـال بجسده إلى الأمام ليـتأمل بدوره الكوب المسحور ، وواصلت السيدة باربارا كلامها وكأنها تقرأ الغيب من كتاب مفتوح :

- ما ألطف هذا الصبى ! وما أشد بياض بشرته المشربة بالحمرة ، دليلاً على أنه لم يتعود على لفح شمس السهول التى تلوح الوجوه ، وهو بعد ذلك أنيق الملبس بهى الزى .

أما «الساحر» فقد ترك المائدة وعاد إلى مكانه وهو يخاطب نفسه بقوله :

- ما كان لكلب أن يأكل كلبًا مثله ! فاخدعى بالبينو إذا شئت بما تزعمينه من قراءة الغيب ، فإن كل ما ذكرته من أوصاف لوثاردو ليس إلا ما أخبرك به رفيقى الذى وجهت به قبل قدومى .

وكان هذا فى الحقيقة - كما قدر ملكيادس - من الحيل الكثيرة التى طالما كانت السيدة باربارا تحوك خيوطها من أجل إيهام من يحيط بها بأنها متمكنة فعلاً من شتى فنون السحر ، وبهذا تستطيع أن تبث فى نفوسهم الهيبة لها والخوف من عواقب التعرض لها ، وكان بالبينو يرتاب فى ذلك من قبل ، ولكن عبارات السيدة باربارا المباغتة كان لها وقعها فى نفسه ، فأسرع يهمس بالاستعاذة من شر المرأة الساحرة :

- بحق الأسماء الثلاثة المقدسة !

ثم أضاف مخاطبًا نفسه :

- أقول ذلك احتياطًا وحذرًا ... فيما لو صح أنها ساحرة حقًا !

أما باربارا فكانت قد وضعت الكوب على المائدة دون أن تمسه بشفتيها ، وبقيت شاردة الفكر مكفهرة الوجه ، وقد ألحت عليها ذكرى مفاجئة لا تدرى كيف عرضت لها فى تلك اللحظة :

«الأمسية القاتمة ... وهى على ظهر القارب ... الصمت المطبق ، وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج «الأتورس» وكأنها أنين مريض ... وفجأة يتردد فى الأفق نعيب «الياكابو» بصوته المجلجل الحزين المنطلق كأجراس الجنائز فى جو الغابة المظلم !» .

ومرت لحظات لم يفه خلالها أحد بكلمة ... وأخيراً سألها بالبينو :

- ألا تنتهين من طعامك ؟

ولكن سؤاله ظل دون جواب ، أما ملكيادس فقد انتظر قليلاً ثم سأل بدوره :

- إذا لم يكن لديك ياسيدتى ما تأمرين به ...

ثم رفع ملحفته وألقاها على كتفه وأضاف بعد لحظة :

- إذن ، فإنى أستأذنك فى الانصراف . طاب مساؤك ياسيدتى .

وخرج ملكيادس ، بينما ظل بالبينو يواصل عشاءه فى صمت ، وأما المرأة فقد ظلت غارقة فى تفكيرها دون أن تعير أحداً أى انتباه ، ورجع بالبينو النظر فى طبقه الفارغ ، وامتدت أصابعه إلى شاربيه يتحسسهما لحظة ، ثم نهض عن المائدة وانصرف فى صمت .

وبدأ لهيب المصباح يتأرجح مؤذنًا بالاحتضار ، وانطفأت شعلته أخيراً ، أما السيدة باربارا فكانت جالسة إلى المائدة لم تغادر مكانها بعد ، بينما كان تفكيرها القاتم قد جمد عند هذه اللحظة الفظيعة من تاريخ ماضيها :

«الصمت المطبق وهى تنظر إلى الأفق البعيد منصتة إلى هدير أمواج «الأتورس» وكأنها أنين مريض ، وفجاة يتردد فى الأفق نعيب «الياكابو» بصوته المجلجل الحزين ...» .

الفصل السابع

العفريت الحارس

كانت ليلة من تلك التى يسطع فى سمائها قمر ناصع البياض كامل الاستدارة ، والليالى البدرية فى السهول أصلح ما تكون لقصص الأشباح والعفاريت ، ولا تخلو سهرات الرعاة فى تلك الليالى وهم تحت سقوف أكواخهم أو مستلقون فى حظائرهم من واحد تخصص فى سرد القصص العجيبة عما ظهر له من الأشباح .

ويبدو أن الضياء الشاحبة التى يلقيها القمر على بسيط السهول الفسيحة هى التى تملأ خيال الناس هناك بصور الجن والعفاريت فى مثل هذه الليالى ؛ إذ تحيل الأشياء الصغيرة التى يراها المرء عن بعد إلى شياطين هائلة ومردة جبارة ، والمسافات القريبة إلى أبعاد لا يكاد يحدها قياس ، والأشكال المعهودة المتعارفة إلى أجرام غريبة بالغة الضخامة ... هى ليالى الظلال البيضاء الراقدة تحت أقدام الشجرة ، هى ليالي الفرسان المسحورين الذين يقبعون فى سكون بين أباطح السهول ، فإذا أَحَدَّت النظر إليهم عين إنسى اختفوا كما لو كانت الأرض قد ابتلعتهم فجأة ، هى تلك الليالى التى ليس للمسافر فيها إلا «القشعريرة ملء جسده ، وصلوات الاستعاذة على أطراف شفتيه» – على حد قول «باخاروتى» – هى ليالى الأحلام الغريبة والتهاويل المزعجة التى لا يقر فيها نوم حتى للماشية نفسها .

وكان «باخاروتى» هو الذى اشتهر فى ضيعة «ألتاميرا» برواية أغرب قصص العفاريت وأكثرها إثارة للذعر والهلع ، وأعانته على ذلك حياته المتنقلة

الضاربة فى تلك الأنحاء فى أثناء قيادته لقطعان الماشية ، ثم خيال خصب حافل كان يملى عليه أخبار آلاف المغامرات التى يتحير المرء أمامها : أيها أغرب من أختها !

وكان كثيراً ما يقول إذا سأله سائل :

- أشباح الأموات ؟ ليس بينها واحد لا أعرفه كما أعرف راحة يدى هذه على طول تلك السهول الممتدة من نهر «الأوريبانتى» إلى «الأورينوكو» ومن «الأبورى» إلى «الميتا» ، أما العفاريت الأخرى فلا أظن أن هناك صورة من الصور التى تظهر بها للناس لم تفاجئنى بها ولم تملأ نفسى منها فزعًا ...

نعم ... لم يبق فى جميع تلك السهول عفريت لم يتراء لـ «باخاروتى» : الأرواح المعذبة التى تجر خطاها الثقيلة فى الأماكن التى ارتكبت فيها خطاياها السود ، و «الباكية» ذلك الشبح الذى يسكن ضفاف الأنهار والقنوات والأحساء ، والذى يسمع نواحه الحزين على بعد فراسخ طويلة ، و «الأرواح المتبتلة» التى يسمع ترتيل صلواتها وتسبيحها فى صوت واحد كأنه طنين النحل فى سكون الليل ، بين كتل الأعشاب المتكاثفة أو فى البطاح التى تفضضها ضياء القمر ، و «الروح الوحيدة» التى تتعرض للمسافر بصفيرها لكى تنتزع منه صلاة شافعة ؛ إذ هى أحوج الأرواح إلى الشفاعة وهى ماثلة على الأعراف ، و «الجلادة» تلك العفريتة الجميلة المتشحة بثياب الحداد والتى يسلطها الله لعقاب الرجال الذين يخونون زوجاتهم أو يعتادون السهر الطويل خارج بيوتهم ، فهى تعرض للرجل من هؤلاء فى إغراء وتأمره أن يتبعها ، فإذا مضى وراء ها شوطًا من الطريق استدارت فجأة وأبرزت له فمًا هائلاً مرعبًا وأسنانًا قبيحة يتطاير منها الشرر ، وقطعان الخنازير السوداء التى يحدوها الشيطان المسافر ، وغير ذلك من آلاف الأشكال المختلفة التى يحلو للعفاريت أن يتقمصوها .

ولهذا لم يكن من الغريب في تلك الليلة المقمرة أن يترك «باخاروتي» العود الذي كان قد بدأ العزف عليه ، وأن يقص على رفاقه خبر ظهور «العفريت الحارس» الموكل بالسهر على ضيعة «ألتاميرا» .

أما قصة «العفريت الحارس» فهي خرافة غامضة المصدر شائعة في أوساط قاطني السهول منذ أن دخل العمران تلك البقاع . وخلاصة الأمر فيها أن عادة أصحاب الضياع جرت على ألا تؤسس ضيعة هناك إلا أقاموا احتفالاً بسيطًا يبدأونه بدفن حيوان حي في المكان الذي يشرعون في تأسيس أول حظيرة للماشية فيه ، وذلك حتى تتولى «روح» هذا الحيوان مهمة رعاية الضيعة والسهر على حراستها هي وأصحابها طالما ظلت هذه الروح حبيسة الموضع الذي دفن فيه ذلك الحيوان ، ومن هنا أتت تسميته بـ «العفريت الحارس» ، وكان ظهور هذا العفريت لأهل الضيعة بين وقت وآخر يؤول على أنه فأل طيب وبشير بالخير . وكان الحيوان الذي وقع عليه الاختيار في «ألتاميرا» ثوراً بني اللون تزعم الرواية المتناقلة في الضيعة أن «إيفارستو لوثاردو» دفنه لدى باب الحظيرة ، وكان يطلقون عليه كذلك «ذا النعل الممزقة» ؛ إذ كان ثوراً هرمًا قد طالت أظلافه وتغضنت أطرافها المهدبة كما تتهدل حواشي النعل القديمة الممزقة .

وعلى الرغم من أنه لم يكن أحد يأخذ أحاديث «باخاروتي» مأخذ الجد ولا سيما إذا خاض في أخبار أشباحه وعفاريته ، فإن رفاقه أولوا الخبر عناية خاصة ، فسرعان ما كف «ماريا نيبيس» عن تحريك «الماراكاس» وهي كرات يتخذونها من القرع المجفف، فإذا هزت كان لها صليل موسيقي مستطاب ، أما أنتونيو وفنانثيو فقد نهضا عن سريرهما واعتدلا في جلستهما ، وكان كارمليتو وحده هو الذي بقي منصتًا دون أن يبدي كثيراً من الاكتراث .

وكان التعبير الذي ارتسم على وجه أنتونيو في اهتمامه بالإنصات إلى ما استعد باخاروتي لروايته يكشف عن شيء أكثر من مجرد الفضول ، كان تعبير

عن التفـاؤل والأمل ، فقـد مرت سنوات طويلة لم يسمع أحـد خلالهـا بظهور «العفريت الحـارس» ، وكانت تلك هي السنوات العجاف الـتي وافقت ما حل بأسـرة لوثاردو من كوارث مـتواليـة، حتى لـم يعد أحـد في الضيـعة من جـيل أنتونيـو يذكر شيئًـا عن ذلك «العفريت» بشيـر الخير والرخاء ، وكل مـا يدركه أنتونيو من ذلك الأمر هو ما سمعه عن أبيه - مليسيو العجوز - في أيام طفولته من تكرر ظهـور ذلك «العفـريت» لخوسـيه دي لوس سـانتوس جـد سانتـوس لوثاردو وآخـرأفراد أسـرته ممن تمتعت الضـيـعة في أيامـهم بالخيـر والرفاهيـة ، فظهور «العفريت الحارس» الآن لباخـاروتي إذن ليس إلا طالع سعد وفأل خير يبشر بعودة الرغد والسعادة إلى الضيعة ، ودليلاً على أن مقدم سانتوس لوثاردو سيكون نهـاية لتلك السنوات العـجاف التي مرت على تـلك الأرض وأهلها ، هذا إذا صحت الخرافة وإذا كان «باخاروتي» صادقًا فيما يقول .

- ألق بحديثك ياباخاروتي ، ولنر بعد ذلك إذا كنا نسـتطيع تصديقك فيما تزعم . كيف كان الأمر ؟

- كانت سـاعة الأصـيل ، وكنت منهمكًا في جـمع شمل صـغار المـاشـية لكي أعود بها إلى الحظائر، حينما لمحت عيناي ثورًا بني اللون قائمًا وحده على بطحاء «الكاراما» هناك لدى «ربوة النمر» ، وكان يبـدو كما لو أحاطت به بركة من سراب المـاء ، وهو يثير بأظلافه ترابًا أصـفر كأنه التبر ، وإني أكاد أقطع بأنه لم يكن إلا «ذا النعل الممزقة» ؛ إذ إنني لم أكد أطلق في الجو صرخة عالية مهيبًا به حتى اختفى في لمح البصر كأنما قد ابتلعته الأرض .

وتبادل فنانشـيو وماريا نييـبس نظرات أراد كل منهما بها أن يسـتطلع مدى تصديق صـاحبه للخـبر . أما أنتونيـو فقد أسلم لتـفكيره العنان وخاطب نفـسه يقول :

- إن القصة فى الحقيقة لا تنقصها الحبكة المحكمة : شبح الثور الحارس والضياء مسلطة عليه وهو مستشرف على الربوة ، مثيراً الغبار التبرى بأظلافه ، فى وسط بركة من السراب ... هكذا كان «العفريت الحارس» يظهر بالفعل فى ألتاميرا كما سمع هو بنفسه أباه مليسيو أكثر من مرة حينما يعرض لذكر الصورة التى كان يظهر بها منذ سنوات طويلة ، ثم إن باخاروتى ليس ممن يؤجرون على الكذب إن كان كاذبًا، وعلى أية حال ... فما يهم من الأمر ؟ إن الصدق والكذب شيء نسبى ، فالخبر الصادق إما أن يكون رواية لحدث وقع حقيقة أو هو ما تدعو الظروف والمصلحة إلى الاعتقاد فى حقيقته ، سواء كان هذا الاعتقاد عن يقين وإيمان أو عن اصطناع وتكلف . ومهما يكن من شيء فإن ظهور «العفريت الحارس» لباخاروتى لنبأ يدعو إلى السرور والتفاؤل ، ومن المصلحة أن يعتقد فى صحته أهل الضيعة جميعًا ، لا سيما وأنه جاء فى أنسب وقت ؛ إذ سيترتب عليه أن تزيد ثقة هؤلاء القوم فى سانتوس وتفاؤلهم بمقدمه ، وخصوصًا فى مثل هذه اللحظة الحاسمة التى تؤذن بوقوع الاصطدام بينه وبين السيدة باربارا ، والتى استعدت لها هذه المرأة فشحذت أسلحتها للمعركة القادمة، بدليل ما أقدمت عليه من تحريض صنائع بالبينو بايبا فى ألتاميرا على ترك الخدمة فيها والانضواء إلى معسكرها ، ولعل خير نتيجة يمكن التوصل إليها من ترويج هذا الخبر وحمل أهل الضيعة على تصديقه هو الأثر الطيب الذى يمكن أن يتركه فى نفس كارمليتو الذى لم يكن يولى سانتوس كثيراً من الثقة ، وقد قدر أنتونيو أن كارمليتو من الرجال الذين لا غنى عنهم فى المعركة التى توشك أن تدور .

وهم أنتونيو بالكلام ممهداً لخلق جو ملائم لتصديق الخبر الذى طلع به باخاروتى، لولا أن ماريا نييبس سبقه بالسؤال :

- خبرنى ياصديقى باخاروتى : هذا الذى ذكرته ... أرأيته أنت بنفسك أم أن أحداً حدثك به ؟

وصاح باخاروتى بصوته الجهير القوى :

- بل رأيته بهاتين العينين اللتين كتب عليهما أن تأكلهما سباع الطير ، ولا أقول دود الأرض لأننى لن أكون من هؤلاء الذين ترقد أجداثهم ساكنة فى حفر الأرض لكى ترتعى الديدان على رفاتهم ، هذا إذا صح ما تنبأ لى به السيد بالبينو ، ويبدو أنه هو الآخر يريد أن يدلى أيضًا بدلوه فى ميدان السحر الذى برعت فيه سيدته باربارا ، فهو كثيراً ما يقول لى إننى لن أموت على فراشى كما يموت سائر الناس ، بل سأقتل قتلة بشعة فى وسط أحد الأدغال ، وما ذلك إلا لأنه يعرف أننى أعد عليه جرائمه وسرقاته واحدة واحدة ، مسجلاً عليه كل ذلك فى صحيفة حافلة بالخطوط السود .

وصاح فينانثيو مقاطعًا .

- ها هو ذا قد قرصه الذباب ! وإلا فما شأن بالبينو بهذا الحديث ؟

وكان يعنى بذلك ما اعتادوا أن يسمعوه فى أحاديث باخاروتى من اضطراب كلامه ، وتشتت أفكاره ، واستطراده من موضوع إلى موضوع دون رابطة أو اتساق ، فقد كانوا يشبهون ذلك بما تؤدى إليه قرصات الذباب فى قطعان الماشية ؛ إذ لا تلبث أن ينفرط عقدها ويتفرق شملها .

وتدخل ماريا نييبس فى الحديث قائلاً :

- دعه يبحث لنفسه عن فكاك مما أوثق نفسه فيه !

وكان هذا بدوره يشير بعبارته تلك إلى الحرج الذى وقع فيه باخاروتى حينما سأله عما إذا كان قد رأى «العفريت الحارس» بنفسه ، وذلك أن ماريا نييبس كان يرى أن ما زعمه صاحبه ليس إلا صورة مشوهة لما سبق أن قصه هو نفسه عليه قبل ذلك بأيام .

وحينئذ أقبل عليه أنتونيو بالسؤال :

- إذن ، فإنك ترى أنه لا حقيقة لما قصه علينا باخاروتى ؟

فأجاب ماريا نييبس :

- الحق ، إن الخبر لم يكن مفاجأة لى ، فقد رأيت أنا نفسى هذا الثور الأحمر منذ عدة أيام ، ولكنى لم أره وسط بركة من ماء السراب ، ولا مثيراً بقوائمه تراباً ذهبى اللون ، كما يذكر العجائز هنا حينما يزعمون ظهور «العفريت الحارس» وكما يقول رفيقى باخاروتى بأنه نظر إليه ، ولست أتعرض لروايته ، فقد اعتدنا منه أن يرى ما لا يرى سائر الناس .

قال ماريا نييبس هذه العبارة الأخيرة وهو يرمق باخاروتى بنظرة لا تخلو من سخرية وتعريض ، ثم توقف لحظة مستطلعًا أثر كلماته فى الحاضرين ، ومنتظراً من باخاروتى جوابًا على ما استنفره به ، ولكن هذا ظل معتصمًا بالصمت وكأن الأمر لا يعنيه ، فواصل ماريا نييبس كلامه قائلا :

- لماذا سَكَتَّ الآن ؟ واصل حديثك وأخبرنا بتفاصيل رؤيتك للعفريت الحارس إذا كنت صادقًا فيما تقول ، ولو أننى أعتقد الآن أنه لن يبقى أحد هنا إلا وأراد أن يزعم لنفسه النظر إليه ، فقد جرى الناس دائمًا على هذه العادة : يسبق الرجل إلى الشىء ، ثم يأتى المتخلفون وراءه يشدون لينتزع كل منهم فضل السبق منه .

وأجاب باخاروتى أخيراً .

- سابق أو متخلف ... هذا أمر لا يهمنى منه شىء ، ولكنى حدثتكم بما نظرت إليه عيناى : شبح الثور الأحمر وهو على ظهر الربوة ... هكذا رأيته .

فعلق ماريا نييبس قائلاً :

- بل هكذا رأيته أنا كما سبق أن قصصت عليك ، وإنما أضفت أنت إلى القصة وصف بركة السراب والتراب الذهبى حتى تموه علينا الأمر وتزعم لنفسك السبق إلى رؤيته .

ثم استطرد ماريا نييبس مكملاً روايته بدوره قائلاً :

- كان ثوراً أحمر ضخم الجسد جميل المنظر متناسق الأعضاء ، وقد رأيته يتشمم هنا وهناك لحظة طويلة ، ثم يلتفت برأسه إلى جهة «ضيعة الرعب» ويطلق خواراً عاليًا هائلاً لاشك فى أن صداه وصل مجلجلاً إلى أسماع من كانوا هناك ، ولكنه لم يلبث أن اختفى فجأة كما لو كانت الربوة قد ابتلعته .

وابتسم باخاروتى فى تخابث ، فقد كان الأمر فى الحقيقة - على ما قدر رفيقه - اختراعًا جاد به خياله الخصب ، مدبجًا تلك القصة التى نقل خلاصتها مما قصة عليه ماريا نييبس ، ثم أضاف إليها تلك التفاصيل التى أراد أن يلقى بها على الصورة ألوانًا غريبة أخاذة ، ولم يكن له هدف من نسج الأسطورة إلا أن يدخل إلى نفوس زملائه شعوراً من الثقة فى سانتوس لوثاردو ومن التفاؤل بمصير ألتاميرا بعد أن أقبل يضطلع بشئونها بنفسه ، أما ما دعاه إلى التطوع بذلك فلم يكن إلا أن لوثاردو بدا خفيفًا على قلبه منذ أن رآه أول مرة ، فقد أثار فى نفسه شعوراً طيبًا لا يدرى كنهه ، ومن يدرى ؟ فلعله لم يكن مدفوعًا فى ذلك إلا بالرغبة فى مخالفة رفاقه الذين كانوا يشعرون بالارتياب فى رجولة سانتوس لوثاردو ومدى قدرته ، وما كان ليغيب عن باخاروتى مثل هذا الشعور «بعدم الاستلطاف» الذى قابلوا به الفتى منذ أن عاد إلى ألتاميرا .

ولكنه لم يشأ التراجع عن تلك القصة التى ألقى بها إلى زملائه فقال :

- إن مكان الربوة الذى يذكر رفيقى ماريا نييبس أنه رأى الشبح عنده لا يبعد كثيراً على أية حال عن الموضع الذى رأيته أنا فيه ، فليس من

الغـــــريب أن يظهر «ذو النعل الممزقة» له مرة عند الربوة ومرة أخرى فى وسط ماء الســراب المسحور كـما رأيتـه أنا ؛ إذ إن كل هذه المنطقة هى المشـتملة على موضع دفنه ، فظهوره هنا أو هناك ســواء .

وأثار هذا الجدال تطلع أنتونيو فسأل فى اهتمام متزايد :

- ولمـاذا لم تقص علينا ذلك من قبل يا ماريا نييبس ؟

- لأن الصورة الـتى رأيته بهـا لم تكن تلك التى اعتـاد عليهـا الناس هنا ، ولهذا فقد ظننت أنه ثور أحمر كغيره من الثيران .

وعاد أنتونيو ملحًا بالسؤال :

- ولكن ما رأيته من تشمم الأرض ثم قذفـه بتلك الصيحة المدوية فى اتجاه «ضيعة الرعب» كـان جديراً بأن يثير انتباهك واسـتطلاعك وأنت خير العارفين بما يعنيه ذلك .

- وقد أثار انتباهى واستطلاعى بالفعل ، ولكن ..

ولم يدعه باخاروتى يكمل عبارته ؛ إذ قاطعه قائلاً :

- ولكن هناك أناسًا يفكرون ، إلا أنهـم لا يقدمون على عمل حـتى تبيض شعورهم شيبا .

وهنا صاح فنانثيو منتهزاً الفرصة للإيقاع بين الرجلين :

- إليك هذه الضربة يا ماريا نييبس ! ها هو ذا الأسود قد بدأ يطأ عقبيك !

وكان بـاخاروتى ومـاريا نييـبس فى الواقع صديقين حـميـمين بل لم يكن الواحد منهم يتردد فى فداء صاحبه بنفسه إذا لزم الأمر ، غير أنه لم تكن تعرض فرصة للحـوار بينهما إلا اشتبكا فى مـعركة عنيفة من الهجـاء الساخر اللاذع ،

وكـان ذلك يضـفى جـواً من المرح على الـسهـرة ويـدخل السـرور على قلوب الحاضرين بما يتقارضانه من قارص الكلام ، وكان فنانثيو هو الموكل بتأليب كل منهما على صاحبه ، وهكذا فعل حتى يجرهما إلى العراك ، غير أن أنتونيو كان فى هذه اللية حريصًا على ألا يتغير مجرى الحديث ، فعاد إلى السؤال :

- ومتى كانت رؤيتك للشبح يا ماريا نييبس ؟

ومضى ماريا نييبس يستعيد ذاكرته ويقول فى بطء :

- متى كـانت ؟... آه . أنا أذكر الآن : كـانت فى يوم الاثنين من الأسـبوع المـاضى.

ففكر أنتونيو قليلاً ثم صاح :

- انتظر قليلاً ... لقد كان هذا اليوم هو الذى وصل فيه الدكتور إلى «سان فرناندو» فى طريقه إلى ألتاميرا !

وقال باخاروتى بدوره :

- ألا ترون - إذن - فى هذا التوافق دلالة لها مغزاها ؟

وهنا وثب فنانثيـو عن سريره وقال وقـد علت وجهـه مظاهر اهتمـام مفاجىء :

- والآن بعـد أن تحدث كل منكم بما عنـده فإن لدى أنا أيضًـا ما أقـوله فى هذا الأمر !

وعلق ماريا نييبس على عبارة فنانثيو قائلاً :

- ألم أقل لكم أنا من قبل إنه لن يبقى أحـد إلا وسيزعم أنه رأى «ذا النعل الممزقة» ؟

ولكن فنانثيو أجاب بقوله :

- لا ... ليس ذلك هو ما قصدت قوله ، وليس شيئًا جديداً أقوله اليوم لأول مرة ، بل إننى طالما تحدثت به هنا ، وهو أن هناك أشياء غريبة قد حدثت ومازالت تحدث خلال الأيام الأخيرة !

وأيد ماريا نيبيس كلام صاحبه قائلاً :

- نعم ... هذا صحيح . وقد ألمحت لنا بشيء من ذلك بالفعل .

- قص علينا خبرك إذن ... ما الذى رأيت ؟

- الحق أقول إننى لم أر شيئًا ، ولكنى تشممت أشياء مثيرة للعجب ، فمن ذلك ما شهدناه جميعًا فى حظائر البقر .

- أتعنى هذه النوبات المفاجئة التى تعترى الماشية ، فتجعلها تضطرب وتخور فى ذعر ؟

- نعم ، هو ما أعنيه ، وما كان يخفى على أحد منا أن ذلك كان شيئًا غير طبيعى ولا معتاداً : هذه الأبقار وهى تتضور طول الليل فى هلع وتطلق أصواتًا كأنها نحيب ! ليس هناك من يستطيع أن يقنعنى بأنه لم يكن فى الحظيرة شيء غريب كان مصدر هذه الثورة المفاجئة التى شبت بين رء وس الماشية، بل إنى أقول لكم شيئًا آخر أكثر غرابة : لقد كنت أسمع وقع أظلاف غريبة على العشب وأراه ينطبق على الأرض كأن أقدامًا تطأه ، ثم أنظر فلا أرى شيئًا ، ثم هذا الأمر الذى لعلكم لاحظتموه جميعًا فى مجاولاتنا اليومية للثيران وهو أننا لم نستطع بأى وسيلة أن نذلل قياد تلك الثيران أو نحكم وثاقها . لقد كنا ننظر من بعيد إلى المروج ، فنراها قد اصطبغت بالسواد من كثرة ما كان يموج فيها من رء وس ، فإذا خرجنا على صهوات جيادنا لاستنزالها تفرقت هنا

وهناك ورأينا أنفسنا عـاجزين عن اقتناصـها بخيلنا ؛ إذ كـانت تتفلت من أيدينا بسهولة عجيبة !

وأمن ماريا نيبيس على كلامه قائلاً :

- حقًا ... لم نستطع أن نضع أيدينا إلا على الضعيف المهزول منها .

وخشى باخاروتى أن ينفـرد صديقه فنانثيو بخبـر هذه القصة ، وأن يذهب بفـضل السـبق إليـها ، وكـأنه يريد أن يكـون هو وحده المسـيطر على مـجـرى الحديث ، فتدخل رافعًا صوته الجهير ، شأن رعاة السهول المتعودين على إسماع من يتحدثون إليهم من مسافات بعيدة ، ومتوجهًا بالخطاب إلى كارمليتو :

- ألا تذكر ياكـارمليتو ذلك الصـباح الذى خرجنا فـيه أنا وأنت مع بعض الرعاة الآخرين من «ضيعة الرعب» من أجل تمييز مـاشيتنا من ماشيتهم فى مرج «الكولاتا» ؟ ألـم تلاحظ أن هؤلاء الرعـاة الذين تخصصـوا فى اقتناص الثـيران لـم يتـمكن واحـد منهم أن يلقى أنشـوطتـه على أى ثورٍ ؟ فـقـد كانت الـعقـد المحكمة التى كـانوا يقذفون بها إلى قوائم الأبـقار تنفك من تلقاء نفسـها بقدرة قادر ، بل كـانت الجيـاد التى يمتطونها هى نفسهـا التى تحل ما وثقوا منـها على الرغم من كونها جياداً مدربة على مطاردة الثيران واقتناصها، وبدا كما لو كانت رء وس المـاشية تسخر من صائديها كما تسخر عناية الله من أحابيل الشيطان . لقد كان مـعنا فى ذلك اليوم السيد «توريس» ، ذلك الراعى الكهل الذى يعـتبر من أمهر قاذفى الحبال فى حوض «الأراوكـا» وكان من نصيبه فى التوزيع الذى قمنا به ثور ضخم بنى اللون ، فأقبل الصائد العجوز على ظهر فرسه متعقبًا إياه حتى ضـيق عليه الخناق ، ورأى الـثور نفسـه أخيـراً وهو بين حافـة الجبل وبين مطارده ، وبدا الأمر رهين بضع لحظـات يسقط الثور بعـدها فى الأنشوطة التى كان «توريس» يلوح له بها.. وهنا يأتى أعجب ما فى الخـبر ، فأوله انتبـــاهك

يا أنتونيو : إنك تعرف السيد «توريس» وتعلم أنه من أشجع أهل هذه السهول وأكثرهم إقدامًا على صيد الثيران المتوحشة ، بل إن له فى ذلك أخباراً تؤثر وقصصًا تضرب بها الأمثال عن محاولاته فى مرج «الكاريبى» الذى تعتبر ثيرانه أشد مارأينا فى سهول «الأبورى» توحشًا وأعظمها غائلة. فما قولك فى أن هذا الرجل الذى لم يعرف الخوف سبيلاً إلى قلبه قط ما كاد يرى الثور أمامه واقفًا بلا حراك حتى شحب وجهه وأصبح فى لون الليمون ، ولم يجرؤ على إلقاء أنشوطته والثور أقرب إليه من حبل الوريد، وإذا به يجمع رجاله عائداً وهو يقول : لقد «استبدت بى الرغبة فى صيده ، ولم أتنبه وأنا أطارده إلى أنه هو نفسه «ذو النعل الممزقة» حارس ألتاميرا ، فأقسم بالله لا عدت أبدًا إلى قذف حبلى فى هذا المرج مرة أخرى» !

أما كارمليتو فإنه لم يكن قد فاه حتى هذه اللحظة بكلمة واحدة ، ولم تفلح مساءلة باخاروتى له فى إخراجه عن صمته المطبق ، وأراد أنتونيو أن يستطلع رأيه فيما كان يدور حوله من حديث ، فتوجه بالسؤال إليه :

- ما تقول فى ذلك ياكارمليتو ؟ أصحيح ما قصه علينا باخاروتى ؟

ولكن هذا اقتصر على الإجابة فى لهجة تدل على رغبته فى التهرب من ذلك الحديث :

- لقد كنت بعيداً عن ذلك المكان ، أو لعلى كنت أنظر إلى ناحية أخرى .

وخاطب أنتونيو نفسه قائلاً :

- إن الرجل مازال منقبضًا يملأ نفسه الشك والتشاؤم !.

وعاد باخاروتى إلى الصياح :

- لا ترك الله لى لسانًا يفوه بكذبة أخرى إذا لم أكن صادقًا فى هذا الحديث . أما عن «ذى النعل الممزقة» فإذا كنتم فى شك من رؤيتى إياه فلا

تصدقوا ما قلت ، ولكن رفيقى ماريا نيبس رآه أيضًا، وهو رجل لم يعرف أحد عنه أنه يكذب فيما يقول. وفى كل هـذا دليل على ظهور «العفريت الحارس» ، وعلى أنه بشير بانحسار الشؤم وسوء الحـظ عن ألتاميرا ، وإيذان باقتراب نهاية الساحرة الملعـونة التى طالما أضرت بنا قوى الشر التى تـعينها . فكف إذن عن المراوغة والتهرب يا كارمليتو ، فالحق واضح لا سبيل إلى التشكيك فيه أو النيل منه !

وهنا اعتدل كارمليتو فى جلسته وقال فى امتعاض وخشونة :

– حـتى مـتى سـتظلون ترددون هذه التـرهات عن القـوى السـحـرية التى تزعمـون أنها تعين السيـدة باربارا ؟ إن كل ما فى الأمـر أن هذه المرأة لديها من الرجولة ما لـم يقدر لكثير من الرجـال ، وهكذا ينبغى أن يكون كل من يريد أن يفرض احترامه وهيبته فى هذه الأرض .

وتمتم أنتونيو محدثًا نفسه .

– ها هو ذا دخان الضجر والتذمر قد بدأ يتصاعد من منخريه !

وعقب باخاروتى قائلاً فى لهجة ذات مغزى :

– ليس هناك شك فى صحة ما تقول ياكارمليتو ، ولكن رويدك وأصغ لما أقـول : ليس كل من اصطنع مظاهر الرجـولة جديرًا بأن يوصف بهـا ، ولا كل من أبدى شعر صدره حريًا بأن يبث الهيبة والاحترام فى النفوس ، فإن كثيرًا من الرجال يرون من المـصلحة أن يخفـوا شعر صـدورهم إذا كان الخـير فى ذلك ، دون أن يعنى ذلك انتـقـاصًـا من كـمـال رجولـتهم ، ومـن أجل هذا خلق الله قمصـانًا يسترون بها مناكبـهم وخرقًا تتدلى من أعناقهم . أمـا عن تمكن السيدة باربارا من فنون السـحر فلا أظن أحـدًا يستطيع إنكـار ذلك ، وإذا أردتم مزيدًا من الأدلة عليه فاسـتمعوا إلى هذا الخبـر ألقيه عليكم كمـا رووه لى بغير نقص ولا زيادة .

وتوقف لحظة ليلقى ببصقة من طرف فمه ثم استطرد يقول :

- كان ذلك منذ نحو سبعة أيام ، وكان رعاة «ضيعة الرعب» قد خرجوا مع انبثاق الفجر متوجهين إلى مرج «الكوروثال» لمجاولة الثيران السارحة هناك وترويضها ، وأنتم تعرفون أن هذا الموضع من أكثر تلك المروج امتلاء بالأبقار الوحشية لا يكاد يخلو منها لحظة في ليل أو نهار ، وفيما كانوا يعدون عدتهم للسير إذا بالسيدة باربارا تطل عليهم من نافذة غرفتها وهي بعد بثياب نومها وتقول : «لا حاجة بكم اليوم إلى إضاعة وقتكم هناك ، فإنكم لن تستطيعوا اقتناص رأس واحد !» . ولكن الرجال كانوا قد اتخذوا أهبتهم فلم يروا التراجع ، ومضوا إلى المرج على صهوات جيادهم وكان الأمر على ما تنبأت به المرأة : لم يتمكنوا من اقتناص رأس واحد على الرغم من أن هذا المرعى حافل دائمًا بالمواشي الراعية فيه .

وتوقف باخاروتي مرة أخرى ثم واصل حديثه :

- ولكن هذا ليس كل شيء ، بل سيأتي ما هو أغرب وأوقع : بعد أن مضت عدة أيام على ذلك ... أي منذ يومين اثنين ، نهضت المرأة من فراشها مع أذان الديكة في الصباح المبكر ، فأيقظت رجالها وقالت لهم : «أسرجوا خيولكم بسرعة ، واخرجوا الآن بغير تلبث إلى مروج «لا جار تيخيرا» فإن بها قطيعًا من الأبقار الوحشية يبلغ عدده خمسة وسبعين رأسًا ، ولن تجدوا أي عناء في تذليلها واقتناصها؛ إذ ستقع في أيديكم بلا مقاومة» ، وحدث كل شيء على نحو ما سبقت نبوءتها به ! فخبرني أنت ياكارمليتو: كيف استطاعت هذه المرأة أن تعد- وهي في بيتها - الأبقار السارحة في «لاجار تيخيرا» وهي على بعد فرسخين من منزلها ؟

ولكن كارمليتو لم يول محدثه شرف الرد عليه ؛ إذ بقى ملتزمًا للصمت ، فتدخل ماريا نيبس فى الحديث حتى لا يشعر باخاروتى بالحرج والخجل :

- الذى أراه أنا أن هذه المرأة تعلمت من الهنود كثيراً من أمور السحر التى تمنحها من القوة والقدرة ما لا قبل للرجال به . ولماذا ننكر ذلك وهى نفسها لم تحاول إخفاءه والتستر عليه ؟ إنى أعرف مثلاً أن صديقًا لها حذرها مرة من أحد عشاقها وأسرَّ إليها بأنه كان يعمد إلى سرقة بعض مواشيها بين حين وآخر ، ولكنها أجابته دون أن تولى الخبر كثيراً من الاهتمام : «لن يتمكن هذا الرجل ولا غيره من إخراج رأس واحد من هنا بغير إذنى، وقد يكون فى وسعه أن يجمع من الرء وس ما شاء وأن يسوقها إلى حيث يشاء ، ولكنه لن يجاوز حدود الضيعة ، ولو أنه بذل كل ما أوتى من قوة ليجتاز تلك الحدود بما حدثته نفسه أن يسرق من ماشية فإنها لن تصل إلى سياج الضيعة حتى يضطرب نظامها وتتفرق يمنة ويسرة ، ثم لا تلبث أن تعود إلى مراعيها ، وأنا واثقة مما أقول لأن لدى من يعيننى ويسهر على مصالحى !» .

وأتم فينانثيو العبارة قائلاً :

- بلاشك ... لديها من يعينها ويسهر على مصالحها ... فالمتكفل بذلك ليس إلا الشيطان نفسه ، أو «الشريك» كما اعتادت هى على تسميته ، وإلا فمع من تجرى هذه المناجيات الخفية التى أفردت لها صومعة فى بيتها لا تسمح بدخولها لأحد ؟!

وكان من الممكن أن يمتد الحديث عن الأعمال السحرية التى تباشرها السيدة باربارا إلى ما لا نهاية له لولا أن باخاروتى غير مجرى الحديث قائلاً :

- ولكن كل هذا قد شارف نهايته ، فإن الخوار الذى سمع رفيقى ماريا نيبس الثور الأحمر يطلقه فى اتجاه «ضيعة الرعب» ليس إلا النذير للسيدة

باربارا بأن ساعتها الأخيرة قد اقتربت ، ويكفينا الآن من بشائر الخير الواردة مع قدوم الدكتور أن بالبينو ذلك اللص الكبير قد سدت عليه منذ الآن سبل السرقة والنهب التى طالما سلكها . نعم ... بالبينو المجرم أمهر الناس فى العدوان على حقوق الناس ! ذلك الرجل الذى لا أظنه يتردد فى سرقة صندوق النذور القائم فى ضريح «أخير يليتو» ، ويكفى هذا فى بيان ما يمكن أن يصل إليه سطو ذلك الرجل !

وبدت الفرصة سانحة لماريا نييبس بعد هذه العبارة لكى يوجه إلى باخاروتى سهام سخريته اللاذعة وليشتبك معه فى مناقضاتهما المعهودة :

- خير لك ياصديقى باخاروتى ألا تعرض لهذا الموضوع ، فإنى أعرف واحداً لم يتورع كذلك عن مد يده إلى صندوق النذور هنا فى ضريح «الروح المقدسة» !

وكان ضريح «أخير يليتو» الذى ذكره باخاروتى واحداً من الأضرحة الكثيرة المنتشرة على طول السهول وعرضها ، وأهل حوض «الأراوكا» يولونه من التعظيم والتقديس ما جعله من أشهر المتعبدات التى يلزمونها إذا حاقت بأحد منهم أزمة ، ولا يمر مسافر بهذه البقعة إلا استهل رحلته بالصلاة على روح الولى الصالح ساكن الضريح ، فإذا كان على طريقه فإنه يترجل عنده ويوقد له شمعة ويودع صندوق النذور الموضوع فيه صدقة ، وكان هذا الضريح بناءً صغيراً بدائيًا مسقوفًا بسعف النخيل تحت قدمى شجرة ضخمة ، وقد جعل فيه سراج زيتى دائم الاتقاد ، وموضع لشموع المسافرين ، ثم صندوق الصدقات ، وكان وعاءً خشبيًا مكشوفًا لا حارس له ولا رقيب عليه ، وكان قسيس أقرب قرية يأتى إليه بين حين وآخر ليأخذ ما تجمع فيه من صدقات وليؤدى الصلوات على روح صاحب الضريح . ويقول أهل تلك البقاع إنه لم يكن من النادر أن يرى بين قطع النقود الصغيرة المتجمعة فى صندوق النذور

هذا أوقيات وقطع ذهبية كبيرة القيمة ؛ إذ إن النذور المقدمة كانت تتوقف على ثروة المارين وعلى حرج الأزمات والمآزق التى تعرض فى حياة الناذرين . أما أصل بناء الضريح فمصدرها عادى معهود فى أمثال هذه الأضرحة : عابر طريق يجدون جثته هناك لدى جذع الشجرة فى المرج الذى يحمل اسم «أخير يليتو» ، فيدفن بذلك الموضع ، ثم يتفق أن يمر بالمكان مسافر آخر يقع فى ورطة وهو على مقربة من مدفن ذلك الرجل ، فيهتف : «يارب أنقذنى من هذه بحق روح المدفون فى أخير يليتو !» ، ويستجيب الله لدعائه فيخرج سليمًا من الأزمة التى حلت به ، ثم يتفق مروره بذلك الموضع مرة أخرى ، فيترجل عن جواده ، ويقوم ببناء ذلك الضريح المتواضع ، ويوقد الشمعة الأولى فيه .

أما البقية فإن الزمن بها كفيل ...

ولم يسكت باخاروتى على ما عرض له به ماريا نييبس ، فأسرع بالجواب :

- ليس فى الأمر ياصديقى ما يدعو إلى التلويح والإغماض ، فليس هناك أحد غيرى تقصده بما قلت ، وإنى لمعترف به ، فقد مددت يدى بالفعل إلى صندوق النذور الموضوع فى ضريح «الروح المقدسة» ، ولكنى أرى لزامًا عَلَىَّ أن ألقى إليكم ببقية الخبر ؛ إذ إن سائر الحاضرين هنا لا يعرفونه ، حتى أقطع السبيل على ما يمكن أن تفتريه على الألسنة الطوال الحداد ، وخلاصة الأمر أننى كنت قد رأيت نفسى فى أحد الأيام الماضية مفلسًا نظيف الجيوب ، وكنت شديد الرغبة فى الحصول على بعض المال ، فالإفلاس وطلب المال أمران كثيرًا ما يتلازمان ، واتفق أن مررت - وأنا فى هذه الحال - على ضريح «أخير يليتو» ، وحينئذ طرأت إلى فكرة الحصول على الدريهمات التى كنت مفتقراً إليها ، فدنوت من الشجرة ، وترجلت عن حصانى ، وهتفت بالأسماء المقدسة الثلاثة ، ثم حييت روح الرجل الصالح وساءلته : «كيف حالك ياصديقى ؟ وكيف حال رصيدك اليوم ؟» ، ولم تجبنى الروح ، ولكن صندوق النذور القابع

فى الضريح نظر إلى عينى وتحدث إلى قـائلاً : «إن لدى هنا بين النقود الصغيرة التى ترى أربع قطع ذهبـيـة» ، وحككت أنا رأسى فقـد بدأت الفكرة تسـاورنى وتداعب ذهنى فـى إلحـاح ، ثم قلت : اسـمع يـاصـديقى ، لنأخـذ هذه القطع الذهبيـة الأربع ، ولنمض بها إلى بيت القمـار فلنلعب بها ، فإن لدى إحسـاسًا عمـيقًا يحدثـنى بأننا سنؤدى بأول ما يصادفنا فى الطريـق من بيوت اللعب إلى الإفلاس والخـراب ، فلنكن شـريكين : أنت تضع المـال الذى سنقامـر به ، وأنا أضع المكر الذى سيكفل لنا الربح الوفـير !» ، وأجابتنى الروح - كمـا اعتادت الأرواح أن تتكلم - دون أن أسـمع لـهـا صـوتا : «ولم لا يا باخـاروتى ؟ خـذ ماشـئت من الصندوق» ، وترددت قليلاً فـأهابت بى : «حتى متـى ستظل هكذا مترددًا خائفًا ؟ خذ النقود بغير إحجام ، فلو أنك خسرتها لمـا كان مصيرها على يديك أسوأ من مـصيرها على يدى القسـيس الذى يأتى لجمعهـا !». وصدعت بالأمر ، فأخـذت القطع الذهبية ، ومضيت إلى «أتشاجـوا» فلم أكد أصل حتى توجهت إلى بيت القمار حيث قامرت بالقطع كلها فى لعبة واحدة .

وسأل أنتونيو :

- وأفلست صاحب محل القمار ؟

- لا يا صاحبى ، لقـد كان الأمر على عكس ما ظننـت ؛ إذ خسرت القطع الذهبية كلها فـى لحظات ، فالشياطين التى تسكن بيوت القمـار لا تحترم أحدًا ، حتى ولو كـان الروح المقدسة نفسـها . وعدت فى تلك الليلة إلى فراشى خـائبًا صفر اليـدين ، ومررت فى طريقى بأخير يلـيتو ، فتوقـفت عند الضريح وقلت للمرحوم : «قد علمت ياشـريكى أن الحظ لم يواتنا فى هذه المرة ، فعسانا نكون أسعد طالعا فى المرة القادمة ، ومع ذلك فقد أتيت لك بهدية قيمة» ، ثم أشعلت له شـمعـة من الشمع الجـيـد الثمـين ، وما كـانت القطع الذهبيـة الأربع التى أخذتها من صندوقه لتـمنحه أكثر من هذه الشمعة لو أنهـا وقعت فى يد قسيس القرية !

وتعالت ضحكات الحاضرين وتعليقاتهم المرحة على فعلة باخاروتى ، ثم جرهم الحديث إلى آخر كرامات «الروح المقدسة» ، وأخيراً أووا إلى أسرتهم .

* * *

السكون مخيم على الكوخ ، وأشعة القمر تنساح على بسيط السهول ، فتمد المسافات وتبعد خط الأفق ، وفى حظائر الدجاج ديك خدعه ضوء القمر ، فانطلق يصيح ناشراً الحركة والاضطراب بين الدجاج ، والكلاب المستلقية فى الفناء ترفع رءوسها وتنصب آذانها ، ولكنها لا تسمع إلا خفق أجنحة الخفافيش وهى تتطاير حول شجرة التين الضخمة ، فتعود إلى دس رءوسها بين أرجلها ، ومن بعيد يأتى صوت خوار ثور يبدو أنه تشمم حركة تنبئ باقتراب النمر .

ويترنم باخاروتى والنعاس يغالب عينيه :

- إلى أيها الثور العجوز .. لقد استعصيت على الخيول والحبال ، ولكنك إذا أردت رجلاً فهأنذا لك !

ويضحك أحد رفاقه ويتساءل :

- أتراه «ذا النعل الممزقة» ؟

ويجيب أنتونيو :

- ليته يكون ، فما أحوجنا إليه الآن !

ثم يخلد الجميع إلى الصمت ...

الفصل الثامن

الترويض

السهول الممتدة جميلة رهيبة فى آن واحد : فى جنباتها تتعايش الحياة الرائعة الجذابة والموت الهائل الشنيع ... الموت هنا يتربص فى كل ناحية ، ولكن الناس لايرهبونه ، فانبساط السهول الشاسعة يبعث الخوف إلى القلوب ، ولكنه خوف لايشيع فى القلوب برودة ولا انكماشًا ، بل هو خوف حار ملتهب كأنه الريح اللافحة المضطربة فى مفازاتها التى ليس لها حدود تحت أشعة الشمس المحرقة ، أو الحمى التى تولدها فى الأجسام مستنقعاتها الساكنة الراكدة .

السهول تصيب سكانها بضرب من الجنون ، وجنونهم هو أن يعيشوا فى هذه الأرض ويموتوا فيها لا يفكرون فى أن يجدوا عنها بديلا ؛ الجنون هنا هو محور كل شىء : هو فى الحرب طاقة لا تقاوم تولدت منها أساطير خالدة فى سجل البطولة والاستبسال ، وهو فى العمل اليومى مايشتغلون به من ترويض وحشى النيران والخيول ومجاولتها بالحبال ؛ إذ إن ذلك ليس فى الحقيقة عملا ، ولكنه تهور وإلقاء بالأيدى إلى التهلكة ، وهو فى ساعات الراحة انطلاق لا يعرف الحدود ، تراه فى لذع النكتة عند السخرية ، وفى شدة العارضة عند الجواب ، وفى التعرض المكشوف لما لايليق عند رواية القصة أو النادرة ، الجنون هو ما يخلدون إليه كثيراً من الإهمال الكسول الذى لا يبالى بشىء : فالأرض فسيحة أمامهم وهم عازفون عن الضرب فى مناكبها ، والأفق ممتد إلى ما لا نهاية وهم لا يبحثون فى أرجائه عن شىء ؛ جنون فى الصداقة : إذ تبدأ

بالتشكك وإساءة الظن ، ثم لا تلبث أن تنقلب إلى صراحة مطلقة وتبسط كامل وإخلاص لا حدود لـه ، جنون فى الحب يقدم الرجل فيه جـواده على أى امرأة يتعلق بها قلبه ... الجنون هو سنة الحياة فى السهول !

الأرض المكشوفة المنبسطة ، الأرض الطيبة التى خلقت للعمل المثمر والمآثر الخالدة المجيدة ... أرض كلها آفاق كأنها الأمل ، كلها طرق كأنها الإرادة .

- أفيقـوا من نومكم يا رجال ، فقـد أتى الفجر كأنه فـارس تحف به كلاب صيده !

كـان صوت باخـاروتى الذى يستـيقظ دائـمًا وقـد ملأ قلبـه البشـر والمرح والتفاؤل ، ولسـانه ينـطلق دائمًا بأمـثال هذه التشـبـيهات السـاذجة التى يتمـيز بها هـؤلاء الرعاة الشـعراء ، أما كــلاب الصيـد التى أتـى بهـا الفـجر فإنـه لـم يكن يعنى بها إلا تلك الغيوم الرقيقة التى يلونها الشفق فى جنبات السماء مطلة على الأفق بين أدغال الأعشاب المتكاثفة .

ويتـوافـد المبـكرون من رجـال الضـيعـة واحداً واحـداً على المطبخ ، وهو حجرة واسعة يتدلى مـن سقفها فتيل سراج مشتعل ، وقـد غطت جدرانها طبقة كثـيفـة من الدخـان الأسود الممـزوج بدسم الطعام ، وجلس الرجـال يتبـادلون الحديث عـما ينتظرهـم من عملـهم اليومى ، بينما كـانت « كاسيلدا » الطبـاخة تقدم لهم أقداح القهوة ، وكـان التفاؤل والبشر يسودان الجو فيمـا عدا كارمليتو الذى كان قد أسرج جواده مستعداً لمغادرة الضيعة .

ويبدأ أنتونيو الحديث فيقول :

- إن أول مـا ينبغى أن نقـوم به هو ترويض المهـر الأحمـر ؛ لأن الدكتـور يحتاج إلى مطية صالحة لركوبه ، وأظن أن هذا الجواد هو خير ما يناسبه .

فيوافقه على ذلك فنانثيو المروض قائلا :

- إنه قلما يوجد له مثيل هنا .

ويضيف باخاروتى :

- ومن أجل ذلك وضع بالبينو نظره عليه تمهيدًا للاستيلاء عليه ، وبالبينو رجل يعرف ما يفعل ، وما كان لأحد أن ينكر عليه تمييزه للخيول ومعرفته للجيد الصالح منها .

أما كارميليتو فقد تمتم مخاطبًا لنفسه :

- ما أسوأ حظ هذه البهيمة ! لقد كانت تستحق أن يعلو ظهرها من هو أكثر منه رجولة !

وبينما كان عدد من الرجال يتوجهون إلى الحظيرة التى كان بها ذلك الحصان انتحى كارمليتو بأنتونيو وقال له :

- يؤسفنى أن أقول لك إننى قررت ألا أبقى بعد الآن فى ألتاميرا ، ولا تسألنى عن سبب لهذا للقرار .

فأجاب أنتونيو :

- لا ، لن أسألك عن شىء ، فأنا أعرف ما يجرى لك ، ولست أطلب منك أن تعدل عن الذهاب ، ولو أنى كنت أعتمد عليك وأتخذك عدة لى أكثر من اعتمادى على أى صديق آخر ، ولكنى لا أطالبك إلا بشىء واحد : هو أن تنتظر قليلا ... يومين اثنين لا أكثر ، حتى أتعود بعض الشىء على فكرة ذهابك ، وحتى أحاول أن أسد الفراغ الذى ستخلفه وراءك .

وأدرك كـارمليـتـو أن أنـتونـيو لـم يطــلب إليـه هـذه المهلـة إلا لـهـدف واحـد هـو رجـاؤه فـى أن يغـير رأيه فى سـانـتـوس لوثـاردو ، وعلـى الرغـم من ذلك فـقد قــبل تأجيل رحلته :

- حسنًا ، سأجيبك إلى ماسألت ، لالشيء إلا لإرضائك فيما توجهت فيه إلى ، سأظل خلال هذين اليومين حتى تتعود على فكرة رحيلى كما تقول ، ولو أن هناك أشياء لا أظن التعود عليها ممكنًا فى هذه الأرض .

ولا تلبث أشعة الصبـاح أن تغمر السهول ، وتبدأ النسـمات الرطبة الباردة فى الهبوب على المروج وقد أثقلتها رائحـة الأعشاب والماشية ، والدجاج تشرع فى الهبوط عن جذوع شجر « الميريكورى(*) » الضخم ، فيناديها الديك البرى ، وتتوافـد عليه واحـدة لكى يبسط عليـها جناحـه الذهبى ويذيقهـا لذة الحب فى شهوانيته التى لاتشبع ، وطيور الحجل تتوثب بين المروج مطلقة صفيرها المرح ، وعصافير الحقول توقع ألحانها الفـضية الرتيبة على سياج الحظائر ، وأسراب من البط البرى الصغير تحلق فى السمـاء فى لغط مختلط الأصوات ، بينما تحلق هنا وهناك عـصائب من الطيـور الجارحة مـتربصـة بما يقدر لهـا من غنيمـة . وعلى الأرض الممتـدة المترامية تتـحرك قطعان الأبقـار الوحشيـة ، والخيول الجمـوحة محيـية الصباح بأبواق صهيلهـا . الحياة المنطلقة الخشنة تنبض فى السـهول بقوة عارمـة ، وها هو ذا سانتوس لوثاردو يتـأمل من دهليز الدار ذلك المنظر الكبـير الذى يخلب النظر ويأخذ بالفؤاد ، وهو يشعر فى تأمله له بأنه قد أيقظ فى نفسه أحاسيس بدائية وحشية كان يظنها قد خمدت إلى الأبد .

وقطعت عليه حبل تفكيـره أصوات عالية غاضبـة هناك إلى جوار الحظيرة فى نقاش محتدم :

- إن هذا المهر الوحشى من ماشية الدكتور لوثاردو ، وقد ولد هنا فى ألتاميرا ، فلا تأتِنى اليوم بهذه القصة المختلقة عن كون أمه فرسًا من أفراس « ضيعَة الرعب » ، لقد حانت الساعة لكى تنتهى هنا تلك الحيل والألاعيب !

كان صوت أنتونيو ساندوفال ، وهو يواجه رجلا عملاقا كان قد أقبل فى هذه اللحظة ، والرجل ينهره فى لهجة آمرة ويسائله عمن أمره باستنزال المهر الأحمر الذى كان قد تحدث عنه قبل ذلك مع مروض الخيول الوحشية .

وأدرك سانتوس فى الحال أن الرجل الذى وصل منذ قليل ينبغى أن يكون مدير أعماله ووكيله بالبينو بايبا ، على أنه توجه إلى حيث كانت المشادة العنيفة بين الرجلين ، حتى يضع حداً لهذا النقاش ، ثم سأل :

- ماذا حدث ؟

غير أنه لم يتلق جوابًا عن سؤاله ، فقد كان أنتونيو فى غمرة النقاش المحتد ، وكان وجهه المحتقن ينبئ عما كان يضطرب فى صدره من غيظ شغله عن رد الجواب ، أما الآخر فإنه لم يحفل بالنظر إلى سانتوس ، وكأنه رأى أنه غير ملزم بتقديم حساب عن أعماله أمام رجل غريب ، وحينئذ أعاد سانتوس سؤاله فى لهجة صارمة آمرة :

- ما الذى جرى ؟

فأجاب العملاق :

- إن هذا الرجل تهجم عَلَىَّ بوقاحة .

فعاد سانتوس إلى السؤال ، وهو يتظاهر بأنه لا يعرف شخصية محدثه :

- ومن أنت ؟

فقدم الرجل نفسه قائلا :

- بالبينو بابيا ... فى خدمتك يا سيدى .

فصاح سانتوس حينئذ ، وهو مواصل تجاهله لشخصية الرجل :

- آه ... إذن أنت مدير أعمال الضيعة ! لقد بكرت فى القدوم كثيراً ! ثم إذا بك تأتى لتثير العراك والشجار بدلا من تقديم الاعتذار لى عن غيابك عن الضيعة مساء أمس ، مع أن واجبك كان الحضور لاستقبالى عند قدومى .

وامتدت أصابع بالبينو بابيا إلى شاربيه يمسحهما فى حيرة واضطراب ، فقد كانت عبارات سانتوس مفاجأة له لم يتوقعها ؛ إذ لم تكن داخلة فى برنامجه الذى كان قد أعده من قبل لفرض احترامه وهيبته على سانتوس لوثاردو منذ اللحظة الأولى ، ولهذا فقد بقى فى حيرة لا يدرى ما يفعل ، وأخيراً اضطر إلى الاعتذار :

- إننى لم أكن أعلم أنك قادم ولا فى أى وقت ، وقد عرفت أنك هنا الآن فقط ... منذ لحظات . أقول ذلك لأننى أحسب أنك سيد هذه الضيعة إذا لم يخطئ افتراضى .

- لا . لم تكن مخطئا فى افتراضك .

وشعر بالبينو بأنه فقد هذه الجولة الأولى مع سانتوس لوثاردو الذى باغته بتلك الكلمات الشديدة التى لم يكن ينتظرها ، والتى أوقعته لأول وهلة فى الاضطراب والحيرة ، فحاول أن يسترد رباطة جأشه ، ويستعيد الأرض التى فقدها ، فقال :

- والآن وقد قدمت إليك اعتذارى بما فيه الكفاية أظن أنه قد جاء دورك فى الكلام ؛ لأن اللهجة التى خاطبتنى بها .. بصراحة .. ليست هى اللهجة التى اعتدتها ممن يتوجهون إلى بالكلام !

والتزم سانتوس لوثاردو الرزانة وبرود الأعصاب ، غير أن ابتسامة ساخرة علت شفتيه وهو يقول :

- هكذا ؟ .. يالك من رجل متواضع متساهل فى حقوقك !

وكان رجال الضيعة قد توقفوا يراقبون المشهد فى فضول ، وهتف باخاروتى مخاطبًا لنفسه :

- لقد مَنَّ الله علينا برئيس حق الرجولة .

وانقطع بالبينو بعد هذه الكلمة المفحمة ، فلم يعد راغبًا فى مواصلة اصطناع الشجاعة والتشدق بعبارات الاستعلاء ، بل رأى أنه لم يبق إلا القليل بينه وبين فقد منصبه كمدير لأعمال الضيعة ؛ إذ إن ذلك قد أصبح فى حكم الأمر الواقع، فقال متسائلا :

- هل أفهم من هذا أنك قررت الاستغناء عنى ، وأن خدماتى قد انتهت هنا ؟

- لا ، لم تنته بعد ؛ إذ بقى عليك قبل ذلك أن تقدم لى حسابًا وافيًا عن تصرفاتك وأعمالك ، ولكن لندع هذا إلى وقت آخر .

قالها سانتوس ، ثم أدار ظهره له ، بينما كان بالبينو يقول وهو يصر على أسنانه :

- سأكون تحت تصرفك فى الوقت الذى تريد .

وكانت عينا أنتونيو تجول فى الحاضرين باحثتين عن كارمليتو ، أما باخاروتى ، فقد توجه إلى ماريا نييبس وفنانثيو ، وكانا فى مدخل الحظيرة يرقبان المشهد . وإن كانا يتصنعان الاشتغال بإعداد الحبال لربط قوائم الجواد

الأحمر مدار النزاع بين أنتونيو وبالبينو بابيا ، وصاح باخاروتى برفيقيه فى لهجة مليئة بالتورية والتعريض :

- حسنًا ياأولاد ... ولكن ماذا تصنعون حتى تبطئوا كل هذا الوقت فى الإلقاء بهذا الحيوان إلى الأرض ؟ ألا ترونه يرتعد من الغيظ كأنما تملكه الرعب ؟ هذا وهو لم ير بعد إلا السرج المعد لتذليله للركوب ، فما بالكم به حين تمرغونه فى التراب ؟

وتعالت ضحكات ماريا ينيبس وفنانثيو من كلمات رفيقهما ذات المعنى المزدوج ؛ إذ كانت تعنى الحصان وبالبينو فى وقت واحد ، وأجاباه مجاريين له فى تعريضه :

- لا تعجل فإن مصيره إلى ذلك ، وسنرى الآن ما إذا كان سيستطيع التخلص من هذا الحبل كما تخلص من غيره فيما مضى !

أما الجواد فقد كان رائع تقاسيم الجسد ، شامخ النظرة ، لامع الشعر ، سريع الحركة ، وكانت عيناه تلتمعان ببريق الأنفة والاستماتة فى المقاومة ، وما إن قذف فنانثيو وماريا نييبس الحبل على رجليه الأماميتين حتى نفر وتخلص منه كما قدر الرجلان بالفعل ، وكأنما هدته غريزته إلى أنه كان هدف العملية التى كان يستعد لها الرجال المحيطون به ، فظل يدافعهم فى استبسال ، محاولا أن يندس فى وسط الخيول الأخرى التى كانت تجرى هنا وهناك فى قلب الحظيرة .

على أن باخاروتى تمكن أخيراً من إلقاء عقدة الحبل على قائمتى الجواد الجموح ، وشد على طرفه الآخر بيديه ، ثم أثبت قدميه فى الأرض ، وظل يجذب الحبل وهو ملق بجسده إلى الوراء بكل قوة ، وهكذا حتى استطاع الإلقاء بالجواد إلى الأرض ، ثم أهاب بماريا نييبس صائحًا :

- أسرع بإدخال ذنبه بين رجليه ، ولا تدع له فرصة النهوض .

ولكن الجواد كان أسرع حركة ؛ إذ إنه لم يلبث أن أقام عنقه وشد صدره ، واستوى على قائمتيه وهو ما زال باركا على الأرض ، وجسده يرتعد حمية وغضبًا واستماتة فى القتال ، ولم يهجه باخاروتى إذ آثر أن يتركه حتى يهدأ ويسكن ، ثم اقترب منه قليلا قليلا وهو يقرب إليه الغشاوة الجلدية التى يعصبون بها أعين الخيل الجامحةعند ترويضها .

وهاج ذلك من ثورة الجواد ، فالتمعت عيناه ببريق وحشى غاضب ، ولكنه ترك الرجل يدنو منه ، وفطن أنتونيو إلى سوء نية الجواد ، فصاح بباخاروتى يحذره :

- احترس ، فإن هذا الوحش سوف ينقض عليك .

ولكن باخاروتى تقدم مادًا ذراعه بالغشاوة فى بطء وحذر ، غير أنه لم يستطع أن يثبتها على جبين الحصان ؛ إذ لم تكد تلمس أذنيه حتى هجم هذا عليه قاذفًا برجليه الأماميتين فى وجهه ، ووثب باخاروتى فى خفة مبتعدًا عنه وهو يصيح :

- تبا لك يابن الفاعلة !

غير أن تلك اللحظة كانت كافية لكى يستطيع الجواد النهوض من جديد والدفاع عن نفسه مختفيا فى غمار الخيول الأخرى التى كانت واقفة فى الحظيرة ، تنظر إلى ما يدور فيها ، وقد مدت أعناقها ونصبت آذانها فى توجس وقلق .

وصاح أنتونيو :

- والآن ألق على عنقه أنشوطة الحبل .

وفعل باخاروتى ، وظل عنق الجواد يضطرب فى الأنشوطة الواسعة ، وهى تضيق ويستحكم وثاقها كلما حاول التملص منها ، وأسرع ماريا نيبس وفنانثيو بدورهما فألقيا بحبالهما على قوائمه ، وأعجزته الحبال عن الحركة ، وأخذت الأنشوطة بمخنقه ، فارتمى على الأرض وقد أرهقته المقاومة ، وأنفاسه تطرد فى سرعة وتلاحق .

وتمكن الرجال حينئذ من إثبات الغشاوة الجلدية على عينى الجواد والعصابة المكممة على فمه ، وزادوا من إحكام عقد الحبال على قوائمه ، ثم نفسوا قليلا عن مخنقه ، فاستوى باركا على الأرض ، وحينئذ وضع فنانثيو على ظهره السرج البسيط الذى يستخدمه المروضون ، ولم يزل الجواد يضطرب غيظا وحنقا حتى لم ير جدوى من الكفاح ، فسكن وقد ألجمه الغضب وشل حركته ، وتصبب جسده عرقا تحت عار السرج الذى لم يذل له جنباه من قبل قط .

وكان سانتوس لوثاردو يراقب هذا المشهد كله وهو متكئ بمرفقيه على سياج الحظيرة الخشبى ، وقد هاج فى نفسه ذكريات طفولته وصباه ، وتصور نفسه فى تلك السنوات الخالية ، وهو يمتطى صهوة مثل هذا الجواد بغير سرج ولا ركاب ، وريح السهول اللافحة تصك وجهه وهو ينطلق فى أرجاء المرج الفسيح ، ولكن صوت أنتونيو قطع عليه حبل التأمل ، بينما كان فنانثيو يستعد لإلقاء رجليه على ظهر الحصان . كان أنتونيو قد دنا منه وهمس فى أذنه :

– سانتوس ! أتذكر أيام كنت بنفسك تروض الخيول الجموحة التى كان أبوك ينتخبها لك ؟!

قالها أنتونيو فى صوت خفيض هامس ، وقد رفع الكلفة بينه وبين سانتوس كما كان يفعل حين كان رفيق طفولته المفضل ، ولم يكن هذا بحاجة إلى أن يزيده التابع المخلص تفسيراً لما أودعه ذلك السؤال ... الترويض ! محك

الرجولة الحقة لدى أهل السهول ، وامتحان الشجاعة والفروسية الذى ينتظر منه أولئك الرجال أن يجتازه حتى يسمعوا له ويطيعوا ، وحتى تتأصل فى نفوسهم هيبته واحترامه ، وامتد بصره وهو فى تفكيره هذا - دون أن يشعر - إلى كارمليتو الذى كان ينظر مثله إلى المشهد من وراء السياج فى الطرف المقابل حيث كان يقف . وانطلقت الكلمات من فم سانتوس ، وكأنه واقع تحت أثر مخدر :

- دع الجواد يافنانثيو ، فسأتولى أنا ترويضه !

وابتسم أنتونيو فى سرور ، فقد رأى أن كلماته لم تضع عبثًا وأنه لم يخطئ الظن بسيده ، أما فنانثيو وماريا نييبس فقد تبادلا نظرات تنطوى على مزيج من الدهشة والتشكك ، وأما باخاروتى فقد قال بصراحته الخشنة التى لا تعرف المواربة ولا المداراة :

- لا حاجة بك إلى هذا يا دكتور ، فنحن هنا جميعًا نعرف أن رجولتك لا يعوزها إظهار ، فدع فنانثيو يقم بترويضه .

ولكن سانتوس لم يكن فى هذه اللحظة ليسمع إلى حجة ولا ليلتفت إلى منطق ، فعبر السياج ، ووثب على ظهر الجواد الشرس ، ولم يشعر به الحيوان حتى تمرغ فى الأرض محاولا اقتلاعه عن جنبيه .

وارتسم على وجه كارمليتو تعبير عن الدهشة ، ثم بقى جامدًا فى موضعه يرقب حركات الفارس وقد التصقت ساقاه بقوة على جنبى الحصان ، وهو يتململ من الغشاوة التى تغطى عينيه والكمامة التى كان باخاروتى وماريا نييبس ما زالا يقبضان منها على مقدم فمه ، وجسده يرتعش فى غيظ وهو يسبح فى بحر من العرق الغزير ، وأشفاره قد استطالت وتناثر منها الزبد .

وكان بالبينو بايبا لا يزال واقفًا هناك يتأمل المنظر ، وكان قد بقى فى انتظار فـرصة تسـمح له بأن يرى لوثاردو أنه قادر عـلى أن يكيل له الصاع صـاعين لو جرؤ على توجيه الخطاب إليه بمثل مـا فعل عند أول لقاء له به ، وابتسم بالبينو فى سخرية واحتقار ، وقال محدثًا نفسه :

- عن قريب سيرى هذا ... الفتى المغرور كيف يندق رأسه فى تراب أرضه !

أمـا أنتونيـو فكان فى ولائه السـاذج المخلص يجتـهـد فى ترديد نصائحـه لسانتـوس ، وكأنه كان يخشى أن يكون مـضى السنين قد أنساه ما كـان يمارسه فى صباه من ترويض الخيول الوحشية :

- دعه فى أول الأمر يجر مـا شاء ، وأطلق له من العنان كل ما أراد ، حتى يأخذ منه الرهق والنصب ، فحينئذ حاول أن تـسيطر عليه قليلا قليلا ، ولا تكثر من الضغط على أضـلاعه إلا فى وقت الضرورة ، وتمكن من صـهوته منذ الآن قبل أن يندفع بك ، فـهذا الجواد عنيف الهـجمة سريع الحـركة ، وهو من النوع الذى لا يقوس ظهره للقذف براكبه، ولكنه إذا انطلق عاديا فكأنما ركبه شيطان ، وسنتبعك أنا وفنانثيو عن كثب بقدر ما نستطيع .

ولكن سانتوس كان بعيداً عن أن يصغى إلى نصائح تابعه وتوجيهاته ، فقد كانت مشـاعره الملتهبـة فى هذه اللحظة هى التى تقوده وتسيطر علـيه ، وكانت أعصابه مـتوترة مضـطربة تتـأجـج حمـية واستـبسالا ... تمامًا مثـل أعصاب هذا الجواد الجـامح المتوحش ، وانحنى على رأس الحصـان ليقتلع الغشـاوة التى كانت تغطى عينيه وهو يصيح :

- دعوه ينطلق !

فصاح أنتونيو :

- باسم الله !

ونزع باخاروتي وماريا نييبس حبالهما عن الجواد وتركاه طليقًا بعد أن وثبا منفرجين عن جانبيه ، أما الحصان فـقد قوس ظهره محاولا أن يلقي براكبه ، ثم قذف بنـفسه على الأرض وهـو في سورة الغضب ، فـكادت تتزلزل من تحـته ، ولكن سانتـوس أثبت ساقيه علـى ظهره حتى بدا الجواد وفـارسه كأنما أصبـحا كتلة واحدة ، وارتفعت سـحابة من الغبار لم تكد تنقشع حـتى كانا قد غابا عن الأنظار ، فقد انطلق الجـواد يعدو وكأنه يشرب هواء المرج الفسيح المـمتد أمامه بلا نهاية .

ومضـى أنتونيو وفنانشيـو يعدوان وراءه على صهوتي جواديهما ، ولكنهما لم يلحقاه ، وسرعان ما فقدا كل أثر للحصان وراكبه .

وتمتم كارمليتو وقد غلبه التأثر :

- لقد أخطأت في حق الرجل !

بينما صاح باخاروتي :

- ألم أقل إن رباط العنق ليس إلا خرقـة يستر بها الرجل شـعر صـــدره ؟ ألا تراه كيف استـوى على ظهـر الجواد كأنه صـخرة ثابتـة ؟ وما كان الحـصان ليقتلع مثل هذا الفارس عن صهـوته إلا إذا آثر أن يجري على ظهره عوضا عن قوائمه .

ثم توجه إلى حيث كان بالبينو واقفًا واستطرد قائلا في استفزاز صريح :

- سيـرى أشبـاه النساء الآن كـيف تكون سراويل الرجـال الذين يعـرفون كيف يحكمونها على أجسادهم . وقد آن لنا أن نعرف ما إذا كان أسدًا حقا كل ما يزأر !

ولكن بالبينو تظاهر بأنه لم يســمع شيئًا ، فقد كـان يعرف أن باخاروتي إذا اجترأ على مثل هذه العبارة فإن جرأته لن تقتصر على مجرد الكلام .

وأقبل بالبينو يحدث نفسه .

– لا يخلو هذا الصبى المغتر بنفسه من شجاعة واجتراء ، ولكن الجواد لم يعد بعد ، ولعله لا يعود أبداً ، فإن هذه السهول تبدو من هنا منبسطة مستوية ، و لكن فيها رغم ذلك وهاداً وأغواراً كفيلة بأن تندق فيها رقاب المتهورين ومصطنعى الجرأة من الفرسان !

ومع ذلك فإن بالبينو لم يطل المقام منتظراً ما يسفر عنه الأمر ، فمضى برهة يتجول هنا وهناك بين أكواخ الرعاة فى الضيعة كأنه يبحث عن شىء مفقود ، وأخيراً اعتلى مطيته وغادر ألتاميرا قبل أن يجبروه على أن يقدم حساباً عن سرقاته وأفاعيله .

* * *

الأرض الواسعة المبسوطة ... الأرض الطيبة الصالحة للأعمال الجبارة والمآثر الخالدة المجيدة ؛ حيث السراب الذى يلوح فى آفاق السهول ينداح كدائرة تلتقى خطوطها حول محور من السرعة التى يصيب الرءوس منها دوار ... الريح تلقى فى الآذان صفيرها الحاد ، وأعواد القصب والبوص تنقبض وتنفرج فى سرعة محمومة ، وخمائل الأعشاب الطويلة تنحسر بين يدى الفارس المُغذّ وتصيب جسده بأطرافها الحادة القاطعة كأنها الخناجر ، ولكن الجسد لا يَحس بألم الضربات ولا الجروح ، وكثيراً ما يرى الفارس أن الأرض تحت أقدام جواده لم تعد أرضاً ، بل هى أشراك ووهاد تتلقف ما يلقى إليها ، ولكن الجواد يثب عليها دون أن يلمسها كأنه طائر ، ووقع حوافره يتردد ، فيغطى إيقاعه المدوى على كل صوت آخر فى تلك الأرض .. الأرض الواسعة التى يجرى فيها الفارس المُجِدّ أياماً كاملة دون أن يدرك لها نهاية .. سهول تطوى وما زالت بعد أمامه سهول ! ..

* * *

وتتضاءل أخيـراً وحشية الجواد ، وتستكين سورته الجامـحة ، ويتسق عدوه شيئًا فشيئًا ، ها هو ذاع يقرع الأرض بحوافره قرعا منسجما بعد أن كان لا يكاد يطأها ، ويتنفس تنفسا سـريعا متلاحقا ، ويهز رأسـه الغارق فى سيل من العرق والزبد . لقد تمكن فارسه من السيطرة عليه والتحكم فـيه ، ولكنه ما زال متعاليا شامخ الأنف ، وهو يعود أخيراً إلى بيوت الضـيعة ، وقد حف به جوادا أنتونيو وفنانثيو ، ويرتفع صهيله فى اعـتداد وزهو ، ولعله كان يشعر بأن له سلوى عن فقد حريته ووحشيته : هى أنه كان يحمل على ظهره رجلا حق الرجولة .

ويستـقبله باخاروتى بعبـارة الإطراء التى اعتاد الرعاة من أهل الـسهول أن يوجهوها إلى الخيل التى تعود بعد ترويضها :

- جواد أصـيل كريم ، قـد لوحت الشمس جلده المورد ! جـواد لا يدركه التعب إلا إذا حل برحابه الموت ! ...

الفصل التاسع
المرأة الغامضة

مهنة مربحة مثقلة بالغنائم كانت تلك التى خلفها بالبينو بايبا وراء ظهره بعد أن بدأ ينتفع منها حق الانتفاع ؛ إذ إن المستفيد الوحيد من تولى بالبينو لعمل الإشراف على ضيعة ألتاميرا وتصريف شئونها لم يكن حتى ذلك الوقت إلا السيدة باربارا ، فقد استطاعت المرأة الداهية أن تضع يدها على آلاف الثيران والأبقار كانت مما نهبته أو انتزعته من «ألتاميرا» بعد أن وسمتها بميسم «ضيعة الرعب» ، أما بالبينو فلم يستول لحسابه الخاص من كل ذلك إلا على نحو ثلاثمائة ، وهو عدد ضئيل لا يقاس بما كان ينبغى أن يناله إذا دخل فى التقدير مدى «براعته» الإدارية .

وهو الآن بعد طرده من عمله فى ألتاميرا لم يبق أمامه إلا أن يجد مثل هذا العمل فى ضيعة السيدة باربارا ، ومع أنه لم يكن يملأ يده من عاطفة المرأة نحوه - على الرغم من إصراره على أنه عشيقها الجديد - فإنه كان يتعين عليها أن تعوضه عما فقد من عمل جزاء وفاقًا على الخدمات الكثيرة التى قدمها إليها فى أثناء إدارته لأعمال ضيعة سانتوس لوثاردو .

ولم يكن ذلك وحده هو كل ما يقلق بالبينو ويزعجه ، بل أضيف إليه أيضًا هم جديد كان يحدث به نفسه فى ضجر وضيق : ذلك هو أن انسحابه من الميدان الآن لا يمكن أن يفسر إلا على أنه اعتراف منه بما أنكره على رءوس الملأ فى الليلة الماضية من رجولة سانتوس لوثاردو وقوة شكيمته . وماذا سيكون موقفه الآن لو خطر «للساحر» أن يستقبله بهذه الكلمات فى تشف وشماتة :

- ألم أقل لك ياسيد بالبينو إنه «خير لك أن تأخذ الثمرة من أن تؤخذ منك» ؟

ومضى بالبينو يحدث نفسه بهذه الهموم الطارئة وهو فى طريقه إلى «ضيعة الرعب» ، ولم يقطع شوطًا من الطريق حتى التقى بثلاثة رجال كانوا متوجهين أيضًا إلى منزل السيدة باربارا ، فسألهم :

- ما الذى يبحث عنه «الموندراجونس» فى هذه النواحى ؟

أجابوه قائلين :

- ألست تعرف الخبر الجديد ياسيد بالبينو ؟ لقد أمرت السيدة بأن نخلى دار «الماكانيال» ، ويبدو أنها لم تعد تريد مقامنا هناك !

وكان «الموندراجونس» هؤلاء إخوة ثلاثة قدموا من سهول «باريناس» ، وكان الناس يلقبونهم - لما عرف من جرأتهم وإقدامهم على الشر - بـ «الفهد» و «النمر» و «الأسد» ، ثم إنهم اضطروا إلى الهرب من ولاية «باريناس» بعد ما ارتكبوه من جرائم هناك خوفًا من مطاردة العدالة لهم ، واستقروا فى ولاية «أبورى» ؛ حيث ظلوا يتنقلون هنا وهناك منقطعين إلى سرقة الماشية زمنا ما ، وأخيراً دخلوا فى خدمة السيدة باربارا ووجدوا فى ذراها من الحماية والرعاية ما كان يجده أمثالهم من المجرمين واللصوص الذين يحلون فى حوض «الأراوكا» .

أما دار «الماكانيال» فقد كانت تقع على الحدود الفاصلة بين ضياع السيدة باربارا وضيعة «ألتاميرا» . وذلك حسبما تقرر فى حكم آخر قضية كسبتها هذه المرأة ، ولكن الحدود والدار كانت قد تحولت من موضعها وانتقلت إلى داخل أرض ألتاميرا ، وذلك بفضل الإخوة الثلاثة «الموندراجونس» الذين لم تكن لهم مهمة إلا المغالطة فى الحدود الفاصلة والتقدم بها بين وقت وآخر إلى داخل

«ألتاميرا» مقتطعين بذلك جزءاً منها ليضيفوه إلى أملاك السيدة باربارا ، وكان مما أعانهم على ذلك أن حكم المحكمة فى آخر قضية لم يضع بين الضيعتين إلا حدوداً مائعة غامضة ؛ إذ كان ينص على أن هذه الحدود هى الخط الذى يمر بدار «الماكانيال» القائمة بين الملكين ، ولكن هذه الدار التى ليست إلا قوائم وألواحًا من الخشب كان من الميسور فكها ونقل موضعها ثم إعادة بنائها كما كانت فى بضع ساعات ، دون أن يفطن أحد لأول وهلة إلى أى تغيير جدير بالملاحظة فى هذه السهول الفسيحة الهائلة ، وكان «الموندراجونس» القاطنون بهذه الدار هم الذين وكلت إليهم أعمال الانتقال بالحدود شيئًا فشيئًا ، وبهذه الحيلة استطاعت السيدة باربارا أن تستولى على شريط كبير من الأرض يبلغ عرضه نحو نصف فرسخ فى خلال ستة شهور ، هذا بينما كانت تستعد لرفع قضية أخرى ضد جارها .

ولم يقع الخبر الجديد موقع الرضا من نفس بالبينو ، ولكن دهشته واستياءه زادا حينما أضاف «النمر» إلى ذلك قوله :

– هذا والذى يسوؤنا فى الأمر ليس ما قررته بشأن إخلاء الدار ، ولكنه ما حدث هذا الصباح حينما قدم علينا ملكيادس بأمر منها تكلفنا فيه بأن نفك الدار وننقلها إلى حيث كانت من قبل وبأن نعود بحدود الضيعة إلى ما كانت عليه فى الماضى ، وكأن نقل كل ذلك أمر يسير يمكن أن يتم فى ليلة واحدة ، ثم إنه لا يعجبنا أن نعود إلى الوراء بعد أن تقدمنا إلى الأمام ، ولهذا فقد قدمنا على السيدة من أجل أن تعفينا من هذا العمل ، وأن تعهد به إلى أشخاص غيرنا .

وقطب بالبينو حاجبيه وأخلد إلى التفكير بينما كان «الأسد» ينهى حديث أخيه :

- الذى أقوله أنا إن هناك أشياء غريبة تحدث هنا دون أن أعرف لها تفسيراً معقولاً ... إلا إذا كانت السيدة قد بدأت تشعر بالخوف من جارها الجديد !

ولكن بالبينو قال أخيراً للإخوة الثلاثة :

- لا تنقلوا الدار الآن، ولا تغيروا مكان الحدود الفاصلة بين الضيعتين، ولا تذهبوا للكلام معها ، بل اتركوا هذا الأمر لى أنا حتى أتمكن من تسويته معها .

وبقى «الموندراجونس» متشاغلين بالحديث مع بعض رجال الضيعة الذين كانوا واقفين هناك ، بينما توجه بالبينو إلى المنزل ، فاستأذن فى الدخول على السيدة باربارا فى الحال . وكان أول ما فوجئ به بالبينو ووقع من نفسه موقعًا سيئًا هو ذلك التغير الكامل الذى لاحظه على هيئة المرأة ؛ إذ رأى أنها قد خلعت عنها ذلك الثوب الأبيض البسيط ذا الأكمام الطويلة الذى كان يعتبر أقصى ما تسمح به أنوثتها اليابسة المسترجلة ، وارتدت عوضًا عنه ثوبًا آخر لم يره بالبينو عليها قط من قبل ، كان ثوبًا بلا أكمام مفتوح الصدر تزين حوافه شرائط وتطاريز ملونة ، وفضلاً عن ذلك فقد بدت مهندمة مسرحة الشعر على صورة جعلتها تبدو أكثر جمالاً وشبابًا .

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا التغيير الذى صدم عينيه لم يرق له ، وتوجس منه شراً لم يكن يتوقعه ؛ فقطب حاجبيه ، وتمتم بكلمات تعبر عن الضيق وسوء الظن .

وزاد من استيائه تلك الابتسامة الساخرة التى ارتسمت على شفتى المرأة ، وهى تسأله معرضة بما تشدق به فى الليلة السابقة من الاستخفاف بلوثاردو وبما ظل يجعجع به من خطط رسمها من أجل إذلاله وإرهابه :

- هل ذللت قياده وأوطأت ركابه ؟

وأحنق السؤال المتهكم بالبينو بايبا وأحرجه ، فلم يملك إلا أن يجيب فى لهجة جافة خشنة :

- لقد عدت إلى الضيعة بعد أن اتخذت طريقى إلى هنا منتظراً أن يدعونى لكى أقدم له حساباً عن عملى ، وياليته فعل ! فإنه سيرى حينئذ من هو الذى يتحتم عليه أن يقدم الحساب !

ولم ترد عليه باربارا الجواب ، ولكنها شخصت بعينيها إليه ، وظلت مثبتة نظرها فيه دون أن تفارق شفتيها الابتسامة الساخرة ، وارتفعت يد بالبينو إلى شاربيه يتحسسهما مرتين أو ثلاثًا ، ثم نطق قائلاً :

- ولكنى لم أذهب إلى هناك إلا ابتغاء مرضاتك أنت !

وتوارت الابتسامة عن وجهها ، ولكنها ظلت ملتزمة ذلك الصمت المحير المثير .

وبدأ التوجس والارتياب على وجه بالبينو وحدث نفسه قائلاً :

- إن مبادئ هذا الأمر تدل على سوء عواقبه !

والواقع أن سر قوة هذه المرأة وسيطرتها على من يحيطون بها وما كانت تبثه فى نفوسهم من هيبة وخوف ، إنما كان ينحصر فى أنها كانت تعرف كيف تصمت عن الكلام وتنتظر ما يقوله أو يفعله الآخرون ، ولم يكن فى استطاعة أحد أن ينتزع منها سراً تحرص على عدم إفشائه ، أما خططها وتدابيرها فإنها لم تكن تطلع مخلوقًا على كلمة واحدة عنها ، وأما عن مشاعرها وأحاسيسها إزاء من يعيشون حولها أو يتصلون بها فما جرؤ أحد على أن يسبر غورها أو يستكنه غوامضها . كان تكتمها الشديد وتحفظها المطلق يحيران كل من يعرفها ، حتى الذين راودهم الأمل فى الظفر بقلبها لم يستطع واحد منهم أن يتأكد من حقيقة عواطفها نحوه ، فإذا دنا منها ممنيًا نفسه بأنها قد انقادت له

فمـا أكثر مـا يفـاجأ بما يقلب خـططه ومشاريعـه رأسًا على عـقب . أما الذين يكتب عليه أن يعشـقها عشقًا خالصًـا كما قدر على «لورنثو باركيـرو» فلا مفر من أن تتحول حياته إلى مأساة فاجعة مدمرة !

والحق أن مشاعر بالبينو فى علاقته بالسيدة باربارا كانت أبعد ما تكون عن مثل هذا الهـوى الذى ملك على «باركيـرو» قلبه وحواسـه ، ولكنه لم يكن قد فقد الأمل بعد من التـمتع بنعيم وصالها ، ولا سيما إذا كـان هذا الوصال مغنيًا جالبًا للثـروة فى الوقت ذاته ، وما أكثر ما اغـتنى على حساب هذه المرأة أولئك العـشـاق الذين وكلت إليـهم إدارة شئـون ضـيـاعهـا ، وربما كـان مكر هؤلاء ودهاؤهم هو الـذى زين لهم أن يروجـوا تلك الأسطورة المـتـعلـقـة بالقـوى السـحرية الخـفيـة التى تعين السيـدة باربارا ، والتى كـان جمـيع الناس هناك - وأولهم المرأة نفسها - مقتنعين بمقتـضاها بأنه ليس لأحد - مهما بلغ - قِبَلٌ بأن يسرق منها رأسًا واحـدًا من رءوس المـاشية ، فقد كانت باربارا كثـيرًا ما تهمل حراسة ماشيتها وتتهاون فى رعـايتها ؛ إذ تأصل فى نفسها اليقين بأن على مالها «حارسًا» يقف لكل من يـتعرض لها بالمرصاد ، وأعـان ذلك وكلاءها ومديرى أعمالهـا على أن ينتهبوا منها الكـــثـير دون أن تفطن هى إلى شىء على الرغم من بخلها وتقتيرها .

وانتهز بالبينو فرصـة ما حدثه به الإخوة «الموندراجونس» لكى يجس نبض المرأة الغامضة ، ويستطلع حقيقة مشاعرها وتدابيرها ، فقال :

- لقــد تركت بالبـــاب «الموندراجـونـس» الذين وصلوا فى هذه الـلحظة قادمين من دار «المـاكانيال» .

وتساءلت هى :

- وماذا أتوا يفعلون ؟

فأجاب بلهجة أكثر «رسمية» واحترامًا :

- يبدو أنهم قدموا للكلام معك ياسيدتى ، فهم - على ما يظهر - غير مرتاحين لمسألة فك البيت الذين يسكنونه هناك وإعادته إلى موضعه السابق .

وندت من باربارا لفتة سريعة غاضبة ، ثم قالت بلهجة صارمة :

- كيف قلت ؟ غير مرتاحين ؟ ومن الذى سألهم إذا كان هذا الأمر يعجبهم أم لا ؟ اذهب فنادهم الآن وأدخلهم على .

وتلكأ بالبينو برهة ثم أضاف فى تردد وتراجع :

- لا ، لم أقصد أن أقول إنهم يمتنعون عن تنفيذ الأمر الصادر إليهم ، ولكنهم يقولون إنهم ثلاثة رجال فقط وإنهم لا يستطيعون أن ينقلوا البيت والحدود الفاصلة للضيعة فى ليلة واحدة .

- إذن ، فليساعدهم فى ذلك كل من يلزمهم من الرجال ، وليكن فى علمك وعلمهم أننى أريد الدار والحدود فى نفس مواضعها السابقة قبل أن يشرق صباح الغد .

وهز بالبينو كتفيه وقال :

- سأبلغهم ذلك.

- لقد كان واجبك يقضى بأن تبلغهم ذلك منذ البدء ، فأنت تعرف تمامًا أننى لا أقبل أن يناقش أحد ما أصدر من أوامر .

وخرج بالبينو إلى فناء المنزل ، فنادى «الموندراجونس» وانفرد بهم ثم قال :

- لقد أخطأتم فى تقدير الأمر الذى كلفتم به ، فهو ليس خوفًا من الجار الجديد كما ظننتم ، ولكنها خدعة نصبنا حبائلها له حتى يظن أننا نهابه ونرهبه ، فيسوقه ذلك إلى الانزلاق فى تحدينا ومبادأتنا بالعدوان ، فاطمئنوا واذهبوا لتنفيذ ما صدر لكم من أوامر ، واحملوا معكم كل من تحتاجون إليه من

رجال ، حتى لا يشرق صباح الغد إلا والدار فى موضعها السابق ، وحدود الضيعة فى نفس المكان الذى صدر به حكم المحكمة .

فقال «الفهد» :

- هذا شىء آخر ، أما والأمر كذلك فلا بأس ، وسنتوجه الآن لنقل البيت والحدود وكل ما يلزم .

وانطلق من فوره مع أخويه بعد أن استصحب عدداً آخر من الرجال للبدء فى النهوض بذلك العمل .

أما بالبينو فقد عاد إلى السيدة باربارا ، فوجه إليها عدداً من الأسئلة لم يظفر عليه بجواب ، وأخيراً قرر أن يعرض لها بما يخرجه من ظلام الشك والإبهام الذى كان يكتنف خططها ومشاعرها نحو لوثاردو ، فقال :

- لست أعرف ما حل بملكيادس ؛ إذ يبدو لى أنه قد فقد الذاكرة وانحسرت عنه تلك الجرأة والجسارة التى عهدناها فيه... وإلا فما الذى تعنيه مرافقته للرجل على ظهر القارب حيث لم يكن يستطيع القيام بشىء ؟ مع أن فى سفح جبل «الأراوكو» أكثر من مرصد كان يمكنه فيه أن يتربص بالرجل ويحول بينه وبين الوصول إلى ضيعته ... ثم نهراً مثل هذا ترتع فيه التماسيح المستعدة لكى تحمل تبعة كل جيفة تلقى إلى مياهه ! أما الآن فالأمر أعسر بكثير؛ إذ لابد للسلطات أن تأتى لتزعجنا بتحرياتها وتحقيقاتها، حتى وإن كان ذلك لمجرد القيام بواجب الشكليات أو لذر الرماد فى العيون !

ولم يفت السيدة باربارا ما قصده الرجل بتعريضه الخبيث المنكر ، ولكنها لم تحرك ساكنًا ، بل وجهت إليه نظرة بطيئة قاتمة ، ثم قالت فى لهجة صارمة حافلة بالتهديد :

- كان الله فى عون من يتعرض لسانتوس لوثاردو بأى سوء ! فحذار من العودة إلى مثل هذا التفكير .. إن هذا الرجل من شأنى أنا وحدى !

الفصل العاشر

شبح الباركيرينيا

غابة من الأدغال والأعشاب الطويلة المتكاثفة ، عميقة صافية ، تغطى منخفضًا واسعًا يقطع استواء المروج المنبسطة ... أما الاسم الذى كان الناس يطلقونه عليها : «لاتشو سميتا» فإنهم كانوا يعنون به عصفورة زرقاء صغيرة كانت هى الكائن الحى الوحيد الذى يسكن تلك الغابة حسبما تذكر أسطورة قديمة شائعة . كان مكانًا حلت عليه اللعنة . . . الصمت يأخذ فيه بالألباب ، وهنا وهناك جذوع نخل خاوية أحرقتها الصواعق فحولتها إلى كتل متفحمة ، وفى وسطه بركة من الوحل الرجراج الذى لا يكاد كائن حى يجرؤ على المخاطرة باقتحامه حتى يبتلعه ابتلاعًا .

وتقول الأسطورة إن تلك العصفورة الزرقاء لم تكن إلا روحًا معذبة لفتاة هندية بنت أحد الزعماء الهنود من قبيلة «اليارورو» التى كانت تقطن هذا المكان منذ زمن بعيد، حينما قدم «إيفارستو لوثاردو» المعروف «بالكونافتشيرو» سائقًا ماشيته إلى حوض «الأراوكا» بحثًا عن مراعى جديدة ، فى أول استعمار هذه الجهات . ووجد المغامر الشرس من تلك الأرض لقمة سائغة ، فحاول أن ينتزعها من الهنود أصحابها الشرعيين ، ولكن هؤلاء قاوموا الدخيل المغتصب دفاعًا عن أرضهم وأنفسهم ، فلم يتورع عن سفك دمائهم واستئصالهم بالنار والحديد . فلما رأى الزعيم الهندى ما آلت إليه أرضه وأرض قبيلته من خراب ووحشة صب لعنته ودعواته على ذلك الموضع ، ودعا الآلهة ألا تدع فيه إلا الدمار ، وأن تحيق نقمتها على مغتصب أرضه هو وذريته من بعده ، وأن تأتى

الصواعق على ماشيته وحرثه ونسله ، على أنه تنبأ بأن هذه الأرض ستعود مرة أخرى إلى قبيلة «اليارورو» حينما يوفق واحد من سلالتها إلى استخراج حجر اللعنة المسحور من باطن أرضها .

ويقول قاطنو هذه الجهات إن نبوءة الزعيم الهندى قد تحققت بحذافيرها ؛ إذ لم تطرق تلك السهول صاعقة إلا وأفرغت على الموضع الملعون معظم بلائها ، وما أكثر ما تعرضت للموت بسببها قطعان كاملة من مواشى أسرة «لوثاردو» لم ينج منها رأس واحد ، ولم يكن فى ذلك وحده مصداق استجابة دعوة الهندى ، بل كان من غريب الموافقات أن هذا الموضع نفسه كان هو الشرارة التى انبعثت منها نار الفتنة الجائحة ساحبة ذيول النكبات والكوارث على آل «لوثاردو» . أما الصواعق التى كانت سياطها تنهال على تلك الأرض فقد كان يتردد على ألسنة الناس حتى أيام خوسيه لوثاردو والد سانتوس أنه لم تقع إحداها إلا ورأوا فى أعقابها هنديا لا يعرف أحد من أين أتى ، وهو ينبش التراب والرماد المتخلف فى مكان سقوطها جاداً فى البحث عن «حجر اللعنة المسحور» !

ولكن الأسطورة كانت فى طريقها إلى الاندثار ، ولم يعد أحد يرى فى السنوات الأخيرة هنوداً من قبيلة «اليارورو» فى ذلك المكان ، ولعلهم نسوا تلك النبوءة أو يئسوا من إمكان تحقيقها ، أما فى «ألتاميرا» فلم يكن أحد يجهر باعتقاد فى صحتها أو تصديقه لها ، ومع ذلك فإنهم جميعًا كانوا يؤثرون أن يدوروا حول ذلك الموضع دورة طويلة حتى لا يضطروا لاختراق أرضه التى حلت عليها اللعنة .

أقبل سانتوس على ظهر جواده ، فلم يصل إلى المكان الموحل حتى سار بحذاء أطرافه على شريط فى أرض يغطيها طين لزج أسود إلا أنها صالحة للمشى لا خطر على السائر فيها ، وكان رشاش الطين يتطاير عن حوافر الجواد

، بينما بدت بركة الوحل الرجراج المخيفة وقد حف جنباتها إطار من العشب الأخضر الرطب ، وكانت تنبعث من هذه الخضرة الجميلة نسمات لطيفة ترتاح لها الحواس ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يسودها جو قاتم قابض للصدر ، وجال سانتوس ببصره فى المكان الهادئ العريض ... لم ير تلك العصفورة الزرقاء التى تتحدث عنها الأسطورة ، وإنما كان هناك كركى وحيد كئيب المنظر قد نصب ساقيه العجفاوين على جزيرة من الأعشاب في وسط البركة ، فى صمت عميق كأنه هدوء الموت .

ومضى سانتوس قدمًا وقد استغرق فى تفكير عميق فى الأمر الذى أتى به إلى هذا المكان ، وأفاق فجأة على شيء رآه يتحرك فى جانب من جوانب الفضاء الذى كان نظره يسرح فيه ، وأدق النظر ، فإذا به يرى صبية مشعثة الشعر لا تغطى جسدها إلا خرق مهلهلة قذرة ، وكانت تحمل على رأسها حزمة من الحطب ، ولاحظ سانتوس أن الفتاة لم تكد تراه حتى نفرت كأنها حيوان مذعور ، محاولة الاختفاء وراء شجرة من شجر النخيل .

وأوقف سانتوس دابته ثم نادى الصبية :

– يابنت ... أتعرفين أين تقع دار لورنثو باركيرو هنا ؟

وأجابت هذه بعد أن زامت كأنها حيوان نفور :

– ألست تعرفه إذن ؟

– لا ... لا أعرفه ، ومن أجل هذا سألتك .

– وهذه السقيفة التى ترى هناك ... لمن تكون إذن إن لم تكن الدار التى تقصد ؟

– لقد كان بوسعك أن تبدئى بذلك .

قالهـا سانتوس ومـضى فى طريقه إلى حـيث أشارت الفتـاة . وكانت داراً صغـيرة متواضـعة نصفـها كوخ ونصـفها الآخر حظيـرة . أما الكوخ فقـد كان يتألف من جـدران أربعة أقيـمت من الطين والتبن بغير طلاء ولا بيـاض ، ولها باب بغيـر قفل ولا مزلاج ، وأمـا الحظيرة فقد كـانت أربعة أعمـدة من الخشب يعلوها سـقف أسود ممزق الجـوانب من سـعف النخيل وأوراق الشـجر ، وقـد علقت بين اثنين من أعـمدتها شـبكة قد اتخـذت سريراً متـأرجحًـا فى الهواء . كانت هذه هى الدار التى اتخـذها لسكناه «شبح الباركـيرينيا» كـما درج الناس هناك على أن يسموا «لورنثو باركيرو» .

وكان سـانتوس قد رأى لورنثـو فى صبـاه أكثر من مـرة ، ولهذا فقـد كان يحتـفظ فى ذاكرته عنه بصـورة مبهـمة مشـوشة ، على أنه حتـى لو كانت تلك الصورة واضحة محددة المعالم لمـا استـطاع سانتوس أن يتعرف مرة أخرى عليه حـينما وقع نظره علـى ذلك الرجل المتكوم فى السـرير المتأرجح فى الهـواء بين عمودى الحظيرة .

كان رجلاً مهـزولاً مغضن الجلد شاحب اللون رمادى الشعـر يبدو كما لو كـان عجـوزاً متـهالكـا مع أنه لم يكن يناهز الأربعين من عـمره . وكـانت يداه الطويلتـان المعـروقتـان تتـدليان من السـرير فى رعـشة دائـمة لا تتـوقف ، وفى حدقتيه اللتين مازجت الخضرة لونهما الأسود بريق يلمع بالجنون ، ورأسه متدل على صدره كأنما نصبت على عنقه ربقة تشبه تلك التى تثقل كاهل المـاشية . أما تقاطيع وجهه وحركات جسـده فقد كانت تنم عن تحلل الإرادة واختلال العقل . وقد ارتسمت على فـمه المعوج التواءة انفـرجت عنها أسنانه تدل على نوبات السكر العنيفـة . ولم يكد هذا الحطام البشـرى يحس بوصول القادم حـتى ظهر عليه أنه يبذل مجهـوداً كبيراً لكى تنفرج شفتاه عن صـوت كان يبدو كما لو أنه خارج من قعر كهف عميق :

- مع من لى شرف الكلام ؟

وكان سانتوس قد ترجل عن جواده وربطه إلى أحد أعمدة الحظيرة ، ثم تقدم إلى حيث اضطجع لورنثو باركيرو قائلاً :

- أنا سانتوس لوثاردو ، وقد قدمت لكى أعرض عليك صداقتى .

ولكن نار الحقد العائلى الموروث لم تكن قد خمدت بعد فى ذلك الحطام البشرى ، فإذا به يصيح متحاملاً على نفسه :

- رجل من بنى لوثاردو فى بيت واحد من أسرة باركيرو ؟

ورآه سانتوس ينهض عن سريره ، وقد تملكت جسده رجفة عنيفة ، وهو يترنح ويتعثر ناظراً حواليه كأنما يبحث عن سلاح ، ولكن سانتوس تقدم ماداً يده إليه :

- لنكن عقلاء يا لورنثو . إنه من السخف والحماقة أن نظل محتفظين فى أعماق أنفسنا حتى اليوم بذلك البغض المشئوم الذى توارثته أسرتانا ، أما أنا فلأنى لم أعد أشعر بشىء من ذلك ، وأما أنت ...

فقاطعه لورنثو مكملاً عبارته والكلمات تتعثر على لسانه كما كانت الأفكار تضطرب وتتناثر فى ذهنه :

- ... وأما أنا فلأنى لم أعد رجلاً !... أليس هذا هو ما أردت أن تقول ؟

- لا يا لورنثو . معاذ الله أن يخطر ببالى شىء من ذلك .

قالها سانتوس وقد بدأ يداخل نفسه شعور من الرثاء الصادق المخلص للرجل التعس الواقف أمامه ؛ إذ إن سانتوس لم يكن يشعر حتى ذلك الوقت إلا بالرغبة فى إنهاء هذه العداوة التقليدية القديمة .

ولكن لورنثو عاد إلى الإصرار على ما قال :

- لا ، بل كنت تريد أن تقول إنه لم يعد فىّ أثر من آثار الرجولة !

وكان لورنثـو حتى هذه اللحـظة ينطق بكلماته المتلعـثمـة المتعـثرة ، ولكن صوته كـان ما يزال جهيـراً يتهدج بالكراهيـة والتحدى ، وكان يحـاول أن يقيم عوده لمواجهـة زائره ، غير أن الجهد الذى بذله فى ذلك استنفـد قواه كلها ، فلم يلبث أن انهار بنيانه وتداعت إرادته الخـائرة ، فتهالك على نفسه مـكملاً كلامه فى صوت منطفىء حزين قد تزايدت رعشته :

- ... وما حدت عن الصواب يا سانتوس لوثاردو ، فإنى لم أعد رجلاً ... لست إلا شبحًا لرجل قد طواه الموت ، فافعل بى ما تشاء .

- لست أريد إلا مـا سبق أن قلتـه لك : أن أعـرض عليك صداقـتى ، وأن أضع نفـسى تحت تصـرفك فى كل ما يمـكن أن تراه نافعًـا لك . لقـد أتيت إلى «ألتاميرا» لكى أتعهد بنفسى شئون الضيعة ، ولكى ..

غير أن لورنثو عاد إلى مقاطعته صـائحًا وهو يحاول أن يصلب قوامه مثبتًا يديه المهزولتين على كتفى سانتوس :

- وأنت أيضًا يـا سانتوس لوثاردو ؟ أنـت أيضًا سمـعت النداء ؟ نعم ... ليس هناك مفـر من ذلك . لقد كـتب علينا جميـعًا أن نسـمع النداء ، وأن نهرَع إلى تلبيته !

- ليستُ أفهم ما تقول . أى نداء تعنيه ؟

وكان لورنثـو قد تشـبث بكتفـيه غارسًـا فيهـما أصـابعه الطويلة المعـروفة وشاخـصًا بعينيـه المحمومـتين إلى وجهه ، ولم يعـد سانتوس قـادرًا على تحمل الرائحة الكريهة المنبعثة من فمه ، فأراد أن يخلص منه مغيراً مجرى الحديث :

- ولكنك إلى الآن لم تعرض على مقعداً للجلوس .

- هذا صحيح ، فانتظرنى قليلاً حتى أخرج إليك كرسيًا .

ولكن سانتوس رآه يترنح فى مشيته ويوشك أن يسقط إعياء ، فقال :

- لا تكلف نفسك عناء ذلك ، فبوسعى أنا أن أدخل لإحضاره .

- لا ... لتبق أنت هنا . فإنك لا تستطيع الدخول ، بل أنا الذى لا أريد لك أن تدخل ، فإن هذا الذى تراه ليس بيتًا ، ولكنه جحر وحش من الوحوش .

ودلف لورنثو إلى داخل الكوخ حانيًا قامته المتوسطة بطبيعتها لكى يتمكن من جواز الباب القصير .

ولكنه قبل أن يمد يده لتناول الكرسى الذى أراد أن يقدمه إلى الضيف القادم توجه إلى مائدة قائمة فى قاع الغرفة ، وقد وضع عليها إبريق على فمه كوب مكفوء .

ورآه سانتوس فاقترب من باب الغرفة قائلاً له :

- أرجوك ألا تشرب يالورنثو !

- جرعة واحدة فقط . دعنى أشرب جرعة واحدة ، فأنا فى حاجة إليها الآن . ولست أدعوك لمشاركتى هذا الشراب ، فهو لن يبدو لك إلا كماء الغسيل القذر ، ولكن إذا أردت ...

- شكرًا ، فلست متعودًا على الشراب .

- ستتعود عليه فيما بعد .

وارتسمت ابتسامة معوجة رهيبة كالحة على وجهه الذى حفرته الأخاديد ، بينما كانت يداه المرتجفتان تحاولان تقريب الكوب من فم الإبريق .

ولما رأى سانتوس القدر الكبير الذى صبه أخيرًا فى الكوب من تلك الخمر القوية أسرع إليه محاولاً منعه من شربها ، ولكنه لم يحتمل البقاء طويلاً

فى هواء الغرفة الراكد المنتن ، فلم يجاوز مدخل الباب ، وكان لورنثو قد ملأ الكأس حتى حوافيها وأقبل يفرغها فى جوفه فى جرعات كبيرة .

فلما قضى أربه من شرابه رفع ذراعه ماسحًا شاربيه بساعده كما لو كان طفلاً لم يتعود بعد استخدام يده ، ثم أمسك بيديه كرسيًا صغيراً ومقعداً آخر من جلد قذر لم يدبغ ، وخرج من الغرفة وهو يقول :

- عشنا ورأينا !... ابن لوثاردو فى بيت واحد من سلالة باركيرو ، وكلاهما ما يزال على قيد الحياة !... البقية الباقية من ذرية الأسرتين !

- أرجوك يا لورنثو ، لا ...

فقاطعه هذا قائلاً :

- لا تكرر علىّ رجاءك ، فأنا أعرفه ، وقد سبق أن قلته لى من قبل . فابن لورثاردو لم يأت لقتل غريمه ، وغريمه يقدم له هذا المقعد ، أفخر ما فى بيته من متاع ، ويقول له فى أدب وحفاوة : تفضل بالجلوس ! فيجلس ... نعم ... هكذا !

وكان كرسى لورنثو قصيراً واطئًا ، مما اضطره إلى الجلوس طاويا ساقيه ومسنداً ذراعيه على ركبتيه ، ويداه الطويلتان متدليتان تتأرجحان بين ساقيه على هيئة منفرة تثير الاشمئزاز والتقزز من هذا الحطام الإنسانى التعس ، ولم يكن عليه من الثياب إلا سراويل من قماش رخيص ، قد جمد عليها القذر ، وتمزق أسفلها حتى ركبتيه من كل جانب ، وقد ستر أعلى جسده بقميص مخطط ظهر من خروقه شعر صدره .

ولم يتمالك سانتوس وهو يطيل النظر فى هذه البقية البائسة من ذلك المخلوق البشرى من الشعور برهبة المصير المقدر المكتوب . إن هذا «الشىء»

الجالس أمامه كان في يوم من الأيام رجلاً يبعث في نفوس من يحيط به من الناس مشاعر من الإعجاب والأمل والحب . فأين كل ذلك الآن ؟

وأراد سانتوس أن يفعل شيئًا يبرر مخاطبة الرجل القابع أمامه دون أن يقتضي ذلك النظر إلى هيئته ، فأخرج «سيجارة» تشاغل بإشعالها وهو يقول .

- هذه هي ثاني مرة أراك فيها يالورنثو .

ورد عليه هذا متسائلاً وقد بدا عليه أن يبذل مجهوداً جباراً لإدراك ما يخاطبه به محدثه :

- ثاني مرة ؟ تعني أننا قد تعارفنا من قبل ؟

- نعم ، فقد كانت المرة الأولى منذ سنوات طويلة ، كنت أنا حينذاك في الثامنة من عمري ، وكان هذا اللقاء في بيتنا .

واستقام لورنثو على كرسيه وهو يقول :

- لماذا أتيت تحدثني عن ذلك ؟

وأجاب سانتوس وهو يحاول إخفاء ما قصد إليه من إخراج هذه الروح البائسة التعسة من الدرك الذي انحدرت إليه ، وإذكاء ما لعله بقي فيها من جذوة صالحة نبيلة .

- ليس في الأمر إلا ذكرى مفاجئة عرضت لي الآن . لقد كنت حينئذ طفلاً صغيرًا، غير أني كنت لا أنفك أسمع الجميع يطيلون الثناء عليك والتمدح بصفاتك ، ولا سيما أمي التي كانت لا تكف عن ترديد هذه الجملة على مسمعي : «يابني ، تعلم من لورنثو !» كلما أرادت أن تشجعني وتحثني على الاجتهاد والعمل ، كل ذلك جعل منك في تصوري مثلاً أعلى للرجل الكامل . إني لم أكن أعرفك معرفة شخصية في ذلك الوقت ، ولكني كنت

أتخذك قـدوة لى ، بل لم يكن لى تفكير إلا فى أن أصل إلى مـا وصل إليه «ابن عمتى الذى يـقيم فى كاراكاس ويدرس فى جـامعتها لكى يحـصل على إجازة الدكتـوراه» ، ولـم أكن أسمــع ممن حـــولى بكلمة اعـتدت أنت على ترديدها أو عادة جريت عليها أو فعل قمت به إلا سارعت لاقتباس ذلك منك وتقليدك فيه ، وأنا أذكر حتى الآن مدى عمق الانفـعال الذى تركه فى نفسى فى يوم من أيــام طفولتى ما قالته لى أمى : «تعال لأقدمك إلى ابن عمتك لورنثو» ، كان إحساسًا أخذ بمشـاعرى وهزها هزة عنيـفة . وأنا أستطيع أن أعـيد لك رسم المشـهد كله بتفاصيله : ألقيت أنت على ثلاثة أسئلة أو أربعـة مما يلقى على الصبيان الصغار لاختـبار ذكائهم أو مقـدرتهم حينما يقـدمون إلى الكبار ، ثم وردت فى سـياق الحديث عبـارة لأبى لعله قالها فى معـرض الفخر والاعتـزاز بى على ما جرت عليـه عادة أهل السـهـول الذين لا يعتـدون بشىء قـدر اعتـدادهم بالفـروسيـة والشجاعة ، فقد كـان مما أثنى به على عند تقديمى إليك أن أشار إلى مهارتى فى ركوب الخيل والاسـتواء على صهواتـها رغم سنى المبكرة ، ولكنك بدلاً من أن تبدى إعجابك بذلك رددت عليه بخطاب طويل مازال فى أذنى منه حتى اليوم صدى عـميق ، فقد بدا لى سـاعتهـا كما لو كان لحنًا قـدسيًا ألقت به السـماء . وربما كان له على نفسى هـــذا الوقــع لأنى لم أصل إلى فهم معـانى عبارته ، أو لعل السبب فى ذلك هو مجرد صدور تلك الكلمات من فمك أنت ، ولم تكن كلمـاتك بالنسـبة إلى إلا المثـل الأعلى للبلاغـة والبـيان . ومـع ذلك فمـا زلت أذكــر جـملة قلتـها فى ذلك الخطـاب كان لهـا فى نفـسى وقع غريب خـالد : «يجب علينـا - نحن سكان السـهـول - أن نقـتل الوحش الكـامن فى نفـوسنا جمـيعًا ، ذلك الوحش الذى تحـدثنا الأساطير الإغـريقية عنه فـتقول إن نصـفه الأعلى بشـرى ركب على جسـد جواد !» . ولـم أكن لأفـهم حينئـذ ما تقـصده أنت بهـذا الوحش الغريب ، ولا لأعـرف كيف نحـمله نحن أهل السهـول فى داخل أنفسنا ، ولكن الـعبارة ملكت على لبى وبقـيت محفـورة فى ذاكرتى إلى

اليوم ، حتى إنى لأعترف لك بأن محاولاتى الأولى فى ميدان الخطابة - وللخطابة عندنا جميعًا مكانة مرموقة عالية - كانت تدور كلها حول جملتك تلك : «ينبغى أن نقتل الوحش الرابض فى أعماق نفوسنا» ، وكنت كثيرًا ما أخلو بنفسى فأردد هذه العبارة فى نبرات خطابية رنانة دون أن أدرك لها معنى ولا أتجاوزها إلى ما يمكن أن يشرحها أو يلقى عليها ضوءاً مفسراً. وأقول لك بهذه المناسبة إن شهرتك فى ميدان الخطابة كانت حديث الناس جميعًا ، وإن إعجابى بك كان يتزايد كلما سمعت كل من عرفك يطيب عليك الثناء فى هذا الميدان .

وتوقف سانتوس قليلاً ، كأنه متشاغل بنفض الرماد عن سيجارته بينما هو لم يقصد فى الحقيقة إلا لتترك كلماته أثرها فى نفس لورنثو وتثير كامن ذكرياته وشجونه .

وشعر سانتوس بالاغتباط وهو يرى أن كلماته لم تذهب أدراج الرياح ، فقد كان الانفعال الذى ولدته فى نفسه الخامدة أشبه بعاصفة هائلة انفجرت فجأة ، ظهر ذلك على قسمات وجهه وعلى حركات يديه اللتين كانتا تمسحان وجهه من جبهته إلى عنقه فى اضطراب متوتر هائج .

وواصل سانتوس كلامه قائلاً :

- ومضت على ذلك سنوات ، وكنت قد انتقلت إلى كاراكاس لأستكمل دراستى ، وهناك وقع بين يدى يومًا كتيب كان يتضمن نص خطاب ألقيته فى أحد الأعياد الوطنية ، ولك أن تتصور مدى تأثرى حينما رأيت جملتك المشهورة فى ثنايا هذا الخطاب . أتذكر ذلك الكتيب ومناسبة خطابك الذى تضمنته صفحاته ؟ لقد كان موضوعه مركزًا فى هذه العبارة : «الوحش الرابض فى أعماقنا هو التخلف والهمجية ، ولهذا فإنه لا سبيل لنا إلى التقدم

إلا إذا قضينا على تلك الهمجية الكامنة فى نفوسنا» ، وهنا فقط أدركت معنى تلك الجملة المأثورة ، وتوصلت إلى تمثل ما تنطوى عليه من نظرية جديدة ثورية كان من الممكن أن يتجه تاريخ بلادنا بمقتضاها إلى طريق الصلاح والخير والتقدم . وأنا أذكر أن خطابك هذا أثار عليك ثائرة المحافظين التقليديين ممن كانوا يرون فى حياة السهول البدائية ألوانًا أخاذة من ملامح البطولة ينبغى ألا تنقرض . وعلى أية حال فقد كنت أرى - والغبطة والفخر يملآن نفسى - أن آراءك كانت مستهل مرحلة جديدة فى منهاج التفكير وفى طريق النظر إلى تاريخنا القومى وتقديره بميزان صحيح . كنت قد بلغت حينئذ من السن والنضج ما يسمح لى بتمثل آراء ك ، وكنت بتفكيرى وإحساسى على وفاق كامل مع هذه الآراء التى كنت أنت أول من نادى بها . ولا غرو ؛ فإن إعجابى بك وكثرة ترديدى لعبارتك المشهورة كانا كفيلين بأن يتركا فى نفسى مثل هذا الأثر . ألست توافقنى فى ذلك على ما أقول ؟

ولم يلق لورنثو بالا إلى سؤال سانتوس ، فقد كانت يداه المرتعشتان تذرعان رأسه ووجهه فى انفعال عصبى عنيف ، فقد أثارت كلمات محدثه إعصارًا هائلاً من الذكريات تحت عظام هذه الجمجمة البالية .

هذه هى صور حياته الماضية تتوارد متدافعة على ذاكرته فى موكب سريع متلاحق : شبابه الناضر المبشر بمستقبل مزهر مشرق ، والآمال المعقودة عليه من جانب أهله وأصدقائه ... كاراكاس ... الحياة الجامعية بما فيها من متع وآمال ... حلاوة النجاح ولذة السبق والظفر ... الأصدقاء الذين كانوا ينظرون إليه فى إعجاب وتقدير ... المرأة التى أودعته كل حبها . كل هذه الأشياء التى كانت تكفل لشاب فى مثل سنه أسمى ما يمكن أن يطمح إليه ... ودراسته التى أوشك أن يكملها ويتوجها بالحصول على درجة «الدكتوراه» وهالة الحب والعطف والمودة التى كانت تحيط باسمه. وشعوره بالفخر والاعتزاز بما أنعم الله عليه به

من ذكاء ومواهب ... وبينما هو فى نعيم هذه الحياة إذا به يسمع النداء المفاجىء المحتوم ... نداء الوحشية مكتوبًا بخط أمه فى رسالة وجهت بها إليه : «أقبل بسرعة ، فإن خوسيه لوثاردو قتل أباك أمس ، فتعال للأخذ بثأر أبيك من خالك !» .

وشعر سانتوس بمدى هذا الصراع المستيئس الذى كان يضطرم فى نفس الرجل الجالس أمامه بين حاضره الشقى البائس وبين بقية نبيلة راكدة فى قاع روحه التى ران عليها الصدأ ؛ فمضى مواصلاً حديثه :

- أظنك عرفت الآن لماذا لا أستطيع أن أكن لك أى شعور بالعداوة ، فقد كنت أنت مثلى الأعلى وقدوتى الحسنة منذ صغرى ، وكنت أشعر نحوك دائمًا بإعجاب لا نهاية له ، ثم إنك قدمت لى - دون أن تعلم - أجل خدمة ومعونة فى أثناء حياتى الدراسية وفى علاقاتى الاجتماعية ؛ إذ إن كثيراً مما كنت أقابل به من مظاهر التكريم والحفاوة والرعاية لم يكن إلا ثمرة لما خلفته أنت فى نفوس الناس هناك من أثر طيب وذكر حميد ، وأخيراً أقول لك إننى أدين لك بتوجيه روحى لا يفى لسانى بشكره ولا أداء حقه ، فقد كان ولعى بتقليدك وانتهاج خطاك هو الذى ولد فى نفسى طموحًا نبيلاً ورغبة مستمرة فى أن أسمو بنفسى إلى أقصى ما تسمح به قواى .

وكان سانتوس مخلصًا صادقًا فى هذه الكلمات لا ينبغى بها استئلافًا ولا مجاملة ، ولكن الموقف كان يضفى عليها لونًا من السخرية والتهكم لم يعد فى وسع لورنثو باركيرو أن يحتمل منه المزيد ، فنهض فى عصبية ظاهرة عن المقعد الذى كان متكومًا عليه رازحًا تحت بلاء شقائه وعبء ذكرياته ، وأسرع إلى باب الكوخ دالفًا إلى داخله .

ولم يلبث سانتوس أن سمع من الداخل صوت الكوب وهو يرتطم بفم إبريق الخمر ، وهو يتأرجح بين اليدين المرتجفتين .

وتمتم سانتوس مخاطبًا نفسه في يأس وقنوط :

- لا فائدة ! ... إن هذا التعس لم يعد له من وسيلة إلى الخلاص إلا الفرار من وعيه وضميره تحت وطأة السكر القاتل !

وكان سانتوس يهم بالقيام والانسحاب حينما أطل لورنثو من باب الكوخ وقد اعتدلت خطواته واستقام عوده ، وبدت على وجهه معالم ذكاء مفاجئ لم يكن إلا أثرًا عابرًا لما عاد إلى احتسائه من الخمر ، وصاح بسانتوس في نبرات متماسكة قوية :

- لا ... ليس في استطاعتك أن تذهب الآن . عليك أن تسمع إلى ما أقول . لقد حدثتني بما لديك ، وقد أتى الدور على أنا لأتكلم ، فاجلس وأصغ إلى الجواب .

- دع هذا يا لورنثو إلى يوم آخر ، فسوف أعود لزيارتك مرارًا لكي نواصل الحديث .

- لا ... ينبغي أن يكون ذلك الآن .. في هذه اللحظة ... إني أرجوك أن تسمعني .

ثم أضاف صائحًا بلهجة من استبد به الجنون فجأة :

- لا ... لست أرجوك ، ولكني آمرك أن تسمعني . لقد أتيت لكي تستفزني وتثير كوامن ثائرتي ، فعليك الآن أن تصغي لما أقول !

واستجاب له سانتوس ، فعاد إلى الجلوس وهو يقول :

- حسنًا ، فهأنذا سامع لك ومطيع . أنا في انتظارك فقل كل ما تريد أن تقول .

- نعم ، سأتكلم ... أخيرًا . يا له من شيء رائع جميل ... القدرة على الكلام يا سانتوس لوثاردو .

- ولكن ... ألا تجد هنا أحداً تتحدث إليه ؟ وابنتك ؟ ألا تعيش معك هنا ؟

- دع ابنتى وشأنها الآن ، واسكت أنت واكتف بالسماع . نعم ... هكذا . انظر إلىّ يا سانتوس لوثاردو .. أنعم النظر فى هذا الرجل الجالس أمامك ، بل فى هذا الشبح الذى كان رجلاً فى يوم من الأيام ثم انتهى إلى ما ترى ... انظر إلى هذا الحطام البشرى .. إلى تلك القاذورة التى تتحدث إليك ، والتى كانت مثلاً أعلى بالنسبة لك كما تقول . نعم . لقد كنت أنا نفسى هذا الذى حدثتنى عنه منذ لحظات ، ولكننى لست الآن إلا ما ترى أمام عينيك ! ألا يلقى هذا فى روعك الخوف والرهبة ؟

- الخوف والرهبة ؟... مم ، ولماذا ؟

- لا . لست أسألك لكى تلقى إلىّ رجع الجواب ، ولكن لتسمع بقية حديثى. إن لورنثو باركيرو ذلك الذى حدثتنى عنه لم يكن إلا أكذوبة ضخمة ، أما الحقيقة فهى ما تراه الآن ماثلا أمامك وأنت أيضًا لست إلا أكذوبة أخرى سوف تتوارى عن قريب وراء الحقيقة الرهيبة المرة . إن هذه الأرض لا ترحم ! أنت أيضًا سمعت النداء ... نداء هذه الأرض صائدة الرجال ، ولكأنى بك مرتميًا بين ذراعيها فى سكرة اللقاء ، فإذا فتحتهما لم تر نفسك إلا حطامًا لرجل كان ثم انقضى ... مثلى أنا تمامًا . انظر إلى هذه الأرض ! انظر تر السراب فى كل مكان يقع عليه بصرك .. هنا سراب وهناك سراب ! السهول ليست إلا رقعة هائلة من السراب ! وما ذنبى أنا فى أن واحدًا من بنى لوثاردو - فأنا من بنى لوثاردو على أية حال ، وإن كان يؤلمنى الاعتراف بذلك - قد اتخذ مثلاً أعلى وقدوة حسنة ؟ ولكنا لسنا وحيدين فيما حل بنا أو سيحل يا سانتوس! هذا هو ما بقى لنا من العزاء . فما أكثر من عرفت أنا - وعرفت أنت على ما أعتقد - من شباب كانوا معقد الرجاء والأمل وهم يناهزون سن العشرين ... ولكن دعهم يتجاوزوا العقد الثالث من عمرهم ، فسوف تراهم وهم يقتربون

سريعًا من نهايتهم المحتومة . ستراهم يذوبون كما تذوب الأشباح .. كما يختفى السراب فى رمضاء الأرض الحارة ! ولكن عليك أن تعى ما أقول : إننى لم أخطئ تقدير نفسى قط ، فقد كنت دائمًا واثقًا من أن كل ما كان يعجب الناس مما سميته «ذكائى» و «مواهبى» لم يكن إلا كذبًا وخرافة . وقد تكشف لى ذلك بعد تجربة فى حياتى الدراسية كانت تعتبر من أعظم مظاهر نجاحى وبشائر مستقبلى المرموق ، فقد كان علىّ أن أؤدى الامتحان فى مادة لم أكن قد استعددت لها أدنى استعداد . وسألنى الممتحنون فى موضوع كنت لا أعرف عنه قليلاً ولا كثيراً ، ولكننى بدأت الكلام ... وتكفلت الكلمات الخاوية المجردة من كل معنى بكل شىء . وكانت النتيجة أن نجحت نجاحًا باهراً ، بل إن الأساتذة الممتحنين انطلقوا يصفقون لى فى إعجاب ليس بعده إعجاب ... يا للأغبياء المعاتيه ! لقد لاحظت منذ هذه الواقعة أن ... «ذكائى» أو تلك «العبقرية» التى كان الجميع يضفونها علىّ لم تكن تنشط إلا وأنا أمارس الكلام ، فإذا سَكَتُّ امحى ذلك السراب وتكشف لى عن حقيقتى : وهى أننى لم أكن أعرف شيئًا عن أى شىء ! لقد تبينت منذ تلك اللحظة أسطورة «مواهبى» وكذب إخلاصى ! أتدرك أنت هذه المفارقة ؟ الكذبَ الكامن فيما كنت أحسبه صدقًا وإخلاصًا بينى وبين نفسى ... إن هذا هو شر خيبة تحل بالمرء ... لقد رأيت الكذب قابعًا فى قاع نفسى كما يحس الجسد بقرحة السرطان الموروث تنخر فى لحمه الذى يبدو ظاهره للناس سليمًا صحيحًا . وهكذا بدأت أشعر بعميق الكراهية للجامعة ، ولحياة المدينة ، وللأصدقاء الذين كانوا يهرفون بكلمات الإعجاب والثناء ، ولخطيبتى ، ولكل ما كان سببًا أو نتيجة لهذا الزيف الهائل الذى كنت أحس به فى قرارة قلبى !

وكان سانتوس يصغى إليه فى اهتمام متزايد ، وقد بدأ التفاؤل والاستبشار يغمران نفسه : إن الذى يصدر عنه مثل هذا التفكير ويعبر بهذا الوضوح المشرق لرجل جدير بألا ييأس من إمكان صلاحه وإنقاذه .

غيـر أن هذه الصحوة لـم تستطع المقاومـة طويلاً ، فقـد كانت أثراً من آثار اللهـيب التى تتركـهـا الخمـر القوية فى نفس مـدمنهـا ، ولم يكن ذلك الجسـد المتداعى ليحتمل مثل هذه الصحوة المفـاجئة إلا لحظات قصاراً يعقبها الانتكاس والانهـيار . وكان الأمـــر كذلك ؛ إذ كـانت هذه البرهة التى أخلـد فيهـا إلى الصمت ليستريح من المجهـود الذى بذله كافية لكى يعود إلى اضطرابه وتشتت ذهنه ، ولو أنه استجمع آخر ما بقى من قواه لكى يختم كلامه بقوله :

– «قتل الوحش الكامن فى أنفسنـا» ؟ ها... ها... لا تكن أبله يا سانتوس لوثاردو! أتظن أن هذا الوحش ليس إلا ثمرة لخيال خصب أو كلمة أتشدق بها مصطنعًا الفصاحة والـبلاغـة ؟ إنى أؤكد لك أن هذا الوحش كائن حقيقى حى . لقد سـمعتـه يصهل ورأيتـه كل يوم وهو يأتى ويذهب على هذه الأرض ، وهو ليس هنا فحسب ، بل هو أيضًا هناك فى كاراكاس وفـيما هو أبعد منها بكثير . حيـثمـا وجد امـرؤ تجرى فى عـروقه دمـاء بنى لوثاردو فلا مـفر من أن يسـمع صهيل الوحش . وأنت أيضًـا يا سانتوس سمعت صـهيله ونداءه . ولهذا أتيت إلى هنا . من الذى قال إن قتل ذلك الوحش أمر ممكن التحقيق ؟ .. أنا ؟.. إذن فابصق فى وجـهى ياســـانتوس لوثــاردو ! إن الوحش – سـواء شئنا أم لم نشأ – حـقيـقة واقعـة مؤكـدة ، وقد مرت عـليه مائة عـام وهو يركض فى هذه الأرض ، وستمر مائة عام أخـرى وهو فى ركضه هذا الذى ليس له نهاية . لقد كنت أظن أننى رجل متحضر ... أول متحضر فى عائلتى ، ولكن كان يكفى أن يبعثوا إلىّ قائلين : «أقبل لتنتـقم لمصرع أبيك» ! حتى ظهر هذا الكائن الهمجى المتوحش الذى كان رابضًـا فى أعماقى . وهو ما حدث لك أنت : فقـد سمعت النداء فـأقبلت مـهـرولا تستـجيب له . ولن ألبـث أن أراك بين ذراعيـها هائمًـا كالمجنون بأى ابتسامة أو ملاطفة منها .. ثم تلقى بك كالجيفة تحت قدميها ، فإذا قلت لها : «إننى مسـتعد لأن أتخذك زوجة شرعـية» فإنها ستضحـك ملء فيها من بؤسك وشؤمك ... و ...

ومرت أصابعه المتشنجة تذرع شعر رأسه في هياج ، واستولت على نفسه هذه الفكرة الأخيرة ، فبدأ جثمانه في الانهيار ، وتدلت ذراعاه على رجليه وقد قبضت أصابعه على شعرات انتزعها من رأسه ، ثم اندلق رأسه مرة أخرى على صدره وهو يتمتم في انفعال مخبول يائس :

- صائدة الرجال !... صائدة الرجال !...

وتأمل سانتوس هذا المشهد المؤثر في صمت ، وقد انقبض قلبه ودخلت الرهبة إلى نفسه وهو ينظر إلى بقايا الرجل الذى أمامه ، ثم حاول أن يغير مجرى الحديث ، وأن يعيد إلى نفسه مثل هذه الصحوة الطارئة ، فأقبل يقول :

- وبنتك ؟

ولكن لورنثو كان في شغل عن ذلك السؤال ؛ إذ بقى نظره معلقًا بالأفق البعيد الواسع للسهول وهو يردد :

- السهول ... السهول الملعونة ... صائدة الرجال !

وخاطب سانتوس نفسه قائلا :

- إن الذى يبدو لى الآن أن هذا المسكين لم يفعل به إغراء السيدة باربارا قدر ما فعلت به هذه الأرض التى حولته إلى حيوان متوحش !

وظهرت على قسمات وجه لورنثو ملامح تنبه ووعى خاطف ، وانحسرت عن وجهه تلك الاعوجاجة التى كانت تطبع على فمه سمة السكرات القاتمة الحزينة ، ورفع صوته مناديًا :

- «ماريسيلا» ! تعالى لأعرفك بابن خالك .

ولكن المكان كان خاليًا ، فلم يتلق الرجل جوابًا على ندائه ، فأضاف قائلا :

- إن هذه البنت لا تخرج لأحد ، حتى ولو جروها من شعرها جرًا ، فهى أكثر نفورًا واستيحاشًا من مهر جامح لم يستأنس .. نعم . مهر جامح !

ثم عاد رأسه متدليًا من جديد على صدره ، وأخذت خيوط من اللعاب تنحدر فى بطء من جانبى فمه .

ونهض سانتوس واقفًا وهو يقول :

- حسنًا يا لورنثو . سأتردد عليك كثيرًا لزيارتك .

ووقف هذا بدوره ، فتوجه إلى الكوخ وهو يترنح فى مشيته ويتعثر فى طريقه ، وظن سانتوس أنه ذاهب للبحث عن ابنته ، فناداه قائلاً :

- دعها الآن ولا تعمل على إزعاجها ، فستكون لى فرصة معرفتها فى زيارة أخرى .

ومضى إلى جواده يفكه عن عمود الحظيرة ، ولكنه لم يكد يثبت قدمه فى الركاب حتى رأى لورنثو وهو فى داخل الكوخ رافعًا إبريق الخمر بين يديه المرتعشتين ، وهو يحاول تصويب فم الإبريق إلى حلقه ، ولكن رعشته وسكره جعلا الخمر المنصبة تنحدر إلى جوفه فضلاً عن انسكابها على وجهه وثيابه ، فأسرع سانتوس داخلاً إلى الغرفة ومحاولاً انتزاع الإبريق من بين يديه .

ولكن التعس كان قد شرب ما فيه الكفاية لصرع البقية الباقية منه ، فقبض على ذراعى سانتوس فى قوة ، وشخص إليه بعينين محمومتين يطل منهما الجنون وهو يصيح :

- سانتوس لوثاردو ! انظر إلى نفسك فىّ أنا ! إن هذه الأرض لا ترحم !

الفصل الحادي عشر

الحسناء النائمة

اتخذ سانتوس طريقه عائداً إلى ألتاميرا وقد ملأ نفسه شعور من الألم والحزن وهو يستعيد المشهد الذى كان فيه منذ لحظات . والتقى فى طريقه بالصبية التى كان قد سألها عن الدار التى كان يريد التوجه إليها . ولم يكن يخطر بباله أن هذه المخلوقة يمكن أن تكون ابنة لورنثو باركيرو ، ولكنه بعد أن رأى البؤس الذى يعيش فيه الشقى لم يستبعد هذا الاحتمال . وكانت الصبية بالفعل أشبه ما تكون بحيوان شرس ، مشعثة الشعر ، بادية القذارة ، ولم يكن يستر جسدها إلا خرق بالية ممزقة من كل جانب .

وكانت قد ألقت على الأرض حزمة الحطب والسعف التى كانت تحملها ، واضطجعت إلى جوارها ، وقد غرست فى التراب مرفقيها ، وأسندت وجهها إلى راحتيها ، وأقبلت تنظر إلى الفضاء بعينين حالمتين .

وقف سانتوس يتأملها لحظة وهى عنه فى شغل . كانت هلاهيلها القذرة الممزقة ملتصقة بجسدها ، وبدت له تقويسة ظهرها وخطوط ردفيها وفخذيها تدل على جسم رائع الجمال بديع التقاطيع كأنه تمثال أبدعته يد فنان ، ولكن عينى سانتوس لم تلبثا أن اصطدمتا بمنظر قدميها العريضتين الغليظتين ، وقد استحالت صفحتهما إلى جلد يابس مشقق من أثر اعتيادها المشى حافية . ووقف بصر سانتوس يتأمل هذا المنظر الدميم وقد غمر نفسه شعور بالرثاء والعطف .

وأطلق جواد سانتوس صهيلاً أخرج الصبية من شرودها ، فتنبهت إلى وجود الرجل الذى وقف يتأملها على بعد خطوات، ولم تكد تراه حتى تقلصت فى اضطجاعتها ، وأقبلت تشد خرقها على جسدها حتى تغطى ما تعرى من ساقيها ، وألقت من حنجرتها زحيراً وبضع شتائم وكلمات احتجاج زمجرت بها ، ثم مضت تضحك وهى مازالت مستلقية بوجهها على الأرض .

وسألها سانتوس :

- أنت ماريسيلا ؟

ولم تتحرك من مكانها ، ثم كررت السؤال فى تقليد ساخر مستخف ، وأجابت فى جفاء ونفور يشوبه شعور بالحياء والخجل :

- إذا كنت تعرف اسمى فما معنى هذا السؤال ؟

- لم أكن أعرف ، ولكننى شككت فى أنك ابنة لورنثو باركيرو التى تحمل هذا الاسم ، ولهذا فقد أردت التحقق .

ولم تفهم الصبية هذا اللفظ الأخير ، فبدا عليها مزيد من النفور والتوجس ؛ إذ كانت - كما شبهها أبوها - مثل المهر الجامح ، فقالت بعد أن زامت من جديد :

- «التحقق» ؟ أى شيء هذا ؟ يبدو أنك رجل سيئ النظر والنية ... فامض عنى فى سبيلك .

وخاطب سانتوس نفسه قائلاً :

- من حسن الحظ أن النفور يحيط براء تها وسذاجتها بسياج يقيها تطفل الغرباء.

ثم عاد إلى مساء لتها :

- ولكن ما الذى تفهمينه من كلمة التحقق ؟

فأجابت صائحة وقد عادت إلى الضحك :

- أف ! يالك من رجل كثير السؤال !

وعاد سانتوس إلى مساء لة نفسه :

- أتراها سذاجة وبراءة ، أم لون من ألوان المكر ؟

على أنه فهم من لهجة الفتاة أن وقوفه لمحادثتها لم يغضبها ، ولم يقع منها موقعًا سيئًا ، بل كان يبدو أنه قد أصاب منها رضا وقبولاً ، ولكنه ظل يتأمل فى رثاء وعطف تلك الكتلة من الأوساخ والهلاهيل .

وزمجرت الصبية من جديد :

- إلى متى ستظل هكذا واقفًا هنا ؟ ولماذا لا تذهب ماضيًا لشأنك ؟

فأجاب سانتوس :

- هذا هو ما أسألك أنت عنه أيضًا : إلى متى ستظلين هنا على هذه الصورة ؟ لقد آن لك أن تعودى إلى منزلك ، ألا تخافين المشى وحيدة فى هذه البقاع المهجورة ؟

- ولماذا أخاف ؟ أتراني متعرضة لتأكلنى حشرات الجبل ووحوشه ؟ ولكن .. ما الذى يهمك أنت من أمرى ؟ ومن مشيى وحيدة إلى حيث أريد ؟ وهل أنت أبى حتى تأتى إلىّ تؤنبنى على ما أفعل ؟.

- ما هذه الطريقة الجافة الخشنة فى مخاطبة الناس ياصبية ؟ ألم يعلمك أحد كيف تتكلمين مع الناس فى أدب وتهذيب ؟

وأقبلت الفتاة تضحك فى سخرية وجسدها المستلقى على الأرض يهتز فى عنف :

- ولماذا لا تعلمنى أنت إذن ؟

فأجابها سانتوس وقد تحول شعور الرثاء فى نفسه إلى مودة واستلطاف :

- نعم . أنا مستعد لتعليمك ، ولكن عليك أن تدفعى لى مقدمًا أجر ما سأعطيك من دروس ، وذلك بأن ترينى وجهك هذا الذى تجتهدين فى إخفائه .

وصاحت فى حياء وهى تضم أطراف ملابسها البالية على جسدها :

- يا للجرأة ! امض عنى إلى طريقك ، ولا تكثر من الكلام ، فإن الظلام سوف يفاجئك وأنت ما تزال فى هذه الجبال الموحشة .

- إننى لن أغادر هذا المكان حتى ترينى وجهك . لقد أتيت لا لغرض إلا لكى أتعرف عليك ، فقد حدثونى أنك فى غاية الدمامة ، ولست أستطيع تصديق ذلك إلا بعد أن أراك بعينى رأسى ؛ فإننى لا أتصور أن قريبة لى يمكن أن تكون قبيحة الشكل . آه .. حقًا ، إننى لم أقل لك من قبل إننا أبناء عمومة .

فصاحت الفتاة :

- أبناء عمومة ؟ إننى لا أعرف أسرة لى فيما عدا أبى ، حتى أمى لا أستطيع أن أقول إنى أعرفها .

ولم يرد ذكر أم الصبية حتى اكفهر وجه سانتوس وفارقه هذا الشعور المتفائل الذى أقبل يخاطب به الفتاة ، وبدا على هذه أنها خشيت أن تكون قد أغضبته حقًا ، فوجهت إليه نظرة متوارية من تحت ذراعها الذى غطت به وجهها وقالت :

- ألست ترى أنه لا قرابة بينى وبينك كما تقول ؟ فلو كنت قريبًا لى لما ظللت صامتًا هكذا !

وعاد سانتوس إلى لهجته العاطفة اللينة :

- نعم ياطفلتى الصغيرة . أنا سانتوس لوثاردو ابن خال أبيك ، فاسأليه أنت إذا أردت التحقق ، وأرجو ألا تسيئى الظن مرة أخرى بهذه الكلمة .

- حسنًا ، مادمت حقًا ابن خال لي ، ولو أني لا أظن ذلك . أف ! والناس بعد ذلك يزعمون أننا - معشر النساء - فضوليات محبات للاستطلاع كأن الرجال بمنجاة من هذا العيب ! انظر إذن وامض بعد ذلك في سبيلك .

ونهضت الفتاة وإن كان سانتوس قد كف عن إصراره على رؤية وجهها ، ثم خفضت رأسها وأغمضت عينيها ، وشدت على شفتيها حتى لاينِد من بينهما الضحك الذي كانت تجتهد في كتمانه ، دلالا ساذجًا يشوبه الحياء .

وتأمل سانتوس وجه الصبية . كانت تبلغ الخامسة عشرة من عمرها ، وعلى الرغم من سوء مطعمها ومشربها ومن تلك الحياة البائسة التي كانت تذبل صباها الغض وتكسوها بمظاهر القذارة في خرقها الممزقة وشعرها المنفوش المشعث - فقد طالع سانتوس من وراء ذلك كله وجهًا رائع القسمات وسيم الملامح .

وصاح سانتوس وشعور الرثاء الذي كان يملأ نفسه قد تحول إلى إعجاب وهو يتأمل وجه الصبية :

- يالك من فتاة رائعة الجمال !

وبدا كما لو كانت هذه العبارة قد استأنست الصبية وأعادتها إلى الإنسانية ، فلم تعد تلك المخلوقة النفور الجامحة ، وتملكها شعور غريب لم تعهده من قبل في نفسها ؛ إذ كان لتلك الكلمات رنين في أذنيها لم تتعود على سماعه ، ثم قالت له في صوت رقيق مستعطف :

- اذهب عني إذن !

وأجاب سانتوس :

- لا ، لم ننته بعد ، فإنك لم تريني عينيك ، فدعيني أنظر إليهما . آه لقد فهمت الآن لماذا لا تجرؤين على فتحهما أمامي ، فأنت حولاء على ما أرجح ، ولهذا تريدين ألا أرى قبح عينيك .

- حولاء .. أنا ؟ إذن فانظر .

وبدا على الصبية التأهب والتحفز ، ثم فتحت عينيها ، وإذا بهما أجمل ما تميز به وجهها الصبوح ، وظل سانتوس شاخصًا ببصره إليها دون أن تطرف عيناه ، وعاد يصيح :

- ما أجملك أيتها الطفلة !

وصبغت حمرة الخجل وجه الفتاة تحت طبقة القذارة التى كانت تكسوه وقالت له وهو لا يكف عن النظر إليها :

- كفى واذهب عنى الآن .

- انتظرى قليلاً ، فإنى سأعطيك الآن أول هذه الدروس التى دفعت لى ثمنها مقدمًا .

ثم نزل عن جواده ، ودنا من الصبية ، فارتسم على عينيها السوداوين الكبيرتين تعبير عن الخوف والاستعطاف ، ولكنه أنهضها وأخذ بذراعها وهو يقول :

- تعالى هنا يا ابنة خالى ، فإنى سوف أعلمك فائدة الماء . إنك جميلة ، ولكنك ستكونين أجمل بكثير لو أنك أوليت نفسك قليلاً من العناية .

وبدأت الصبية تطمئن ويزول عنها شعور الخوف الغريزى الذى انتابها أول الأمر بعد أن رأت فى نبرات صوته ما يوحى بالثقة ويؤكد لها أنه لا ينوى بها شراً ، فتركت قيادها لهذا الرجل الذى كان ينتمى إلى عالم مختلف كل الاختلاف عن العالم الذى تعهد، ومضت معه إلى بركة من الماء الصافى كانت هناك إلى جوار ضفة المستنقع الموحل ، وكانت تحاول إخفاء وجهها بذراعها الطليق ، وهى تطلق ضحكة فيها مزيج من الرضا والحياء .

ووصل الاثنان إلى حافة البـركة ، فعطف سانتوس قـوامها على المـاء ، ثم جعـل يغتـرف منه فى باطن راحتـيه ، ويصـبه على جـسمـها غـاسلاً ذراعـيهـا ووجهها ، كما يفعل بالأطفال الصغار ، بينما كان يقول لها :

- تعلمى تنظيف جسـمك وتعودى على حب المـاء ، فهو سـيضفى عليك مزيداً من الجـمال . إن أباك مـخطئ إذ لا يوليك من العناية ما أنـت به جديرة ، ولكنك تأثمين فى حق الطبـيعة التى جعلت منك فـتاة جمـيلة إذا كنت تهملين نفسك على هذه الصورة . ومـا دامت الأرض لا تضن عليك بمائها فلا أقل من أن تكونى نظيفة دائمًا . وسأتـكفل أنا بأن أرسل إليك ثيابًا جديدة حتى تخلعى عنك هذه الخـرق التى لا تكاد تسـتـر جسـدك ، ومـشطًا تسـرحين به شعـرك ، وحذاء تحمين بـه قدميك من المشى حافـية . نعم ... هكذا . هكذا . يا لله ! كم من الوقـت مضى دون أن يلمس المـاء وجهك !

وتركت ماريسيـلا وجهها لبرد المـاء النقى وقـد ضمت شفتيهـا وأغمضت عينيـها ، وجـسدها يرتجف تحت وقع مـلامسـته ليدى الـرجل الكبيرتـين . فلما فرغت من اغتسالهـا أخرج منديلا من جيبه لتجفف به وجـهها ، ثم رفع رأسها إليه مسنداً ذقنها بيـده ، وفتحت الصبية عينيها وجـعلت تنظر إليه وقد ترقرقت فى عينيها الدموع .

وقال لها سانتوس :

- والآن عليك أن تعودى إلى منزلك ، وسأرافقك أنا ؛ إذ ليس من الحكمة أن تسيرى الآن وحيدة فى هذا المكان وفى مثل هذه الساعة .

ولكنها اعترضته قائلة :

- لا ، سأعود وحدى . فاذهب أنت أولا فى طريقك ، ولكن صوتها وهى تفوه بتلك العبارة بدا كما لو كان صوتًا جديداً آخر .

* * *

كانت يدا سانتوس تغسلان وجهها بينما كانت كلماته توقظ روحها النائمة الخامدة . وهى تشعر الآن بأن كل ما حولها قد تغير فجأة ، حتى هى نفسها كأنما تحولت إلى شخص آخر لم تكن تعرفه من قبل .

هى تحس بنظافة بشرتها ، وتتردد على سمعها هذه العبارة : «ما أجملك أيتها الطفلة !» ، فينتابها فضول يلح عليها فى أن تعرف نفسها وصورتها كيف هى ؟ كيف تكون هيئة عينيها وفمها وقسمات وجهها ؟ وهى ترفع يدها إلى وجهها تمر على تقاطيعه ، وتلمس خديها وتداعبهما ، وتتحسس تكوين جسدها وكأنما هى تناشد يديها أن تخبراها كيف تكون صورة ماريسيلا وشكلها .

ولكأنها باليدين تعودان إليها فتقولان :

- لقد بلغنا من الخشونة واليبس حدًا جعلنا لا نحس بشىء . إن اقتطاع الحطب واقتلاع الشوك قد غطانا بطبقة غليظة من الجلد تحول بيننا وبين ذلك !

لماذا لا يحس الجسم بجماله كما يحس بالألم ؟

إن سانتوس على أية حال قد طبع فى نفسها شيئين رقيقين :

برد الماء وهو يتصبب على خديها مولدًا فى قرارة نفسها أحاسيس غريبة لم تعهدها من قبل ... بلى ! إن الجسم يشعر بجماله حقًا . أليست هذه الأحاسيس الجديدة الغريبة وليدة لشعورها بجمالها ؟ هكذا ينبغى أن تشعر المروج حينما تصبح يومًا بعد موسم الجفاف والحريق فى شهر مارس ، فإذا بصفحتها قد اكتست بالخضرة من جديد ! هكذا ينبغى أن تشعر الشجرة تحت قشرتها اليابسة المغضنة بالبراعم الجديدة وهى تشق بطنها فى طريقها إلى الحياة !.

ثم هذا الإحساس العـميق الذى خلفته فى نفـسها كلمات لم تسمـعها من قبــــل : «مـا أجـملك أيتـهـا الطفلة !» ، وهى تردد هذه الألـفاظ ، فـتـسـمع أصداءها تتجاوب فى قرارة قلبهـا ، وتحس حينئذ بأن هذا القلب كان حتى هذه اللحظة قاتمًا عـميقًا ، خـاويًا أصم ، ولكنه فى الوقت ذاته سريع الاستـجابة لما يتردد فـيه من أصوات .. تمامًا مـثل البئر التى تجـاور منزلها ، تلك البئـر المظلمة العمـيقة التى استـقرت فى قاعـها رغم ذلك مرآة من المـاء النقى . «مـا أجملك أيتها الطفلة !» .. ويتردد صدى الصوت فى قلبها الخاوى العميق كما يتردد فى البئر حينما يلقى أحد من أعلى حوافيها بالنداء .

وأحست الصبية بأن العالم المحيط بها لم يعد هو ما تعرفه وتعتاده ، لم يعد جبلاً متـشعب المسالك موردًا لاقتطاع الحطب والسعف ، ولا خـميلة من شجر النخيل حيث كانت تقضى ساعات وسـاعات وهى مستلقية على التراب ، وقد جمد جسـمها فلا حراك، وتبلدت نفسها فـلا شعور ولا تفكير ! لا .. هى الآن تسـمع هديل الطيور ، وتحس باللـذة والمتاع وهى منصـتة إليـه ، هى الآن تطالع صفحـة البركة وتكتشف جـمال هذه الأشجار وقـد انعكست صورها فى المـاء فبدت مـقلوبة على رء وسها ، وصفاء تلـك السماء التى تبدو مرتسـمة فى قاع المستنقع ، وهى تشم الآن عبير تلك الأزهار البرية التى اختلطت بكومة الحطب والسعف ، فتملأ نفسها بالنشوة والارتياح . إنها تدرك الآن أن الجمال ليس فيها هى وحـدها ، بـل فى كل مكان : فى تغـريد الـعندليب وهو يوقع لحـنه الرتيب المتواصل ، فى مياه البركة والإطار الأخضر الذى يحف بها ، فى خميلة النخيل العمـيقـة الشفـافة ، فى المرج الهـائل الفسيح ، فـى أشعة الأصـيل التى تسكب ذهبها على السهول فى رقـة وسكون . كيف لـم تتنبه من قبل إلى كل هذا الذى خلقه الله متعة تسرح فيها النظر ؟

ولأول مرة ترى مـاريسيلا كـيف يجانب جفنيـها النوم وهى متـمددة على

قطعة الحصير التى كانت تأوى إليها كل ليلة . إنها تحس بجنبيها يجفوان هذا الفراش القذر وسعفه الخشن كأن جسمها لم يتعود على مثل هذا الشظف ، وهى تشعر بالنفور من لمس خرقها الممزقة الذفرة التى لم تكن تخلعها عن جسدها حتى حينما تسكن إلى النوم ، وكأنها تلبسها الآن لأول مرة . إن حواسها فى هذه الليلة بدأت تبغض هذه الحياة البائسة القذرة حتى لم تعد تحتملها ، كما لو كانت قد دبت فى روحها حساسية جديدة مفاجئة .

وهى تشعر فضلاً عن ذلك بأن أنوثتها قد استيقظت من سبات عميق ، باعثة فى روحها الغضة ألوانًا من المشاعر المعقدة المتماوجة ، بعد أن كانت حياتها بسيطة أشبه برياح السهول التى لا تعرف إلا المضى الساذج فى أرجاء السهول .. انفعالات غريبة لا تعرف هى كنهها قد شرعت تهز نفسها هزة مضطربة راجفة : نشوة يخالطها الألم ، وأمل تعبث به المخاوف ، ورغبة فى أن تهز رأسها محاولة أن تبعد عنها فكرة ملحة ، ثم استسلام للهدوء والسكون حتى تعود إليها تلك الفكرة الملحة ، وأشياء أخرى كثيرة مضطربة لا تستطيع هى نفسها أن تتبينها أو تستكنه أسرارها .

* * *

تصايح الطيور يعلن قرب طلوع الفجر الجديد ، وكأنها تهيب بالصبية منادية :

– ماريسيلا! انهضى من نومك. إن الماء البارد النقى ينتظرك فى قاع البئر. لقد ألقت البرودة إليه تلك النجوم التى ظلت تهوم مطلة على فوهة البئر طول الليل ! انهضى فما زالت بعض النجوم مستقرة فى قاعه . فألقى بالدلو إليها وأخرجيها ثم اسكبيها على جسدك ، فسترين كيف تدعك مثلها نظيفة نقية !.

وتبرز فى الأفق البعـيد دائرة الشمس ، بينما ينحدر القمـر للأفول ، وتهتز خميلة النخيل فى سكون الفجر كأنها غابة مقدسة ...

والدلو تذرع البـئر نازلة صـاعدة بغيـر توقف ، والمـاء المخبـوء الذى لم ير النور قط من قبل يتصبب متألق القطرات على الجـسد العارى الذى تفتحت فيه براعم الأنوثة العـــذراء .

الفصل الثاني عشر

حلم يتحقق

ما كـان أشد دهشة أنتـونيو حينمـا رأى فى اليوم التالى كـيف تراجع كوخ «المـاكانيـال» الذى كان يقـيم فيـه الإخوة «الموندراجونس» إلى مكـانه القديم ، وكان أنتونيو قد رافق سانتوس إلى حدود الضـيعة لكى يرى بنفسه كيف كانت «المـاكانيال» الفـاصلة بين «ألتاميرا» و «ضيـعة الرعب» تتقدم فى اطراد مضـيفة إلى أرض السيدة باربارا أجزاء من أرضه هو .

وصاح أنتونيو :

- لقـد نقلوها فى ليلة أمس . انظـر يا سيـدى إلى حـيث كـانت الأعمـدة الفاصلة . إن حفرها القديمة ما زالت آثارها على الأرض باقية :

فقال سانتوس :

- هذا شيء طيب على أية حال . فالحدود الآن فى مكانهـا الصحيح ، وقد وفـر علينا ذلك كثيراً من المتـاعب ، على الأقل حـتى هذه اللحظة . وإنى أرى الآن لذلك أن نسـور ملكنـا بسياج ثابـت عند هذه الحـدود حـتى نتـجنب فى المستقبل ما يمكن أن يحدث من نقلها أو التلاعب بها فى ظلام الليل .

فاعترض أنتونيو قائلاً :

- ولكن ... هل مـعنى ذلك أنك سـتـقبل الوضع الراهـن لهذه الحـدود ؟ وهل ستسلـم للسـيدة باربارا بما انتـهبـته من أرضـك بحكم تلك القضـايا التى كسبتها منك بطرق نعرف جميعًا ما كان فيها من تحايل وتدليس ؟

– إن كل ذلك قد أصبح الآن أمرًا واقعًا سبق به حكم القضاء ، فلا سبيل إلى رده، ولقد كان بوسعى أن أستأنف تلك القضايا بل وربما كنت أستطيع أن أسترد كثيرًا من حقوقى إن لم أقل كلها فى ساحة القضاء لو أننى أوليت هذه الأرض من العناية ما أهملت ، ولكننى لم أتلاف ذلك فى وقته . وعلى أية حال فإن ما بقى من هذه الأرض مازال كثيرًا بحمد الله ، ولكن الماشية هى التى أراها قليلة ، فالعين لا تلمح هنا وهناك إلا قطعانا متناثرة قليلة العدد .

– لا ياسيدى . ليست الماشية قليلة هنا كما تظن ، وكل ما هناك هو أن معظمها قد نفر وتوحش ، فالأبقار الوحشية كثيرة فى «ألتاميرا» كما قلت لك . وذلك لأن المخلصين لك من أصدقائك أمثالنا ممن بقينا فى الضيعة عملنا عامدين على أن نتركها متوحشة فى مروجها لتتناسل وتتكاثر بدلاً من استئناسها كما كان المفروض أن نعمل ، وذلك لأن هذه كانت هى الطريقة الوحيدة للمحافظة على الماشية هنا ، وإلا لتصيدها وسطا عليها من تعرف من جيران السوء . إن الشيء الوحيد الذى ينقصنا هنا ليس إلا الرجال من الرعاة والأجراء واليد العاملة .

– نعم . هذا صحيح فأنا أرى الآن كيف تحولت «ألتاميرا» إلى صحراء ، وأنا أذكر منذ أيام صباى أن كل هذا الفضاء كان يعج بالبيوت والناس فى كل مكان .

– حتى البقية القليلة التى ظلت منهم على أطراف الضيعة لم يلبثوا أن أخلوا ديارهم وأرضهم منذ أن تولى السيد بالبينو الإشراف على العمل هنا وإدارته ، وذلك بأمر وتدبير منه ؛ إذ رأى أن فى وجودهم حراسة للضيعة ، وأن جلاءهم عنها سيمكن الجيران من اقتحامها فى أى وقت يريدون حاملين معهم كل ما يعرض لهم فى طريقهم من ماشية .

- وهكذا أرى أن السيدة باربارا لم تكن هى العدو الوحيد الذى يعيث فسادًا فى هذه الأرض !

- لقد فعلت هى كل ما طاب لها دون محاسب ولا رقيب ، ولكن الآخرين فعلوا كذلك كل ما شاءوا : كل بقدر قوته وطاقته . وهكذا أيبسوا مثلاً كل القنوات التى كانت الماشية تردها فى «ألتاميرا» ثم فتحوا هذه المشارب حيث أرادوا فى أرضهم ، وبذلك أصبحت ماشيتنا مضطرة إلى المسير إلى أرضهم لتنهل من قنواتهم ، وبهذا تقع فى أيديهم غنيمة باردة سائغة . ولو نظرت إلى تلك القنوات فى «ضيعة الرعب» فى ساعة الظهيرة لرأيت لدى كل منها أربعة رجال أو خمسة ليس لهم عمل إلا إلقاء حبالهم على ماشيتنا والاستحواذ عليها فى سهولة ويسر . أترى هذا السواد الذى يلوح هناك ؟ إنه قطيع من الماشية متوجه إلى قنوات «مجاز الخوار» الذى يقع الآن فى «ضيعة الرعب» وكان من قبل جزءًا من أرضنا نحن . ولتكن على ثقة من أن كل رأس تطأ ضفة قناة من تلك القنوات فقل عليها السلام ! بل إن رجال السيدة باربارا كثيرًا ما كانوا يسوقون ماشيتنا إلى قنواتهم ومشاربهم حتى تعودت على ذلك ، ولم يجرؤ أحد منا على التعرض لهم أو الحيلولة بين مواشينا والتماس الماء عندهم . ثم هذا الرجل الأمريكى الذى يسيطر الآن على تلك القناة الجافة التى اعتادت الماشية على قصدها لكى تلعق طينها ... «مستر دينجر» الذى حدثتك عنه هذا الصباح ، والذى أخذ عن مجرمى السهول وقطاع طرقها كل ما أحاط به علمهم من وسائل الغصب والنهب حتى فاقهم فيها ! إن أى رأس من رءوس ماشيتنا يجتاز بطحاء «مرج النخيل» حيث يقيم هذا الأمريكى فإنه لا يعود إلى أرضنا أبدًا . الذى أرى أن نبدأ به ياسيدى هو أن نعود إلى فتح القنوات فى أرضنا ونُعَوِّدَ مواشينا الاستقاء منها بدلاً من ورود قنوات الجيران ، ثم إحاطة «مرج النخيل» بالسياج الذى كان قائمًا فى أيام أبيك حتى نحول بين مواشينا

والتوجه إلى القناة المـلحة الجافة بحثًا عن الموضع الذى اعتادت على لعق طينه . ويمكننا أن نبـدأ فى هذا العـمل منذ اليـوم ، فلنشرع من الآن فـى إقامـة أعمـدة السياج .

- لا داعى للعجلة . فأنا أريد أن أدرس أولا جميع وثائق المـلك التى لدينا فى «ألتاميرا» حتى أعرف حدود أرضنا وأتأكد منها ، ثم أراجع تفاصيل «قانون السهول» وما تضمنه من مواد .

وأجاب أنتونيو فى استخفاف :

- «قانون السـهول» ؟ أتعـرف كيف يسـميـه الناس هنا ؟ «قانون السـيدة باربارا» ؛ إذ إن الجـمـيع مـقتـنعون بـأنها عـملت عـلى رشوة واضـعـيـه لكى «يفصلوه» لها على حسب رغباتها !

- لست أستـبعد ذلك بعـد أن رأيت الأمور كيف تجـرى هنا ، ولكنه مادام قانونًا فليس أمامنا إلا احترامه واتبـاعـه . لنطـــالب بتعديله وإصلاحه ، ولكن لا سبيل لنا إلى خرقه أو الاستخفاف به .

وعكف سانتـوس فى مسـاء هذا اليوم على فـحص وثائق ملكيتـه لأرضه ودراسة «قانون السهول» ، فلما فرغ من ذلك قرر أن يرسل خطابين إلى كل من السـيدة باربارا و «مـستر ديـنجر» يعلمـهمـا بأن عزمـه قد استـقر على إحـاطة «ألتاميرا» بسياج مسور ثابت ، ويدعـوهما إلى إخراج مواشيهما التى ترعى فى أرضه مـستأذنًا إياهما فى الوقت نفـسه فى أن يسحب هو مـاشيته السـارحة فى أرضهما .

وحمل أنتونيو الرسالتين ومضى يحدث نفسه فى الطريق قائلاً :

- لنر مـا سوف يصـيب السيدة باربارا حـينما تتـلقى الرسالة من غـضب وهياج . إن إحـاطة الضيعة بسـياج مسور أمـر مشروع يجيـزه القانون ، وهو -

وإن لم يكن يعجبنى أنا شخصيًا - فأنا واثق من أنه سيقع على رأسها وقع الصاعقة . لقد آن الأوان لكى نضع حدًا لما قاسته هذه الأرض من ويلات مكرها وأفاعيلها .

* * *

وفى مساء اليوم التالى خرج سانتوس يرافقه أنتونيو منطلقين إلى «الخميلة اللوثاردية» ، ووصلا أخيراً بعد أن قطعا نحو ساعتين على صهوتى جواديهما إلى حقل واسع تملأه الأزهار البرية وشجيرات الحسك المر ، ولكنه بدا خاليًا من أى أثر للماشية.

وارتفعت دارة القمر وراء الربوة القائمة التى قامت عليها الخميلة الكثيفة ، ملقيًا أشعته الشاحبة على المرج الواسع .

وأوقف أنتونيو دابته ، ثم أوصى لوثاردو بالتزام الصمت والحذر ، وصعد الرجلان بعد ذلك إلى مرتفع كان هناك .

والتفت أنتونيو إلى سيده قائلاً فى صوت خفيض :

- انظر بانتباه ، فإنك سترى الآن ما لم يكن يخطر لك على بال !

ثم قوس يديه على فمه متخذًا منهما بوقًا ، وألقى من أعلى الربوة صرخة حادة عالية قطعت السكون المخيم على المكان .

ولم يكد يفعل حتى انبثقت من وراء الخميلة أصوات ضجيج متزايد القوة ، ثم ما هى لحظات حتى امتلأ المرج بقطعان الأبقار المتوحشة ، وقد استولى الذعر عليها فأقبلت تركض بسرعة هائلة ، والأرض تكاد تميد من تحت قوائمها .

وصاح أنتونيو :

- أترى ؟ هذه هي آلاف وآلاف من الرءوس الوحشية التى لم تر الإنسان قط . إن الخيل لم تدخل هذا المكان منذ سبع سنوات . وهذا الذى رأيت لا يقاس بقطعان أخرى مازالت فى هذه المروج - هناك فى الداخل حيث مجرى نهر «الكونافتشى» . إن «ألتاميرا» مازالت بخير رغم كل شىء . وقد كان إنقاذها بفضل ما قمنا به من إخراج القطعان إلى داخل هذه السهول حتى تتأبد وتكون مدخراً لنا فى وقت الحاجة . أما الآن فالواجب علينا هو أن نستنزلها ونستأنسها ، وإنى متحرق إلى البدء فى اصطياد هذه الأبقار وإيداعها الحظائر ، ولكن هذا عمل يقتضى عدداً من الرعاة الماهرين ذوى الخبرة فى استخدام أناشيط الحبال ، فليس كل الرعاة يصلحون لهذا العمل . وعلى أية حال فأنا أعرف كثيراً من هؤلاء ، وفى وسعى أن أتكفل باستقدامهم . وفضلاً عن ذلك فإنى أرى من الخير أن نعود إلى إقامة مصانع الجبن التى كانت كثيرة فى «ألتاميرا» ، ولكنها أخذت فى الانقراض منذ سنوات . فمصانع الجبن ليست مورداً آخر للمال جديراً بالعناية من أجل ذلك فحسب ، وإنما هى كذلك وسيلة تعيننا على استئناس هذه المواشى وتذليل قيادها ؛ إذ إن فى بقائها على وحشيتها ضرراً كثيراً يصيب الناس والحيوان على السواء .

وبدت الأسباب التى ساقها أنتونيو لإنشاء مصانع الجبن وجيهة خليقة بالاهتمام ، ولكن الفكرة لم ترق سانتوس من أجل ماسوف تدر من النفع فقط ، بل لأنه رأى فى تحقيقها تحقيقاً للحلم الذى كان يراوده منذ أن فكر فى الاضطلاع بشئون الضيعة : وهو القضاء على مظاهر التوحش السائدة فى هذه الأرض سواء بين حيوانها أو بشرها .

* * *

وفى اليوم التالى أقبل عليه أنتونيو يقول :

- لقد توغلنا فى المروج صباح اليوم ، وتمكنا هناك من اقتناص خمسين رأسًا من تلك الرءوس الوحشية الطليقة .

واقتناص تلك الثيران الطليقة بأناشيط الحبال يعتبر فى نظر رعاة السهول فى هذه المناطق بحوض «الأبورى» هواية تملك عليهم ألبابهم . ولما كانت ضياع تلك السهول غير مسورة ولا واضحة الحدود ؛ فقد اعتادوا هناك على أن يتركوا قطعان الماشية طليقة حيث شاءت . أما ملكية هذه المواشى فهى من حق من وضع اليد عليها من أصحاب الضياع ، وهو حق إما أن يكتسبه هؤلاء باتفاق بينهم يجتمعون فيقسمون ما وقع بأيديهم من ماشية ، ثم يسم كل واحد منهم الماشية التى تقع فى سهمه بميسم ضيعته بعد أن يتم اقتناصها بأناشيط الحبال، وإما أن يدعوا ذلك رهينًا بالقوة وحدها. والواقع أن هذه الطريقة البدائية فى اكتساب الحقوق كانت أمرًا طبيعيًا تقضى به هذه البيئة نصف المتوحشة ، بل وتعترف به القوانين السائدة نفسها ، ولم يوضع على ذلك من قيود إلا التزام المالك بألا يتجاوز حدود أرضه ، وهى حدود مائعة لا يعرف أحد معها على وجه التحديد أين تبدأ أرض هذا ولا أين تنتهى أرض ذاك . ولعل الناس هناك فى جريهم على هذه الأوضاع كانوا يرون فيها متعة الحرية والانطلاق الذى يكفل للرجل السطو على ما يريد من ماشية دون خطر أو تقييد ، طالما كانت قوته وجرأته تمكنان له من ذلك . فالحق والقوة عند رعاة السهول أمران متلازمان !

وكلما أمعن سانتوس لوثاردو التفكير فى هذه الأوضاع زاد اقتناعه بأن تسوير الضياع فى السهول هو الخطوة الأولى فى سبيل إقرار الحقوق واحترامها والبدء فى انتهاج حياة مستقرة متحضرة لا يعدو فيها الرجل على أخيه لمجرد

كونه أقوى منه . كان هذا هو ما يدور فى رأس سانتوس حينما أتى أنتونيو إليه يبلغه بنبأ اقتناص تلك الماشية السوام ، فقال له :

- إن ما تفعلونه من ذلك يضر بتناسل هذه الماشية وتكاثرها ، ولو أن أصحاب الضياع التزموا بتسوير ما يملكونه من أرض لأمكن كلا منهم أن يستأنس ماشية أرضه ، وأن يعتنى بتربيتها والاستكثار منها على صورة أكثر استقراراً وتحضراً .

- قد تكون محقًا فيما تقول ياسيدى ، ولكنك إذا أردت أن يستقيم لك ذلك فعليك أولا أن تغير طبيعة رجل السهول وكيانه ، فالسهلى هنا يكره الأسوار والحدود ؛ إذ هو يريدها كذلك من أجل ما ذكرت لك الآن : اقتناص كل ما يقع فى أنشوطته من حيوان ، فلو أتيت لتحرمه من هذه اللذة فإنه يموت أسفًا وكمداً . إن السهلى لا يشعر بالرضا والغبطة إلا إذا استطاع أن يقول : اقتنصت كذا وكذا من رءوس الماشية . ولا يهمه إذ يملأ فاه بذلك أن يكون جاره مفتخراً بمثل فعله ، فهو يعتقد دائمًا أن ماشيته مصونة لا يقربها أحد ، وأن ما اقتنصه لم يكن إلا من مال الآخرين .

وعلى الرغم من ذلك فقد بقى لوثاردو مصراً فى تفكيره على ضرورة إصلاح «قانون السهول»، بحيث يمكن إلزام أصحاب الأرض بتسوير ضياعهم واحترام حدودها . إن هذه الأسوار الفاصلة هى الطريق إلى نشر الحضارة فى هذه الربوع ، هى الأسوار التى ستحمى قوة الحق من حق القوة ، هى الحدود التى ستحمل الرجل على احترام المبادئ والمثل .

ها هو ذا قد اهتدى إلى الواجب الذى ينبغى أن يضطلع به فى هذا العمل الحضارى الكبير الذى ظل يحلم به . وكانت أفكاره تسرح به بسرعة أعادت إلى ذاكرته ذلك الجواد الجموح الذى كان يطوى الأرض به منذ أيام وهو يعالج ترويضه ... ها هو ذا يرى مراعى السهول وقد تقسمت قطعًا مخططة تفصل

بينها أسيجة من الأسلاك الشائكة . إن تلك الحدود الفاصلة هى الخط المستقيم الذى يقابل بـه الرجل المتحضـر تلك الأقواس المعـوجة الملتوية التـى رسمتـها الطبيعة ... هى الطريق الواضحة المباشرة إلى المستقبل فى أرض كانت الآمال فيها تائهة لا تهتدى إلى الطريق !...

كان سانتوس يهتف بهذه الآمال والأحلام مـخاطبًا نفسه بصوت عال وقد أخـذته الحمـاسة ، والحق أن منـظر هذه السهـول المـائل فى خـياله بدا له رائعًـا جميلاً وقد دبت فيها الحضارة والرخاء .

وكانت شمس الأصيل تغمر المروج أمامه بالضياء ، والرياح الشديدة تموج البـساط الأخضـر الذى يكسـوها . وبدت عن بعد فى الأفق دوائر من الـدخان تدور وتصطرع بين الربى البعيدة .

ومضى سانتوس فى حلمه الجميل ناسيًـا الحقيقة المحيطة به أو منساقًا وراء سراب الخيال فإذا به يصيح :

- القطار ... هذا هو القطار قد وصل !

ولكنه لم يلبث أن ابتـسم فى انكسار وحزن ... لقـد كان حلمًـا من أحلام اليقظة ، وعاد إلى تأمل المنظر الممـتد أمام عينيه ، ثم تمتم وقد ملأ التـفاؤل نفسه من جديد :

- ولـم لا ؟ ستتحقق هذه الأحلام فى يوما ما ... ستدخل الحضارة والتقدم إلى هذه السهـول ، وستنحسر عنهـا الوحشيـة مقهورة منهـزمة . وربما لا ندرك نحن هذا التطور الجديد ، ولكن عزاء نا هو أن دمًـا من دمائنا هو الذى سينبض فى عروق من يطالعه ويراه .

حقوق مستر دينجر(*)

كان كتلة ضخمة من العضلات المفتولة ، تعلوها بشرة حمراء وعينان شديدتا الزرقة وخصل من الشعر فى لون الكتان ، وكان قد وصل إلى هذه الأرض منذ بضع سنوات وعلى كتفه بندقية ؛ إذ إنه أقبل باحثًا عن تماسيح ونمور يصيدها ، ثم أعجبته البقعة ، فقد كانت مثل روحه : بدائية متوحشة ، أرضًا موطأة مذللة للغزاة الفاتحين من أمثاله ، يسكنها ناس يعتبرهم أقل منه فى درجات البشرية ؛ إذ إنهم لم يكونوا مثله شقر الشعور زرق العيون . وعلى الرغم من البندقية التى كان يلفيها على عاتقه فقد اعتقد الناس هناك أنه قدم لينشئ ضيعة ، أو أتى مبشرًا بآراء وأفكار جديدة تعم بالنفع أهل تلك البقاع ، فأودعوه ثقتهم وأملهم ، واستقبلوه بحفاوة وترحاب ، ولكنه لم يفعل أكثر من الإلقاء بعصا ترحاله فى أرض غريبة دون أن يستأذن على أهلها ، ثم دق فيها أربعة أعمدة ألقى عليها بعد ذلك سقفًا من السعف وورق النخيل ، وعلق ما بين اثنين من أعمدتها سريره المتأرجح ، ونحى عنه بندقيته ، ثم اعتلى سريره وأشعل «بيبته» وتمطى مُرخيًا عضلات ذراعيه القوية ، وهو يقول فى لغة هى مزيج من الإنجليزية والإسبانية الركيكة :

- «أول رايت» ! ها أنذا فى بيتى !

وكان يقول إن اسمه «وليم دينجر»(*) ، وإنه من أمريكا الشمالية من ولاية ألاسكا ، من أب إيرلندى وأم دانماركية كانا قدما إلى ذلك الموضع بحثًا عن الذهب ، ولكن الناس كانوا يشكون فى أن اسمه الثانى «دينجر» اسم حقيقى ؛ إذ إنه كان يسرع بترجمته إلى الإسبانية فيقول لمن يتعرفون به إنه يمكن لهم أن يدعوه «السيد جيرْمو خطر» ليريحهم من عناء النطق بالإنجليزية ، ولعله رأى أن فى هذه الترجمَة الحرفية ما يضفى عليه فى نظر الناس هيبة ورهبة ، فقد كان

رجلاً محبًا للدعابة والمزاح على طريقته الخاصة ، فى سذاجة تجعله يبدو كأنه طفل كبير .

على أن هالة من الغموض كانت تحيط بشخصيته وسر قدومه إلى هذه الجهات ، ويقولون إنه كان فى الأيام الأولى لاستقراره هناك كثيراً ما يطلع الناس على قصاصات من صحف صادرة فى نيويورك ، وقد حملت دائمًا عنوان «الرجل الذى لا وطن له» ، وفيها يحتج كاتب المقالات على معاملة ظالمة تعرض لها مواطن لم يذكر اسمه ، وكان «مستر دينجر» يفهم الناس أنه هو المعنى بتلك المقالات . ولو أنه لم يشرح لأحد أبدًا حقيقة تلك المعاملة الظالمة ولا أسبابها ، ولا الدوافع التى حملته على إخفاء اسمه وراء هذا اللقب الذى اتخذه لنفسه . وعلى الرغم من ذلك فقد فتحت له جميع الأبواب فى انتظار أنهار الدولارات التى كان الناس يأملون أن تتفجر على يديه فى تلك السهول .

ولم يكن لمستر دينجر عمل فى الحقيقة إلا صيد التماسيح التى كان يصدر من جلودها مقادير كبيرة فى كل سنة ، وكانت هوايته صيد النمور والأسود وكل ما يعرض لبندقيته من وحوش . ووقع له فى يوم من أيام خروجه للصيد أن قتل أنثى نوع من أنواع الفهود كانت قريبة عهد بالوضع ، فاقتنص شبلاً من أشبالها وعمل على ترويضه واستئناسه ، وكان كثيراً ما يلاعبه بمرحه المعهود الذى كان يجعله يبدو كما لو كان طفلاً كبيراً متوحشًا ، وكان الفهد الصغير يترك على جسد الأمريكى العملاق آثاراً من الخدوش والجروح ، ولكن هذا كان يُرِى الناس تلك الآثار فى سرور وزهو كأنما يجد فى ذلك لذة ومتعة ، وقد أضفى كل هذا عليه شعبية بين أهل تلك البقاع لا تقل عما كفلته له قصاصات الصحف التى كان كثيراً ما يطلعهم عليها فى أول عهده بالمقام .

أما الكوخ الذى أقامه الأجنبى لسكناه فإنه سرعان ما تحول إلى بيت مجهز بكل وسائل الراحة تحيط به مساحة واسعة أقام عليها حظائر للماشية ،

وأما قصة هذا التطور الذى كان يدل على أن «الرجل الذى لا وطن له» قد ألقى جذوراً ثابتة فـى ذلك الوطن الجديد فإنها لـم تكن بمعـزل عن الصلة التى قامت بينه وبين السيدة باربارا .

كان ذلك فى الأيام التى توثقت فـيها العلاقـة بين باربــــارا و «الكولونيل أبو لينار» الذى رسـم لها خطة انتزاع ضياع «الباركـيرينيا» من «لورنثو باركيرو» ، وكانت باربارا تستعد للاحتفال باسـتيلائها على ذلك الإقطاع بعد أن استبدلت باسمه القديم اسم «ضيعة الرعب» ، وكان الاحتفال يقضى فيما جرت به العادة بدفن ذلك الحيوان الذى تسند إليه الخـرافة حماية الضيعة الجديـدة وحراستها . ولم تكن السيدة باربارا فى اعتقادها فى السحر وإيمانها بمثل هذه الخرافات لتدع مثل هذا التقـــليـد المتوارث . أما مستر دينجر فـإنه كان منذ أن سمع بأسطورة «العفـريت الحارس» تواقًـا إلى حضـور احتفـال تجرى فـيه مثل هـذه الطقوس الوحشـية الهمـجيـة فى نظر رجل «متحـضر» مثله ، ومـن أجل ذلك عزم على زيارة السيـدة باربارا ، لا سيمـا وأنه كان يدين لهـا بأداء فروض الشكر ؛ إذ إن قطعة الأرض التى أقام عليها كوخه كانت جزءاً من أملاكها هى .

وتم كل شىء فى لحظات : النظر إلى الأجنبى العـملاق ، والاستـماع إلى الرغبـة التى حدت به لزيارتهـا وإيقاعـه فى غرامهـا، ثم رسم خطتهـا الجديدة. وكان أول ما قامت به فى تنفيـذ هذه الخطة هى أنها حملت أبو لينار على دعوة الأمريكى للعشاء معهمـا . وتعمدت فى أثناء تناول الطعام الإثقال فى الشراب على الرجلين ، وكان كلاهـما مشغوفًا بـالخمر ، أما أبو لينار فقـد كان أضعف احتمالاً ، وكانت سكراته من النوع الذى سرعان ما يتحول بالرجل إلى البلاهة وفقـد الوعى ، ولهذا فإنه لـم يفطن خـلال الطعام إلى النظرات والغـمزات التى كـان يتبـادلها الضـيف والمرأة التى كـان يعتـقد أنهـا مدلهـة فى هواه ، ولا إلى المشروع الغادر الذى كان يختـمر فى نفس المرأة الداهية والذى قدر على الشقى أن يذهب ضحية له .

وكان أجراء الضيعة خلال هذا الوقت قد عملوا بسرعة على إعداد الحفرة التى تقرر أن يودع فيها حصان عجوز كان قد أصيب فى عموده الفقرى إصابة قاتلة ، ولهذا فلم يعد يصلح لشىء غير القيام بدور «العفريت الحارس» .

وكان مما قالته السيدة باربارا :

- سنعمل على دفنه عند انتصاف الليل ؛ إذ إن هذه هى الساعة المشهودة ، ولن يحضر المشهد إلا نحن الثلاثة فقط ؛ إذ إن الأجراء والفعلة ينبغى ألا يشهدوه ؛ هكذا يجب أن يكون حسب السنة الجارية والتقليد المتبع .

فصاح الأجنبى معلقًا :

- هذا جميل ! النجوم من فوق ، ونحن من تحت ، بينما نلقى الثرى على الحصان المدفون حيًا . هذا شىء جميل غريب ... رائع حقًا ! .

أما أبو لينار فما كان يلقى بالا للسنة الجارية ولا للتقليد المتبع ، ولا ليبدى أى اعتراض ، بل كان لإفراطه فى السكر غير قادر على الحركة ، حتى إن مستر دينجر اضطر إلى حمله بين ذراعيه ووضعه على ظهر جواده حينما حلت ساعة الخروج إلى المكان الذى تقرر لدفن الحصان فى موضع منقطع بعيد عن البيوت القائمة فى الضيعة .

وكانت الحفرة قد أعدت ، والحصان العاجز ، مربوطًا إلى وتد ثبت فى الأرض بجوارها ، فى انتظار الإلقاء به إليها قربانًا فى هذا الطقس الهمجى الغريب . وإلى جوار الحفرة وضعت ثلاثة مجارف ليستخدمها الدافنون ، وكان الظلام يلف المكان المهجور بثوب غليظ قاتم السواد .

وحل مستر دينجر وثاق الحصان ، ثم قاده إلى الحفرة وهو يربت على ظهره ويردد جملاً تعبر عن شفقته عليه ورثائه له وأسفه على المصير الذى

ينتظره ، بينما كـان أبو لينار يطلق قهقهـة عالية بلهاء . وأخيـراً تحامل هذا على نفسه ودفع بالحيوان المسكين دفعة قوية ملقيًا به فى الحفرة .

وأمسك أبو لينار بإحدى المجـارف الثلاث ، ولكنه ظل واقفًا يترنح مـغالبًا قوانين الجـاذبية فى محاولتـه الانحناء على الأرض لكى يملأ مجرفتـه من الثرى المتكوم على شفا الحفـرة ، وهو يتفوه بعبارات بذيئة يبدو أنه أراد أن يفـرغ فيها كل ما ظن أنه أوتى من ظرف وخفـــة روح ؛ إذ كان لا يروى «نـــادرة» منها إلا وكاد جسده يتـفتت من الضحك . وأخيراً استطاع ملء مجـرفته وتقدم إلى الحفـرة لكى يلقى فيـها بما حمل من تراب ، ولكن الشـمل كان قـد أخذ منه كل مأخذ ، فظل يتطوح بها يمنة ويسرة ، وهى لا تستقر بين ذراعيه .

وصاح به مستر دينجر :

– ما أشد ماسكرت يا صديقى الكولونيل !

قالها الأجنبى وهو منهمك فى عمله فى جد وإخلاص ملقيًا بأكوام التراب إلى الحفرة فى سرعة ، ولكنه لم يلبث أن رأى أبو لينار وقد سقطت المجرفة من يده ورفع يديه إلى جنبيه ، وهو يتلوى ويطلق صرخة ألم شديد ، ثم يهوى بعد ذلك فى الحفرة ، وقد أغمدت حربته القصيرة فى ظهره .

وصاح مستر دينجر وقد باغته المنظر ، فتوقف عما كان مستغرقًا فيه :

– أوه ! إن هذا «الشـــىء» لم يـكن فى برنـامج اليـــوم . مـــسكـين هذا الكولونيل !

وأجابته الـسيدة باربارا وهى تلتقط من الأرض المجـــرفـة التى سقطت من يد القتيل .

- لا تكثر من الترحم عليه يا صديقي ، فقد كان هو بدوره يريد اغتيالي . والآن لتساعدني على دفنه ، وعلى أية حال فإنك لست من الرجال الذين تطرف أعينهم أمام مثل هذا المشهد ، فأنا أعتقد أنك فعلت أشياء أفظع من هذا بكثير في بلادك !

فرد الأمريكي في إسبانيته الركيكة :

- ياالله ! إنك يا سيدتي لا تعدمين جوابًا عن أي شيء ! ولكن مستر دينجر ليس معتاداً على القيام بشيء لم يدخل في البرنامج الموضوع ، فهو لم يأت إلى هنا إلا من أجل دفن «العفريت الحارس» فقط .

قال ذلك ، وترك مجرفته ، وامتطى صهوة حصانه ، وعاد يركض به إلى داره لكي يواصل ملاعبة فهده المستأنس .

ولكنه كتم السر على الرغم من ذلك ، فقد كان يريد أولاً أن يتجنب كل تعقيد يمكن أن يلقي مزيداً من المتاعب على كاهل «الرجل الذي لا وطن له» ، ثم إنه كان بعد ذلك أجنبيًا يعتبر نفسه من طينة أنقى وأسمى من طينة أولئك الناس الذين كان لا يحس نحوهم إلا بعميق الاحتقار ؛ إذ كان يرى أن أبو لينار لم يكن يزيد كثيراً على ذلك الحصان الهرم الذي شاطره مقبرته . ولهذا فإنه التزم الصمت وترك الناس يصدقون الرواية التي لفقتها السيدة باربارا حول موته ، وهي أنه مات غريقًا في قناة «الخوار» بينما كان يحاول عبورها . وكان الدليل الوحيد على ذلك هو أنهم عثروا في بطن تمساح اصطيد في القناة على خاتم تعرفت عليه باربارا وزعمت أنه هو بعينه الخاتم الذي كان يلبسه أبو لينار .

وأحسنت السيدة باربارا جزاء كتمانه الخبر ، فأطلقت له العنان في الأرض التي احتلها ، وهكذا تحول كوخه إلى بيت فاخر مريح ، وتحول من صائد

تماسيح إلى مربى ماشية ، أو بتعبير أصح إلى صائد ماشية ، فقد كان عمله الحقيقى هو السطو على كل ما يعرض له من رءوس سواء من «ألتاميرا» أو من «ضيعة الرعب» ، ثم كيها مثبتًا عليها سمته ، وأرخت له السيدة باربارا حبله على غاربه ولم تعرض له بسوء ، حتى أتى يومًا إلى «ضيعة الرعب» فاجتمع بصاحبتها وألقى إليها بهذا الحديث :

– لقد سمعت أنك عازمة على طرد السيد لورنثو باركيرو من قطعة الأرض التى كنت قد تركتها له إلى جوار مرج النخيل الواقع فى «لاتشو سميتا» ، وقد جئت أقول لك إنك لا تستطيعين الإقدام على مثل هذا العمل الظالم ؛ إذ إنه الآن فى حمايتى ، وسأضطلع أنا بالدفاع عن حقوقه وتدبير شئون تلك الأرض له ، فهى آخر ما بقى لهذا الرجل البائس . وأنا أقول لك إنه ليس من حقك الآن أن تبعثى رجالك ليستحوذوا على الماشية التى ترعى فى ذلك المكان .

ولكن حقوق لورنثو باركيرو لم تكن لتنتقل من يد غاصب إلى يد غاصب إلا جديد . إذ لم ينل الشقى من ريع تلك الأرض الباقية له إلا زجاجات «البراندى» التى كان مستر دينجر يبعث بها إليه عند عودته من «كاراكاس» أو من «سان فرناندو» محملاً بألوان الشراب التى يستطيبها ، أو أباريق الخمر الرديئة التى كان يكلف مشرب ضيعة الرعب بإرسالها إليه ، وحتى هذه الأباريق كان يتناسى دفع ثمنها للسيدة باربارا .

هذا بينما كانت ثروة الأجنبى المغامر تتزايد يومًا بعد يوم بفضل ما كان يتصيده من المواشى السارحة فى تلك الأرض ، وكان ممَّا أعانه على ذلك أن هذه القطعة الباقية من إقطاع «الباركيرينيا» القديم كانت مرجًا تخترقه قناة غير دائمة الماء ، فقد كانت تجف فى فصل الصيف ، وكان مجراها يتميز بصخوره الملحة التى كانت تجذب إليها قطعان الماشية ، فتأخذ فى لعقها بألسنتها ،

ولهذا فإن الصيف لم يكن يستهل حتى يعج هذا الموضع برء وس قادمة إليها من جميع الضياع المجاورة . وكان من أيسر الأمور على مستر دينجر أن يضع يده على كثير من هذه الرء وس بغير مشقة ولا جهد ، على أن مساحة هذه الأرض كانت تنقص عن الحد الأدنى الذى قرره «قانون السهول» لكى تصبح أرضًا مشاعة تجوبها القطعان المتوحشة الطليقة ، من هذه الناحية كان من الممكن إلزام مستر دينجر بتسويرها ومنع الماشية من الوصول إلى القناة الملحة ، ولكن الأمريكى المغامر لم يكن ممن يترددون فى انتهاك حرمة أى قانون ، لا سيما إذا كان وكلاء ضيعة سانتوس لوثاردو رجالاً يسهل شراء ذممهم ، وإذا كانت صاحبة «ضيعة الرعب» لا تجرؤ على الاحتجاج .

وكان مستر دينجر قد اعتاد الخروج من الضيعة عند استهلال فصل الشتاء إلى القرى المجاورة لكى يبيع المواشى المتجمعة من تلك الغنيمة الباردة ؛ إذ إن قدوم الشتاء كان يؤذن بهطول الأمطار وامتلاء القناة الملحة بالماء ، مما يحول بين الماشية والتردد على تلك الأرض التى اتخذها الأمريكى شركًا مجرب النفع ، فإذا امتلأت جيوبه بالمال بقى فى سان فرناندو أو كاراكاس طيلة أيام الشتاء إلى أن تجف مياه القناة . ولم يكن له من عمل فى هاتين العاصمتين إلا إنفاق ما جمعه من مال على سهرات وسكرات هائلة منكرة ، فالمال لم يكن فى نظر مستر دينجر أمرًا يستحق منه كبير عناية ، ثم إنه كان من الكثرة بحيث لا تأتى عليه يداه الكبيرتان مهما أنفق فى بذخ وإسراف .

* * *

وكان مستر دينجر يستعد للسفر فى عطلته السنوية المعتادة حينما تلقى خطاب لوثاردو الذى أرسله إليه مبلغًا إياه عزمه على إعادة السياج القديم الذى كان يحيط بمرج «الكوروثاليتو» ، وهو المرج الذى كانت ماشية ضيعة ألتاميرا تجتازه إلى القناة الملحة ذاهبة إلى غير رجعة .

ولم يقرأ الأمريكى الخطاب حتى صاح فى ضيق وغيظ :

- أوه ! ترى ما الذى يسعى إليه هذا الرجل ؟

ثم التفت إلى أنتونيو الذى حمل إليه رسالة سيده وقال له :

- اسمع يا أنتونيو . اذهب إلى الدكتور ، فقل له إن مستر دينجر قرأ خطابه ووعى ما فيه وإنه يقول مايلى: إن مستر دينجر مُصر على أنه يبقى مرج «الكوروثاليتو» مفتوحًا طليقًا كما ظل حتى الآن ، وإن له حقوقًا فى هذه الأرض تخول له منع الدكتور لوثاردو من إقامة أى سياج هناك .

ونقل أنتونيو رسالة الأمريكى إلى سيده ، ولكن هذا لم يقتنع بما ذكر ، فآثر أن يذهب بنفسه فى اليوم التالى لزيارة مستر دينجر فى داره حتى يفاوضه فى المسألة ويبحثها معه .

* * *

نباح الكلاب يتعالى فى حديقة مستر دينجر ، ولا تمضى لحظات حتى تطل من الدهليز صورة الأمريكى العملاق ، وهو يستقبل ضيفه فى حرارة وحفاوة بالغة :

- تقدم يا سيدى الدكتور ... تقدم . لقد كنت أعلم أنك قادم لزيارتى ، وإنى آسف كل الأسف لاضطرارى لإبلاغك أنه ليس من حقك أن تحيط مرج «الكوروثاليتو» بسياج، ولكن تفضل ياسيدى أولا بالمرور .

ثم قاد لوثاردو إلى قاعة بدت جدرانها مغطاة بنتاج ما كان يقتنصه من حيوان فى هوايته المفضلة : رءوس ظباء متشابكة القرون ، وجلود نمور وفهود ودببة من ذلك النوع الذى يعيش فى غابات النخيل ، ثم جلد تمساح هائل يحتل رقعة واسعة من أحد الجدران .

- تفضل بالجلوس يا سيدى الدكتور ، ولا تخف ، فإن فهدى الصغير يقبع الآن فى قفصه .

ثم دنا من المنضدة التى وضعت عليها زجاجة «ويسكى» واستطرد :

- لنتناول معًا كأسين من شراب الصباح !

وأجاب سانتوس معتذرًا عن رفضه لمجاملة مضيفه :

- شكرًا فلست متعودًا على الشراب .

- أوه ! لا تجب طلبى بالرفض يا سيدى الدكتور ، إننى سعيد لرؤيتك فى بيتى ، وأريد أن تتفضل علىّ بمشاركتى فى الكأس .

واضطر سانتوس تحت إلحاح الأمريكى إلى تناول كأس ، ثم دخل فى الموضوع مباشرة فقال :

- أظن أنك يا مستر دينجر غير محق فيما تراه حول حدود ضيعة «الباركيرينيا».

وأجاب الأجنبى :

- لا ياسيدى ، فأنا لا أخطئ أبدًا فى شىء مما أقول ؛ فإن لدى خريطة للمكان تثبت صحة كلامى . اسمح لى بالخروج لحظة .

ثم خرج إلى غرفة مجاورة ولم يغب إلا لحظة ثم عاد ومعه عدة أوراق حفظها فى جيبه ، وتناول من بينها ورقة كبيرة مطوية ، فعمل على نشرها أمام ناظرى سانتوس وهو يقول مشيرًا عليها بإصبعه :

- ها هو ذا ياسيدى الدكتور ... فأنت ترى أن مرج «الكوروثاليتو» و «مرج البلوط السفلى» داخلان فى حوزة ما أملك من أرض ، ولك أن تتأمل ذلك بعينيك .

أما الخريطة فقـد كان من الواضح أنها من رسم مستر دينجـر نفسه ، وكان المرجان اللذان أشـار إليهما يبـدوان عليها كـما لو كانا فعـلاً داخلين فى حدود ضيـعة «الباركيـرينيا» . وأخذ سـانتوس الخريطة بين يديه تأدبًا ، ثم ألقى عليـها نظرة سريعة وقـال :

– اسمح لى أن أقول لك إن هذه الخريـطة لا تعتبر حجة قاطعـة كافية ؛ إذ ينبغى أن تقابل على عقود الملكية الخاصة بضيعة «الباركيرينيا» وبضيعة ألتاميرا التى لم آت بها الآن معى إليك ، وأنا آسف لذلك .

وأجاب الأمريكى محتجًا والابتسامة مازالت مرتسمة على شفتيه :

– أوه ! هذا أمر سيئ ! أيظـن الدكتـور أننى أرسم على الـورق أشياء لا وجود لها إلا فى خيالى ؟ إننى لا أقول كلمة واحدة إلا إذا كنت متثبتًا منها كل التثبت .

– ما كـان لك ياسيدى أن تُؤَوِّل كلمـاتى مثل هذا التأويل ، فكل مـا أقوله هو أن هذه الخريـطة ليست حجـة كافـية ، ولست أنكر أنه قـد يكون لديك من الوثائق مـا يمكن أن يعتـبر دليلاً أقـوى وأوضح . ومادمت تسـعى إلى إطلاعى على ما تقول إنك واثق من صحته فإنى أرجوك أن ترينى ما قد يكون لديك من وثائق أخرى .

وبقى مستر دينجر صامتًا متشـاغلاً بالنظر إلى الدخان المتصاعد من «بيبته» دون أن يولى مـحدثه كثـيراً من الاهتـمام ، فـبدا الضـيق على وجه سـانتوس ، وأضاف بلهجة أكثر شدة وحزمًا :

– وإنى لأذكرك بأنى لم آت لمناقـشة هذه المسألة مـعك إلا بعد أن درستـها بعناية ودقة مقابلاً ذلك على عقود ملكيتى ، واسمح لى بأن أقول لك إننى واثق تمامًـا من كل مـا أقول إذ أؤكـد لك أن مـرج «الكورو ثاليتـو» و «مـرج البلوط

السفلى» داخلان فى ضيعة ألتاميرا ، ولهذا فإن حقى فى تسوير ذلك المرج واضح لا خفاء به ولا نزاع فيه ، بل إنى أذكرك بأن ذلك السياج الذى أنوى إقامته ليس شيئًا جديدًا مستحدثًا ، فقد كان قائمًا فى زمن أبى منذ سنوات قليلة ، وما زالت الحفر التى دقت فى مكانها أعمدة ذلك السياج بادية الآثار حتى اليوم .

فقال مستر دينجر :

- فى زمن أبيك !.. فى زمن أبيك !.. إننى لا أريد أن أضطر لمواجهتك بأنك لا تعرف ما تقول ؛ إذ تؤكد أن حقوقك فى ذلك المكان ما زالت قائمة .

واحتمل سانتوس على مضض ما اتسمت به لهجة الأمريكى من استخفاف وتهكم ، ثم عاد يسأله :

- أتراك تعتقد إذن أن حقوقى هذه قد سقطت وأصبحت كأن لم تكن ؟

فأجاب الأمريكى فى ضجر وتململ :

- أوه ! إننى لا أريد أن أواصل هذا الحوار الذى لا طائل من ورائه ، فما كنت ممن يلقون الكلام على عواهنه .

وأضاف وهو يخرج من جيبه ما كان قد احتفظ به من أوراق :

- ... إذ إن كل ما أقول مثبت فى هذه الأوراق ، ولك أن تطلع عليها . ويسعدنى أن تقتنع بنفسك مما ستراه بأنه لم يعد من حقك أن تقيم أى سياج فى هذه الناحية .

قال ذلك وهو يضع بين يدى سانتوس وثيقة عليها توقيع لورنثو باركيرو وواحد ممن كانوا يضطلعون بإدارة ضيعة ألتاميرا بعد وفاة خوسيه لوثاردو والد

سانتوس ، وقرأ سانتوس الوثيقة فإذا بها عقد مبايعة ينص على أن مرج «الكوروثاليتو» و «مرج البلوط السلفى» قد آل ملكها بالشراء إلى صاحب «الباركيرينيا» ، وإذا فى الوثيقة نفسها أن صاحب ألتاميرا يتعهد بألا يقيم فى الناحيتين أى سياج ولا بناء يترتب عليه الحيلولة بين الماشية وبين الرعى طليقة حرة فى أنحاء ذلك المكان .

وكان من الواضح أن الهدف من هذه الوثيقة ومن ذلك الشرط الذى ارتبط به صاحب ضيعة ألتاميرا هو ألا يقف أى عائق بين ماشية هذه الضيعة والتوغل فى أرض الضياع المجاورة ، وكثيراً ما كانت تفعل طلبًا لتلك القناة الجافة التى كانت الماشية تنثال عليها لتلعق تربتها الملحة ، وهو ما كان يؤدى إلى وقوعها غنيمة باردة فى أيدى من يعن لهم السطو عليها من أمثال مستر دينجر ، ولكن سانتوس رأى نفسه أمام حجة لم يكن يقدر لها حسابًا ، فقد كان يجهل وجود تلك الوثيقة وما تضمنته من تعهد. ومن يدرى ؟ فلعل لدى خصومه الآن كثيراً من أمثال تلك الوثائق التى اقتطعت بها أجزاء من أرضه، والتى اغتنى منها أولئك الوكلاء الخونة المرتشون ذوو «الذمم الواسعة» ممن تعاقبوا على إدارة أعماله ! فهو يرى الآن أن عقد البيع الذى أراه مستر دينجر إياه لم يحتفظ بأى صورة منه فيما بين يديه من أوراق ووثائق .

ولم يكن هناك مجال للتشكيك فى هذه الوثيقة ، فقد رأى عليها من أختام التسجيل والتوثيق ما يدفع كل شبهة فى زيفها ، ولهذا فإنه لم يتمالك شعور الخجل والاستخذاء يغزو نفسه ، فقد ثبت له الآن أنه لا مناص من الاعتراف بجهله حقيقة الموقف فى ألتاميرا .

ولم يكتف مستر دينجر بتلك الوثيقة التى تثبت سقوط حق لوثاردو فى ملكية تلك الأرض ، بل إنه شفعها بوثيقة أخرى هى عقد شراء مبرم بينه وبين لورنثو باركيرو ، وفيه يشهد هذا الأخير بأنه باع للأمريكى المروج المحيطة

بالقناة الملحة . على أن سانتوس تأمل توقيع لورنثو باركيرو فرآه مكتوبًا بخط متعرج غير متجانس حتى إنه لا يكاد يقرأ كما لو كانت قد خطته يد أمى أخذوا بيده لكى يكتب غير ما يعرف . وتراءى لسانتوس وهو يفحص ذلك التوقيع أن لديه دليلاً عمليًا على سوء النية من جانب الأمريكى حينما حمل الرجل على توقيع تلك الوثيقة دون أن يعرف ما تضمنته منتهزًا فرصة تلك الغيبوبة المستمرة التى كان المسكين مخلداً إليها فى سكره الذى لم يكن يستفيق منه ، ورأى سانتوس أنه ليس من العسير عليه أن يثبت أن ذلك البيع لم يكن إلا ضربًا من ضروب الاغتصاب ، وأنه من نوع تلك البيوع الصورية التى برعت السيدة باربارا من قبل فى حمل ذلك الشقى على توقيعها .

وأقبل سانتوس على نفسه يحدثها وهو ما يزال ينعم النظر فى ذلك التوقيع الذى كتب بحروف لا تكاد تقرأ :

- إن الأمر أكثر تعقيداً مما تصورت ؛ فلا بأس الآن بأن أنسى ما قدمت لأجله أولاً . لقد أتيت وفى خاطرى أن أنصب نفسى مدافعًا عن الحقوق المهضومة ، غير أنه لم يخطر ببالى حتى الآن أن أبحث فيما إذا كان من الممكن الدفاع عن حقوق ذلك الرجل المسكين . وإنى لأرى الآن أن أمثال هذه البيوع الصورية قد يكون عليها من الشبهات ما يمكن أن أتخذه ثغرة أنفذ منها إلى مطالبة القضاء بإلغائها والحكم ببطلانها .

أما مستر دينجر فقد كان فى هذه الأثناء قد نهض من مقعده ، واتجه إلى المنضدة ، ثم أفرغ على الكأسين من زجاجة الويسكى ما ملأهما ، وكأنه كان يريد الاحتفال بانتصاره على ذلك الجار الذى جاء يطالب بحقوق لم يعد لها من أثر ، كان التشفى والفرح المزهو يملآن نفسه ويحدوان به إلى إذلال ذلك الرجل الذى خلقه الله من طبقة بشرية أدنى من طبقته ، والذى أتى مع ذلك مجترئًا على أن يناقش الأمريكى «حقوقه» .

- كأسًا أخرى يا دكتور ؟

ولكن سانتوس نهض مصوبًا إليه نظرة تنم عن الكرامة الجريحة ، على أن الأمريكي لم يول ذلك أدنى اهتمام ، واستمر يصب الخمر في الكأسين في هدوء .

وأعاد لوثاردو إليه وثائقه وهو يقول :

- لقد كنت أجهل ما أطلعتني عليه الآن من أمر بيع مرجي «الكوروثاليتو» و «البلوط السفلي» ، ولو أنني كنت على علم بذلك لما كلفت نفسي عناء إزعاجك مطالبًا إياك بما ليس من حقي ؛ فأرجو أن تقبل عذري عن ذلك .

- ليس للأمر أهمية يا سيدي الدكتور ، فلا تزعج نفسك به ، فقد كنت على يقين من أنك كنت تتكلم دون معرفة كافية بتلك القضية . والآن لنعقد حبل السلام ، ولنتناول من أجل ذلك معًا قليلاً من الويسكي ؛ فأنا أريد أن أكون صديقًا لك ، والويسكي هو خير شيء لتوثيق الروابط بين الأصدقاء .

وتماسك لوثاردو ضابطًا لأعصابه حيال هذه الكلمات التي كانت أشبه بالتحدي منها إلى الدعوة ، ثم أجاب :

- يؤسفني ألا أستطيع تلبية هذه الدعوة !

وأدرك مستر دينجر أن لوثاردو لم يعتذر عن عدم قبول تلك الكأس فحسب ، بل كانت كلماته تعني رفضه لتلك الصداقة التي عرضها عليه الأمريكي ، وانصرف لوثاردو ، أما مستر دينجر فقد أتبعه ببصره وهو يقول :

- يا لأشباه الرجال هؤلاء ! ما أكثر ما يخوضون فيما لا علم لهم به !

* * *

أما سانتوس فقد اتخذ سبيله إلى ألتاميرا ، على أنه آثر أن يعرج فى طريقه على دار لورنثو باركيرو ؛ إذ أراد أن يغتنم الفرصة لكى يستفسره عن تفاصيل الخبر فى فقده لملكية ما كان قد بقى له من ضيعة «الباركيرينيا» .

وكان لورنثو باركيرو مستلقيًا على سريره القذر مستغرقًا فى نوم عميق من جراء سكرة البارحة بلاشك ، وقد انطلق من حنجرته شخير أشبه ما يكون بأنات من يعانى سكرات الموت ، وتهدل من شفتيه المنفرجتين لعاب لزج . وتأمله سانتوس لحظات ناظرًا إلى وجهه الذى كانت ترتسم عليه علامات الاحتضار بادية من تحت ذلك النوم العميق الذى يتركه التسمم بفعل الكحول على معالم المخمور . وانزعج سانتوس لذلك المنظر ، فاقترب من الرجل وأمسك بذراعه المتدلية من السرير ليتحسس نبضه ، فأحس بخفقات الدم العنيفة وهى تتردد فى شرايينه كأنها دقات مطرقة . وظل سانتوس برهة يرمقه بنظرات عطف ورثاء ، وهو يحدث نفسه قائلا :

- إن هذا التعس لم يبق من عمره فى عالم الأحياء إلا القليل . ولكن هذا لا يمنع أن نحاول شيئًا من أجله .

وكان إلى جوار السرير وعاء خشبى قد وضعت فيه قرعة مجففة ، وكوب ضخم وملعقة كلاهما من الخشب ، وكان من الواضح أن لورنثو لم يكن يحتاج إلى مجهود كبير لكى يحتسى ما شاء من شراب ؛ إذ لم يكن عليه إلا أن يمد ذراعه إلى الأرض لكى يملأ كأسه ، وكان من البين أن الرجل قد شرب ما كان أودعه القرعة المجففة من الخمر ملقيًا إياه فى جوفه جرعة جرعة كما اعتاد المخمورون هناك أن يفعلوا إذا عزموا على سكرة هائلة .

واستجمع لوثاردو قواه ، ثم ألقى بالوعاء إلى خارج الغرفة بضربة قوية بقدمه ، وأمسك بالإبريق الموضوع على المنضدة وكان ما يزال يحتوى على قدر

كبير من تلك الخمر الرخيصة القوية ، وقذف به إلى خارج الدار ، ثم هم بإيقاظ لورنثو ، ولكنه رأى قلة جدوى ذلك وهو فى مثل هذه الحال ، فآثر المضى فى طريقه ، ولكنه لم يكد يعزم على الخروج حتى فوجئ بجسد الأمريكى الفارع الضخم يسد عليه الباب ، وعلى وجهه الأحمر تلك الابتسامة الكبيرة التى لم تكن تفارق شفتيه .

وتظاهر مستر دينجر بالدهشة لالتقائه بلوثاردو هناك ، ولكن هذا فطن على الفور إلى أن الأمريكى كان يتتبع خطواته ، فلم يحاول أن يخفى شعوره بالامتعاض والضيق .

وأومأ الأمريكى برأسه إلى لورنثو وهو متوجه بالخطاب إلى سانتوس :

- مخمور ... أليس كذلك ؟ لابد أنه قد ابتلع كل ما بعثت به إليه أمس من خمر .

وأجاب سانتوس :

- ليس من حسن الصنيع أن تبعث بالشراب إلى هذا الرجل .

- إن هذا الرجل لاشفاء له ياسيدى الدكتور ، فدعه يمض إلى مصيره المحتوم الذى لا مفر منه . إنه هو نفسه لا يريد الحياة ، أتعرف أنه مازال يحب باربارا الجميلة؟... نعم ، يحبها بعنف وجنون ، وهو يشرب ويشرب حتى يستطيع السلو عنها . وطالما قلت له : « يا لورنثو ، إنك تقتل نفسك قليلاً قليلاً ! » ، ولكنه لا يريد أن يلقى بالا إلى ما أقول ، حتى إن الكأس لا تفارق شفتيه لحظة واحدة !

واقترب مستر دينجر من السرير المتأرجح الذى تمدد فيه لورنثو ، فأمسك بعضادتيه ، وأقبل يهزه هزاً عنيفًا وهو يصيح به :

- إيه !... ياسيد لورنثو ! انهض من نومك ، فإن صديقًا لك قد قدم لزيارتك . حتى متى ستظل فى هذا الشخير وأنت قابع فى سريرك ؟ انهض فقد أتى الدكتور لوثاردو لتحيتك .

فقال سانتوس وهو يهم بالانصراف :

- من الخير أن تدعه مخلدًا إلى نومه .

أما لورنثو فقد فتح جفنيه فى بطء وهو يتمتم بكلمات لا تستبين ، بينما أهوى الأمريكى بيده الكبيرة على وجهه فى تظرف متوحش وهو يطلق قهقهة عالية ويقول :

- يا لها من سكرة جبارة تلك التى استولت عليك ياولد !

وعاد مستر دينجر وهو يتضاحك مقبلاً بوجهه على سانتوس ، ثم ظل لحظة ينظر عبر باب الدار المطل على مسرج النخيل ، ولكنه لم يلبث فجأة أن قوس قامته وقلص جسده وشد أصابعه كأنه يهم بأن ينشب أظفاره فى عدو متوثب عليه ، وانفرجت شفتاه عن أسنانه ، وأطلق من حنجرته صوتًا أشبه بزئير وحش ، وبدا الرجل كما لو كان يقلد حركات ذلك الفهد الصغير الذى اعتاد ملاعبته ومواثبته .

وارتسمت علائم الدهشة على وجه سانتوس من حركات الأمريكى المفاجئة وأقبل يسائل نفسه : «ترى ما الذى حل بهذا الرجل ؟» ، بينما أطلق هذا ضحكته القاصفة وهو يشرح لسانتوس سر تلك الحركات :

- إنها الفتاة قد أقبلت ... ماريسيلا ... يا له من اسم يبدو كما لو كان اسم إحدى الرقصات الشعبية هنا !

والتفت سانتوس وراءه ، فإذا بها ماريسيلا مقبلة وعلى رأسها حزمة من الحطب ، تمامًا كما رآها فى أول يوم التقى بها فيه ، ولكنها بدت لسانتوس كما لو أصبحت شخصًا آخر ، فهى لم تعد تلك الصبية القذرة المشعثة التى لا يستر جسدها إلا يسير من الخرق والهلاهيل ، بل هى تلبس الآن ثوبًا جديدًا نظيفًا كان سانتوس قد بعث به إليها بعد أن كلف بخياطته إحدى حفيدات ملسيسيو ساندوفال ، وكل شيء فى مظهرها يدل على النظافة ، بل هو يتجاوز ذلك إلى قدر من الأناقة والتجمل على الرغم من جو البؤس والفقر الذى كان ما يزال محيطًا بها . واغتبط سانتوس وهو يرى هذا التغير الذى لم يكن إلا ثمرة بضعة كلمات تبادلها مع الصبية فى أول لقاء جمع بينهما . وفى هذه اللحظة فقط تنبه إلى شيء آخر لم يكن قد لاحظه من قبل عند دخوله إلى دار لورنثو باركيرو : وهو أن الدار نفسها لم تعد ذلك الكوخ القذر الذى تنبعث منه روائح منتنة كريهة ، فهو يرى أرضها الآن وقد كنست بعناية ، وإذا كان البؤس مازال هو الطابع الغالب على البيت كما كان ؛ فإنه قد تحول إلى مكان نظيف يصلح لسكنى الآدميين بعد أن كان أشبه بوكر من أوكار الوحوش .

أما مستر دينجر فقد واصل حديثه لسانتوس :

- إنها الآن جديرة بأن تدعى «الآنسة ماريسيلا» ، ولكنها مازالت نفورة شكسة الطباع كأنها فهدة !

ثم اتجه إلى الفتاة فقال لها وهو يحرك فى وجهها سبابته فى وعيد :

- لقد أدميت جسدى بالأمس بما تركته آثار أظفارك !

وأجابت ماريسيلا مزمجرة .

- واه !... وما الذى دفعك إلى مد يديك على ؟

وتضاحك الأمريكى وهو يقول لسانتوس :

- إنها كثيراً ما تغضب منى وتهتاج على حينما أقول لها إننى اشتريتك من أبيك، وحينما يموت فإنى سأحملك معى ، وذلك لأن فى بيتى فهداً ذكراً ، وأنا أريد أن أضم إليه أنثى من جنسه حتى يملئا على الدار فهوداً صغاراً .

وعاد مستر دينجر إلى إطلاق قهقهاته المدوية معلقًا بها على «حسن نادرته» الغليظة ، بينما كانت ماريسيلا تزمجر بكلمات تدل على الغيظ والحنق . أما سانتوس فقد أدرك ما تتعرض له الصبية من خطر فى ظل حماية هذا الرجل الذى ليس للرحمة سبيل إلى قلبه ، وتأجج فى نفسه شعور من الكراهية والعداوة لذلك الدخيل المستهتر .

ولم يستطع سانتوس تمالك نفسه إزاء استخفاف الأجنبى ومعابثاته الفظة ، فصاح به فى غضب :

- إن هذا أكثر مما أستطيع أن أتحمل ! فأنت أولا تسكر الرجل المسكين لكى تنتزع منه كل أملاكه وتحرم ابنته من حقوقها المشروعة ، ثم لا تكتفى بذلك بل تعاملها معاملة خالية من أدنى فروض الذوق واللياقة !

وجمدت الضحكات على شفتى الأمريكى على الفور ، وامتقع وجهه ، وأظلم لون عينيه الأزرق ، ولكنه تمالك نفسه وقال دون أن يغير الغضب من نبرات صوته :

- أمر سيىء ! أمر سيىء أنك تريد أن تصبح عدواً لى ، مع أننى أستطيع أن أمنعك من وطء هذه الأرض التى تنصب عليها عودك الآن . إن لى حقوقًا تخول لى منعك ... أتعرف ذلك ؟

- وأنا أعرف عن أى طريق نلت هذه الحقوق .

ووقف الأمريكى يفكر لحظة ، ثم أعرض عن سانتـوس ، واشتغل بإخراج بيبته وملئهـا بالتبغ ، وأقبل عليـها متشـاغلاً بإشعـالها بعود ثقـاب ، وبينما هو يعالج ذلك بيديه الكبيـرتين اللتين يغطيهما شعر كثـيف وينفث الدخان من فمه ومنخريه توجه بالخطاب إلى سانتوس قائلا :

- إنك لا تعـرف شيـئًا أيهـا الفتى ! إنـك لا تعرف ولا حـتى مــالك من حقوق !.

وانصرف الأمـريكى ووقع قـدميه العـريضتين يـترك على الأرض الجـامدة اليابسة وقعًـا رتيبًا عاليًا بدا فى سمـع لوثاردو كما لو كان قعقعـة سلاح يحمله جندى فاتح مـحتل أرض لم يحسن أهلها الدفـاع عنها ، وشعر سـانتوس وهو يتأمـله بالغضب يتـحول فى نفسـه إلى خجل وإحـساس بالعـار ، ولكنه تمالك نفسه ولاحقه بقوله :

- عما قريب سترى ما إذا كنت أعرف حقوقى وأحسن الدفاع عنها !

واستـقر فى نفـسه منذ هذه اللـحظة العــــزم على استنقـاذ لورنثو وابـنته وحـملهمـا إلى داره حـتى يتـيح لهـما الخـلاص من ربقـة الذل التى تعنيـهـــا حيـــاتهما فى ظل الأجنبى ...

القسم الثاني

الفصل الأول

حادث فريد

كان تصرفًا ماكراً خبيثًا هو ذلك الذى اصطنعته السيدة باربارا حينما تلقت رسالة لوثاردو التى أبلغها فيها أنه عازم على إحاطة ضيعة ألتاميرا بسياج ثابت ، والواقع أنه لم يكن يسوء المرأة شيء بقدر ذلك الخبر الذى يعلن إليها مثل هذا القرار من إقامة حدود فاصلة بين أرضها وأرض جيرانها ؛ مما قد يترتب عليه الحد من مطامعها التى لا تنتهى فى اغتصاب ما ليس من أملاكها ، على أن هذه المرأة الطموحة كانت كثيراً ما تصطنع أمام الناس القناعة ، فتقول إذا سمعت أحدًا يتحدث عن رغبتها فى مزيد من الأرض :

- إننى لفى غاية الدهشة مما تلوكه عنى ألسنة السوء ؛ إذ تتحدث عما يسمونه رغبتى فى مد رقعة أرضى ! فالحقيقة أنه يكفينى أن أكون مالكة لقطعة يسيرة من الأرض ...

ثم تضيف فى تخابث :

- ... قطعة تكفينى لكى أكون فى وسط أملاكى أينما وقفت !

ولم تكد باربارا تقرأ خطاب لوثاردو حتى صاحت وقد اكتسى وجهها قناع الطيبة والبساطة :

- الحمد لله ! أخيراً ستنتهى المنازعات والمشكلات من أجل تلك الحدود الفاصلة بين ضيعتى وألتاميرا ، بعد أن كلفنا ذلك كثيراً من العناء لا مبرر له ! قد قرر الدكتور لوثاردو إحاطة أرضه بسياج ، وبهذا سنتجنب كل خلاف

أو سوء فهم . هذا هو عين الصواب . نعم ... عين الصـواب ! وهكذا سيعرف كل منا حـدود أرضه ، ويتحـقق قول المثل : «كل واحـد منا فى داره ، والله فى دور الجميع يشملهم برحمته» . هكذا ينبغى أن يكون . لقد طالمـا كنت أفكر فى إقامة هذا السيـاج الثابت من قبل ، ولكنى لم أستطع تحقـيق تلك الأمنية ؛ لأنها تقتـضى كثـيراً من النفقـات . أما الدكـتور فإنه قـادر على ذلك ؛ إذ إن لديه من المـال ما يسمح له بـه ، وهو يحسن صنعًا إذ ينفق فى إقامة ذلك الـسياج قليــلاً من ماله .

وكان بالبـينو بابيا قـد أسرع للمثـول بين يدى السيدة بـاربارا منذ أن سمع بخبر تلـك الرسالة التى بعث بها سانتـوس لوثاردو إليها ، فقـد كان يخشى أن تكون متـعلقة به هو ، ولم يسـمع الرجل كلمات سـيدته حتى أقـبل يردد النظر إلى وجهها فى دهشة دون أن يخطر بباله أنها حيلة اصطنعتها المرأة الداهية لكى تموه بهـا على أنتونيـو ساندوفـال الذى حمل إليـها رسـالة سيـده ووقف ينتظر جوابها . وكانت باربارا تريد أن ينقل الرسول إلى لوثاردو كلمتها التى تعبر عن ترحيبها بفكرته وموافقتها عليها .

غير أن أنتونـيو كان كثيراً ما يسـمع أن هذه المرأة لم تكن تصطنع مثل هذا الأسلوب الرقيق الوديع إلا إذا كانت تُبيِّـتُ أمرًا له ما وراءه ، فـــراح يخاطب نفسه قائلاً :

– إنها أخطر ما تكون فى مثل هذه اللحظة !

أما باربارا فقد ختمت كلامها متوجهة إلى رسول لوثاردو وهى تقول له :

– أبلغ الدكـتـور لوثاردو أننى قـد علمت مـا تفـضل بإنهـائه إلىّ ، وأننى موافقة عـلى ما اقترح ، أما ما ذكـره من اشتراكنا مناصفة فى نفقـات إقامة ذلك السياج الفاصل فإنى آسفة لعجزى عن دفع نصيبى منها الآن . فإذا كان متعجلاً

لذلك - وإنى أراه من أولى العزم الذين لا يشرعون فى شيء إلا أتموه - فليعمل منذ هذه اللحظة على إقامة سياجه ، وسيتم بيننا التفاهم على هذه المسألة بعد ، فما كنا لنختلف أو نتنازع على أمر تافه مثل هذا .

ولكن أنتونيو عاد إلى مساءلتها :

- وما رأى السيدة فيما طلب الدكتور الجواب عنه حول مسألة تمييز ماشيته من ماشيتكم والفصل بينهما حتى يعرف كل ما له وما عليه ؟

- آه ... لقد فاتنى أن أذكر أنه تحدث عن هذا أيضًا . أبلغه إذن أن مروج ضيعتى لا تسمح فى الوقت الراهن بالبدء فى ذلك العمل . ولكن ليطمئن ، فإنى سوف أعلمه بإمكانه الشروع فيه بمجرد تهيؤ أرضى له . وعلى أية حال فإن بوسعه الآن أن يدق أوتاد الحدود الفاصلة ؛ إذ إن ذلك سيقتضى منه بعض الوقت ، وفى أثناء ذلك سيستعد كل لإخراج ماشية جاره من أرضه . قل له ذلك واقرأ عليه خالص سلامى وتحيتى .

وانصرف أنتونيو حاملاً الرسالة إلى سيده ، ولم يكد يبتعد حتى توجه بالبينو بايبا بالخطاب إلى المرأة ، معبرًا لها عما قد اختمر فى رأسه من أفكار يمليها الشر وسوء الطوية :

- إن الذى أفترضه هو أن الدكتور لوثاردو لن يتاح له الوقت الكافى لإقامة ذلك السياج الفاصل .

فأجابته باربارا بينما كانت تطوى رسالة سانتوس لوثاردو وتودعها مظروفها من جديد :

- ولماذا ؟ إن إقامة السياج لا تقتضى إلا عدة أسابيع لا أكثر ، هذا إلا إذا خطر له أن يخطئ فى دق الأوتاد فيقتحم بها أرضًا داخلة فى حدود أرضى !

ثم استطردت وقد استعاد صوتها نبرته الطبيعية بغير سخرية ولا تهكم ؛ إذ لم يعد هناك ما يدعو إلى ذلك :

- اذهب الآن فائتنى بالإخوة «الموندراجونس» .

* * *

وفى اليوم التالى بدت الأوتاد الفاصلة بين الضيعتين وقد تحولت عن مكانها الأخير من جديد ، كما تحولت معها دار «الماكانيال» التى كانت أهم معالم الحدود الفاصلة كما نص عليها ذلك الحكم القضائى المبهم الذى أصدرته المحكمة حول هذه المسألة ، وكان مثل هذا التغيير فى الحدود أمراً جرت عليه السيدة باربارا كلما أرادت أن تقتطع من أرض جارها قطعة ، ولكن الجديد الغريب هو أن الحدود لم تنتقل هذه المرة إلى داخل ضيعة ألتاميرا كما كان يحدث من قبل ، بل فى الاتجاه المضاد مقتطعة شريطًا عريضًا من الأرض الداخلة فى حدود ضيعتها هى كما نص عليها الحكم القضائى الأخير .

وكان هدف السيدة باربارا من ذلك هو أن يقع لوثاردو فى الشرك المنصوب له ، فيقيم سياجه حيث تقوم الأوتاد التى أمرت جارته الماكرة بنصبها متخذًا دليله فى إقامة الحدود منزل «الماكانيال» الذى نص عليه القضاء ، فإذا فرغ من ذلك قامت المرأة بشكواه واتهامه أمام القضاء بأنه هو الذى تلاعب وغالط فى الحدود الفاصلة محولاً ذلك المنزل عن مكانه الأول بعد أن اغتنم فرصة غياب الإخوة الثلاثة «الموندراجونس» الذين كانوا هم القاطنين الوحيدين لتلك الدار فى ذلك الموضع المهجور .

هكذا كانت خطة السيدة باربارا كما شرحتها لبالبينو بايبا ، ولم يسع الرجل عندئذ إلا الاعتراف بدهاء المرأة وهو الذى لم يكن يعترف لأحد بفضل مهما كان :

- لم يبق موضع لكلمة واحدة ! يالها من امرأة ! إنها ترى الدودة حيث لا يرى الرجل منا الثور ! ولست أعرف ما إذا كان هذا بفضل نصائح «الشريك» الذى تخلو به، ولكن الثابت هو أن كيدها شديد وخططها محكمة بعيدة الغور !

ولكن الحقيقة كانت بعيدة عما توهمه بالبينو بابيا ؛ إذ لم يكن أمر السيدة باربارا رجالها بأن يغيروا مواضع الحدود فى هذه المرة - ولا فى المرة السابقة التى عادوا فيها بتلك الحدود إلى حيث نص القضاء - ثمرة لخطة أحكمت تقديرها من قبل ، فهى لم يكن يخطر ببالها أبدًا أن يفكر لوثاردو فى مسألة الفصل بين حدود الضيعتين ، ولكن المرأة رأت فى ذلك شركًا قد يكون صالحًا لكى يتورط فيه جارها ، فانخدعت هى نفسها فيما كانت تدخله فى روع رجالها مما يظنونه تدابير تقوم على المكر والدهاء ، ومشاريع تحكم هى حوكها لتفوت على خصومها أهدافهم بفضل ما كان يشير به عليها ذلك «الشريك» الشيطانى الذى يمدها بالقوة والعون ، لم يكن الأمر إلا نوازع تخطر لها دون أن تربط بينها روابط «خطة محكمة» ، ولكن النجاح كان يحالفها دائمًا فى كل ما تقوم به - أو هكذا كانت تعتقد - ، فيظن من حولها أن فضل ذلك إنما يعود إلى بعد غورها ونفاذ بصرها فى الأمور . والواقع أن خبث هذه المرأة كان من ذلك النوع الساذج الذى لا يعرف رسم «خطة» حقيقية بمعنى الكلمة ، ولكن مهارتها كانت تقوم على استغلال كل ضربة موفقة تسوقها إليها غريزتها الشريرة حتى يستقر فى أذهان الملتفين حولها أنها تستمد العون من قوى جبارة خارقة للعادة .

غير أن الظروف فى هذه المرة لم تهرع إلى نجدتها كما كان يحدث فى المرات السابقة ، فقد أخذ سانتوس حذره منذ أن أوجس له تابعه ورسوله أنتونيو بشكوكه وريبه حول ما لاحظه من لهجتها الناعمة الوديعة وما تستبطنه

من سـوء الطوية وخـبث السـريرة ، ثم إن الدرس الذى تلقـاه لوثاردو على يد مستر دينجر كان عظة له وعبرة ، ولهذا فإنه أقبل على التروى فى أمره ، فدرس حدود أرضه بعناية، وأخيراً أمر بإلقاء أوتاد السياج حيث كان ينبغى أن توضع ، ولـم يتسرع بدقها حيث أوحت له جارته وغـريمته أن يفعل . وكان ذلك مفاجأة سيئة لها ؛ إذ كانت تقدر أنه سيقع فى الشرك المنصوب له ، ولهذا فإنها لـم تكد ترى تصرف لوثاردو حتى بـدأ يسـاورها إحساس غامض بأن شيئًا جـديداً لا تتوقعه قد بدرت بوادره منذ هذه اللحظة .

ولكن الغـرور كـان مـا يزال يملأ قلبـهـا على الرغـم من ذلك ، ولـم يزدها فشلهـا الأخير إلا لجـاجا ونزوعا إلى العنف الصـريح ، فلـم تر بأسًا بالتـصريح بذلك حـينما أوفـد إليهـا لوثاردو بعـد ذلك بأيام رسولاً يـطالبهـا بأن تنفذ مـا وعدت به من استخراج مـاشيته السارحة فى أرضها ؛ إذ لـم تتـردد فى مواجهته بأنها ترفض ذلك رفضًا باتًا قاطعًا .

وانطلق أنتونيو إلى سيده يقول له فى تعريض :

- والآن أظنك ياسيـدى الدكتور سـترد لها جـزاء من نوع العمل . إن من حقك الآن أن تقيم السيـاج الفاصل دون أن تخرج إليها ماشـيتها التى ترعى فى أراضيك ... أليس كذلك ؟

- لا ... بل سـأستنفـد قـبل ذلك كل وسيـلة مشـروعة ، سـأقـوم بتقـديم شكوى إلى السلطة المختـصة حـتى ترغمـهـا على تنفيـذ مـا يأمر به القـانون ، وسأطلـب من إدارة الحكم المـدنى هنا أن تجمـعنى بها وبالسـيد دينجـر لنناقش الأمر ، فلعلنا نوفق إلى تسوية من الناحيتين .

- وهل تظن أن «السيد بيرناليتى» سيلقى بالاً إلى ما تقول ؟

وكـان أنتونيـو يشيـر باعتـراضه هذا إلـى الحاكم المـدنى ورئيس الحكومـة المحلية فى المنطقـة التى تخضع لها ضيـعتا سانتوس وباربـارا ، ثم واصل كلامه قائلاً :

- إن الجميع هنا يعرفون أن بيرناليتى والسيدة باربارا ليسا إلا إصبعًا واحدًا هى لحمه وعظمه وهو ظفره كما يقولون .

- على أية حـال لـنـر أولاً مـا إذا كان ممـتنعًـا عن إقـرار العـدالة والحكم بالسوية .

وفى اليـوم التالى تـوجه سـانتوس لـوثاردو إلى البلد الذى استقـرت فيـه الحكومة المحلية باعتباره عاصمة المنطقة .

* * *

خرائب فى وسط الأدغال والأعشاب ، وآثار مـبان تدل على أنها بقايا بلد كان فـيما مـضى من الزمان مـدينة عامـرة آهلة ، وبيوت ريفيـة بنيت من الطين وسعف النـخيل تناثرت فى أنحـاء المرج ، ثم مجمـوعة أخـرى من البيـوت قد تكومت حول طـريق غير مـرصوف ولا معـبد ، وفـيما بينهـا ميـدان صغيـر قد امتدت فيه حشائش متـسلقة تحت ظل عدة أشجار أرز هرمة لا يقل عمرها عن عدة مئـات من السنين . وفى جانب من جوانب الميـدان بقايا كنيسة ضـخمة لم يتم بناؤها ، وتحول ما بنى منها إلى حطام وركـام ، وكانت تبدو رغم ذلك أكبر بكثيـر مما يحتـاج إليه سكان البلد فى صـورته الراهنة ، ثم أخيـراً بضعـة بيوت قديمة متينة البناء ، إلا أن أكـثرها مهجور ، وبعضهـا لا يعرف له صاحب ، وقد بدا أحد هذه البـيوت وقد اعوج سقـفه ، وتحطمت جدرانه ، واستنـد إليه جذع شجرة ضخمـة كان قد ألقى بها إعصار شديد منذ سنوات كـثيرة ، أما أهل هذا البلد فقـد كانوا يبدون بقـية أسر انقـرضت أو هاجر معظم أفـرادها ، كان البلد

واحـدة من تلك القرى الكثـيرة التى تـغص بها أرض فنزويلا ، والتى تعـاونت الحروب والأوبئة وأمراض المـلاريا والإنكلستوما وغيرها من الكوارث على أن تحيلها إلى خرائب وأكوام من الحطام .

هكذا كان ذلك البلد عاصمة المنطقة ومقر الحكومة المدنية فى الإقليم الذى كان مسـرحًا لذلك النزاع الدامى الهائل المشتعل بين أسـرتى لوثاردو وباركيرو منذ سنوات مضت .

واخترق سـانتوس الطريق الرئيسى كله دون أن يلتقى بأحـد ، وأخيراً رأى عددًا من الرجـال واقفين فى مـشرب على أحد جـانبى الطريق. كانوا صـامتين جامدين لا يتحركون وإن كان قد بدا عليهم أنهم ينتظرون وقوع شىء من لحظة إلى أخرى ... رجال قد انتفخت بطونهم وشـحبت وجوههم الهزيلة المعروقة ، وتهدلت شواربهم ، وظهرت فى نظراتهم معالم الذبول والانكسار .

وتقدم إليهم سانتوس متسائلا :

– أيتفضل أحدكم أن يدلنى على موضع الحكومة المدنية هنا ؟

وتطلع بعضهم إلى بعض كـما لو كان ساءهم أن يخرجهم عن صـمتهم ، وأخيـرًا بدأ أحدهم فى إرشاده إلى مـا طلب ، وهو يتحدث فى صـوت خافت كسير كأنه أنات جريح ، ثم إذا برجل خارج من المشرب يقف إزاءه ويصيح :

– لوثاردو !... سانتوس لوثاردو !... ما الذى أتى بك إلى هنا يافتى ؟

وأقبل الرجل عليه فاتحًا ذراعيه ، غير أنه توقف بعد أن رأى سانتوس ينظر إليه فى دهشة كأنه لا يعرفه .

– ألا تذكرنى ؟

– بصراحة ...

فقاطعه الرجل :

- تذكر يا فتى ... حاول التذكر ... «موخيكيتا الصغير» ! ألا تذكر موخيكيتا الذى كان زميل دراسة لك فى السنة الأولى من كلية الحقوق ؟

والحقيقة أن سانتوس لم يستطع تذكره ، ولكن كان من القسوة والجفاء أن يتركه فاتحًا ذراعيه وينكر معرفته إياه ، فقال مجاريًا :

- وكيف لا ؟ الآن تذكرت !... موخيكيتا ... نعم .

وكان موخيكيتا - شأنه فى ذلك شأن الرجال المجتمعين فى المشرب - يلوح كما لو كان من جنس بشرى آخر يختلف عن ذلك الذى يقيم فى مروج السهول : رجال السهول أقوياء مرحون ، وهؤلاء ضعاف محطمون يبدو فى عيونهم الحزن والانقباض ، ويظهر فى وجوههم وأجسادهم ما تصبه الأمراض وسوء الغذاء عليهم من هزال وضعف . أما موخيكيتا فقد كان من أكثرهم إثارة للشفقة والرثاء ، كان شعره وشواربه وعيناه وبشرته تبدو كما لو نثر عليها ذلك التراب الأصفر الشاحب الذى يغطى شوارع البلد ، كان كل شىء فيه يجعله أشبه بهذه الشجرات المسكينة التى تحف جانبى الطريق ، حائلة غبراء لا يكاد أن يميز لها لون . ولم يكن ذلك راجعًا إلى قذارة جسد أو ملبس ، وإنما كان أشبه بصدأ ران على جسمه وروحه ، وذبول حط من قواه ، وشحوب كثيرًا ما يورثه الناس هناك إدمانهم على الخمر الرديئة القوية . كان الانكسار والحزن الذليل يغلبان على موخيكيتا حتى فى العبارات التى أطلقها فى فرحته وسروره بلقاء سانتوس ؛ إذ كان ينطق بها فى صوت كأنه حشرجة مريض :

- نعم ياسانتوس ! زميلك فى الدراسة ! يالها من أيام تلك التى قضيناها فى رحاب الجامعة ! أتذكر «أورتولان» و «الدكتور أربانيخا» ؟ «موخيكيتا الصغير» هكذا كنتم تدعوننى آنذاك ، وهكذا يدعونى الأصدقاء حتى الآن .

لقد كنت خير طالب فى الفصل ، وكنت أكثرنا اجتهاداً وعملاً بغير منازع . إننى لم أنسك أبدًا . أتذكر أنت حينما كنت تعيننى على استذكار دروس الفقه الروماني ونحن نذرع أروقة الجامعة ذهابًا وجيئة ؟ أتذكر تلك العبارة اللاتينية التى كنا نسمعها دائمًا فى دروس هذه المادة : «الأب هو ولى أمر العروس حتى تتزوج» ؟ إن هذه الذكريات مازالت محفورة في ذهنى كأنما كانت بالأمس . ومع ذلك فقد كانت ذاكرتى عنيدة على دروس الفقه الرومانى ، كثيراً ما كنت تغضب منى إذ تجتهد فى شرح ما استعصى عَلَىَّ منها ثم ترى جهودك فى ذلك قد ذهبت أدراج الرياح . آه ياسانتوس لوثاردو ، يالها من أيام ! إننى لأتخيلك الآن كما كنت فى ذلك الوقت وأنت تلقى علينا إحدى خطبك الثائرة الرائعة التى كانت تملك علينا ألبابنا . من كان يظن بعد مرور هذا الزمن أننى سأعود للالتقاء بك ؟ إنى أظنك قد أكملت دراستك وتخرجت الآن من الجامعة . أليس كذلك ؟ وكيف لا ؟ وقد كنت خير طالب أنجبه فصلنا . وبعد ، فما الذى جئت تبحث عنه هنا ؟

- مقر الحكومة المحلية .

- لقد تركته من ورائك . إنك لم تتنبه إليه لأن مكاتبه كانت مغلقة الأبواب ، وذلك لأننى لم أقم بفتحها اليوم بسبب غياب الجنرال عن القرية ؛ إذ إنه ذهب لتفقد بعض ضياعه . ولأذكر لك بهذه المناسبة أنك تتحدث إلى سكرتير الحكومة المحلية الماثل أمامك .

- إذن أنت تعمل فى هذه الإدارة ؟ إننى لسعيد بأننى عثرت عليك .

ثم قص عليه سانتوس الغرض من زيارته ، وبقى موخيكيتا مخلداً إلى التفكير برهة ، ثم قال :

- لقد كان من حسن حظك أنك لم تلتق بالكولونيل أولاً ؛ إذ لو أنك فعلت لكان مجهوداً ضائعًا لا طائل وراءه ، فهو صديق حميم للسيدة باربارا ،

أما عن علاقته بمستر دينجر فلعلك تعرف أن «المستر» - شأنه شأن أمثاله - يتمتع فى هذه الأرض بضمانات لا يعرفها أهلها . ولكنى سأعرف كيف أمهد لك الأمور ، وكيف لا أفعل ياسانتوس وقد كنا أصدقاء منذ سنوات طويلة ؟ سأوجه إلى السيدة باربارا وإلي مستر دينجر أستدعيهما للمثول هنا باسم «الحاكم المدنى» رئيس إدارة الحكومة المحلية ، متظاهراً بأننى كنت أجهل ما بينك وبينهما ، فإذا قدما إلى هنا أسقط فى أيديهما ولم يبق بد من أن أجمعك بهما حتى تعرض شكواك كاملة .

- معنى ذلك إذن أنه لولا التقائى بك ...

- ... لوليت عن إدارة الحكومة المحلية خاوى الوفاض صفر اليدين. آه ياسانتوس لوثاردو ؟ إنك حديث عهد بالتخرج من الجامعة ، وأنت تظن أن المطالبة بالحقوق أمر سهل كما يبدو فى الكتب التى درسناها ! ولكن لا تقلق بالك على أية حال ، فقد وصلنا إلى أهم ما فى الموضوع ، وهو استدعاء السيدة باربارا ومستر دينجر إلى هنا حتى تعرض شكواك منهما . وسأغتنم أنا فرصة غياب الكولونيل ، فأصطنع الجهل بما بينكم من نزاع ، وأستدعيهما للمثول ، وسأقوم الآن ببعث رسول خاص إليهما يحثهما على الإسراع بالقدوم فى أجل أضربه لهما . أما أنت فابق هنا متستراً ؛ إذ يحسن ألا يراك أحد حتى لا يبلغ الكولونيل أنك قدمت أولاً ، وحتى أتجنب ما يمكن أن يحمله على مساءلتى قبل أن يراك .

- إذن ينبغى علىّ أن أظل حبيس غرفة الفندق ، هذا إذا كان فى هذه القرية فندق يمكن النزول فيه .

- نعم ، هو فندق صغير متواضع قد لا يليق بك ، ولكن ... لولا أنى أخشى أن يتنبه الجنرال إلى ما يربط بيننا من علاقة لألححت عليك فى أن تنزل فى بيتى .

- شكراً لك ياموخيكيتا .

- «موخيكيتا الصغير» ... كما كنت تدعونى أيام زمالتنا فى الجامعة ، فإنه يسرنى أن أكون بالنسبة لك الآن كما كنت حينئذ . إنك لا تتصور مدى فرحتى اليوم بلقائك . يالها من أيام تلك التى قضيناها فى الجامعة ! أتذكر «ليرا» العجوز ؟ أتراه مازال حيًا بعد ؟. و «موديستو» الذى كان لا يكف أبدًا عن الصلاة ؟ ما كان أطيبه نفسًا وأكرمه أخلاقًا !... أليس كذلك ؟

- حقيقة كان فتى طيبًا كريم الخلق ... والآن اسمع ياموخيكيتا : إننى أشكرك على مدى إهتمامك بأمرى ونهوضك إلى معونتى ، غير أنى أود أن أقول لك إن الذى أتيت أطالب به أمر مشروع لا غبار عليه . فلماذا أضطر إلى التستر والتكتم ؟ إن هذا «الحاكم المدنى» الذى لا أعرف ما إذا كان برتبة جنرال أو كولونيل - فأنت تطلق عليه هذا مرة وذاك مرة أخرى - ينبغى أن يستجيب لطلبى ...

ولكن موخيكيتا قاطعه قبل أن يتم عبارته :

- انظر ياسانتوس : دعنى أشر عليك بما يجب أن تفعل ، واتبع ما أدلى به إليك من نصيحة . إنك قادم هنا بما تعرفه حق المعرفة من نظريات فى القانون أتقنت درسها فى الجامعة ، ولكنى أدرى منك بالواقع المحسوس الذى نعيش فيه . فلا تخالفنى والزم الفندق . تظاهر بالمرض مثلاً ولا تخرج إلى عرض الطريق حتى أبعث أنا إليك رسولاً ...

* * *

كان أشبه ما يكون بأمثاله ممن يتولون مثل منصبه ، تمامًا كما أن الثور الأسود أشبه شىء بثور أسود من جنسه ؛ إذ لم تكن مزاياه وخلاله تزيد ولا تنقص عما كان يستلزمه الاضطلاع بوظيفة «حاكم مدنى» لبلد مثل هذا من

بلدان فنزويلا : جهل مطبق ، ونزوع إلى التسلط والطغيان ، ثم رتبة عسكرية نالها فى بعض ما كان يجتاح البلاد من فتن وحروب . أما رتبة «السيد بيرناليتى» التى بلغها فى شبابه فقد كانت بدرجة «كولونيل» ، ولكن مرء وسيه وأصدقاءه كانوا كثيراً ما يضفون عليه درجة «جنرال» تطوعًا منهم ، على أن بقية السكان فى هذه المنطقة كانوا يكتفون بتسميته «سى بيرناليتى» .

وكان بيرناليتى جالسًا على مكتبه وأمامه موخيكيتا يعرض عليه بعض شئون العمل ، وقد علق على الحائط من فوق رأسه سيف مغمد فى قرابه ، غير أن مقبضه الذى تآكل نيكله يدل على أنه لم يكن مجرد حلية ، بل كان كثير الاستعمال ، وبينما هما فيما كانا يتحدثان فيه إذ بهما يسمعان فى الطريق وقع حوافر جياد تقترب .

وشحب وجه موخيكيتا فجأة على الرغم من أنه كان قد اتخذ أهبته وأعد كلامه لهذه اللحظة ، إذ صاح وهو يتظاهر بأنه تذكر أمراً كان قد نسيه :

- آه !... لقد فاتنى أن أقول لك ياسيدى الجنرال ...

ثم ألقى إليه الخبر مبرراً تسرعه فى الإجراء الذى اتخذه من استدعاء جارى سانتوس للمثول فى إدارة الحكومة المحلية بأنه خشى أن يقوم لوثاردو بالاقتصاص لنفسه منهما بيده إذا لم يجد من السلطات استعداداً للتحقيق فى شكواه ، فقد كان لوثاردو أولاً وأخيراً من تلك الأسرة التى عرفت بالعنف والتهور . وختم موخيكيتا كلامه بقوله :

- ثم إنك ياسيدى كنت قد ذهبت إلى ضيعتك فى «لاس مابوراس» دون أن تخبرنى عن مدى الوقت الذى كنت ستضطر إلى تغيبه عن مكتبك ، ولهذا فقد رأيت من الخير أن أتصرف على عجل تجنبًا لإضاعة الوقت .

وتركه بيرناليتي يلقي إليه بالحديث كله ، حتى إذا انتهى رمقه بنظرة فاحصة استعرضه بها من رأسه إلى قدميه ، ثم قال :

- لقد كنت أعرف أنك قد أعددت لي خبيئًا ياموخيكيتا ؛ إذ إنك منذ الأمس وأنت أشبه بكلب قد أحاط به الذباب اللاسع ، وإني أرى أنك إذا لم تكن قد ذهبت لتطل من الباب في ترقب وقلق مائة مرة منذ قدمت هذا الصباح فربما كان ذلك لأنك ذهبت أكثر من هذا العدد . إذن أنت رأيت من الخير أن تتصرف على عجل ! انظر ياموخيكيتا : أتظن أنني لا أعرف أن ذلك الصبي الذي يدعونه «الدكتور» والمقيم الآن في الفندق إنما هو صديق لك ؟

ولم يكمل السيد بيرناليتي حديثه ؛ إذ كانت السيدة باربارا ومستر دينجر قد بلغا باب مكتبه ، فآثر أن يترك تعنيفه لسكرتيره إلى فرصة أخرى ، إذ لم يكن من مصلحته أن يعرف القادمان أن هناك شيئًا يمكن لأحد القيام به في مكتبه دون إذنه . وتوجه بيرناليتي بسرعة إلى باب الغرفة لكي يستقبل الزائرين بعد أن رأى أنه لم يكن هناك مفر من أن يقبل على مضض ذلك الدور الذي أرغمه موخيكيتا على النهوض به ، وإن كان عازمًا على أن يوقع شديد عقابه على كاتبه فيما بعد جزاءً وفاقًا على ما فعل .

- تفضلي ياسيدتي... يالله! ألا يمكننا أن نتشرف برؤيتك هنا إلا بهذه الوسيلة ؟ تفضلي بالجلوس ... لا ، في هذا المقعد الآخر ، فهو أكثر إراحة . وأنت ياموخيكيتا، خذ قبعتك من ذلك الكرسي حتى يجلس مستر دينجر . لقد نبهتك ألف مرة إلى أنه يجب عليك أن تكف عن وضع قبعتك على كراسي المكتب !

وأسرع موخيكيتا ليصدع بأمر رئيسه : كان ذلك أول «قسط» من الثمن الذي كان عليه أن يدفعه لقاء ما ارتكب من ذنب، فقد كان عليه دائمًا أن يتلقى سيلاً من الإهانات الجارحة كلما حاول أن يتدخل لمساعدة مظلوم أو إنصاف

مطالب بحق ، كان ذلك هو العقوبة المنتظرة على جرأته وتدخله فيما لا يعنيه : عقوبة من التأنيب الوقح بمحضر من الناس ، وكان الكولونيل يتعمد أن يرفع صوته بتلك الإهانات لموخيكيتا أمام ضيوفه حتى يخمد فيه كل نخوة تثيرها كرامته الإنسانية . لقد أصبح فى أذنى المسكين منها وقر ثقيل مؤلم ، ولكن الناس مع ذلك لم يكونوا ينصفون موخيكيتا ولا يقدرون مدى التضحيات التي يقوم بها فى سبيل الدفاع عن حقوقهم المهضومة على حساب كرامته ورجولته . وما أكثر ما كانت امرأته تقول له : حتى متى ستظل هكذا مصطنعًا دور البطل المنقذ ؟ وذلك حينما تراه عائداً إلى داره بعد تلقى مثل تلك الإهانات وقد انقبضت نفسه وملأ قلبه الحزن والقنوط والدموع تكاد تطفر من عينيه ، ولكنه كان يجيبها إجابة واحدة لا تتغير : وماذا أفعل ؟ لست أصطنع بطولة ولا جرأة ، ولكن من الذى يحتمل هذا الرجل الطاغية ؟

وظل موخيكيتا يتعثر فى خطواته وقد استبد به الخزى والخجل وهو لا يعرف ماذا يفعل بقبعته بين يديه .

وبدأ مستر دينجر الحديث قائلاً :

- والآن ... ها نحن أولاء قد أتينا لنكون رهن أمرك .

أما السيدة باربارا فإنها لم تخف ضيقها وامتعاضها لاضطرارها إلى القدوم على هذه الصورة ، فأضافت :

- لقد استحثثتنا على الحضور حتى كادت خيلنا تنفق بسبب إجهادها فى السير، وذلك حتى نأتى فى الأجل المضروب .

ورمق بيرناليتى كاتبه بنظرة شزراء يكاد يتطاير منها الشرر ، ثم قال موجها الخطاب إليه :

- والان اذهب فاستدع الدكتور لوثاردو ، وقل له أن يسرع بالمجىء فإن السادة لا يستطيعون الانتظار طويلاً .

وخرج موخيكيتا من المكتب وهو يقول لنفسه وقد دبت فيها الهواجس السوداء :

- هكذا أنا دائمًا ... لست أظن إلا أني سأفقد وظيفتي من جراء هذه الفعلة . والله لقد كانت امرأتي على حق إذ تقول لي : ما لك واصطناع دور البطل المنقذ ؟!

* * *

وعاد موخيكيتا ومعه لوثاردو بعد ذلك بلحظات . وكانت السيدة باربارا قد زال عنها شعور الضيق والغضب المكتوم ، واسترد وجهها تعبيره الطبيعي الخالي من كل تعبير ، إلا مسحة خفية من الاغتباط المفعم بالخبث والشر تدل على أنها قد تفاهمت خلال تلك اللحظات مع السيد بيرناليتي على كل شيء . ولكنها لم تكد ترى لوثاردو داخلاً من الباب حتى شعرت باضطراب وقلق يداخلان نفسها كأنما قد هجس في خاطرها إحساس غامض يتنبأ لها بمأساة الختام .

أما بيرناليتي فقد بدأ الحديث دون أن يولي لوثاردو شرف رد التحية التي ألقى بها هذا وهو داخل إلى الغرفة :

- والآن لندخل في الموضوع بصفة مباشرة . هاهما السيدان قد حضرا لكي ينصتا إلى الشكوى التي قدمتها ضدهما .

ووقف سانتوس لوثاردو لحظة دون أن يدعوه أحد إلى الجلوس، فقد كان بيرناليتي أبعد ما يكون عن معاملته بما تقضي به فروض التلطف والأدب ، أما موخيكيتا فقد كان في شغل بمصيره عن مجاملات قد تتسبب له في مزيد من المتاعب ، فلم ير لوثاردو بُدًا من أن يجلس بغير استئذان على مقعد كان خاليًا وقال :

- نعم ، أود أن أبدأ بعرض شكواى أولاً من السيد دينجر ، ولتعذرنى السيدة على أن أؤخر حديثى عنها ...

ولم تفت لوثاردو تلك الغمزة السريعة التى تبادلها الأمريكى والحاكم المدنى ، وفهم من ذلك أن الاتفاق قد تم بينهما من قبل على ما سيفعلان ، إلا أنه توقف قليلاً حتى يدع لهما فرصة الاستمتاع بتفاؤلهما الماكر ، ثم واصل حديثه :

- أما السيد دينجر فإن فى حظائره ماشية قد وسمت بسمته هو ، ولكنها فى الحقيقة من مواشى ضيعتى ، وبوسعى أن أقدم الدليل على ذلك .

فتدخل الأجنبى فى الحديث، وقد باغته أن يثير سانتوس موضوعًا لم يكن يتوقعه، فتساءل :

- وما الذى يعنيه هذا ؟

- هو لا يعنى شيئًا أكثر من أنك استوليت على مال ليس من حقك .

- سبحان الله ! إن ما تقوله يدل على أنك حديث عهد بكل ما يتعلق بالسهول وبالحياة فيها ، وأن علمك بذلك مازال غريرًا قاصرًا . ألا تعلم ياسيدى الدكتور أن الدليل الوحيد على ملك رأس من الماشية هو السمة التى تكوى بالحديد على جسدها ، وأن كل ما عدا ذلك لا عبرة به طالما كان وسم الماشية جاريًا على التقليد المتبع ؟

- إذن معنى ذلك أنه يحق لك الاستيلاء على الأبقار الطليقة ووسمها بميسمك حتى ولو كنت تعرف أنها من مال الآخرين ؟

- ولم لا ؟ إننى ما أزال أصيد من تلك الثيران ما يعن لى حتى يكل ذراعاى . ولو أنك أوليت ضيعتك نصيبًا من الاهتمام من قبل لفعلت مثل فعلى وأكثر . ألست على حق فيما أقول ياسيدى الكولونيل ؟

وفتح الكولونيل فاه لكى يؤمن على كلام مستر دينجر ، ولكن لوثاردو سبقه بالكلام قائلا :

- هذا يكفينى ؛ فإن الذى يهمنى أن أصل إليه هو اعترافك بأنك تصيد الثيران الوحشية الطليقة فى «الباركيرينيا» .

فصاح الأمريكى فى دهشة :

- عجبًا ! ولكن أليست «الباركيرينيا» ملكًا لى ؟ إننى أحمل هنا على صدرى الوثائق التى تثبت ملكيتى لهذه الضيعة . فهل تريد أن تحرم علىَّ حقًا أمارسه فى ملكى بينما تحلله لنفسك ؟

- لست أكتمك أن شيئًا من هذا هو ما أسعى إليه بالفعل . والآن ياسيدى الكولونيل ، هل تتفضل بمطالبة السيد دينجر بأن يريك تلك الوثائق التى تثبت ملكيته للضيعة .

ولم يتمالك السيد بيرناليتى نفسه فصاح فى غضب صياح من نفد صبره :

- ولكن هل تسمح لى يادكتور لوثاردو بأن تفهمنى ما الذى تسعى أنت إليه من هذا الجدل ؟

- الذى أسعى إليه هو أن أثبت أن السيد دينجر خارج على القانون ؛ إذ إن وثائق ملكيته «للباركيرينيا» - وهو ما لا أطعن فيه - تدل على أن مساحة أرضه أقل من الحد الأدنى الذى قرره «قانون السهول» لمن لهم الحق فى صيد الثيران الوحشية الطليقة .

فأطلق دينجر صيحة ضيق وتذمر ، بينما امتقع وجهه من الغضب دون أن يجد جوابًا على ما قاله لوثاردو ؛ إذ كان كل ما ذكره صحيحًا لا سبيل إلى الاعتراض عليه .

ولم يدع هذا لغريمه فرصة تمالك نفسه بعد هذه الضربة المباغتة ، فأنهى كلامه له قائلاً :

- أترى الآن أننى أعرف حقوقى وأننى على استعداد للدفاع عنها ؟ لقد كنت تظن أننى آت لكى أدافع عن حقى فى إحاطة مرج «الكوروثاليتو» بسياج ، فها أنت ذا الآن ترى أنك أنت الملزم بإقامة ذلك السياج ؛ إذ ليس من حقك بحكم القانون أن تصيد الثيران الطليقة ، والقانون يلزم من هم فى مثل وضعك بأن يحيطوا أملاكهم بسياج فاصل .

ولم يحر مستر دينجر جوابًا على ذلك ، ولكن بيرناليتى كان قد ضاق ذرعه ، فصاح فى هياج وهو يهوى على منضدة المكتب الذى كان جالسًا إليه بقبضة يده :

- ولكن لنعرف أولاً : أى دور أقوم أنا به هنا يادكتور لوثاردو ؟ إنك تتحدث بلهجة تبدو معها وكأنك أنت ممثل السلطة والناطق بلسان القانون !

فأجابه سانتوس فى هدوء :

- لا ياسيدى الكولونيل ... على الإطلاق ، بل هى لهجة من يطالب أمام ممثل السلطة باحترام القوانين والخضوع لها . والآن بعد أن عرضت موضوع السيد دينجر فإنى منتقل منه إلى شكواى من السيدة .

وكانت السيدة باربارا فى أثناء هذا النقاش قد التزمت الصمت وامتنعت عن التدخل ، ولكنها كانت تراقب الجدل فى اهتمام متزايد ، والواقع أن لوثاردو كان قد بث فى نفسها - على الرغم منها - شعوراً من الهيبة والاحترام منذ أن وقع عليه نظرها وهو داخل إلى مكتب الكولونيل بيرناليتى ، ثم تحولت هذه الهيبة إلى ضرب من الإعجاب بالرجل وهى تتابع ما أبداه من براعة فى استدراجه للأمريكى حتى اضطره إلى الاعتراف بما أصبح بعد ذلك حجة

شاهدة عليه مـدينة له ، أعجب ذلك السيدة باربارا ؛ لأنها رأت فيـها مظهراً من مظاهر المكر والدهاء ، والمكـر والدهاء كانا أكـثر مـا يمكن أن يثـير فى نفـسهـا شعوراً مـن الإعجاب بمن يتصف بهـما ، ثم إنها كانت تشـعر فى قرارة نفـسها بكراهيـة عميقة لذلك الأمـريكى المتكبر الذى كـان ينظر إلى جميـع من حوله نظرة احتـقار واستـخفاف ؛ إذ كانوا بالنسـبة له طبقـة أدنى من طبقات البـشر ، ولهذا فقد سـرها أن يقيض لهذا الرجل من يقهره ويذله ، ولا سـيما أنه الرجل الوحيد الذى كـان بوسعه أن يفتخـر بأنه لم يستسلم لسلطانهـا ولم يتحول إلى مطيـة من مطاياها ، وأخيـرًا كان مـستر دينـجر أجنبيًـا على أية حـال ، وكانت باربارا تحمل فى أعماق نفسها أشد البغض للأجانب .

غـير أن كلـمات سـانتـوس الأخيـرة أطارت من وجـهـها ذلـك الشعـور بالارتياح والشمـاتة، وأعادتها إلى عالم الواقع ؛ حيث لم يـكن لوثاردو بالنسبة إليهـا إلا ذلك الغريم اللدود ، والخصم الذى أعلنـت عليه حربًا لا لين فـيهـا ولا هوادة .

ومضى سانتوس فى كلامه قائلاً :

- أما السيـدة فإنها تنكر علىَّ حقى فى أن أسـتخرج ماشيـتى السارحة فى أرضهـا على أن تفعل هى مثل ذلك بماشـيتهـا التى ترعى فى أرضى ، وهو أمر رغبـت إليهـا فى أن تسمح لى به ، ثم إن «قـانون السهـول» ينص على إلزامـها بذلك .

فأجابت السيدة باربارا :

- إنى معترفة بأن ما يقوله الدكتور حق وصدق .

وصاح الحاكم المـدنى معلقًا :

- لا أظن أن ديكًا يصيح بمثل هذه الفصاحة والإبانة !

فأجاب لوثاردو :

– ولكن القانون أيضًا فصيح مبين لاخفاء به ، وأنا أطالب السيدة بأن تخضع لما ينص عليه القانون .

– وإنى له لخاضعة منقادة ... ياسيدى .

وابتسم بيرناليتى لعبارة باربارا التى لم تكن إلا جزءًا من المسرحية التى اتفق معها على تمثيلها ، فتوجه بالخطاب إلى موخيكيتا الذى كان جالسًا إلى المائدة فى صمت يسجل كل ما يدور فى المجلس فى أحد الدفاتر الموضوعة أمامه ، وكان متظاهرًا بالانصراف إلى عمله والاستغراق فيه .

– موخيكيتا ... لنر ماذا يقول فى ذلك «قانون السهول» الذى يجرى العمل به ؟

وأسرع السكرتير بتنفيذ الأمر ، وهرع إليه بالقانون ، فانتزعه رئيسه من يديه فى عنف وغلظة ، ثم أقبل يقلب صفحاته وهو يبل أنامله بلعابه حتى صاح أخيرًا وهو يضع سبابته على إحدى مواد القانون :

– ها هى ذى !... لنر ماذا يقول فى ذلك القانون المبجل ! نعم ياسيدتى ... إن الدكتور على حق فيما يقول : إن القانون فصيح مبين لاخفاء به ، فأنصتى إلى ما هو وارد فيه : «كل صاحب ضيعة أو إقطاع ملزم بأن ...» .

فقاطعته السيدة باربارا :

– نعم ياسيدى ، لا حاجة بك إلى قراءة هذه المادة ، فأنا أحفظها عن ظهر قلب .

فعاد بيرناليتى يتساءل وهو مستمر فى تمثيل دور المحقق النزيه :

– إذن ؟...

- إذن ماذا ؟

- يجب عليك الانقياد لما يقوله القانون.

- وأنا منقادة خاضعة له كما سبق أن قلت . إننى أرفض ما يطلبه الدكتور لوثاردو فى غير مواربة ، وأنا مصرة على ذلك ، فلتوقع علىّ العقوبة التى ينص عليها القانون .

فاصطنع بيرناليتى الدهشة وهو يقول :

- العقوبة ؟! لنر إذن ماذا يقول فى ذلك القانون المبجل .

فقاطعه سانتوس وهو يهب واقفًا :

- لا تزعج نفسك بالبحث ياسيدى الكولونيل ، فإنك لن تجد فى هذا القانون ذكرًا لأية عقوبة ، لن تجد فيه نصًا على سجن أو غرامة ، وهما الإجراء الجزائى الوحيد الذى يمكن أن توقعه السلطة المدنية التى تمثلها أنت .

- إذن ما دام الأمر كذلك فإنى أسألك : ما الذى تطالبنى بفعله إذا كان القانون لا يخولنى ذلك الحق ؟

- لست أطالبك بفعل شىء . لقد كنت فى أول الأمر أنوى المطالبة . المطالبة بأن تفهم السيدة أن القانون وإن لم يفرض عقوبة محددة من سجن أو غرامة فإنه يلزم الناس بمجرد اعتباره قانونًا . فإذا كانت السيدة تنكر علىّ حقى المشروع الذى ينص عليه ذلك القانون ، وإذا كانت ترفض الاستجابة لما أطلب فإنى سأمنحها مهلة ثمانية أيام ، فإذا انقضى الأجل دون أن أرى منها قبولاً فإنى سأرفع الأمر للقضاء . وسأفعل ذلك أيضًا بالنسبة للسيد دينجر ، وأنا أحمل كليهما تبعة تصرفهما . ولست أرى بعد ذلك مبررًا للاسترسال فى النقاش .

قال سانتوس هذا ، وانصرف لا يلوى عن شىء .

وأعقبت ذلك لحظات سادها صمت عميق ، وخاطب موخيكيتا خلالها نفسه قائلاً :

- آه ... سانتوس لوثاردو ... هو هو لم يتغير فى شىء !

أما الكولونيل بيرناليتى فقد انفجر أخيرًا :

- ما كنت لأترك هذا الأمر ينتهى على تلك الصورة ! على أحد أن يدفع ثمن هذه الغطرسة الوقحة التي أتانا بها هذا الفتى ... عجبًا والله ! عشنا ورأينا !.. صبى مغرور يجئ ليلقى علىّ أنا درسًا فى القوانين !

نعم ... ولا سيما فى القوانين التى ليس لها من صفات الإلزام إلا كونها قوانين ، دون حاجة إلى استخدام منطق القوة الغاشمة ، وهو المنطق الوحيد الذى كان يفهمه السيد بيرناليتى ويحترمه ، ولهذا فقد غاظه أن لوثاردو واجهه بتلك العبارات مستنداً إلى نص القانون فى الاعتراض على سلطته ، على تلك السلطة كما اعتاد على فهمها وتأويلها هو وأمثاله من الحكام الطغاة المستبدين الذين لا يحكمون إلا بالبطش والإرهاب . ومن ثم فقد كان «على أحد أن يدفع الثمن» ، ثم تلك الإهانة التى أصابت كبرياءه على رءوس الأشهاد !

أما موخيكيتا المسكين فقد كانت البقية الباقية من دماء وجهه قد هربت وعلاه شحوب كشحوب الموت ؛ إذ رأى أن هذه الكلمات إنما هى موجهة إليه هو أولاً قبل كل الحاضرين . ولم يتحقق السيد بيرناليتى من الأثر الذى تركته كلماته فى نفس مرءوسه حتى استدار إلى السيدة باربارا ، فقد كان يحس بأنها تحمل تبعة ما عرضته له ، ثم إنه كان يضيق بها فى قرارة نفسه ؛ إذ كان يمضه أن تعامله معاملة الند للند ، وأن يضطر هو إلى مجاملتها والانصياع إلى مطالبها ، وهو ما كان يرى فيه حداً من تلك السلطة المطلقة التى كانت نفسه تنزع إليها

بطبيعتها المستبدة الطغيانية ؛ ولهذا فإنه لم يلبث أن أضاف وقد غير قليلاً من لهجته :

– والآن أود أن أقول لك شيئًا يا سيدتى ، ولك أنت أيضًا يا مستر دينجر : إن الذى قاله هذا الفتى هو الحقيقة المحضة ، القانون ينبغى تنفيذه وله صفة الإلزام لمجرد كونه قانونًا ، أى أمرًا تصدره الدولة بأن نصنع هذا أو نمتنع عن ذاك . ولو لم يعن ذلك لما كان قانونًا . ويبدو لى أن هذا الصبى المحامى يعرف من أين تؤتى البيوت . ومن أجل هذا فإنى أنصحكما بأن تتفاهما معه . أما أنت يامستر دينجر فلتلق سياجًا حول أرضك ؛ إذ إنك – والحق يقال – مخالف للقانون . فافعل وإن لم يكن ذلك إلا ذرًا للرماد فى العيون ، وانقيادًا لشكلية القانون . وأنت تعرف ما أعنى ؛ إذ إن أى سياج خشبى يمكن أن تقع اليوم منه خشبة ، ثم تقع أخرى فى غد ، وهكذا ... أما الماشية المتوجهة من أرض ألتاميرا إلى القناة الملحة فإنها لا تحتاج إلى ثغرات كبيرة لكى تمر إلى أرضك ، فتفعل بها ما كنت تفعل حتى اليوم . ومن الذى سيلاحظ هذا ؟ فإذا احتج الجار عليك أقمت أعمدة السياج من جديد ، فتظل يومين أو ثلاثة ، ثم تعود أخشابه وحدها إلى السقوط واحدة بعد واحدة ؛ إذ إن أرضك من تربة ضعيفة هشة ! أليس كذلك ؟

– أوه ! هشة جدًا ياسيدى الكولونيل . لقد أصبت عين الحقيقة !

قال دينجر ذلك وهو يهوى بكفيه الكبيرتين على كتفى الحاكم المدنى بما كانت تقتضيه دالته عليه وارتفاع الكلفة بينه وبينه ، وهو يطلق قهقهته العالية ، ثم أضاف :

– يا لهذا الكولونيل من رجل بعيد الغور متفتق الذهن عن أبرع الحيل ! إنه أكثر لفًا ودورانًا من قرنى ثور !... ولذلك فقد أعددت له هناك بقرتين حلوبين من خير البقر ، وسأرسلهما إليه فى يوم من الأيام القادمة .

- هدية مقبولة تشكر عليها يامستر دينجر !

- آه ... يا أيها الكولونيل ... يـــارب الكفـايات الذى لم ير له مثيـــل . ألا تريد الآن أن تحتسى معى بضع كئوس ؟!

- لا مانع ، ولكن بعد لحظات . سأمر عليك بعد قليل فى فندقك ؛ فأنا أعتقد أنك لا تنوى السفر الآن .

- حسنًا . لقد اتفقنا ، سأنتظرك هناك إذن . وأنت يا موخيكيتـــا ، ألا تود مرافقتى ؟

- شكرًا لك يا مستر دينجر ، ولكنى لا أستطيع .

- أوه ! هذا شيء غريب حقًا ! موخيكيتا زاهد اليوم فى الشراب ! إلى اللقاء إذن بعد قليل . إلى اللقاء ياسيدتى باربارا ... بعد أقـــل من القليل كما اعتدتم هنا أن تقولوا ...

ثم أضاف وهو يطلق ضحكاته المدوية :

- إن السيدة باربارا قد غلب عليها الوجوم والتفكير العميق اليوم !

وكان هذا حقًا ، فقد بقيت مقطبة الأسارير ، مخلدة إلى تفكير ساهم مهموم ، ويدها مبسوطة على «قانون السهول» الذى كان السيد بيرناليتى قد رجع إليه ، وهو يمثل دوره فى تلك المهزلة التى حبك معها خيوطها فى سخريتها من مطالب لوثاردو ... «قانون السهول» أو «قانون السيدة باربارا» كما كانوا يسمونه هناك ؛ إذ إنه لم يكن إلا ثمرة الأموال التى أنفقتها هى لرشوة واضعيه حتى يجئ «مفصلاً» يتلاءم مع هواها ورغباتها . كانت المرأة وهى تنظر إلى نسخة القانون تجتر غيظها الذى ولدته فى نفسها كلمات سانتوس لوثاردو .

لقد سمعت الآن أول تهديد جرؤ لسان على أن يقذف به فى وجهها ، وكان أشد ما فى الأمر عليها أن ذلك القانون الذى وضع من أجلها والذى دفعت ثمنه بمالها هو الذى استند إليه غريمها فى مطالبتها بما صممت على رفضه . وامتدت أصابعها بغير وعى ، فانتزعت الورقة التى كتبت فيها تلك المادة الملزمة لها وعصرتها فى يدها فى حنق وهى تتمتم قائلة :

- أترى لهذه الورقة ... لهذه القصاصة التى أستطيع أن أطويها فى يدى وأن أمزقها إربًا ... أترى لها من القسوة ما يكرهنى على أن أفعل ما لا أريد أن أفعل ؟!...

ولكن هذه الكلمات لم تكن تعبر عن ذلك الغيظ الهائل الذى ملك عليها نفسها فحسب ، بل كانت نذيراً وإرهاصًا بشىء آخر ، بحادث فريد فذ : هو شعور جديد لم تعرفه باربارا من قبل ... شعور بالاحترام نحو رجل تراه لأول مرة !...

الفصل الثانى

الاستئناس

كان كارمليتو قد أمضى الأيام الأخيرة وهو ينصب أشراكه مترصداً فرصة يتمكن فيها من صيد «كتيرا» أجمل أفراس «ذى القوائم السود» .

أما «ذو القوائم السود» فلم يكن فى ألتاميرا حصان وحشى أكثر منه شهوة إلى الإناث ، وبذلك طارت شهرته فى الضيعة ، وأطلق عليه ذلك اللقب المميز . وكان لا يكاد يرى فرساً جميلة فى حظيرة أى حصان آخر إلا حاول السطو عليها وانتزاعها منه ، ولم يكن من اليسير على خيول النتاج الأخرى الحيلولة بينه وبين ذلك ، إذ كان له فى سطوات أنيابه ومن رفسات قوائمه القوية ما يسمح له بالتفوق على كل من يتصدى لطريقه . أما رجال الضيعة فإنهم جميعاً فشلوا فى اقتناصه على الرغم من الجهود الكثيرة التى بذلوها من أجل ذلك ، وطالما تعقبوه أميالاً كثيرة ليلقوا عليه أناشيطهم ونصبوا له أشراكاً أقاموها على هيئة حظائر أتقنوا مواراتها وتزييفها ونصبوها بين الأعشاب الطويلة فى سفح الجبل ، ولكن «ذا القوائم السود» كان أكثر منهم مكراً وأشد كيداً ؛ إذ لم يكن يحس بأن تلك الحظائر ليست إلا فخاخاً أعدوها له حتى يولى عنها هارباً إلى المروج الطليقة قبل أن يمدوا إليه يداً .

وأما «كتيرا» فقد كانت بيضاء رشيقة كأنها يمامة . ولم يكن هناك أجمل منها فى الأفراس الإناث اللاتى كن فى ظل «ذى القوائم السود» وتحت حمايته . وكانت ابنة له درجت فى كنفه حتى بلغت من العمر سناً لم يعد لها بعدها مكان بين «حريمه» . وأخيراً أرخى لها أذنيه وكشر عن أنيابه وكأنه ينذرها بأنها

منذ تلك اللحظة قد أصبحت طليقة حرة تتوجه حيث تشاء بعيداً عنه . وتركها وسط المرج وحيدة تنظر إلى أبيها وهو يبتعد عنها وحوله أفراسه . وقفت «كتيرا» تلقى نظرة على تلك الأسرة التى كانت حتى تلك اللحظة عضواً من أعضائها ، وقد ارتعدت أشفارها الموردة ، وانتصبت قوائمها الدقيقة ، وارتسمت على عينيها الصافيتين مسحة من الحزن .

ومضت «كتيرا» فى بطء وملل وحيدة تضرب فى أنحاء المرج ، ولمح كارمليتو سوادها من بعيد وهو يترصدها بينما كانت تتبع بنظرها عاصفة الغبار التى أثارتها فى الأفق حركة أسرتها السابقة وهى تمضى عنها بعيداً .

وفى صباح اليوم التالى بكر كارمليتو ، فكمن لها بين دغل كثيف من شجر «الميريكورى»(*) يطل على القناة التى اعتادت قطعان الخيول الوحشية الشرب منها ، وقد أعد أنشوطته ، ولكن الفرس كانت من المكر والحذر بحيث كان أبوها ، فلم تمكنه من فرصة لاصطيادها ، وظل كارمليتو يكمن لها كل صباح متربصًا منها غرة طوال أسبوع كامل .

وأخيراً وقعت فى الشرك الذى نصبه لها كارمليتو ، فتمكن من إلقاء حبل أنشوطته عليها ، وأتى بها إلى الضيعة وهو يربت على ظهرها ويعزيها عن فقد حريتها بكلمات ودودة ملاطفة .

وأطلت عليه ماريسيلا وهو يقود الفرس الجميلة وقد تعثرت قوائمها فى الحبال :

- يا لها من دابة رائعة الجمال . ليت لى مثلها !

فعرض سانتوس على كارمليتو أن يشتريها منه ، ولكن هذا أجابه فى جفاف :

- لا ياسيدى الدكتور . ليست هذه الفرس للبيع .

وتقاليد السهول تجرى على أن الذى يصيد حيوانًا وحشيًا فهو ملك له لا لصاحب الضيعة ، وأن هذا إذا أراد أن يظفر به من صائده فلابد له من شرائه منه بثمن لا يعدل فى الحقيقة إلا أجرة صيده واستئناسه . ولكن الصائد من حقه أن يمتنع عن البيع إذا شاء ، على أن يخصص ذلك الحيوان لاستعماله هو ، فلا يبيعه لأحد آخر ، كان هذا هو العرف الجارى فى السهول ، ولا غرو فإنه لم يكن إلا تحقيقًا لذلك المثل الشائع بين الناس هناك ، والذى يقول : «إن الملك المتحرك ليس إلا ملكًا مشاعًا لا يختص به أحد» .

وأما ترويض «كتيرا» واستئناسها فقد كلف كارمليتو كثيراً من العناء والجهد ، فقد كانت نفوراً جموحًا تستعصى على المروضين ، ولا تكاد تشعر باعتلاء إنسان على ظهرها حتى تقوس عنقها وتتوثب فى عنف وقوة حتى تقذف به على الأرض ، ولكن كارمليتو كان من أمهر المروضين ، وقد طارت شهرته فى هذه البقاع بأنه لا يجتهد فى استئناس دابة متوحشة إلا أصبحت ذلولاً طيعة كأنما تحول ظهرها إلى ثوب من الحرير .

وكان لوثاردو كثيراً ما يسأل كارمليتو إذا التقى به :

- كيف ترويضك لـ «كتيرا» ؟

فكان هذا يجيبه :

- على ما أرجو ياسيدى الدكتور ، فقد أصبحت تنقاد الآن للراكب قليلاً قليلاً . وأنت ، كيف يمضى العمل الذى تضطلع به ؟

وكان كارمليتو يشير بذلك إلى عمل «استئناس» آخر أخذه سانتوس على عاتقه نحو ماريسيلا ، فقد كان يجتهد - منذ آواها فى داره - فى تعليمها وتهذيبها .

وقد كانت ماريسيلا تشبه فرس كارمليتو ؛ إذ كانت أيضًا جموحة عصية على التعليم ، لا لقلة فى إدراكها ولا لنقص فى ذكائها ، ولكن لأنها كثيراً ما كانت تنفر من الدروس ويتولاها حنين إلى حياتها الوحشية الماضية ، فتقول لأستاذها فى تمتمة متذمرة ضجرة :

- كفى ، فقد تعبت . دعنى أذهب إلى سفح الجبل الذى أتيت منه .

فكان يجيبها فى مداعبة :

- اذهبى إذا شئت . ولكنى سأطاردك فى كل مكان مصلحًا لك ما تخطئين فيه من الحديث ، فأقول لك : لا يقال «كذا» ، وإنما صوابه «كذا» .

وكان يشير بذلك إلى تلك الكلمات التى كان يسبق بها لسان ماريسيلا ، والتى كانت تعتبر سوقية جافية فى عرف البيئات المهذبة الرقيقة .

فتعتذر هى عن ذلك قائلة :

- إنها كلمات جرى التعود بها على لسانى دون أن أشعر .

ثم تغير مجرى الحديث فتقدم له إناء من فخار وتقول :

- انظر إلى هذا الذى عثرت عليه فى ركن من أركان الدار . ألا يعجبك أن أضع فيه زهوراً تزين المائدة ؟

ويقول هو لها :

- لست أكتمك أنه إناء ليس من جمال الصورة بحيث يصلح إصيصًا للزهور .

فتجيب فى ضجر :

- أترى ؟ لقد كنت أعرف أنك لن تعدم نقدًا توجهه إلى ما أفعل ؟

- لا تتسرعى يا طفلتى فإنك لم تتركينى أكمل عبارتى ، فالإصيص إذا لم يكن جميلاً فهذا ليس من ذنبك ، غير أنه مما يعجبنى فيك أنك فكرت فى تزيين المائدة بالزهور ، فالفضل فى هذا لك أنت .

- ألا ترى إذن أننى لست من الجلافة وغلظة الطبع بحيث تظن ؟ ولتذكر أن هذا شىء لم تقم أنت بتعليمى إياه .

- ومن قال إنك جلفة غليظة الطبع ؟ إننى كثيراً ما كنت أقول إنك فتاة ذكية متوقدة الذهن .

- نعم . لقد رددت ذلك على مسامعى كثيراً .

- ولكن يبدو أنه لا يعجبك أن تسمعى مثل هذا الإطراء ، ماذا تريدين إذن أن أقول لك أكثر من هذا ؟

- «واه !» وهل قلت أنا إننى أريد شيئًا ؟ وهل طلبت إليك مزيداً مما تفعل فى سبيلى ؟

- «واه !» مرة أخرى ؟ ألا تكفين عن استخدام هذه الكلمة ؟

- إنك تعد عَلَىَّ كل كلمة أقول !

- صبراً ياصغيرتى ! لا تضجرى . إننى أعد عليك فعلاً هذه الكلمات التى لايحسن بك استخدامها ، ولكننى أقول لك إنه من حسن الحظ أن استعمالك لهذه الكلمة قد تضاءل أخيراً بشكل محسوس ، حتى إنك لم تقوليها اليوم إلا مرة واحدة ، وهذا فأل طيب وبشير بخير على أية حال .

وكان سانتوس حقيقة يجتهد فى أن تقل ماريسيلا من استعمال تلك الألفاظ التى جرت على النطق بها فى بيئتها الأولى ، أما تلك الدروس التى كان يعمل على تلقينها للصبية فقد كانت دائمًا تبدأ فى المساء بعد أن ينتهى من

عمله اليومى المرهق ، وقد سارت تلك الدروس فى طريق تبشر بالنجاح ، فقد أصبحت ماريسيلا تتقن القراءة والكتابة بعد أن أنساها الزمن كثيراً من قواعدهما . وكانت القراءة والكتابة هما الشيء الوحيد الذى علمه إياها أبوها منذ أن كانت صغيرة . أما غير ذلك من الدروس فقد كان يبدو للفتاة ممتعًا شائقًا ، وكانت تقبل عليه فى اهتمام كبير وتتعلمه فى سرعة وسهولة ، وكان سانتوس يعمل على تهذيب سلوكها الاجتماعى ضاربًا لها أمثلة من صديقات له فى كاراكاس كن أمثلة عليا للأدب والتهذيب والرقة .

وكانت ماريسيلا تبتسم إذا ورد ذكر هؤلاء الصديقات ؛ إذ لم يكن يغيب على خيالها المتيقظ أن كل ذلك لم يكن إلا اختراعًا من سانتوس يعمل به على أن يضع نصب عينيها أمثلة جديرة بأن تحتذيها وتنهج نهجها . على أنها كانت تضيق بذلك إذا رأت سانتوس يسرف فى وصف تلك الصديقات والتمدح بهن حتى يتحول كلامه إلى شكوى من حياة ذلك الوسط البدوى الريفى الذى يعيش فيه وحنينًا إلى حياة العاصمة. ولكن كل ذلك كان يحثها على أن تجتهد فى التعلم والإقبال على الدروس حتى لا تبدو فى مرتبة دون مرتبة من يشير إليهن هو فى حديثه ، حتى إذا انصرف هو عن الدروس أو شغلته عنها مشاغله ساقتها غريزتها إلى الاستزادة من الثقافة والمعرفة . ولم يمض وقت طويل حتى تحولت الصبية إلى فتاة نظيفة معتدة بنفسها كأنها زهرة برية من تلك الزهور التى كانت تملأ المرج بعطرها ، والتى كانت أسراب النحل ترتشف منها رحيقها الذكى الطيب . لم يعد هناك أثر من ماريسيلا ؛ تلك الفتاة القذرة المهلهلة التى رآها سانتوس لأول مرة حاملة حزمة من الحطب على رأسها .

ولم يأل سانتوس جهدًا فى الاهتمام بثيابها وزينتها ، فاشترى لها خير ما أتى به على عربته ذلك المهاجر العربى الذى كان فى مثل هذا الموسم من العام يجوب قرى حوض «الأراوكا» بائعًا لأهلها ما حمل من قماش وثياب وعطور

وأدوات زينة ، وهكذا أصبح لديها من الملابس والأحذية ما لا يقل عما يتاح لأية فتاة مثلها من الأسر ذات الوفر واليسار. أما أول ما لبسته من ثياب فقد تكفلت به حفيدات «مليسيو ساندوفال» ، ولكن سانتوس نفسه أدلى فيه بدلوه أيضًا ، فجعل يرسم لهـا نماذج الملابس ، وكثيرًا ما أدى هذا إلى مشاهد طريفة بينه وبين ماريسيلا ، فقد كانت الرسوم الإجمالية لما يقترحه لها من فساتين مقبولة لا بأس بها ، أما الرسوم التفصيلية فقد كانت تبدو فى كثير من الأحيان معقدة غريبة لا قبل لأحد بأن يفصل ثوبًا على أساسها ، وفى بعض الأحيان كانت ماريسيلا تراها بشعة بعيدة عن الأناقة ، فتقول متذمرة :

– من المستحيل أن أضع على جسدى مثل هذه الأضحوكة !

ويجيبها هو مسلمًا لها باعتراضها :

– لديك حق ، فالثوب على هذه الصورة مثقل بكثير من أشرطة الزينة التى تقلل من مدى أناقته ، لقد ملأته بالكشاكيش والثنيات التى لا مبرر لها ، لنقص منه كل هذا الجزء .

– وذلك الجزء أيضًا ، فأنا لا تعجبنى هذه الدوائر المحيطة بالعنق .

ويضطر سانتوس للاعتراف لها بأن فطرتها البسيطة الساذجة تملى عليها فى ذلك آراء صائبة موفقة ، وهو يشعر بالارتياح لما يراه فى الفتاة من طبيعة صلبة المكسر، إلا أنها مع ذلك مرنة طيعة إذا وجدت من يسهر على تربيتها وتهذيبها . كانت ماريسيلا تبدو له وكأنها خلاصة هذا الجنس كله من أهل السهول ، فهم قوم أشداء المراس ميالون إلى القوة والعنف، ولكن لديهم استعدادًا فطريًا للحضارة والتهذب ... تربة خصبة صالحة لمن يحسن فيها الغرس .

وكان سانتوس فى الوقت نفسه مهتمًا بأمر لورنثو باركيرو ساهرًا على مهمة شفائه من داء الشراب الذى كان يسير به إلى أسوأ نهاية وإعادته إلى عالم البشر ، وقد كان يرى فى هذا العمل الذى اضطلع به لإنقاذ هذا المسكين راحة لروحه ولذة تعوضه عما كان يقاسيه فى عمله اليومى فى الضيعة من عناء ومشقة ، وقد بدأ بأن قلل عنه نسبة الشراب ، وأصبح لا يعطيه منه إلا بحساب متقن ، وكان يحمله معه طول اليوم إلى المروج لكى يشترك فى أعمال الضيعة ، فإذا انتهى العمل وبدأت مجالس المساء حاول أن يتطرق الحديث إلى موضوعات يمكن أن تثير فى نفسه الاهتمام والتفكير ، حتى ينبه فى نفسه ذلك الذكاء الذى لم يكن يتوهج إلا تحت أثر الخمر ، وكان سانتوس يلاحظ فى رضا واغتباط أن الرجل نفسه قد أصبح تواقًا إلى إنقاذ روحه وتخليصها من رذيلة الشراب .

كان سانتوس يتأمل كل ذلك فيزيده ثقة وتفاؤلاً ، ولكن ماريسيلا لم تكن فى نظره مجرد هذه التجربة الحضارية الناجحة ، بل كانت أكثر من ذلك بكثير ، فقد ملأت عليه البيت مرحًا وبهجة ، وسدت فيه فراغًا لم تكن لتسده إلا فتاة مثلها . لقد استقرت ماريسيلا فى «ألتاميرا» بعد أن كانت أشبه بجحر قذر تأوى إليه الخفافيش والهوام ، وكان من أول ما اهتم به سانتوس هو تنظيف حجراتها وطلاؤها بعد أن ظلت طوال السنوات الماضية مهملة تتكوم فيها الأقذار. نعم ، كل هذا حق ، ولكنها ظلت على الرغم من ذلك كله منزلاً بلا امرأة ... منزلاً ليس فيه إبرة تعرف كيف ترفو ثوبًا ، منزلاً يقدم الطعام له فيه أحد الأجراء من خدم الضيعة ، هذا من الناحية المادية ، أما من الناحية الروحية - وهو ما كان سانتوس يوليه أكثر اهتمامه - فقد كان منزلاً غير ذى حرمة ، يستطيع المرء أن يجلس فيه أو ينام أو يأكل على أى صورة أراد ، وأن يصك سمعه فيه أى لفظ

ناب يطلقه أحد الخدم فى غير حرج ، ولم يكن يغيب على سانتوس لوثاردو ما فى ذلك من آثار سيئة تنتهى إلى إهمال الدار والاستخفاف بحرمتها وكرامة ساكنيها .

أما الآن بعد أن قدمت ماريسيلا فقد تغير كل ذلك تغيراً كاملاً ؛ إذ عليه أن يعود بعد يومه المثقل بالعمل وقد عاد يحمل باقة من زهور المروج ليقدمها إلى «فتاة البيت» ، وعليه أن يغتسل ويغير من ثيابه ويزيل عن جسده رائحة الخيول والثيران الملتصقة بجسده ، ثم يجلس على المائدة لكى يضرب لمن يحيط به مثلاً فى احترام المجالس ورقة الكلام وأدب المعاملة .

وهكذا كان سانتوس يرى كيف كانت تربيته لماريسيلا وتهذيبها درعًا واقيًا له هو يحميه من الانسياق تحت تأثير تلك البيئة الخشنة الغليظة والخضوع لما تطبعه على نفوس أهلها من عيوب تبعد بينهم وبين رقة الحضارة .

ولكن التلميذة كانت فى بعض الأحيان تعود إلى نفورها وجموحها ، فتتعكر فى عروقها الدماء على حد قولها هى ، وتمتنع عن تلقى الدروس ملقية بعبارتها المعهودة :

- دعنى أذهب إلى سفح الجبل الذى أتيت منه !

غير أن كل ذلك لم يكن إلا انفعالات مؤقتة كانت تدفعها إليها طبيعتها الناشز العصية، فضلاً عن شعور مبهم بدأ يغزو روحها نحو سانتوس لوثاردو ؛ إذ إنها كانت سرعان ما تعود إليه فى اعتذار وتودد قائلة :

- وبعد ... ألن أتلقى دروسى فى هذا المساء ؟

* * *

ولكن كارمليتو انتهى من مهمته قبل أن يفرغ سانتوس من أمر ماريسيلا ، وفى عصر أحد الأيام أقبل الرجل وهو يقود فرسه إلى سانتوس قائلاً له :

- أرجو أن تسمح لى بأن أخبرك بشىء ياسيدى الدكتور : لقد رأيت أنه ليس فى الضيعة مطية طيبة يمكن للآنسة ماريسيلا أن تستخدمها لركوبها ، ولهذا فقد أتيت بها دون سرج ولا لجام ، وإن كنت أحمل معى ذلك إذا اقتضته الضرورة .

وكان أول ما فكر فيه سانتوس حينما سمع كلمات كارمليتو هو أن هذه الكلمات لم تكن إلا عنوانًا على شخصية الرجل وطبيعته الأبية المتحفظة ، فقد كان بوسعه أن يجيبه حينما اقترح عليه شراء الفرس بأنه لا يريد بيعها إذ كان يعزم على إهدائها لماريسيلا ، بدلاً من ذلك الجواب الخشن الذى جابهه به قائلا إنها ليس معروضة للبيع، ولكنه بعد أن أمعن التفكير فى كلمات الرجل عرضت له فكرة أخرى لم ترتح لها نفسه : لماذا اختار كارمليتو شخص ماريسيلا لكى يقدم إليها هذه الهدية التى لم يرد بها فى الحقيقة إلا التودد إلى لوثاردو ومراضاته بعد أن ظن به أولاً ظنون السوء ؟ أتراه يعتقد أن سانتوس مغرم بالفتاة ؟ وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن يضيف كثيرًا إلى الشعور النقى الذى كانت تثيره فيه الصبية دون أن يتجاوزه إلى أى حد أبعد ، فإنه فكر فى أن ما قام به كارمليتو قد يكون صدى لما يتردد بين رجال الضيعة من أن قلبه قد تعلق بماريسيلا ، فقد ساءه أن يفسر الناس هناك اهتمامه بالفتاة على أنه نابع من شعور غرام من رجل بامرأة .

وعلى أية حال فقد نادى ماريسيلا حتى تقوم هى بتوجيه الشكر إلى كارمليتو ، فلم تعلم الفتاة بنبأ الهدية حتى صفقت طربًا وسرورًا وصاحت :

– يا له من خبر مبهج ! إذن كانت الفرس من نصيبى ! ولماذا لم تقل لى ذلك من قبل يا كارمليتو ؟ ولماذا تركتنى طوال هذه الأيام وأنا أحسدك على هذه الدابة الرائعة ؟ والآن أسرجها لى حتى أتنزه عليها قليلاً .

ثم أضافت بعد ذلك فى انكسار :

– إن المؤسف هو أن أبى اليوم متعب لا يكاد يتحرك ولا أظنه قادرًا على مرافقتى ؛

فقال لها سانتوس .

– لا تقلقى من أجل ذلك ، فأنا مستعد لمرافقتك إذا شئت .

وإضاف كارمليتو :

– واسمح لى أنا أيضًا ياسيدى الدكتور بأن أقوم بمرافقتكما ، فأنا أريد أن أرى كيف تكون معالجة الآنسة ماريسيلا لـ «كتيرا» ، وذلك لأن هذه الدواب قد تسلس قيادها للرجال ثم تستعصى بعد ذلك على النساء .

وقد كان السبب الذى ساقه كارمليتو وجيهًا معقولاً ، ولكنه لم يكن فى الحقيقة كل شىء .

ومضى الثلاثة فى طريقهم ، وسبقت ماريسيلا على صهوة فرسها الجديدة ، أما سانتوس وكارمليتو فقد تأخرا قليلاً ، واتصل بينهما الحديث ، وكان سانتوس قد عزم على أن يعرف عن كارمليتو أكثر مما يعرف ، إذ كان هذا كما تعود سانتوس أن يراه كتومًا شديد التحفظ ، ثم إنه كان يذكر ذلك الثناء الخالص الذى كان أنتونيو ساندوفال لا يكف عن توجيهه إلى الرجل ، وكان سانتوس يشعر بأنه حقيقة جدير بالثقة ، ولهذا فقد عزم على أن ينتهز الفرصة فيستخلص منه قصة حياته ، ولكن كارمليتو ظل مستمسكًا بصمته ، فكان

لا يجيب عن أسئلة سيده إلا بردود مقتضبة ، حتى رأى أخيراً أن يستجيب لإلحاح لوثاردو :

- إننى ياسيدى الدكتور لم أكن مثل هؤلاء الأجراء الرعاة الذين تراهم فى هذه البقاع ، فقد كانت أسرتى من خير العائلات التى كانت تقيم فى قرية «أتشاجواس» ، وكثير من أهل قرابتى ممن لا يزالون فى «سان فرناندو» وفى كاراكاس نفسها يعتبرون من ذوى المراكز الاجتماعية الكبيرة ، بل لعلك أنت تعرف بعضهم مثل فلان وفلان .

ثم ذكر له أسماء أشخاص ذوى مكانة كان سانتوس يعرفهم بالفعل ، وواصل كارمليتو حديثه قائلاً :

- أما أبى فلم يكن من ذوى الثروة الطائلة ، ولكنه كان ميسور الحال ، وكان من أملاكه تلك الضيعة التى تدعى «آفى ماريا» . وفى يوم من الأيام - وكانت سنى فى ذلك الوقت نحو خمسة عشر عامًا - هاجمت ضيعتنا عصابة من لصوص الماشية ، من تلك العصابات التى كانت تتخذ من كل تلك السهول مسرحًا لجرائمها ، والتى كانت تترصد الضياع فى مداخل قنوات المياه ومخارجها ، فلا تدع فيها مالاً إلا انتهبته ، وكان اللصوص قد قدموا للسطو على عدد من الخيول التى كنا نملكها . غير أن أبى أحس باقترابهم فى الوقت المناسب ، فاستدعانى وقال لى : «إن فى الحظيرة نحو أربعين جواداً ، وعليك أن تستخرجها ثم تمضى لإخفائها فى الجبل ، وخذ معك كل الرعاة الأجراء هنا حتى يعينوك على ذلك ، ولتظلوا هناك فلا تعودوا إلا إذا وجهت إليكم برسول» ، فصدعت بالأمر ، ورافقنى الأجراء الثلاثة الذين كانوا يعملون فى ضيعتنا ، وأخرجنا الخيول من الحظيرة ، ثم علقنا فى ذيولها بعض فروع الشجر حتى تعفى على آثار حوافرها وتعمى على اللصوص الطريق التى سلكناها للاختباء بها فى الجبل ، وظللنا هناك فى مكمننا ونحن نراقب الدواب فى

رعيها خلال النهار ونتناوب حراستها في الليل ، وليس معنا من الزاد إلا بعض قرب الماء المشدودة إلى سروج الخيل ، وقد كان ذلك العام شديد الجفاف ، وظللنا على ذلك أكثر من أسبوع لا نكاد نذوق خلاله طعامًا ، وأصابتنا حمى شديدة ، فضلاً عن لدغات بعض الهوام حتى تورمت وجوهنا وأجسادنا بحيث لم يكن فى وسع أحد منا أن يميز وجوه رفاقه . أما الماشية فقد أصابها الهزال وعلت أجسادها القروح بعد أن تعرضت للسعات ذباب الخيل والدود . وكنا فى انتظار ذلك الرسول الذى وعد أبى ببعثه إذا ابتعد خطر اللصوص ، فلما رأيت الأيام تمر دون أن نتلقى منه خبراً عزمت على أن أعود إلى الدار وحدى لأرى ما الذى يجرى هناك . الذى كان يجرى ؟... لقد كان كل شىء قد جرى بالفعل ، ولم يكن إلى رده من سبيل . إننى لم أكد أطأ عتبة الدار حتى انحسرت عن قدمى أسراب هائلة فظيعة من الدود ، وكان أبى وأمى هناك طريحين على الأرض ولم يبق منهما إلا هيكلان من العظام . وفى ركن من أركان الدار وجدت أخى الصغير - أخى «رافاييل» الذى حدثتك عنه منذ زمن وقلت لك إننى أرسلت إليه لكى يأتى إلى هنا حتى يشتغل معى فى خدمتك ، وكان فى ذلك الوقت طفلاً يحبو ؛ إذ لم تكن سنه تزيد عن بضعة شهور ، لقد رفعته عن الأرض وهو مُشفٍ على الهلاك جوعًا .

وصمت كارمليتو لحظات ثم أكمل حديثه :

- إنك تعرف ياسيدى ذلك الرجل الذى يسمونه «السيد بيرناليتى» ، والذى أصبح الآن حاكمًا مدنيًا على هذه المنطقة . لقد كان حينذاك أحد أفراد هذه العصابة من اللصوص المجرمين ، وهو ما يزال حتى اليوم حيًا يرزق ؛ لأنه كان الوحيد الذى امتنع من بينهم عن مد يده إلى والدى كما علمت فيما بعد . أما الباقون فقد دفعوا ثمن جريمتهم واحداً واحداً . إننى أعرف أن غسل الدم بالدم ليس أمرًا حميداً يستحق الفخر ، ولكن هذا هى السبيل الوحيدة أمامنا

ممن نعيش فى هذه الأرض حتى نقتضى ديون الدماء المهدرة ... وأما أنا فقد انتهت بى هذه الأحوال إلى ما ترى ... إلى العمل هنا أجيراً ، ولو أن العمل معك وفى ظلك أمر أقبل عليه فى سرور ولذة .

وعاد كارمليتو إلى صمته بينما مضى سانتوس يعلق على الخبر بما كان معتاداً على الحديث فيه من إنكار فكرة الانتقام والحملة على كل سلوك يحمل المرء على أن يقتص بيده ممن ينبغى أن يوكل أمرهم إلى الله والقضاء .

وكانت ماريسيلا فى هذه الأثناء تسمع أطرافًا من الحديث ، ولكن الموضوع الذى استأثر بانتباه سانتوس واهتمامه لم يكن ليهمها كثيراً ، ثم إنه كان يضايقها أن يظل مشغولاً عنها طوال ساعة كاملة لم يوجه خلالها إليها كلمة واحدة ، فشدت بعقبيها على أضلاع الفرس حاثة إياها على الإسراع ، ورفعت صوتها بغناء إحدى تلك المقطوعات التى اعتاد فرسان السهول على أن يحدوا بها مطاياهم ، والتى ضمنوا كلماتهم تعبيراً عن كل ما يعتلج فى نفوسهم من أحاسيس مختلفة .

وابتعدت ماريسيلا ، فلم يعد سانتوس يميز كلمات الأغنية ، ولكن صوت الفتاة الجميل كان يتماوج فى رقة وحرارة ، وقطع سانتوس حديثه مع صاحبه حتى يتتبع غناء الصبية ، أما كارمليتو فقد نفض عنه مرارة الذكرى الحزينة ، وأقبل بسمعه على نغمات الأغنية الممتعة ، فلما صمتت ماريسيلا التفت إلى سيده وقال :

– آه ياسيدى الدكتور ... لقد تبين لى أن كلينا مروض لا بأس به . ألا ترى إلى «كتيرا» كيف استقامت خطواتها وتوطأ ظهرها بعد أن قمت أنا باستئناسها ؟... وأما أنت ...

الفصل الثالث

طيور الشؤم

كانت «الاختصاصات» فى «ضيعة الرعب» قد أحسن توزيعها واختيار أصلح رجل لكل منها: أما الطعنات الخفية الغادرة فقد كان ملكيادس «الساحر» هو فارس حلبتها ، وأما السطوات المنكرة والسرقات المحكمة فقد كان بالبينو هو بطلها المغوار ، وأما الرسائل والسفارات التى كانت توجه بها السيدة باربارا فما كان لها إلا «خوان بريميتو» ، غير أن كثيراً من الرسائل التى كان يضطلع بها خوان بريميتو ، لم تكن دون تلك الطعنات المسددة التى تفنن فيها ملكيادس !

وكان رسول السيدة باربارا هذا نموذجًا بشريًا غريبًا : كان قذراً مشعث الشعر بشع الهيئة ذا لحية هائلة منفوشة فى غير انتظام ولا تهذيب ، لم يفلح أحد فى حمله على قصها أو تشذيب أطرافها ، وكان غبيًا أبله إلا أنه كانت تتملكه فى بعض الأحيان نزعات جنونية ثائرة ، ولم يكن ذهنه يخلو مع ذلك من التوهج بومضات من المكر الخبيث ، أما نزعات جنونه فقد كان من أغربها امتناعه عن شرب أى ماء فى بيوت «ضيعة الرعب» ، وكان تقززه من ذلك الماء يبلغ به إلى حد أنه لم يكن يتردد فى أن يسير على قدميه فراسخ طويلة بحثًا عن ماء يشربه فى أى مكان آخر . كذلك كان من نوادر جنونه ما اعتاده من ملء بعض أوعية الفخار بسوائل غريبة ثم وضعه إياها على سطوح أكواخ الضيعة حتى تشرب منها طيور وهمية لم يكن لها وجود إلا فى خياله ، وكان يطلق عليها اسم «طيور الشؤم» .

وما كـان بوسع أحد أن يعرف حـقيقة هذه الطيـور الغريبة ، وكل مـا كان يمكن استخلاصه مما كان خوان بريميتو يهرف به من كلام متضارب لا ترابط فيه هو أن تلك الطيـور لم تكن إلا ضربًا من الرمـوز تتجـسد فـيهـا غرائز السـيدة باربارا ونوازعهـا المختلفة ، ولهـذا فقد كـانت هناك دائمًا علاقـة بين كل نازعة شـريرة تتحـرك فى نفس تلك المرأة وبين الـسائل الذى يبـدو لخـوان بريميتـو أن يصبه فى أوعـية الفخار حـتى تروى «طيور الشؤم» منها عطشـها الرهيب ؛ فإذا أحس بأنها تدبر اغـتيالاً أو كمينًا فـهو دم نجيع ، وإذا كانت تعـد قضية ترفـعها أمام المحاكم فهو خل وزيت ، وأما إذا شرعت فى نصب حبائل سحرها لضحية جديدة من ضحـايا عشاقها فهـو مزيج من عسل النحل ومن مرارة يستـخرجها من كبد حيوان !

- اشربى ياحـشرات السوء ! اروى ظمأك ودعـى النصرانى يعش فى أمن وسلام!

هكذا كـان خـــوان بريميـتو يتـمتـم بينما كـان يحكم رص أوعـيتـه على السطوح !

وكانت «حشرات السوء» لا ترتوى أبدًا ، ومن أجل هذا زهد خوان بريميتو فى ماء «ضيعة الرعب» ، فقد كان يخشى أن يحل به بلاؤها وشؤمها إذا احتسى من ذلك المـاء حسـوة ؛ إذ كان يؤكد أن تلك الطـيور الشيطانيـة لا تكاد تغمس مناقيرها فى ماء حـتى يستحيل إلى السائل الذى تشتهيـه ، فإذا اجترأ أحد على الشرب منه فإنه لا يلبث أن تصيبه العدوى أو تنقلب المقادير فينزل به الشر الذى كان مكتوبًا على آخر .

ولـم يكن لساكنى الضيعة عمل منذ أن تسامـعوا بنبأ قدوم صاحب ألتاميرا إلا التساؤل عن موعد وصول «طيور الشؤم» وقرب رؤية خوان بريميتو لها وهى

تخفق بأجنحتها فى سماء الضيعة ، ومنذ ذلك اليوم الذى أتى فيه سانتوس لوثاردو لم يكن لخوان بريميتو من شغل إلا تأمل السماء وترقب الأسراب الشيطانية ، وقد أعد أوانيه لملئها بما يتراءى للطيور أن تشرب .

وكثيراً ما كان الأجراء الذى يعملون لدى السيدة باربارا يتخذون من الرجل المعتوه مادة للتندر والتفكه ، فيأتون إليه ليسائلوه :

- كيف الحال ياخوان بريميتو ؟ ألم تظهر بعد البشائر ؟

فيبسط يده على حاجبيه مظلاً بها عينيه ، ثم يرفع بصره إلى السماء كما لو كان يرى شيئًا فى الأفق البعيد الواضح ويجيب :

- نعم ، لكأنى أرى واحداً منها قد لاح هناك !

غير أن رجال ضيعة الرعب ما كانوا ليصدقوا عته خوان بريميتو وجنونه ، بل كانوا يعتبرونه ماكراً وخبيثًا ، ويرون أن مخرقاته هذه ليست إلا ستاراً لمكره وخبثه .

وأخيراً أتى خوان بريميتو إلى رفاقه فى الضيعة وصاح بهم :

- لقد وصلت «طيور الشؤم» إلى هنا فى النهاية ! تبارك اسم العذراء وتقدس ! انظروا يا أولاد . ألا ترون هذا السرب الهائل من تلك الطيور السود وقد ألقت على السماء الصحو المشرقة بثوب قاتم ؟

ولكن الذين كانوا يعرفون سر خوان بريميتو أدركوا على التو أنهم لم يكونوا بحاجة إلى رفع أبصارهم إلى السماء وإنما كان يكفيهم النظر إلى وجه السيدة باربارا بعد عودتها من القرية ، وقد تقطبت أساريرها وارتسم عليها ذلك التعبير عن الغضب والحنق .

ومنذ ذلك اليوم حتى بضعة أيام تلته ظل خوان بريميتو يرقب من مرصده تحرك تلك الطيور الخيالية المشئومة حتى يعرف أى نوع من السوائل تريد أن يقدم لها حتى يروى ظمأها المسعور ، وسواء أكان منساقًا فى ترقبه ذلك بطبيعة جنونه أم من فيض مكره - إذ كان الجنون والمكر فى نفسه متمازجين بحيث لا يستطيع أحد ولا هونفسه أن يعرف أين ينتهى هذا وأين يبدأ ذاك - فقد كان بين مطالعاته لصفحة السماء يسترق النظر من وقت لآخر إلى وجه السيدة باربارا حتى يستكنه ما هى مقدمة عليه .

- تراه خلاً وزيتًا ما تريد تلك الحشرات الملعونة أن تطفئ ظمأها به ؟ لا ... لست أظن ذلك ؛ إذ إن العادة فى مثل هذه الحال هى أن نرى السيدة وقد قلبت ما فى البيت رأسًا على عقب نابشة عن أوراق ووثائق !.. إن خفق هذه الأجنحة مألوف لدى على أية حال ، أم تراه مزيجًا من شهد النحل والحنظل النقيع ؟ ولكن الأمر لو كان كذلك لرأيناها تصفق بأجنحتها فى طرب ومرح . غير أنها تطير فى صمت عميق . يالله ... إن الذى يبدو لى هو أن ظمأها هذه المرة لن يرويه إلا الدم المسفوك !...

وهكذا مضت أيام ، وخوان بريميتو فى حركة دائبة وعمل لا يعرف الهدوء بين أوعية الفخار المصفوفة على السطوح ، وبرك الدم التى تتخلف عن رءوس الماشية التى تذبح فى الضيعة لكى يتغذى ساكنوها على لحومها ، وخلايا النحل يشتار منها بعض عسلها ، ومشارب الضيعة حيث كان يتزود بقليل من الخل والزيت . وكان فى أثناء ذلك يتطلع إلى وجه السيدة باربارا فيرى أساريرها لا تنفرج والعبوس مازال ملازمًا لها ، فيتحول جنونه الأبله إلى انفعال عصبى هائج .

والواقع أن هذا الانفعال الهائج كان هو الذى استولى أيضًا على نفس باربارا . كان الغيظ يتملك روحها ؛ لأنها لم تستطع أن تسكت إلى الأبد ذلك

اللسان الذى جسر على أن يقذف فى وجهها بأول تهديد يصك سمعها : «وإذا كانت السيدة ترفض الاستجابة لما أطلب فإنى سأمنحها مهلة ثمانية أيام ، فإذا انقضى الأجل دون أن أرى منها قبولاً فإنى سأرفع الأمر للقضاء !» .

وانصرفت باربارا خلال هذه الأيام إلى نشاط محموم فى أعمال الضيعة اليومية كما لو كانت ترى فى العمل تنفيسًا عن ذلك الغيظ الذى كان يأتكل فى روحها ، فكانت تقضى اليوم كله وهى على ظهر جوادها وقد بدت فى هيئة مسترجلة مثيرة للاشمئزاز : سراويل مما يرتديه الرجال تغطى ساقيها حتى عقبيها ، بينما شمرت ثوبها النسائى المعقود بخصرها وعقدته إلى سرج حصانها ، وبيدها الأنشوطة التى اعتاد استخدامها رعاة البقر ، وهى تركض لاقتناص كل رأس ماشية من ضيعة ألتاميرا تراها سارحة فى أرضها ، وكلمات السباب وأقذع الشتائم تتزاحم على شفتيها لمن يبدو منه أدنى خطأ أو إهمال من جانب رجال ضيعتها ، وقد أدمت بمهمازها ظهر جوادها وأضلاعه، أما الليل فقد كانت تقضيه وحيدة مغلقة على نفسها أبواب تلك الصومعة التى خصصتها لمناجاة «الشريك» الشيطانى حتى صياح الديكة مؤذنة بمطلع الفجر .

وكانت لا تنفك خلال مناجاتها الطويلة للشريك تردد هذا السؤال وهى تذرع الغرفة جيئة وذهابًا بينما كان خوان بريميتو يتسمع حديثها من وراء الباب :

- لنر ما إذا كان سيجرؤ على إنفاذ ما أوعد به !

ويؤكد خوان بريميتو أنه كان يسمع فى كل مرة جواب «الشريك» على ذلك السؤال :

- أجل ... سيجرؤ !

ولم يكن ذلك إلا صوتها هي ... صوتًا خشنًا متهدجًا يشوبه الغضب العاجز اليائس نابعًا من اقتناعها العميق المستقر في قرارة نفسها بأن لوثاردو لابد أن يفي بما أنذرها به .

وحينما حل اليوم الأخير الباقي من الأجل الذى ضربه لها نادت باربارا رسولها ، فهرع هذا إليها ملبيًا النداء وقد ارتسم على وجه الأبله تعبير عن الذعر المتطير والاستسلام الذليل ، ووقف منتظرًا ما تأمر به ، وقد انتشبت أظافره السود فى شعر لحيته الكثة القذرة .

- اذهب الآن إلى ألتاميرا ، فاسأل عن الدكتور لوثاردو وأبلغه أننى مستعدة لإجابته إلى ما طلب من فصل ماشيته عن ماشيتى ، واطلب إليه أن يحدد المكان والساعة لكى يلتقى رجاله برجالى من أجل إتمام ذلك العمل .

وكان خوان بريميتو ينظر إلى عينى المرأة ، فيرى أحداقها السود يلتمع فيها الشر المخبوء والنية الخبيثة وهى تلقى إليه بأوامرها ، فأسرع إلى أوعية الفخار يملؤها من الدماء المتجمعة فى حوض مذبح الضيعة ، ثم أحكم وضعها على سطوح الأكواخ وهو يتمتم :

- نعم ! كان الدم هو ما تشتهى شرابه هذه المرة !

وأقبل يتطلع إلى السماء ويقول :

- اشربى ياحشرات السوء !.. اروى ظمأك ودعى النصرانى يعش فى أمن وسلام !...

ومضى خوان بريميتو يشد فى سيره ، ما كان هناك أحد يدانيه فى طى المسافات وابتلاع الأميال ، وهو بين حين وحين يلتفت برأسه إلى وراء كأن أحدًا يطارده وهو يتمتم :

- تبًا لهؤلاء النسوة ... أخوات الشياطين !

ولم يكن يقصـد بكلامه هذا السيدة باربارا ، ولا كان يعبر عن تذمره أو ضجره بالمهمة الموكولة إليه ، ولكنه كان يعنى المرأة بوجه عام ، وكان هذا واحدة من نزعاته الجنونية ، فقد كان يتصور أن النساء يتعقبنه لكى يلحقن به كيدهن ، وقد ألح عليه هذا الشعور إلحاحًا شديداً وهو فى سيره المحموم عبر المروج الفسيحة الخالية .

ولم تكن الرسالة التى حملته إياها سيدته هى الحافز الوحيد الذى يحثه على الإسراع ، بل كان هناك دافع آخر ، هو شوقه إلى رؤية ماريسيلا .

نعم ... كانت ماريسيلا هى الإنسان الوحيد الذى استطاع أن يثير فيه شعوراً من الود والمحبة ، حتى لم يكن هناك ما يلتذ به ويرتاح إليه أكثر من مبادلتها الحديث . كانت ماريسيلا هى أول مخلوق يطلع على ذلك الجانب الصغير المشرق من جوانب روحه المظلمة البلهاء ، جانب المرارة الإنسانية الكامنة فى نفس هذا المعتوه . كان خوان بريميتو قد شهد مولدها ، بل إن الاسم الذى اختير لها لم يكن إلا من اقتراحه هو ، وبين ذراعيه وجدت أول مهد رفيق حنون بعد أن نبذتها أمها وكرهها أبوها ، كان خوان بريميتو هو مربيتها الرءوم يحيطها بعطف غريب غامض المصدر من ذلك النوع الذى يحسه الأغبياء المعاتيه ، إحساسًا تلقائيًا لا تصنع فيه ولا هدف من ورائه ، وكانت أول كلمات رقيقة حلوة سمعتها ماريسيلا هى التى وجهها إليها حينما كان يناديها بقوله «ياسواد عينى» ... كلمات تنبعث من بين مشافره الغليظة التى تحف بها غابة من الشعر الكثيف القذر كما ينبعث الشهد من بين الخلايا السود ، ولم يكن يقع إلى يدى هذا المسكين أى قدر من النقود إلا أنفقه فى هدايا يختص بها «سواد عينيه» من تلك السلع الرخيصة التى يحملها الباعة المتجولون ممن كانوا يجوبون بعرباتهم تلك البقاع . بل إنه كان من الممكن أن تموت الطفلة جوعًا - حينما طرد أبوها لورنثو باركيرو من ضيعته واضطر إلى اللجوء بها إلى ذلك المرج

المقفر المهجور فى «لاتشو سميتا» منصرفًا إلى خمره وسكره - لولا أن تداركها خوان بريميتو بعنايتـه ورعايته ، فقد كان هو الذى يحمل إليـها كل يوم فضلات ما يأكله الـرعاة والأجراء فى ضـيعة أمـها ، ويعلم الله مـدى الجهـد الذى كان يتكبده فى جمع تلك الفضلات أو استجـدائها قبل أن يأتى إلى الصبية وقد ملأ بها جعبته ليقدمها إليها وهو يقول والابتسامة البلهاء ترتسم على وجهه : «هأنذا قد أتيتك بلقيماتك ياسواد عينى !» ،

فإذا فرغت من طعامـها أقبل عليها بأحاديثـه الغريبة ونوادر جنونه وهذيانه التى كانت تدخل السرور إلى قلبها ، وكانت الصبية تتمتع بهذا الحديث فتطلق ضحكاتهـا المرحة ، وكان هو يجـد لذة فى بث المرح فى نفسـها وفى الاستـماع إلى رنين ضحكها . كانت روحاهما متجاوبتين انعقدت بينهما مودة متبادلة هى شعاع من النور فى ظلمات هذه الحياة البائسة الساذجة .

ولكن سانتـوس لوثاردو حرم الرجل من تلك المتعة التى بقـيت له من متع الحياة حـينما حمل معـه ماريسيلا إلى داره فى ألتامـيرا . وعلى الرغم من ذلك فما كـان خوان بريميتو ليـدع زيارة الفتاة كل يوم - إذ إن المسافـات لم يكن لها وجـود عند الرجل - لولا أن الأجـراء والرعـاة فى «ضـيعـة الرعب» كـانوا لا يكفون عن التندر به ومطاردته بمعـابثاتهم الغليظة الجافيـة ، فلم يكن أحد منهم يراه حتى يقول له فى سخرية :

- مسكين خوان بريميتو ... لقد انتزعوا منه خطيبته !

فكان يهـيج ويـغـضب ، ولـم تلبث هذه العبـارات المتكررة أن أثارت فى قرارة نفـسه بركـة من المشاعـر الموحلة كانت مـخبوءة نائـمة : غيـرة وحشـية ، وأفكاراً خـبيـثة عكرت ذلـك الود الصافى بينه وبـين الصبـية ، وهكذا تحـولت ماريسيـلا فى خيالاته المجنونة إلى واحـدة من أولئك النساء اللاتى كن يطاردنه

عاريات الأجساد عبر المروج المقفرة ، كأنه نبى تحاول أن تفتنه عن ربه مغريات الحياة !

كانت هذه الأفكار السيئة تلح عليه فى قسوة بالغة ، فتنغص عليه عيشه ، وتعرضه لأزمات كان يتخبط فيها كالذى يتخبطه الشيطان من المس ، وبلغ ذلك به حداً كادت السيدة باربارا معه أن تلقى به إلى أحد تلك المستشفيات التى خصصت لإيواء المجانين .

ومضى الزمن ، وانحسرت عن خوان بريميتو تلك النزعات الجنونية والأزمات العصبية ، وبدا كأنه يحاول نسيانها ومحوها من ذاكرته ، حتى إنه كان يتجنب النطق باسمها ، فإذا سأله أحد عنها أجاب :

- ألا تعلم أنها ماتت ؟ أما تلك التى تعيش فى ألتاميرا فإنها شخص آخر !.

* * *

ومع ذلك فإنه لم يكلف بإبلاغ رسالة السيدة باربارا إلى صاحب ألتاميرا حتى مضى ركضاً لم يألفه هو نفسه من قبل مع ماعرف عنه وشهر به من الإغذاذ فى السير ، بل كان يرى أن قدميه لا تعينانه على ما كان يرجو من شدة العدو ، فقد كان يحثه الأمل فى رؤية «سواد عينيه» من جديد .

وأخيراً بلغ دار سانتوس لوثاردو ، وكانت ماريسيلا هى أول من خرج لتلقيه ، وبدت له حقًا كأنها شخص آخر على حد ما كان يقول ، ولم يتمالك الأبله نفسه ؛ إذ جمد فى مكانه وقد أصابه ضرب من الذهول ، ثم صاح :

- أهى أنت ... ياسواد عينى ؟

وضحكت ماريسيلا ضحكة فيها مزيج من الحياء والفرح لرؤيته :

- ومن أكون إذن ياخوان بريميتو ؟

- ياللّه ! لقد تحولت أيتها الطفلة إلى امرأة رائعة الجمال ! بل إنى أراك وقد امتلأ جسدك وبدت عليك معالم الصحة والقوة دليلاً على أنك الآن تأكلين وجبات كاملة من الطعام! وهذا الثوب البديع، من الذى اشتراه لك؟ وهذا الحذاء ؟ يا للعجب !... أنت ... تلبسين الآن حذاء ؟ من كان يصدق ذلك ياسواد عينى ؟!

واحمر وجه الفتاة خجلاً وقالت :

- ياه !.. لقد أصبحت ثقيل الظل كثير السؤال ياخوان بريميتو !

- أما أنت فقد أصبح من نعمة اللّه النظر إليك وأنت فى هذه الهيئة . إنك الآن أجمل من زهرة الأعاجيب !.. أى سر أودعه الله الثياب حتى يحيل من يرتديها إلى شخص آخر مختلف كل الاختلاف !

- هذا لكى تتعلم إذن ، حتى تغير هذه الخرق التى مازلت تحملها على جسدك ، والتى تبعث القشعريرة فى نفس من يراها .

- أنا ؟... أتريدين منى أن أرتدى ثيابًا نظيفة ؟ ذلك شىء يصلح لك أنت ؛ إذ لديك من تريدين إعجابه ، وخبرينى بهذه المناسبة : أهو يحبك كثيراً ؟ قولى لى الحقيقة .

فاحمر وجهها من جديد وهى تقول :

- لا تكن أحمق ياخوان بريميتو .

ولكن خجلها هذه المرة كان من نوع جديد ومعبراً عن مشاعر أخرى ، وكان يصبغ خديها حتى يكاد الدم يتفجر منهما ، بينما كانت أهدابها الوطف تسبل عليهما ظلاً ناعمًا رقيقًا .

ولكن الأبله مضى يتساءل فى لهجة تعريض :

- هم ... م ... م !.. لا تحاولى الإنكار ؛ فأنا أعرف كل شىء ...

وهمت ماريسيلا بالاعتراض حتى يستمر خوان بريميتو فى مداعباته وتعريضاته ؛ إذ إن حديثه كان فى الحقيقة يلقى من نفسها قبولاً وارتياحًا ، لولا أن الرجل أكمل عبارته بقوله :

- ... نعم . أعرف كل شىء ؛ إذ قد أدلى به إلى طائر صغير يكثر المجئ هنا !

وبدر منها سؤال نطق به لسانها بغير وعى :

- أهو واحد من «طيور الشؤم» ؟

وتداعت المعانى فى ذهن الفتاة بعد هذا السؤال الذى فاه به لسانها بشكل آلى ، فبدا الجد على وجهها فجأة ومضت تسأله مرة أخرى :

- كيف حال تلك الطيور هناك ؟ ألا تزال أسرابها تترى فى ضجيج وجلبة ؟

وكان لفظ «هناك» هو الذى تستخدمه ماريسيلا إذا أرادت أن تشير إلى أمها ، إذ لم تكن تسميها باسمها أبدًا .

وأجاب خوان بريميتو :

- لا تذكرينى بذلك يا بنية ! إن الحياة هناك فى «ضيعة الرعب» أصبحت لا تطاق ! فإن هذه الحشرات لا تكف أسرابها عن التهويم على سطوح الأكواخ وهى ترج الجو كله بصفقات أجنحتها طوال اليوم . تبارك اسم العذراء المقدسة ! لقد ضاق ذرعى بمعالجة تلك الطيور الملعونة التى انثالت علينا من أغوار الجحيم . وما كان أشد رغبتى فى أن آتى لأعيش هنا ... إلى جوارك يا بنيتى ،

ولكنى لا أستطيع . إن مكانى هناك لأرد غائلة «طيور الشؤم» هذه ، ولأضع لها شـــرابها فى الوقـــت الملائم . إذ لو لم أفعل ... آه ! ... إنك لا تعرفين ما تجشمنى هذه الطيور من عناء ... إن تلك الحشرات الملعونة خبيثة يا سواد عينى ... خبيثة حقًا !...

وعادت ماريسيلا للتساؤل فى لهجة ذات مغزى تشف عن القلق الذى بدأ يساور نفسها :

- وما الذى وضعت أنت لشرابها فى هذه الأيام ؟

فأجاب وفمه يفتر عن تلك الابتسامة العريضة البلهاء :

- دمًا نجيعًا يا بنيتى ... ما أغرب ما تشتهيه تلك الطيور ؟ وهل هناك أغرب من أن تتوق إلى احتساء الدم وهو ما هو من قبح المنظر وبشاعة الطعم ؟ أليس كذلك يا بنية ؟ لقد فرغت الآن من ملء أطباق الفخار لها بالدماء ، وأظنها الآن قد ارتوت منه حتى الامتلاء !...

ثم غير خوان بريميتو مجرى الحديث فسأل الفتاة :

- أخبرينى قبل أن أنسى : أين الدكتور لوثاردو ؟ فأنا أحمل إليه رسالة من السيدة ...

وكان رسول باربارا قد تعمد أن يلقى بسؤاله عن لوثاردو بعد حديثه مع ماريسيلا عن «طيور الشؤم» تدبيراً منه كان يصطنعه عندما تحمله سيدته رسالة إلى أحد حتى يلقى فى روعه طرفًا من نوايا المرأة إزاءه ، ويبث فى نفسه بذلك هاجسًا من الخوف والرهبة ، وفطنت ماريسيلا إلى ذلك ، فاقشعر جسدها ذعراً ، وصاحت فيه وقد تملكها الغضب :

- حتى متى ستظل مشتغلاً بهذه الحرفة أيها الشقى الأبله ؟ ليكونن هلاكك من جراء تلك الرسائل التى تغدو بها وتروح !... اخرج الآن من هنا ولا تعد أبدًا !.

وهنا أطل سانتوس لوثاردو وكـان واقفًا بمقربة يتسـمع الحديث الذى كان يجرى بين ماريسيلا والرجل المعتوه ، فتدخل قائلاً :

- دعيـه يا ماريسـيلا ... وأنت ياخـوان بريميتو ، أى رسـالة هى تلك التى أتيتنى بها ؟

والتفت خـوان بريميتـو وقد أتى صـوت لوثاردو منقذًا له من ثورة الفـتاة ، وأبلغه رسالة الـسيدة باربارا بكلماتهـا حرفًا بحرف ، بينما كـان ينشب أظفاره السود القذرة فى شعر لحيته الغليظ المتكاثف .

- أبلغ السيدة جـوابى عن رسالتها : إننى سأنتظرها ورجالهـا فى «الخميلة القاتمة» غداً عند مطلع الفجر ، وسيكون معى الرجال اللازمون .

قال سانتوس لوثاردو ذلك ومضى داخلاً إلى الدار .

وانتظرت ماريسـيلا قليلاً حتى أصبـحت بمأمن من أن يسمعهـا سانتوس ، فلما اطمأنت إلى ذلك قبضت بيديهـا على ذراعى خوان بريميتو ، فجعلت تهزه فى عنف وهى تقول :

- لتعلم أنك إذا عـدت ثانية حاملاً إلينا رسائل من هـناك فلأهيجن وراءك كلاب الضيعة حتى تقتص بثأرى منك !

فصاح الرجل فى جزع وخيبة أمل :

- ورائى أنا ... ياسواد عينى ؟...

- نعم ، وراءك أنت . والآن اغرب عن وجـهـــى ، وابتعد من هنا بأسرع ما تستطيع !...

وعاد خوان بريميتـــو إلى «ضيعة الرعب» وقد مـلأ نفسه الحـــزن من أجل ما ودعته به الفتاة «سواد عينيه» ، وهو الذى كان قد ذهب لرؤيتها وقد غمر قلبه

السرور بلقائها من جديد . وشعر بأنه منكود سيئ الحظ ، وإلا فما غضبها منه وهو الذى أراد بها وبلوثاردو الخير ؟... أما كان من النصيحة لهما أن يقول ما قال عن الدم حتى يطلع لوثاردو على شيء مما تدبره له المرأة فيأخذ بعد ذلك حذره ؟

على أنه لم يصل إلى حيث كانت السيدة باربارا حتى زايله شعور الحزن والانقباض ، ثم أدلى للمرأة بما قاله له لوثاردو ، فما إن ختم رسالته حتى شرع يتحدث عن ماريسيلا :

- لو أنك رأيتها ياسيدتى لما استطعت معرفتها . لقد كانت صبية فتحولت إلى شابة بالغة الجمال : وماذا أقول فى عينيها الساحرتين ؟... إنهما أجمل من عينيك أنت ياسيدتى !... ثم إنها أصبحت نظيفة أنيقة حتى إن النظر إليها متعة ما بعدها متعة . وما أجمل تلك الثياب التى ألبسها إياها الدكتور : من الحذاء فما فوقه !... حقًا إنه من النعيم ياسيدتى أن تكون بقرب الرجل امرأة فى جمال هذه الفتاة !...

وما كان ليهم السيدة باربارا أى حديث متعلق بماريسيلا ، فهى لم تشعر نحوها بذلك الحب الغريزى الذى تحسه الدابة الأم نحو وليدها الرضيع ، ولهذا فإن كلمات خوان بريميتو لم تثر فى نفسها الآن إلا شعوراً دافقًا بالغيرة: غيرة امرأة من امرأة ... لا أكثر من ذلك !...

وأخيراً عمدت إلى إسكات رسولها الثرثار ومنعه من الاسترسال فى الكلام :

- حسنًا ... إن هذا حديث لا يهمنى فى شيء ، فانصرف عنى الآن .

ولكن خوان بريميتو لو أمعن النظر حينئذ قليلاً فى وجه المرأة لاستطاع أن يعرف أى نوع من الظمأ قد استبد ساعتها بطيور الشؤم .

الفصل الرابع

المجـــاولة

فى تلك الليلة لـم يكن هناك حديـث فى ألتامـيـرا إلا عن رسالـة السيـدة باربارا إلى سانتوس لوثاردو ، فقد كانت هذه أول مرة تعترف فيها المرأة الجبارة بالهزيمة وتستـسلم لها . وفى فجـر اليوم التالى اجتـمع رجال الضيعـة ، وأقبلوا على خيولهم يسرجونها بينما كان أنتونيو ساندوفال يوصيهم .

- أظن من الخير أن يعمل كل من لديه مسدس منكم على حمله ، فربما لم تقتصر مجاولاتنا اليوم على رءوس المـاشية .

وأجاب باخاروتى :

- أما أنا فسأخـرج بغير مسدس ، فقد رهنتـه منذ أيام ، ولكنى قد دسست تحت ثيابى سكينًا كبيرة يبلغ طولها نحـو نصف قصبة ، وعلى أية حالة فإنها لو قصرت عن بلوغ الهدف فإن فى مدة ذراعى ما يكفيها طولاً .

ومـضى الركب بعد ذلك قـبل أن ينشق نور الصـبـاح وقد استـعـدوا لكل طارىء ، فتوجهوا إلى «الخميلة» وعلى رأسهم سانتوس لوثاردو .

وكان الركـب يتألف من الرجال الخمسة الذين ظلوا على وفائهم لسانتوس لوثاردو والذين استـقبلوه عند قـدومه إلى الضيـعة ، ثم ثلاثة آخـرون من رعاة السهول لم يستطع أنتـونيو الإتيان بهم إلا بعد جهد جهـيد ، وذلك لأن السيدة باربارا كانت قـد جلبت إلى أرضها كل يد عـاملة قادرة حتى تحـرم منها ضيـعة ألتاميرا ، ولكن الرجـال الثمانية كانوا من خيرة أهل السهـول فروسية وبسالة ،

وكانوا على استعداد لبذل كل شيء في سبيل ذلك الرجل الذى قدم لكى يواجه إقطاعية حوض «الأراوكا» ويوقفها عند حدها .

وكانت المروج ماتزال نائمة قد لفها الظلام بثوبه الأسود، وران عليها الصمت تحت بريق النجوم المتألقة ، وعلى وقع حوافر الخيل وهى تتوغل براكيبها فى المروج كانت تبدو فى الأفق البعيد قطعان من الثيران والخيول الوحشية وهى تفر مذعورة خائفة منذ أن اشتمت رائحة الإنسان المقترب . وكانت العيون لا تميز منها إلا كتلاً سوداء متحركة كأنها قطع من الليل المظلم تتحرك هنا وهناك بين أدغال الأعشاب ، ولها هزيم مكتوم ، وللأعشاب المنفرجة عن أسرابها حفيف خافت ، غير أن رجل السهول بما يتمتع به من حاسة مرهفة لم يكن بحاجة إلى مزيد من الشواهد لكى يميز تلك القطعان بعضها عن بعض كأنه يراها عن كثب رأى العين :

- هذا هو القطيع الذى يقوده الثور الأحمر ، والذى يسرح فى «مرج الكرمة» .

- وذلك هو قطيع «ذى القوائم السود» متجهًا إلى «الكوروثاليتو» .

ووصلت القافلة أخيراً إلى مكان الاجتماع وقد لاحت خيوط الصباح ، وكان رجال «ضيعة الرعب» قد بكروا فى القدوم واكتمل عقدهم هناك تتقدمهم السيدة باربارا ، وكانوا قد وطنوا العزم على أن يفسدوا العمل الذى قدم من أجله لوثاردو ، فيغتنموا فرصة اشتغاله هو ورجاله بجمع ما يجده من ماشيته فى مكان من أمكنة الضيعة ، بينما يعمدون هم على تهييجها وحملها على الفرار فى مكان آخر ، ولا سيما أن عدداً كبيراً من رءوس ضيعة ألتاميرا التى كانت فى أرض السيدة باربارا كان يتألف من أبقار استولت المرأة على عجولها الصغار التى كانت بعد فى سن الرضاع ، فوسمت جنوبها بميسم «ضيعة الرعب» ، وكانت هذه هى الطريقة المفضلة لديها فى الاستيلاء على

ماشية جيرانها بالتواطؤ مع من تستطيع شراء ذممهم من مديرى الأعمال لضياع أولئك الجيران الذى يهملون النظر فى أمور أرضهم .

غير أن أنتونيو فطن إلى ما كانت أعدته من تدبير بحكم معرفته بأساليب المرأة فى تجاربه الماضية ، فلم يكد يرى العدد الكبير من الرجال الذين أتت بهم باربارا حتى همس فى أذن صاحبه :

– لقد أتت بهؤلاء الناس كأنهم سيعينونك على جمع ماشيتك حتى تطمئن وتدخل الثقة نفسك ، فتقوم باستثارة الماشية كلها فى وقت واحد ، وحينئذ يعمل رجالها على تهييجها حتى تتفلت منا فى أنحاء المروج ، ويكون من العسير بعد ذلك أن نميز ماشيتنا ونستخلصها من بين تلك القطعان .

ورسم سانتوس خطته بسرعة على ضوء هذا التحذير الذى أفضى به تابعه إليه . ثم دنا قليلاً من الموضع الذى وقفت فيه السيدة باربارا ، وحياها برفع قبعته وهو فى موضعه ، ولكنها تقدمت نحوه مادة إليه يدها ، وعلى شفتيها تلك الابتسامة التى يكمن المكر فيها وراء ظاهر من الوداعة والنعومة . ولم يكد سانتوس يحقق النظر فيها حتى بدت على وجهه مظاهر الدهشة ؛ فقد تغير مظهرها حتى كأنما تحولت إلى امرأة أخرى مختلفة كل الاختلاف عن تلك الخشنة المسترجلة التى رآها منذ أيام فى مكتب الحاكم المدنى للمنطقة .

كانت باربارا تبدو فى هذه اللحظة امرأة مكتملة الأنوثة ، وقد أسبلت عينيها المتألقتين الساحرتين كأنما تنتظر قبلة من رجل ، وضمت شفتيها المكتنزتين فارتسم إلى جانبيهما فى وجنتيها قوسان أبرزا جمال طلعتها ، وكانت تعقد فى جيدها منديلاً من الحرير الأزرق تتهدل أهدابه على صدرها فوق فتحة ثوبها الواسعة ، أما الجزء الأسفل من ثوبها فقد كان من ذلك النوع الذى يستخدمه النساء عند ركوب الخيل ، ولاحظ سانتوس أنها لم ترتد من زىّ الرجال الذى اعتادت لباسه إلا تلك القبعة العريضة من السعف المجدول ،

مما يستخدمه رعاة السهول ، وإن كانت قد أحكمت إثباتها على رأسها في دلال حلو وأنوثة رقيقة ، حتى الطريقة التي انتصبت بها على صهوة جوادها كانت على النحو المألوف لدى النساء ضامة ساقيها إلى جانب من ظهر المطية لا كما اعتاد الناس هناك أن يروها حين تركب . نعم ... كان كل شيء يدل على أن باربارا في تلك الساعة لم تعد تلك المرأة المسترجلة التي يبست على جسدها كل علائم الأنوثة .

ولم يغب عن سانتوس أنها لم تصطنع هذا المظهر الجديد إلا لتقع من نفسه موقع القبول ، ولكنه على الرغم من تأكده من ذلك لم يستطع أن يتمالك شعوراً قاهراً بالإعجاب بها .

وأما هي فإنها لم تكد تنظر إليه بدورها حتى امَّحَتْ عن قسماتها تلك الابتسامة التي تستبطن المكر والخبث ، وداخلها ذلك الشعور الذي أحست به من قبل : بأن حياتها منذ تلك اللحظة منساقة في تيار جديد غريب لا تعرف إلى أين سينتهي بها ، شعور غامض يضطرب دائماً في نفوس المؤمنين بالقدر المكتوب الذي لا حيلة للإنسان في دفعه ولا رده ، ويلقي في أنفسهم إرهاصاً بما بيته الغيب لهم دون أن يستطيعوا منه نجاة ولا فكاكاً . لم تعد باربارا تذكر تلك الكلمات المتوددة الملاطفة التي كانت قد أعدتها في عناية لهذه المناسبة ، وانحسرت عن قلبها المظلم تلك النوايا السود التي كانت تستمد وجودها من العاطفة الوحيدة التي وجهت حياتها حتى ذلك اليوم : عاطفة البغض الشديد للرجل ... لكل رجل ! شعرت باربارا فجأة ، بأن كل ما كانت تحس به نحو الحياة ونحو الرجال قد زايلها فجأة ، وحل محله إحساس جديد ... ماكنهه وما طبيعته ؟ سؤال لم تستطع هي أن تجيب عنه في تلك اللحظة .

وتبادلت معه بعض الكلمات ، وكان سانتوس لوثاردو يتوجه إليها بالخطاب في أدب بالغ وتهذيب رقيق كما لو كان يتحدث في بعض حفلات

المجتمع الرفيع مع سيدة جديرة بالاحترام ، فكانت تتعثر فى الجواب وقد بهرتها هذه الكلمات المنتقاة المهذبة ، وإن كانت فى الوقت نفسه جافة باردة . وكان أكثر ما أخذ بنفسها هو ما كانت ترى عليه من مظاهر الرجولة الحقة ... من ذلك المزيج الذى لم تره فى رجل قبله من الشعور بالكبرياء والكرامة والحديث اللطيف الرقيق . وهى تستعرض الآن من مروا على حياتها من رجال ، فترى بين سانتوس لوثاردو وبينهم بونا شاسعًا ، فهى لم تجد فى أحد منهم ما تجده الآن فى هذا الفتى من علائم القوة والاعتداد بنفسه ، تلوح فى نظراته الحادة التى تبدو كأنها نار هادئة ، وفى التعبير الصارم الرزين الذى يرتسم على وجهه ، وفى الكلمات القليلة التى يبين عنها فى إفصاح وضغط على مخارج الحروف .

كان سانتوس لا يتحدث إليها إلا بقدر - حديثًا موجزًا متعلقًا بشئون العمل ، ولكنها كانت تجد فى حديثه راحة لنفسها ، وفى الاستماع إليه لذة ومتعة .

وكان بالبينو بايبا لا يرفع نظره عنهما وقد رابه وساءه ما بدا على باربارا من إعجاب بالفتى وارتياح إليه ، ولكنه كان يحاول مداراة امتعاضه وضيقه بالتندر على سانتوس والسخرية منه مثيراً بذلك ضحكات رجاله من رعاة «ضيعة الرعب» وأجرائها، هذا بينما وقف رجال لوثاردو بعيداً يتبادلون الحديث والتعليق على ما يرون .

وبدأ سانتوس بعد لحظات يلقى بأوامره وتعليماته حول سير العمل ، ولكن بالبينو الذى لم تكن تستقر فى رأسه أية فكرة خبيثة لم يستطع البقاء فى هدوء ، فسارع إلى مقاطعته :

- إننا ثلاثة وثلاثون رجلاً ، ويمكن لنا جميعًا أن نستثير الماشية كلها فى وقت واحد ، فإن ذلك خير للإسراع فى العمل .

وشعـر بالبيـنو بالارتياح ، كـأنما تخلص بكلمتـه هذه من عبء كان يثـقل ظهره ، وتبادل أنتونيو النظرات مع سانتوس ، ثم أجاب هذا :

- لا . لا ضرورة لذلك ؛ إذ إننا سنعمل اليوم فى جماعات صغيرة يشترك فى كل منهـا رجال منا ومـنكم : رجل منا لكل ثلاثة منكم ؛ إذ إن من أتيـتم به يبلغون ثلاثة أضعافنا نحن .

فاعترض بالبينو :

- وهذا الخلط بين رجالنا ورجالـك ، ما العلة فيه ؟ لقد كـان العمل دائمًا يتم هنا على أساس أنكم فريق وأننا فـريق ، ثم يشتغل واحد بتمييـز المـاشية فى مرج من مروج الضيعة ، بينما يقوم الثانى بتمييزها فى مرج آخر .

- نعم . أعرف ذلك ، ولكن العمل سيتم اليوم على أساس جديد .

وعاد بالبينو إلى السؤال فى لهجة احتجـاج واستنكار ؛ فقد كان ما اقترحه سانوس لوثاردو مـفسدًا للخطة التى كانت باربارا قـد رسمتهـا من قبل ؛ إذ إن وجود رجل من رجاله مع كل جماعة من رجالها كـان كفيلاً بأن يضمن مراقبة العمل والحيلولة بين أتباعها وبين ما أرادوه :

- هل أفهم من هذا أنك لا تثق فينا ؟

وهم لوثاردو بالجواب ، لولا أن باربارا تدخلت قائلة :

- سيكون العمل كما أردت أن يكون يادكتور لوثاردو . وإذا كنت ترى أن رجالى يزيدون عما يقتضيه العمل ، فإنى مستعدة لصرف من تريد منهم .

فقال لوثاردو فى جفاف :

- لا حاجة بنا إلى صرف أحد منهم ياسيدتى .

وعقـدت الدهشة ألسنة رجـال «ضيـعة الرعـب» ، وتبـادلوا النظرات فيـما بينهم ... نظرات كـانت تعبـر فى وجوه بعضـهم عن الاستيـاء والتـذمر ، وفى وجوه آخريـن عن التعريض المـاكر بما قـد أصاب سيدتهم من تحـول له دلالته ، اختـلف ذلك بحسب درجـة الإخلاص الذى كـان هؤلاء وأولئك يشعـرون به نحو المرأة ، بينما ارتفعت يـد بالبينو إلى شاربيه يربت عليهما كـما كانت عادته كلما وخـز الغيظ صـدره ، أما رجال سـانتوس فـقد كانوا يراقـبون المشـهد فى صمت ، وإن كـان باخاروتى قـد انطلق - وهو يصطنع التشـاغل بشىء آخر - يدندن أغنية فى صوت لا يكاد يبين من بين أسنانه :

- الثور يصفر للبقرة ، فتحن له وتهرع .

وأما العجل الصغير فينصرف عنها إلى حال سبيله ...

ولـم تكن أغنية باخاروتى إلا تعريضًا عبر به عن الفكرة التى دارت برءوس جميع الحاضرين :

- لقد وقـعت المرأة فى غرام سانتوس لوثاردو ، أمـا بالبينو فليوطن نفسه على قرب الرحيل ، وليبحث لنفسه عن «مرعى» آخر !

والتفت لوثاردو فى هذه الأثناء إلى أنتونيو ، فقال له :

- تكفل أنت يا أنتونيو بإدارة هذا العمل وتوزيعه .

وبدأ أنتونيو فى إلقاء أوامره باعتباره نائبًا عن سانتوس ووكيلاً له فى إدارة شئون الضيعة ، فقال وهو يتجه إلى رجال السيدة باربارا :

- ليخـرج من هناك الرجل ذو الحصـان المرمرى ، وله أن يختـار من رجاله خمسة ، وليرافقهم كارمليـتو وبارخاروتى ، ثم ليخرج الجميع إلى ما وراء هذه الربوة ، فيـستـثيروا مـا هناك من ماشـية ثم يميزوهـا . واذكروا أن تلك الرءوس ستجرى مصعدة على سفح الربوة ، فدعوها تفعل .

ولكن الرجل ذا الحصان المرمرى لم يبد عليه أنه سمع ؛ إذ لم يتحرك من مكانه بين صفوف رجال السيدة باربارا ، فعاد أنتونيو يقول مشيراً إليه :

- إنما أوجه الكلام إليك أنت ياصديقى !

وكان الرجل المعنى واحداً من الإخوة الثلاثة المعروفين باسم «الموندراجونس» ، وكان هو الذى يلقبونه بـ «الفهد» . وكان أنتونيو قد ترك له حرية اختيار أخويه من بين مرافقيه . وإن كان قد وكل بهم كارمليتو وباخاروتى ، وكانا لا يقلان عن أولئك الإخوة رجولة وجرأة .

وبقى الرجل واقفًا فى مكانه لا يتحرك ، وقد غاظه أن يتلقى مثل هذا الأمر من أحد رجال لوثاردو ، ثم أجاب :

- إن لى اسمًا أدعى به ، ولقبًا يعرفنى به الناس .

وعاد رجال ألتاميرا إلى تبادل النظرات ، وقد أعدوا أنفسهم لكل احتمال طارئ ، وكأنما كانوا يقولون :

- ها هو ذا الأمر قد بدأ يهدد بالانفجار !

غير أن السيدة باربارا عادت مرة أخرى إلى التدخل قائلة لتابعها :

- افعل ما أمرت به ، وإلا فانصرف لشأنك !

وأطاع «الفهد» فى تململ وتثاقل وهو يجمجم بعبارات امتعاض ، ثم خرج بعد أن اختار أخويه لمرافقته وتوجه إلى أصحابه بقوله :

- مازال هناك فى فريقنا مكانان لرجلين آخرين لمن يريد منكم الخروج معنا .

أما كـارمليـتو وباخـاروتى فقـد رفع كل منهمـا إلى وجه صـاحبـه نظـرة سريعة ، وتمتم ثانيهما بصوت لا يكاد يبين :

- سنرى الآن ما إذا كانوا رجالاً أو نساء .

واستمر أنتـونيو فى توزيع الرجال جماعات ، ثم حدد لكل جمـاعة مرجًا تباشر عملها فيه ، فلما فرغ توجه إلى بالبينو بايبا فقال له :

- أما أنت فإذا كنت تريد أن تأتى معى ...

وإنما أراد أنتونيو بدعـوة بالبينو أن يحفظ له رتبته ، ولهذا فـقد عرض عليه أن يرافقه باعتـباره هو نائبًا عن سانتوس وباعتبار بـالبينو فى مثل هذه المرتبة من السيـدة باربارا ، وكان التقليد يقـتضى أن يترافق الأكـفاء ، ولكن ذلك لم يكن هو الحافز الوحـيد لأنتونيو ؛ إذ أراد فى الوقت ذاته أن يتيح لنفسـه فرصة مماثلة لما أتاحـه لزمـيليـه كـارمليـتـو وباخـاروتى حـينمـا أخـرج مـعهـمـا الإخـوة «الموندراجونس» ، فـقد كان أنـتونيو يتـوق إلى أن يقتضى من بالبـينو دين تلك العبارات المتكبرة المتعـجرفة التى وجهها هذا إليه فى صبيـحة اليوم التالى لقدوم سانتوس لوثاردو إلى ألتاميرا بسبب ترويض الجواد الأحمر .

وكان بالبينو قد فطن إلى ذلك ، فرفض دعوة أنتونيو وهو يقول :

- شكرًا لك ياسيدى ، ولكنى سأبقى هنا مع بياض الناس .

و «بيـاض الناس» فى اصطلاح أهل السـهـول تعـبـير يعـنون به اجتـمـاع أصحاب الضيـاع الذين يحضرون أعمال «المجاولة» دون أن يشتركـوا فيها ، بل يكتفون بمراقبة تجميع رءوس المـاشـية وتمييزها وفصل ملك كل واحد عن ملك غيـره ، وذلك حتى يحـموا حـقوقهم ومـصالحـهم . وقد كان «بـياض الناس» الذين يجتمعون لحضور المجاولات العامة فى أيام خوسيه لوثاردو والدسانتوس

يقدر بنحو عشرين من ملاك الضياع فى هذه البقعة من حوض «الأراوكا» ، ولكن أملاك هؤلاء انتقلت بعد ذلك إلى يد السيدة باربارا التى ابتلعتها واحداً واحداً ، ولم يبق من تلك الأراضى إلا أسماؤها القديمة التى أصبحت تطلق الآن على مختلف المروج التى تتألف منها «ضيعة الرعب» .

كان سانتوس يفكر فى ذلك ، فبقى ساهما يجتر تلك الذكريات ، وهو فى شغل عن ذلك الحديث المتواصل الذى كانت باربارا تحاول به إخراجه عن صمته وجره إلى مبادلتها الكلام تمهيداً لعلاقة مستقبلة من الود والصداقة ، ولم تكن المرأة تتوجه إليه هو بالحديث على نحو مباشر ، وإنما كانت تتظاهر بمخاطبة بالبينو خائضة معه فى أمور شتى ، إلا أن واجب اللياقة والأدب كان يقتضى أن يشارك هو فى الحديث ويتدخل فيه .

وأخيراً عزمت باربارا على أن تلقى إليه بالخطاب فى صراحة :

- ألم تر مجاولة من قبل أبداً يادكتور لوثاردو ؟

فأجاب دون أن يلتفت للنظر إليها :

- حينما كنت صبيًا صغيراً ، ولهذا فإن كل ما أرى الآن يعتبر فى نظرى فى حكم الجديد .

- حقًا ؟... أنسيت إذن تلك العادات التى جرى عليها أهلك فى أرضك ؟

- لك ياسيدتى أن تتصورى ذلك ... سنوات طويلة وأنا بعيد عن هذه الأرض !...

فنظرت إليه نظرة طويلة ، وكأن عينيها تلاطفانه فى رقة وحنان ، ثم قالت :

- ومع ذلك فقد سمعت عن ترويضك للجواد الأحمر ولما يمض على وصولك أيام ... إنها لمأثرة مجيدة رائعة ... وهى تدل على أنك لست من ضعف الذاكرة بحيث تريد تصوير نفسك .

وكان سانتوس يصغى إلى صوت باربارا ... صوت غريب كأنه ناى ينفخ فيه ذلك الشيطان الذى يكمن فى جسدها ويجعل منها مزيجًا متنافرًا اتحدت فيه خشونة الرجل ورقة الأنثى ... هزيم الغابة الأجش وأنين السهول الحاد . كان لصوت باربارا رنين ينفرد به ، وسحر طالما فتن قلوب من ينصتون إليها من الرجال ، ولكن سانتوس لوثاردو لم يكن هناك لكى يتمتع بجمال صوتها أو سحر نبراتها . حقًا إنه شعر فى بعض اللحظات برغبة تدفعه إلى استطلاع تلك الهوة السحيقة المظلمة التى تكمن فى أعماق روحها واستكناه ذلك السر الغامض الذى جعل من هذه المرأة مزيجًا من الجمال الجذاب والوحشية المنفرة فى آن واحد ، ولكن هذه الرغبة التى جاشت بها نفسه لم تكن إلا ضربًا من ضروب التجارب الذهنية المثيرة .. مثلها فى ذلك كمثل ما يثور فى نفس الإنسان من أحاسيس وهو يتأمل مظهرًا هائلاً من مظاهر الطبيعة ؛ إذ يعجبه ما يتصف به من جمال ويأخذ بقلبه ما يراه فيه من هول ورهبة ، ولكنه لا يملك نفسه على كل حال من محاولة استطلاع سره واستكشاف حقيقته ، ولكن شعورًا مفاجئًا غلب عليه فى تلك اللحظة ، فصرفه عن تلك «المغامرة العقلية» التى هم أن يخوضها : شعورًا من الاشمئزاز والنفور من رفقة تلك المرأة ، لا لأنها كانت عدوًا له ، وإنما كان شيئًا غامضًا يحس به دون أن يدرك له تفسيرًا . فلم يلبث أن قطع حديثه معها وتوجه بعيدًا إلى حيث كان بعض رعاة «ضيعة الرعب» يراقبون عددًا من رءوس الماشية المستأنسة كانوا يستخدمونها لترويض الأبقار الوحشية .

وابتسم بالبينو بايبا ، وامتدت أصابعه إلى شاربيه يمسحهما فى شماتة وهو يرى سانتوس منصرفًا عن باربارا فى مجافاة وصدود ، وكان يراقبهما عن كثب فى تستر ، ولكنه لم ير فى هذه المناسبة ما اعتاد أن يراه على وجه المرأة من

مظاهر الضيق والغضب، ولم ير حاجبيها وهمـا ينقبضان ثم ينفرجان فى سرعة كأنهما جناحا صقر ، وإنما رأى على وجهـها تعبيراً لم يسبق له أن رآه من قبل ، وفى عينيها نظرة ساهمة شاردة كأنما ذهب بها التفكير إلى آفاق بعيدة .

وكان الرعـاة قد فرغـوا من استثـارة المـاشيـة ثم تجميـعها ، فـبدت المروج مكتظة بها بعـد أن كانت ترى من قبل وكأنها مـهجورة خاليـة . كانت القطعان تظهر من بين أدغال الحشائش ومن الوهاد البعيدة قوافل كبيرة من المـاشية وهى تركض ركضًـا مرحًا صاخـبًا ، وقد تقدمـتها الثيـران الفحول ، أما الإناث فـقد أحاطت بها عجولها الصغار وهى تتـوثب من حولها ، وأما التى ظلت جموحة نفورة فقد كانت تحاول الإفلات وهى تطلق خواراً فزعًا حزينًا .

وتعالى صياح الرعاة ، وتزايد ركض المـاشية الوحشية وهى تنطلق فى كل صـوب محـاولة أن تجد لهـا منافـذ عبـر الحصـار المحكم الذى كـان الفرسـان يضيـقونه حولهـا أعلى صـهوات خيولهم . أمـا الثيران المتـوحشة فقـد كانت تخفض رءوسها وهى تندفع هنا وهناك مستعدة للهجوم والقتال ، ولكن الرعاة لم يدعوا لها فرصة لذلك فقد زادوا من سـرعة جيادهم وأطلقوا عددًا هائلاً من قطعان البقـر المستأنس مختلطة بالثيـران المتوحشة حتى تكسر من حـدة هياجها وتحيل اندفاعها للهجوم إلى خوف وفرار .

وبدأت بعض القطعان تتجمع فى المكان الذى أعـد لها حيث كانت بعض الرءوس المسـتأنسـة ، ولكن بعضـها الآخـر كان يواصل مـقاومـته المسـتبسلة مسـتعـصيًا على الرعـاة المكلفين بسوقـها ، وكـان على هؤلاء أن يضاعـفوا من جهودهم فيـتوثبوا على ظهور جيادهم هنا وهناك حتـى لا ينفرط عقد القطيع ، وهو ما يقـتضى من الفـرسان والجـياد على السـواء مهارة مـتناهية فـيمـا كانوا

يضطرون إليه من تغيير مفاجئ لخط سيرهم ومن محاولة ما قد يتعرضون له من هجمات الثيران الوحشية .

وشرع الرعاة فى تجميع القطعان التى كلف كل منهم بقيادتها إلى المكان الموعود ، وكانت جلبتهم وخوار الماشية تتزايد وتتعالى ، وقد ثارت من حولهم عواصف من الغبار الكثيف ، ومن هنا وهناك تسمع صيحات الرعاة المختلطة :

- هيـ...و ...ـو ! .... هيـ...و ....و !... سدوا الطريق من هنا !... ضيق الحصار هناك !....

كان سانتوس لوثاردو يتأمل هذا المشهد المثير وقد توهجت نظرات عينيه ، والذاكرة تعود به سنين إلى الوراء أيام طفولته حينما كان يشترك إلى جوار أبيه فى غمار هذه المعمعة مع الرعاة المكلفين بأعمال المجاولة ، وأحس بأن أعصابه التى كانت قد نسيت هذا الانفعال العارم تعود الآن إلى الاهتزاز بقوة وعنف إزاء ذلك المنظر الرائع الذى يبذل فيه الرجال والثيران على السواء من الشجاعة والاستبسال كل ما وسعهم . لقد كان سانتوس يعجب دائمًا بهذه السهول ؛ إذ يراها تمتد أمام عينيه فسيحة رهيبة جميلة ، ولكنه يحس الآن وهو يشهدها ميدانًا لتلك المعركة كأنها زادت فسحة ورهبة وجمالاً أكثر مما كانت عليه فى أى وقت مضى ، فقد كان يرى بين أطرافها المترامية كيف يخلق الإنسان الحضـــارة ... كيف يذلل الوحش ويستأنسه ... ثم هو يرى أخيرًا فى هذه الأرض العريضة متسعًا للجميع .

وتم تجميع الماشية ، وتوقفت أعمال المجاولة ، وبدا المكان مكتظًا بمئات ومئات من رء وس الماشية . كان العمل عسيرًا عنيفًا : الجياد تلهث وقد تصبب منها العرق وغطت أفواهها طبقات من الزبد ، وتخضبت جنوبها بالدماء ؛ إذ كان كثير منها قد أصابته نطحات الثيران المتوحشة . ولكن العمل لم يكن قد

انتهى بعـد ، فقد كانت الثيران الهائجة مـا تزال قلقة لم تيأس بعد مـن استرداد حريتها المسلوبة ، فكانت تشق طريقها بين المـاشـية المستأنسة فى عنف لا يعرف الهوادة ، وهـى تتشمم هـواء المرج الطليق عبـر السيـاج الخشبى الذى انـتصب حائلاً بينها وبين الحرية ، دون أن تدع للرعاة الواقـفين هناك لحظة يتنسمون فيها هدوءًا أو راحة ، وكـان الضجيج يتـعالى فى أنحاء المروج ، وأصـواته المختلطة المتنافرة تكاد تصم الآذان : أنين الأبقـار التى كانت تنادى صغارها الضـائعة فى غمار الزحام ، ورغـاء هذه وكأنها تسأل عن أمهاتها فى حـزن وحسرة ، وخوار الثيران الفحول التى كانت تبحث عن قطعـانها التائهة ، وهذه تجاوبها عن بعد ، واصطدام قرون بعضها ببعض وهى ذاهبـة جائية ، وصياح الرعاة يتناوبون وقد جفت حلوقهم وبحت أصواتهم .

وبدا أخيرًا أن المـاشية قد استسلمت لمصيرها ، فقد هدأت ثورتها ، وبدأت الثيـران الفحول التى كانت تـقود القطعان المختلفـة فى التعرف على قطعـانها ، وشرع كل من هذه فى التجمع حول قائده ، وأصواتها تخفت ، ونزعاتها الثائرة آخذة فى التطـامن والسكون ، بينما كان الرعاة يحدونها بما اعتادوا أن يترنموا به من غناء يعين على تسكين هياجها ، وهم فى أثناء ذلك يضـيقون حلقة الحصار مكونين دائرة كبيرة حول المـاشية المتجمعة ، حتى إذا اطمأنوا لذلك توجه الرعاة الذين جرحت خـيولهم فى المجاولـة إلى دغل قريب لكى يستـبدلوا بها خـيولاً أخرى . وتهـيأ أنتونيو للإلقـاء بأمره إلى الرعاة بأن يخرجـوا المـاشية المستـأنسة التى استعانوا بهـا على تهدئة الثيران الوحشية حتى يبـدء وا العمل فى تمييز الرء وس وفصل ما هو ملك منها لصاحبه عما هو ملك للسيدة باربارا ، غير أن شيئًا وقع فى هذه اللحظة كـاد يؤدى إلى إفساد مـا اجتهـد الرعاة منذ صبـاحهم فى القيام به ، فقـد ترجل أحد القائمين بالحراسة عن جواده مـتشاغلاً بإحكام رباط سرجه بينما كان ثور هائج يقتحم خشب السياج فى الموضع الذى كان فيه ذلك

الحارس نافذاً من الثغرة التى فتحها فى السياج ، ولم تر بقية الماشية ذلك حتى انثالت وراءه محاولة الفرار إلى الخارج .

وتنبه بعض الرعاة إلى ذلك الخطر ، فصاحوا كلهم فى صوت واحد :

- أقفل تلك الثغرة !... أقفل !...

وهرعوا إلى المكان فى ركض سريع يحاولون الحيلولة بين الماشية وبين ما كانت مقبلة عليه من الفرار والتفرق .

ولكن الوقت كان قد فات ، فقد تمكنت قطعان كثيرة من النفوذ من تلك الثغرة وراء ذلك الثور الذى فتح بابها فى وجوهها ، وعادت إلى التبدد فى أنحاء المرج دون أن يستطيع الرجال الوقوف دونها .

- يا للساحرة الملعونة !

هكذا صاح رجال ألتاميرا وهم ينسبون الحدث الواقع إلى ما ثبت من أذهان الناس هناك من قوى السحر الأسود التى تعين باربارا ، غير أن أنتونيو الذى كان يراقب المشهد لم يفته أن الإهمال الذى وقع من حارس تلك الجهة من السياج والذى أدى إلى تفرق الماشية وانفلاتها لم يكن محض مصادفة ، بل كان أمراً دبره عن عمد وسوء نية ، ولاسيما أن ذلك الحارس لم يكن إلا واحداً من الإخوة «الموندراجونس» وهو المدعو بالفهد .

وكان «الفهد» قد لاحظ فى أثناء المجاولة أن هناك عدداً كبيراً من الأبقار المتجمعة يحمل سمة ضيعة ألتاميرا وإن كانت صغارها الرضيعة قد وسمت غصباً بميسم «ضيعة الرعب» ، وهكذا رأى أن الفصل بين ماشية الضيعتين سيعود بالخسارة على سيدته باربارا ؛ إذ سيؤدى إلى فقدها كل هذا العدد من الرءوس . ومن أجل هذا تعمد أن يتظاهر بإصلاح رباط سرجه متغافلاً عن

ذلك الثور الذى اقتحم السياج فى الموضع الذى كان مكلفًا بحراسته ، حتى تعود الماشية إلى التبدد .

ولكن إخلاصه لباربارا كلفه ثمنًا باهظًا ، فقد انطلقت الماشية وراء ذلك الثور الهائج كأنها إعصار ، وحاول «الفهد» الفرار فلم يستطع ؛ إذ أعجله تزاحم الثيران ووثوبها عليه وعلى حصانه ، ولم تمض لحظات حتى كانت الماشية تدوسهما بأظلافها قطيعًا بعد قطيع ، فلم ينجل الغبار بعد ذلك حتى هرع الرعاة إلى حيث كان ، فالتقطوه من الأرض وقد أصبح كتلة مختلطة من اللحم والعظام ، تغطيها طبقة من الدماء والطين .

وفى هذه الأثناء كان سانتوس لوثاردو قد ترك العنان لجواده ، وقد غلبت عليه طبيعة أهل السهول الذين لا يعرفون أمام الخطر قعوداً ولا إحجامًا ، فانضم إلى بقية الرجال الذين هرعوا ليسدوا الطريق على الماشية المنطلقة الجامحة .

ثم انبعث من ورائه صوت يصيح به :

– حاذر ! فإن قطيعًا آتيًا من ناحية هذا الدغل يوشك أن تندلع فيه الثورة ، وعلى رأسه ثور جامح يتقدم بنية الهجوم .

وكان صوت باخاروتى الذى شد وراء سانتوس للحاق به قبل أن يتعرض لصدمة ذلك الثور ، وهرع إليه كذلك أنتونيو وكارمليتو وبعض رجال السيدة باربارا ، وقد حمل كل منهم الحبال فى أيديهم مستعدين لإلقائها على الثور الهائج الذى كان هو قائد القطعان التى اقتحمت ثغرة السياج .

ولكن سانتوس استعد بحبله أيضًا وتهيأ لإلقاء أنشوطته على ذلك الثور متجهًا إلى الناحية التى أشار إليها باخاروتى .

وبدأت رءوس الماشية التى انفلتت من السياج جريها وراء هذا الثور ، متجهة إلى مخاضة قناة كانت تقطع المروج فى تلك الناحية ، وصياح الرعاة يحيط بها من كل جانب ، فلما رأت دنو الرجال الذين أسرعو الاقتفاء أثرها توقفت عن المسير ، وتفرق شملها، وقد شهرت قرونها مستعدة للقتال، وقد تقدمها ذلك الثور الضخم قائد القطيع .

وصاح باخاروتى :

- إن هذا هو الثور القسطلى اللون ذو الغرة الذى لم يزل صيده مستعصيًا علينا منذ سنتين ، ولكنه لن يفلت من أيدينا اليوم !

وتوقف الثور لحظة ، ثم ظل يجرى هنا وهناك وقد خفض رأسه ، وقوس ظهره مصلتًا قرنيه الهائلين ، وعيناه تدوران بين الرجال الذين كانوا يتبعونه يستعرضهم ليرى على من يبدأ الهجوم ، ثم إذا به ينطلق فى سرعة السهم ناحية سفح الربوة التى كان لوثاردو محاذيًا لها .

وعاد باخاروتى للصياح محذرًا صاحبه ومشيرًا عليه :

- أوسع له الأنشوطة الخفيفة ، فهو مقبل عليك الآن !

بينما صاح به أنتونيو وكارمليتو وقد رأياه فى موقف حرج بين القائم لما على سفح الربوة والثور المهاجم له ، وهما يجريان لنجدته :

- ... أو دع الصدمة الأولى يتلقاها الحصان !

ولكن سانتوس لوثاردو لم يكن من القرب بحيث يسمع تحذير أصحابه ولا نصائحهم ، وإن كان فى الواقع غير محتاج إليها ؛ إذ لم يكن قد نسى تجاربه الماضية فى مثل هذا الموقف وهو صبى فى الخامسة عشرة من عمره . وهكذا لم يكد الثور ينقض عليه حتى حاد بجواده عنه فى مناورة

لا يحكمها إلا فارس مجرب ، وبهذا تجنب الصدمة وقطع الطريق على الثور ، ثم قذف بأنشوطته عليه من فوق كفل جواده ، فاشتبكت بقرنيه .

وصاح باخاروتى فى حماسة وابتهاج :

- يا لها من قذفة ماهرة تدل على أن صاحبها ممن يعرفون كيف تحز المفاصل !

وأوقف سانتوس جواده فجأة حتى تستحكم الأنشوطة وتوثق رأس الثور ، ولكن هذا كان من الثيران ذات القوة الهائلة التى لا تكفى أنشوطة واحدة لشل حركتها وتبريكها على الأرض، غير أن اعتلاقة الحبل برأسه باغتته وأقعدته على قائمتيه الخلفيتين، وكان الحبل قبل أن يضيق على قرنيه قد جذب بذيله جذبة قوية آلمته ، فأطلق صرخة مختنقة ، ثم بدأ يتململ ويتضور محاولاً تخليص رأسه من الأنشوطة . وفى هذه اللحظة أدركه أنتونيو وكارمليتو وباخاروتى ، فقذفوا عليه بأناشيطهم حتى أحكموا وثاق قرنيه ، وانطلقوا يصيحون فى صوت واحد :

- ها نحن أولاء قد «ألبسناه» !...

وهدأت الجياد من سرعتها وارتعدت الحبال فى أيدى الرجال وهى تضيق حصارها على الثور حتى أضجعته على الأرض مثيراً من حوله إعصاراً من الغبار .

ولم يكد يسقط إلى الأرض حتى صاح أنتونيو :

- أدخل أنت ذنبه بين رجليه يا باخاروتى ، وسأتكفل أنا بغرس قرنيه فى الأرض بينما يعمل كارمليتو على شل حركته .

وأمر سانتوس أصحابه وهو يذكر أيامه الخالية :

- اخطموه واخصوه وهو فى مكانه هذا .

فقبض باخاروتى على ذيل الثور فى قوة وأنفذه بين رجليه . ثم مضى يدفعه بكل قوته حتى أضجعه على جنبه ، بينما كان أنتونيو متكئًا على رأسه حتى يغمد قرنيه فى تراب الأرض فلم تعد به قدرة على الحراك ، وأسرع كارمليتو إليه وهو فى صدمة المفاجأة قبل أن يسترد أنفاسه ، فثقب أنفه وأنفذ فيه خطامًا ليذلل به قياده ، ثم خصاه بضربة سريعة صائبة ووسم أذنيه بميسم ألتاميرا ، فلما فرغ من عمله قال وهو يتنفس الصعداء :

- لقد أمنا جانب هذا الوحش ، فلن يعود بعدها إلى إقلاق مضاجعنا . وعلينا الآن أن نربطه إلى جذع شجرة .

وأضاف باخاروتى فى زهو :

- إن هذا المارد من سلالة «لوثاردية» عريقة الأصول ، ولهذا فقد طالما استعصى على القانصين إذ لم يكن يريد أن يوسم إلا بالسمة التى حملتها أمه من قبل ، فظل ينتظر حتى يلقى بيديه إلى سليل أسرة لوثاردو نفسه ، ومن أجل ذلك لم يسمح لأحد منا باقتناصه فى المحاولة الأخيرة !

فقال كارمليتو مكملاً عبارة زميله :

- ولقد تم اقتناصه على الصورة التى تتلاءم مع مكانته وقدره ! وإنى لأتساءل : إذا كان حديثو العهد بهذا العمل يلقون بالأنشوطة على ما رأينا فما الذى تركوه إذن لأمثالنا ممن قضوا زهرة حياتهم فيه ؟!

وهتف أنتونيو ساندوفال وهو مبتهج لما أظهر سانتوس من براعة ومقدرة :

- إن السهلى يظل سهليًا حتى الجيل الخامس من السلالة المنحدرة من صلبه !

وفى هذا الوقت كـانت السيـدة باربارا قد وصلت إلى المكـان ، فتوجـهت بالخطاب إلى سانتوس لوثاردو وقد أضاء وجهها بابتسامة مشرقة :

- يالك من سهلى مـاكر !... ومع ذلك فإنك تدعى نسيـانك لعادات أهل أرضك !

نطقت بهـذه العبـارة دون أن تعـبأ بما تعـرضت له منذ لحظات من إهمـال الفتى لها وصدوده عنها وهى تحاول مبادلته الحديث ، وكأنها تتجاهل أنها وهى نفسها تعرف كيف تقتنص الثيران بأنشوطتها خيراً مما فعل لوثاردو ، بل وتحسن كل ما فعله رجاله وأعوانه وحدها بغير معونة أحد .

غير أنها فى تلك اللحظة لم تكن إلا امرأة أعـجبها وبهر نظرها ما رأته من رجل كان يهمها أن تتوثق صلتها به .

وأجاب سانتوس :

- ليس فى الأمر ما يستحق مدحـًا ولا إطراء ياسيدتى ، فهذا شىء لم أقم به وحدى ، فالفـضل فيه إذن ليس لى . وعلى أية حال فـإن الذى طالمـا سمعت به هنا هو أنك أنت تحـسنين من أسـاليب الاقـتناص مـا لا يجاريك فـيـه أمهـر رجالك المجربين .

وعادت باربارا إلى الابتسامة وهى تقول :

- أرى من هذا إذن أنهم حـدثوك عنى . فمـا الذى قالوه غيـر ذلك ؟ إننى أيضًا أعـرف الكثيـر عن نفسى مما أسـتطيع أن أقصه علـيك مما لا أظن أن أحدًا رواه لك ، ولكن سيكون لدينـا متسع من الوقت لكى نتـحدث عن كل هذا ... أليس كذلك ؟.

فأجاب لوثاردو فى لهجة حاول أن يفهمها بها قلة ترحيبه ما عرضت له به :

- بلى ... سيكون من الوقت متسع على ما أقدر .

ولكنها لـم تحمل عبـارته على ما أراد هو أن تفـهم منها ، فحـدثت نفسـها قائلة :

- الآن أرى أن هذا أيضًا قد وقع فى الأنشوطة !...

ولم يتلبث لوثاردو ؛ إذ سرعان ما أعمل مهمازه فى جنب جواده ، فانطلق به مسـرعًا لكى يلحق بأصحـابه الذين كانوا يبـتعدون عن بصـره بعد أن ربطوا الثور إلى جذع شـجرة من أشجار الدغل ، ومرة أخرى ترك المرأة وحـيدة واقفة فى المرج .

وظلت باربارا لحـظة فى ذلك المكان لم تتـحـرك عنه ، وهـى ترقـب الفـتى النفور يبتـعد عن مرمى بصرها ، ولكن ابتسـامة الأمل والثقة فى اقتـراب موعد الانتصار ظلت متألقة على وجهها ، وهى تتمتم قائلة :

- لندعه يذهب . لقد انـتشبت رأسه فى الأنشوطة ، فـلا ضير أن أرخى له الحبل قليلاً !...

ومـدت باربارا نظرها بعد ذلك إلى حـيث اضطجع الثـور الصريع ، وقـد التصق رأسه ذليلاً بتراب الأرض عند جذع الشـجرة ، وقد آلمـه ما أوقعوا به من المثلة ، فظل يخور خواراً يصم الآذان .

وابتسـمت باربارا مـــرة ثانيـــة ، ولكن ابتـسامتـها فى هذه المرة كـان لها معنى جـديد !...

الفصل الخامس

أحوال السيدة باربارا

كان ما أصاب السيدة باربارا من تغير غريب طرأ على أحوالها منذ ذلك اليوم مثيراً لتساؤل الرجال فى «ضيعة الرعب» ولتعليقاتهم الفكهة الضاحكة :

– ليت شعرى يارفيقى ... ما الذى حدث للسيدة فى هذه الأيام ؟ لقد كفت عن القدوم إلى هنا كما كانت تفعل ، لم تعد تأتى لتعنيفنا والصراخ فى وجوهنا كما كانت تصنع حينما تتعكر فى عروقها دماء أبيها الأبيض وأمها الهندية . فتنتفخ أوداجها وتنطلق حنجرتها بالصياح كأنها ديك برى !... ولا للتبسط معنا أو العزف على عودها ومرافقتنا للغناء حينما يعتدل مزاجها وتطيب نفسها كما كان يحلو لها أن تفعل . ما بالها الآن تقضى اليوم كله فى غرفتها كأنما قد تحولت إلى سيدة حقيقية ممن يقرن فى بيوتهن ولا يخرجن أو يتكلمن إلا بحساب ؟! حتى علاقتها بالسيد بالبينو نفسه قد فترت إلى حد يحقق القول المعروف : «لست أذكر ما إذا كنت قد رأيتك من قبل أم لا !».

– نعم ياصديقى ، ولكن ألا تعرف أن حبل الشص ينبغى أن يكون بقدر حجم الحوت ؟ والحوت فى هذه المرة ليس من تلك الأسماك الهينة التى تعمر جوانب الشاطئ والتى يكفى أن يلقى الصائد عليها شبكة حتى تخرج فى يسر من أول مرة ، وإنما هو من ذلك النوع الرواغ الذى يتطلب الكثير من الجهد والعناء حتى يعض الطعم .

– حقًا ... إذ إنه ليس ممن يسكرون أو يشربون من الماء ما عكرته الأخلاط والمساحيق .

وكان هذا يشير بقوله إلى تلك الأشربة المسحورة التى كانت السيدة باربارا تعدها لمن تسعى إلى إيقاعهم فى غرافها حتى تحل إرادتهم وتذيب رجولتهم .

ولم تخل تلك التعليقات فن إشارات إلى سهرات السيدة باربارا فى الصوفعة التى أفردتها لما تباشره فن سحر :

– هذا فع أن «الشريك» لم يخلد ساعة واحدة إلى الراحة طوال الليالى الماضية ، فقد دأبت السيدة على استبقائه طويلاً بعيداً عن جحيمه . ولست أستبعد أن يطول بينهما الحديث فى بعض هذه الليالى حتى يفاجئه صياح ديكة السحر وهو عائد فى طريقه إلى فأواه فى جهنم !

– وكيف تفسر ذلك ؟ أيكون لدى الآخر فا هو أقوى وأنجع فن فنون السحر ؟

– ... أو أن الفنون فى هذا الجانب قد استهلكت وفترت قواها بحكم كثرة الاستعمال .

ولكن خوان بريميتو يجيب فى ثقة :

– لا ... لا تصدقوا فثل هذا ... لقد استودعته السيدة عينيها فى صبيحة يوم المجاولة فى «الخميلة القاتمة» ، ولابد أن يأتى هو فى عاجل أو آجل لكى يعيدهما إليها ... لابد ، فهما صلب عوده أو طالت فقاوفته !

كان أجراء ضيعة الرعب يرددون فثل هذه العبارات على الرغم مما قد استقر فى نفوسهم فن احترام للسيدة باربارا وفن الإخلاص الذى كانوا يشعرون به فى خدفتهم لها ، ولكن فا كانوا يلاحظون عليها فن تغير أطوارها فى الأيام الأخيرة كان أفراً غريباً جديراً بأن يبحثوا له عن تفسير فعقول .

ولو أنها هى نفسها سئلت عن علة فا أصابها لما استطاعت أن ترد جوابًا ، فقد كان هذا التغير فظاهر لمشاعر جديدة لم يكن لها بها عهد فى حياتها الماضية ، فشاعر أقوى فنها ؛ فهى لا تستطيع تحكمًا فيها ولا ضبطًا لها .

أحست باربارا لأول فرة فى حياتها بأنها فجرد افرأة فى حضرة رجل ، لقد ذهبت إلى المجاولة فى «الخميلة القاتمة» يحدو بها غرض واحد : هو إيقاع سانتوس لوثاردو فى شباكها واجتذاب قلبه بمفاتنها ، كانت تريد أن يكرر سانتوس فعها قصة لورنثو باركيرو ، ولكن هل كان حب الاستئثار والبغض الشديد الذى كانت تحس به نحو الرجال كلهم هما الدافعين الوحيدين لها فى فحاولتها الظفر بقلب الفتى ؟ لقد كانت تحاول إقناع نفسها بذلك ، ولكن الحقيقة هى أنه كان شعور آخر يقبع فى نفسها إلى جانب ذلك كله : شعور بالرغبة العارفة فى هذا الرجل والشهوة فى افتلاكه بأى وسيلة . لقد كان عشاق باربارا حتى تلك اللحظة إفا ضحايا لطمعها الذى لم تكن له نهاية أو أدوات طيعة فى خدفة قسوتها ، كانوا فلكًا خالصًا لها تتصرف فيهم كما تتصرف فى رء وس الماشية التى تحمل سمتها ، ولكن الأفر فع هذا الرجل كان فختلفًا كل الاختلاف ، لقد رأت فى نظراته إليها لأول فرة رجلاً لا يخشاها ولا يشتهيها . وقد تعرضت فنه لمواقف أذلتها وأخجلتها فرة بعد فرة ، وفن أجل هذا اشتعلت فى قلبها نار الرغبة بنفس العنف الذى كانت تتأجج به فى نفسها نار الكراهية للرجل والسعى إلى تحطيمه ، لقد انقلبت الأحوال وأصبحت هى التى تريد أن تصبح فلكًا لسانتوس لوثاردو حتى ولو أصبحت فثل تلك الماشية التى كويت بالنار على جنوبها سمة ألتافيرا .

كانت باربارا تحس فى أعماق نفسها أول الأفر بهياج يهز فشاعرها هزًا عنيفًا ، ولكنه لم يكن فن ذلك النوع المظلم المعذب الذى كان يدفعها إلى إشباع غرائزها العارفة المضطرفة ، بل كان شيئًا جديدًا غريبًا يحملها على أن

تبحث في قرارة نفسها على السكينة والهدوء ... في هذا الركن المجهول الذي اكتشفته لأول مرة فجأة في جانب منعزل من جوانب روحها . كانت المرأة تقضي أيامًا طويلة وهي تتنزه راكضة على جوادها في أنحاء المروج دون هدف ولا اتجاه ، وإنما كانت تريد أن تنفس عن فيض الطاقة الهائلة التي كانت تضرمها غرائزها المتوقدة بحثًا عن الحب الحقيقي . كانت أزمة سن الأربعين ... أزمة الحاجة التي تملك على المرأة حواسها إلى أشعة الشمس والريح الطليقة والفضاء الفسيح .

كان هذا الإحساس يولد في نفسها ابتهاجًا باطنًا وسعادة فشرقة ، وكان ذلك يدفعها إلى ألوان من الكرم والإنفاق لم يعهدها أحد منها دون أن يعني ذلك منها تحول طبيعتها إلى الكرم أو نفسها إلى السماح ، ولكنها هزة أريحية نبعت عن ذلك الشعور الجديد ، حتى إنها وزعت مرة جملة كبيرة من المال على رجال الضيعة لكي ينفقوه في متعتهم والترويح عن أنفسهم ، وفوجئ الرجال بذلك ، فأقبلوا على النقود التي فلأت بها أكفهم يعضونها بأسنانهم ويلقونها على حجر ليتسمعوا رنينها ، وهم لم يتحققوا بعد من أنها نقود ضربت من خالص الفضة . وحق لهم ، فقد عهدوا السيدة باربارا مثلاً يُضرب في البخل والتقتير ، فما الذي أصابها اليوم حتى توزع المال عن يمين وعن شمال ؟!

وفي يوم آخر أعدت باربارا مأدبة أرادت أن تكرم بها سانتوس لوثاردو بمناسبة ما بدأ بينهما من مظاهر التعاون في مسألة تمييز مواشيهما وفصلها ، وكانت تريد أن تغدق عليه من الحفاوة والإكرام ما تكسب به وده ، ويزيل تلك العداوة التي طالما باعدت بينه وبينها وأثارت النزاع بين رجاله ورجالها ، ولكنه لم يلب الدعوة !...

كانت هناك فكرة واحدة قد استولت على جماع قلبها : أن يقع فى غرافها ذلك الرجل الذى لم يكن شيء يجمع بينه وبين الرجال الذين عرفتهم حتى هذه اللحظة : رجل لا تطل فن عينيه تلك النظرات الشهوانية التى رأتها فى عينى لورنثو باركير ؛ فنذ أن عرفته لأول فرة ، ولا يحاول أن يجتذب قلبها برجولته الطاغية المتوحشة كما حاول أن يفعل آخرون ممن تعاقبوا على حياتها . ولم تصل باربارا فى تفكيرها إلى هذا المدى حتى أحست بالخجل فن نفسها ؛ إذ استسلمت فن قبل لعشاق جفاة غلاظ الطبع أغبياء التفكير . فع أن الدنيا لم تكن تخلو فن رجال فثل ذلك الرجل لا تستطير قلوبهم أفام أول ابتسافة توجهها إليهم .

وعرض لباربارا فى بعض خطرات تفكيرها أن تلجأ إلى «قوى» السحر تستعين بها ، وأن تستصرخ أرواح الشر التى كانت تعتقد أنها رهن إشارتها ، أو تطلب إلى «الشريك» أن يأتيها بذلك الرجل الرواغ المتهرب، ولكن الفكرة بدت لها بعد ذلك كريهة ، وأثارت فى نفسها اشمئزازًا لم تستطلع كنهه . إن المرأة الجديدة التى برزت فى نفسها فى صبيحة يوم «الخميلة القائمة» كانت تريد أن تظفر بالرجل ، ولكن لا بفضل واسطة أو «شريك» ، وإنما بما وهبه الله إياها فن قوى للمرأة باعتبارها أنثى فحسب .

ولكن سانتوس لوثاردو لم يطل بعد فن عتبة بابها ، فكانت تقضى وقتها ساهمة ففكرة ، وإن كانت تبدو دائمًا فتجملة فتزينة ، كانت لا تكف عن التمشى فى أروقة الدار ذاهبة جائية ، ونظرها خافض إلى الأرض وذراعاها فتشابكتان على صدرها ، أو قضاء ساعات وساعات وهى واقفة على سياج دارها ، ونظراتها التائهة تسبح فى الفضاء فتوجهة إلى حيث ضيعة ألتافيرا ، أو النزهة على ظهر جوادها فى المروج ، غير أن الجواد لم يكن يعود عندئذ وقد دفى جنباه وعلا الزبد فشافره كما كان الأفر فن قبل ، فقد كانت نزهتها تجوالاً بطيئًا يسيطر عليها خلاله تفكير عميق ساهم .

وكثيراً ما كانت باربارا تفطن لنفسها فجأة ، فترى أن هدف نظراتها لم يكن تلك المروج ، وأن محط الأفكار السابحة فى خيالها لم يكن ألتاميرا ، بل ذلك النهر يمخره قارب صغير ... وفى أذنيها تدوى كلمات «أسدروبال» التى كانت قد بثت فى نفسها لأول مرة قشعريرة غريبة ... إحساساً بالرغبة فى تطهير نفسها وشوقاً إلى الخير . إن هذا الإحساس وذلك الشوق هما اللذان يسيطران الآن على قلبها الذى ألح عليه الشر حتى سئمه ومله .

* * *

وأخيراً بدا لها سانتوس لوثاردو وهو متوجه إلى دارها ، فحدثت نفسها قائلة والاغتباط يغمر نفسها :

- لقد حدث أخيراً ما كان ينبغى أن يحدث !

نطقت بهذه العبارة فى فرح وشماتة ، وقد عادت إلى نفسها مشاعر المرأة التى تؤمن بشعوذات الخرافة ، وتعتقد أن القوى الخفية قد هرعت إلى نجدتها أخيراً . وكانت هذه هى حقيقة نفس باربارا وباطنها العميق غلب أخيراً على ما طاف بذهنها من تلك الرغبة فى التطهر والنزعة إلى الخير والتوق إلى التحرر .

وترجل سانتوس عن جواده تحت شجرة وارفة أمام المنزل ، ثم تقدم إلى دهليز الدار وقد أمسك بقبعته فى يده .

وكانت باربارا تطل عليه ، وقد أدركت بنظرة واحدة أن الأمل العريض الذى علقته على هذه الزيارة لم يكن له مبرر قوى ولا أساس متين ، فقد كانت نظراته ومشيته تدل على مدى ثقته فى نفسه وتمكنه من ضبطها . غير أنها لم تكن تسمع إلا صوت عاطفتها المشبوبة ، فهرعت إليه تستقبله فى حرارة وترحيب :

- حقًا إن الأحداث السعيدة لا تقع إلا فتأخرة بعد أن يفرغ صبر فن ينتظرها ! فرحبًا بك يا دكتور لوثاردو ، وسعدت عيون اكتحلت بطلعتك !... تفضل بالدخول والجلوس . أخيرًا أتحت لى فرصة التمتع برؤيتك زائرًا لبيتى .

وأجاب سانتوس فى لهجة فؤدبة وإن كانت لا تخلو فن رنة تهكم :

- شكرًا ياسيدتى ، إنك لطيفة دفثة إلى أبعد حد .

ثم أضاف حتى يقطع عليها سبيل المزيد فن عبارات التلطف والمجافلة :

- لقد أتيت فن أجل أفرين : فطلب أذكرك به ، ورجاء أتوجه به إليك . أفا الأول فهو المتعلق بمسألة إقافة السياج الفاصل التى سبق أن كتبت إليك فيها .

- أفازلت تفكر فى هذا بعد ؟ لقد كنت أظنك قد اقتنعت بأن إقافة هذا السياج هنا ليست ممكنة التنفيذ ولا فحققة الفائدة .

- أفا عن الإفكان فذلك فتوقف على الموارد المالية المهيأة لكل فنا ، وأنا لا أكتمك أن فا لدى الآن فن المال قليل لا يفى بكل فا يتطلبه التسوير فن نفقات ، ولهذا فأنا فضطر إلى الانتظار بعض الوقت . وأفا عن جدوى ذلك العمل فلكل فنا رأيه ، ولكن الذى أود فعرفته هو فا إذا كنت فستعدة للمساهمة بالنصف فى إقافة ذلك السياج الفاصل بين ضيعتينا كما ينبغى فى فثل هذه الأحوال . لقد أردت قبل اللجوء إلى أى إجراء آخر أن أتباحث فعك فى هذه المسألة ...

وتوقف قليلاً ، فأسرعت هى بإكمال عبارته وهى تبتسم :

- ... بشكل ودى . أليس كذلك ؟ قلها ياسيدى ولا تخف !...

وافتعض سانتوس كما لو أنها وجهت إليه إهانة ، ثم قال :

- إنه قدر قليل فن النقود ، لا أظنه ينقصك الكثير ... و ...

- أما هذه النقود التى ينبغى أن تنفق من أجل ذلك فهو أمر يسير لا يحتاج منا إلى كثير مناقشة ، وأظن بهذه المناسبة أنهم قالوا لك عنى إننى عظيمة الثروة طائلة الغنى ، ولعلهم حدثوك كذلك عما يسمونه بخلى الشديد ، أليس كذلك ؟ غير أنه لو أنصت الواحد منا إلى كل ما تلوكه ألسنة الناس ...

ولكن سانتوس قاطعها فى لهجة شديدة :

- أرجوك أن نلتزم بالموضوع الذى جئت من أجل الحديث معك فيه ، فأنا لا يهمنى على الإطلاق أن أعرف ما إذا كنت غنية أم لا ، ولا يعنينى أن أحقق ما ينسبه الناس إليك من عيوب حتى أعرف ما إذا كانت صحيحة أو زائفة . لقد أتيت لكى أوجه إليك سؤالاً ، وأنا منتظر عليه الجواب .

فصاحت السيدة باربارا وقد عادت الابتسامة ترتسم على وجهها ، غير أنها لم تكن فى هذه المرة ابتسامة تودد واستلانة ، وإنما كانت معبرة عن شعور بمتعة حقيقية وهى تسمع لهجة ذلك الرجل الذى شعرت بالتضاؤل أمام قوته وسيطرته :

- أوه !... يادكتور . يا لك من رجل متأمر نزاع إلى التسلط والسيطرة ! ألا يمكن أن تسمح للواحد - أقصد الواحدة - بأن تخرج عن موضوع الحديث ولا حتى للحظة عابرة ؟

واضطر سانتوس إلى التراجع قليلاً وهو يؤنب نفسه على كلماته التى كانت مسرفة فى الصرامة والقسوة ، فأجاب باسمًا :

- لا ياسيدتى . ليس الأمر على ما تظنين ، ولكنى أرجوك أن نعود إلى موضوع الحديث .

- إذن أنا موافقة ، فأنا أرى من الخير تنفيذ فكرة السياج الفاصل ؛ إذ سيكون فيها حل نهائى قاطع لهذه المسألة التى سببت لنا كثيرًا من المتاعب ، وهى مسألة الحدود بين ضيعتينا ، لا سيما وأنها كانت دائمًا معقدة غامضة .

وضغطت باربارا على فخارج الحروف فى المقطع الأخـير فن جملتها على صورة كان يبدو فـنها أنها تريد أن تتحقق فن فدى تماسكه وضـبطه لأعصابه . فأجاب :

- هذا صـحيح . فلنلتـزم فى تخطيط هذه الحـدود الوضع الراهن الواقع ، وإن كان يمكن الاعتراض عليه فن الناحية القانونية .

- أنت على أية حـال أعلم فـنى بذلك ؛ إذ إنك فـحـام تعـرف فـثل هذه الأفور .

- ... ولكنى رجل لا أحب الخصوفات ولا القضايا كما سترين .

- نعم ... إن الذى أراه هو أنك رجل غـريب حقًا ، وإنى أعـترف لك بأنه لم يحدث فن قبل قط أن اعترض طريق حياتى رجل فثير للاهتمام بقدرك أنت ... لا ، لا تعـجل ولا يضق ذرعك ، فـلست أريد الخـروج عن الموضـوع فـرة أخـرى . لا سمح اللـه لى بذلك ، ولكنى قـبل أن أجيـبك إلى فـا تريد أود أن أسألك سؤالاً : أى حد سنلتزفه عند نصب أعمدة السياج ؟ أهو الخط الذى يمر على دار «المـاكانيال» ؟

- ولكن فا فـعنى هذا السؤال ؟ ألا تعرفين أين بدأت أنا فى حـفر الأرض لنصب أعمـدة السياج الفـاصل ؟... إلا إذا كنت تحاولين إفهـافى بأن هذا الحد المنصوص عليـه فى آخر حكم قضائى غيـر فطابق للواقع ، وأنه ليس فى فكانه الصحيح !

- وهو بالفعل كذلك : غير فطابق للواقع ، ولا هو فى فكانه الصحيح .

وبقيت لحظة شاخصة إليه فثبتة فيه نظرها .

- هل فـعنى ذلك أنك لا تريدين أن نضع أنفـسنا فى الميـدان ... «الودى» كما قلت أنت فنذ قليل فن أجل حل تلك المسألة ؟

ولكنهـا أجـابت وهى تضـفى على صـوتهـا أقـصى فـا تسـتطيع فن تودد وفلاطفة :

- ولمـاذا تضـيـف «كمـا قلت أنا» ؟ لمـاذا لا تقـول : «الميدان الودى» فـقط وببساطة ؟

فأجاب سانتوس فعترضًا :

- سيدتى . إنك تعلمين حق العلم أننا لا نسـتطيع أن نكون أصدقاء . ففى وسعى أن أسلك سبـيل المسالمة والموادعة إلى هذا الحد الـذى ترين : حد القدوم عليك لكى نتفاوض فى الأفر ، ولكنى أعتقد أننى لست ممن ينسون بسرعة !.

قـال سانتـوس هذه العـبارة فى قـوة وشـدة على الرغـم فن أنه كـان ينطق بصوت هادئ ثابت ، فكان له على المرأة وقع شديد ؛ إذ بدا كأنها قد استسلمت تمافًا ، فاختـفت فن وجهها تلك الابتسافة المغـرية التى كانت فزيجًا فن الدهاء والحكمة ، وبقـيت لحظة طويلة تنظر إلى ذلك الرجل الذى جـرؤ على أن يوجه إليها فثل هذه الكلمات ... نظرات فيها كثير فن الاحترام وفن العاطفة المشبوبة المتأججة ، ثم نطقت أخيرًا :

- ترى فـا كنت تقول يادكـتور لوثـاردو لو أننى قلت لك إن هذا السيـاج الفاصل ينبغى إقافته فيما وراء «المـاكانيال» فن ناحية أرضى فسافة طويلة ، أى فى آخر حـدود ألتافيـرا قبل أن تبدأ القـضايا والمنازعات الـتى تحول بينك وبين اعتبارى صديقة لك ؟

فقطـب سانتوس وجهه فى دهشة يخـالطها سوء الظن ، ولكنه ظل فحتفظًا بهـدوء أعصـابه ، وأجـابها فى بطء وهو يضـغط على فـخارج الحـروف ، وإن كانت لهجته قد بدت أقل خشونة :

- إفا أن تكـونى قد عزفت عـلى السخرية فنى وإفا أن أكون حـالمًـا !... أأفهم فن ذلك أنك تعـرضين على فا كـسبتـه فى ساحة القـضـاء فن أرضى ؟!

ولكني لا أعـــرف كيف يمكنـك أن تـنفذى ذلــك دون أن تجرحى حسـاسيتى أو تعرضينى لما لا أرضى لنفسى .

- لست أنا سـاخـرة فنك ولا أنت حـــالم . فـالواقع هو أنك لم تعـرفنى بعد حتى الآن ، ولكنك تعرف فالك وفـا عليك : تعرف أننى قد انتزعت فنك هذه الأرض التى هى فوضع حديثنا بطرق غير فـشروعة . هذا صحيح ، ولكن أصغ إلىَّ يادكتور لوثاردو : إن المسئول عن كل ذلك هو أنت وحدك ! . . .

- نحن فتـفقان إذن ، فـأنا لا أنكر فا تقـولين ، ولكن تلك الحدود القـائمة الآن شىء قد نفذت به أحكام القضاء فـى ساحات المحاكم ، وأظن فن الخـير ألا نخوض فيه .

- إننى لم أنه حـديثى بعـد ، فـأرجـوك أن تسـمع فنى فـا أقـول : لو أننى التقيت فى طريقى فن قبـل برجل فثلك لتغيرت حياتى كلهـا ، ولكانت غير فا ترى الآن !.

وعاود سانتوس ذلك الشعور الذى أحس به لأول فرة فى «الخميلة القاتمة» : شعور الرغبة فى استطلاع تلك الهوة السـحيقة المظلمة الكافنة فى أعماق نفس هذه المرأة ... فـحاولة الإقدام على هـذه المغافرة الذهـنـية فن أجل استكـناه سر تلك الروح التى كـانت أشبه بمرآة تنعكس عليـها طبيـعة السـهول : فهى فـثلها صلبـة قـوية ، عنيـفـة رهيـبة . وفـن يدرى ؟ فلعل فى هذه الروح فـثل فـا فى السهـول فن فناطق فخـبوءة لم تتلوث ، يمتـد عليها ظل وارف ، وتشـيع فيـها نسمات عطرة فن السكينـة الطيبة ، والطمأنينة الجمـيلة !.. وإلا فمن أين نبعت تلك الكلمات التى انطلقت فن بين شفتيهـا فى حرارة وإخلاص احتجاجًا على فا قال واعترافًا بما تحمله فى قرارة نفسها فن عذاب ؟!...

نعم ... كانت كلمات باربارا فى الحقيقة تعبيراً خالصًا صادقًا عن ثورة هذه الروح الصلبة العنيفة على المصير الذى تعثرت فيه ، وكانت وهى تبوح بسرها لسانتوس لا تهدف فن ذلك إلى خداع ، ولا ترفى إلى تليين قلبه عليها أو إثارة عاطفة المودة فى نفسه نحوها ، لقد اختفت فى هذه اللحظة فن كيانها تلك المرأة العاشقة العطشى إلى فلاطفة الحبيب وحنانه ، وحلت فحلها روح قوية تكفى نفسها بنفسها وتواجه حقيقتها الباطنة فى فرارة صريحة وشجاعة وحشية .

وغلب التأثر على سانتوس لوثاردو وهو يسمع هذه الكلمات القليلة الموجزة التى تركزت فيها عصارة روح إنسانية كافلة .

ولكن فا بدا على باربارا فن إخلاص وصدق لم يستطع أن يقاوم طويلاً ؛ إذ سرعان فا اختفى عن قسماتها ذلك التعبير الذى طبعته تلك الكلمات عليها ، وعادت إلى هيئتها المبتذلة السوقية وهى تقول :

– أفا الطريقة التى تكفل لك عودة حقوقك فهى أن أرجع إليك أراضيك المنتزعة بمقتضى عقد بيع صورى . قل لى إنك فوافق على ذلك وسنعمل على كتابة صيغة الوثيقة فى هذه اللحظة دون تأخير ... أقصد أنك أنت ستكون المتكفل بتحريرها وصياغتها ، أفا توثيقها والتصديق عليها فسنقوم به بعد ذلك فى الوقت الذى تريد . إن لدى هنا الورق والأختام . فهل تريد أن آتيك بها الآن ؟

وفى هذه الأثناء كان سانتوس قد رأى الفرصة فواتية لكى يباشر الكلام فى الهدف الثانى فن هدفى زيارته ، فأجاب :

– انتظرى قليلاً ياسيدتى . إنى لأشكر لك هذا الاستعداد الطيب الذى تبدينه لى ، لا سيما وأن هذا العرض الذى تقدفين قد سبقته فنك كلمات

لا أكتمك - صادقًا فخلصًا - أنها قد وقعت فن نفسى أجمل وقع ، وخلفت فيها أبلغ أثر ، ولكنى كنت قد أنهيت إليك فنذ البدء أننى قدفت للحديث فعك فى دارك حول فوضوعين اثنين . وقد حـان وقت الكلام عن هـذا الأفر الثانى ، لا سيما وأنـك قد أثرت فسألة إعادة فا اقـتطع فن أرضى إلىّ . إننى بعد عرضك الكريم أعتبر هذه الأرض كما لو أنهـا قد عادت بالفعل إلى فلكى ، فن الناحية المعنوية على الأقل ، ولهذا فـإنى أقترح عليك شيئًـا آخر سأكون لك عليـه أكثر شكرًا واعـتـرافًا بالجـمـيل مما لو قـبلت فنك فـا عرضت : أعـيـدى إلى ابنتك فاريسيلا فا بقى فن أرض «الباركيرينيا» .

وفرة أخرى تغلبت فى نفس باربارا حـقيقتها الكافنة وباطنهـا العميق على الرغبة العارضة التى كانت تحثها على التطهر وتدفعها إلى التجدد . عادت المرأة إلى هيئتها السوقية المبتـذلة ، بينما اتكأت إلى الوراء على كرسيها المتأرجح بعد أن همت بالقيام عنه ، وقالت بصوت ناشز النبرات وهى تتأفل أظافر يديها :

- آه .. الآن وقد ذكـرتها .. لقـد حدثونـى بهذه المناسـبة أن فـاريسيـلا قد اكتـمل جـمالهـا ونضجت أنوثتـها ، حـتى إنها أصـبحت فـتاة أخـرى فنذ أن انتقـلـت «لتعيش» فعـك !

قـالت هذه الكلمـات فى هدوء وبطء وهى تضـغط على كلمـة «لتعـيش» كأنها قصدت أن تبرز المعنى المزدوج لهذا اللفظ غير فحاولة أن تخفى تعريضها السيىء اللاذع وأفكارها الخبيثة التى تكمن وراء عبارتها . ولم يستطع سانتوس أن يتمالك نفسه ، فهب واقفًا فى حركة آلية ، وهو يقول فى صوت يرتعد غضبًا وثورة :

- حـقًـا إنهـا تعـيش فى بيـتى وتحت حـمـايتى ، وهـو شىء يخـتلف كل الاختلاف عـما أردت أنت أن تعرضى به . إنها تعيش فى ظل حـمايتى ؛ لأنها كانت لا تجد لقمة العيش بينما أنت عظيمة الثروة طائلة الغنى كما قلت لى فنذ

لحظات . ولكنى كنت فخطئًا حينـما أتيت لأطلب إليك فا ليس فى وسعك أن تمنحى : عاطفة الأفوفة !.. فاعتـبرى الآن كأننا لم نتحدث بكلمة واحدة لا عن هذا الموضوع ولا عن غيره !

ثم أدار لها ظهره فنصرفًا دون أن يلقى إليها بتحية وداع .

وأفا باربارا فـقد انطلقت فى سـرعة إلى فائدة فكتـبها حـيث كانت تضع فسدسها ، إذ لم تكن تحـمله فى جيبها ، ولكن قوة خفية قبضـت على فعصمها وهى تقول :

- لا ... لن تقتلى ... إنك لم تعودى نفس المرأة !...

الفصل السادس

مارد المجاز

يوم الخميس ... من أيام الأسبوع المقدس .

يوم يحرم على الكاثوليك فيه أكل لحم الحيوان الذى يأكل من نبات الأرض ؛ لأن الأرض هى جسد السيد المسيح المرفوع على الصليب ، والذى يأكل من لحوم الحيوان السارح فى جنباتها إنما ينتهك بأسنانه حرمة جسد المسيح ... يوم يمتنع الناس فيه عن العمل فى المروج والحظائر ؛ لأن العمل فيه لابد من أن ينتهى إلى خراب يلازم المرء طول حياته ... يوم تتوقف فيه المجابن عن خفق اللبن ؛ لأن اللبن المخفوق فى أيام الأسبوع المقدس لا يستمسك أبدًا ، بل إنه لا يلبث أن يتحول إلى دم ... يوم لا عمل فيه لساكنى السهول إلا الخروج لصيد السمك وجمع المحار واقتناص التماسيح واشتيار العسل من خلايا النحل .

أما السمك والمحار فقد كان هو الطعام الوحيد الذى يباح للناس أكله فى يومى الخميس والجمعة المقدسين ، وأما اقتناص التماسيح فإن رعاة السهول كانوا يغتنمون فرصة عطلة هذين اليومين لكى يوجهوا حملاتهم إلى القنوات التى تعمرها التماسيح فى تلك النواحى ، فيكون ذلك تطهيرًا لها من تلك الوحوش الضارية ، ثم إن المسك المستخرج من التماسيح التى يصيدونها فى الأيام المقدسة يعتبر فى نظر الناس هناك مسكًا مباركًا أنجع فى الشفاء وأجلب للصحة ، وأما أنياب هذه التماسيح فهى كذلك أحجبة وتعاويذ يطرح الله فيها مزيدًا من بركاته .

وها هم الرعـاة قد اسـتعـدوا لتلك الرياضـة ، فأقـاموا على منحـدر القناة السفلى سياجًـا من الخشب يخترقها من ضفة إلى ضـفة ، وقد غطوه بأكوام من السعف وغصون الشجر تاركين فى وسطه فتحة كبيرة كانوا يطلقون عليها اسم «البـوابة» ، وإلى جوارها «البـوابون» خائضين فى المـاء إلى خـصورهم ، بينـما اصطف فى أعلى القـناة من يدعـونهم «الضـاربين» وقـد تزودوا بعـصى طويلة وهم يخبطون بها صفحة المـاء فى قوة وعنف ، وقد أطلقوا صياحًا متصلاً عاليًا بكل ما تسعهم به حناجـرهم القوية حتى يهيجوا كل حيوان أخـفته أمواج القناة العكرة ، ويدفـعـوه إلـى النزول مع تيـار المـاء نحـو المـوضع الذى تربص فـيـه الصائدون . وكان هؤلاء قد حنوا ظهورهم على المـــاء وأيديهم متشابكة بحيث لا يفوت «البوابين» أى حيوان يحاول اختراق المكان الذى اختاروه لترصدهم ، وكانوا صـامتين جامـدين ، ولم يكن هناك من دليل على اقـتراب الصيـد إلا ما يلاحظه الناظر من تقلص عـضلات وجوههم أو شـحوب مفـاجىء يعلو تلك الوجوه .

ووقف سـانتوس لـوثاردو يراقب هذه الرياضـة الجريئـة المتـهورة ، وكـان جامعـو القواقع والسلاحف قد حفروا عـلى رمال ضفة القناة حوضًا صـغيراً ، ورأى سانتوس كيف امتـلأ هذا الحوض بالمحار فى عدة لحظات ، ولكنه واصل مسـيره بعـد ذلك إلى حـيث كان بقـية رجـال ضيـعته وهـم مشغـولون بصـيد التماسيح .

وكانت تلك القناة مـثل سائر قنوات السهـول بركة تتوالد فـيها التمـاسيح التى طالمـا أضرت بهذه النواحى ، فقـد هلك فى الأيام الأخيرة على أيديها عدد كبير من رء وس المـاشيـة ، ولهذا فإن أنتونيو قد اختارها لكى يـباشر بها حملة الصيد التقليدية بمناسبة يوم الخميس المقدس .

وكان الناس هناك يعمدون إلى صيد التماسيح إما بإطلاق النار عليها من الشاطئ أو من داخل الماء ، ولكن سانتوس وصل حينما كان إطلاق النار قد توقف ، وبدا عدد كبير من هذه الوحوش المائية مغطية صفحة الماء على مقربة من الشاطئ وقد طفت وانقلبت على ظهورها جثثًا هامدة .

وقال أنتونيو لرفاقه وهو يرى سانتوس قادمًا :

– لقد انتهت «الحفلة» !... ولو أن الدكتور لوثاردو قد أتى عازمًا على أن يشترك فى الصيد بطلقة من بندقيته .

أما الصائدون فقد كان الصمت يعقد ألسنتهم ، وكانوا قد ابتعدوا عن الشاطئ ولكن انتباههم كان موجهًا إلى شيء ما يحدث فى داخل القناة ، ولم يكادوا يرون لوثاردو حتى وضعوا أصابعهم على أفواههم مشيرين عليه بالتزام الصمت، وأما أنتونيو فقد توجه إلى لوثاردو قائلاً بعد أن ألقى نظرة على أولئك الرجال :

– أترى إلى هاتين القرعتين الكبيرتين الطافيتين فى وسط القناة ؟ إن تحتهما رجلين يترقبان ظهور تمساح يطفو بقربهما حتى يطعناه بحرابهما تحت إبطيه من تحت الماء . فالصيد على هذه الصفة هو الذى يعتد به دون غيره . وأنا أكاد أقطع بأن هذين الرجلين هما باخاروتى وماريا نيببس .

وعقب كارمليتو على قول رفيقه :

– إنهما هما بالفعل . أما التمساح الذى يترقبانه فإنه «أعور مجاز الخوار» لا أقل ... مارد المجاز الذى أعجز الصائدين قد ساقه التيار حتى وصل إلى هنا .

كان هو نفسه ذلك التمساح الهائل الذى حاول سانتوس لوثاردو الإطلاق عليه من الشاطئ فى مكان القيلولة الذى توقف عنده لدى شجرة «عصا الماء» فى يوم وصوله ، وكانوا يسمونه «مارد المجاز» و «وحش نهر الأراوكا» ، فقد كانت ضحاياه من الرجال والماشية من الكثرة بحيث لم يعد أحد قادراً على تتبع أعدادها ، وكان الناس هناك يزعمون أن عمره يتجاوز بضعة قرون ، وما أكثر ما أطلق الصائدون عليه رصاصهم ، فكان ينحسر عن قشور ظهره الصلبة ولا يصيبه بسوء ، مما جعل الناس ينسجون حوله خرافة تقول إنه تمساح مسحور لا قبل للرجال به . أما مكانه المفضل فقد كان قناة «الخوار» الواقعة فى أرض «ضيعة الرعب» ، ولكنه كان يسيطر من ذلك المكان على كل حوض الأراوكا والنهيرات المتفرعة منه ، وكثيراً ما كان يتوغل فى تلك النهيرات فيقوم فيها بحملات ناجحة موفقة يعود بعدها وقد ملأ بطنه الكبير لكى يستلقى على رمال الشاطئ فى مكانه المألوف وهو نصف نائم بينما يستسلم لعملية الهضم العسيرة الطويلة . وكانت رمال «الخوار» مكاناً آمناً له لا يهيجه فيه أحد ، فقد كانت السيدة باربارا بما هى عليه من الإيمان بالخرافات تعتقد أنه حيوان مسحور حقًا ، ولهذا فقد حرمت على رجالها التعرض له بسوء ، لا سيما أنه كان فى صعوده إلى أعلى مجرى القناة كثيراً ما يوقع ضرباته بمواشى ضيعة ألتاميرا لا بمواشى ضيعتها هى ، وكأنه على وفاق معها فى ذلك .

وقال سانتوس :

- لقد كان ينبغى عليك يا كارمليتو ألا تدع باخاروتى وماريا نييبس يخاطران بحياتهما على هذه الصورة . وأنا أطلب إليك الآن أن تشير إليهما لكى يخرجا من هناك .

فتدخل أنتونيو فى الحديث .

- لم يعد ذلك ممكنًا الآن ، فإن الثقوب التى فى قرعتى الخشب الطافيتين وهى الموضع الوحيد الذى يمكن لهما النظر منه مطلة على الاتجاه المضاد ، ثم إن الوقت متأخر فهما لا يستطيعان الآن القيام بأدنى حركة فقد دنا منهما التمساح الآن . انظر إلى تموج الماء دليلاً على انسيابه من تحت سطحه .

وكان هذا صحيحًا ؛ إذ بدا ظهر الماء الجامد يتجعد على بعد أمتار من الموضع الذى كمن فيه الرجلان .

وصفر جميع الرجال الذين كانوا يرقبون المنظر صفيراً يطلبون فيه التزام الصمت الكامل بينما خفضوا رءوسهم وحنوا قاماتهم حتى لا يلمحهم التمساح .

ثم أخذت رأسه الهائلة الفظيعة فى الظهور على سطح الماء فى تباطؤ وشموخ يكفلهما له تقدم سنه وجلالة مكانته بين وحوش الماء ، وأبرز بعد ذلك ظهره المصفح بدروع من صلب القشور .

أما القرعتان فقد بدأتا تنزلقان فى بطء إلى الشاطئ المقابل كما لو كان يجرفها تيار لين هادئ ، بينما تنفس الرجال المترقبون بجوار الشاطئ تنفسًا عميقًا كأنما انزاح عن صدورهم كابوس مزعج ، بينما كان أنتونيو يتمتم قائلاً وهو ما يزال جامد الحركة :

- لقد استدارا إليه من جانب عينه العوراء .

ومضت القرعتان تواصلان انحدارهما نحو التمساح ، ولو أنه لم يكن قادراً على رؤيتهما ؛ إذ كانت عينه المبصرة تنظر فى اتجاه الشاطئ ، وكان جسده الآن يبدو كله طافيًا على صفحة الماء، ولكن الخطر لم يكن قد زال بعد ، فقد كان الرجلان فى متناول يدى التمساح أو ضربة ذيله ، بحيث لو ارتكبا أدنى خطأ لدفعا حياتهما ثمنًا له .

وفى هذه اللحظة التفت التمساح فجأة ، فأدار رأسه وبقى برهة ينظر إلى ذلك الشيء الطافى على الماء بمقربة منه . ومن الشاطئ صوبت إليه ثلاث بنادق أطلقت عليه رصاصها في وقت واحد ؛ وكان مطلقوها يعرفون مدى ما يغامرون به في ذلك ، فقد كانت حياة الرجلين القريبين من موضع التماسح رهينة بتسديد الإصابة وإحكامها. ثم بدأت القرعتان تتحركان على الماء حركة عنيفة مضطربة ، وكان ذلك دليلاً على أن باخاروتى وماريا نيبيس قد شرعا فى ترك الاعتصام بهما مقامرين بحياتهما في ضربة واحدة . وانقض الرجلان على التمساح ؛ إذ كان ذلك هو الفرصة الوحيدة التى بقيت لهما فى النجاة .

واضطربت مياه القناة الموحلة هناك اضطرابًا شديدًا عنيفًا ، وظلت الأمواج لحظات تدور دورات سريعة كأنما تعرضت لإعصار ، ثم ارتفع الشبح فى الهواء ارتفاعًا شاهقًا ، وعاد يخبط صفحة القناة فى انحداره وله صخب مروع . وأخيراً بدا جسم التمساح جامداً لا حراك به ، وقد طفا على الماء بطنه الأبيض الهائل والدم ينزف غزيراً من إبطيه ، بينما كان باخاروتى وماريا نيبيس يخرجان رأسيهما من الماء وهما يصيحان :

- تبارك الله وجلت قدرته !

وارتفعت أصوات الجمع الذى كان يراقب المعركة الهائلة من الشاطئ مهللة مبتهجة :

- الحمد الله ... لقد انتهى «مارد المجاز» !...

- وبنهايته سينتهى كذلك سلطان السحر الأسود الذى تنفثه ساحرة «ضيعة الرعب» ... وإنا لها لبالمرصاد !...

*

الفصل السابع

عسل النحل

مجاز شجرة الخروب تنبعث منه أصوات موقعة الألحان كأنها نغمات قيثارة ، أما هذه فهى ما تهزج به أسراب النحل فى طنينها الذى لا يتوقف .

وأحفاد «مليسيو» يتسلقون الشجرة التى اتخذ النحل فيها خلاياها ، وهم يعملون على تطيير أسرابها بدخان كريه الرائحة ينبعث من خرق قد أشعلوا فيها النار ، ثم ينتزعون ما استودعته خلاياها السمراء من غذاء طيب حلو ، فيسلمونه إلى أخواتهم اللواتى تجمعن لدى ساق الشجرة .

وتمضى الفتيات بعد ذلك فى طريقهن عائدات وهن يطلقن صرخات حادة مرحة إذا تسربت إلى شعر إحداهن نحلة أغضبها أن يقتحم الأجانب مسكنها ، ولكنهن بعد ذلك يستغرقن فى الضحك ويشتبكن فى معركة شديدة من أجل اقتسام الشهد الحلو اللاذع :

- لقد أخذت أنت نصيبك ، فالدور الآن علىّ .

- لا ... بل هو دورى أنا !... دورى أنا !

أما هؤلاء الفتيات فكن سبعًا ، وأما الثامنة وهى كبراهن «خنوفيفا» فقد بقيت تتبادل الحديث مع ماريسيلا فى ذلك الكوخ الذى رصت فيه المقاعد حول المائدة . جلست خنوفيفا ومرفقاها على المائدة ووجهها بين راحتيها مصغية إلى ما كانت تقصه عليها ماريسيلا :

- إننى أنهض فى الصباح الباكر ، فأغتسل ... آه ! ما ألذ هذا الماء البارد وهو يتصبب على جسدى ! وليس فى وسعك أن تتصورى ما أحدثه من ضوضاء وأنا أستحم ؛ إذ إنى لا أكف خلال ذلك عن الغناء ، ومن حولى جموع من الديكة والبط والدجاج البرى الذى يعتلى غصون شجر الأرز ، فإذا فرغت من ذلك توجهت إلى المطبخ لأرى ما إذا كانوا قد انتهوا هناك من ترويق القهوة ، ولا يكاد سانتوس يخرج من غرفته حتى أكون قد أسرعت لأقدم إليه قدحًا من القهوة المركزة السوداء؛ إذ إنها لا تعجبه إلا إن كانت كذلك ، وبعد هذا أقوم بأعمال البيت . فما أزال أكنس الأرض حتى أحس باللهيب يتصاعد من راحتى، أو أقوم برفو ما ينبغى رفوه وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من الثياب والمتاع ، وبعد ذلك أبدأ فى استذكار دروسى ومراجعتها ، فإذا حلت ساعة رجوعه من المروج مضيت ثانية إلى المطبخ فعكفت فيه على إعداد الطعام له . إنه لا يأكل إلا ما تطبخه يداى ، إذ يشعر بالتقزز من الطعام الذى تطهوه له الطباخة ، وهو متشدد فى كل ما يتعلق بالنظافة إلى حد الوسوسة ، ولهذا فإنى أقضى اليوم كله متعقبة آثار الذباب أطرده عن الغرف ، أو مهيبة بالدجاج أن تخرج إذا اجتازت عتبة الدار ، ولقد عودتها ألا تضع بيضها إلا فى أعشاشها المخصصة لها . وقد اعتاد سانتوس أن يحضر معه باقات من الأزهار عند وصوله إلى البيت قادمًا من المروج ، ولكن الأصص كلها كثيرًا ما تبدو مليئة بما أجمعه أنا من زهور مما ينبت حول الدار بحيث لا يبقى مكان فيها لزهرة واحدة ، وذلك أنى أحب أن أُجَمِّل بالزهر كل مكان فى الدار حتى إننى علقت باقة منها من السقف بعد أن ضاق بها المكان ، وأنا أذكر أنه لم يرها حتى صاح : «وما هذا ؟ خلية نحل علقتها فى السقف ؟» ثم أطلق ضحكة ساخرة عالية ، فغضبت أنا فى أول الأمر ، ولكننى اقتنعت بعد ذلك بأنه كان على حق . آه !... لقد ذكرت الآن شيئًا آخر ... ألا تعرفين أن جمعًا من الهنود اقتحم علىّ البيت بالأمس؟ وكنت ساعتها وحدى فى الدار ، إذ كان قد توجه إلى المرج ومعه أبى

وسائر الرجال ، أما نساء المطبخ فقد كن ذهبن إلى القناة لكى يغسلن الثياب ، وإذا بى أسمع فى هذه اللحظة أصواتًا تقول : «سيدتى ... هل تسمحين بربط كلابك حتى لا تهاجمنا ؟» وأطل أنا من النافذة فأرى نحو عشرين من الهنود من قبيلة «اليارورو» قد دلفوا إلى الردهة كأنهم يدخلون دارهم ، وقد أسندوا سهامهم ونبالهم فى أركانها ، ومضوا قدمًا إلى داخل المنزل .

- ولم يتملك قلبك الخوف منهم ؟

- الخوف؟... لقد خرجت لمواجهتهم صائحة: «اخرجوا من هنا أيها المتجاسرون . لماذا تقتحمون منزلاً لم تستأذنوا على أهله؟ لئن لم تخرجوا لأهيجن عليكم الكلاب!» ... ياللمساكين ! لقد كانوا هنودًا وادعين مسالمين، وكانوا يجوبون المروج جامعين بعض ما يتبلغون به من خضرها وأعشابها ، ثم خطر لهم أن يتقدموا إلى الدار طالبين قليلاً من الملح وأقماع السكر الأحمر ، فأنت تعرفين أنهم لا يقدرون هدية كما يقدرون قطعة من ذلك السكر ، ولكن ... آه لو أنك أعطيت لأحد منهم أكثر مما تعطين لرفيقه !... عليك أن توزعيه عليهم بميزان عادل لا يزيد ذرة ولا ينقص . غير أنى واصلت تظاهرى بالغضب وصحت بهم : «أيها القذرون ! كيف تجرؤون ؟ ألا ترون كيف تركتم لى الأرض بعد أن وطئتموها بأقدامكم ؟ لوددت والله أن يراكم رجال قبيلة «الكويباس»(*) القادمون من شواطئ نهر «الميتا» والذين تعرفون مدى بأسهم وشرهم وبلائهم فى القتال ! فقد كانوا هنا منذ قليل» ، ولك أن تتصورى مدى ما تملكهم من جزع ، فقد فركوا أعينهم فى رهبة وسألوا : «سيدتى .. أرأيت رجال الكويباس هنا ؟» ... ولكن ... ولكن ... لماذا أقص عليك كل هذا ؟... آه ... لقد ذكرت الآن : لو أنك رأيت ما استولى على سانتوس من قلق وانزعاج عندما علم بأن الهنود فاجأونى وحيدة فى المنزل ؟... لقد ظل حتى حانت ساعة الدروس فى المساء وهو ساهم مشغول الفكر .

وتشخص خنوفيفا إليها ببصرها ، فيعلوها الخجل وتبتسم قائلة :

- لا ، ليس فى الأمر شىء مما تظنين ... لا شىء من ذلك ، يالله ! ... لماذا تطيلين إلىّ النظر هكذا ؟

- إنك جميلة رائعة الحسن ، ولو أن ما أقول ليس جديداً بالنسبة لك ، فلعلهم كثيراً ما رددوا ذلك على مسامعك !

- إنك مخطئة فى التقدير ... ولا كلمة واحدة !

- لست أعتقد ذلك ، على الأقل اليوم وأنت فى هذه الطلعة ، أظن أنك تلقيت منه كلمة مغازلة أو إطراء .

- الإطراء الوحيد هو الذى أسمعه منك أنت الآن . إنه لا يقول لى إلا أننى فى غاية الذكاء . لقد سئمت هذه العبارة حتى إننى أود فى بعض الأحيان لو لم أستذكر دروسى حتى تتغير لهجته فى مخاطبتى ، ولكن ... فيم تطيلين النظر إلىّ ؟

- فى هذا الثوب الذى ترتدين . إنه مفصل عليك أبدع تفصيل .

- ذلك بفضلك أنت . ولكن لا تظنى أنى لا أعرف ما تفكرين فيه !. ثم تقص ماريسيلا على صاحبتها ما قام به سانتوس من رسم نماذج ثيابها ، وتتضاحك الفتاتان من حديث تلك الأطواق والأشرطة المحيطة بالعنق التى رفضت ماريسيلا أن تضعها فى فستانها ، ثم تخفض خنوفيفا عينيها ، وتريح أصابعها على حافة المائدة ، فتقرعها قرعات رتيبة منتظمة ، وتقول :

- ما أسعدك يا ماريسيلا على الرغم من كل ما تقولين !

وتزوم ماريسيلا فى ارتياب وتقول :

- كونى على حذر إذن .

- على حذر ؟... من ماذا ؟

- أنت تعرفين ما أعنى .

- أنا ؟... ومن أين لى أن أعرف ؟

- لا تكونى منافقة . اعترفى ... اعترفى بأنك أنت تحبينه أيضًا .

وتصيح خنوفيفا :

- أنا ؟ وهل كان لفتاة تافهة مثلى أن تسمو ببصرها لكى تحب الدكتور ؟ أتراك جننت ؟ إنه فتى لطيف جدًا ما فى ذلك شك ، ولكن الشهد لم يخلق لكى تلعقه ألسنة الحمير !...

وتجيب ماريسيلا مرددة ما قالته مخاطبتها لا لشىء إلا لشعورها بالمتعة فى ترديده :

- أليس حقًا أنه فتى لطيف جدًا كما قلت ؟

ولكن اللهجة التى رددت بها هذه الكلمات كانت على الرغم منها تعبر عن الرغبة فيما لا تستطيع نيله وعن الأمل الذى لا سبيل إلى تحقيقه . فقد كان سلوك سانتوس معها يدل على كل شىء فيما عدا الحب : كانت فيه صرامة الأب أو المربى حينما يلقى إليها بتوجيه أو نصيحة ، وحنان الأخ الأكبر وزمالته حينما تستريح نفسه ويفرغ إلى راحته ، وكانت هى فى بعض الأحيان تطيل النظر إليه ، فيخلد هو إلى الصمت ، ثم يرفع نظره إلى عينيها وترتسم على شفتيه ابتسامة تعبر عن الاستعلاء ، فتنكسر نظراتها الحلوة التى ينطبع الحب فيها إلى خجل تذوب له نفسها ، ثم إنها لاحظت أن سانتوس لم يكن له من حديث على المائدة فى الأيام الأخيرة على الخصوص إلا عن صديقاته فى كاراكاس ، لا لكى تتخذ هى منهن قدوة صالحة ، وأسوة حسنة ، وإنما كان

يبـدو عليه أنه يسـتريح إلى ذكـراهن ويتلذذ بتـرداد الحديث عنهن ، ولا سـيمـا حينما يعرض لذكر إحداهن : «لويسانا لوخان» التى لم يكن ينطق باسمها حتى يظل غارقًا فى تفكير عميق .

وقالت ماريسيلا بدورها :

- أنا كذلك أقـول مثل ما تـقولين يا خنوفيـفا : إن الشهـد لم يخلق لكى تلعقه ألسنة الحمير !

وتتكئ ماريـسيلا على حـافة المـائدة ، فـتقرعـها بأصـابعها قـرعات رتيـبة منتظمة مرافقة صاحبتها فى ذلك .

وفى الخـارج كانت أسـراب النحل مسـتميـتـة فى ذود الأيدى المتطفلة عن خـلاياها ، وهى تطن هنا وهناك شـاهرة أشواكـها فى وجـوه المقتـحمين حـتى استطاعت أن تستنقذ اثنتين من خلاياها لم تعـد الأصابع المشتارة قادرة على أن تمتد إليهما لاغتصاب أريهما الحلو .

وتتنحنح مـاريسيـلا وهى تحاول أن تكتم رغـبة فى البكاء كـانت تعـترض كالشجا فى حلقها ، فتسائلها خينوفيفا :

- ما الذى بك يا صبية ؟

إن حلقى يكاد يلتهب لمـا التهمت من عسل النحل .

فتقول خنوفيفا :

- هذاهو عيب عسل النحل . إنه لذيذ إلى أبعد غاية ، ولكنه يلهب الجوف كأنه نار حامية !...

الفصل الثامن

الحياة المتجددة

كان دوى الرعد يتردد فى أعماق السهول المنبسطة الخالية الصامتة معلنًا عن اقتراب هطول الأمطار ، وكانت فى الأفق قطع كبيرة من السحب القاتمة سائرة نحو الغرب حتى تتجمع هناك عند سلسلة الجبال العالية حيث ينهل منها الماء الذى ينحدر بعد إلى السهول . وبدأت البروق تسطع فى أولى ساعات المساء . كان الصيف يلقى تحية الوداع على السهول ، وكأن جنادب الحقول كانت تجاوبه بصرصرتها التى لا تتوقف ، وهى بين أدغال الأعشاب الطويلة اليابسة . أما المراعى فقد اكتست ثوبًا أصفر يمتد على مدى البصر ، بينما جفت المستنقعات وبرك الوحل المنتشرة فى البسائط ، فبدت مشققة كأنها أفواه هائلة قد فغرت منتظرة قطرات من الماء تبل به ظمأها . كان الجو مثقلاً بالدخان المنبعث من الحرائق التى بدأت تنتشر فى أنحاء المروج ، كان دخانًا ثقيلاً يجثم على السهول فى جمود أيامًا كاملة ، لا يقطعه إلا سطعات النيران المتوهجة تتناثر هنا وهناك .

كان القيظ قد بلغ منتهاه ، وكان انعكاس أشعة الشمس يملأ المروج ببرك السراب ، وبدا كل شىء هادئًا جامدًا لا حركة فيه إلا تذبذب الهواء الثقيل الغريب الذى كان يملأ الجو ، وفجأة أقبلت لفحة من الريح تدور على نفسها كأنها إعصار ، ووافق ذلك حادث غريب : أسراب من طيور البرك كانت تطير فى اتجاه الأكواخ وهى تطلق نعيبًا فزعًا خائفًا ، وقطعان من الجياد والماشية تركض فى الاتجاه نفسه بعضها نحو الحظائر وبعضها الآخر نحو الأفق الواسع المفتوح فى هرب مذعور .

وكان سانتوس لوثاردو يغالب نوم القيلولة فى دهليز البيت الأمامى حينما لاحظ هذه الحركة الغريبة التى ندت من الطيور والماشية ، فتساءل فى صوت مرتفع :

- لماذا تأتى الماشية عائدة إلى الحظائر فى مثل هذه الساعة ؟

فأجابه كارمليتو ، وكان قد توجه مرتين إلى المروج لاستطلاع ما يجرى هناك كأنه ينتظر حدوث شيء :

- لقد تشممت الماشية رائحة الحريق . انظر هناك وراء دغل الأعشاب الذى يبدو فى هذا الطرف البعيد ، فإن النار قد بدأت فى ذلك الموضع وهى ما زالت تتوثب بعد ذلك فى هذا الاتجاه وهى تثير سحبًا من الدخان ، إن النار قادمة من موضع بيت «الماكانيال» ومتوغلة فى أرضنا بعد ذلك .

واللجوء إلى النار فكرة بدائية متأصلة فى نفوس سكان الحقول والسهول فى فنزويلا ، وهو مظهر لشعورهم بالعجز والضعف أمام هذه الأرض الهائلة الفسيحة التى تطالب بمزيد من الجهد والعمل لا يفى به عددهم القليل ، ومن هنا لا يكاد أهل السهول يحسون باقتراب موسم الأمطار حتى يشبوا النيران فى المراعى التى أيبستها حرارة الصيف ، ويرون فى ذلك الضمان القوى الوحيد لكى تعود الحياة فتتجدد فى المراعى مضاعفة من خصوبتها ، كذلك يرون فيه وسيلة للقضاء على الديدان والشبث الذى يضر بالماشية ، وفى هذا الموسم يعتاد السهليون على ألا يجد أحد فى طريقه كومة من التبن أو السعف - حتى ما يكون منها فى غير أرضه - إلا أشعل فيها النار ، فهو يعتبر ذلك نوعًا من التضامن يسدى به خدمة إلى المجموع .

ولكن سانتوس لوثاردو لم يسمح بأن تشب هذه الحرائق فى ألتاميرا ؛ إذ رأى أن اللجوء إلى النار إجراء ضار لا يمكن أن يعود منه خير حقيقى ، وصمم على أن يقوم بتجربة أخرى يتجنب بها إحراق المراعى ، وهى أن يقوموا

بالسهر على كل قطيع من قطعان الماشية واحداً بعد واحد ، فينظفوه مما قد يعلق به من الشبث وغيره من الحشرات الضارة ، أما المراعى فقد كان يرى أن أرضها يمكن أن تتجدد فيها الخصوبة من تلقاء نفسها حينما يبدأ موسم الأمطار ، هذا بينما كان يدرس إمكان إدخال بعض المحاصيل الزراعية على مراعى السهول حتى ينتفع منها خلال ذلك الوقت.

كانت أراضى ألتاميرا من أجل ذلك قد أخذ الجفاف منها كل مأخذ ، ومن هنا لم تكد النار تشتعل فى أطرافها حتى بدأت تمتد وتنتشر فى سرعة هائلة ، ولم تمض لحظات حتى كانت تطوى المروج طيًا ، وكانت بعض أدغال الأعشاب هنا وهناك تنصب أعوادها لمقاومة باسلة مستيئسة ، ولكن النار كانت أقوى منها ، فكانت لا تلبث بعد ذلك أن تقذف بنفسها إلى ألسنة اللهيب وهى تدور يمنة ويسرة وتطلق صفيراً حاداً غاضبًا ، ثم تتقوس أغصانها وهى فى غمار ذلك الصراع ، بينما تنبعث منها حلقات متتابعة من الدخان الأسود ، ولكن تلك الحشائش لا تقوى على المقاومة طويلاً ، فتستسلم للنار فى النهاية ، واحتراقها يحدث أصوات فرقعة فى وسط هزيم اللهيب ، وتمضى النار المنتصرة فى طريقها قدمًا ، وهى تنذر بضرب حصارها حول بيوت الضيعة وأكواخها .

على أن هذه البيوت لم تكن فى خطر محقق بفضل ما كان يحيط بها من برك ومستنقعات ما زال يملؤها الماء والوحل ، ومن حقول رطبة قد استراح إليها بعض قطعان الماشية ، ولكن الهواء الساخن المثقل بالدخان كان يهب على البيوت والحظائر مهدداً باختناق كل كائن حى متنفس !

ووقف سانتوس يتأمل المنظر ثم قال :

- يبدو لى أن هذا شىء لم يحدث بطريق الصدفة ، بل عن عمد وتدبير .

وتمتم كارمليتو :

- نعم يا سيدى . إن ألسنة اللهيب لم تكن لتمتد حتى هذا الموضع لو لم تضرمها يد جانية آثمة .

وكان كارمليتو هو الوحيد الذى بقى من رجال الضـيعة ، فقد كان الجميع - بما فيهم أنتونيو ساندوفال - قد ذهبـوا بعد الغداء ليواصلوا ما كانوا قد بدأوه من صيد التـماسيح فى قنوات الضيعة ، أمـا كارميلتو فقد مكث هنـاك متجولاً حول الدار كأنه فى نـوبة حراسة ، وذلك أن أحد الزراع ممن كان قـد التقى بهم فى الليلة السابقـة ألقى إليه بخبـر أثار اهتمامه وقلقـه ، فقد ذكر له أنه كـان قد توقف قبل ذلك بمشرب «ضـيعة الرعب» ، وهناك التقط سمعـه حديثًا كان يدور بين الأخوين الباقين من «الموندراجونس» ؛ حديثًا فهم منه أنهما كانا يدبران شيئًا ضد ألتاميرا .

واحتـفظ كارمليتـو بالخبر ، فلم يبـح لأحد به ؛ إذ أراد أن يبلغه لسـانتوس نفسه دليلاً على إخـلاصه له ورغبة فى أن يمحضه نصـيحته ووده ، وإن لـم يكن يريد من ذلك أن يمتن بهذه الخدمة أو يدل بها عليه .

وكان يقول لنفسه وهو يفكر فى احتمال مهاجمة الأخوين أو رجالهما :

- مـهمـا يكن عدد هؤلاء الـقادمين من هناك فـإن الدكتـور ببندقـيتـه وأنا بخنجرى قديران على أن نحول بينهم وبين الدار .

ولكنه يرى الآن أن ثمرة الخطة التى تم تدبيرها فى «ضـيعة الرعب» كانت هى تلك الحرائق ، فيقول لنفسه :

- الحمد لـله على أن الأمر اقتصـر على هذا ، فإن ألسنة اللهيب سيـتوقف امتدادها حينما تصل إلى مذابح الضيعة ومسالخها .

وكان مـا قاله صحيـحًا ؛ إذ إن النار لم تصل إلى ذلك الموضع حتى ضـعفت قـوتها ، وأعـان على ذلك أن الريح التى كـانت تدفـعهـا قـد خمـدت فى هدأة الأصيل فلم تبق منهـا إلا ألسنة تسعى هنا وهناك بين المستنقـعات ، ولكن منظر السهول بعد انطفاء النار كان كئيبًا مثيراً لرهبة الموت ! كانت المروج الممتدة أمام البصر إلى مـدى الأفق تبدو متفحمـة كساها الرماد تحت سماء قـاتمة مكفهرة ،

ولم يكن يضئ ما يلف المروج من سواد إلا لمعات خاطفة من بقية شعل محتضرة كانت قد اضطرمت فى الأعمدة الأولى التى أمر سانتوس بإقامتها نواة للسياج الفاصل بين أرضه و «ضيعة الرعب» .

كان سانتوس حينما أمر بنبذ فكرة تلك الحرائق التى جرى عليها عرف أهل السهول يريد أن يدخل بذلك على تلك الأرض تجديداً يوطد فيها قدم الحضارة ، ولكن السهول أعلنت عليه الثورة تعاضدها الرياح الجائحة التى لا يقف فى طريقها شيء عبر المروج الفسيحة التى ليس لها حدود . وها هى ذى الآن ترقد هادئة ساكنة - إلا ما يدور فى أنحائها من زوابع الرماد - كأنها مارد استلقى جسده الهائل بعد أكلة دسمة وهو يتنفس فى لذة وارتياح .

وانطفأت النار فى تلك الليلة ، ولكنها عادت إلى التوهج فى الأيام التالية فى مواضع مختلفة ، وكان من نتائج ذلك أن الماشية المتوحشة كانت تفر مذعورة من الأرض الصخرية المشققة التى كانت تسطع فيها شعل النيران ، فتنتشر فى كل مكان، وكان ذلك يزيد من الخطر الذى يتعرض له رعاة المروج فى مجاولاتهم للماشية وهم يسوقونها إلى مراعٍ لم يصبها بعد لهب الحريق ، وكثيراً ما كانت بعض القطعان المتوحشة تتفرقُ صفوفها ويتصدع شملها وهى فى هربها المذعور المتواصل ، أما الماشية المستأنسة التى لم تلحقها بعد عدوى الثيران الوحشية فقد كانت تعود كل مساء إلى الحظائر وقد نال منها الإرهاق والجوع .

ولم ينج من بلاء الحريق إلا تلك المروج التى كانت تحميها القنوات المخترقة للضيعة ، ولكن الرعاة اضطروا إلى بذل جهود جبارة هائلة قبل أن يقودوا إليها القطعان التى لم يحملها الذعر على الفرار والتبدد فى الضياع المجاورة .

وكان رجال ألتاميرا فى حديثهم عما وقع يؤكدون :

- ليس هذا إلا من تدبير السيدة باربارا ، فإن مثل هذه الحرائق لم تشاهد فى مروجنا من قبل قط .

وأقبل باخاروتى على سانتوس مقترحًا :

- لسنا نريد منك يا دكتور لوثاردو إلا أن تأذن لنا - أنا وزميلى ماريا نييبس بعلبتين من الثقاب ، فهو كل ما يلزمنا لكى نشعل النار فى «ضيعة الرعب» من جوانبها الأربعة .

ولكن لوثاردو أجابه بما غلب عليه من طبيعة الرجل المستمسك بالقانون ؛ النفور من كل قصاص يأخذ الرجل فيه ثأره بيده :

- لا يا باخاروتى ؛ لنحاول أولاً أن نعرف الجناة الذين ارتكبوا ذلك إذا كانت تلك الحرائق قد ارتكبتها بالفعل يد جانية ، ثم نقدمهم إلى السلطات حتى توقع عليهم ما يستحقون من عقوبة .

وكان رأى معظم رجال الضيعة مخالفًا لرأيه فى ذلك ، حتى لورنثو باركيرو نفسه لم يلبث أن أفاق من شروده وانطوائه ، وأشار على سانتوس بالمضى فى طريق الانتقام المباشر :

- ما الذى تقول ؟ ... إذا كانت تلك الحرائق قد ارتكبتها يد جانية ؟ أو عندك شك حتى الآن فى أن هذا تدبير من غريمتك ؟ ألم تر النار تنبعث من حدود «ضيعة الرعب» ؟

- بلى ، ولكنى لا أستطيع توجيه اتهام بهذا المعنى إلى السلطات إلا إذا كنت واثقًا من ذلك كل الثقة ، وليس لدى الآن إلا إحساس عابر لا يقوم عليه دليل .

- اتهام ؟ ومن الذى قال بجدوى تقديم اتهام إلى السلطات ؟ ألست من سلالة لوثاردو ؟ افعل إذن ما كان يفعله آباؤك من قبل ... اقتل هذه المرأة التى أعلنت عليك الحرب ... ما الذى تنتظر للإجهاز عليها ؟

كانت هذه هى الثورة المكبوتة انفجرت أخيرًا فى نفس لورنثو باركيرو .. حقد سنوات طويلة ظل مدفونًا فى روحه التى أيبست الخمر ما كان فيها من حمية ، حتى اشتعل فى تلك اللحظة ... رمق الرجولة قد ارتد إليه أخيراً

في وحشية وعنف ، غير أنه بدا لسانتوس على الرغم من كل شيء رد فعل جديراً بالتقدير بعد السنوات التي قضاها مسلوب الإرادة مجرداً من كل علائم الكرامة والنخوة ، تحت أسواط الخمر القاتلة التي كان يريد أن ينسى فيها تعاسته وشقاءه . كان لوثاردو يلاحظ بارتياح أن هذا التحول قد بدأ في نفس لورنثو باركيرو منذ قدومه إلى ألتاميرا ، ولكن الرجل كان حتى تلك اللحظة لا يجرؤ على الكلام عن السيدة باربارا من قريب ولا من بعيد ، كان حديثه لا يدور إلا عن ذكرياته الباقية من أيام دراسته ، وكان يلح على ذلك إلحاحًا شديداً حتى إنه كان يعصر ذاكرته لكي لا يفوته شيء من تلك الذكريات ، حتى ما دق من أسماء أصدقائه وزملائه وأشكالهم وسمات وجوههم ومن تفاصيل الأحداث الجارية معهم مهما كان صغرها ، وكثيراً ما كان الحديث يجره على الرغم منه إلى الموضوع الذي كان يحرص على تجنبه أشد الحرص ، فكان يضطر إلى قطعه فجأة ، ويخوض في استطرادات غير مترابطة ولا منطقية حتى لا يلحظ سانتوس شيئًا مما قصد إليه من تغيير مجرى الحديث ، وكان كلامه يبدو من أجل ذلك كما لو كان تعبيراً متناقضًا مضطربًا عن أفكار تتواثب بين أطلال ذهنه متلاقية تارة ومتنافرة تارة أخرى كأنها أشباح مجنونة تتطارد بين أكوام من الخرائب ، ولكنه الآن يشير في صراحة لأول مرة إلى تلك المرأة التي كانت سبب بلائه ومأساة حياته ، وكان سانتوس يرى في عينيه بريق الوحشية المحموم يلمع في عينيه وهو يحدثه عن ضرورة الانتقام .

وأراد سانتوس أن يهدئ من هياجه ويسكن من روعه ، فقال :

- لا يستحق الأمر هذا القدر من الاهتمام يا لورنثو . إن النار قادمة حقًا من «ضيعة الرعب» ، ولكن ينبغي عليّ أن أعترف بأن جانبًا كبيراً من التبعة يقع عليّ أنا ؛ إذ إنني لو لم أعترض على الحرائق الجزئية التي يقوم الناس بها حسب السنة الجارية لما كان من السهل أن تشتعل النار في جميع المروج في وقت واحد . إن ما حاولت القيام به من تنظيف قطعان الماشية واحداً واحداً

كان خطأ وجب عليّ أن أدفع ثمنه ، وكان الثمن غاليًا بغير شك ، لقد أرغمتنى السهول على أن أخضع للتقليد المتبع والسنة الجارية !

ولكن شعور الكراهية الهوجاء المشبوبة الذى أخذ بمجامع قلب لورنثو باركيرو كان يلهبه ويشعل فى نفسه ناراً تعوضه عن كئوس الخمر التى كانت تعوزه كلما خانته الذاكرة أو خبأ نور ذكائه فتراقصت بين أطلال ذهنه تلك الأشباح المجنونة وهى تلتقى وتفترق فى آن واحد ، ولم يكن أمام سانتوس لوثاردو سبيل لكى يحمله على العدول عن فكرة الانتقام الدموى الأهوج ؛ إذ كان لورنثو يجيبه بقوله :

- لا ... دعك من هذه العبارات البراقة ، ليس هناك إلا طريقان : إما أن تقتل ، إما أن تموت قتيلاً ! وأنت رجل لا تعوزه القوة ولا الشجاعة ، وفى وسعك أن تحمل الناس على أن يرهبوك ويهابوك . اقتلها إذن وانصب نفسك سيداً لحوض «الأراوكا» طاغية فيه ! ... إن بنى لوثاردو كلهم لم يكونوا إلا طواغيت سفاكين للدماء ، وأنت لا يمكن أن تكون شيئًا غير هذا ... إن هذه الأرض لا تحترم إلا من يجرؤ على سفك الدم ، فلا تتورع عن ذلك ، ولا يأخذنك التقزز من ذلك «المجد الأحمر» الذى لا تناله إلا الأيدى المخضبة بالدماء !

* * *

وفى خلال ذلك الوقت كانت الحياة فى «ضيعة الرعب» تعود إلى سابق العهد بها ، وأما السيدة باربارا فقد كانت حياتها فى طريقها إلى العودة كما كانت فى الماضى بعد أن فشلت تلك المحاولة التى أرادت بها أن تعيد بناء حياتها وتطهر روحها فى ذلك اليوم الذى اجتمع فيه لوثاردو بها فى دارها ، فقد قضت باربارا بعد ذلك أياماً سوداء وهى متوترة الأعصاب منصرفة بكل تفكيرها إلى تدبير خطط انتقامية ضد لوثاردو ، وكانت تقضى ليالى كاملة فى

الصومعة التى خصصتها لمناجيات «الشريك» ، ولكن هذا كان يخلف موعدها ويتعمد هجرانها على ما يظهر ، مما كان يزيد من غضبها وهياج أعصابها ، حتى لم يعد أحد يجسر على الاقتراب منها أو التحدث معها .

وأوّل بالبينو بايبا ذلك بأنه دليل على أن باربارا قد أعلنتها على سانتوس لوثاردو حربًا صريحة لا هوادة فيها ، ومن هنا دبر خطة تلك الحرائق التى اشتعلت فى ضيعة ألتاميرا سابقًا بتنفيذها ما يمكن أن يكون عزم سيدته قد اتجه إلى التفكير فيه ، ومحاولاً أن يسترد بذلك ما كان قد فقده من نعمة وصالها . أما الاضطلاع بتلك الحرائق فقد وكله بالبينو إلى الأخوين الباقيين من «المونندراجونس» بعد مصرع أخيهما الثالث فى صبيحة يوم المجاولة فى «الخميلة القائمة» ، وكانا قد عادا إلى سكنى دار «الماكانيال» على الحدود بين ضيعة الرعب وألتاميرا ، ثم إنهما كانا الشخصين الوحيدين اللذين يطيعان بالبينو طاعة عمياء بين رجال ضيعة السيدة باربارا ، ولكن بالبينو احتفظ بخطته تلك سراً لم يعلنه لأحد خوفًا من أن تستاء لها باربارا ، فهو يذكر قولها له وهو يعرض لها بإمكان التخلص من سانتوس : «كان الله فى عون من يتعرض لسانتوس لوثاردو بأى سوء !» . أما هى فإنها لم تر فى تلك الحرائق التى اجتاحت ألتاميرا دون أن تعرف مصدرها إلا مظهراً من مظاهر تلك «القوى الخفية» التى كانت تهرع إلى عونها ؛ إذ إن إحراق السياج الذى أراد لوثاردو به أن يضع حدًا لأطماعها وسطواتها لم يكن إلا تحقيقًا لرغبة كانت تتردد فى نفسها . ولم تصل باربارا فى تفكيرها إلى هذه المرحلة حتى شعرت بالطمأنينة تغزو قلبها وبالثقة تعاودها فى نفسها ... لن يمضى وقت طويل حتى تتساقط أعمدة السياج الآخر الذى يفصل بينها وبين ذلك الرجل الذى تشتهيه بكل حواسها بفضل تلك القوى السحرية التى لم تتخل بعد عنها، وحتى يمضى ذلك الرجل إليها بقدميه معدود الخطوات لكى يسلمها روحه تفعل بها كيف تشاء ! ...

والحقيقة أن ألتاميرا كانت تبدو فى هذه الأيام كما لو كانت بالفعل واقعة تحت نير لعنة شريرة جائحة . كان العمل اليومى فى المروج قد زادت مشاقه ، وتعقدت مشكلاته ؛ إذ كان الرعاة والبقارون يقاسون الكثير فى جمع الماشية الظامئة وقيادتها إلى مشارب الماء التى لم تجف بعد ، وتعويدها على التوجه إلى تلك المشارب ، وكثيراً ما تعرضت حياتهم للخطر بين الثيران الوحشية المتفرقة فى أنحاء المروج ، ولم يكن عناؤهم ينتهى بذلك العمل اليومى المرير ؛ إذ كان عليهم بعد ذلك أن يتناوبوا الحراسة طول الليل حتى يصدوا هجمات الثعالب الجائعة المسعورة التى كانت أسرابها تجوب أراضى الضيعة محاولة اقتحام البيوت والتسلل إلى الحظائر ، وكان عليهم أيضًا أن يحموا أنفسهم وبيوتهم من تسرب الثعابين التى كانت شعل الحرائق قد هاجتها عن أوكارها ، وكأن كل ذلك لم يكن كافيًا ؛ إذ كان على سانتوس أن يتحمل ذلك المنظر الكريه الذى كان يقابله به لورنثو باركيرو كلما هم أن يخلد فى منزله إلى قليل من الراحة : كان لورنثو لا يكف عن الصياح بصوته المرتجف الذى زاد من رعشته وتهدجه ما كانت نفسه تضطرم به من حقد عاجز قليل الحيلة ، وكثيراً ما كان يلح على سانتوس فى أن يسمح له بأن يمضى فى طريق الأعمال الانتقامية من السيدة باربارا إلى النهاية ، واضعًا ذراعه فى خدمة تلك الشهوة التى كانت تتلظى فى صدره إلى الثأر من المرأة التى جنت عليه .

وأخيراً ماريسيلا التى كان فى تغير طباعها المفاجئ ما طفح به كيل سانتوس لوثاردو ، فقد أدت بها خيبة أملها فى حب سانتوس إلى أن تحولت مرة أخرى إلى مخلوقة جافية شرسة بغيضة المحضر ، وعادت إلى لسانها تلك التعابير السوقية والألفاظ الحوشية التى كان سانتوس قد تجشم الكثير من العناء من أجل عدول الفتاة عنها ، ولم يكن يتوجه إليها بسؤال حتى يتجهم وجهها وتربد أساريرها ويكون جوابها على سؤاله همهمات مزمجرة عابسة ، وكان ذلك خطة مدبرة منها قد أصرت عليها ، وهى أن تفعل كل ما يمكن أن يسوءه

ويقع من نفسه موقع الضيق والضجر ، تحولت طباع ماريسيلا إلى مزاج منقلب وتبرم دائم وجواب واحد لا تبرح تصك به أذنيه كلما أدلى إليها بملاحظة أو عرض لها بتوجيه ، محاولاً أن يقيم بذلك ما عاد إلى الاعوجاج من أخلاقها وسلوكها مع الناس .

- ولماذا لا تتركنى أعود مرة أخرى إلى سفح الجبل الذى أتيت منه ؟

ومرت أيام ، وتواتر مرور كسف الغيوم المتكاثفة على سماء المروج ، وكثرت ومضات البروق فى عرض الأفق ، وفى فجر كل ليلة كانت أسراب طائر «الكاراو»* تصدح بأهازيجها مبشرة باقتراب موسم الأمطار :

- لقد بدأ هطول المطر على الجبال القريبة ، وقد شرعت البروق فى تغيير وجهتها ، ولن يمضى وقت طويل حتى تهب الرياح القادمة من سهول «باريناس» .

وصحت النبوءة ؛ إذ بدا الجو فى اليوم التالى وقد ساده هدوء ثقيل ينذر بتغيير مفاجئ ، ولم يدن اليوم من نهايته حتى شرعت فى الهبوب تلك الرياح التى تقبض الصدور ، والتي تهبط من أعالى سهول «باريناس» ، حاملة معها البشرى المحققة بانهمال مياه المطر ، وتغيرت وجهة البروق الساطعة ، وتردد فى المسامع هدير الرعود الصاخبة من ناحية وادى «الأبورى» السفلى ثم بدأت المياه تنسكب على المروج البعيدة التى تحف نهر «الكونافتشى» وقد حملتها عواصف عنيفة كانت تذرع السهول فى هياج محموم . وكانت الغيوم التى أثقلها الماء تغطى صفحة السماء وهى فى مرورها السريع حيث تلقى دفوقها ، بينما يتردد فى جنبات المروج عواء الريح الحاد ، وبين وقت وآخر تنشق ملحفة السماء عن برق خاطف كأنه شجرة هائلة ترتسم أغصانها الفضية على لوحة الجو القاتم ، والرعود المدوية تكاد تصم الآذان ... ولم تمض لحظات حتى كانت برك الماء تملأ صفحة المروج .

وأصبح الناس يومًا ، فإذا بالسهول المنبسطة وقد اكتست لونًا بهيجًا أخضر .

وقال أنتونيو :

- عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ! ... إن الحرائق التى اجتاحت ألتاميرا كانت علينا خيراً وبركة ، فقد أضفت على الأرض خصبًا جديداً ، وها هى ذى المراعى قد دبت فيها الحياة بعد موات وجدب ، ومهما قيل من شىء فإنه لا شك فى أن الحرائق هى خير ما يبث فى عروق المروج دماء القوة والخصوبة ، ولهذا فإننا لن نبدأ موسم المجاولة القادم حتى تكون تلك المروج قد انثالت فيها قطعان الماشية على صورة لم نرها من قبل . أما ماشيتنا نحن فستعود إلى مسارحها القديمة فى المراعى ، وأما مواشى الآخرين فستأتى إلى أرضنا تسوقها أرجلها إلينا حتى تعوضنا عما فقدناه فى الحرائق التى أشعلها خصومنا لإهلاك حيواننا ! ...

عادت الماشية الوحشية إلى ربوعها التى اعتادتها ، والقطعان المستأنسة إلى سيرها الوئيد الرتيب تأكل مما أنبتت الأرض ، والأفراس الوليدة إلى ركضها المرح المتواثب حول أمهاتها ... وعادت أيدى الرجال فى الأمسيات الهادئة إلى العزف على أوتار أعوادهم ، وماريسيلا إلى حسن الخلق ودماثة الطباع التى كانت قد زايلتها فترة من الزمن ، وإلى تلقى دروسها تحت مصباح القاعة .

مضت المشاق والآلام ، وعادت الحياة إلى التجدد كما تجددت أرض السهول بعد ما أصابها من شعل الحريق ...

الفصل التاسع

سهرات الرعاة

أزف موعد المجاولـة العامة التى جرى العرف فى السهـول على أن يقوموا بها بعـد موسم المطر ، وكـانت العادة تقضى فى هـذه الأرض التـى لا تفصـل بين ضياعها حـدود ثابتة بأن يقوم الرعاة فى كل مجموعة مـتجاورة من الضياع بأن يقوموا مشتركين بمجاولة الماشية السـارحة فيها من أجل تمييز قطعانها مـرة أو مـرتين فى السنة . أمـا هذه المجاولة فـقد كـانت تمتـد شاملة المـنطقة كلهـا : يجمعون كل ما تفرق وانتشر فيها من ماشية مستأنسة ووحشية ، فيميزون قطعان كل ضيعة ويـسمون بمياسم الحديد كل رأس لم يوسم من قبل ، بعـد أن يتبينوا إلى أى ملك ينتمى ، وكان هـذا العمل يتم فى الضياع كلها واحـدة بعد واحدة تحت إشراف رئيس للرعاة ينتخبونه قبل ذلك فى اجتماع عام يضم كل طوائف البقارين المختلفة فى جميع الضياع ، وأما هذه المجاولات فقد كانت تستمر أيامًا متواصلة ، وكـانت تعـتبر مجـالاً للفـروسيـة ، وميدانًا للتفــاخر والمنافسـة بين مخـتلف الضياع ، فـقد كان كل منهم يحـتفل لأيام المجاولة الأخـيرة أعظم الاحتـفال ولا يبعث إليـها إلا خيرة رعـاته وأكثرهم قـدرة ومهارة ، ولا يخـتار هؤلاء لركـوبهم إلا أجود خـيولهم وأكـثـرها دربة على فنون مراوغـة الثيـران وترويضها ، فـضلاً عن عنايتهم بسروجـها وأعنتها حـتى تبدو فى أبهى منظر ، كـانت المجاولات تتـحـول إلى ضرب من المسـابقـات الرياضيـة ؛ إذ يغـتنمهـا البقارون فرصة سانحة ليستعرضوا براعتهم فى الركوب والاقتناص ، فقد كانوا يعرفون أنها مناقب أو مثالب ستكون حديثًا للناس بعد ذلك بزمن طويل .

وكان الفجر قد بدأت بشائره فى الظهور والديكة قد شرعت فى أذانها المبكر حينما كان الاستعداد لمجاولة اليوم على أشده فى ألتاميرا ، وكان رجال الضيعة ورعاتها قد بلغ عددهم ثلاثين ، انضم إليهم عدد من البقارين القادمين من ضيعتى «خوبيرو أوندو» و «آفى ماريا» ، وتزايدت جلبة الرجال وهم يسرجون خيولهم على عجل ؛ إذ كان عليهم أن يفاجئوا الماشية وهى فى مخابئ نومها قبل أن تفرقها أشعة الشمس لمراعيها المعتادة ، وكانت صيحاتهم تتردد هنا وهناك ، بينما كان كل منهم يبحث عن أدوات ركوبه :

- حزام ركوبى ... أين هو ؟ فإنى لا أجده فى أى مكان ! ليسلمه إلى من يعثر عليه ؛ إذ لن يسهل عليه أن يخفيه عنى زمنًا طويلاً ، فليس هنا من لا يميزه ، لقد علقت به فأسًا لا أرى أثرًا لضربة من ضرباتها فى مكان إلا وتمكنت من تمييزها والتعرف عليها ! ...

ويصيح باخاروتى بصوته الجهير :

- ما خبر القهوة ؟ ألم يتم إعدادها بعد ، وأشعة الصباح تكاد تطل علينا ، ونحن هنا بعد فى جيئة وذهاب لم نخرج إلى ما ينتظرنا من عمل حتى الساعة !

ثم يعود إلى حصانه فيحكم حزامه على بطنه وهو يقول :

- وأنت يا جوادى القسطلى الأغر ، لنر اليوم كيف يكون تحقيقك لما أعلق عليك من أمل . إن الحبل الذى أحمله قد جف ويبست أليافه حتى عاد كأنه شعر زنجى ، ولكنى لن ألقى عليه الزيت لتطريته ، فإن هناك ثورًا وحشيًا ضخمًا ينتظرنا لكى نقوم باستئناسه أنت وأنا ، ولن تبدأ المجاولة حتى نتوثب عليه فنثقب خطامه وننفذ من خلاله ذلك الحبل ، فليعودن بعد ذلك لينًا طريًا كأنه شعر رجل أبيض .

ويهيب أنتونيو بالرجال قائلاً :

- أسرعـوا يا أولاد ، فليس لدينا وقت لإضاعـته ، وليعـمل الذين يمتطون خيولاً قصيرة الذيول على أن يضفروا ذيولها ويثبتوا بها حبال الأناشيط ؛ إذ إننا سنشرع فى اقتناص الماشية الوحشية فور وصولنا إلى مرابضها .

وتصايح الذين فرغوا من إسراج خيولهم وهم يتوجهون إلى المطبخ :

- هيا يا «كاسيلدا» ... أسرعى بتقديم القهوة .

وكان فـرن المطبـخ يتوهـج بنار تبعث الدفء والمرح ، والشرار يتطاير من حول حطبـها الصمغى الطرى ، وعلى صـاجه الأسود قامت الجفنـة الكبيرة التى كانت القهـوة تعد فيها ، وقـد تدلت مـن سقف المطبـخ مصفـاة كـبيرة من الصوف الرقـيق مربوطة ببعض الأسـلاك ، وبدا «كاسيلدا» فى حركـة دائبة وهى تمر والقـهوة خـلال هذه المصفـاة ، وتتلقـاها فى وعاء آخـر ، بينما كـانت النساء الأخر مشـتغلات بغسل الأقداح والأطباق ثـم صب القهوة فـيها للرجال الذين قـدموا إلـى المطبخ ليتـناولوا إفطارهم وقـد عيل صـبـرهم ، وظل المطبخ لحظات وهو يعج بحـركة الداخـلين والخارجين ، وبصـياح الرجـال وما كـانوا يوجهـونه من عبارات الإطراء والغـزل الجريئـة والتعريضـات اللاذعة ، وبردود النساء وضحكاتهن .

وفـرغ الرجال من قـهوتهـم ، وهم يعرفـون أنه لن ينزل طعـام فى بطونهم حتى ساعة الغداء المتأخر بعد الانتـهاء من العمل فى المروج بعد العصر إلا نُغَبًا من الماء العكر وعصـارات من التبغ المر الذى كـانوا يلوكونه فى فتـرات الراحة من العـمـل ، وتوجهت القـافلة بعـد ذلك وعلى رأسـها سانتـوس لوثاردو ، وقد غـلب المرح عـلى الرجال وهـم يعلقـون على ما يـنتظرهم من عمل مثير ، أو يتـبادلون النوادر والفكـاهات والمناقضـات التى لا تخلو من حـضور بديهـة وشدة عارضـة ، أو يتذاكرون أخبـار المجـاولات السـابقة وما تعرضوا له فـيها من أخطار أو إصـابات وهم يغـامـرون بحـيـاتهم بين قـرون ثور هائج أو تحت

قوائم جـــواد مذعور ، أو يلـقى أحــدهم بتحـد صارخ فى وجـوه الآخرين ، كما فعل باخاروتى :

- لنر منكم من هو مـستعـد لكى يدخل فى هذه المضاربة ، لقـد آليت على نفسى أن أقـتنص - أنا وحدى - عـشـرين ثوراً وحـشيًـا وأقـوم بخـصائهـا ، وسـيكون ما أقـتطـــع منهـا هو الدليل على عـددها ... فهـل منكم من يراهننى على ذلك ؟

* * *

واستمرت المجاولة وما كانت تقتضيه مـن عمل مجهد عسير حتى انتصاف النهار ، فـلـم تخلد حبـال الرعاة وأناشيطـهـم إلى الراحة لحظة واحـدة ، وسقط كثير من الجياد صريعة تحت أظلاف الثيران المتوحشة الهائجة ، وأما ما بقى منها حيًا فكان لا يستطيع الثبات على قوائمـه من فرط الجهد وما أصابه من هجمات الثيـران ، ولكن المجاولة تـوقفت بعد ذلـك وبدت المروج هادئة صامـتة ؛ إذ إن الثيـران كذلك كان قـد حـــل بها الإعـياء والرهق بعد طول الجـرى والمراوغة ، كان الرعاة فقط هم الذين بقوا على صهوات جيادهم التى كانت تتفصد عرقًا ، وقد انتصبت قاماتهم كأنهم لم يحسوا بعد ما بذلوه من جهد طوال اليوم بوطأة الكلال ولا بعض الجـوع والعطش ؛ كانت حنـــاجرهم قـد بحـت وتهـدجت من فرط الصياح ، ومع ذلك فقد بقيت فيـها بقية تسمح لهم بترتيل ذلك الحداء الذى كانوا يستعينون به على تهدئة الماشية وإذهاب الروع عنها .

وكانت ساعة العصر قد انتصفت حينما أمر أنتونيو بالبدء فى قسمة الماشية وتمييزها ، فـأوغل ماريا نيبس فى وسط صفـوف المواشى المستأنسة مهيـبًا بها ، وتعرفـت هذه على صوت مســتأنسـها ، فـانقادت له ذلولة طيـعة ، وكـانت قد تعـودت على ما يتـبع فى القسـمة ، فـتجـمع بعضـها إلى بعض ، ثم انـحازت وحدها منـفصلة عن بقـية القطعان إلـى جانب من جوانب المـرج ، وكانت هذه الماشية التى يستعــين بها الرعـــاة على تهدئة غرائز المواشى المتـوحشة هى أول ما يتم فصله وتمييزه .

ومضى العمل بعد ذلك ، فميزت ماشية ضيعة الرعب ، وبعدها ماشية ضيعة «خوبيرو أوندو» ، وأخيراً بقى بعد ذلك عدد من الرءوس كانت تحمل سمة ضيعة «الأمارينيا» المجاورة ، ولم يكن لها ممثل يرعى مصالحها فى تلك المجاولة العامة ؛ إذ كانت على بعد غير قليل من موضعها ، واضطلع بالبينو بابيا بمهمة فصل هذه الماشية وتجميعها بناحية .

وكان سانتوس لوثاردو يراقب ما كان يقوم به بالبينو فى صمت دون أن يفوه بكلمة ، غير أنه كان يحد النظر إلى سمة كل رأس من ماشية «الأمارينيا» ثم ينظر إلى سمة الجواد الذى امتطاه بالبينو ، وهكذا حتى نفد صبر الرجل ، فتوجه إليه متسائلاً :

– لماذا ينظر الدكتور إلى كفل جوادى كلما فصلت رأسًا من رءوس ضيعة «الأمارينيا» ؟

– لأن السمة التى يحملها هذا الجواد ليست هى المثبتة على جلود تلك الماشية التى أنت آخذ فى فصلها وتمييزها .

ولم يفه سانتوس بهذه الألفاظ حتى بدت له هو نفسه غريبة على ما جرى به لسانه من كلام ، فقد كانت أشبه بما يعبر به أهل السهول الخلص ، لا ما ينطق به سكان المدينة من أمثاله .

واضطر بالبينو إلى تبرير عمله فقال :

– لقد وكلنى أصحاب ضيعة «الأمارينيا» فى أن أمثلهم وأميز ماشيتهم لأحملها إليهم بعد انتهاء العمل .

فقال له سانتوس :

– إذن أرنى هذا التوكيل ، فإنك لن تستطيع أن تحمل أى رأس ليس لك الحق فى المضى بها ما لم تطلعنى على ما يثبت لك مثل هذا الحق .

- ومـا الذى تريد أن تفـعله أنت بهـذه الماشـيـة إذا لـم أطلـعك على ذلك التوكيل ؟ لعلك إذن عازم على الاستيلاء عليها ! ..

فأجاب سانتوس فى لهجة جافة عنيفة :

- لست ملزمًا بأن أبرر ما أفعل أمام وقح مثلك ، ومع ذلك فإنى قائل لك : لقد أتت هذه الماشية إلى هنا بأقدامـها عبر المروج . وعـبر المروج ستعـود مرة أخرى إلى أصـحابها فى «الأمـارينيا» إذا لم يبعث أهــل هــذه الضيعـة أحدًا لكى يتسلمها .

وصاح بايبا فى دهشة وخيبة أمل :

- عجبًـا لك ! .. يبــدو أنك تريد أن تغـيـر مـا جـرى به العــرف دائمًا فى السهول ! .

- نعم ... هذا هو بالفعل ما أسعى إليه : أن أغير بعض ما جرى العرف به هنا من عادات .

ولم ير بالبينو بايبا بدًا من السكوت وهو يرى لوثاردو يحول أولاً بينه وبين ما درج عليه من سرقة فى ألتاميرا أيام أن كان مـدير أعمال الضيعة ، ثم يستكثر عليـه بعـد ذلك حتى هذه الرءوس التى كان يريد الاسـتيلاء عليـهـا من مـال ضيعـة «الأمارينيـا» ، ولم تكن هــذه من الكثـرة بمكان ، ولكنها كـانت تكفى لتدر عليه بعض الربح بعد أن يفعل بها مـا اعتاد أن يفعل : وهو «كشط» السمة التى تحملها وإبدالها بسمة مواشـيه هو ، وكانت تلك الطريقة فى تزييف الماشية مما برع فيه بالبينو بايبا ، وطالما استولى بها على غير ماله .

* * *

وفرغ الرعاة من فصل الماشـية المستأنسة عن بقية الـقطعان وإيداعها الحظائر ، وكانـت هذه اللحظة هى أكثـر لحظات المجاولة تشـويقًا وإثارة : كـانت الماشـية

المتوحشة تضطرب بين أسيجة الخشب المحيطة بها ، وكانت هذه الأسيجة تضيق عليهـا شيئًا فـشيئًا ، ولا تتـرك لها منفذًا إلا البـاب الضيق الموصـل إلى الحظائر وقـد ضرب الرعـاة الفرسـان عليـها حـصـاراً شديداً حـتى لا تحاول الإفـلات والتـفرق ، وكأنما كـانت الخيـل تشعـر بأنها تشـارك فرسـانها فى قـيادة الماشـية والسيطرة عليها ، فكانت لا تنفك مصعـدة مصوبة وهى ترفع قوائمها فى إنذار ووعيد ثـم تهوى بها إلى الأرض ، واضطربت الأصوات واخـتلطت : احتكاك قـرون الثيـران فى تناطحـها الغـاضب المقـهور ، وخـوار الفـحول التى تتـزعم القطعـان ، وأنين الصغار وهى تنادى أمـهاتهـا ، وصـهيـل الخـيـل وقرعـاتها على الأرض بحوافرها ، وقد علت على ذلك كله أصوات الرعاة فى تصايحهم المعهود :

- من هنا ! .. ضيق الحصار فى هذه الناحية ! ... احرس ذلك الجانب ! ...

ومضى البقارون فى عملهم وهم يسوقـون الماشية إلى حظائرهم مجتهدين فى ألا يدعوا لها فرصة اقتحام السياج أو الجموح وهم يهدهدون بها صائحين :

- هيـ ... و ... و ... ه ! ... هيـ ... و ... و ... ه ! ...

وانتهى إيداع المواشى فى الحظائر ، وأحكم الرعـاة إغلاق الأبواب ووضع الحواجز الخشبية عليهـا ، وبقى المكلفون بالحراسة يدورون حول أسيجة الحظائر وهم يرفعون أصواتهم بالغناء ، بينما اتجه سـائر الرجال إلى دور الضيعة ليحلوا السروج عن ظهور خيلهم وليقوم كل منهم بغسل جواده .

وربت باخاروتى على عنق حصانه وهو يقول له :

- لقد كنت جديراً بما أودعتك من ثقة وحسن ظن أيها القسطلى الأغر ... لـم يقـترب منك ثور وحـشى إلا وأنلتـه ما يسـتـحق من الجزاء . هذا وإن كـان بعض حـسادك من رجـال «ضيـعة الرعب» قـد سخـروا منك فى هذا الصبـاح

قـائلين عنك إنك كَوْدَنٌ لا خـير فـيه ، والـذى يؤسفنى أننى لم أعـرف من هو الذى فاه بهـذه العبارة ، وإلا لنال على يدى باسـمك ما هو أهل له جزاءً وفـاقًا على تهكمه الوقح ! ..

عودة الـرعاة والبـقارين من العـمل تبث الحركـة والحيـاة فى الفناء الواسع الذى يتـوسط أكـواخ الضيـعـة ، وها هم الرجال يـتقـاطرون وفـوداً فى ساعـة الأصيل ولهم جلبة وضـجيج ؛ إذ يبدأ أحدهم بتوجيـه كلمـة إلى صاحبـه ، ثم ينتهون جـميعًا وهم محـولون حديثهم المعتاد إلى مـقطعات ترتفع أصواتهم بغنائها ، فليـست هناك حاجة من حاجات الحـيـاة فى السهـول إلا وللرعـاة فى التعبـير عنها أغنية تقوم مـقام الألفاظ ، بل تصورها خـيراً مما يصوره الكلام المنثور ، فهى حـياة بسيطة لا يكاد يجد فيـها جديد ، ثم إن أرواح هؤلاء الناس بما فيهـا مـن بساطة ، وحياتـهم القائمة على الفطرة كانت أنزع بهم إلـى الشعر وما يقتضيه من انسجام النغم ، وسعة الخيال .

وما إن فـرغ الرجال من غسل جـيادهم وإطلاقهـا فى المراعى حـتى عادوا إلى الغناء حيث كان الفرن قد أشعلت النار فيه ، ووضعت بعض العجول على السفـافيد ، وقد انبـعثت منها رائحـة الشواء النفاذة . وكـانوا قد أتوا من المطبخ بقليل من اللبن الخاثر ، وأعـدوا مقادير من الموز المشـوى والبطاطس المسلوقة ، إلى جـانب ما كـانوا يعدونه من لحم الشـواء ، وأقـبلوا على طعامـهم هذا وهم واقفون أو مـتقرفصون ، يقـضمون منه فى عجلة ، ليـردوا عن بطونهم القنوعة عض الجـوع بعـد الساعـات الطويلة الـتى قضـوها فى العـمل الشـاق دون أن يتذوقوا شيئًا من الطعام بعد أقداح القهوة التى تنـاولوها فى فجر ذلك اليوم .

وكانوا لا يكـفون عن الكلام خلال الطـعام بين لقمـة وأخـرى ؛ أحاديث عن عمل الـيوم وما تخللـه من أحداث ، وتعريضـات وغمـزات ساخـرة يقذف البعض بها فى وجوه البعض ، وادعاءات مبالغة فى معرض التفاخر والاختيال ،

وفى أثناء ذلك كله الكلمة اللاذعة تتضمنها الدعابة المازحة ، والجواب السريع الحاضر ، كلمات خاطفة وعبارات موجزة تتركز فيها حياة رعاة البقر وحداة الماشية ... تلك الحياة البسيطة المثيرة التى يستغرقها العمل الشاق العنيف ، والسير الصبور المتباطئ ، وفى صدر كل رجل قلب شاعر ، وعلى شفتيه مقطع أغنية.

أما الحراس الذين وكل إليهم حماية الحظائر فقد ظلوا هناك لا يكفون عن الصفير والغناء ، فقد كانت الماشية هناك ما تزال قلقة تضطرب ، وهى تتشمم هواء المروج الطليقة فى انتظار أى فرصة تسنح لاسترداد حريتها المسلوبة ، وكان على هؤلاء الرجال أن يراقبوها وهم على حذر وأهبة ، فإن أية حركة مفاجئة يبدأ بها ثور نازع إلى الثورة والجموح يمكن أن تؤدى بالماشية إلى محاولة اقتحام السياج والتفرق مرة أخرى هاربة فى أنحاء المروج .

أما فى الفناء الواسع بين الأكواخ فقد استمرت سهرة الرعاة الصاخبة : العزف على العود وصليل كرات «الماراكاس» ، وعلى هذه الموسيقى البدائية الأهازيج والمقطعات تجرى على ألسنة المرتجلين فى طبع وانطلاق ، هو الشعر الوليد فى مهده ...

وكان باخاروتى وماريا نيبيس هما سيدى هذا الميدان ... ميدان ارتجال الشعر ، ومع كل منهما آلته الموسيقية المفضلة : هذا بعوده ، والآخر بكرات «الماراكاس» فى يديه ، وهما يتبادلان الإنشاد ، يلقى أحدهما بمقطوعته فيجاوبه رفيقه دون تفكير ولا روية :

- حينما أهلت على الدنيا طلعة المسيح
كان ممتطيًّا جوادًا أصهب
وأقبل يركض مغامرًا بحياته
من أجل اقتناص ثور وحشى ! ..

- حينما أهلت على الدنيا طلعة المسيح
كـــان ذلك فى شـــهــر أغـــسطس
فـمـــا أكـثـــر مـا أكل هذا المســـيح
من تفاح الماء وكيزان الذرة الغضة ! ...

وهكذا مضى الرجلان فى معارضات شعرية يجاوب أحدهما بها الآخر .. أهازيج بسيطة بساطة السهول ، ساذجة سذاجة هؤلاء الذين يعيشون على الفطرة فى أحضان تلك الطبيعة ، وكانت شياطين شعرهم من أجل ذلك مثلهم تقذف بأمثال هذه الأبيات فى تلقائية مطبوعة متوثبة بهم من غرض إلى غرض دون تمهيد ولا رابطة : من العاطفى الغرامى إلى الهجائى الساخر ، ومن الفكاهة المضحكة إلى المأساة الحزينة الباكية ، وهم ماضون فى مناقضاتهم ومساجلاتهم فى غير توقف ولا تلعثم ، وموسيقاهم لا تكف عن مرافقة ما ينشدون ، طالما بقيت للعود أوتار ، ولكرات «الماراكاس» صليل . فإذا نضب معين القريحة وجف ماء البديهة فلا بأس فى أن يستعيروا بعض ما نظمه «فلورنتينو» مغنى وادى «الأراوكا» المشهور الذى طار صيته فى جميع أنحاء السهول ، والذى لم يبق شىء يقال إلا أودعه أهازيجه وأغانيه ... «فلورنتينو» الذى بلغ من بديهته وارتجاله على ما يزعم الناس هناك أن الشيطان مثل له ليلة وهو متخفٍ فى زى رجل فتحداه فى ارتجال الأغانى : أيهما أطول فيها نفسًا وأوسع باعًا ، ومضيا يتساجلان حتى لم تعد فى «فلورنتينو» إلا ثمالة صوت ، ولكن عبقريته ظلت حية متوقدة ، وكانا قد أدركتهما ساعة السحر ، ولم يبق إلا القليل على شروع الديكة فى الصباح ، فلم ير «فلورنتينو» بدًا وقد ارتاب فى أمر رفيقه وقريعه إلا أن يرتجل أغنية ذكر فيها اسم الله والأسماء الثلاثة المقدسة ، فما لبث الشيطان أن استولى عليه الرعب ، فهرع عائدًا إلى جحيمه لا يلوى على شىء ، وقد سلم بالهزيمة خاسئًا مدحورًا .

وتتخلل كل ذلك أحاديث باخاروتى وحكاياته الغريبة :

– عفريت فظيع هو الذى رأيته في بعض الليالى وأنا على ظهر قارب يمخر مياه نهر «الميتا» ، وكنت فى رفقة من الأصدقاء ، وكنا قد لمحنا على ضفة النهر أضواء فظننا أنها بيوت ، وكان أن دنونا من الشاطئ لطرق أبوابها حتى نبحث فيها عن شيء نتبلغ به ؛ إذ كان زادنا قد نفد ، والجوع أخذ منا مأخذه ، وأنعمنا النظر فى الربوة التى كانت الأضواء تتوهج من فوقها ، فما الذى تقدرون أن تكون تلك الأضواء ؟ حزمة ضخمة هائلة من الثعابين فيها أكثر من ألف حية ، وقد التفت وأقبل بعضها يحك جسم بعض – تبارك اسم العذراء ! – والشرر يتطاير عنها كما لو كنت قد فركت ما بين أصابع يديك حزمة من أعواد الثقاب ! ...

ويقول ماريا نيبيس فى ارتياب :

– دعك من هذه المبالغات يا رفيقى !

– مبالغات ؟ .. ، كل ما هنالك هو أنك لم تر شيئًا فى هذه الدنيا أيها الهندى ! ... فإذا كنت ترغب فى مطالعة الغرائب فعليك باقتحام هذه الأنهار فلترين فيها ما لا عين رأت ولا خطر على خيال بشر ! وليس فيما ذكرت ما يزيد فى الغرابة على ذلك الخبر الذى قصصته عليكم من قبل مما وقع لى حينما كنت أعمل فى صيد السلاحف فى نهر «الأورينوكو» .

ويتساءل بعض الرجال حديثى العهد بالخدمة ممن يجهلون القصة :

– وكيف كان ذلك ؟

– سأرويه عليكم ... هو شيء يحدث مرة فى السنة ، فى يوم لست أذكر الآن أى الأيام هو ؛ إذ لا ينتصف الليل حتى يبدو فى النهر قارب خفيف يسوقه رجل عجوز نحيف الجسد ، لم يقدر لأحد حتى الآن أن يعرف من هو ولا من

أين يأتى ، ويزعم البعض هناك أنه سيدنا المسيح بنفسه وشخصه ، ولكن الثابت أنه يرسو بقاربه فى موضع من مواضع الشاطئ ، ثم يقذف بصيحة هائلة تسمعها كل سلاحف «الأورينوكو» من منابعه هناك لدى وادى «رُرَيَمهْ» حتى مصبه فى «البوكاس» ، وهذه الصيحة هى كلمة السر التى تنتظرها السلاحف حتى تخرج لتضع بيضها فى رمال الشاطئ ، والذى يقف هناك لا يتمالك نفسه من الارتياع وهو يسمع قعقعة ملايين السلاحف وهى آتية فى أسراب ضخمة لا يكاد يحصيها العد ، وقد ارتطمت أصداف بعضها ببعض ارتطامًا دونه دوى الرعود ، وهذه هى أيضًا «كلمة السر» التى يعرفها صائدو السلاحف المهرة ؛ إذ يخرجون إليها فى تلك اللحظة ، فيجمعون منها ما يشاءون بأيديهم دون جهد ولا عناء .

ويتوقف باخاروتى لحظة ثم يمضى مواصلاً حديثه قبل أن تمزق الضحكات المتشككة فترة التصديق المؤقت الذى يبدو على وجوه سامعيه :

- ... وهذا البريق الساطع الذى يغمر السماء فى «إلدورادو» ؟ لقد رآه الإسبانيون ، وأنا أيضًا رأيته ، فكثيرًا ما قدر لى أن أميزه من هنا على بعد المسافة ؛ إذ إنه لا يلتمع إلا فى الجهات التى يخترقها نهر «الميتا» .

- إن هذا ليس إلا بعض الحرائق التى يشعلونها فى السهول يا باخاروتى .

- لا يا رفيقى أنتونيو ... إن بوسعى أن أؤكد لك أن هذه الناحية لابد أن تكون تلك المنطقة التى يسمونها «إلدورادو» والتى جاء ذكرها فى بعض هذه الكتب التى قرأتها علىَّ مرة . إن الضوء يرى فيها واضحًا متوهجًا هناك حيث يجرى نهر «الميتا» حتى تبدو السماء فيها وكأنها تحولت إلى مدينة من الذهب ! .

ويعلق بعض الرجال :

- لست أظن هناك شيئًا لم يره باخاروتى .

ويطلق السامعون ضحكاتهم .

ثم يتوجه ماريانييبس إلى صاحبه ويقول :

- والآن قص علينا يا باخاروتى كيف تمكنت من أولئك الذين أرادوا أن يعدموك رميًا بالرصاص .

ويتصايح الذين يعرفون الخبر فى مرح :

- إنها لقصة طريفة ، فألق حديثها يا باخاروتى ، فإن من بيننا كثيرين لم يسمعوها من قبل .

ويلبىْ باخاروتى رغبتهم فيقول :

- كنا قد وقعنا أسرى فى أيدى بعض هذه الطوائف التى كانت قد أعلنت الثورة على الحكومة ، وكنا قد أوقعنا الكثير بهذه الطائفة حيثما عثرنا على رجل منها ، وإذا كنا قد اشتركنا جميعًا فيما فعلناه بأولئك الثوار فإن كل فعلة منكرة من أمثال تلك الفعلات لم تكن تنسب لأحد غير باخاروتى ، وهكذا لم أكد أقع فى أسرهم حتى أخذونى بجرائرى وجرائر الآخرين ، وقرروا إعدامى رميًا بالرصاص . كان ذلك قريبًا من مصب نهر «الأبورى» ، وكان النهر فى موسم الفيضان فى ذلك الوقت ، أما الرجال الذين عهد إليهم بإعدامى فقد كانوا قربوا خيولهم إلى ضفة النهر لكى يستقوا من مائه ، وكنا جميعًا غارقين فى الوحل والطين حتى أنوفنا ، وخطر لقائد الفرقة حينئذ أن يستحم فى ماء النهر ... ولكن على مقربة من الشاطئ ؛ إذ إنه لم يكن يحسن العوم . وأعملت أنا ذهنى حتى أخلص مما وقعت فيه ، فدبرت من أمرى ما ترون : نظرت إليه ثم قلت بصوت تعمدت أن يصل إلى مسامع الضابط قائد الفرقة :

« - يا لهذا القائد من رجل قوى العزم بالغ الجرأة ! والله لو كنت فى موضعه لما خطر ببالى أن أسبح فى الماء هكذا فى طمأنينة وهدوء بال ، مع ما فى هذا النهر من تماسيح ! » .

وسمعنى الرجل ، فبدا عليه الاضطراب والتحير شأن من يريد أن يتدارك من أمره ما تصدع ، ولكن عناية الله كانت هناك متكفلة بما بقى ، وذلك أن الضابط رسم كذلك خطته ، وهى خطة لم تكن لتنطوى على خير ولا بركة ، فتوجه إلىَّ مسائلاً :

« - إنك من أهل هذه السهول ، أليس كذلك ؟ » .

فأجبته وأنا أصطنع السذاجة والوداعة :

« - بلى يا سيدى ! من أهل السهول أنا ، ولكنى لا أجوب هذه الأرض إلا على ظهر حصان ؛ فإذا افتقدتنى فابحث عنى فى جنبات الأرض ، أما الماء فليس لى قبل به ، ولن تجدنى فيه ... بل ولا حتى على شطآنه ! » .

وصدقنى الرجل ؛ إذ كان قضاء الله سبق بأن يكتب لى الفرج من تلك المحنة ، وكان قد أمضى عزمه ، فأمر رجاله بأن يفكوا وثاقى وأن يقذفوا بى إلى الماء زاعمًا أنه يريد لى أن أغتسل ، ولست أدرى إن كان قد أمر بما أمر لمجرد العبث بى أو لكى يتجنب النظر إلىَّ وهم يطلقون علىَّ الرصاص ، على أية حال أوعز الضابط إلى جنوده بأن ينزلونى إلى الماء وهو يقول :

« - اقترب يا صديقى ولا تجزع ، فلسنا نريد إلا أن نغسل لك قوائمك ، حتى لا تلوث السماء غدًا بقذر رجليك حينما يؤذن لك بدخول الجنة » .

وقهقه الجنود ضاحكين من نادرة ضابطهم ، أما أنا فقد حدثت نفسى قائلاً : «لقد جاءك الفرج ونجوت يا باخاروتى !» ، ولكننى واصلت تمثيل الدور فصحت فى استعطاف :

« - لا يا سيدى القائد بحق الله وحق حياتك ! أتوسل إليك ! ... إننى أوثر أن تعدمونى بالرصاص إذا كان مصيرى سينتهى إلى ذلك على أن يلتقمنى فكا تمساح ! » .

ولكنه صاح بجنوده :

« - اقذفوا بهذا الجبان إلى الماء ! » .

وصـدعـوا بما أمروا بـه ، فألقـوا بى حـتى أغـرق أو أكـون لقـمة سـائغـة للتماسـيح ، وكان ذلك فى الضفة المقـابلة لنهر «الأبورى» . أما أنا فـقد غصت فى النهر كما لو كنت ماضيًا قدمًا إلى القاع لا ألوى على شىء .

ويتـوقف باخاروتـى عن الكلام ، وتسود لحـظة صمت ، فـيـهيب به أحـد الحاضرين :

- وما الذى وقع بعد ذلك ؟ أتارك أنت الخبر قبل أن تلقى إلينا بخاتمته ؟

- ولكن ... ألا ترانى الآن فى هذه الضفـة حيًا أرزق ، لقد مـضيت أسبح تحت الماء ، فلم أخرج رأسى إلا بعد أن بلغت الشاطئ المقابل ، ثم صحت بهم .

- « لا تحرمونى من متعة هذه البطشة مرة أخرى إذا قدر لنا لقاء ! »

وصـوب الرجـال بنادقهـم إلىَّ ، وأطلقوا عـلىَّ من الرصـاص ما شـاءت أيديهم أن تطلق ، ولكن ... مـن الذى يدرك باخـاروتى حينمـا يقول لساقـيه : أى جدوى منكما إذا لـم تسعفانى فى مثل هذا المقام ؟ » .

وسأله كارمليتو :

- وأنت ... ما كنت فعلت حتى يقبضوا عليك ؟

- لا شىء ... إلا أننى كنت رجـلاً مـسالمًا عَـزوفًا عن الحـرب والقتـال وما يرددونه عن وجـوب أداء الخدمة العسكرية ، ثم إن يدى امـتدت إلى بعض صناديق التوفـير حتى أقـاسمهـا دريهمات مما أُبـترِعتْ به ، وكانت قـد حفلت بالنقود بفضل ما كان يعم الناس من ... رخاء ، ويسودهم من سلام وأمن ! .

فقد كان لباخاروتى آراؤه الخاصة التى يتميز بها أهل السهول حول الحرب وتوزيع الثروة بين أفراد الشعب ! ...

* * *

مساء يوم السبت ... سهرة راقصة صاخبة حتى مطلع الفجر .

وكان أهل الضيعة قد استعدوا للحفلة فأخلوا الكوخ الكبير الذى كانوا يودعون فيه سروج الخيل ، ثم كنسوا أرضه ورشوها ، ووضعوا شمعدانًا على كل من الأعمدة الخشبية التى قام عليها الكوخ ، وكانت كاسيلدا قد أعدت ما سيقدم للحاضرين من شراب متخذ من الشعير المتخمر والحلوى المصنوعة من مربى البرقوق ، بينما كانت الطاهيات فى المطبخ مشتغلات بشى قطع من اللحم وقليها ، وفى جانب من جوانب الكوخ أقيم مشرب صفت عليه زجاجات من الخمر القوية ، وكانوا قد أحضروا «رامون نولاسكو» من قرية «لاس بنياس» ، وكان خير عازف على آلة «الهارب» فى جميع حوض «الأراوكا» ، أما للغناء وهز «الماراكاس» فقد استدعوا «أمبروسيو الأعور» الذى كان معروفًا بأنه أعظم مرتجل للأغانى فى هذه البقاع بعد «فلورنتينو» المغنى المشهور .

ووصلت ركبان الفتيات من القرى والضياع المجاورة : من «الخروب» ومن «آفى ماريا» و «خوييرو أوندو» ، فنزلن وأسرعن إلى الجلوس على الدكك الطويلة التى رصت صفوفها فى الكوخ ، وكن من الكثرة بحيث لم تكد المقاعد تكفى لجلوسهن .

وكانت ماريسيلا تقوم بمهمة المضيفة : تستقبل القادمين وهى غادية رائحة هنا وهناك ، ولم تكن تلتقى بفتاة أو امرأة إلا همست فى أذنيها بشىء ، فتتصاعد الدماء إلى وجه ماريسيلا ، ثم تطلق ضحكة وتجيب :

- ولكن ... من أين تأتين بهذا الكلام ؟

وهى تتنقل بين جماعة وجماعة ، وتتلقى المداعبات وعبارات الثناء والإطراء .

وتلحف خنوفيفا فى سؤالها .

- أحق ما تقولين من أنه ليس هناك شىء حتى الآن ؟

- لا شىء ... بل إن الأمر أسوأ بكثير من هذه الأيام ، فقد زاد جفاؤه وخشونته أخيراً حتى لم يعد مجال لأى شىء من ذلك .

- لا أكاد أصدق ما تقولين ... لا سيما وقد تزايد فى هذه الأيام جمالك !

- سأحدثك بعد قليل بكل شىء .

وبدأت الحفلة ؛ إذ شرع عازف «الهارب» فى جس أوتار آلته ، وبدأ «أمبروسيو الأعور» فى تحريك كرات «الماراكاس» مرتين أو ثلاثًا .

وأوحى «رامون نولاسكو» إليه بإشارة متفق عليها بينهما ، فتنحنح المغنى حتى يصفى حنجرته ويصلح صوته ، ثم ألقي ببصقة من أحد جانبى فمه ، وأعلن على الحاضرين :

- إليكم الآن لحن «التشيبولا» ! * .

وشرع أمبروسيو فى الغناء ، بينما هرع الرجال إلى حيث كانت النساء جالسات لكى يخرجوا بهن إلى حلبة الرقص :

- تشيبولا ... افتحى لى ذراعيك
فما أشوقنى منك إلى ضمة عناق
ودعينى أسترح إلى لذة الوصال
قبل أن يظفر بها رجل آخر !

وتبدأ رقصة «الخوروبو»* بخطوات سريعة مائجة ترتفع لها ثياب النساء عن سوقهن .

ولكن ماريسيلا تظل فى موضعها جالسة ، أما سانتوس فقد بقى هناك بعيداً لم يفكر حتى فى مجرد الدنو منها ، وكان هو الوحيد الذى يستطيع

مراقصتـها ؛ إذ إن رجال الضيعة وأجـراءها لـم يكونوا لتبلغ بهم الجرأة إلى هذا الحد ، وكان سانتوس يبدو فى تلك الليلة منصرفًا عن الرقص كل الانصراف .

وتنبعث الألحان من بين يدى العازف : الأوتار الدقـيقة تطلق أصواتًا حادة رفيـعة ، والأوتار الغليظة تحـشرج فى دوى مزمـجر مـبحوح ، وأصـابع رامون نولاسكو السمراء بين هذه وتلك تبدو كأنها عناكب سوداء تنسج خيوط بيوتها وهى فى طراد متواصـل ، وتمضى الألحان عنيفة رتيبـة فى انسجام حزين مـثير ، وأزواج الراقصين لا تكاد تتحـرك عن شبر من الأرض قد استقـرت عليه أقدام كل منهـا ، أما اللحن فكانوا يسـتجـيـبـون له بحركات خـصورهم ، وبين فـينة وأخرى تتوقف كرات «الماراكـاس» عن الصليل ، ثـم تعود مرة أخرى فى عنف وثورة ، ويرتفع صوت أمبروسيو مرة أخرى بالغناء :

- لو أن أبانا المقدس وصل إلى علمه
ما فى رقصات «التشيبولا» من ثورة دفاقة
لخلع عنه مسوح رهبنته
ولأقبل تاركًا كنيسته وحيدة مهجورة !

وكانت هذه المقطوعـة إيذانًا بتلك «الثورة» التى كان العازف يعـدها ليهيج بهـا حمى الرقص ، وتـتواثب أصـابعـه الماهرة بين الأوتار الدقيـقـة والغليظة ، وتنطلق صيحات الراقصين فى طرب ومتعة ، ويعود «الخوروبو» إلى لحنه الأول وقد زاد عنفه وارتفعـت جلبته ، ويقرع الراقصون الأرض بأعقـابهم قرعًا يكاد يتزلزل لـه المكان ، ثم يفترق الأزواج ويمـضون صفـوفًا يتـبع الرجل منهم فيـها صاحبـته وسط الزحام ، ويعودون بعـد ذلك إلى الالتقاء متخـاصرين ، وترتفع ثياب النساء مـرة أخرى عن سوقهن فى حركـة سريعة مؤذنة بانتهـاء الرقصة ، وتخفت الموسيقى شيئًا فشيئًا حتى تتوقف ويتوقف معها الراقصون .

وتعود النساء إلى مقاعدهن ، وأما الـرجال فيسرعون إلى المشرب ، ويزيد الشراب من نشاطهم ومرحهم ، ثم يتوجه باخاروتى إلى العازف مهيبًا به :

– على لحـن «الدودة» يارامون نولاسكو ! .. سترى الآن شيـئًا طريفًا ممتعًا يا سيدى الدكتور .

ثم يصيح مناديًا «كاسيلدا» :

– كاسـيلدا ! .. أين ذهبت السـيدة كاسـيلدا ؟ .. تعالى هنا ، ومـثلى دور الجـيفـة الميـتـة حـتى يرى المشـاهـدون كيـف تدور هـذه الدودة لكى ترتعى على رفاتك ! ...

أمـا لحن «الدودة» فـقـد كـان ضـربًا من الموسـيـقى الراقـصـة ، من تلك الضروب الكثيـرة التى كانت تحمل أسمـاء الحيوان أو الحشـرات فى السهول ، والرقص فيه يقوم على تمثيل مـقلد لا يضطلع به فى أمثال هذه السهرات إلا من يريدون إضحاك الناس وبث السرور فى نفـوسهم ؛ إذ يعمد الراقص على لحن الموسيقى إلى تقليد حركات الدودة وهى تستعد للوثوب على جيفة البقرة الميتة، وكان باخاروتى قد اشتهر بأنه خيـر راقص لهذا الضرب فى جميع تلك الجهات ؛ إذ كان يعينه على إحكام التـقليد جسده الطويل المعروق وعظامـه المهزولة ، أما كاسيلدا فـكانت تقوم بدور الجيفة الميـتة ، وكانت هى المرأة الوحيـدة التى تقبل القيام بذلك الدور ؛ إذ كانت مـستعدة دائمًا لمرافقة باخاروتى فى تلك التـمثيلية الهزليـة الراقصة . ولهذا فإنـه لم تكن سهرة راقصـة فى تلك الجهــات تخـــلو من عزف ذلك اللحن الذى كان باخاروتى ورفيقـته يثيران به ضحكات السرور بين الحاضرين .

وأوســع الراقـصـون لهم الحلـبة ، وشـرع رامـون نولاسكو فى العـزف ، بينما انطلق صوت أمبروسيو الأعور :

– أقبلى يا ديدان بركة الوحل

لدى شجرات البلوط فى أسفل الوادى

فلترون الآن أيها السادة

كيف يعود الشيطان خاسئًا مدحورا

- أقبلى يا ديدان بركة الوحل

لدى شجرات البلوط فى الوادى البارد

لقد أتتكم البشائر أيها السادة

بأن «فلورنتينو» قد كاد يُفِرُّ بالهزيمة

وكانت هذه المقطوعات هى التى يزعم الناس أنها دارت بين «فلورنتينو» مغنى وادى الأراوكا والشيطان فى ذلك التحدى الخرافى الذى دار بينهما فى ارتجال الأغانى .

ووقفت كاسيلدا فى وسط المكان وقد أغمضت عينيها وتصلبت عضلات جسدها ، وكانت ترافق الموسيقى جامدة الجسم إلا حركات خفيفة كانت تهز بها كتفيها ، أما باخاروتى فقد كان يرقص دائرًا حولها وهو يفتق خياشيمه متشممًا ويحرك ذراعيه الطويلتين حركات سريعة متتابعة ، وجسده يتقبض ويتمدد وهو بين وقت وآخر يتوثب فى الهواء وثبات هائلة مقلداً فى ذلك حركات الدودة ، وهى تهز جناحيها وتزحف بجسدها الطويل متقدمة نحو الجيفة المطروحة .

وكان الحاضرون يوشكون على التفطر ضحكًا ، ولكن الرقصة لم ترق سانتوس ، فظل يتأملها لحظة ثم قال :

- كفى يا باخاروتى ... لقد أضحكتنا بما فيه الكفاية .

وعدل العازف إلى لحن آخر ، واستمر الرقص ، أما ماريسيلا فقد ظلت فى مكانها جالسة ، بينما كان سانتوس يصغى إلى حديث كان أنتونيو يلقيه إليه عن بعض نوادر باخاروتى الأخيرة ، ورأى هذا أنهما يخوضان فى ذكره فأقبل

يتسمع إلى الحديث ، حينما توجهت إليه ماريسيلا فجأة فقالت له :

أتريد أن تراقصني يا باخاروتي ؟

فصاح الرجل مجيبًا لها وهو يتمثل :

- زعموا أنهم قالوا للميت : أتريد صلاة تتلى على روحك ؟ ولكنه لم يلبث أن أضاف بعد أن رمقه أنتونيو بنظرة لها مغزاها .

- لا يا بنيتي ... فهذا شيء ليس باخاروتي أهلاً له . غير أن سانتوس قال له :

- قم يا باخاروتي ... قم وراقصها .

وعضت ماريسيلا على شفتيها غيظًا ، بينما كان باخاروتي يخاصرها ويمضي بها إلى حلبة الرقص وهو يصيح في طريقه بالعازف والمغني :

- أصلح أوتارك يا رامون نولاسكو ، وأحكم الصليل يا أمبروسيو الأعور ، بل ما كان أجدر كراتك هذه أن تكون من ذهب خالص . فها هو ذا باخاروتي قد خرج مراقصًا لزهرة ألتاميرا ... شرف ما كان ليستحقه ! أفسحوا الطريق يا أولاد .. أفسحوا الطريق .

الفصل العاشر

شعور لا اسم له

خنوفيفا ... ألا تعرفين ما وقع لى ؟

- ماذا ؟ ... جعله الله خيراً !

- تعالى أحدثك به ... هناك إلى جوار السياج حيث لا يسمعنا أحد ... تحسسى يدى واسمعى دقات قلبى .

- آه ! لقد عرفت ... لقد باح لك بحبه أخيراً .

- لا ... ولا كلمة واحدة ، أقسم لك على ذلك ! وإنما بحت له أنا بحبى !

- ما هذا ؟ أو قد انقلبت الآية : فأصبحت الظباء هى التى تطارد كلاب الصيد ؟

- لقد فعلت دون وعى ولا تفكير . اسمعى إلى ما أقول : لقد كنت غاضبة منه ، وبلغ من غيظى أن الدموع كانت توشك أن تطفر من عينى ، وفجأة وجدته ينظر إلىّ ، فأردت أن أكتم ما بنفسى حتى لا يظن أننى محنقة ، وابتسمت ، ولكنها كانت ابتسامة مصطنعة متكلفة لا على ما كنت أشتهى أن أبتسم ... أتفهمين ؟

- نعم ... إننى أتصور هذه الابتسامة .

- ولكن هل تعرفين ما بدا لى فى هذه اللحظة حتى أعالج من الأمر ما فسد ؟ لقد زدته فساداً عما كان ؛ إذ ظللت شاخصة ببصرى إليه هنيهة ثم قلت له : «ثقيل الظل !» .

ويصطبغ خداها بحمرة الخجل ثم تقول :

- ما الذى ترين فى هذا ؟ أرأيت امرأة أكثر منى جرأة ، أو أقل حياء ؟

وتشف العبارة الأخيرة عن سذاجة وبراءة ، ولكن خنوفيفا تستغرق فى التفكير وقد خطر ببالها شىء جعلت تحدث به نفسها :

أترى فى ذلك تحقيق المثل الذى طالما يجرى به لسان جدى : «وارث الشىء لا يغتصبه !» .

- ماذا بك يا خنوفيفا ؟

- لا ... لا شىء . لقد كنت أنتظر منك مواصلة الحديث حتى نهايته .

- وما الذى تريدين بعد ذلك ؟ أيبدو لك ما قصصت قليلاً ؟ لقد شرحت لك كل شىء فى كلمة واحدة !

- وهو ... هل فهم من كلامك أنت ما كنت تقصدين ؟

- يكفى أن أقول لك إنه اضطرب اضطرابًا مفاجئًا ، فتعثرت خطواته فى الرقص مع أن أذنه تعرف كيف تتجاوب مع الموسيقى الراقصة إلى أبعد درجة . إنه لم يجبنى بكلمة واحدة ، ولم تعد عيناه إلى النظر إلى وجهى ... الحقيقة أننى لا أعرف ما إذا كان قد عاود النظر إلىَّ أم لا ؛ إذ إننى لم أجرؤ بعد ما قلت على رفع عينى إليه .

وتعود خنوفيفا إلى تفكيرها الساهم ، وتخلد ماريسيلا إلى الصمت لحظة، بينما يتيه نظرها فى آفاق المروج البعيدة النائمة تحت ضياء القمر ، ثم تتنبه إلى نفسها بغتة ، وتصفق بيديها وتصيح :

- لقد اعترفت له ... لقد قلت له كل شىء ؛ فالأمر الآن متوقف عليه هو.

وتنظر خنوفيفا إليها وتقول :

والآن ... ما الذى سوف يحدث يا ماريسيلا ؟

وتكرر ماريسيلا السؤال كما لو كانت غير فاهمة :

- والآن .. ماذا ؟

ثم تضيف :

- ... ولكن ألا تقدرين ؟ ما الذى كان علىَّ أن أفعل ؟ ... ضعى نفسك فى موضعى ؛ لقد كنت طول اليوم أحلم بهذه الحفلة وأنا أقول لنفسى : سيبوح لى فى هذه الليلة بحبه ! ثم إن الكلمات قد بدرت منى - كما قلت لك - دون أن أدعى ما أقول . إنك أنت المسؤولة عن ذلك ، إذ لم نكن نلتقى إلا وجهت إلىَّ هذا السؤال : «ألم يقل لك شيئًا حتى الآن ؟» وأخيراً أنا أرى أنك تشعرين بالغيرة لأنك تحبينه أيضًا !

- لا يا ماريسيلا . كل ما هناك هو أننى كنت أفكر فيك أنت .

- ... بهذا الوجه الذى ارتسم عليه القلق والانزعاج ؟ بينما تفيض نفسى أنا بالفرح والسعادة ! ...

وفى هذه اللحظة قدم باخاروتى فقطع عليهما حبل الحديث ؛ إذ كان العازفون قد بدأوا فى ضرب القطعة التى كان يريد أن يراقص خنوفيفا على نغماتها .

وبقيت ماريسيلا وحدها إلى جوار السياج منتظرة أن يتقدم إليها أحد عارضًا مراقصتها ، ولكن اللحظات مرت دون أن يدعوها أحد ، فظلت فى مكانها وقد غلب عليها التفكير ، وترددت فى أذنيها كلمات خنوفيفا :

- والآن ما الذى سوف يحدث يا ماريسيلا ؟

- نعم ... ما الذى سيحدث ؟ أتظنين أنه من الممكن أن يستمر كل شىء على ما كان بعد أن وقع ما وقع ؟ أتتصورين أنك قد حسمت الموقف بهذه الكلمات التى أطلقتها فى وجهه بينما هو نفسه لم يجرؤ على أن يتوجه بها

إليك ؟ ألا ترين أنك عقدت المسألة من حيث أردت أن تجدى لها حلاً ؟ وبأى وجه ستقفين غداً أمام سانتوس إذا لم يقترب هو منك فى هذه الليلة لكى يعترف لك بحبه ؟... ولكنه لا يأتى ... لن يأتى على طول هذه الليلة !... يا له من موقف مُزْر مخجل ! والسبب هو أنك لم تعرفى كيف تتحكمين فى أعصابك ولا كيف تكتمين مشاعرك ، ولتتصورى ما الذى يدور الآن فى تفكيره عنك ! ترى ما هو قائل هذا الفتى ... «ثقيل الظل» ! ...

- نعم ... أنا أعرف ذلك عن نفسى حق المعرفة ... فقد سبق لك أن أطلقت علىَّ هذه الصفة من قبل .

- آه ! ... أكنت هنا إذن ؟

- نعم . ها أنذا هنا ، ألا تريننى ؟

- وما الذى حملك على أن تأتى هكذا على أطراف قدميك متجسساً على ما يفكر فيه الناس ؟

- أنا لم آت فى هذه الصفة التى تقولين ، ولست ممن وهبهم الله فضيلة التجسس على الأفكار ... أما إذا كان الناس قد اعتادوا أن يفكروا بصوت مرتفع فإنهم يعرضون أنفسهم حينئذ لأن يطلع الآخرون على أفكارهم .

- إننى لم أقل شيئًا .

- وأنا إذن لم أسمع شيئًا .

وتسود لحظة صمت ، ثم تتساءل ماريسيلا :

- ولكن ... إلى متى ستظل ساكتًا هكذا ؟ لم يكن يبدو عليك أنك خجول إلى هذا الحد ، أترى من اللازم إذن أن تستخرج الكلمات منك استخراجًا ؟

– لا بأس ... فليكن ذلك .

– ماذا ؟

– لا شيء .

ويستغرق هو فى الضحك فتسائله :

– مم تضحك ؟

– لا شيء ...

ويستمر فى الضحك .

– لعلك مجنون إذن .

– إنهم يقولون هنا إن قمر السهول يذهب بعقول الناس .

– هذا من شأنك أنت ... أما أنا فإن عقلى لم يذهب به شيء .

– ومع ذلك فإن هذا الذى هبط عليك فجأة من الغرام بباخاروتى ليس إلا ضربًا من ضروب الجنون . وما أريد بذلك نقدًا لباخاروتى ، فهو خير رجل لما يصلح له ، ولكن ... أترينه صالحًا لكى يكون خطيبًا لك ؟

– وماذا فى الأمر ؟ ألم أكن أنا حشرة من حشرات ذلك الجبل حينما التقطتنى أنت لتولينى عطفك ورعايتك ؟ إن المثل هنا يقول : «مثل ذلك الأب لمثل تلك الأم» .

– لقد كنت أعرف أن هذه ستكون ليلة الكلمات السوقية والأمثال التى يتفوه بها سقط الناس ، ولكن ليس من العسير على أحد أن يكتشف بلمحة عين أنك تتعمدين الإتيان بمثل هذه العبارات ... هى مهزلة أجدت تمثيلها ، ولهذا فإننى أقول لك : إذا أردت أن تخدعينى فابحثى لك عن حيلة أخرى أكثر دهاءً وأشد مكرًا .

- وأنت ... لماذا لم تبحث لك عن شيء آخر أكثر ذكاء وفطنة من قولك إنني أصبحت مغرمة بباخاروتي ؟ والآن دعني أنا بدوري أستغرق في الضحك ... ألا ترى إلى التلميذة كيف تعد على أستاذها كبواته وأخطاءه ؟

ويظل هو محدقًا فيها يتأملها في صمت ثم يسألها :

- هل انتهيت من الضحك ؟

- يكفيني الآن هذا القدر ، فلتقل الآن شيئًا آخر من هذه العبارات العبقرية التي كثيراً ما تعرض لك ، فربما عاودتني الرغبة في الضحك مرة أخرى . قل مثلاً إنك أتيت هنا لتقف إلى جوار السياج ثم تخلد إلى التفكير في إحدى هؤلاء الصديقات اللاتي تركتهن في كاراكاس ... أقول «صديقة» وإنما أعني بها خطيبة ...

- إذا كنت تريدين من ذلك أن تضحكي مني ...

- لست بحاجة إلى قول شيء ... فها أنذا أضحك مرة أخرى ... ألا تسمع ؟

- استمري ... استمري ... إذ يعجبني أن أراك تضحكين .

- إذن فسأكف عن الضحك ، وسيكتسي وجهي ملامح الجد والصرامة ، فإنني لست ألعوبة في يد أحد يسيرني كيف شاء .

- وأما أنا فإنني أدنو منك قليلاً قليلاً ثم أسألك : أتحبينني يا ماريسيلا ؟

- وأنا أجيبك : إنني أعبدك يا .. ثقيل الظل !

* * *

ولكن هذا المشهد لم يكن يدور إلا في خيال ماريسيلا ، ولعله كان يحدث بالفعل لو أن سانتوس تبعها إلى حيث كانت واقفة إلى جوار السياج ، ولكنه لم يعرج على ذلك الموضع من قريب ولا من بعيد .

وتمضى ماريسيلا فى أفكارها :

- ولكن من الذى قال إنه ينبغى أن يبوح هو لى بحبه ؟ وأى بأس فى أن أواصل أنا حبه من جانبى دون أن أنتظر منه أن يبادلنى نفس الشعور ؟ ولماذا ينبغى أن أطلق كلمة «الحب» على شعور المودة الذى أحمله نحوه ؟ لا يا ماريسيلا ، المودة يمكن أن يشعر بها الإنسان نحو العالم كله ... نحو أشخاص كثيرين فى وقت واحد . ماكنه هذا الشعور إذن ؟ ... عبادة ؟... ولكن لماذا ينبغى أن يكون لكل شىء فى الدنيا اسم متعارف محدد ؟

وهكذا ظنت ماريسيلا أنها وجدت حلاً لهذه المشكلة التى حيرت نفسها وأقلقت ما فى روحها من بساطة معقدة !

والحق أن هذا الحب الذى تحرك فى نفس ماريسيلا كان شيئًا غريبًا لا يسهل تحديده ولا تعريفه ... لعله كان فى مكان وسط بين الرغبة البسيطة المادية والعبادة البسيطة الروحية ... وللحياة بعد ذلك أن تميل به إلى جانب أو آخر محددة صورته الأخيرة . أما الآن فهو فى ذلك التوازن المتأرجح بين الحلم والحقيقة لا يزال «شعوراً لا اسم له» ! .

الفصل الحادى عشر

حلول وهمية

الغريب فى الأمر هو أن سانتوس لوثاردو كان كذلك يفكر بدوره فى حلول وهمية من نتاج الخيال .

وكان قد جلس إلى مكتبه بعد أن نظفه من أكوام الكتب والأوراق التى كانت قد تناثرت عليه فى فوضى واختلاط ، ففصل بين هذه وتلك ، وأعاد صف الكتب بعضها فوق بعض ، أما الأوراق والوثائق التى كان يسجل فيها نفقات الضيعة وحساباتها من دخل ومنصرف فقد أعاد تنظيمها وكأنه كان يريد بذلك أن يعبر عن رغبته فى ترتيب أفكاره وضم شتات مشاعره ، واتكأ بيديه على ما احتشد على مكتبه ، ثم مضى يفكر فى هدوء محاولاً تحليل أحاسيسه تحليلاً نزيهًا مجردًا عن الهوى ، وتقدير الموقف من جميع جوانبه كما لو كان أمام مشكلة رياضية تقتضى الوصول إلى نتيجة منطقية ، ونظر إلى الأوراق التى أراح عليها يسراه ، ثم أقبل يقول مخاطبًا نفسه :

– أما إن ماريسيلا قد أغرمت بى فهذا شىء واضح لا ريب فيه ، ومعذرة عما فى هذا القول من تمدح أو غرور ، وقد كان من المنطقى أن يحدث ذلك ؛ فالمرحلة التى تجتازها الفتاة من عمرها ، والمعايشة ، وغير ذلك من الملابسات كان من الطبيعى أن تنتهى بها إلى تلك النتيجة . أما هى فإنها جميلة حقًا ... نموذج رائع لجمال النساء هنا ممن تولدن من خليط من الدماء والأجناس ، وهى بعد ذلك لطيفة رقيقة ، ورفيقة طيبة دائمة الابتسام والبشر ، ولعلها خير عون لرجل مثلى كتب عليه أن يعيش وحيدًا مقاسيًا عناء الحياة الخشنة بين الرعاة

والماشيـة ، وهى فتاة صـناع لا تكف عن العمل ، قوية شـجاعـة إذا ما اضطرت إلى مواجهـة موقف عصيب ، ثم إنها أولاً وقـبل كل شىء روح جديرة بالعناية والاهتمام ... ولكن ... هذا أمر لا ينبغى أن يكون ! ...

وندت من يده اليسرى حـركة بدا كما لو كان قد أراد أن يمحـو بها ما كان قد أثبت على الأوراق الجـاثمة تحت مرفقـه ، ثم تقبضت يده اليمنى فـى حركة عصبية على صف الكتب المرصوصة وهو يقول :

- كل ما فى الأمر أن هناك «استلطافًا» بيننا ، وهو شىء طبيعى لا يستغرب ، أمـا من ناحيـتى أنا فإلـى جانب ذلك رغـبة مـجـردة عن الهوى فى إنقـاذ فتـاة مسـكينة كان قـد كتب عليـها مـصيـر مؤلم حـزين ، ومهـما بالغت فى تقـدير شعورى نحوها فإنه لا يزيد على حاجة - روحية خالصة - إلى رفيقة من جنس الإناث تشاطرنى أعباء الحياة ، ولكن إذا كان هذا الشعور فى طريقه إلى أن يجر معه مشكلات عاطفية فمن الحكمة أن أضع له حداً بصفة عاجلة .

ورفع سانتوس يديه عن الكتب والأوراق ، واستلقى بظـهره على مقعده ، ملقيًا برأسه على مسنده ، ثم واصل خطابه لنفسه :

- نعم ... على ماريسيلا أن تغـادر هـذا البيت ، ولكـن إلى أين ؟ أما أن تعود إلى تلك الدار التى استنقذتها أنا منها فهو ما لم يكن ليخطر لى على بال ؛ إذ معنى ذلك أن أسلم الفتاة فريسة سـهلة لمستر دينجر ، آه لو أن هاتين العمتين العجوزين اللتين تعيشان فى «سان فرناندو» قبلتا إقامتها معهما ! .

إن ماريسيلا ستكون مفيدة لهما مـن غير شك ، وستؤديان هما إليها خدمة جليلة ؛ إذ ستتوليان إنهاء تعليمها وتـربيتها وستتمان بذلك العمل الذى بدأته أنا ، مع فارق له قيـمته ؛ هو أنهما امـرأتان ، وللنساء فى تعليم الفتيـات الصغار فن وفضل رقـة لا يحسنهمـا الرجال مهـما كان عطفـهم أو حنانهم ، ولهذا فهـما جديرتان بأن تصلا من تهذيب ماريسيلا ورعـايتها إلى حيث لـم أكن أنا متمكنًا

من الوصول . أما لورنثو باركيرو فما كان لى أن أطالب عمتى هاتين بأن تتكفلا أيضًا به ، ولهــذا فـليبق معى هنا . لقـد تعهدت بالاضطلاع بأمـره منذ البدء ، ولا مفـر لى من أن أحمل هذه الرسـالة حتى النهـاية ، وعلى أية حال فـإن ابنته ستكون قريبة منه . ثم إن لورنثو نفـسه من الدوافع التى تستحثنى على حل هذه المشكلة ؛ إذ إن بقاء ماريسيلا معى وتحت سقف بيتى له ما يبرره طالما ظل أبوها على قيد الحيـاة ، حتى وإن ظل معتكفًا فى غرفتـه طول اليوم لا يخرج منها أبدًا ولا حتى لتناول الطعـام ، ولكن أى مبرر لإقامـة ماريسيلا مـعى إذا حلت المنية بلورنثو ؟ وهى بعد ذلك عـائق يحول بينى وبين التصرف فى حيـاتى كما أشاء حرًا طليقًا ، فلو أنى قررت مثلاً بيع الضيـعة والاستقرار فى كاراكاس أو السفر إلى أوربا كما كنت عازمًا فى أول الأمـر على أن أفعل ، أو كما يخطر لى حتى الآن فى بعض الأحيان فـما الذى أفعل بهذه الفـتاة ؟ أما التخلى عنهـا وتركها لمصيرها فـإنه يبدو لى قاسيًـا مجردًا من الإنسانيـة ، لقد ارتبطت بواجب خلقى إزاء ضمـيرى منذ أن اضطلعت بـمهمة تعليـمهـا ، وكان فى ذلك تغـييـر كامل لمصير روح بشرية ؛ إذ لولاه لما حال شىء دون وقوعـها فى براثن مستر دينجر ، ومن ثم فقد كان مقدرًا لها أن تسلك نفس السبيل التى سارت فيها أمها من قبل . فهل من المروءة أن أقول لها الآن : اذهبى إلى المكان الذى منه أتيت ؟ !

ويشعل سانتـوس سيجارة ، فهـو يجد لذة فى التفكير بينمـا تتطلع عينـاه إلى الدخان المتصاعد فى الهواء ، ولا سيـما إذا كانت أفكاره عابرة هى أشبه ما تكون بما ينفثه من فمه ومنخريه ؛ دخانًا متصاعدًا فى الهواء .

- لا ... ليس هناك حل المشـكلة إلا ما ذكـرت ؛ أن توافق العـمـتـان على إيواء ماريسيـلا فى منزلهما ، ولكن ينبغى تمهيـد الجو الملائم لذلك ، وهو ما لا يمكن أن يتم إلا بزيارة أؤديها بنفسى لهمـا ؛ لأن الرسائل فى مثل هذه الحالة لن تعنى إلا إضاعـة الوقت ، وإنى لأتصـور الآن الصرخة التـى ستند عنهـما بعـد قراءة خطـابى - لو أننى اعتـمـدت على الكتابة وحدها - : «ابنة الساحرة المشئومة

في بيتنا نحن ؟ !» ولهذا فلابد من أن أقوم بنفسي بشرح المسألة لهما وإقناعهما بلين القول بأن يؤوياها ويحسنا رعايتها ، وبأنه ليس هناك خطر في ذلك عليهما من سحر أمها وخبثها .

ويقذف سانتوس بعقب السيجارة بعد أن تركت النفثة الأخيرة في فمه طعمًا مرًا ، ثم تمتد يداه بحركة آلية إلى الأوراق المكدسة فيرتبها وينسق أطرافها ، بينما يخاطب نفسه في صوت مرتفع :

- ولكنى لا أستطيع الرحلة الآن إلى سان فرناندو ؛ إذ ينبغي أن أنتظر حتى ننتهي من تمييز الماشية وفصلها ومعرفة ما أملك منها ، وقد بدأ الموسم فلا سبيل لى إلى التغيب عن الضيعة في هذا الوقت ، وما دام الأمر كذلك فلأنتهز الفرصة ولأقم بإصلاح ذلك البيت الآخر الذى أملكه في ضيعة «البروسكال» وإعداده لسكنى لورنثو باركيرو وابنته .

وعزم على أن ينفذ هذه الفكرة الأخيرة فصاح مناديًا :

أنتونيو !

وأتى إليه الجواب من الداخل يحمله صوت ماريسيلا :

- إن أنتونيو ليس هنا الآن ... هو في الخارج .

والغريب أن تغيب أنتونيو العارض بدا وكأنه قد حل المشكلة ، أو بتعبير أصح حل تلك الرغبة الملحة العاجلة في حلها .

ومرة أخرى عاد سانتوس إلى مخاطبة نفسه :

- ولكن هل تغير وضع العلاقة بينى وبين ماريسيلا حقًا منذ الليلة الماضية حينما اكتشفت حبها لى وأنا أراقصها في الحفلة الساهرة ؟ ألا ينم هذا الاعتراف الذى ألقت به إلى وهى تقول «ثقيل الظل !» عن الطابع الخاص الذى كان يميز مشاعر الفتاة نحوى ، وهو طابع البراءة والسذاجة مما لا يستغرب من صبية في مثل سنها ما تزال بعد طفلة مراهقة ؟ فلماذا لا أكون أنا مبالغًا في القلق والتوجس موليًا الأمر أكثر مما يستحق من الاهتمام أو يعنيه من الخطر ؟

ولعـل سانتـوس لم يكن يريد بهـذه الفـكرة الأخـيـرة إلا أن يتخلـص من محاصـرة تلك الهموم له ، وأن يهـون من شأنها ، أو لعل صوت مـاريسيلا الذى رد عليه الجـواب من داخل البيت ذكره فـجأة بما سيكون عليـه هذا البيت من حـزن وكـآبة ، وبما سيـرين عليـه من صـمت ووحـدة لو أن الفتـاة غـادرته ومضت إلى مكان آخر ، وسواء كان هذا أو ذاك أو الأمران معًا فى وقت واحد، فإن سانتوس لوثاردو أنهى تفكيره فى المسألة قائلاً :

- إننى أفـعل خيـراً ؛ إذ أشغـل تفكيرى بالبـحث عن حل لهـذه المشكلة ، ولكن ... لم كل هـذه العجلة ؟ أترانى خـائفًا من حياة «ابنة السـاحرة» معى ؟ لم يبق إذن إلا القليل وألحق فى الجبن بـعمتى ! وإلا فـأى ضيـر فى أن تواصل ماريسيـلا حياتها معى تحت سقف مـشترك - قريبة بعيـدة فى وقت واحـد كما عاشت حتى الآن ؟ إن هذا لا يخـلو من أن يضفى عـلى الحيـاة لونًا غريبًا من الجمال والسحـر ؛ حب لا يقتضى إلا إحساسًا متبادلاً بوجوده دون أن يتطلب من الطرفين تغييـر منهاج حياتهما ، ودون أن تـزيد هذه المعايشة منه أو تنقص ، ولا أن تسـير به إلى طريق غـير التى سـلك حتى الآن ، حب مـجرد قـائم بذاته كاف لنفـسه لا يعوزه أن يترجم إلـى أقوال أو أفعال .. شىء مـثل نقود الذهب التى يدخـرها البخـيل ، ولعل البخـيل من هذه الناحيـة هو أكثـر الناس مثـالية مجـردة خـالصة ؛ إذ إن هذه النقود بالنسبـة له ليست إلا أحلامًا ، وثقـة كاملة فى أنه لن يشترى بها ما يمكن أن يجر عليه خيبة أمل أو تحطم رجاء .

* * *

ولكن الإنسان إذا لم تكن روحه بسيطة ساذجة كـما كانت روح ماريسيلا ولا شـديدة التعقـيـد كما لم تكن روح سانتوس لوثاردو فـإن الحلول الناجمة لا بد أن تكون إيجابية بعيدة عن شطحات الخيال ، وإلا فإنه معرض لأن يصيبه

ما أصاب سانتوس : إذا فقد السيطرة على مشاعره وأصبح ألعوبة فى أيدى انفعالات متضاربة متناقضة .

ماريسيلا ... أهى قرية بعيدة فى آن واحد كما ظن ؟ إذا صح ذلك فإنه لا شك فى أنها تزداد دنواً منه فى كل يوم ، حتى لم يعد هناك سبيل إلى البقاء فى هذا البيت دون أن يحس بوجودها يملؤه عليه : لعلها الآن فى المطبخ تعد له من ألوان الطعام ما يشتهيه ، وهو لا يراها ، ولكنه لا يلبث أن يسمع صوتها مرتفعًا بضحكة مرحة عالية أو بأغنية هازجة دافئة . وقد تكون خارج الدار ، وها هو ذا سانتوس قد بقى وحده فى البيت الذى غلب عليه الصمت والسكون ، ولكن لينظر إلى حيث شاء من أركانه وجوانبه فلن تستقر عيناه فى مكان إلا أحس بها فيه ماثلة ، هنا أو هناك باقة من الزهور قامت هى بوضعها ، وهو لا يجلس فى مقعد إلا واضطر إلى رفع كتاب قد تركته فوقه أو شغل من أشغال الإبرة كانت قد عكفت عليه وهو يبحث عن شيء يحتاج إليه فلا يمد ذراعه إلا وجده فى متناول يده حيث وضعته هى فى مكانه ؛ إذ هى لا تكف عن ترتيب البيت ووضع كل شيء فى موضعه ، وهو لا يدخل من باب الدار إلا والتقى بها ؛ إذ يتفق أن تكون هى مستعدة للخروج فى هذه اللحظة ، ولا يخرج إلا واضطر إلى الانحراف جانبًا وإفساح الطريق لها وإلا جرفته أمامها فى عدوها السريع المرح وهى تقتحم الباب ، وهو يخلد لحظات إلى نوم القيلولة ، فلا يجد فى نعاسه إلا أقصى ما يمكن أن يجد من راحة حتى إنه بمأمن من إزعاج طنين الذباب له ، فإن ماريسيلا قد أعلنت الحرب على الذباب طوال اليوم حتى لم تعد تجرؤ على اقتحام نوافذ الدار ، ثم إنها حريصة على ألا تند أية حركة يمكن أن توقظه من نومه ؛ فإذا مشت كان مشيها على أمشاط قدميها ، وإذا انطلقت من بين شفتيها أغنية تترنم بها دون وعى تنبهت فجأة فعضت لسانها وحبست صوتها ، أما إذا لم يعد سانتوس فى حاجة إلى أن يسود الصمت جوانب الدار فإنها تنطلق صادحة تغنى بصوت كصوت يمام السهول

التى تبدو كما لو كانت حناجرها من فضة ، وهى لا تقدم على عمل من أعمال البيت إلا حدثت نفسها بصوت مرتفع عما هى مشتغلة به حتى لا يعود سانتوس فى حاجة إلى سؤالها عما تصنع :

- أنا الآن أقوم برفو الثياب ... هأنذا ماضية فى كنس القاعة ... الآن أروى الزهور والزرع ... الآن أعكف على دروسى أستذكرها .

ماريسيلا إذن قريبة قريبة ... وكل يوم يمضى يزيد من دنوها وتغلغلها فى حياته ، ومن أجل هذا فإنه ينبغى أن يعمل على إبعاد الشقة بينه وبينها قليلاً قليلاً . غير أن سانتوس نسى المشروع الذى أراد به أن يبعث بماريسيلا إلى عمتيه لتعيش معهما ، ولكن فكرة أخرى عرضت له فى أثناء تناول الطعام، فألقى بها إلى لورنثو باركيرو .

- إنى أعتقد الآن أن ماريسيلا قد نالت من مبادئ التعليم قسطًا يسمح لها بأن تبدأ مرحلة دراسية حقيقية تلائم الفتيات فى مثل سنها ، وأنا أظن أن ذلك لا يتوافر إلا بإلحاقها بمدرسة داخلية للبنات ، وأنا أعرف فى كاراكاس عدداً من هذه المدارس ، ولهذا فينبغى لنا أن نفكر فى إرسالها إلى إحداها فى أقرب فرصة .

ويتساءل لورنثو :

- معنى ذلك أنه يجب علىّ أن أتولى دفع نفقات إلحاقها ومقامها بتلك المدرسة ؟

- لا يشغلك هذا الأمر ، فأنا متكفل بتلك النفقات ، وكل ما أريده منك هو أن تأذن لى فى أن أشرع فى اتخاذ ما يلزم من إجراء .

- لك مطلق الحرية فى أن تفعل ما يبدو لك .

وكانت ماريسيلا على المائدة تنصت إلى ذلك الحديث ، فعضت على شفتيها وهمت بالقيام حانقة مغضبة ، ثم خطرت لها فكرة عزمت على تنفيذها ، فكتمت ما بها وظلت تتناول طعامها فى هدوء ، وظن سانتوس أن المشروع قد لقى منها قبولاً .

ولكنه لم يعد إلى البيت فى مساء ذلك اليوم حتى وجد على الباب قطعة من الورق وقد خطت ماريسيلا عليها بيدها هذه الكلمات بحروف كبيرة :

«المدرسة الداخلية للطالبات ، خير مدرسة فى الجمهورية كلها» .

وضحك سانتوس لما قرأ ، ثم نزع الورقة ، ولم يعد للحديث مرة أخرى عن ذلك المشروع .

* * *

سانتوس جالس إلى المائدة ومعه ماريسيلا ، وهو يشعر فيما بينه وبين نفسه أن المائدة هكذا - هو وهى وحدهما - خفيفة على قلبه ؛ إذ لا يعكر صفاءها محضر لورنثو باركيرو بهيئته المنفرة التى تقبض القلب ، وماريسيلا تقدم له أطباق الطعام ، وتحثه على الأكل :

- جرب هذا ، فهو طيب لذيذ الطعم !

ثم تصب له الماء فى كوبه قبل أن يستطيع هو أن يفعل ، وهى فى هذه الأثناء تتكلم وتتكلم دون توقف .

كان لصوتها رنين بديع ، ولضحكاتها وقع يسر النفس ، ولحديثها طلاوة ، وفى حركاتها ولفتاتها رشاقة ولطف ، وهى ماضية فى الحديث فى حماسة وحرارة قد التمع فى عينيها بريق ينبض بالحركة والحياة .

- مهلاً ، مهلاً ! لقد أصبت رأسى بالدوار ! ...

- ولكن لماذا لا تتكلم أنت أيضًا ؟

- أتكلم ؟ وهل تتركين لى أنت فرصة الكلام ؟ عليَّ أن أقنع بهذا الدور ؛ دور المنصت المستسلم .

- يا لك من مبالغ ! ألم تحتكر أنت الكلام هذا الصباح على مائدة الغداء ، فلم يتحدث أحد غيرك ؟

- بلى ، ولكنه كان صرخة فى واد ، فقد كنت شاردة تفكرين فى أشياء أخرى ؛ فأنا على ثقة من أننى لو سألتك عما قلته فى ذلك الحديث لما استطعت أن تحيرى جوابًا .

- ظريف والله ! وأنا أتحداك أيضًا أن تكرر على مسمعى ما قلته أنا الآن .

- نعم ، أنت على حق ، ولكن إذا كنت أنا عاجزًا عن ترديد كلامك فما ذلك لأنى كنت منصرفًا عما تقولين ، ولكن لأن من العسير على أى واحد أن يتابع خيط حديثك ، فأنت تنتقلين من موضوع إلى موضوع دون تمهيد وبسرعة تصيب من يستمع إليك بالدوار .

- إذن ألا تسمح لأحد بالكلام إلا إذا كان حديثه متساوقًا مرتبًا كأنه خطبة ؟

- الحق أن الخطب تورث الملل والضجر ، كما كان كلامى هذا الصباح فى وقت الغداء . أليس كذلك ؟

- لا . لم أرد أن أقول ذلك ، ولكن لكل منا طريقته فى التفكير وفى التعبير تبعًا لذلك ، أما أنت فإنك تستطيع الكلام ساعتين متواليتين تتابع الحديث خلالهما كما يتتابع انهلال المطر من السحب البيضاء .

- شكرًا لك على التشبيه ، ولا سيما أنك لم تقولى إن حديثى كان مملاً ثقيلاً .

- لا ... ليس مملاً على الإطلاق ، فأنت قدير على الحديث طول هذا الوقت دون أن يقتصر كلامك على موضوع واحد ، ودون أن يفطن أحد إلى انتقالك من موضوع إلى غيره ، أما أنا فطريقتى تختلف عن ذلك .

- نعم ، فحديثك أنت أشبه ما يكون بمطر ينسكب وابلاً بعد وابل ، ولكنه مطر لا يحجب ضياء الشمس وإشراقها ، وأنا أرد بهذا تشبيهك اللطيف بمثله .

- نحن لا نكف عن النقاش ، كما يقول الناس فى المثل «الشيطان وامرأته لا يكفان عن العراك» ... آه ! معذرة عما سبق به لسانى .

ويصطبغ خداها بحمرة الخجل ، وتضحك ، ويتأملها هو مبتسمًا ثم يقول:

- نعم ، ولكنى أظن أننى لست ذلك الشيطان الذى يتحدث عنه المثل ...

وتقاطعه هى قبل أن يكمل عبارته :

- ألا تعرف ؟

- ماذا ؟

- آه ... ماذا كنت أريد أن أقول ؟

ويبدو عليها أنها نسيت ما كانت تهم بقوله ، ولكنه لا يخفى عليه أنها حركة مصطنعة كثيراً ما تعمد إليها لتغير مجرى الحديث ، فيقلدها فى حركتها ويصيح :

- لا ، بل أنت تعرفين ما تريدين أن تقولى حق المعرفة ! .

ويعود إلى تأملها من جديد ... ما أجمل ماريسيلا ! وما أكثر ما يتزايد جمالها وينضج يومًا بعد يوم ! ولكنه يغض من بصره ، ويمضى فى أحد هذه الأحاديث الطويلة المتتابعة حول موضوعات جافة معقدة ، وهو لا يهدف من ذلك إلا إلى إملالها أو إثارة اهتمامها العقلى ، وكلا الهدفين بالنسبة إليه وسيلة من تلك الوسائل الدفاعية المستيئسة التى يلجأ إليها لحماية نفسه من التعلق بحب الفتاة .

ولكن ماريسيلا لا تسأم حديثه ، ولا تهتم بما يقول ذلك الاهتمام العقلى الذى كان يريد أن يثيره فى ذهنها ، بل هى تشخص إليه ببصرها ، بينما تدع تفكيرها شاردًا طليقًا وراء كل خطرة تعرض لها .

ثم لا تلبث أن تقاطعه :

- ألا تعـرف ؟ ... إن تلـك الظبـيـة التـى أهديتنى إياها لـم تـكن نموذجًـا للشرف والعفة ، فهى موشكة على أن تخرج إلى النور ظباءً صغارًا !

ويرد عليـها سـانتوس بما يعـرض له ، ثم يتابع طعـامه فى صـمت ، ولكن الضـحكات تنطلق منه فـجأة ، ولا تهـتدى هى إلى تفـسـير لتلك الضـحكات المفاجئة ، وتظل تنظر إليه فى دهشة ، ثم تتنبه إلى ما سبق لها أن نطقت به فتعود دماء الخجل إلى التـصاعد إلى خديهـا ، وتحاول أن تكتم ما بها فيـدور تفكيرها فى سرعة باحـثًا عن شىء تقوله لتحـول به مجرى الحديث ، ولكنهـا لا تهتدى إلى مـا تقـول ، ولا تتـمـالك نفـسـها بدورهـا عن الضـحك ... وهكذا يمضى الحديث بينهـما دون أن يتمكن سانتـوس من التحكم فيه ؛ إذ لا يكاد يفـتح فاه ليقـول شيئًـا حتى تعلو ضحكاتهـا ، ويحاول هو ضبط أعـصابه فتـغلبه وإذا به أيضًا مغرق فى الضحك .

ولكن ضحكات مـاريسيلا الماكرة كـانت صافية خـالصـة أبعـد ما تكون عن الخبث ... كانت ضـحكات بريئة براءة هذه الجملة التى انطلق بهـا لسانها ، وإن كانت فى الوقت ذاته بـعيدة عن السـذاجة بعد هذه الخطيـئة التى ارتكبتـها الظبية عن الخلق السوى .

كان ضحكها هو الطبيعة نفسها ؛ لا خير فيها ولا شر ، ولكن الرجل الذى تعـلم فى المدينة ، والذى هذبتـه الحضارة ورققت حاشـيته لم يكن ليقـبل مثل هذا التفسير .

ولو أن رجـلاً آخـر عـاديًا له نصيب مـن التفكير السليم كان فى مـوضعه لما قدر موقـفه من ماريسيـلا إلا على هذه الصورة ؛ إن هذه الفتاة ثـمرة لارتباط غيـر شرعى بين رجل ذهب عـقله وانحطت أخـلاقه وامرأة مـشئـومة خـبيـثة ،

ولعلها تكون قد ورثت عن أبويها شر طباعهمـا وشمائلهما ، فإذا كانت كذلك فما أبعدها عن أن تكون المرأة الصالحة التى تستحق أن يستودعها رجل له مسكة من العقل حبه وثقته . أما سـانتوس لوثاردو فقد كـان تفكيره يتجه إلـى ناحية أخرى من روح ماريسيـلا ؛ إن هذه الفتاة بسيطة ساذجة حقًا كـالطبيعة ، ولكن فيها ما يثير الخوف والقلق تمامًا مثل ما يكمن فى مظاهر الطبيعة الهائلة الرهيبة .

فقـد كانت تـبدو كما لو كان مـعين رقة العاطفة وحنان المشـاعر قد نضب فى أعماق روحـها . حقًا إنها كانت مـرحة لطيفة متبـسطة فى الحديث ، بعيـدة عن التكلف ، ولكن علاقتـها بأبيها كانت تتسم دائمًا بـالجفاء وصلابة القلب . إن سانتـوس لم ير فى معاملتـها له أبدًا ما يشـعر بهذا البـر والحب الذى يحمله الأبناء لآبائهم ، بل كان يبدو عليها عدم المبالاة بما كان الرجل يقاسيه من آلام . وكل ما هـناك هو أنها إذا التـقت به وهى فى عدوها السـريع من هنا إلى هنـاك فى أرجاء البيت فإنها قد تتوقف لتلقى إليه بعبارة عابثة مرحة وهى تتعمد ترفيع صوتها وترقيقه ، كأنها طفلة صغيرة ، ولكن كلماتها كانت دائمًا خالية من كل ما يمكن أن يشف عن رقة أو بر حقيقى خالص .

وكثيرًا ما كان سانتوس يقول لنفسه وهو يتأمل هذه الظاهرة !

– إن هذه الفتاة ليس لهـا قلب . حقًا إنه ليس فيها حـتى الآن تلك القسوة القائمة الشريرة التى تميزت بها أمها ،ولكن قسوتها من لون آخر لعوب مثل تلك التى تكمن فى نفوس أفـلاء الوحوش الصغيـرة ، وما بين هذه وتلك إلا خطوة قد تتكفل بهـا الظروف والملابسات . أما علة ذلك فقد تـكون راجعة إلى نقص فى تربيتها وتعـليمها ، وإلى أن الحساسيـة التى قـد تكون كامنة فى روحهـا – إذا أحسنا الظن بها – لم تتح لها الفرصة بعد لكى تستيقظ ، وليس ذلك بممكن إلا إذا كانـت فى كفـالة امرأة ؛ إذ إن النسـاء وحدهن هن اللاتى يسـتطعن بث الرقة وإرهاف الشعور فى روحها الجافة المغلقة .

ولكن سانتوس لوثاردو لم يكن يرى فى النهاية بدًا من أن يعترف بأن هذه الأفكار المتشائـمة كانت تثير فـى نفسه شعورًا مـن الانقباض والألم ، فقد كـان يجدها

الفصل الثاني عشر

أغان وأحاديث

... ولكن مع هذا كله فإن الحلول الوهمية المتولدة من نتاج الخيال لم تفعل شيئًا أكثر من تعقيد المشكلة ، حتى إن الحياة فى نظر سانتوس لوثاردو أصبحت لا تطاق فى داخل ذلك البيت .

ومن حسن حظه أنه كان يمضى أكثر وقته فى الخارج ؛ إذ كانت أعباء العمل فى الضيعة تتزايد وتتضاعف .

وكانوا قد فرغوا من جمع الماشية ، وبدأت بذلك مهمة وسمها بسمة الضيعة ، وهو عمل شاق كان يقتضى أن يبدأ رجال الضيعة فيه منذ ساعات السحر المبكرة ، وأول مرحلة فيه هو فصل البقر عن عجولها الصغيرة ، وإيداع كل فريق فى حظائره .

كانت الأبقار تطلق خوارًا حزينًا ، وأما العجول فكانت تئن فى ألم وحسرة ، وكأنما كان لديها إرهاص يتنبأ بما ستتعرض له من تعذيب الكى ، وها هو ذا باخاروتى المكلف بذلك العمل قد شهر فى يده قضيب الحديد المتوهج مستعدًا للطبع به على جنوب الماشية . وينطلق صوت باخاروتى العريض بأغنية يعلن بها إشارة الشروع فى العمل ، ويباشر بقية الرجال مهمة طرح العجول على الأرض ، ثم وضع العلامة المميزة يرسمونها بشفرة الموسى على آذانها ، ويَطَؤُون بعد ذلك رءوسها بأقدامهم حتى تسكن حركتها ، بينما يثبت باخاروتى على جنوبها مكواة الحديد ، وهو يترنم عند وسم كل رأس بأغنية ملائمة يذكر فيها صفاتها والموضع الذى اعتادت أن ترعى فيه من المروج ،

والقطيع الذى تنتمى إليه ، والمجاولة التى تم اقتناصهـا فيها وغير ذلك مما يتصل بحيـاة كل رأس ماشيـة ، وهـــو تاريخ يعـــرفه راعــى الــسهــول كمـا يعرف تاريخ حياته هو .

ومع كل سمة كـان يثبتهـا على جنب كل حيوان كان يخط عـلامة بسكينه على قطعة كـبيرة من الجلد اتخذها سـجلاً لحسابه ، هكذا كانـت العادة الجارية فى وسم الماشية وحساب عددها منذ أن قدم «إيفارستو الكونافتشيرو» إلى هذه الأرض فى الأزمنة الخالية ، ولـم يدخل ألتاميـرا منذ ذلك العهد أى تجديد لتلك العادة الساذجة البدائية حتى الآن .

كان سانتوس يفكر فى ذلك الأمر وهو يراقب العـمل ، وكان يقول لنفسه إن الوقت قد آن لكى يضطلع بتنفيذ ما كان فـيه من مشاريع الإصلاح والتجديد حتى تسير تلك السـهول ملاحقة ركب الحضـارة ، وكان قد اضطر تحت ضغط الظروف إلى تأجيل الكثير من تلك المشاريع حتى تتهيأ له المناسبة .

وانتهى العمل أخيراً بعد أيام متواصلة ، وأتى أنتونيو إليه وهو يريه البطاقة الجلدية التى سجل فيها عدد الرءوس التى تم وسمها ويقول :

- لقـــد جـاء الحساب خيراً مما كنا مـقدرين : ثلاثة آلاف رأس ، وستمائة لم تكن قـد وسمت بـعد . أظن الوقت الآن مـلائمًـا لكى نعمـل على تشغـيل مصانع الجبن .

أما «مصانع الجبن» هذه فلم تكن إلا أوتاداً من الخشب دقوها على الأرض بجوار ضفة «مـجاز الخوار» ثم ألقوا عليها سقـفًا من القش والسعف ، وجعلوا بداخله قربًا من جلود البقر من أجل خض اللبن المعـد لصناعة الجبن ، ثم أوعية لتجميد اللبن ، وأوراقًـا قد اتخذت من شجر النخيل يستخـدمونها لعصر الجبن وتجفيفه ، وإلى جـوار ذلك أقاموا فى موضع حظيرة مهجورة سـياجًا يحيط بها أحكموا تثبيت أعـمدته ثم وضعوا فى داخله عدداً من الأبقار المسـتأنسة وأبقاراً

أخرى كانت ما تزال وحشية مما اقتنصوه فى «الخميلة القاتمة» ، وعهدوا بكل ذلك إلى «ريميخيو» العجوز ، وكان جبّانًا قدم من أرض «جواريكا» وتصادف أن مر بالضيعة باحثًا عن عمل له ولحفيد له صغير كان يدعوه «خيسوسيتو» .

هكذا كانت «مصانع الجبن» ، ولم يكد سانتوس يرى أن «المصانع» قد اقتصرت على هذا البنيان القائم فى وسط ربوة من ربوات السهول فى نفس المكان الذى يقوم فيه مثله منذ أكثر من عشرين سنة وعلى نفس الطريقة الأولية البسيطة - حتى شعر بالخجل بينه وبين نفسه : أهكذا ستتحول ألتاميرا إلى مزرعة حديثة متحضرة كما كان يمنى نفسه منذ أن قدم ليضطلع بأمور الضيعة بنفسه ؟ أهكذا تتقدم تلك الصناعات المشتقة من الرعى والزراعة على يده مجاريًا بها ما بلغته الصناعة فى مضمار الحضارة ؟

وأجابه أنتونيو حينما أفضى إليه بما تردد فى نفسه :

- إن العمل فى صناعة الجبن لا يجرى خيراً مما يجرى عليه هنا فى أية بقعة من بقاع السهول . هو عمل من وحى البيئة وأجهزته كلها من ثمراتها ؛ أوتاد وأعمدة من خشب أشجار السهول ، وأوراق من شجر نخيلها ، وقِرَبٌ من جلود حيوانها ...

وأكمل سانتوس :

- نعم ... وتقليد متبع لم يتغير منذ قرون طويلة ، إننى إذا كنت أعجب من شىء فمن أن الماشية لم تهلك بعد فى هذه السهول منذ أن أدخلها المستعمرون الإسبانيون إلى هذه الأرض . إن أهل السهول لم يفعلوا حتى الآن شيئًا يدخلون به بعض التحسين أو التقدم على ما جرى التقليد عليه فى مراعيهم أو صناعاتهم ، وهى حقيقة يحز فى نفسى أن أعترف بها ، إن مثلهم الأعلى هو أن يحولوا ما يقع إلى أيديهم من نقود إلى ذهب ، ثم يودعونه فى صناديق يدفنونها فى باطن الأرض ، هكذا فعل أجدادى

وهكذا سينتهي بي المصير إلى أن أفعل أنا أيضًا . فإن هذه الأرض ليست إلا حجرًا غليظًا يلقى الصدأ والكلالة على كل حد قاطع مشحوذ ، وها أنت ذا ترى كيف يجرى العمل فى مصانع الجبن ، نحن الآن منها ومن كل مشروع آخر لم نجاوز الموضع الذى كنا فيه منذ عشرين سنة ، هذا بينما يسير نسل الماشية من سيىء إلى أسوأ بحكم الآفات والأمراض التى تصيبها ، ثم لأننا لم نعرف كيف نزاوج بين دمائها حتى تتحسن أصولها وسلالاتها . إننا نعمل حتى الآن على شفاء أمراض الماشية بقراءة الصلوات والتعاويذ عليها حتى يخرج الدود من أجسادها ، والسحرة المداوون كثيرون هنا بحمد الله ! ... وهكذا يجرى الأمر حتى يضطر أكثر الناس ذكاء بحكم العادة الغالبة إلى أن يؤمنوا أيضًا بأمثال هذه الخرافات ، وينتظروا فعل التعاويذ المباركة دون أن يحركوا ساكنًا من أجل علاج المرض أو البحث عن مصدر الداء ! ...

فأجاب أنتونيو :

- كل هذا الذى قلته صحيح يا سيدى الدكتور ، ولكن على ذكر ما أشرت إليه من المزاوجة بين دماء الماشية من أجل تحسين سلالاتها - وهو أمر مازلت أسمع الناس يتحدثون عنه منذ أن كنت طفلاً - لست أرى فى ذلك كثير خير . نعم إن النسل سيكون أحسن بغير شك ، ولكن لمصلحة من ؟ ألكى تستولى عليه كل شرذمة يخطر لها أن تقوم بالثورة على الحكومة كما درجت هذه الطوائف على أن تفعل ؟ لا يا سيدى ... دع الماشية كما هى بخيرها وشرها ؛ لأن اللحم إذا طاب ولذ مطعمه فإن عدد الثورات والانقلابات السياسية سيزداد تبعًا لذلك . هذا فضلاً عن أشياء أخرى كثيرة ليست هى الحرب الصريحة وإن كانت أشبه ما تكون بها . ولأذكر على سبيل المثال سلطات الحكومة التى تسعى إلى اغتصاب كل شىء .

ولكن سانتوس عاد إلى إصراره على رأيه :

- سفسطة ! ومحاولات لتبرير ذلك الكسل الذى يكمن فى دمائنا ، والذى أورثنا إياه أجدادنا الهنود ، إن كل ما تقوله ينبغى أن يكون دافعًا يحثنا على إيصال الحضارة إلى هذه السهول ، وعلى قطع دابر الإقطاع الغاشم والاغتصاب المسلح والتسلط الذى لا يستند إلا إلى القوة . يجب أن نضع حداً لوقوفنا هكذا مكتوفى الأذرع أمام الطبيعة وأمام البشر .

وختم أنتونيو النقاش بقوله :

- لا تعجل يا سيدى الدكتور ، فسيكون هناك وقت كاف لكل ما تقول . أما الآن فإن مصانع الجبن على حالتها الراهنة تفى ببعض الغرض ، وتؤدى بنا إلى الهدف الذى نسعى إليه . ولو لم يكن لها من فضل إلا إعانتنا على استئناس الأبقار الوحشية لكان ذلك مكسبًا له قيمته ، والمهم الآن هو أن نتمكن من اقتناص الأبقار المتوحشة كلها بأسرع ما نستطيع ، ثم محاولة استئناسها وتعويدها على المضى وحدها إلى حيث مصانع الجبن .

أما ريميخيو الجبان القادم من إقليم «جواريكا» فقد كان رجلاً مجربًا خبيراً بأصول مهنته متقنًا لها ، ولكن الاعتماد فى صناعة الجبن على ماشية ماتزال وحشية - كما كانت ماشية ألتاميرا - كان مهمة عسيرة شاقة .

وكان الرجل يظل طول اليوم رابتًا على ظهور هذه الأبقار مردداً الاسم الذى اختاره لكل منها حتى يعودها على أن تألفه وتألف الاسم الذى يناديها به:

- أعجوبة ... أعجوبة ... أعجوبة ...

- سويداء ... سويداء ... سويداء ...

وهو لا يكف عن المرور بها وهى فى حظائرها أو فى مراعيها حيث تكون سارحة ، فلا يدنو من واحدة منها هو أو حفيده « خيسوسيتو » البقار حتى يردد اسمها ويمسح ظهرها بيده فى رفق .

وبدأت بعض هذه البقر تتعـود ذلك وتألفه ، وكان ذلك يلحظ فى نظرات عيـونها التى تحـولت بالتـدريج إلى الوداعة والاسـتكانة وهى تسمع الأسـماء التى كـان العجـوز يطلقـها عليـها ، ولكن سـائر ماشـيـة القطيع كانت مـاتزال شموسًا يطل من عيونها بريق الوحشية .

وهكذا بدأت الحضارة تشق طريقـها فى الضـيعة مـنذ أن تحولت مـصانع الجـبن إلى ميدان للكسـر من وحشية الماشية ، هذا بينمـا كانت أناشيط الرعـاة لا تكف عن اقتناص الثيران الطليقة فى المروج .

وكان البـقارون كثيـرًا ما يفاجئـون الماشية فى مرابـضها ، فتنطلق قطعـانها تركض مذعـورة فى مروج النعنـاع البرى ، ولوقع حوافـرها على الأرض دوى تكاد تتـزلزل له ، ولكنها كـانت تعـود فى بعض الأحيـان فتـهاجم مطارديهـا ، وعلى الرغم مـن دربة هؤلاء وبراعـتـهم فـإنـهم كـانوا لا يسـتطيـعـون تجنب الاصطـدام بالشـيران الهائجـة ، وكـثيراً مـا كانت خـيـولهم تهلك فى أمـثال هذه الصدمات ، أو تهـوى إلى الأرض عاجزة جريحـة وقد أشفت على الموت من ألم الارتطام .

كذلـك كانت بعض الثـيران تموت من الحنق والغـضب الذى كان يصـعق أجســادها كـمـا لو كان قد ســرى فيها تيـــار من الكهرباء وهى ترى نفسـها وقد أذلها الإنسان وملك قيادها ، أو من الحـزن والغيظ يتولاها بعد أن تتعرض لمثلة الخصاء ، فتظل مستلقية فى أدغال الأعشاب مؤثرة أن تموت جوعًا وظمأ ، وملقية بين الوقت والوقت بخوار مسعـور أصم ، وهى ترى نفسها وقد حرمت مــن قـيـادة القـطيــع المتـوحش ومـن الحـيــاة الطليـقــة الحــرة فى المروج الواسعة أو فى سفوح الجبال المنيعة .

وكان سانتـوس لوثاردو يشارك الرعاة أعمالهم ، ويتعـرض معهم لأخطار تلك الصدمات ، وكثيراً ما كانت الانفعالات الثائرة التى تهيجها فى نفسه تلك الحيــاة تنسيه مـا كان يفكر به من مشاريع الحضارة ، وما أكـثر ما كان يخطر له

فى مجـــاولاته مـثل هذا التفــكير : إن للســهـــول جمالاً طاغـيًا وسحراً دافـقًا عــلى مـا هى عليه من الخـشونة والتـوحش . حقًـا إنها الوحـشية والتـخلف ، ولكن إذا كانت حياة رجل واحـد لا تكفى للقضاء عليهما وللسـير بالسهــول فى طريق المدنيـة ؛ فلماذا ينفق هو حـياته من أجل هذا الهدف البـعيـد الذى قد يحتـاج إلى أجيال عديدة ؟ ثم إن الحيـاة الوحـشيـــة فيها مـــن اللذة الغريبـة ما يستحـق أن يتمتع به الإنسـان ويقضى فى ذلك سنوات عمـــره . إنها قمـة ما يمكن أن تصل إليـه الرجولة الثائرة التى تأبى أن تخضع لأى قـيد أو يحد من سلطانها أى حد ! .

* * *

ماريا نييبس هو الرجل الذى يتـحول إلى بطل من أبطال الأساطير إذا جاء دوره فى قيادة الماشيــة عبر الأنهار الكبار حيث الموت يـتربص وراء كل موجة ، وهــا هو ذا الآن يستـعد لهذا العمل معـرضًا نفسه لضربة قـاتلة من ذيل تمساح قـد يتوثب عليـه من حيث لا يحـتسـب ، وهو لا يحمل من السـلاح إلا سكينًا كبيراً فى يده ، وأغنية على شفتيه .

حظائر «مجـاز الخروب» قد امـتلأت بالماشية ، وقـد اتخذ الرجال أهبـتهم لقيادتها قطيعًا بعد قطيع إلى نهر «الأراوكا» وقد نصب لها طريق أعد من ألواح الخشب لكى تمر عـليه من باب الحظيرة حـتى ضفة النهـر ، ووقف على جانبـيه عدد من الفـرسان لكى لا تضطرب الماشيـة أو تتزاحم . وها هو ذا ماريا نيـيبس قد تأهب لقيادة القطيع عومًا من ضفة إلى ضفة . إنه أشهر من تعرفه سهول نهر «الأبورى» ممن يسمونهم هناك «رجال الماء» الذين يعهد إليهم بمثل هذا العمل ، وهو لا يغتبط بشىء بقـدر اغتباطه بهذه اللحظة التى يصل فيـها الماء إلى عنقه ، ومن ورائه قطعان الماشية لا تبدو منها إلا قرونها وقد انطلقت فى أثره أولاً تلك الثيران الفحول التى تضـطلع بالقيادة تتبعها بقية القطعـان ، وماريا نييبس يمضى قدمًـا وهو يسبح فى النهر العريـض الذى ملأه ماء الفيـضان ، فامتـد من سفح الجبل إلى سفح الجبل .

هـا هـو ذا مـاريا نيبيس قـد خاض فى مـاء النهر على صهـوة جواده ، وهو يتـبادل الحـديث فى صياح مـرتفع مع ربابنة القـوارب الذين وكل إليـهم تأليف صفـين يحيطان بـالماشية فى عرض النهر حتى لا يـحملها التيار فتـتفرق عن الخط الذى ينبغى أن تتبعه فى أثر ماريا نيبيس .

وفى الحظـائر يتعـالى صيـاح الرعاة الذين يسـوقون القطعان لإخراجـها إلى ضفـة النهر ، وقد برزت من الباب تلك الثيران التى تتزعم القطعـان تسـير فى موكب مهـيب ، وها هى تمضى على خشب المجاز الذى أعد لهـا إلى الضفة ومـن ورائها قطعـانها ، ويقطـع ماريا نيبيس الأغـنـية التى بدأ فى ترتيلهـا ، ثم يقذف بنفسه عن صهوة الجواد إلـى الماء ، فالحصان لم يعد صـالحًا إلا لكى يرتفق عليه بيده اليسـرى ، أما ذراعه الأيمن فهو مجدافـه فى العوم ، وقد حمل فى يده سكينه الكبـير قد شـهره مستعـدًا للدفاع عن نفسـه إذا تعرض لهـجوم التمـساح . ومن ورائه الثـيران القـائدة تثب فى النهر تابـعة أثره ، ويغطيـها الماء حتى لا يكاد يظهر منها إلا قرونها ومناخرها .

ويصيح الرعاة :

- ضيق الحصار هنا ! ... أقفل الثغرة هناك ! ...

وتشد الخيول على رءوس الماشية الباقية على البر ، فتتساقط فى الماء واحدة بعد أخرى ، وهى تخور فى خوف وجزع ، ويحاول بعضها الرجوع أو الفرار ، ويحمل التيار بعضها الآخر فى غير الاتجاه المرسوم ، ولكن الرعاة على الشاطئ والملاحـين المصطفين فى زوارقـهم فى عـرض النهر يعـيدون النظام ويقـيمـون الصفوف .

ولا يكاد يبين للناظرين على شاطئ النهر إلا قرون الماشية الملتفة طافية على الماء محددة الاتجاه الذى تسـير فيه القافلة ، ومن أمامهـا رأس ماريا نيبيس وإلى جـواره رأس جواده ، ويـنطلق صوت الـرجال فى حُـدائه المرتفع متـرددًا على صفحة النهر العريض الذى تتربص من تحت لججه غدرات التماسيح وهجمات الأسماك المتوحشة من أسراب القراقير وحيتان «الرعاد» و «البرق» و «المنشار» .

وأخيراً يصل ماريا نييس إلى الضفة المقابلة بعد سباحة طويلة عبر مئات الأمتار ، ثم تخرج رءوس الماشيـة واحدة واحدة وهى تلقى بخوار مستطيل ينم عن الألم ، ويجمعـها الرجل حتى يطمئن إلى خروج القطيع كله من الماء ، فـإذا انتهى عاد إلى القذف بنفسه فى الماء راجعًا إلى الضفة الأولى حتى يجيز قطيعًا آخر .

والرجـال فى هذه الضفـة منهمكون فى إخـراج بقيـة الماشيـة من حظائرها وسوقها عبر المجاز الخشبى حـتى تواصل خوضها للنهر ، أما شاطئ «الأراوكا» المقابل فقد تجـمعت مئات الرءوس على رماله الجافـة وتحت سماء رمادية اللون ملبدة بالغيوم ، وهى تطلق فى الجـو خوارها المنتحب ، والرجال فى عمل دائب جيئة وذهابًا فى انتظار تجمـع القطعان ثم المسـير بهـا عبر السـهـول الموحـلة التى تغـمـرها ميـاه السـهـول ... فراسخ وفـراسخ فى الطريق إلـى كاراكـاس ستمضى خلالها الماشية فى طريقها خطوة خطوة تهدهدها أغانى الحداة :

- انتظم فى صف القافلة أيها الثور الصغير

واقتف آثار قائد الرعاة ...

وهو يعد عليك الخطوات

من الحظيرة إلى المذبح !

وفى هذه الأثناء كـانت جمـوع أخرى من القطعـان تتوجه فى طـريق آخر نحو منطقة الجبال لكى تباع هناك ، تمامًا كما كان الأمر فى تلك الأيام الطيبة ... أيام أجداد لوثاردو حـينما كانت ألتـاميرا خيـر ضياع حـوض الأراوكا وأغناها بالحرث والنسل .

وتمضى الحـياة هكـذا جمـيلة قـوية خشنة ... هـى حيـاة السـهول الهـائلة والأنهار العريضة حيث لا تفارق الأغنيـة شفتى الرجل وهو فى غمرة الأخطار والمشاق ... حـياة هى عين الملحمة : السـهول الوحشـية بمنظرها الرائع الرهيب والشتـاء الذى يقتضـى مزيداً مـن الصـبر ومـن الجـرأة ، والسيول العـارمة

التى تضـاعف من أخطار العمل وتشعر الرجل وهو مثبت قدميه على قطعة من الأرض تحفها المياه من كل ناحية بعظمة هذه الصحراء المحيطة به ... ولكنها تشعره أيضًا بعظمة الرجل نفسه حينما تجبره الظروف على ألا ينتظر النجدة من أحد ، ويخوض مع ذلك ما يتوثب حوله من أخطار فى ثبات وثقة ! ...

* * *

المطر ينسكب ... وينسكب ... وينسكب ... منذ أيام كاملة وليس هناك فى السهول من حدث إلا هطول الأمطار ، وقد عاد كل غائب من أهل السهول إلى داره معتصمًا بها ، فإن الأنهار والقنوات ستمتلئ عن قريب بمياه الفيضان والسيول ، ولن يبقى فى المروج بعد ذلك طريق يمكن لأحد أن يسلكها ، بل لن يعود أحد بحاجة إلى سلوك أى طريق ؛ إذ إن هذا هو موسم «العكوف فى البيوت على سرير وزق خمر ومصاصة تبغ ، كما اعتاد الناس هنا أن يقولوا ، وبذلك يعيش السهلى قانعًا راضيًا سعيدًا تحت سقف اتخذ من ورق الشجر وسعف النخيل ، بينما ينهل المطر فى الخارج كأفواه القرب .

ومع الأمطار الأولى المنسكبة فى السهول يبدأ موسم عودة طيور البلشون ، فتبدو أسرابها قادمة من الجنوب إلى حيث توجهت فى شهور الصيف دون أن يعرف أحد أى مكان بلغت فى سفرها الطويل ، وهى تتوافد جماعات لا يحصيها العد ، وتصل وقد نال منها التعب ، فتتوقف متأرجحة على غصون الأشجار القائمة فى سفح الجبل الذى يسميه الناس هناك «جبل البلشون» نسبة إليها ، وكثير منها يصل وقد أخذ الظمأ منه مأخذه ، فتسرع إلى ضفاف البرك الموحلة ، ولا يلبث سفح الجبل وصفحة الماء أن يغطيهما بياض تلك الأسراب.

ويبدو للمتأمل كأن هناك قصصًا وحكايات تدور بين هذا الجمع وذاك حول ما رآه كل منهما خلال رحلته الطويلة ، فقد أتى كل من منطقة غير تلك التى توجه منها الآخر ، وسرب الجبل ينظر إلى سرب الماء وقد مدت طيور

كل منها أعناقـها وخفقت أجنحـتها ، ثم أطلقت صـراخًا حـادًا ، وأخـلدت بعد ذلك إلى الصـمت وهى تتبادل النظرات وقـد استدارت حـدقاتها الصافـية وظلت شاخصـة لا تطرف ، وقد يشجر العراك بين واحـدة وأخرى على غصن أراد كل منهما أن يتخذه مهـدًا يؤويه أو على بقية عش تخلف عن موسم السنة الماضية ، ولكن الخصام لا يطول ، وسرعـان ما يستقر كل طائر فى مكان هو فى الغالب نفس المكان الذى اختاره منذ الموسم الماضى .

وتأتى لتـحيـة القادمـات أسراب الطيـور التى لم ترحل : البط الوحـشى ، وطيور «الكوروكورا» (*) الحمر ، والعصافـير الزرق ، و «الجفان» ، والغربان البحرية ، وغـيرها من طيور تلك البقاع ، متوافدة إلى حيث استـقرت البلشون من جهات السمـاء الأربع ، وبدا على الجميع كأنها تتبـادل الأحاديث وتتقاذف الأخبار .

والبرك والمستنقعات قد امتـلأت بالماء ؛ إذ إن الشتاء قد أفرغ على السهول كل ما حملته سحبه القاتمة من مطر ، وعما قريب سينساح على صفحة القنوات لعاب أسود ... إنه نذير بقدوم التماسـيح ، لقد طفحت الأنهار والقنوات وامتد الماء إلى كل منخفض فى السـهول حيثما وجـد . والتماسيح كذلك قـادمة بعد رحلة طويلة من مكـان بعيـد ... أكـثرها آت مـن نهر «الأورينوكـو» ، ولكنهـا مخلدة إلى الصـمت لا تقص خبرًا ولا تلقىَ بحديث ؛ إذ هى تقـضى اليوم كله نائمة أو مـتصنعـة النوم ، وربما كان من الخيـر أن تظل هكذا ملتزمـة الصمت ، وإلا فأى حديث يمكن أن ترويه إن لـم يكن حديث الجرائم السود ؟ !

وتبدأ طـيور البلشـون فى تغييـر ريشهـا وتبديله بريش جـديد ، وها هو ذا «جبل البلشـان» يبدو فى الفـجر وكأنما قد غـطاه الجليد ، فبـياض الريش الذى نفـضتـه عنهـا الطيـور فى مـساء الليل يـغطى كل مكان : ها هو ذا يكلل قـمم الأشجار ويتـعلق بفروعهـا التى اتخذت الطيور مأواها بينهـا ، ويجلل الأوكار المندسـة فـى ثناياها ... ألوف من هذا الريـش الناصع قـد انتـشـرت هنا وهناك

وطفــت عــلى البـرك الموحلة أو علقت بالشقائق السـابحة على سطح الماء . إنه لم يعد موضع فى المروج الـفسيحة إلا والتصق بـه ذلك الريش الذى خلعته عنهـا الطيـور فى مسـاء الأمس ، كأنه قطرات الندى التى تـتخلف فى الفـجر على أوراق الزهور .

وفى مطلع الفـجـر يبدأ جـامـعو الـريش عملهم فـيـخـرجون إلى البـرك والقنوات على ظهور قوارب شراعية خـفيفة ، ولكنهم لا يوغلون فى الماء قليلاً حـتى لا يروا بدًا من ترك القـوارب والنزول إلى الماء يـخوضـونه حـتى يغـمـر أوسـاطهم ، ويأخذون فى جـمع المحـصول وهم غـائصـون فى ذلك الماء الذى يطفـو عليه لعـاب التـماسيح الأسود وتملأه الأسـمـاك الوحشـية من قـراقيـر ورعادات مفترسـة ، ولكنهم لا يبالون بكل ذلك ؛ إذ يمضون خائضين فى المـاء منصـــرفـين إلى عمـــلهم ، يتحــــدون المـــوت ، وهـــم يتبــادلون الصياح أو تنبعـــــث من حناجــرهم أغــان مرحـة ، فرجال السـهول لم يتـعودوا أبدًا على العمل فى صمت ، هم لا يكفونَ أبدًا خلال عملهم عن الصياح أو الغناء .

وينهل المطر غـزيراً متـواصلاً ، وتمتلئ مـجارى القنوات ثم تـفيض غـامرة السهول الحافـة بها ... ويبدأ الرجال فى التساقط واحـداً بعد واحد ؛ إذ هذا هو موسم الحمى تصيب الرجل فجأة ، فـإذا بجسده يرتعد وأسنانه تصطك ووجهه يعلوه الشحوب والاصـفرار ، ثم يتحول لونه إلى الخضـرة ... وتتكاثر الصلبان المنصوبة على مقبرة ألتاميرا ، وهى ليست إلا مربعًا صغيراً من الأرض فى وسط المروج تحيط به الأسـلاك الشائكة ، فرجـل السهول لا يرضى بديلاً عن مـروجه حتى بعد موته وفى مثواه الأخير .

ولكن الماء يعـود بعد ذلك إلى الانحـسار ، والبـرك المتناثرة فى المروج إلى الجفـاف ، وتبدأ التمـاسيح فى الانسـحاب من القنوات عائـدة إلى الأنهار التى قدمت منها ، فبـعضها يرجع إلى مأواه القديم بين أمواج «الأراوكـا» ، وبعضها الآخر إلى «الأورينوكو» بعد أن ملأت بطونها الضخمة من لحم ماشية ألتاميرا .

ومـع انحسـار الماء يبتعد خطر الحمى ، وتـعود القيثارة وكـرات «الماراكاس» إلى أيدى الرعـاة ، ومجـالس سمـرهم التى تتـخللها الأغنيـة المرحة والحـديث الطـريف والنقـاش الـصـاخب ... هى عودة تلك الروح العنيـفة الضـاحكة التى مـا تزال تصدح بالأغنيـة معبـرة عن كل ما يحـيط بها من عـمل ومن حب ومن استهتار بالحياة .

ويقول أنتونيو ساندوفال لسانتوس وهو يحاوره :

– لقد سألتنى من أين يستمد رجل السهول قوته وهو الذى يبدو مهزولاً شاحب الوجه ، ومع ذلك فـإنه يحتمل مشقة العمل على ظـهر جواده يومه كله وراء قطيع مـاشـيتـه أو خـائضًا فـى الماء إلى وسطه على مـا فى ذلك من خطر وتعرض لمكروه ؟ ومن أين تهيأ له هذا المرح والتفاؤل يملآن نفسه حتى فى أشد الأوقات عـسرًا وتجـهمًا ؟ فـأنا مجيبك على ذلك يا سـيدى الدكـتور بقـصة سأرويها عليك ، وستستخلص منها رد الجواب : بينما كنت منصرفًا إلى بعض عـملى فـى يوم من الأيام إذا برجل يتـقـدم إلىّ آتيًـا من بعض جـهـات نهـر «الكونافتـشى» ليبحث عن عمل ، ولكـنه لم يرشح نفسه لبعض هذه الأعـمال المتواضـعة الهينة التى يشـتغل بها كـثير من الأجـراء هنا ، بل ذكر لى أنه خبـير بأعمـال الترويض لا أقل من ذلك . وكان الرجل يبدو بـذ الهيئة رث الثياب ، قد امتطى ظـهـر بغـل مهزول متهـالك القوى حتى إنه لم يكن ليحـمل راكبه إلا بجهد جهيد ، ولـم يكن عليـه من أدوات الركوب إلا قطعة ممزقة من اللباد ، فأقبلت أنظر إليه قليلاً فى عجب ، ثم قلت له :

– حسـنًا يا صـديـقى . ليس لدى مـا يمنع من إلحـاقـك بالخـدمـة هنا ، وسـأمنحك دابة تسـتعين بها عـلى شأنك : جـوادًا من هذه الجيـاد الوحـشيـة السارحـة هناك فى المروج فتخـير منها ما يعـجبك وانصب له شركًـا أو ترصده بأنشوطتـك حتى تقتنصـه ، فإذا فعـلت فانصرف إلى ترويضـه حتى تذل قـياده وتتخذه لركوبك ، أما أدوات الركوب نفسها فلست أنا مسئولاً عنها ، فلتتكفل بها أنت .

فأجابنى الرجل وهو يضع يده على قطعة اللباد الممزق التى علت ظهر بغله وقال فى بساطة :

- أما أدوات الركوب فإن لدى منها ما يكفى بحمد الله ، صحيح أنه ليس لدى سرج ، وأما الجعبة فقد ضاعت منى لا أدرى أين ، والركاب قد ذهب به بعض اللصوص ، وأما السيور فإنى لا أملك منها شيئًا ، ولكن بقى لى ما هو أهم من ذلك كله فى صناعة الركوب : قلب صبور على المشقة ونفس حمالة للألم ! .

وختم أنتونيو كلماته كأنه يلقى بحكمة أو موعظة :

- هكذا أجابنى الرجل فى بساطة ... وأنا أزيدك تعريفًا به ، فأقول لك إنه لم يكن إلا «باخاروتى» الذى رأيت أنت منه ما تعلم . لقد أتى بتلك القطعة الرقيقة الممزقة من اللباد ، ومع ذلك فقد كان يعتبر نفسه مستكملاً لأدوات الركوب ؛ إذ قد بقى له ما هو أهم من ذلك كله : نفس حمالة للألم ! ولك أن تجرى هذه القصة وما اشتملت عليه من عبرة على سائر أهل السهول . إنهم جميعًا تكمن فيهم هذه النفوس الحمالة للألم والإرادة الصلبة المستعدة لكى تقاسى مشقة العمل وأعباءه فى تفاؤل وصبر ... من هنا أتت لرجال السهول قوتهم على الرغم من بذاذة هيئاتهم واقتحام العيون لهم لأول وهلة !

وما كان أنتونيو مبالغًا أو مسرفًا فى مقاله ، فقد رأى سانتوس ذلك جليًا فى حياة هؤلاء الناس على الرغم مما يكتنفها من مشقة ونصب : رآه فى هذا الفلاح البدوى المتواضع يعانى قسوة العمل فى قطعة أرضه الضئيلة يستخلص منها رزق يومه ، ورآه فى ذلك الراعى المرح وهو يختال فى وسط مروجه الفسيحة ، كلاهما يكافح قوى الطبيعة من أجل قوته وقوت عياله ، وكلاهما مع ذلك لا يتردد فى مشاطرة ضيفه النازل برحابه ما تجشم أقصى الجهد لكى يحصل عليه من قطعة لحم أو درنة من البطاطس ، وهو طعام لا يتم إكرام الضيف به إلا إذا اتبعه بقدح من القهوة وشىء من التبغ ، وهو مع ذلك راضٍ

بحياته قانع من لـذات العيش بسرير ينصبه بين أعمدة حظيرته وغطاء متواضع يقيـه غائلة السمـاء ، ولا بأس بكل ذلك ما دام لديه لركوبه جـواد مطهم كريم وسرج محلى جميل ، فإذا انتهى من عـمله فإنه ينصرف إلى عوده يعزف عليه ، وإلى قطع الليل فى مجـالس سمر وغناء يرتفع فيـها صوته صادحًـا حتى يبح ، بعد أن أنفق يومه كله فى عـمل مضن شـديد ، فإذا أتيحت له سـهرة راقصـة فـلا بأس فى أن يظـل حـتى مطــلع الفـجـر منكبًا علـى رقصة «الخـوروبو» حتى تتفكك مفاصله ، ولا سيما إذا كان فى السهرة فتيات جميلات ممن عناهن الشاعر السهلى بمثل هذه المقطوعة :

- خذ فى رقصك من الثور التفاف قرونه .

ومن الجواد ركضه وتقريبه .

ومن النساء الجميلات كل ما يعطينك .

من خصور جائلة وأرداف مكتنزة !

وهو يرى رجل السهـول ومسلكه إزاء ما يحيط به ؛ فـهو أمام الحيـاة قوى الاحتمال شـديد المراس صعب القياد ، يعمل - إذا عمل - فـلا يدركه التعب ، ولكنه مع ذلك كسول متهاون ؛ وهو فى الصراع متهـور سريع الاندفاع إلا أنه ماكر واسع الحيلة بـعيد غور الدهاء ، وهو فى علاقته برىء مـخلص أمين ،غير أنه فوضـوى مهمل لا يخضع لنظـام ، وهو مع الصديق متحـفظ جاف فى أول الأمـر ، فإذا اطمـــأن ووثق فهو مـستعد لـبذل كل شىء فى سبـيل الصديق ، وهو مع المرأة قاس خشن ، تعجبه متـعة التنقل بين النساء ، وهو مع نفسه مقبل على اللذات الحسيَّة ، وإن كان مع ذلك قنوعًا يرضى بالقليل ، وهو فى أحاديثه سـريع البديهة شـديد العارضة ، ولكنه ساذج بسيط ، متـشكك قليل التصديق لما يلقى إليـه ، غيـر أنه مع ذلك يؤمن بالخرافـة ، وهو فى كل أحوالـه مرح وإن كان يشـيـع فى قرارة نفسـه تيار من الحزن والمرارة ، عـملى واقعى ، ومع ذلك فهو حالم واسع الخيال ، وهو متواضـع إذا كان راجلاً ، فإذا اعتلى صهوة جواد

فهو شامخ بأنفه كثير الخيلاء والاعتداد بنفسه . قد اجتمعت فيه كل هذه المتناقضات دون أن تتزاحم أو يضيق بعضها ببعض ، كما تتمازج العيوب والفضائل فى الأرواح الفتية الجديدة .

كل هذا ينعكس على الأهازيج والمقطعات التى تتفتق عنها قرائح شعراء السهول ، حيث يمتزج المرح المسرف فى الخيلاء الذى تميز به الأندلسى ، والاستسلام المبتسم الذى فطر عليه الزنجى الأسود المتعود على الخضوع ، والنزعة المريرة إلى التمرد الموروثة عن الهندى . لقد ورث السهلى عن هذه الأجناس التى اختلطت دماؤها فى عروقه كل الخصائص التى تميز بها كل منها ، والتى ساهمت بنصيب فى تكوين روحه . رأى سانتوس كل ذلك مصوراً أوضح تصوير فى أغانى الرعاة ، فما فاته من طبائع أهل السهول مما لم يستطع فهمه من خلال أغانيهم أو ما سمعه فى صباه ثم قدم به العهد فنسيه ؛ فإنه يعود الآن فيتمثل له فى غمار أحاديثهم ومجالس سمرهم ، فى أثناء مشاركته إياهم فى العمل الشاق ، أو فى السهرات الصاخبة التى كانوا يعدونها حينما يخلدون إلى شىء من راحة .

ها هو ذا سانتوس يطلع من هذه النافذة على حياة السهول ، وهو يحس بالنفوذ الطاغى الذى تباشره هذه الأرض على روحه المتفتحة إلى القوة ، والجمال ، والألم مما تضطرب به أرجاء هذه السهول . ومن هنا خامرته الرغبة فى أن يحب هذه الأرض على علاتها ... كما هى ، بكل ما فيها من وحشية وجمال ، والعزم على أن يترك نفسه لها حتى تشكلها كما تشاء ، والإقلاع عما كانت نفسه تحدثه به من محاولة نشر الحضارة فى تلك السهول أو الخوف من أن يحيد به نفوذ البيئة عما كان قد رسمه لمنهاج حياته ، فقد كان عندما وطئ هذه الأرض من جديد يخشى أن يجرفه تيارها إلى إيثار حياتها البسيطة الخشنة ... حياة رعاة السهول .

إن الذى يختار هذه الحياة عليه أن يدفع ضريبتها القاسية ؛ فالحق أن الرجل من أهل السهول لا يروض حصانًا وحشيًا ولا يصيد ثوراً من هذه الثيران الطليقة فى المروج إلا نال جزاء على ما فعل . والجزاء هو أن يصبح الرجل عبداً للسهول لا يستطيع من أسرها خلاصًا ولا من نفوذها هربًا ! ... نعم ، إن السهول تعرف كيف تنال ثأرها إذ هى لا تلبث أن تسترجع الصيد والصائد ! ..
لقد أشار أنتونيو ساندوفال إلى شىء من ذلك حينما قال : «إن السهلى يظل سهليًا حتى الجيل الخامس من السلالة المنحدرة من صلبه» . أما بالنسبة لسانتوس لوثاردو فقد كان هناك فوق ذلك كله شىء آخر لم يكن هو يفكر فيه ، ولكنه كان على كل حال كامنًا ينبض فى قاع روحه ... شىء يتسلط نفوذه على مشاعر هذا الرجل الحضرى القادم من المدينة كما تسلطت على نفسه بيئة السهول الجميلة الموحشة : ماريسيلا ... هذه الفتاة التى ينعكس عليها جمال السهول كما ينعكس على الألحان المنبعثة من القيثارة الهازجة فى أيدى الرعاة ... ماريسيلا ذات الروح الساذجة اللعوب فى آن واحد ... البرية كأنها زهرة «البرجوتان»* التى يعطر شذاها هواء الخمائل ، ويسكب الرحيق فى شهد خلايا النحل .

الفصل الثالث عشر

الساحرة وظلها

كان الظلام يوشك أن يمد أطنابه على الأرض حينما توجهت ماريسيلا إلى المطبخ لتعد العشاء لسانتوس ، وكانت تهم بالدخول حينما التقط سمعها المحاورة التى كانت تدور بين «إيوفراسيا» الهندية وكاسيلدا ، والأولى تقول لصاحبتها :

- ... وإلا فكيف تفسرين أنت هذا الإلحاح من جانب «خوان بريميتو» على أن يدعه الدكتور يأخذ مقاييس قامته ؟ فمن الذى تهمه هذه المقاييس ؛ إن لم يكن السيدة باربارا ؟ ثم لا تنسى أنه لا حديث للناس الآن إلا عن السيدة باربارا وعن غرامها الجديد بالدكتور لوثاردو ، فهو أمر شائع ذائع يتردد على كل لسان .

- وهل تعتقدين أنت فى صحة هذا الذى يذكر عن أخذ المقاييس ؟

- أعتقد ؟ وهل فى ذلك شك ؟ أم تظنين أننى لم أر بعينى رأسى أدلة عليه دامغة وشواهد قاطعة ؟ إن المرأة التى تشد على خصرها خيطًا أخذ به مقاس رجل فإنها تفعل بذلك الرجل ما تشاء . لقد فعلت «خوستينا» الهندية ذلك بالفتى «دومنجيتو» من أهل قرية «تشكواكال» ؛ إذ ربطت مقاسه بوسطها ، فأذهبت عقله ، نعم ... خيط ألقته على جسده ثم لفته حولها و ... رحمك الله يا دومنجيتو !

وصاحت كاسيلدا :

- أبعـد الله عنا السـوء ! ومـا دمت أنت تعـرفين ذلك فلمـاذا لم تحـذرى الدكتور وتنصحيه بألا يسمح لخوان بريميتو بأخذ مقاسه ؟ .

- نعـم ... لقـــد فـكرت فى هذا بالفـعل ، ولكنى قـدرت أن الدكتـور ليس ممن يعتقدون فى هذه الأشياء ، ثم إنه كان يبدو مسروراً جذلاً بما كان ذلك المعتـوه الأبله يقول ويفعل حتى إننى لـم أجرؤ على مخاطبـته ، ولكننى فكرت فى أن أنتزع ذلك الخـيط مـــن خـــوان بريميـتو ، إلا أنه ألقى فى عيـنى بالتراب كما يقولون ؛ إذ إننى تبعته مجتهدة فى إدراكه ، فلم ألحق ولا غباره ... إنه لابد أن يكون الآن قـد ابتـعد فى طريقـه كـثيراً ، ولو أن مـا حـدث لم يقع إلا منذ لحظات ، فأنت تعرفين أنه لا يشرع فى العدو حتى يعجز كل من يروم اللحوق به.

وكان ما تحـدثت عنه إيوفراسيا هو أغلظ مـا أثر فى باب الإيمان بالخرافات والاعتقاد فى الخزعبلات مما استقر فى نفوس أهل السهول من ضروب الشعوذة ، ولكن ماريسـيلا لـم تتسـمع هذا الحوار حتى سـرت فى بدنها قشـعريرة باردة ، وعلى الرغم مما اجتهد سـانتوس فيه من انتزاع مثل هذه الاعـتقادات فى القوى السحـــرية من نفس الفـتـاة ، وعلى الرغم من أنها كانت كثيراً مـا تؤكد له أنها لـم تعد تصـدق هذه التـرهـات ؛ فإن الإيمان بالسحـر الأسود كان مـايزال كامنًا فى قرارة روحهـا بعد ، ثم إن كلام المرأتين الذى كانت تنصـت إليه وهى تحبس أنفاسـهـا وقلبهـــا يكاد يثب فـزعًا مـــن بين أضـلاعهـــا لـم يكن إلا تأكـيـــداً لهذه الشكوك الفظيعـة التى طالما هجست نفسها بها : إن أمهـا قد عشقت ذلك الرجل الذى أودعته هى خالص حبها ! ...

وكتمت ماريسيلا صيحة الذعر التى أوشكت على أن تند منها مغطية فمها بيـد مرتجـفة ، ونسـيت الغرض الذى قـدمت من أجله إلى المطبخ ، ثم سـارت مخترقة البهو إلى حيث غرف الدار الداخلية ، ولكنها عادت من بعد إلى حيث كانت ، وظـلت هكذا متـرددة حائرة فى جـيئة وذهاب كـما لو كـانت الأفكار الفظيعة التى تتناهبها قد تحولت إلى حركات آلية لا تملك فيها تصرفًا .

وفيما هى فى ذلك إذا بها ترى باخاروتى قادمًا ، فتهرع إلى لقائه وتسائله :

- ألم تر خوان بريميتو فى طريقك ؟

- بلى ... لقد التقينا فى الطريق هناك فيما وراء شجرات البلوط ، ولابد أن يكون قد وصل الآن إلى «ضيعة الرعب» ، فقد كان يهرول كأنه روح قد حملها الشيطان .

وبقيت ماريسيلا تفكر لحظة ثم قالت :

- إننى محتاجة الآن إلى الذهاب إلى «ضيعة الرعب»، فهل تريد مرافقتى؟

وتساءل باخاروتى :

- والدكتور ... أليس هنا ؟

- هو فى الدار ، ولكنه ينبغى ألا يعرف أى شىء عن ذلك ، سأتكتم الخبر وأذهب خفية ، فاخرج الآن لتسرج لى «كتيرا» دون أن يفطن أحد إلى جلية الخبر .

واعترض باخاروتى :

- ولكن يا بنية ، إن هذا ...

فقاطعته قائلة :

- لا يا باخاروتى . لا تحاول ، فلا جدوى من النقاش ، ولا تضيّع وقتك عبثًا فى أن تحملنى على أن أعدل عما استقر عزمى عليه . يجب أن أذهب إلى الضيعة الآن ... فى هذه اللحظة ؛ فإذا كنت لا تجرؤ على مرافقتى ...

- لا تزيدى بعد ما قلت كلمة ، سأذهب الآن لكى أسرج لك «كتيرا» فانتظرينى أنت وراء شجرة الموز ، وهكذا لن يراك أحد وأنت خارجة .

وقدر باخاروتى أن هناك شيئًا خطيراً حمل ماريسيلا على اتخاذ هذا القرار ، ومن أجل هذا قرر مرافقتها بغير مناقشة ، ثم إنه ما كان عليه أن يفعل غير ذلك بعد أن قالت له «إذا كنت لا تجرؤ ...» إنه لم يولد أحد بعد يستطيع أن يقول : «على هذا لا يجرؤ باخاروتى !» .

وتسللت ماريسيلا ومعها باخاروتى ماضيين بعيداً عن بيوت ألتاميرا بعد أن اتخذا من شجرة الموز جُنَّةً تقيهما عيون الناظرين ، وكان الظلام قد بدأ يرخى ستوره القاتمة ، وأخذا يتبادلان الحديث فى الطريق ، وكانت ماريسيلا ترجو بينها وبين نفسها ألا تضطر إلى مواجهة أمها ، ولكنها لم ترد التصريح لباخاروتى ؛ فقالت له :

- أتظن أننا لو حثثنا السير فإننا مدركان خوان بريميتو قبل أن يصل ؟

- لا ... ولو حطمنا ظهور دوابنا واستخرجنا منها أقصى ما تستطيع من عدو ، فقد سبقنا بزمن طويل ، ثم إنك تعرفين مدى وثباته إذا ما أطلق ساقيه للريح ، وإذا لم يكن قد وصل الآن بالفعل فلابد أنه لم يبق عليه إلا أقل القليل .

ولم يخطئ تقدير باخاروتى ، فقد كان خوان بريميتو فى هذه اللحظة قد بلغ «ضيعة الرعب» ، فدخل مسرعًا إلى حيث كانت السيدة باربارا جالسة إلى المائدة وحدها ؛ إذ كان بالبينو بايبا قد انقطع عن شهود مجلسها فى الأيام الأخيرة ، فقد كان يخشى أن يتسبب حضوره فى التعجيل بقطع تلك العلاقة الواهية الفاترة التى كانت تربطه بالمرأة ، وكان الجميع هناك يتوقعون أنه لن يمضى وقت طويل حتى تطرده السيدة باربارا من خدمتها ، ولهذا فقد آثر أن يختفى عن الأنظار عدة أيام .

وقال خوان بريميتو وهو يخرج من جيبه كيسه القماشى ويفكه ثم يبرز منه الخيط الذى أخذ به مقاييس سانتوس ويضعه على المائدة :

- إليك يا سيدتى ما كنت قد كلفتينى به ، هو مقياسه المضبوط لا ينقص عنه شعرة ولا يزيد .

ثم بدأ يقص عليها ما اضطر إلى اصطناعه من حيلة حتى يظفر بمراده من سانتوس لوثاردو ، فلما فرغ قالت له :

- حسنًا ، والآن يمكنك الانصراف . اذهب إلى المشرب واطلب هناك ما شئت .

وظلت بعد ذلك ساهمة مخلدة إلى التفكير وهى تتأمل هذه القطعة القذرة من الخيط ... ها هو ذا أخيراً شيء يمت بصلة إلى سانتوس لوثاردو ، بل هو الذى لابد أن يأتيها بهذا الرجل فى عاجل أو آجل لكى يرتمى بين ذراعيها على ما يقتضيه ذلك الاعتقاد الراسخ الذى استقرت جذوره فى روحها ، لقد تحولت الرغبة التى كانت تعتلج فى نفسها إلى شهوة عارمة طاغية ، وإذا كان الرجل الذى أرادت أن تستحوذ عليه والذى كانت تعتقد أنه سيمضى إليها «معدود الخطوات» - قد بدا منه الحران والاستعصاء فإنه لم يكن لها مفر من اللجوء إلى الحيلة ، ومن ثم أتى تصميمها الخبيث على تنفيذ تلك الفكرة النابعة من ظلمات روحها الساحرة المؤمنة بتعاويذ الخرافة ، وهكذا تسيطر على قياده بنواميس السحر الأسود ورقاه مادامت عاجزة عن اجتذاب قلبه بإغراء المرأة ومفاتن الأنثى !

* * *

وكانت ماريسيلا فى هذه الأثناء قد وصلت إلى الضيعة وأصبحت على مقربة من الدار ، وأخيراً قطعت ذلك الصمت الساهم القلق الذى كان مستوليًا عليها طول المسير ، وتوجهت إلى باخاروتى قائلة :

- إننى بحاجة إلى الكلام مع ... أمى ! فلتبق أنت هنا وسأدخل أنا الدار ، ولتظل فى موضعك قريبًا حتى إذا ما دهمنى أمر تمكنت من سماع صراخى .

فأجاب الرجل وهو معجب بشجاعة الفتاة وتصميمها :

- ما دمت تريدين ذلك فهكذا سيكون. وعلى أية حال فلا يداخلك القلق، فإنك لن تحتاجى إلى الصراخ مرتين .

وتوقفا لحظة متواريين فى ظل خميلة من الشجر ، ثم نزلت ماريسيلا عن ظهر فرسها ، وتقدمت فى عزم ورباطة جأش إلى الدار محاذية السياج الخشبى الذى كان يحيط بالحظيرة المجاورة .

وعبرت الدهليز ، ولكنها لم تكد تتقدم فيه خطوات حتى أدركها التردد وكادت عزيمتها أن تخور وهى تطأ عتبة هذا البيت الذى كانت تدخله الآن لأول مرة ، لقد بدا لها فى هذه اللحظة أن قلبها قد توقف عن الحركة ، وأن رجليها تنوءان بحملها ، وكادت تنبعث من صدرها تلك الصرخة التى اتفقت مع باخاروتى على أن تكون إشارتها إليه . ولكنها تمالكت نفسها ولم يبق لها مفر من المضى فيما عزمت عليه ، إنها الآن فى مدخل هذه القاعة المتخذة لتناول الطعام ولاستقبال الزائرين فى وقت واحد ، ولابد لها من التقدم ...

وكانت السيدة باربارا قد فرغت من عشائها وانتقلت إلى الغرفة المجاورة .

وهدأت نفس ماريسيلا قليلاً ، ثم تقدمت من تلك الغرفة خطوة فخطوة ، وهى تنظر حولها فى حذر ، كانت دقات قلبها تدوى فى مسمعيها كما لوكانت طرقات صاخبة هائلة ، ولكن الخوف كان قد زايلها وبدت أكثر تصميمًا وأمضى عزمًا .

أما باربارا فكانت واقفة فى صومعة سحرها أمام الرف الذى اصطفت عليه صور العذراء والقديسين وطواطم السحر ورقاه ، كلها فى نسق واحد وقد أشعلت شمعة متراقصة اللهيب ، وهى تنظر إلى الخيط الذى دار حول قامة سانتوس لوثاردو وتردد فى صوت محشرج هامس تلك الرقية التى عليها المعول فى إذلال قياد الرجل الحرون :

- باثنتين أنظر إليك ... وبثلاثة أشد وثاقك : بأسماء الأب ، والابن والروح القدس ... تعال أيها الرجل ... ولأنظر إليك بين يدى وأنت أكثر خضوعًا وذلاً من المسيح بين يدى بيلاتوس !

وكانت تستعد لفك عقدة الخيط وإحاطة خصرها به حينما باغتتها يدان تنتزعان الخيط من بين يديها فى قوة .

والتفتت باربارا إلى الوراء وقد صدمتها المفاجأة ، فلم تر الفتاة أمامها حتى وقفت مبهوتة وقد ألجم لسانها وجمد حراكها .

كانت هذه أول مرة تلتقى فيها الأم وبنتها وجهًا لوجه منذ أن اضطر لورنثو باركيرو إلى مغادرة تلك الدار ، وقد كانت باربارا تعلم حقًا أن ماريسيلا قد تحولت إلى فتاة أخرى منذ أن انتقلت لتعيش فى ألتاميرا ، ولكنها لم تتصورها بهذا الجمال ، وزاد ذلك من ذهولها وهى تتطلع إليها ، فضلاً عما أوقعته بها صدمة المفاجأة ، فبقيت لحظات تنظر إليها فى دهشة دون أن تجرؤ على القيام بأى شىء .

ولكنها تمالكت نفسها بعد ، فهمت بالانقضاض على الفتاة حتى تستعيد الخيط منها ، ولكن ماريسيلا قبضت بيديها عليه فى قوة وهى تصيح :

- أيتها الساحرة الخبيثة !

ولم تكد باربارا تسمع هذا اللقب المهين الذى لم يجرؤ أحد أبدًا على أن يفوه به فى محضرها حتى اندلعت فى قلبها ثورة مستطيرة ... ثورة هذا الصراع الهائل بين التعود على الشر والطموح إلى الخير ، بين ما كانت هى دائمًا وما تمنت أن تصبو إليه حتى تظفر بحب سانتوس لوثاردو ... شعوران اصطدما فى روحها بعنف فاصطرعا واختلطا ، ثم انفجرت شظاياهما فى مزيج واحد مضطرب كأنهما كتلتان ارتطمت إحداهما بالأخرى ، فارتفعت أشلاؤهما فى الهواء ثم تهاوت إلى الأرض متناثرة فى كل مكان .

وكانت ماريسيلا خلال ذلك قد اندفعت إلى الرف الذى وقفت أمها أمامه ، وقذفت إلى الأرض بضربة واحدة من يدها كل ما كان قد اصطف عليه من صور للعذراء والقديسين وعوذ سحرية وطواطم مما كانت قد اجتلبته من قرى

الهنـــود ، ثم هــذا السـراج الذى كان يشتعـل أمام صورة المسيح ، والشـموع التى كانت ذبالاتـها تتراقص وتضطرب ، بينمـا كان صوتهـا المبحـوح يزمجـر وقد خالطه الحنق والبكاء المكبوت :

- ساحرة خبيثة ! ساحرة خبيثة !

وتملكت باربارا نوبة من الغضب المسعور ، فانقضت وهى تزأر على الفتاة، فقبضت على ذراعيها بقوة ، وحاولت أن تنتزع الخيط من يديها .

وقاومت الفتاة بكل ما تستطيـع من قوة ، وأخذ جسدها يرتجف بشدة تحت وطأة هاتين اليـدين اللتين كـانتـا أشـبـه بأيدى الرجـال قوة وصـلابة ، وكـانت ماريسيلا قد خبأت الخيط فى حجرها ، فامتدت يدا باربارا إلى أخذه منها عنوة، وقد مـزقت عن الفتاة قـميصـها فى غمـرة ذلك الصراع ، فانكشف عن ثدييـها الناهدين ، وكادت باربارا تظفـر ببغيتهـا أخيراً حينما انبـعث من ورائها صوت يصيح فى لهجة آمرة جافة :

- اتركيها !

كان سانتوس لوثاردو الذى بدا على عتبة الباب فى هذه اللحظة .

وأطاعت باربارا ، وإن كانت قـد بذلت مجهوداً جـباراً فى محاولة إخـفاء مشـاعـرهـا وإلقاء مـسحـة من الهـدوء والبـشر عـلى وجـههـا المشئوم ، ولكن الابتسـامة التى اجتهـدت فى أن ترسمها على شـفتيها لم تـبد إلا التواءة كريهة كئيبة كأنها تعبير عن الأمل الخائب .

* * *

وكـان الهـيـاج الذى اضطرب فى روحـهـا هذه الليلة من الشـدة والعـمق بحيث لم تتمكن من التفاهم مع «الشريك» نفسه !

جـمعت باربارا مـن الأرض ما كـانت مـاريسيـلا قـد قذفت به من صـور المسـيح والقديسين وطواطم السـحر وتعـاويذه ، وعادت إلى صـفهـا على رف

«المحراب» وبدأ السـراج في الاشتعـال مرة أخرى ، وإن كان فتيله المضطرب لا ينفـك ملقيًا بفرقعـات الشـرر بحـكم ما امتزج فيه من زيت وماء ، كـانت الشعلـة تتأود وتهـتـز يمنة ويسرة مع أن الغرفة محكمـة الإغـلاق ، والهواء راكـد لا تهب فيـه نسمة . وألقت باربارا مـراراً بالدعاء الذى اعـتادت توجيـهه إلى «الشريك» فـلا يلبث أن يسمـع ويلبى النـداء ، ولكن شـيطانهـا لم يهـرع إليهـا في هـذه الليـلة ، فقد كانت الأحاسيس المصطرعة تضطرب في نفس باربارا جائية ذاهبة دون أن تهتدى إلى توفيق بينها ، تمامًا كما كان فتيل السـراج يتطوح عن يمين وعن شـمال ، فـيقذف بالشـرر المتطاير دون أن يوفق بين ما اختلط فيه من ماء وزيت .

وأقبلت باربارا مهدئة من أعصابها المضطربة وهى تقول لنفسها :

- هدوءًا ... مزيدًا من الهدوء !

وبدا لها فى هذه اللحـظة أنها تسمع عـبارة كانت هى نفـسها تفكر فـيهـا وإن لم تشرع فى التفوه بها :

- كل شيء يعود إلى المكان الذى منه خرج .

كانت هى الجـملة التى أوشكت على أن تلقى بها إلى نفـسها حـتى تهدئ من هذا الهياج الذى كان يعتمل فى روحهـا ، ولكن «الشريك» كان قد انتزعها من بين شفتـيها وسبقهـا إلى قولها بهذه النبرات الغريبـة المألوفة فى وقت واحد كأنما هو صوت الإنسان نفسه حينما يتردد صداه فى سمعه .

ورفعت باربارا نظرها إلـى حيث ظلها الذى انطبع على حـائط المحراب ، ومـن حوله ذلك الـنور المرتجف الذى ينبعث من السـراج . ها هو ذا «الشريك» قد أقبل أخيراً وشبحه الأسود الطويل مرتسم فى ظلها القاتم ، وهى تدق النظر فلا تمـيـز وجهـه وهو ما تعودته من قـبل ؛ إذ لم تستطع أبدًا أن تتبين له وجـهًا ولا ملامح ، ولكنها تشعر أنه هو ... قـد أتى فى النهـاية بعـد أن سـاقتـه إليها تلك الالتواءة الكريهة الكئيبة التى رسـمت على وجهها مشروع ابتسامة فاشلاً .

وهى مقتنعة الآن بأن هذه العبارة التى تواردت إلى خاطرها ثم سمعتها تلقى عليها كما يعود إليها رجع الصدى إنما كانت مما فاه به الشبح الأسود الذى انتصب أمامها ، وكانت تريد أن يفرخ روعها وتهدأ أعصابها بهذه الكلمات حينما كانت تحدث نفسها بها ، ولكن «الشريك» لم يكد يسبقها إليها حتى بدت لها كما لو كانت نبوءة رهيبة وكهانة تنذر بالشر ، فأقبلت ترددها فى تساؤل قلق :

- كل شىء يعود إلى المكان الذى منه خرج .

إذن كان ينبغى عليها أن تعزف عن تلك الأحاسيس التى أتت بها من «الخميلة القاتمة» يوم لقائها لسانتوس لوثاردو ؛ أكان عليها أن تنبذ هذه المشاعر الزائفة التى لم تكن إلا طائفًا عرض دون أن يعبر تعبيراً صادقًا عن حقيقة روحها ؟ أكان من العبث أن تفكر - كما فكرت - فى اجتذاب سانتوس لوثاردو كما يمكن لأى امرأة عاشقة أن تجتذب إليها الرجل الذى تحب ؟ أكان عليها فى أول الأمر أن تستحوذ على إرادته بنفس الصورة التى استحوذت بها على إرادة لورنثو باركيرو ، وإلا أزالته عن طريقها كما فعلت بجميع الرجال الذين حاولوا التمرد على نزواتها ورغباتها ؟

ولكن ... هل كانت مشاعرها تلك التى ولدت يوم لقائها بسانتوس لوثاردو زائفة حقًا ؟ هل يمكن أن تصف بالكذب هذا الإحساس بالرغبة فى حياة جديدة نقية ؟ ألم تشعر به يجرف قلبها بنفس القوة الجائحة التى كانت تثور بها فى نفسها الرغبات الشريرة والغرائز الخبيثة ؟ ألم تكن صادقة مخلصة فيما اندفعت إليه بكل ما فى طبيعتها من قوة وعنف من أمل فى تطهير روحها حينما أرادت أن تدفن فى نفسها تلك المرأة المشئومة ... تلك «الساحرة الخبيثة» كما دعتها ماريسيلا منذ قليل ؟

وكأنما انحل هذا الازدواج الذى كانت شخصية باربارا منطوية عليه ، فبدأ الجدال بين روحيها ؛ بين ما كانت عليه دائمًا وما كانت تطمع فى أن تصير إليه،

بين المرأة المشئومة الشريرة والمرأة الطيبة التى كان من الممكن أن تتفتح فى نفسها لو لم تحصد حياة «أسدروبال» تلك الطلقة النارية التى انبعثت من بندقية «الضفدع» ، بين المنطقة المظلمة التى كانت تتراءى لها فى نفسها وقدلاح فى ظلامها الدامس شبح رجل قضى عليه سحرها الأسود وشبح آخر يهوى ليديه وفمه فى قاع حفرة ، وقد غاصت فى ظهره حربة دامية ، وبين المنطقة الأخرى التى أشرق فيها ضياء حب طاهر على ظهر قارب القراصنة ، وإن كان كوميض البرق لم يدم إلا لحظات ؛

– أتعود الحية إلى الثوب الذى انشق عنها ؟ أيعود ماء النهر إلى منابعه ؟

– بل يعود الثور إلى حظيرته ، ويعود التائه إلى المفترق الذى ضل عنده الطريق ! .

– فى مجاولة «الخميلة القائمة» ؛

– لا بل بين أذرع القراصنة .

وما كان لأحد أن يميز بين ما تلقيه هى من سؤال وما ينطق به «الشريك» من رجع الجواب ؛ إذ إنها هى نفسها لم تكن تدرى المكان الذى ضلت فيه الطريق ! .

كانت باربارا تبحث عن نفسها فلا تجد إلا الاضطراب والحيرة ... كانت تريد أن تسمع ما ينصح لها به «الشريك» ، ولكنه لم يكن يشرع فى الكلام حتى تصوغ هى عليه الجواب ، فكانت الجملتان تتعاقبان وتتزاحمان وهى تحس بكلتيهما كما لو كانتا صوتًا نابعًا من أعماقها ، ولكنها تسمعهما كما لو كانتا آتيتين من مكان غريب بعيد ، وكأن تفكيرها قد تحول إلى أمواج عصف بها مد وجزر مصطخب هائل يندفع ما بينها وبين الشبح الأسود .

وكـان ذلك أمراً غـريبًا جـديداً عليهـا ، فـقد كـانت تعهـد فى «شريكهـا» الشيطانى أن تكون نصـائحه ونذره صريحــة واضحــة كمـا لو كانت نابعــة من تفكير ليس بينه وبين تفكيرها أدنى علاقة ، وكانت كلماته تنبعث كأن لسانًا آخر ينطق بها ، فيـميزها سمعها ، معـبرة عن أفكار لم تخطر لها قط على بال ، أما الليلة فإنها تحس بأن ما تقوله وتسمعه إنما هو منطلق من قرارة نفسها وباطن روحها ، ومع ذلك فقد كانت العبارات تبدو لها مـستغلقة لا سبيل إلى فهمها ، كأنما لم تعد لها صلة بتلك الألفاظ بمجرد أن يهمس بها «الشريك» ! .

وهمست باربارا قائلة :

- هدوءاً ... مزيداً من الهدوء ! فإننا لن نستطيع التفاهم على هذه الصورة !

ودفنت جبهـتها المتوقـدة ما بين يديها الباردتين ، وظلت هكذا فـترة طويلة وهى جامدة التفكير .

وقذفت ذبالة السراج بالشرر ، وهى تنتفض انتفاضة أخيرة قوية فى طريقها إلى الانطفاء ، ووصل إلى أذنى باربارا المبهورتين صوت واضح متميز :

- إذا أردت أن يأتى هو إليك فأدى الرسالة وسلمى الأمانة !

ورفعت من جديد نظرها إلى حيث ظلها المرتسم على الحائط ، فقد حدثها الشبح أخيـراً بشىء لم يكن يدور فى خيالها ... ولكن السراج كـان قد انطفأ ، وتحول كل شىء من حولها إلى ظلال ...

القِسمُ الثَّالِث

الفصل الأول

شيطان المروج

«ملكيادس جامارا» رجل لا يرى بأسًا فى أن يكلفوه بالعمل المتواصل عامًا كاملاً بدون أن يتقاضى أجرًا ، إذا كان واثقًا من أن عمله سيعود بالضرر على أحد ، فإذا عهد إليه بشيء لا يترتب عليه أذى ولا مضرة فإنه سرعان ما يمله ويسأمه مهما أوسع له فى الجزاء وضوعف فى الأجر ، ولهذا فقد كان أكثر أعماله براءة وأقلها أذى هو ما تعهد به إليه السيدة باربارا فى بعض الأحيان من «سحر الخيل» .

ويتألف هذا العمل من مفاجأة قطعان الخيول الوحشية النائمة فى أطراف المروج ثم مطاردتها خلال الليل بل خلال أيام وليال متصلة إذا لزم الأمر ، حتى يضطرها إلى سلوك طريق تؤدى بها إلى «حظيرة زائفة» فى سفح الجبل يكون قد غطاها بفروع الشجر والسعف حتى تظنها الخيل ملجأ يحميها من الطراد ، فتدخلها دون أن تعلم أنها قد وقعت فى الشرك الذى أعد لها ، وكان ملكيادس جامارا هو الذى ابتكر هذه الطريقة أو أول من أدخلها فى مروج هذه الناحية . ولما كان معروفًا كذلك بأنه ضرب فى السحر بسهم فإن الناس هناك كانوا يطلقون على صيد الخيول الوحشية بهذه الطريقة اسم «سحر الخيل» أو «تأريقها» .

ثم إنها كانت وسيلة عظيمة الجدوى فى استنفار الخيول التى ترعى فى الضياع المجاورة والاستيلاء عليها سائقًا إياها إلى أرض السيدة باربارا دون أن يتمكن أحد من اكتشافه ، فقد كان دائمًا يتخذ الليل ستارًا لمثل هذا العمل .

وكانت ضيعة ألتاميرا قد استراحت من غزوات «الساحر» وحملاته على خيولها منذ أن قدم سانتوس لوثاردو بحكم الهدنة التى التزمت بها السيدة باربارا التى رأت أنها نافعة لها ريثما تعد خططها لاستمالة لوثاردو والاستحواذ على حبه . وهكذا ظل ملكيادس فى عطلة رأى الأيام تمتد بها مورثة إياه الملل والضجر ، وبلغ به ما ران على نفسه من الصدأ وما حل به من الضيق والخمول أنه كان يفكر فى ترك الخدمة فى «ضيعة الرعب» وفيما هو يحدث نفسه بذلك إذ أقبل عليه بالبينو بايبا يبلغه أمر السيدة بأن يعود إلى سابق نشاطه .

- لقد أرسلتنى السيدة إليك تأمرك بأن تستعد للخروج إلى العمل فى نفس هذه الليلة ، فهى تقول إن فى مرج «الركن العميق» قطيعًا طيبًا يصلح لشن حملة ناجحة .

ولكن ملكيادس لم يكن ليروق له أن تبعث السيدة بأوامرها إليه مع بالبينو ، فنظر إليه فى ريبة وتشكك وسأل :

- وهل هى قادمة من تلك الجهة ؟

- لا ، ولكنك تعلم أنها لا تحتاج إلى رؤية الشىء بعينيها حتى تعرف وجوده من عدمه .

والحق أن الذى رأى ذلك القطيع الطيب من الخيل لم يكن إلا بالبينو نفسه منذ قليل ، ولكنه لم ير بدًا من أن يدلى بذلك التفسير جريًا على التقليد المتبع بين جميع وكلاء السيدة باربارا ومديرى أعمالها حتى لا يفتر إيمان خدمها وأتباعها لحظة واحدة فى قدرتها على السحر والقوى الخفية التى تعينها .

ولكن الوضع بالنسبة إلى ملكيادس كان يختلف ؛ إذ «ما كان لكلب أن يأكل كلبًا مثله» على حد قوله ، وما كان لأحد أن يصوغ عليه مثل هذه القصص المخترعة عن سحر السيدة باربارا ، فقد كان أدرى الناس بحقيقة كل ذلك ، وهو لم ينكر أبدًا أن السيدة لم تكن تخلو من براعة وحكمة

في بعض ما ينسبون إليها ، ولكن هذا شيء وما ظنه بالبينو من أنه يستطيع الخلط بينه وبين خوان بريميتو شيء آخر ، وبين الأمرين بون شاسع بعيد ، ثم إنه ما كان بحاجة إلى الإيمان بقوى المرأة السحرية حتى يقبل على خدمتها فى تفان وإخلاص ، فقد كان ملكيادس رجلاً كأنه لم يخلق إلا ليكون «حامى ظهر» ، وهو عمل لا يصلح له أى رجل ، بل لا يقوى عليه إلا قلة ينبغى أن يتوافر فيهم شرطان لا يكادان يجتمعان : جمود إحساس مطلق ، ثم إخلاص فوق مستوى الشبهات ، وهكذا كان الرجل يخدم السيدة باربارا ، لا باعتباره «ساحر خيول» ؛ إذ إن ذلك فى الواقع يمكن أن يضطلع به الكثيرون ، وإنما فى أشياء أخرى أجل وأخطر ، وما كان يسعى فى ذلك إلى أجر يتقاضاه ، أو ربح يكتسبه ، وإنما هى هواية واستعداد فطرى ، «فحماية الظهر» ليست عملاً ، وإنما هى وظيفة طبيعية وهبة لا تكتسب .

أما بالبينو بايبا فلعله كان على طرف نقيض من ذلك ، فهو رجل لم يكن يفكر إلا فى الانتفاع من عمله بقدر ما يستطيع ، وكان خائنًا بطبعه ، هو نوع آخر من الرجال كان ملكيادس يشعر نحوهم بأعمق الاحتقار .

- حسنًا ، إذا كان هذا هو أمر السيدة فإننى سأتخذ الأهبة لذلك فى هذه الليلة ، ولما كان ما بيننا الآن وبين «الركن العميق» مسافة ليست بالقصيرة ، والساعة الآن تشرف على التاسعة ، فإننى سأقوم بإسراج جوادى فى نفس هذه اللحظة .

وحينما شرع ملكيادس فى التحرك للسير خرج له بالبينو مرة أخرى فقال له :

- انظر يا ملكيادس ما إذا كنت تستطيع أيضًا فى طريقك أن تستاق لى بعض هذه الخيول فتدخلها إلى حظيرة «لاماتيكا» . وليس ذلك لشىء إلا لرغبتى فى أن أدبر «مقلبًا» للدكتور لوثاردو ، ولكن لا تقل شيئًا عن هذا للسيدة ؛ إذ إننى أريد أن أدخل إلى قلبها السرور بمثل هذه المفاجأة .

وكانت حظيرة «لاماتيكا» هى التى اتخذها بالبينو مستودعًا لما كان يسرقه من السيدة باربارا من ماشية وحيوان ، وكان الناس هناك قد اعتادوا أن يطلقوا على هذه السرقات لفظ «التنظر» مشتقة من لقب «ناظر الضيعة» ؛ إذ كان هو القائم باقترافها من الضيعة التى يعمل وكيلاً عن صاحبها فى إدارة أعمالها .

ولم يكن بالبينو يجسر أبدًا على التلويح لملكيادس بمثل هذا الاقتراح ، ولهذا فقد أتاه الجواب سريعًا حاسمًا :

- لقد أخطأت التقدير يا سيد بالبينو ، فأنا رجل لم يعجبنى «التنظر» قط !

قالها ملكيادس وأدار ظهره لمحدثه ، ثم مضى فى المرج على صهوة حصانه فى تباطؤ ، فقد تعودت الدابة على أن تحمل على ظهرها طاقة الهدوء الرهيب المنذر بشر البلاء مستقرة فى نفس ذلك الرجل الذى لم تكن هناك قوة فى الأرض تستطيع إثارته أو حمله على الإسراع والعجلة .

أما بالبينو فقد امتدت يداه إلى شاربيه يربت عليهما فى غيظ كما كانت عادته ، وتمتم بكلمات لم يستطع تبينها بعض رجال الضيعة ممن كانوا ينظرون إلى المشهد القصير وقد تبادلوا نظرات شامتة ماكرة .

وبلغ «الساحر» مرج الركن العميق ، وهناك رأى قطيع الخيل الذى حدثه عنه بالبينو وهو مستلق على منخفض من الأرض ، وكان قطيعًا كبيرًا قد استسلمت أفراسه ومهاره للنوم على أعشاب المرج مطمئنة إلى ما اضطلع به الفحل زعيم القطيع من حراسة نصب لها سمعه الحاد .

ولم يشعر هذاباقتراب الرجل حتى أطلق صهلة قوية ، فانتصبت الأفراس والمهار على قوائمها بسرعة ، وهبهب بها ملكيادس حتى تتوجه فى فرارها إلى «ضيعة الرعب» .

وكان ضياء القمر - قمر السهول الذى يذهب بالعقول - قد زاد هذه الخيول هياجًا وجموحًا ، فمضت راكضة فى ذعر ، وقد أطار عنها النوم هذا

الفارس الـذى يطاردها فى صمت وهدوء ، وقـد زاد من رعبـها وهلعهـا عناده وإصراره فى تعقـبها . كان ملكيادس قد ألقى عليـــه ملحفته الثقيلة لتـحميـــه من برد السحر ، وسار وراء القطيع فى خطوات بطيـئة منتظمة دون أن يستحث حصانه أو يزيد من سـرعته ، فقـد كان على ثقة من أن القطيع سيـتوقف بعد أن يظن نفسه قد أصبح بمأمن من المطاردة .

وهذا ما حـدث بالفعل ، فلـم يلبث ملكيادس أن لحق بالقطيع ، فـوجــده قـد أخلد مـرة أخـرى إلى النوم ، وعـاد القطيع إلى الجـرى فى أنحـاء المروج ، ولكن «الساحر» كـان يلحق به فى كل مرة ، فيسـتبد الذعر بالخـيول ، ولا تجرؤ بعـد ذلك على الاسـتلقـاء فى اطمـئنان وهدوء ، بل كـانت تتـوقف فى ترقب وانتظار ، وكـان الفحل يسـير فى الطليـعة تتـبعـه كتلة واحـدة تجمع بين المـهار والأفراس ، وقد مدت أعناقها ونصبت آذانها تنظر إلى ذلك الشبح الذى كان ظله يدنو فى تبـاطؤ وصمت ، كان ظلاً هائلاً أسـود قد انطبع على السـماء المشـرقة التى سطع فيها ضوء القمر ، وهكذا مضت تلك المطاردة طوال الليل كله .

ولـم يكد نور الفـجر يطـــل عـــلى الأفـــق حـتى كان ملكيـادس قـد تمكن من سوق القطيع إلى ركن من أركان المرج كان قد أعد فى طرفه الأقصى طريقًا فى منعـرج سفح الجبل قـد غطى جانبـيه بالغـصون والسـعف حتى يبـدو كأنه المخـرج الضيق الوحـيد من المرج ، بينـما هو يؤدى فى الحـقيـقة إلى «الحظيـرة الزائفة» ، وهى مكان كان قـد أحـاطه بأسيجة من خشـب بالغ فى تغطيـتها حتى لا تبـدو شركًـا للخيـول الوحشـية المذعـورة . ومضــى القطيع فى ذلك الطريق الضيق دون أن يشـعر بالخـديعة التى أعدها «السـاحر» ، أمـا هذا فقد اسـتحث جواده من ورائه حتى لا تحيد الخيول عن ذلك الفخ الذى نصبه .

واقتحـــم القطيع ذلك الطريق يقوده الجواد الفحل ، غـير أن هذا لم يلبث أن فطن إلى قطعـة من السـيـاج كـان قـد انكشف عنهـا مـا غطاها من الفـروع والسعف ، فـتوقف بغـتة ، ثم أطلق صـهلة قصيـرة ، واندفع راجعًـا إلى حيث

خلف المرج الفسيح ، وفهمت الأفراس ذلك النذير ، فغيرت اتجاهها وأقبلت وراءه ، غير أن «الساحر» اقتحم القطيع الهارب مهجهجًا به حتى لا يولى أدباره ، وتمكن فعلاً من سوقه مرة أخرى إلى الشرك المعد ، ولم يستطع الإفلات إلا الفحل واثنتان من أفراسه ، أما ملكيادس فقد أقفل باب الحظيرة وابتعد عنها بعد أن اطمأن إلى أن الأفراس والمهور قد بقيت حبيسة تضطرب فيها حينًا إلى أن يفرخ روعها ويقر قرارها .

ورأى الرجل فى مسيره كيف وقف الفحل الهارب فى الطرف الآخر من المرج وقد مد عنقه ونظر إليه متحديًا .

وتوقف ملكيادس فتأمله لحظات ثم هتف :

– يا له من دابة رائعة ، وفحل شديد السطوة . إن قطيعه هو أكبر قطيع تمكنت من اقتناصه من خيول ألتاميرا ، فلأحاول الآن أن أتخذ من أناثه الحبيسات شركًا للإيقاع به ، فإنى أرى شهوته إليهن ستسوقه إلى العودة لا محالة .

ولكن «ذا القوائم السود» لم يكن قد توقف إلا لينظر إلى مطارده فى تحد وحنق ، وقد ارتجفت عروقه وأعصابه تحت جلده اللامع ، واحمرت حدقتاه ، وامتدت أشفاره ، ثم لم يلبث أن استدار وأخذ معه الفرسين اللتين تمكنتا من النجاة معه بعد أن انطبعت فى ذاكرته صورة «شيطان المروج» ، وتولى منصرفًا لا يلوى على شيء .

وقال ملكيادس لنفسه فى اطمئنان :

– إن هذا الماكر قد نجا بجلده ، ولكنى على ثقة من أنه سيعود باحثًا عن إناثه بعد قليل ، فليأت أحد من رجال الضيعة لكى يكمن له هنا ويترصده عند قدومه ، أما أنا فقد أتممت ما كان عليَّ أن أقوم به ، وأنا أستحق الآن نصيبًا من النوم .

وكانت «الحظيرة الزائفة» فى أرض ضيعة الرعب غير بعيدة عن بيوت الضيعة وأكواخها ، ولهذا فإنه لم يمض وقت طويل حتى كان ملكيادس قد وصل إلى هناك . وخرج إليه بالبينو الذى كان ينتظره حتى يرجوه أن يغض النظر عن الاقتراح الذى كان قد عرضه عليه فى البارحة قبل أن يلقى ملكيادس الخبر إلى السيدة باربارا ، ومن أجل ذلك لم يكد بالبينو يراه حتى هرع إليه يستقبله فى تودد وحفاوة على صورة لم تعهد قط بين الرجلين .

ولكن ملكيادس أجابه بجفائه المعهود فى الكلمات القليلة التى قلما كان يولى مخاطبه شرف توجيهها إليه :

- مر بعض الرجال بأن يترصدوا الفحل بأناشيطهم قريبًا من مكان الحظيرة ، فقد تمكن من الهرب ، ولكنى على يقين من أنه سيعود للبحث عن أفراسه محاولاً إخراجهن ، وهو جواد يستحق أن تبذل الجهود من أجل اقتناصه ؛ إذ هو من أجمل ما رأت العيون ، ولست فى شك فى أنه سيعجب السيدة ، وأنها ستتخذه لركوبها .

على أن حديث ملكيادس أثار فى نفس بالبينو الرغبة فى هذا الجواد دون أن يراه لا لكى يدفع به إلى السيدة ، بل لكى يحتفظ به لنفسه ، فما رأى ملكيادس منصرفًا عنه حتى أسرع وحده إلى حيث كانت الحظيرة الزائفة ومعه أنشوطته .

ولكن «ذا القوائم السود» كان قد عرف كيف يأخذ بثأره ، إذ لم يكد يبتعد عن المرج الذى أسر فيه قطيعه حتى رأى - وهو بعد فى ضيعة الرعب - قطيعًا آخر لا يقل عدد أفراسه عما فقد ، وهو يرعى فى هدوء وأمن تحت أشعة الفجر الرقيقة ، ومهاره تتلاعب وتتوثب من حول أمهاتها .

ولم يتلبث «ذو القوائم السود» ؛ إذ ركض إلى القطيع وهو يعلن إلى فحله فى صهيل متقطع أنه منقض عليه بنية القتال حتى يخلص القطيع لمن تكون له

الغلبة ، أما الآخر فكان جواداً أشهب بين الشراسة ، فلم ير غريمه قادمًا حتى جمع أفراسه ومهاره المتفرقة في أنحاء المرج بسرعة ، وانتصب في طليعتها منتظرًا الهجوم المتوقع .

وانقض «ذو القوائم السود» انقضاض الصاعقة ، وكان له التفوق على خصمه بحكم بدئه بالهجوم فضلاً عن أن الغيظ كان مستبداً به بسبب ما تعرض له من حرمانه من أفراسه ومهاره ، فزاد ذلك من حميته وضاعف من استبساله ، واشتبكت قوائم الجوادين في هذا الصراع العنيف وقد أثارا حولهما عاصفة من الغبار ، وانطلق من جوفيهما صهيل الحرب ، واصطك فكا «ذي القوائم السود» في الهواء ، ثم أدرك بقائمتيه عنق الجواد الأشهب ، وثنى عليه بعضة موجعة أصابت ظهره ، ثم أخرى دون أن يدع له فرصة استجماع قوته أو الاستعداد لرد الهجوم .

وبدأت قوائم الجواد الأشهب تنوء بحمل جسده ، وتمكن غريمه حينئذ من إطباق فكيه مرة أخرى على جسده ، ثم هزه في عنف وشدة ، وأخيراً استطاع الجواد الأشهب التخلص منه ، فأطلق ساقيه للفرار .

وتعقبه «ذو القوائم السود» مسافة ، حتى إذا تأكد له النصر عاد إلى حيث كانت الأفراس ترقب مشهد القتال بين الجوادين في صمت وجمود ، فهجم عليها ودار حولها وهو يبرز لها نواجذه ، ثم استاقها إلى حيث وقفت فرساه اللتان نجا بهما من شرك «الساحر» فضمهما إليها ، وانطلق يركض بقطيعه الجديد عائداً إلى حيث كان مرعاه المعتاد في أرض ألتاميرا .

أما الجواد الأشهب فقد تبع غريمه من بعيد ، وأخيراً بقي واقفًا وحده في وسط المرج ، وهو يجتر مرارة الهزيمة وينظر إلى قطيعه المسلوب وهو يثير عاصفة من الغبار في ركضه مع الفحل الذى استبدله به ، ثم عاد يجر أذيال الخيبة .

وعاد ملكيادس بعد ذلك بليال إلى مطاردة كلفته فى هذه المرة أشد العناء ، كان قد خرج فى تلك الأمسية ليكرر حملته الماضية فى أرض ألتاميرا وهو مصمم على أن يخرج منها بغنيمة من الخيول ، فقد كان يريد أن يسطو على كل قطعان الضيعة المجاورة من الجياد والأفراس الوحشية ، وقضى «الساحر» الليل كله فى تلك المطاردة ، ولكن مجهوده باء بالفشل ؛ إذ إن الجواد زعيم القطيع الذى كان الرجل يتابعه كان من المكر بحيث عمل على تجنب أدغال الحشائش مؤثرًا الهروب بقطيعه فى المروج الفسيحة المنبسطة وهو يعدو بسرعة . ثم إن موجة من الضباب هبطت على السهول فلم تمكن ملكيادس من رؤية القطيع حتى من مسافة قريبة ، وانقضى الليل كله ، فلما أشرق الفجر تبين «الساحر» أن القطيع قد عاد إلى نفس المكان الذى بدأت مطاردته فيه ، وحقق الرجل النظر فإذا به يرى أن زعيم هذا القطيع كان هو نفسه «ذا القوائم السود» الذى استطاع مرة أخرى أن يسخر بمطارده .

وكانت هذه هى أول مرة يغرر فيها «بالساحر» حصان . وبدا له ذلك أمرًا يدعو إلى التطير والتشاؤم ، فذهب إلى السيدة باربارا ليلقى إليها بخبره .

وأولت هى القصة بينها وبين نفسها تأويلاً لا يقل تشاؤمًا ولا طيرة ، فقد ذكرتها بما قال لها «الشريك» :

- كل شيء يعود إلى المكان الذى منه خرج !

ومع ذلك فقد التفتت إلى الرجل وصاحت فى وجهه بعنف :

- وأنت أيضًا يا ملكيادس ؟ تدع القطيع يفلت من بين يديك هكذا دون أن تصنع شيئًا لتتجنب ذلك ؟ ما أصح ما سيتأوله الناس بعد ذلك من أن فى ألتاميرا اليوم رجلاً لا يهاب «شيطان المروج» ولا يحفل به ! ...

وكانت هـــذه الكلمات تشف عـــن تضــــارب العواطف والانفـعالات التى كانت تموج فى نفسها . أما ملكيادس فقد تلقاها فى هدوء دون أن يطرف، ثم قال لها فى بطء :

- إذا أردت أن تتحـققى مـــن أن ملكيادس جامـارا لم يداخله أبدًا الخوف من رجل آخر مهـمـا بلغ فما عليـــك إلا أن تقولى له : «إيتنى بهـذا الرجل حيًا أو ميتًا !» .

ثم أدار لها ظهره وانصرف .

أما السيـدة باربارا فقد ظلت ساهمـة تفكر كما لو كانــت تحاول أن تفسح مكانًا بين انفعالتها العاصفة لخطة جديدة سوداء .

الفصل الثانى

الزوابع

لم تكن هى زوابع الغبـار وذيول الدخـان التى كـانت تـصطرع بين ربى المروج ، والتى كان سانتوس لوثاردو يتأملها فى بعض الأيام وقد غرق فى حلم جميل ؛ إذ كان يتخيلها كمـا لو كانت زوابع الغبار والدخان التى يتركها القطار وهو يشق السـهول بشـيراً بدخـول الحضـارة إلى ربوعهـا ... لا ، لم تكن هذه الزوابع باعـثـة الأمل والرجـاء ، بـل أخـرى تسـحب وراء ها ذيـول الشـؤم ، فتعصف بالأمل ، وتلوى بالرجاء ! ...

ها هى ذى ماريسـيلا لم تعـد بعد تلك الروح الضاحكة الـلعوب التى تملأ البيت بهجة ومرحًا ، لقد عادت فى تلك الليلة من ضيعة الرعب كسيرة خافضة الرأس ، وكان سـانتوس قد أنبهـا على ما فعلت ، ولكنه عاد بعـد ذلك يحاول استرضاءها والتخفيض عنها بقوله :

– والآن وقـد انتهـينا من التوبيـخ والعتـاب . ارفعى رأسك إذن وانفـضى عنك مـا بنفسك . إن الشىء الوحـيد الذى جـانبك فيـه التوفيق والـصواب هو أنك منحت ثقتك وتصـديقك لمثل هذه الشعوذات السـخيفة الهـاذرة ، ماكنت أنتظر منك أن تعـتقـدى فى أى شر يمكن أن تـلحقـه بى قطعة الخـيط هذه التى عدت بها من هناك . أما فيما بقى فقد كـان موقفك فيه نبيلاً شجاعًا ، وعلى أن أقـدم إليك شكرى من أجله ، فـإذا كنت تدافـعين هكذا عن ذلك الخـيط الذى أخذ به مقياس قامتى فكيف بك إذا تعرضت حياتى لأى خطر ؟! ...

ولكن جـهود سانتـوس ذهبت أدراج الرياح ؛ إذ ظلت مـاريسيـلا صامـتة حزينة خافضة الرأس ، فقد أتت من «ضيعة الرعب» بتجربة أزالت ذلك السحر الذي كانت حياتها تقوم عليه .

أما قـبل أن تعرف سـانتوس لوثاردو فـإنها كـانت تعيش فـي سحر كـفله الجمود المتوحش الذي لايعي ولايحس ، والظلام الأسـود الذي كانت تقبع فيه روحهـا المدفونة ، وأمـا بعد أن عـرفته فـقد انتـقلت كذلك إلى عـالم مسـحور تومض فيه إشراقـة من حياة جديدة ومتعة بذلك الحب الذي كـان أشبه مايكون «بشعور لا اسم له» ، فقد كان يرتكز على توازن مـتأرجح بين الحلم والحقيقة ، وهي على أية حال لم يخطر لها من قبل أبداً أن تفكر فيـما يمكن أن يعنيه كونها بنتًا «للساحرة الخبيثة» .

لقد كانت في المرات النادرة التي كانت تشير فيها إليها لا تذكرها إلا بلفظ «هي» ، كلمة لم تكن توقظ في قلبها أي شعور : لا حب ولا كراهية ولا خجل . وكانت أول مـرة أطلقت عليها اسم «الأم» فـيها هي التي اقتـرحـت بمناسبتـها على «باخاروتي» أن يرافقـها إلى «ضيعة الرعب» ، ومع ذلك فقـد بذلت كثيراً من الجهد حتى تلفظ شفتاها هذه الكلمة التي لم تتعودها ، والتي عريت في نظر ماريسيلا من كل شعور كما لو كـانت لفظًا غير ذي معنى .

أما الآن فـقد تغيرت الأحـوال . إن لفظ «الأم» يلح عليها إلحاحًـا شديداً ، ولكنه يحمل إليها كل ما كانت تـراه في أمها من شر وخبث ، فكانت لا تذكره إلا ملأ نفسها شعور من الاشمئزاز والكراهية . لقد كانت روح ماريسيلا طاهرة لم تتلوث ، ولكنها لم تعد- كما كانت - مثل الطبيعة التي لاتعرف التمييز بين الخيـر والشر ، لا ... لقد تغيـرت ماريسيلا فـأصبحت تحس بمدى ما في كـونها ابنة لساحرة الرجال من فظاعة وهول ، وهي تنفر نفوراً شديداً من هذه الحقيقة ، وتود لو لم تكن ، ولاسيما بعد أن زاد الطين بلة أن «أمها» - هذه المرأة المشئومة - كانت تنازعها في الحب الوحيد الذي خفق به قلبها .

ولكن هذه الفكرة الكريهة التى كانت لاتكف عن ملاحقة ماريسيلا والمثول فى مخيلتها البريئة لم تلبث أن أدت بها إلى الإحساس بشعور من العطف والرثاء لهذه المرأة . ألم تكن أمها أيضًا ضحية للظروف والمجتمع؟ ومهما كان من أمر فإن السحر الذى كانت تقوم عليه حياة ماريسيلا قد زال وبطل عمله ، والتوازن المتأرجح بين الحلم والحقيقة لم يعد له مكان . لم يبق هناك موضع لأى حلم ، بل هى الحقيقة المرة القاسية التى ليس لدفعها من سبيل .

وكان سانتوس فى هذه الأثناء لايكف كذلك عن التفكير ، وفى يوم من الأيام قال لها :

- أريد أن أتحدث معك يا ماريسيلا حديثًا صريحًا .

وظنت هى أنه يهم بأن يقول لها ما كانت تريد أن تسمع ، فسارعت إلى مقاطعته قائلة :

- يا للموافقات ! لقد كنت أنا أريد الكلام معك أيضًا . إنى أود أن أعبر لك عن شكرنا : أبى وأنا على كل مافعلته من أجلنا ، ولكن أبى يريد العودة إلى داره فى «مرج النخيل» ، وأنا كذلك أريد أن تسمح لى بالذهاب .

- وإذا رفضت السماح لك به ؟

- سأذهب على أية حال .

ثم انخرطت فى البكاء ، وفهم سانتوس ، فأخذ يديها بين راحتيه وقال لها فى رفق :

- تعالى هنا وحدثينى بصراحة : ما الذى حل بك؟

- لاشىء .. إلا أننى ابنة «الساحرة الخبيثة» .

وكانت عبارة احتجاجها حقيقة لاتبعد عن الواقع ، ولكن الفتاة نطقت بها في قسوة عارية أحدثت في لوثاردو من الانقباض والألم ما كان يولده في نفسه تفكيره في خلو قلبها من الرقة والحنان والبر ، وأطلق راحتي الفتاة من بين كفيه ، في حركة آلية فانطلقت جارية إلى غرفتها ، وأغلقتها عليها بالمفتاح .

وعبثًا حاول سانتوس في ذلك اليوم أن يطرق باب الفتاة ليكمل معها المحادثة المبتورة ، ولم تحاول هي من جانبها أن تواصلها ، فقد لازمت غرفتها المغلقة لاتخرج منها أبدًا طالما علمت أنه في الدار .

ولم يعد في وسع كلمات سانتوس الملاطفة المسترضية - حتى ولو عبر لها عن مبادلته إياها شعور الحب - أن تزيل عن نفسها الاعتقاد بأن كل ذلك ليس إلا تعويضًا وصل متأخرًا عن ذلك الظلم الفادح الذي صبه عليها القدر حينما ألقى بها جنينًا في بطن «ساحرة الرجال» الملعونة !...

* * *

وفي هذه الأثناء كانت زوابع الشؤم أيضًا تعصف - خارج البيت - بالآمال التي وضعها سانتوس في موارد الضيعة وثروتها .

كانت تجربة «مصانع الجبن» تبشر بالخير ، فقد تزايد عدد رءوس الماشية التي اقتضت المصانع استئناسها ، حقًا إنه كان على البقارين أن يتولوا قيادتها إلى المصانع وحراستها حتى لاتعود إلى النشوز ، ولكن عدد الأبقار التي كانت تمضي وحدها طيعة ذلولة إلى المجابن كان في ارتفاع مطرد ، بل إن كثيرًا منها اعتاد على الأسماء التي وضعت لكل منها فأصبحت لاتسمعها حتى تجيب النداء ، ولم يعد التوحش والنفار بها إلى الشح بلبنها وإخفائه في ضروعها .

كان حلب الأبقار يبدأ مع تصايح الديكة في ساعة السحر . وكان «خسوسيتو» البقار حفيد «ريميخيو» يجلس محتبيًا مستدفئًا بثيابه التي ضمها عليه لدى باب حظيرة العجول الصغيرة ليحول بينها وبين الخروج إلى أمهاتها

إلا عند ندائها ، بينما يدخل الحالبون إلى حظيرة البقر ، وفى أيديهم الوطاب وأدوات الحلب ، وأغنية سرعان ماتنطلق من بين شفاههم يستحنون بها الأبقار ويستدرون لبنها :

ياشعاع الفجر هبنى — منك شيئًا من سنا
وأضئ بالله خطوا — ت حبيب ظعنا

ويردد الصبى البقار بصوته الرقيق على روى المقطوعة :

- ياسنا ... ياسنا ... ياسنا !

وتتعرف البقرة على الاسم الذى وضع لها والذى ناداها به البقار ، فتخور منادية عجلها ، ويسرع هذا بتلبية النداء ، فيدخل رأسه بين خشب السياج الفاصل بين حظيرته وحظيرة أمه ، ويفتح الغلام ذلك الباب الخشبى حتى يتمكن من الخروج إلى حيث أمه ، فيطبق بفمه على ضروعها ، فتحن وتدر اللبن ، بينما يغتنم الحالب الفرصة، فيبدأ العمل مالئًا وطابه من اللبن الدافئ وهو يربت بيده على جسد البقرة ويقول :

- أدرِّى ياسنا ... أدرى ! ...

وتنتفخ ضروع البقرة ، ويلتف العجل الرضيع حول رجل أمه ملتصقًا بها ، بينما تداعبه هى فى حنان لاعقة جسده بلسانها ، ويدا الحالب فى حركة دائبة تتركان وعاء من اللبن بعد امتلائه لتملآ غيره .

وتتردد فى جو الحظيرة أغنية أخرى :

إن الذى يشرب ماء ثوى — فى بؤرة مخبوءة آجنه
لم يدر إن كان ارتوى طيبًا — أو استقى من مائها منتنه
كالمبتنى بامرأة أرضها — غريبة ، مجتنبًا موطنه
لم يدر إن كان بها مؤويًا — قرينة للسوء أو محصنه

ويعود الغلام البقار إلى نداء بقرة أخرى على روى الأنشودة :

- سوسنه ! سوسنه !

فتهرع البقرة التى اعتادت اسمها وألفته إلى حيث كان الحالب حتى تضع ضروعها بين يديه .

وتتردد فى جو الفجر البارد أصوات الحالبين هازجة بمقطوعات أناشيدهم وهى تشق صمت المروج ، بينما تفوح فيها روائح روث الماشية ، وتبدأ أشعة الصباح فى الانسكاب على السهول ، فتموج فيها الأصوات والروائح المختلطة : نفحات الأعشاب التى رطبتها ريح السحر الباردة ، وشذا الزهور البرية الزكى النافذ ، ونعيب الطيور المائية المحومة على الجبل المطل على ضفاف القناة ، وأذان الديكة مبشرة بقدوم الصباح ، وهديل بلابل السهول الرتيب ..

وفى المساء تعود قطعان الماشية إلى الحظائر ، وأشعة شمس الأصيل تستلقى فى تثاقل على بساط المروج ، ومن ورائها حداء الرعاة وأغانيهم... لقد حفلت ضروع البقر ، وفى الحظيرة الصغرى حيث تتزاحم العجول الرضيعة مشافر رقيقة ظامئة متلهفة . و«ريميخيو» ينظر إلى الضروع المنتفخة ثم يقدر حساب مقادير الجبن التى سيتهيأ له إعدادها . أما حفيده الصغير خسوسيتو فهو جالس يراقب باب الحظيرة ، ويتأمل المروج الواسعة ، وينصت إلى أغانى الرعاة ... أغانٍ مستطيلة النغمات ، وألحان هى وليدة هذه الأرض الفسيحة الموحشة !

ولكن ريميخيو أقبل يومًا على سانتوس ، وقد أظلمت أسارير وجهه ، ثم جلس فى صمت .

وسأله سانتوس :

- ما الذى أتى بك يا عم ؟

فأجاب الشيخ فى صوت عميق متهدج بطئ النبرات :

- لقد أتيت لأنهى إليك أن النمر قد افترس حفيدى الصغير فى ليلة الأمس ، كان الحالبون قد ذهبوا إلى حفلة من حفلات رقص «الخوروبو» وبقينا فى «المجبنة» أنا وخسوسيتو وحدنا ، ولم أستيقظ فى منتصف الليل على صرخة الصبى حتى كان كل شيء قد انتهى ، فإن النمر كان قد ذبحه بضربة قاتلة من قبضته ، وتمكنت أنا من طعنه بحربة ، وأصبح الصباح على جثتى الصبى والوحش ممددتين ... لقد أتيت لأبلغك أنه لم يبق لى من أعمل من أجله .

- نعم ... دع المجبنة يا ريميخيو . إنه ليس فى الضيعة من يستطيع التكفل بأمرها بعدك . أما الماشية فلتعد إلى التوحش كما كانت .

* * *

انتهى موسم جمع ريش البلشون ، وأقبل أنتونيو على سانتوس ليبلغه النتيجة :

- ربعان كاملان جمعناهما من الريش . الآن ستستطيع ياسيدى أن تحقق مشروع السياج الفاصل بين ضيعتك وضياع الآخرين ، فالريش الآن غالى الثمن فى هذا الموسم ، وأنا أقدر ثمن المحصول الذى جمعناه بأكثر من عشرين ألف «بيزو» ، فإذا لم يكن لديك رأى آخر فإنى أقترح أن نبعث كارمليتو بهذا المحصول ليتصرف فيه بالبيع ، وأن نكلفه فى عودته بأن يشترى فى سان فرناندو ما نحتاج إليه من الأسلاك الشائكة اللازمة لتسوير الضيعة ، وقد قمت أنا بحساب ذلك . وفى هذه الأثناء يمكن لنا أن نقيم وضع أعمدة السياج الخشبى التى دمرتها الحرائق ، هذا إذا كنت لا تزال تفكر فى مسألة التسوير .

وكانت فكرة التسوير التى أراد سانتـوس منذ البدء أن تكون أساسًا للعمل الحضارى الذى أراد أن يضطلع به في السهول قد وجدت من أنتونيو ساندوفال معارضة فى أول الأمر، غير أنهـا لـم تلبث أن نفذت بعد ذلك إلى تفكيره حتى اقـتنع بهـا وأصبح من المؤيديـن المتحـمـسين لتنفـيذها . كـانت هذه هى غلبـة الحضـارة على التقليـد المتبع الذى لا يتطور . وشجـع سانتوس ذلك التـجاوب الذى رآه من قبل رجـاله وأتباعـه ، فبث ذلك فى نفسه مزيدًا من الإقـبال على مواصلة مشـاريعه الحضارية التى كـانت قد اضطرته إلى تأجيلهـا تلك الأعمال اليومية فى الضيعة .

ومضت أيام على الحديث الذى دار بين سانتوس وأنتونيو ، ثم رأى رجال ألتاميرا فارسين يدنوان من بيوت الضيعة .

وقال باخاروتى لرفاقه وهو يحد النظر إلى القادمين :

– إن هذين ليسا من أهل هذه الجهات .

وتساءل فنانثيو :

– ترى من يكونان ؟

فقال أنتونيو :

– سيأتينا النبأ حينما يصلان ، فإنى أراهما متوجهين إلينا .

واقتـرب الفارسـان الغريبـان ، كان أحـدهما يجـر معه عنان جـواد لم يره رجال ألتاميرا حـتى تعرفا فيه على دابة كارمليتو . وخـرج سانتوس عابرًا دهليز الدار ليستقبل القادمين ، فلما رآه الفارسان تقدم إليه أحدهما متسائلاً :

– هل أنت الدكتور لوثاردو ؟ لقد أتينا لننهى إليك خبرًا سيئًا كلفنا بإبلاغه إليك الجنرال بيرناليتى الحاكم المدنى لهذه المنطقة : لقد عثر رجال الشرطة هناك

فى أحد أدغال «مرج الشجرة» على جثة رجل يبدو أنه كان من رجال ضيعتكم . ولم يكن من الممكن لأحد أن يعرف من هو ، فقد كان جسده قد تعفن وأتى على أكثره الدود ، ولكن الرجال عثروا بعد ذلك على هذه الدابة المسرجة سارحة على مقربة من المكان الذى عثر فيه على الجثة ، ورأوا على أفخاذها سمة ضيعتكم ، فأمرنا الجنرال بأن نأتيكم بالجواد، وبأن ننهى إليكم الخبر .

وصاح أنتونيو وقد استبد به الألم والغضب المسعور :

- لقد اغتالوا «كارمليتو» !

وكتم باخاروتى أسفه وحنقه وسأل :

- ورفيق صاحب هذا الجواد الذى كان أخًا له ، والحمل الذى كان معه من ريش البلشون ... ما الذى كان من خبرهما ؟

فتبادل الرسولان النظرات ثم قال أحدهما :

- لم يكن أحد يعرف أن المتوفى كان يسير فى رفقة أحد ، ولا أنه كان يحمل شيئًا يستحق السرقة ؛ إذ إن فكرة رجال الأمن هى أن الرجل أصابه مرض باغته فى الطريق وهو فى وسط المروج ، فقضى نحبه من موت طبيعى ، فإذا كنتم أنتم تقولون إنه كان يحمل شيئًا قد يكون حافزًا على السرقة فإننا سوف نبلغ ذلك إلى الجنرال ؛ إذ فى مثل هذه الحالة ينبغى القيام بالتحريات اللازمة وفتح ملف للقضية .

فسأل سانتوس :

- إذن معنى ذلك أنه لم يقم أحد بالتحريات اللازمة بعد !

- كما قلت لك : إن رجال الأمن هناك يعتقدون ...

فقاطعه سانتوس :

- نعم ، لا داعى لتكرار ما قلت . إن رجال الأمن هناك لا يعتقدون إلا ما يعين على تدبير الجرائم ، وعلى أن تذهب دماء الناس هدرًا ، وعلى أن يظل المجرمون بمأمن من طائلة العقاب ، ولكن دم هذا القتيل لن يذهب هدرًا. أما المجرم فإنه لن يبقى طليقًا بمنجاة من القصاص هذه المرة .

وفى اليوم التالى اتخذ سانتوس طريقه إلى عاصمة الإقليم حيث مركز الحكومة المدنية . ها هى الساعة قد حانت لإقرار سلطان العدالة ؛ حيث لا سلطان إلا للإقطاع الغشوم والعنف الذى لا يخضع لقانون .

* * *

ولم تكد ماريسيلا تتحقق من غياب سانتوس حتى قررت أن تنفذ ما كانت تفكر فيه من مغادرة تلك الدار التى رأت الحياة فيها مستحيلة فى الأيام الأخيرة ، والعودة إلى بيتها القديم فى «مرج النخيل» فى موضع «لاتشو سميتا» ، فقد كانت ترى أن حياتها السابقة فى ذلك البيت هى الوحيدة الجديرة بها ، عملاً بقول المثل الذى لم يكن يفارق شفتيها فى تلك الأيام :

- «خير للمرء أن يحمل ثوبًا ممزقًا باليًا على أن يرتدى ثوبًا من الرقع» !...

أما لورنثو باركيرو فإن ابنته لم تعرض عليه الاقتراح حتى استطار له فرحًا ، فقد كان يريد منذ زمن طويل أن يضع حدًا لهذه الأكذوبة الجديدة : أكذوبة استقامته وإعادة بناء حياته من جديد . لقد كان يرى أن القدر قد خط مصيره ، وأن الهاوية التى كان يتردى فيها لم يكن بد من أن تلتقمه أخيرًا وتريحه من تلك الحياة ، فما قيمة التعلل بتلك الأمانى الكاذبة ؟ إنه سيعود إلى «مرج النخيل» لكى يستسلم مرة أخرى إلى سكراته التى لم يكن يستفيق منها ... هناك حيث مستنقع الطين والوحل الذى كتب عليه أن يستقر فى جوفه ضحية له .

وأجاب لورنثو باركيرو :

- نعم ، ستتوجه عائدين إلى المرج فى الغد بغير تأخير .

وفى صباح اليوم التالى اغتنمت ماريسيلا فرصة غياب أنتونيو الذى ما كان ليدعها تتخذ سبيلها إلى الهرب ، فأسرجت فرسها وجواد أبيها وانطلقا إلى بيت «لاتشوسميتا» فى مرج النخيل . وقطعا الطريق كله فى صمت . أما لورنثو باركيرو فقد كان يتطوح على ظهر حصانه لا يكاد يستقر عليه ، وأما ماريسيلا فقد كانت مغمومة ساهمة قد انقبضت نفسها وتجهمت أساريرها ، ولم تبلغ مشارف المرج حتى عاجت برأسها ملتفتة إلى الوراء ، وكانت قد بعدت عن ألتاميرا حتى لم تعد ترى شيئًا من معالم بيوتها ، فأقبلت تتمتم :

- سأوطن نفسى على أنه لم يكن إلا حلمًا وانقضى كما تنقضى الأحلام !

عادت ماريسيلا وأبوها إلى دارهما القديمة ، ولكن ذوق الفتاة الذى كان قد تهذب وعاداتها التى رققت الحضارة من حواشيها فى الفترة التى قضتها فى ألتاميرا أصبحت تمج هذه الدار القذرة البائسة . أما أبوها فقد ذهب ليتأمل بركة الوحل الرجراج كما كان يفعل دائمًا من قبل فى أثناء الفترات القصيرة التى كانت تتخلل سكراته المنكرة الدائمة . وأنزلت ماريسيلا سرجى الدابتين عن ظهريهما ، وشرعت فى ربط فرسها إلى عمود الحظيرة ؛ إذ كانت تعزم فى أول الأمر على الاحتفاظ بالمطيتين ، إلى أن يقدم أحد من ألتاميرا لكى يعود بهما إلى الضيعة ، ولكنها ذكرت فى هذه اللحظة تلك العبارة التى قالها كارمليتو ، والتى شبه فيها ما اضطلع به سانتوس من تعليم الفتاة وتهذيبها بما كان هو نفسه مشغولاً به من ترويض الفرس «كتيرا» واستئناسها . لقد رأت ماريسيلا أنه وقد عادت هى إلى موطنها الأول فإن «كتيرا» جديرة كذلك بأن تعود إلى حياتها البدائية الوحشية فى أرجاء السهول .

ونزعت ماريسيلا عن فم الفرس الكمامة التى كانت تغطيه ، ثم ربتت على ظهرها وهي تبكى وتقول :

- لقد انتهى كل هذا يا «كتيرا» فلنعد : أنت إلى مرجك ، وأنا إلى الجبل الذى كنت قد خرجت منه .

ثم زجرتها لتمضى طليقة حرة ، وجلست إلى فم البئر مجهشة بالبكاء .

أما «كتيرا» فقد جرت قليلاً ، مجربة هذه الحرية الجديدة التى ظفرت بها فجأة فى خطوات متزنة متشككة ؛ إذ لم تكن على ثقة بعد من أنها قد استعادت حريتها ، ثم تمرغت فى التراب ، وألقت بصهيل حاد ، ثم ركضت قليلاً وتوقفت بعد ذلك وقد مدت عنقها وقربت مابين أذنيها المنتصبتين ، والتفتت برأسها نحو ماريسيلا حتى تحققت أخيراً من أنها قد عادت حرة طليقة ، ثم قذفت بصهلة أخرى كأنما أرادت أن تجعلها تحية الوداع ، وغابت عن الأنظار فى المرج الفسيح الهائل .

وحدثت ماريسيلا نفسها قائلة :

- والآن علىّ أن أعود مرة أخرى إلى جمع أحمال الحطب من الغابة كما كنت أفعل . إن الذى كتب عليه الشقاء والحزن فما له أن يفرح ولو رددوا على مسامعه كل ما فى الدنيا من مرح الغناء !

ولكن «كتيرا» كانت تستطيع العودة إلى تلك الحياة الطليقة بين قطعان الخيول الوحشية ، أما ماريسيلا فقد كان من العسير عليها أن تباشر تلك الحياة البدائية من جديد ، فإن حاجات حياتها الحاضرة وقلقها بشأن حياتها المستقبلة كل ذلك، كان يعقد عليها الأمر ويزيدها من الهموم .

أما حاجات الحياة فى الحاضر فقد كانت كثيرة ملحة ، إلى حد أنها لم تكد تستعرضها فى هدوء واتزان حتى بدأت تتصور هول ما أقدمت عليه وبشاعته . لم تكن أحمال الحطب هى كل ما تحتاج إليه ، وإنما هو ما بعد ذلك من إشعال النار فى ذلك الحطب ، ثم إعداد شىء على تلك النار إذا مادنت ساعة الطعام ، ثم كل ما ينقص هذه الدار - إذا صح أن يطلق هذا الاسم على ذلك الكوخ القذر الذى كان يأوى إليه «شبح الباركيرينيا» - إنها ترى الآن كيف تسرعت فى قرارها بمغادرة بيت لوثاردو وهى تحت نفوذ ذلك الشعور الذى كان لا يفارقها لحظة واحدة : شعور خيبة الأمل فى حب كان هو عصارة حياتها وسر سعادتها . إنها ترى الآن كيف لم تفكر - وهى فى غمرة ذلك الانفعال - فى أن ساعة تناول الطعام ستحل فى كوخ «مرج النخيل» دون أن تعرف ما تأكل ، وأن ساعة النوم ستحين دون أن تعرف أين يستقر جنباها . فإن الحصيرة التى كانت تأوى إليها فيما مضى لم تعد بالفراش اللائق ، بل إنها لم تعد حتى مجرد حصيرة بعد أن تمزقت كل ممزق .

وأما لورنثو باركيرو فقد كان مضى عليه وقت طويل وهو يعيش فى عالم بعيد عن الحقيقة حتى إنه لم يفكر فى مثل هذه الحاجات التى تتطلبها الحياة ، ثم إنه من ناحية أخرى لم يكن يهمه أن يخلو بيته من كل شىء : من مأكل أو ملبس أو مضطجع ، طالما توفرت له تلك الخمر الرخيصة التى لم تكن لتعوزه طالما بقى هناك مستر دينجر ، ولهذا فإن كل ما كان ينقص تلك الدار ما كان ليهمه فى قليل أو كثير .

صحيح أن ثمر شجر «الكيربيرى(*)» وسنابل الحبوب البرية التى تنمو فى الجبل مازالت الآن صالحة لكى تأخذ من غلتها ما تعالج به إعداد الخبز كما كانت تفعل من قبل ، وأنها لو عادت إلى نبش الأرض فيما حولها فإنها ستجد من درن البطاطس ومن ثمار الموز البرى ما يصد عنها وعن أبيها غائلة الجوع ، ولكنها أصبحت الآن تتقزز من مثل هذا الطعام البدائى الفج ، ثم إنها لم تعد

تلك المخلوقة الطليقة كأنها طير جارح ، ولا تلك الصبية الجسورة التى لا تخاف من وحشة الجبل المهجور ، والتى كانت تتوغل فى الأدغال وأكوام الشوك والحطب تتكسر تحت وقع قدميها الحافيتين الغليظتين أو تتسلق الأشجار منازعة القرود طعامها الوحشى من ثمارها .

ولم تكن المشكلة أمام ماريسيلا أنها فقدت تلك الجرأة والجسارة ، فهى لم تخل من هاتين الصفتين ، ولكنها تعلمت فى ألتاميرا أن تحسن استخدامهما ، فالأمر ليس الآن مجرد نبش الأرض لاستخراج الجذور أو التوثب على الأشجار للبحث عن طعام يومى يفى بحاجات الساعة ، وإنما هى ترى الآن أن لديها من التفكير والعقل ما يكفل لها البحث عن مورد ثابت مستقر للعيش ، ولكن هذا التفكير نفسه هو الذى يزيدها الآن قلقًا وهى تنظر إلى المستقبل ، ويضاعف من ألمها وهى تنظر إلى حاضر ليس فيه إلا العوز والحرمان . كان عليها أن تبحث عن مخرج تحل به هذه المشكلة وتخلق موردًا ثابتًا للحياة ، وكان أول ما خطر لها هو ما صارحت به أباها :

- أبتاه ... أليس لى الحق فى أن أطالب أمى بأن تدع لى من المال قدرًا يكفل لى مطالب الحياة ؟ إننا هنا نتضور جوعًا بينما تدفن هى فى أرضها قدورًا قد ملأتها بما كنزته من قطع النقود الذهبية .

وبدا على لورنثو باركيرو أنه يقوم بمجهود فوق طاقة البشر لكى يرتب أفكاره حتى يستطيع الجواب ، وأخيرًا نطق قائلاً :

- حق ؟ ليس هناك أى حق ... إذ إن اسمك الذى أثبت فى سجل المواليد لم يكتب معه أنك ابنتها ، فهى لم ترد أن تسجل باعتبارها أمك ، ولهذا فقد اضطررت أنا أن أقول ...

ولكنها لم تتركه يكمل عبارته ؛ إذ قاطعته قائلة :

- هل معنى ذلك أنه ليس لى أى حق حتى فى أن أثبت أمام الناس أننى ابنة «الساحرة الخبيثة» ؟ .

وبقى الأب ينظر إليها نظرة طويلة ، ثم قال فى تلعثم :

- ولا حتى هذا الحق ...

نطق الرجل بهذه الكلمات التى لم تكن إلا تكراراً آليًا لما قالته هى فى سؤالها ، دون أن يبدو فى لهجته أدنى شعور بالتبعة ، كأن الأمر لا يتصل به على الإطلاق ، ولم يلبث بعد ذلك أن نهض عن مجلسه خارجًا من الكوخ فى طريقه إلى بيت مستر دينجر.

وبدا على ماريسيلا أنها ندمت على قسوة هذا السؤال الذى وجهته إلى أبيها فى لهجة اتهام ، ثم ظلت فى مكانها تتمتم : «مسكين !... أبى ... !» ، بينما كان الرجل يبتعد عنها وهو فى مشيته المترنحة ، وذراعاه يتطوحان عن يمين وعن شمال ، وهما يتدليان من ذلك الجسد الذى «تفككت مفاصله» على حد تعبيره هو حينما كان يتكلم عن نفسه .

ولكنها تنبهت بعد ذلك إلى أن أباها فى طريقه إلى دار الأمريكى ، فجرت وراءه لتقطع عليه سيره وهى تقول فى استعطاف :

- لا يا أبى ، نشدتك الله ألا تذهب إلى بيت ذلك الرجل . أتوسل إليك ألا تفعل . أهى زجاجة من الخمر تلك التى ستطلبها إليه ؟ انتظر هنا وسآتيك أنا بها من ألتاميرا ، ولن أتأخر فى العودة إليك .

وشرعت فى إسراج الجواد الذى أتى عليه أبوها ، ولكن هذا لم يتوقف بل مضى فى طريقه ليطفئ نار هذه الحاجة التى كانت تتسعر فى جسده إلى الكحول ، دون أن يقدر أنه لم يبق له ما يكن أن يدفعه ثمنًا لما سيمنحه مستر دينجر من الشراب إلا ابنته .

... وهكذا كانت الزوابع تهب ، ساحبة وراء ها ذيول الشؤم ، فتعصف بالأمل ، وتلوى بالرجاء ...

الفصل الثالث

السيد بيرناليتى ومصائب أخرى

كان لموخيكيتا دوافعه القوية التى تحدو به إلى محاولة الاستخفاء تحت رف مشربه حينما أطل من باب ذلك الحان شخص سانتوس لوثاردو . فقد كان تدخله الذى حاول أن يخدم به زميل دراسته القديم فى أمر ذلك النزاع الذى نشب بينه وبين السيدة باربارا قد ألحق به أبلغ الضرر ؛ إذ إن السيد بيرناليتى لم يتردد فى أن يطرد موخيكيتا فى أعقاب تلك القضية من الوظيفة التى كان يتولاها باعتباره سكرتير إدارة الحكم المدنى ، ثم إنه كان يقدر أن ما أتى من أجله سانتوس لوثاردو الآن قد تترتب عليه نتائج أوخم بالنسبة إلى مستقبله ، ولهذا فقد رأى الخطر يتهدد ذلك المرتب الصغير الذى تفضل السيد بيرناليتى عليه بالعودة إلى منحه إياه بعد رجاء واستعطاف كثير منه ، وشفاعة من امرأته ، ووعود متكررة منه بألا يعود إلى زج نفسه فيما لا يعنيه من الأمور ، كأنما هو موكل بإنصاف المظلوم وإقامة المعوج كما كان «دون كيخوتى» يعتبر نفسه فى غابر الزمان .

غير أن سانتوس لم يدع له فرصة الاستخفاء ، وهكذا اضطر موخيكيتا إلى التظاهر بالاغتباط لرؤيته :

– ما أسعد عينًا نظرت إليك ! وما أغلى ما تبيع فرصة لقائك يارفيق الصبا ! أى شىء أتى بك ؟ وهل فى وسعى أن أخدمك فى شىء ؟

– إذا كان ما لدى من أخبارك صادقًا فلابد أنك تعرف ما الذى أتى بى إلى هنا . لقد خبرونى أنك أصبحت قاضى هذه المنطقة .

فتوقف موخيكيتا لحظة ثم قال :

- نعم . ذلك صحيح ، وأنا بالفعل أعرف الأمر الذى حدا بك إلى المجىء . هو حادث موت ذلك الرجل من رجال ضيعتك . أليس كذلك ؟
فأجاب لوثاردو مصححًا :

- الرجلين ..، فهما الاثنان اللذان قتلا .

- قتلا ؟ أى شيء هذا الذى تقول ياسانتوس ؟ أفى الأمر جريمة قتل ؟ تعال معى إذن إلى دار المحكمة حتى تقص علىّ الخبر كله .

- حتى أقصه أنا عليك ؟!.

- لا ... معذرة ! بل لتنيرنى فى بعض التفاصيل ، ولتقول لى ما الذى ينبغى أن أفعل .

ونظر موخيكيتا حواليه ثم قال :

- هيا ... هيا بنا .

وكانت نظرة الرجل إليه وهو يقول ذلك بليغة مغنية عن قوله : «ألا ترى أين نحن الآن ؟».

ووصلا إلى دار المحكمة ، ففتح موخيكيتا بابها بدفعة قوية من جسده ؛ إذ كان الباب مقفلاً بلا مفتاح ولا مزلاج، دون أن يحميه إلا هبوطه عن مستوى أرض الطريق ، ودخلا إلى قاعة لها سقف من الخوص والسعف وقد بيضت جدرانها ، وفى صدرها مكتب وصوان ، وأمام المكتب ثلاثة كراسى ، وفى ركن من أركانها دجاجة قد حضنت بيضها ورقدت عليه فى هدوء . وتقدم موخيكيتا من أحد الكراسى لكى يقدمه إلى سانتوس ، فنفض عنه طبقة كثيفة من التراب مثيراً فى المكان كله عاصفة من الغبار ، وكان من الواضح أنه لم يكن أحد هناك يتقدم بأى شكوى أو قضية لتنظر فى ساحة هذه «المحكمة» !

وجلس سانتوس متهالكًا على نفسه ، لا لما أصابه فى مسيره من مشقة الطريق وطوله فحسب ، بل لشعور التقزز الذى أثاره فى نفسه ذلك البلد ، وتلك «المحكمة» ، وهذا «القاضى» !

ومع ذلك فقد استرد أنفاسه محاولاً أن يعتصر أقصى ما يستطيع من فائدة فى هذه الرحلة التى اضطلع بها ، فشرح لموخيكيتا القصة كلها مبينًا أن كارمليتو كان قد فصل من الضيعة يرافقه أخوه «رافائيل» بحمل كبير من ريش البلشون فى طريقه إلى «سان فرناندو» ليبيعه هناك .

فلما أتم سانتوس القصة حك موخيكيتا رأسه ، ثم تناول قبعته مستعداً للخروج وهو يقول :

- انتظرنى هنا لحظة ، فأنا أريد أن أقص ذلك على الجنرال ، ولابد أن يكون الآن فى مكتبه بدار الحكومة المدنية ، ولن أغيب عليك كثيرًا .

فاعترض سانتوس قائلاً :

- ولكن ... أى علاقة للحاكم المدنى بهذا الموضوع ؟ ألم تمض على وقوع الجريمة الأيام التى حددها القانون لكى ينتقل ملف القضية إلى القاضى المختص ؟.

فصاح موخيكيتا :

- سبحان الله ! ما أقل صبرك يا أخى ! انظر ... إن الجنرال رجل ليس من السوء بحيث تظن، ولكنى أقول لك- وهذا الكلام فيما بيننا - إنه يريد أن يكون صاحب الرأى فى كل شىء : سواء فى الأمور المدنية أو القضائية ، فليس هنا شىء يفعل إلا بإذنه وعن إشارته . وهو الآن مقتنع تمامًا بأن الرجل مات ميتة طبيعية ... من مرض مفاجئ دهمه فى الطريق كما يقول ، ومعنى ذلك أنه

مات بسكتة قلبية . وبهذه المناسبة - إذ ينبغى أن نواجه كل الفروض الممكنة - ألم يكن ذلك الرجل يعانى نوبات قلبية ؟

ولكن سانتوس لم يستطع أن يتحمل المزيد فقاطعه وقد نفد صبره ، وهو يهب من مجلسه فى عنف :

- ولكن ... أى سكتة قلبية وأى هراء هذا الذى تقول ؟ إن الذى سيصاب بهذه السكتة من جراء الخوف والجبن هو أنت ، إذا لم تكن قد أصبت بها فعلاً !...

وابتسم موخيكيتا وهو يقول :

- خفض عليك يافتى ولا تدع الهياج يملك عليك نفسك ؛ ضع ، ضع نفسك فى موضعى أنا ، أو فى موضع الجنرال . إن الظروف ترغمنا على أن نحسب لكل شىء فى الحياة حسابًا ، وأنا مفشٍ إليك الآن بسر من أسرار العمل : لقد وصل إلينا هنا منذ أيام منشور دورى وَجهه رئيس الجمهورية إلى جمَيع الحكام المدنيين بشأن عمل كل منهم فى منطقته ، وقد ألقى عليهم فى ذلك المنشور سيلاً من التأنيب والتعنيف الشديد من أجل عدة جرائم ارتكبت فى أقاليم البلاد دون أن تهتدى السلطات إلى جناتها ، وأنذرهم جميعًا بأن أشد العقاب سيحل بمن يقصر منهم فى أداء واجبه فى الضرب على الإجرام والمجرمين بيد من حديد . أما الجنرال فقد أرسل إلى رئيس الجمهورية جوابًا عن كتابه يقول فيه إن الإجرام لا ظل له فى هذه المنطقة الموكول إليه حكمها ، وقد توليت أنا بنفسى كتابة هذا الجواب وصياغته ، وبلغ من رضا الجنرال وإعجابه بما حررت له فيه أنه أمر بطبعه فى نشرة مستقلة ليوزعها على أوسع نطاق ، ولعلك رأيت منها بعض النسخ هنا . وأنا أكرر عليك أن هذا الكلام ينبغى ألا يتجاوزنا نحن ، فهو سر خطير أفضيت بهَ إليك بحكم الصداقة ،

وأظنك ستكون حريصًا على كتمانه ؛ أما عن قضية هذا الرجل - أو هذين الرجلين بتعبير أصح - فلعلك قد قدرت أن احتمال موتهما قتيلين لم يغب عني ، ولكن ... عليك أن تقدر الموقف في هذه اللحظات وبعد صدور ذلك البيان الذى نشره الجنرال وأذاعه فى كل مكان . إن القول بأن فى الأمر جريمة ، وأن الوفاة لم تكن قضاء وقدراً شيء بعيد عن السياسة وبعد النظر... على الأقل فى هذه الظروف .

غير أن سانتوس لم يتمالك نفسه من الصياح وقد تزايد غضبه :

- نعم ... وقد نسيت أن تقول فى تعداد هذه الظروف إنك تعمل هنا من أجل إرضاء السيد بيرناليتى لا لتحكم بالعدل أو لترد الحقوق إلى أهلها !.

وهز موخيكيتا كتفيه وهو يقول :

- أنا أعمل هنا حتى أهيئ لأبنائى ما يسد فراغ بطونهم من الخبز ؛ إذ إن ما يأتينى من دخل المشرب لا يكفى لسد ذلك الفراغ .

ثم أضاف وهو يتهيأ للخروج :

- انتظرنى قليلاً، فنحن لم نفقد كل شيء بعد ، والآن دعنى لكى «أصارع ثورى».

وعاد موخيكيتا بعد ذلك بلحظات وقد بان القنوط والحنق في وجهه وهو يقول :

- ألم أقل ذلك ؟. إننى أعرف دائمًا ما كتب عليَّ من مصير . لقد ساء الجنرال أنك توجهت إليَّ أنا أولاً قبل أن تقصده ، ولهذا فإنى أنصحك بأن تذهب الآن إليه وتحاول استرضاءه حتى تطويه تحت جناحك ، فما كان لأحد هنا أن يبلغ منه ما يريد إلا إذا اتبع هذه الوسيلة .

وهم لوثاردو بالاعتراض والاحتجاج على هذه النصيحة ، ولكنه فوجئ قبل أن يفتح فاه بظهور الحاكم المدنى على باب القاعة .

وكان الأمر كما قال موخيكيتا ، فقد ساء السيد بيرناليتى أن يتوجه سانتوس إلى القاضى دونه ، وزاد القضية سوءاً أن سانتوس قد أتى بتفاصيل جديدة كان من شأنها أن تقلب ذلك الوضع المريح الذى اتخذه الحاكم المدنى حينما استنام إلى أن الوفاة كانت طبيعية لا بفعل فاعل . لقد كان بيرناليتى بطبعه الفظ المتوحش لا يفهم السلطة الموكولة إليه إلا على معنى واحد : هو أن تكون كلمته وأوامره مطاعة نافذة لا تقبل جدلاً ، وإذا كان لا يحتمل أن يناقشه أحد فى عمله فما كان أقل احتماله لرجل مثل سانتوس أتى لكى يعترض عليه متمسكًا بأهداب القانون ومتوجهًا إلى مرءوسيه قبل أن يقصد بابه أولا .

دخل بيرناليتى القاعة وقبعته على رأسه لم يخلعها ويداه مشغولتان : فى اليسرى سيجار ضخم كان قد انطفأ ، وفى اليمنى علبة ثقاب ، وكان يحمل تحت إبطه الأيسر ذلك السيف المودع فى قرابه الجلدى ، وكان لا يدع السير به أينما توجه دون علة ولا ضرورة .

ولم يتفضل بيرناليتى على سانتوس بإلقاء التحية إليه ، بل توجه إلى مكتب موخيكيتا فألقى عليه بسيفه ، ثم انهمك فى حك عود الثقاب وإشعال سيجاره وهو يقول :

- إلى متى سأظل أقول لك ياموخيكيتا إننى لا يعجبنى أن يتدخل أحد فيما أقوم به من عمل ؟ لقد قلت لك إن ذلك الموضوع الذى يهتم به هذا السيد من شأنى أنا وحدى ، وأنا الذى أتولى العمل فيه حتى نهايته ، وليس لأحد أن يدلنى فيه على ما يجب أن أفعل .

فقاطعه سانتوس قائلاً :

- اسمح لى ياسيدى بأن أذكرك بأن هذا الموضوع قد أحيل على السلطة القضائية ، وأصبح من اختصاصها وحدها .

وكان سانتوس بعبارته هذه قد ألقى عرض الحائط بكل ما اجتهد موخيكيتا فى أن يدلى به إليه من نصائح ، فقد كان الكلام أمام السيد بيرناليتى عن أى اختصاص غير اختصاصه هو بمثابة إعلان الحرب عليه .

وأسرع موخيكيتا إلى التدخل ، فأقبل فى فأفأة وتلعثم يقول :

- ومع ذلك فأنت تعلم ياسانتوس أن ...

غير أن السيد بيرناليتى لم يكن فى حاجة إلى مساعدة ولا تنقصه الصراحة الخشنة ، فأجاب فى تهكم واستخفاف بينما كان يشد أنفاسًا من سيجاره حتى يشتعل :

- نعم. شىء من هذا الذى يقوله السيد قد سمعته هنا ، ولكن الذى رأيته ، والذى هدتنى إليه التجارب هو أنه لا يجتمع قاض ومحام فى مكان - إذا تركا وشأنهما - للحديث عن قضية واضحة جلية إلا اكتنفها الغموض والإشكال ، فإذا كانت تستحق يومًا واحداً فلابد أن تستطيل وتمتد حتى لا تكفى لها سنة كاملة ، ولهذا فإنه إذا وصلت إلى هنا أى شكوى أو عرضت قضية فإننى أنزل إلى الشارع ، فأسأل وأتحرى حتى أعرف من المحق ومن المخطئ ، ثم آتى إلى هذا المكتب، وأقول للسيد الجالس إليه : «ياموخيكيتا ياقاضى المنطقة . إن المحق فى هذه المسألة هو فلان ، فأصدر الحكم على الفور فى صالحه !» .

قال ذلك وهو يهوى على مكتب موخيكيتا بسـيفه الدكتاتورى رمز سلطته وطغيانه ، وكان قد التقطـه من المكتب من قبل ، وجعل يلوح ويشير به فى أثناء كلامه .

وأثارت الكلمات أعصـاب سانتوس حتى كاد يفقد السـيطرة على نفسه ، فأجاب فى شدة :

- إننى لم آت إلى هنا للشـكوى ، وإنما مطالبًا بأن تتـحـقق العدالة وتأخـذ مـجراها الـطبيـعى ، ومع ذلك فـإننى تواق إلى أن أعـرف أى اسم تطلقـه على العدالة إذا كنت تجريها على هذا النحو الغريب !...

فأجـاب بيرناليتى وقـد عاد إلى استـخفافـه وتهكمه . فقـد كان الرجل فى الحقيقة لايخلو من دعابه وميل إلى المزاح :

- أنا أسمى هذا «وضع النقط على الألفات» ! ألست تعرف هذه القصة ؟ سألقى إليك بها إذن فـهى قصيرة : كان رجلاً من هؤلاء الذين يسـميهم الناس أجلافا غلاظًا ، ولكنه كان أبعد ما يكون عن مظنة الغفلة والبلاهة ، وكان كثيراً ما يسمع ممن يدخل إليه من المثـقفين فى أثناء الحديث قولهم «وضع النقط على الحروف» ، على أنه كان أميًا حـاول أن يتعلـم القراءة والكتابة فلـم يوفق إلا إلى معرفة حرف أو حـرفين من أولى حروف الأبجدية ، فكان إذا أراد أن يستوضح أمراً من مـدير مكتبـه - فقد كـان الرجل رئيسًا له مكتب ومـدير مكتب - ناداه فقال لـه : يافلان ، استخـبر لى عن الأمر ، واجتـهد فى أن تضع لى النقط على الألفات» !...

وانفـجر مـوخـيكـيـتا ضـاحكًا من «نادرة» الجنرال و «خـفـة روحه» ، أمـا سانتوس فيبدو أن القصة لم تقع منه هذا الموقع ؛ إذ أجاب فى خشونة :

- إذا كانت هذه هى «طريقة الكتابة» التى تستخدمونها أنتم هنا فيبدو أننى قد أضعت وقتى فى المطالبة بتحقيق العدالة واحترامها !

فامتعض بيرناليتى وقال فى لهجة هى أقرب إلى الإنذار والوعيد :

- ستمضى العدالة فى طريقها .

وكان بيرناليتى مستبدًا غشومًا بطبيعته ، ولكنه كان فى الوقت ذاته ماكرًا داهية ، وإذا كان بحكم اعتداده بتصرفاته وبآرائه لا يقبل مناقشة ولا جدلاً فإنه كان إذا رأى وجاهة الرأى المعارض وقدرته على الإقناع فإنه سرعان ما كان يجد الطريقة التى تكفل له الأخذ به دون أن يبدو ذلك تراجعًا أو استسلامًا مادام يرى فى ذلك تحقيق مصلحة له ، بل إنه يفهم من حوله حينئذ أن ذلك الرأى هو ما خطر له أولاً ، وأنه ليس إلا من نتاج تفكيره ، ثم يقدم عليه الحجج والبراهين بنفس الطريقة التى اعتاد أن يقدمها بها حينما يعرض رأيًا من آرائه هو . أما تلك القضية التى جاء من أجلها سانتوس فإن المنشور الدورى الذى تلقاه من رئيس الجمهورية قد بث إلى نفسه بعض الخوف والتردد لاسيما بعد أن رأى من سانتوس عزمًا على إثارتها وتحريكها ، ولهذا فقد رأى المصلحة تقضى بأن يعدل عما قطع به أولاً من أمر «الموت قضاء وقدرًا» ، وهو الرأى الذى التزمه حتى تلك اللحظة ، ومن هنا فإنه لم يلبث أن أضاف إلى ما قال عبارة ملطفة ، وإن كانت لم تخل من اللهجة الوقحة التى اتسم بها كلامه :

- وعلى أية حال فإنه لم يكن من اللازم أن تتجشم هذه الرحلة الطويلة حتى تبلغنا بأن ذلك الرجل الذى عثرنا على جثته لم يكن وحده ، بل كان له رفيق فى رحلته ، فقد هدتنا تحرياتنا إلى ذلك ، وكان هذا هو الخيط الذى نتتبعه الآن حتى نقف على جلية الأمر .

أدرك سانتوس أن ذلك التمهيد إنما كان مقدمة للزعم بأن الرجل الآخر الذى رافق كارمليتو قد يكون هو نفسه مرتكب جريمة القتل ، وبهذا يطوى الموضوع و «يحفظ الملف» ، فأسرع يقول :

- أود أن أخبرك بهذه المناسبة أن ذلك الرفيق كان أخًا لكارمليتو ، وهما الاثنان من رجالي وموضع ثقتي الكاملة ، ولست أتردد في القطع بأنه هو الآخر قد اغتيل كما اغتيل أخوه .

فأحس بيرناليتي بالحرج والتورط بعد أن سد عليه سانتوس هذا الاحتمال الجديد الذي أراد أن يتحصن به . على أنه لم يعدم مخرجًا من ذلك ؛ إذ أجاب :

- لك أن تقطع بما تريد ، ولكن ما تقوله أنت شيء ، والتدليل على صحته وثبوته شيء آخر .

ثم التفت إلى القاضي الذي جعل يدير نظراته بين الرجلين في دهشة متبلدة ، وقال :

- وأما أنت ياموخيكيتا فلتتبين ما أقول : لا تهج عليَّ وكر الزنابير !

قالها وخرج من قاعة «المحكمة» مخلفًا وراءه صمتًا عميقًا كان غضبًا يتلظى في صدر سانتوس ، وجزعًا يعتمل في نفس موخيكيتا ، ولكنه كان صمتًا مطبقًا كاملاً لم يكن من العسير معه أن تتردد في القاعة أصوات الطرقات الخفيفة التي تدقها نقرات الفراخ الصغيرة في داخل البيض الذي كانت الدجاجة ترقد عليه في ركن من أركان الغرفة ، ولم تمض لحظات حتى كسرت الفراريج قشر البيض وانطلقت مرحة مصأصئة إلى هذا العالم الكبير : عالم النور والمتعة !

وبقي الرجلان صامتين ، ثم تحرك موخيكيتا ، فألقى نظرة على الشارع حتى تحقق من ابتعاد السيد بيرناليتي ، ثم عاد يقول لصاحبه :

- قلت إن الرجلين كانا يحملان معهما ربعين من ريش البلشون ! ثمنهما إذن يبلغ نحو عشرين ألف بيزو ... أليس كذلك ؟ ولكن هذه الثروة لن تضيع ياسانتوس ، بل إن ذلك بشير خير ، فإن الذي سطا على مثل هذا القدر لابد أن

يحاول التخلص منه بقدر ما يستطيع من سرعة ، فهى على السارق عبء ثقيل ، وأرجح القول إنه سيحاول بيعها بما يعرض عليه من ثمن ، ومن هنا يمكن لنا الاهتداء إلى الجانى أو الجناة .

ولكن سانتوس كان فى شغل عنه إذ كان مخلداً إلى تفكيره ، وأخيراً نهض عن مقعده لينصرف وهو يقول :

- لو أن أمى تركتنى هنا بدلاً من أن تحملنى إلى كاراكاس لتعلمت «طريقة الكتابة» التى ذكرها السيد بيرناليتى فى قصته ، ولكان الناس يدعوننى اليوم هنا لا الدكتور بل «الكولونيل سانتوس لوثاردو» على الأقل ... نداً لهذا المتوحش الهمجى ، ولعله حينئذ لم يكن ليجرؤ على أن يخاطبنى بمثل هذه الوقاحة التى خاطبنى بها .

فقال موخيكيتا وهو يحاوره :

سأقول لك شيئًا يا صاحبى : إن الجنرال ليس بحيث تظن من ...

ولكنه لم يجسر على إتمام عبارته بعد أن وجه إليه سانتوس نظرة قاسية غاضبة ، فغير اتجاه الكلام وقال :

- حسنًا ... قد انتهينا ، والآن هلم بنا نتناول كأسًا ، فإنى فى المرة الماضية لم يكن لدى من وقت حتى ما يكفى لدعوتك .

وغاظ سانتوس ما فى دعوة صاحبه من استخفاف وعدم تقدير الموقف فى مثل هذه اللحظات ، فأخذ يتأمله وقال وهو يصعد نظراته فيه ويصوبها .

ومن الحق أيضًا أن أقول إنه لم يكن أمثال السيد بيرناليتى يوجدون لو لم يوجد ...

وكان يوشك أن يكمل عبارته فيقول : «لو لم يوجد أمثال موخيكيتا» ، ولكنه تدارك نفسه ، فهو يتبين الآن أن هذا الشقى لم يكن إلا ضحية من ضحايا هذه الهمجية التى تذل أعناق الرجال وتنضب ماء كرامتهم ، ولهذا فقد تحول شعور الغضب فى نفسه إلى إشفاق ورثاء وهو يجيب على دعوته البلهاء بقوله :

- لا ياموخيكيتا ... إننى لم أصب بعد بداء الخمر !

وأقبل زميل دراسته القديم يتطلع إليه بتلك النظرات الغبية المتبلدة التى كان يرمقه بها حينما كان سانتوس يشرح له دروس الفقه الرومانى فى زمن الدراسة دون أن يفهم ما يعنيه ، ولكنه لم يلبث أن ابتسم فى بلاهة وقال :

- آه ... ياسانتوس لوثاردو ، مازلت كما كنت ، لم تتغير أبداً ياولد !... ما أشد شوقى إلى أن أجلس إليك فنتحدث طويلاً عن ذكرياتنا الماضية ، ولكن أظن أنك لن تذهب الآن . أليس كذلك ؟ لا ... لا ترحل الآن واترك ذلك إلى الغد . أما الآن فاذهب لتستريح قليلاً ، وسأمر عليك بعد ذلك فى الفندق ، ولست أرافقك إليه إذ علىَّ أن أنتهى فى مكتبى من أمر عاجل ؛ فإلى اللقاء بعد قليل .

ومضى سانتوس ، أما موخيكيتا فقد بقى لحظة حتى تأكد من أن صاحبه قد عبر الشارع وابتعد فى طريقه ، وحينئذ أغلق باب المحكمة وهرع إلى مكتب السيد بيرناليتى حتى يستطلع نواياه بشأنه .

ووجده هناك فى مكتبه وحيداً وقد استبدت به الثورة والانفعال ، وهو يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ويحدث نفسه قائلاً :

- لأمر ما لم يعجبنى هذا الصبى المغرور المتعجرف منذ أن رأيته لأول مرة ... ألا تباً لهؤلاء المشاغبين الذين لا هم لهم إلا تقديم الشكايات والتنقيب عن القضايا ! لو أن الأمر بيدى لأودعتهم جميعاً قرارات السجون .

ولم يكد يرى موخيكيتا الداخل إليه حتى صاح به :

- موخيكيتا !... هات لى هنا ملف هذه الـ ... ـبـاذنجانة ... أعنى قضية تلك الجثة التى عثر عليها فى «مرج الشجرة» .

وذهب موخيكيتا ، ثم عاد وفى يده ملف القضية ، وكان السيد بيرناليتى لايزال يتمشى فى الغرفة فى هياج ، فما رأى القاضى مقبلاً صاح به :

- والآن اقرأ علىَّ الفقرة المتعلقة بجثة الميت كيف كانت حينما تم العثور عليها . دع الديباجة والمقدمات وادخل فى الموضوع رأسًا .

وقرأ موخيكيتا :

- «وكان يبدو على الجثة أعراض التحلل البالغ ...» .

فقاطعه السيد بيرناليتى :

- أعراض ؟... أى أعراض إذا كانت الجثة قد أَرَمَّتْ وأتى الدود على كل شىء فيها ؟ إنك هكذا لا تكتب شيئًا إلا تقعرت فيه وتفاصحت كأنما تنظم قصيدة شعر !... وبهذا تزيد من تعقيد الأمور وتوسيع خروقها ... حسنًا . امض فى قراءتك .

- «... ولم يكن من الممكن تبين جروح ولا كسور فيها ».

فعاد بيرناليتى إلى مقاطعته وهو يطلق زفرة خانقة :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ لم يكن من الممكن التبين ! ولماذا ذهبت أنت إذن إن لم يكن لتتبين ما يوجد ؟ كيف تخرج علىَّ الآن بأنك لم تتمكن ؟

فأجاب موخيكيتا فى تلعثم :

- سيدى الجنرال . تذكر أنك قلت لى ...

ولكن الرئيس لم يتركه ليكمل عبارته ؛ إذ عاد يصيح فيه :

- لا تأتنى الآن بأننى قلت لك ... فأى حاجة تقتضى منى أن أقول لك ما ينبغى عليك أن تفعل من أجل أداء واجبك ؟ ألست تتقاضى مرتبًا لأداء هذا الواجب ؟ أم أنك تريد منى أن أقوم أنا بالعمل الذى هو من صميم اختصاصك باعتبارك قاضى المنطقة ؟... حتى يأتينى بعد ذلك هذا الغلام الذى يدعونه «الدكتور» لكى يتشدق أمامى بالكلام عن الاختصاصات !... ألم تقرأ الكتاب الذى وجهته منذ أيام إلى السيد رئيس الجمهورية ؟ لقد عرضت فى هذا البيان القواعد التى أسير عليها فى عملى باعتبارى موظفًا فى الدولة ، وشرحتها بكل وضوح ؛ إذ إننى فى كل ما أكتب لا أعمد إلى التفيهق بالكلمات الطنانة الجوفاء ، بل أقول كل شىء كما هو ، وكما ينبغى أن يقال ... فى إيجاز وصراحة . والآن بعد أن تلقى السيد الرئيس بيانى ذلك تأتى هذه القضية وما زججت أنت فيها من هذا الكلام المنمق الملتوى ، فيظن رئيس الجمهورية أننا أردنا أن نهيل التراب على جثة «مرج الشجرة» قبل أن نتحقق من أن هذا الميت توفى قضاء وقدراً أو أنهم قتلوه لكى يسرقوا ما يحمل !... سأتولى أنا الأمر بنفسى ، فألق إلىَّ بهذا الملف .

وانتزع بيرناليتى ملف القضية من يد موخيكيتا فى عنف ، ومضى يقرأ بعينيه وهو يحرك شفتيه ويبتلع ريقه . أما موخيكيتا فقد قدر من وراء كل ذلك أن السيد بيرناليتى يسعى إلى «مد قنطرة» تسعفه فى التراجع الذى كان عازمًا عليه عن رأيه الأول بعد أن كان هو نفسه الموحى به إلى موخيكيتا ، وشجعه ذلك إذ رأى فيه بارقة خير ، فقال مشيراً إلى رئيسه بالمخرج الذى يمكن أن ينفذ منه :

- انظر ياسيدى الجنرال إلى ما جاء فى الوصف من أنه لم يرد نص صريح على أن الوفاة كانت قضاء وقدراً .

ولكن السيد بيرناليـتى كان فى عدوله عن رأى تمسك به وتمادى فى الدفاع عنه أشبـه ما يكون بالحـصان الجـموح الذى لا يتـمكن من القذف بفـارسه عن ظهره حـتى يقبل علـيه ، فيطأه بقـوادمه فى شـراسة وعنف ، ولهـذا فإن عـبارة موخيكيـتا التى رأى فيها التلويح له بأنه فى طريقـة إلى العدول عن رأيه السابق زادت من هياجه وغضبه ، فصب جام سخطه على القاضى المسكين قائلاً :

– ومـا الذى كـنت تريد أن تقـول بذلـك ؟... هل تسـتطيـع أن تؤكـد أن الرجل لـم يمت قـتـيلاً ؟ ثـم ما الذى يزج بقـاضى ابتـدائى مـثلك فى مـثل هذه التـفاصـيل التى لـم يفـرضهـا عليك أحـد ؟ إن كل مـا عليك هو أن تصف فى تقريرك مـا رأيت بعينيك دون أن تتجاوزه إلى مـا ليس من شأنك . وهل طلب إليك أحد أن تبدى آراء ك النيرة حول أسـباب الوفاة ؟

– لا ياسيدى الجنرال . لم يطالبنى أحد بذلك على الإطلاق .

– إذن ... من أين أتت كل هذه الجلبـة وإلى أين ستؤدى بـنا ؟ اسمع : إذا كنت أنت قمت بعملك كما ينبغى ففى وسعك أن تطمئن وتستريح . وقد قلت أنا لصـديقك المحـامى هنا أن يذهب هادئ البـال ؛ إذ إن العـدالة سـتتحـقق وسيـعود كل حق إلى أهله . واذهب أنت أيضًـا إليه ، فأنت تـعرف أين ينزل ، فكرر عليه ما قلت : إن العدالة ستتحـقق لأننى أتولى الأمر بنفسى وأتتبعه بكل اهتمـام منذ هذه اللحظة . وهكذا يذهب عنا مطمـئنًا إلى داره ، ولن يعـود بعد إلى مضايقتنا وإنفاد صبرنا بإلحاحه وثقل ظله .

– إذا أردت ياسيدى الجنـرال فإن بوسعى أن أسأله كذلـك عن الأشخاص الذين يتهمهم بتدبير تلك الجناية .

وعاد اقتراح موخيكيتا إلى إهاجة السيد بيرناليتى وإثارة غضبه فصاح :

– لا ياسيد !... لا تفعل إلا ما أقوله أنا لك ، ولا تحد عنه قيد أنملة !...

- لقد اقترحت ذلك على أنه شيء شخصى بينى وبينه .

فصاح فيه بيرناليتى :

- إلى متى ستظل هكذا إمعة أبله يا موخيكيتا ؟ ألم تفطن بعد إلى أننا لو انسقنا فى تيار البحث والتنقير فإننا سنجد أخيراً أن يد السيدة باربارا وراء كل ذلك ؟

وأجاب موخيكيتا فى تلعثم متعثر :

- إننى لم أقل ذلك إلا من أجل هذا المنشور الدورى الذى وصلنا من الرئيس .

- ألم أقل لك من قبل : إنك حينما تموت يا موخيكيتا فإن عليهم أن يكفنوك فى أكفان بيضاء لفرط سذاجتك ؟ ألا تعلم أن المنشورات الدورية التى تصدرها الرياسة لا تصل إلى «ضيعة الرعب» ؟ إن رئيس الجمهورية نفسه صديق حميم للسيدة باربارا، فهو يدين لها بأياد كثيرة لا يستطيع نسيانها : لقد أنقذت ولداً له كان مشفيًا على الهلاك بدواء أعدّته من بعض الأعشاب التى لا يعرفها غيرها ، ثم أشياء أخرى كثيرة ليست من الأعشاب فى شيء . اذهب فافعل ما أمرتك به ، فقدم إلى صديقك هذا «حساءً» كفيلاً بأن يلطف من توتر أعصابه حتى يغرب عن وجوهنا إلى داره وقد هدأت نفسه واطمأن قلبه ، وليدعنا نُسَوِّ الأمر هنا بمعرفتنا .

وخرج موخيكيتا من مكتب السيد بيرناليتى ، وهو مقتنع بأنه لا مفر له من أن يكفن بعد موته فى ثياب بيض كما قال رئيسه على الرغم من كل ما بذله من جهود فى سبيل إرضاء الله والشيطان فى وقت واحد . ومضى فى طريقه إلى فندق سانتوس وهو يقول لنفسه :

- مسكين سانتوس لوثاردو ! إن مبلغ العشرين ألف «بيزو» الذى كان يؤمل بيع الريش به قد انتهى إلى الأبد ، ولن يستعيد منه ريالاً واحداً ، ويالها من سخرية قاسية أن أكون أنا الرسول إليه لكى يذهب مطمئنًا هادئ البال !

غير أنه لم يكد يصل إلى الفندق حتى كان سانتوس يثبت قدمه على ركاب جواده متهيئًا للرحيل ، فاستوقفه موخيكيتا قائلاً :

- وهذه العجلة يافتى ... أى داعٍ لها ؟ اترك هذه الرحلة وأجلها إلى الغد ، فإن لدى أشياء كثيرة أود أن أقولها لكَ .

فأجاب سانتوس وقد استقام على صهوة الحصان :

- سوف تقول لى كل ما تريد حينما نلتقى من جديد ... ولن يتم بيننا لقاء حتى أدخل عليك وفى يدى سيف أقذف به على مكتبك ثم أقول لك : يا موخيكيتا ، ياقاضى المنطقة ، إن المحق فى هذه المسألة هو فلان ، فأصدر الحكم فى صالحه على الفور !».

وبدا على موخيكيتا كأنه كان يسمع هذه العبارة لأول مرة ، فتساء ل فى بلادة :

- ما الذى تريد أن تقول بهذا ياسانتوس لوثاردو ؟

- أريد أن أقول إن العنف يدفعنى إلى العنف ، وإنكم إذا كنتم قد رسمتم لى هذا الطريق فأنا ماضٍ فيه إلى النهاية . وداعًا يا موخيكيتا ، ولعلنا سنلتقى عما قريب !.

وانطلق فى طريقه مخلفًا وراءه عاصفة من الغبار تحت حوافر جواده ...

الفصل الرابع

طريقان مختلفان

كان أحد الرسولين اللذين توليا إبلاغ سانتوس لوثاردو بخبر ما حدث فى «مرج الشجرة» قد تلقى من السيد بيرناليتى الأمر التالى ألقاه إليه بتكليف خاص :

- اغتنم الفرصة وتوجه فى طريقك إلى «ضيعة الرعب» ، فإذا وصلت إلى هناك فاختلق أى حجة تخطر لك للكلام مع السيدة باربارا ، ثم ألق إليها بالخبر فى غضون الحديث كأنه آت منك لا على أنه رسالة موجهة منى إليها ، فإنه ينبغى أن يكون حديثك معها هى وحدها دون غيرها ، فاحرص على ذلك كل الحرص .

ولم تعلم باربارا بالخبر حتى ابتهجت به باعتباره ضرراً أصيب به خصمها اللدود .

وبعد ذلك بساعات وصل إليها نبأ عودة ماريسيلا وأبيها إلى دارهما القديمة فى «مرج النخيل» ، وسرعان ما وثبت إلى ذاكرتها تلك الكلمات التى سمعتها من «الشريك» منذ أيام :

- «كل شيء يعود إلى المكان الذى منه خرج !» .

ولكن تأويلها الآن لهذه الكهانة قد تحول إلى التفاؤل والبشرى لها بالخير ، فماريسيلا غريمتها فى حب سانتوس - وهى فى طريقها راجعة إلى المرج - ليست فى الحقيقة إلا ذلك الشيء الذى يعود إلى الموضع الذى خرج منه .

إنه إذن فأل طيب يدل أن حسن طالعها نجمة لم تأخذ بعد فى الأفول ، وحدثت نفسها قائلة :

- إن عناية الله مازالت ترافقنى وترعانى !

وبدأت فى التفكير فى خطة تتلاءم وتلك الظروف الجديدة ، حينما دنا منها بالبينو بابيا وهو يقول :

- أتعرفين الخبر ياسيدتى ؟

فقاطعته فى سرعة البرق دون أن تدع له فرصة المضى فى كلامه :

- أنهم قتلوا «كارمليتو لوبث» فى دغل مرج الشجرة ؟.

وارتسمت الدهشة على وجه بالبينو ، ثم صاح فى لهجة إطراء وتملق :

- سبحان الله ! أليس فى وسع المرء أبدًا أن يبيعك أخبارًا طازجة ؟ كيف عرفت بالنبأ ؟

- لقد أبلغت به ليلة أمس !

نطقت بهذه العبارة فى لهجة تعمدت أن تتشح بالغموض ، وأن تستخدم فيها صيغة البناء للمجهول حتى تعلم مخاطبها بأن «الشريك» الخفى هو الذى ألقى إليها بالخبر .

وسكت بالبينو لحظة ثم قال :

- ولكنهم لم يصدقوك القول ، فإن كارمليتو - على ما يظهر - لم يمت قتيلاً ، وإنما توفى وفاة طبيعية .

- وهل تظن أن طعنة فى الظهر أو رصاصة منطلقة من مكمن لا تكفيان لوفاة طبيعية تحل بأى نصرانى فى مكان مثل دغل مرج الشجرة ؟

ولم يكد بالبينو يسمع هذه الكلمات ، ويرى تلك الابتسامة الساخرة التى انطبعت على شفتى المرأة حتى أصابته وجمة ، وبدا عليه ارتباك شديد ، وأخيراً رأى ألا مخلص له مما انتشب فيه إلا أن يلوح لها بظنه أن الجريمة كانت من تدبيرها هى أو من ارتكاب أحد أعوانها ، فلم يفتح الله عليه إلا بقوله :

– ليس هناك من شك : إن لك أعوانًا خفيين يستطيعون ما لا يستطيع البشر !

وتقطبت أسارير باربارا فجأة ثم انفرجت بسرعة كعادتها إذا سمعت تعريضًا يغضبها ، وما كان تعريض بالبينو بقواها السحرية مما يقع منها موقع الرضا ، فتجهمت وصوبت إلى الرجل نظرة مهددة موعدة ، غير أن بالبينو كان قد تورط ، ولم يكن بد من أن ينهى عبارته ، فقال :

– يا لها من موافقات : الدكتور لوثاردو يسعى إلى وضع حد للسطو على مواشيه فى المروج التى ظلت حتى اليوم ملكًا مشاعًا ينهب منه كل ناهب ، وفيما هو فى سعيه إذا بتابعه «كارمليتو» يموت فى دغل مرج الشجرة ، وإذا بالرياح تطير ذلك الريش الذى كان يؤمل أن يقيم بثمنه سوراً منيعًا يحيط بألتاميرا !...

وعادت باربارا إلى اصطناع السخرية وهى تجيبه بقولها :

– نعم ... هكذا كان ، فإن العهد بالرياح التى تهب فى مرج الشجرة أنها عاصفة بالغة العنف !

واطمأن بالبينو قليلاً ، فجاراها فى لهجتها المتهكمة :

– ولما كان الريش خفيفًا لا مؤونة على الرياح فى حمله ...

فقالت هى مكملة :

– هكذا يبدو لى ... لابد أن الأمر كان كذلك .

غير أنهـا شخصت إليه ببصـرها تتأمله وتبتسم ، ثم أطلقت فـجأة ضحكة عالية ، وبدا الاضطراب والتوجس على بالبينو ، وخانـته حركاته ؛ إذ سرعان ما امتـدت أصابـعه إلى شـاربيه يلويهـما فى قلق وجـزع ، فزاد ذلك من ضـحك السيدة باربارا ، ولم يتمالك بالبينو أعصابه ، فسألها فى ريبة وسوء ظن :

- مم تضحكين ؟

- من شدة مكرك أيهـا المـاجن ، إذ تأتى لتقص على خـبر «مرج الشـجرة» وهو خبـر تعلم أنت أنه ليس جديدًا علىَّ ، ولكنك تعـرف كيف تحـرص على ألا تتعرض لمـا ترتكبـه من مباذل . لمـاذا لا تروى لى ما فـعلته خلال هذه الأيام المـاضية التى مرت دون أن تمتعنى فيها بالنظر إلى وجهك ؟

قالت باربارا ذلك فى بطء وهى تتـوقف قليلاً بين كل عبـارة وأخرى دون أن تفارق عيناها ما كان يظهر على وجه بالبينو من تغير الألوان وزيغ النظرات ، ولكنه هم بالجواب ، وكان قد أعـده من قبل حتى يبرر غيابه عن الضـيعة خلال الأيام المـاضية ، غير أنها أسرعت فقطعت عليه السبيل مكملة كلامها :

- لقد خبـرونى بأمر تلك المغامرة التى كـانت لك مع إحدى فتيات ضـيعة «باسوريال» ، وأنا أعلم أيضًا أنك كنت تصطنع السخـاء والبذخ ، فتدعو زمرة السـوء من أصدقـائك إلى حفـلات صاخبـة لرقص «الخوروبو» واصـلاً الليل بالليل فى سهـرة واحدة عربيـدة . لمـاذا لا تقص علىَّ خبر ذلك يـا أكبر الخبـثاء بدلاً من أن تأتينى بأخبار أنت أول من يعرف أنها لا تهمنى فى قليل ولا كثير ؟

وما كادت المرأة تنهى كلامها حتى ارتدت روح بالبينو إلى جسده ، فعاوده الاطمئنان والثقة ، وكانـت كلمات باربارا أشبه بمخدر جعله أكثر تبلدًا واستنامة مما كان عليه فى العـادة ، فقد ظن الغبى أن المرأة التى كان يعتبـرها خليلة مدلهة

فى حبه لم تكن مهتمة إلا بمغامراتـه الغرامية مع فتاة «باسوريال» ، فأجاب وهو يصطنع لهجة العشيق العاتب :

- إن هذا الذى قلت ليس إلا وشـاية لفقـها لى بعـض الأعداء والحـساد ، ولعل مخـتلقهـا هو ملكيادس ، فقـد تبينت أنه لا يكف فى الأيام الأخـيرة عن تعـقب خطواتى . نعم ، لـقد كنـت حقًـا فى حـفلة من حـفـلات «الخـوروبو» استـمـرت يومين فى «باسـوريال» ، ولكنى لم أكن الداعى إليـها ، ولا عـملت على التـغرير بأى فتـاة من هناك . كل ما هـنالك هو أننى لـم أكن أدنو منك فى هذه الأيام إلا وتلقيت ردًا مـخجلاً تجبهـيننى به ، ولهذا فقد رأيـت من الخير أن يختفى وجهى عن ناظريك ، وألا يتم بينى وبينك لقاء !...

وتوقف بالبينو لحظة حتى يرى ما تخلفـه هذه العبارة التى نطق بها فى رقة الحبيب المهـجور من أثر على وجه باربارا ، وكان قد غامـر بها دون أن يدرى ما إذا كانت ستـجد منها قبـولاً أو ستعود إلى صـفعه بجواب مـفحم ؛ إذ لم تكن المرأة تتـساهل مع مـثل هذه العبـارات إلا فى لحظات قليلة خـاطفة من الليـونة ورضا النفس ، غير أنه لم يظهـر عليها أنها استاءت لقوله ، فـشجعه ذلك على أن يتمادى فيقول :

- لقد بلغ منـى الحرج مبلغًـا كنت أفكر معه فى ترك الـعمل فى الضيـعة ، والمضى إلى أبعد مكان أستطيع الرحيل إليه ، فإن هذا الدور الذى حملتنى على تمثيله منذ أن قـدم الدكتور لوثـاردو إلى هـنـا لـم يكن لينـال من نفسى قـبولاً ولا ارتياحًا !.

أما بـاربارا فقـد واصلت تمثيل دور العـاشقـة الغيـور ، وكانت بارعـة فى كتـمان عواطفـها والتظاهر بغيـر ما تبطن ، حتى إن وجـهها لـم يكن يعـبر أدنى تعبير عما كانت تضمره من إحساس أو تبيته من تدبير ، فقالت فى رقة :

- حجج ومعـاذير تتعلل بها... إنك تعلم حق العلم ما أنـويه أنا بسانتوس لوثاردو ، ولكنكما- أنت وفـتاة «باسوريال» - تخطئان إذا كنتـما تظنان أن فى وسعـكما خـداعى ، وأنا أنذرك بأننى بعثت إليـها أقـول إنها لو استـمـرت فى التعرض لك أو إغرائك فإننى سوف أرسل إليها من يوجعها ضربًا .

وعاد بالبينو إلى الاحتجاج :

- إنى أؤكد لك أن هذه فرية ونميمة .

- نميمـة أو لا ... لقد قلت لك ما كـان علىّ أن أقول : ليس فى اسـتطاعة أحد أن يسخر منى ، فلا يخطر لك بعد ذلك أن تعود إلى «باسوريال» .

ثم أولته ظهرها وهى تقول مخاطبة نفسها :

- إن هذا لن يرى الحفرة التى يوشك أن يتردى فيها !

وكان بالبينو بـاييا قد وقع بالفعل فى الشرك الذى نصـب له ، فقد بقى هو الآخر يحدث نفسه بقوله :

- يا لها من خطة قد أحكمت نسجـها !... لقد أحسنت تدبير كل شىء : بحجر واحد أصـبت طيرين ، فحفلات «الخوروبو» فى «باسـوريال» قد مهدت لى سبيل الذهاب والمجئ مارًا فى طريقى بمرج الشجـرة دون أن أثير الشكوك ، ثم إنهـا قد كـفلت لى عودة هذه «البـقرة الحلوب» إلى مـرعاها بعـد أن ذهبت الغيرة بها كل مذهب وهى ترانى فى رفقة امرأة أخرى . وهكذا أعود أنا إلى أن أكـون الديك الوحيـد الذى يصـيح فى «ضيـعـة الرعب» ، أما إذا خطر لهـا أن تتمنع وتتأبـى حتى أهرع وراءها مستعطفًـا فإننى سأعرف كـيف أرد لها الصاع صاعين . نعم ... لقـد أحكمت تدبير كل شىء : أما رافـائيل فلم يعد له من أثر ، فإن الـذى لم يعجب التـمسـاح من لحمـه لابد أن يكون قد أعـجب الأسمـاك المفترسة التى تعج بها قناة «الشنشنال» ، ثم إنه هو الذى سـتسند إليه تهمة أخيه

وسرقة الريش ، وأما حمل الريش فهو يستقر من أمن وسلام مدفونًا تحت الأرض ، وليس علىَّ بأس فى أن أنتظر بعض الوقت ، ثم أبيعه بعد ذلك بالثمن الذى أريد ، هذا بينما مركزى فى «ضيعة الرعب» يزداد كل يوم توطدًا وقوة !...

وكانت السيدة باربارا تناجى نفسها بحديث آخر :

- ما أسرع ما أتت عناية الله لمعونتى وإسعافى ! إننى لم أكد أسائل نفسى : ترى من يكون مرتكب هذه الجريمة ؟ حتى يأتى هذا الصعلوك المتشرد ليقص علىَّ الخبر والجريمة ترتسم على وجهه . فلأعملن الآن على استدراجه ونصب الحبائل له حتى أعرف فى أى مكان أخفى حمل الريش ، حتى إذا تجمعت فى يدى كل القرائن الكافية شددت وثاقه وأسلمته إلى الدكتور لوثاردو حتى يفعل به ما شاء .

نعم ... كانت باربارا مستعدة لكل شىء : لأداء الرسالة وتسليم الأمانة ، وانتهاج حياة جديدة مختلفة ، فهى الآن لا تدفعها نزوة عابرة ، وإنما يتملكها انفعال عنيف هائل كما اعتادت انفعالاتها أن تكون ، وغرام لا يعرف الحدود ولا القيود كالعهد بكل غرام يستحوذ على المرأة فى مشارف الخريف من عمرها ، ولكن هذا الغرام لم يكن كله مجرد تعطش إلى الحب ، بل كان فيه كثير من الرغبة المخلصة فى التوبة ... فى فتح صفحة جديدة من كتاب حياتها ... فى التوق إلى تجربة صيغة أخرى من صيغ الحياة والنزعة إلى تحقيق شىء مختلف تضطلع به نفسها ... طاقات عامة ، مجهولة لم تستكشف بعد .

وما أكثر ما كانت تردد قولها لنفسها :

- لأتحولن إلى امرأة أخرى . لقد سئمت نفسى ، ولهذا فإنى أتوق إلى أن أعرف حياة جديدة لم أعرفها من قبل ، فأنا أشعر بأننى مازلت بعد شابة ، وفى وسعى أن أبدأ من جديد !

واستولت هذه الرغبة على نفسها إلى حد جعلها تتعرض بعد يومين لسانتوس لوثاردو وهو عائد إلى ضيعته من عاصمة الإقليم حيث مركز الحاكم المدنى ، وكانت هى راجعة كذلك فى مساء هذا اليوم إلى دارها ، فلم تجد بأساً فى التوجه إليه بعد أن لمحته من بعيد .

وكانت باربارا فى رفقة بالبينو الذى كانت لا تكف عن مصاحبته والبقاء إلى جواره منذ أن دار بينهما ذلك الحديث حول جريمة المرج ، فلم تلبث أن تركت بالبينو بعد أن استوقفته قائلة :

- انتظرنى هنا .

ثم عبرت المسافة التى كانت تفصلها عن سانتوس ، واعترضت طريقه ، وألقت إليه بالتحية حانية رأسها فى غير إسراف فى التودد ولا مبالغة فى المجاملة ، ودون أن تطبع على شفتيها تلك الابتسامة المفتعلة التى كانت تتلقاه بها ، ثم نادته قائلة :

- أصحيح أنهم قتلوا اثنين من رجالك كانا يحملان محصول الريش إلى «سان فرناندو» ؟

ولكن سانتوس نظر إليها فى احتقار ، ثم أجاب :

- نعم ... أما الخبر فإنه صحيح لا ريب فيه ، وأما سؤالك فهو بارع محكم ، وهو ليس إلا جزءاً من خطة أتقنت نسجها .

غير أنها لم تلق بالاً إلى ما تضمنته العبارة الأخيرة من تعريض ، وعادت إلى السؤال :

- وماذا فعلت أنت ؟

فعـاد يسدد إلى عينيـها نظرة فاحـصة طويلة ، ثم قال فى بطء وحـزم كأنه يريد أن يطرق أذنيها بما يقول كلمة كلمة .

- أضعت وقتى مطالبًا بأن تأخذ العدالة مجرها ، وأن ينال الجناة قصاصهم ، ولكنك تستطيعين أن تطمئنى مادمت بعيدة عن يد القضاء وحكم القانون !

واحمر وجه باربارا كما لو كانت قد تلقت صفعة عنيفة وصاحت :

- أنا ؟ أتعنى بذلك أنك ...

ولكنه قاطعها بقوله :

- الذى أعنيه هو أننى الآن فى طريق أخرى ...

ثم همز جـواده، وواصل سيره، تاركًـا إياها واقفـة وحدها فى وسط المرج الفسيح .

الفصل الخامس

ساعة الرحيل

ولم تمض على ذلك اللقاء لحظات حتى كان سانتوس لوثاردو يقتحم دار «الماكانيال» وهو شاهر مسدسه .

وكانت الدار قائمة فى المكان الذى أمرت السيدة بأن يعاد بناؤها عليه ، على الحدود التى صدر بها الحكم القضائى الأخير بين ضيعتى «الرعب» وألتاميرا ، وإن لم يكن هذا الحكم القضائى نفسه فوق مستوى الشبهات ، فقد كان للسيدة باربارا من النفوذ على محاكم القضاء ما يسمح بإملاء رغباتها عليها .

وكان فى الدار الأخوان الباقيان من ذلك الثالوث الرهيب الذى كان الناس يطلقون عليه هناك اسم «الموندراجونس» بعد أن لقى أخوهما الثالث مصرعه فى مجاولة «الخميلة القائمة» . كان الأخوان قد اضطجع كل منهما على سريره المتأرجح وهما يتبادلان الحديث فى اطمئنان وهدوء وفوجئ الرجلان بسانتوس داخلاً عليهما وآمراً إياهما بالاستسلام قبل أن يتمكنا من حمل السلاح ، فتبادلا نظرات تدل على التفاهم فيما بينهما ، ثم توجه الملقب بـ «النمر» منهما إلى سانتوس ، وقال له فى صوت ناعم لين وإن كان فى طيه الغدر والخديعة :

- حسنًا يا دكتور ... لقد استسلمنا ، فما الذى تريدنا أن نفعل الآن ؟

فأجاب سانتوس وهو يلقى علبة ثقاب تحت أقدامهما :

- ... أن تشعلا النار فى البيت ... هيا !

وكانت لهجته وهو يهيب بهما صارمة تدل على العزم والتصميم ، ولم يغب عن الأخوين أن الذى يلقى إليهما بذلك الأمر إنما هو رجل من سلالة «لوثاردو» ... من صلب أولئك الرجال الذين لم يعتادوا أبدًا أن يشرعوا سلاحًا فى معرض التهديد إلا وقد وطنوا العزم على أن يستخدموه إذا لزم الأمر .

وصاح الملقب بـ «الأسد» :

- ... ولكنك تعلم ياسيدى الدكتور أن هذه الدار ليست ملكًا لنا ، فلو أننا أشعلنا النار فيها فلابد أن تقتضيها السيدة باربارا منا بعد ذلك ، وأن نعوضها عن كل ما يلحق بها من ضرر .

فأجاب سانتوس :

- أما هذا فأنا متكفل به ، والآن اصدعا بالأمر دون أن تنبسا ببنت شفة !

وكان «النمر» فى هذه الأثناء قد استطاع التسلل إلى حيث كانت إحدى البنادق ، وأكب فى حركة مباغته على البندقية ، ولكن لوثاردو تنبه لذلك ، فلم يتردد فى إطلاق النار برمية أحكم تسديدها فأصابته الرصاصة فى فخذه ، وهوى الرجل إلى الأرض وقد انطلقت من بين شفتيه لعنة مزمجرة .

وهاج المشهد أخاه فحاول أن ينقض على لوثاردو ، ولكنه توقف بعد أن رأى المسدس المصوب إلى صدره تحمله يد قد جربا إحكام رمايتها ، فالتفت إلى أخيه وقد ازرق وجهه بما كان يرتسم عليه من شعور الغضب العاجز وهو يقول :

- خفض عليك يا أخى، فالأيام بيننا، وستسنح لنا الفرصة لكى نقتص منه بهذه ، فتحامل على نفسك وانهض عن الأرض ، وأعنى على إشعال النار فى البيت . إن لكل رجل ساعة ، والدكتور لوثاردو ينفق الآن ساعته ، ثم ستأتى ساعتنا نحن ، خذ نصف هذه الأعواد من الشقاب ، واعمل أنت فى ذلك

الجانب فستأتكفل أنا بالآخر ، ولنفعل ما أمرنا به . والذنب ذنبنا على أية حال إذ تركنا أنفسنا نقع في يده هكذا دون أن نأخذ حذرنا !

وأعمل الرجلان أعواد الثقاب فى ذوائب الخوص والسعف المتدلية من سقوف الدار ، وما لبثت ريح السهول أن حولتها فى لحظات إلى شعلة متلظية ، فالواقع أن هذه الدار لم تكن بيتًا بمعنى الكلمة ، وإنما كانت سقفًا ألقى على أعمدة أربعة .

وعاد «الأسد» مخاطبًا لوثاردو فقال :

- والآن ها هو ذا البيت يتأجج نارًا كما أردت ، فما الذى يخطر لك الآن أن تفعل بعد ذلك ؟

- الآن ألق أخاك على ظهرك ، وامضيا أمامى ، وأما ما بقى فإننى سوف أقوله لكما فى ألتاميرا .

وتبادل الأخوان النظرات من جديد ، غير أنه لم يبد على أحد منهما أنه مستعد للمخاطرة بحياته مرة أخرى فى مقاومة مستبسلة غير مجدية ، فقد كان لورثادو يتفوق عليهما لكونه مسلحًا بينما هما أعزلان ، وبكونه راكبًا وهما راجلان ، ثم إنهما رأيا فى وجهه التعبير الصارم الذى يخطه التصميم على الوصول بتهديده إلى أبعد مدى ممكن ، ولكن الجريح توجه إلى أخيه قائلاً :

- ليس هناك ما يدعو لأن تحملنى على ظهرك يا أخى ، فإنى سأسير على قدمى ، ولا يهم ما أنزفه من دم فى الطريق .

وبدا كما لو كان الرجلان الرهيبان يكفران الآن عن تلك الجرائم التى طالما اقترفاها فى سهول باريناس من قبل حينما كانا قاطعى طريق حتى اضطرا إلى الفرار إلى وادى الأراوكا والاعتصام بحماية السيدة باربارا من مطاردة العدالة لهما بعد أن سفكا دماء كثيرة لم ينالا عليها أى قصاص . وكان

سانتوس لوثاردو عازمًا على أن يسلمهما إلى السلطات المسئولة فى الإقليم حتى يأخذ القضاء مجراه فيهما ، وهكذا قال لهما حينما وصلوا إلى ألتاميرا .

وأجاب الأسد :

- أنت أدرى بما تفعل ، ولقد قلت لك من قبل : إنك الآن فى ساعتك ، وستجئ ساعتنا .

ولكن سانتوس لم يعبأ بما تضمنته هذه الكلمات من تعال وكبرياء ، فأمر أنتونيو بالعناية بالجريح ومداواته ، غير أن هذا قال له في مثل لهجة أخيه :

- لا تشغل نفسك بى يادكتور لوثاردو ، إن الدم الذى نزفت ليس إلا ما كان يزيد على حاجة جسدى ، فأنا الآن فى الوزن الملائم : لا نقص ولا زيادة !.

فتدخل باخاروتى فى الحديث :

- نعم . هذا خير له ولنا ؛ إذ لن يضطرنا إلى زجره فى الطريق حتى ينطلق بسرعة .

وواصل باخارونى كلامه وهو يرد على عبارة الرجل المتعالية بمثلها مخاطبًا لوثاردو :

- دع لى هذه المهمة اليسيرة ياسيدى الدكتور ، ولتعتبرنى مسئولاً أمامك عن هذين الرجلين ، فليس هناك مما أحتاج إليه معهما إلا قطعتان من الحبال أشد بهما وثاقهما ، وسأتكفل أنا ببقية العمل ، أما الجريح - عليه اللعنة - فليحاول الفرار إذا كان وزنه الآن خفيفًا كما يقول . إننى أظن أنك عازم على تسليمهما إلى السلطات بورقة منك ، فإذا كان الأمر كذلك فاشرع من الآن فى كتابة تلك الورقة ، حتى نعمل اليوم على سوقهما إلى حيث سيودعان فى انتظار تقديم حساب عما ارتكبا من جرائم ، فمن الخير ألا تترك ذلك إلى الغد .

ولو أني لا أعتقد أن مـصطنعي الشجاعة من شركاء هذين الشقيـين سيجسرون على القدوم فى هذه الليلة لاستنقاذهما . وليتهم يفعلون ! والله لوددت إذن أن أنقسم نصـفين : نصف يقود هذين المختالين الدعـين إلى مستقـرهما ، ونصف آخر ينتظر من لعله يأتي من «ضيعة الرعب» للمحـاماة عنهما أو استخراجهما . على أني أرى الآن أن وجودى هنا غير لازم ، بعد أن أثبت أنت أن رجلاً واحدًا من ألتاميرا لديه من القدرة ما يكفى ويزيد لكى يسـوق أمامه مثل هذين الجبانين اللذين ملأ «الرعب» قلبـيهما ، وسنـرى بعد كيف يجئ الدور على بقيـة رجال تلك الناحية واحدًا واحدًا .

* * *

كان قد مضى وقت ليس بالقصـير على عودة سانتوس لوثاردو إلى داره ، غيـر أنه لـم يكن قد لاحظ بعد غيـاب ماريسيـلا وأبيها عنهـا . وشرح أنتـونيو الأمر :

- لقد ذهبا بمجرد رحيلك إلى عاصمة المنطقة ، وكان ذلك فكرة ماريسيلا ، وقد لحـقت بهما فى دار مرج الـنخيل بعد ذلك ، فحـاولت إقناعهمـا بالعودة ، ولكن جـهـــودى ذهبت أدراج الريـــاح ، فإنها صممت على البـقاء تصميمًا لا رجعة فيه .

فقال سانتوس :

- إن ذلك خير ما خطر لها أن تفعل ، فنحن الآن ماضون فى طريق آخر .

وفى اليوم التالى أمر بإقامة سياج خـشبى يحيط بمرج «كوروثاليتو» ، وكان مستر دينجر يماطل ويطاول فى نصب أعمدة ذلك السـياج ، متبعًا تلك النصائح التى كان السيد بيرناليتى قد أوصى بها إليه .

ولكن أنتونيو ظل صامتًا لحظة ثم اعترضه يسأله :

- على الرغم من هذه الوثيقة التي يحملها مستر دينجر والتي أطلعك عليها ؟.

- وعلى الرغم من كل شيء ، وضد كل مقاومة تعترض طريقنا من أي وجه . العين بالعين ، والجزاء من جنس العمل ؛ هذا هو القانون المتبع في هذه الأرض !.

وعاد أنتونيو إلى تفكيره الساهم ، ثم قال :

- ليس لديّ ما أقوله لك يادكتور ، فأنت تعلم أنني وراءك في أي طريق انتهجت .

وانصرف أنتونيو ، غير أنه كان يقول لنفسه :

- لا يعجبني أن أرى سانتوس وهو يتكلم بهذه اللهجة ، جعلها الله سحابة صيف !.

وفي هذه الليلة تناول سانتوس عشاءه وحده على مائدة تتوثب حولها الكلاب وهي تهز أذنابها ، بعد أن قدمت إليه الطعام امرأة تفوح من ثيابها روائح المطبخ ووضره ، على أنه لم يكد يتذوق لقيمات من ذلك الطعام الكريه الذي أعدته له كاسيلدا حتى رفع يده عنه ، وانصرف إلى بعض غرف البيت ، إلا أنه لم يطق المقام في هذه الدار حيث كان نظره يقع في ضوء المصباح الكئيب على أثاث الدار وقد غطته طبقة من التراب والصدأ وأسراب من الذباب ، بعد أن كان كل شيء نظيفًا يلمع ، فآثر الخروج إلى الدهليز مروحًا عن نفسه بعض ما تجد .

وكانـت السهـول تمتد أمـام عينيـه راقدة فى اسـترخاء ، قـائمة تحت سـماء مظلمة ملبـدة بالغيوم . كـان الصمت يسود المكـان ، فـلا عـود ، ولا أغنيـة ، ولا حديث ! الكل مخلـدون إلى السكون الواجم وهم يفكرون فى هذا الرفيق الصموت الحزين الذى عثروا عليه قـتيلاً فى مرج الشجرة ، هذا الرجل المنقبض المنطوى على نفسه والذى كـان على الرغم من ذلك رجلاً حق الرجـولة يمكن الاعتماد عليـه والثقة به ؛ إذ لم يكن أحد من رفاقه يلجأ إليـه فى شـىء عصبه إلا سارع إلى عونه حتى ولو ضحى فى سبيله بحياته ، هذا الرجل الطيب الذى رزئ فى أهله ، فلم يجد بداً من أن يأخـذ قصاصه بيده ، والذى قـتل فلم يأخذ أحد بثأره بعد موته .

وهم يفكرون كـذلك فى سـانتـوس لوثاردو الذى نـكب فى هذا الرجل ، والذى حرم من تلك الثروة التى كان يريد أن ينفقـها فى عمل كان قد علق عليه آمالاً كـباراً . فـها هو ذا منـذ عاد إلى الضـيعة قـد تحول إلى رجـل آخر كئـيب مقطب الأسارير ، تطل الوحشية من عينيه .

ومن بعـيد يـتردد فى الجـو صـوت الكروان الحاد ، ويقطـع فتـانشـيو حـبل الصمت فيقول لرفاقه :

- لابد أن باخـاروتى وماريانيـيبس قـد وصـلا الآن بعيـداً بالرجلين الذين وكلت قيادتهما إليهما .

ويقول له أحد الرفاق متحدثًا عن الطريق الجديدة التى اندفع فيها لوثاردو :

- هكذا ينبــغى أن يصنع المرء فى هذه الأرض ، فـالـدواء يجب أن يكون على قدر الداء . إن رجل الـسهول لا يكون كـذلك إلا إذا فعل كل ما يـستطيع الرجل أن يفعل . فليطرح الدكـتور عن تفكيره إلى الأبد كل ما كـان يتراءى له من إقامة أسيـجة فاصلة وما إلى ذلك من أشياء قد تكون متـبعة فى بلاد أخرى

لها مـثل سهولنا ، وليـفعل ما فـعله الناس كلهم هنا على مر الأجـيال : السطو على كل رأس ماشية تبدو له فى هذه الأرض من الحيوان الرضيع إلى ما فوقه ، واقتناص كل دابة طليقة لا يجد على جنوبها سمة لأحـــد !

ويضيف آخر :

- ... واقتحام أرض الجار والاستيـلاء فيها على كل ذى ظلف وحافر يقع عليـه بصره . فـما دام الجـار يفـعـــل ذلك بأرضــه فلم لا يفـعله هو ؟ إن الحق الصراح هو أنه لا ظلم ولا خديعة مادامت الأعمال تجازى بأمثالها .

ولكن أنتونيو تدخل فى الحديث :

- أمـا أنا فلست أوافـقكم على مـا تقولون ، فـإننى أرى الحق فـيـما كـان الدكتور قد أفـهمنى إياه وأرشدنى إليه . ليقم كل واحـد حدوداً حول أرضه ثم ليرب كل ماشيـته فى داخل حدوده ، دون أن يعتدى أحد على جـاره أو يغصبه ماملك .

وكان سـانتوس يتـسمع الحـديث الدائر بين رجـاله ، فمـا إن سمع عـبارة أنتونيو الأخـيرة حتى عاوده ذلك الشعور الذى أحـدثه فى نفسه منذ قليل منظر المصباح الكئيب وأشعته تنعكس على أساس الدوار التى هجرتها ماريسيلا . إن هذا الكلام الصادر من أنتونيو عن عقيـدة واقتناع إنما كان مما أوحى به إليه رجل لم يعد الآن فى عالم الأحياء ، رجل كان قد وصل من المدينة إلى تلك السهول تداعبـه آمال واسعة فى بث الحـضارة ، والقضاء علـى مظاهر الهمجيـة السائدة هناك ، رجل يملأ قلبه الاحـترام لكل إجراء ينفـذ به حكم القضاء حتى مـا كان منها مـضراً بمصـالحه مثل تلك الأحكام الـتى انتزعت السيـدة باربارا بمقتـضاها الكثير من حقوقه وأملاكه ، رجل يكره الثأر واقتصاص المرء بيده من غريمه ، بل وينبذ كل تلويح بأية فكـرة انتقاميـة ، ويتأذى ضميـره بكل ما يؤدى إلى إطلاق

الغرائز الوحشية الكامنة فى النفس البشرية ، ويرى فيه كارثة مدمرة للمثل الروحية والإنسانية ، هذا وإن كان يرى أن تمسكه بتلك المثل سينتهى به إلى أن يقع ضحية لذلك العنف الهمجى الذى يسيطر على تلك الأرض .

أما الذى كان يسمع حديث أولئك الرجال فقد كان شخصًا آخر غريبًا يفكر ويشعر على نحو ما سمع أحدهم يقول لرفاقه «إن رجل السهول لا يكون كذلك إلا إذا فعل كل ما يستطيع الرجل أن يفعل !» .

وها هو ذا الآن قد أثبت أنه يعرف كيف يفعل رجل السهول الحق : فدار «الماكانيال» قد تحولت إلى رماد ، والأخوان «الموندراجونس» سيقدمان حسابًا عن جرائمهما الكثيرة إلى العدالة ، كل ذلك بفعل يد مسلحة . وغدًا سيأتى الدور على مستر دينجر . نعم . كانت هذه هى «ساعة الرجل» لا ساعة المبادئ والمثل ، فما دامت تلك الحياة الصحراوية لا تضع أى حد للعمل الفردى القائم على العنف والظلم والغصب ، فعلى «الرجل» حقًا أن يفرض نفسه بالقوة . ليوجه ضربة هنا ، ثم ضربة هناك ، وليؤكد للناس قوته وجبروته فى كل مناسبة تسنح ، وبهذا تصبح هذه الأرض كلها ملكًا له حتى يباشر فيها عمله الحضارى وما ينشد فيها من إصلاح .

وأقبل سانتوس يعلل نفسه : ترى أهى نقطة البدء فى «الإقطاعية الخيرة» ؟ ترى هل هى ساعة الرجل إذا أحسن استغلالها ؟

الفصل السادس

الاكتشاف العجيب

ثلاثة أيام قضاها سانتوس غائبًا عن الضيعة ... ثلاثة أيام كانت ماريسيلا تعيش خلالها على أمل أن تراه بعد انقضائها قادمًا إليها وراجيًا إياها أن تعود إلى ألتاميرا ، وذلك بمجرد أن يعرف نبأ رجوعها هي وأبيها إلى دارهما القديمة في مرج «لاتشو سميتا» . غير أنها لم تكن تريد أن تعترف بينها وبين نفسها بمجاذبتها لهذا الأمل ، فقد كان العناد يدفعها إلى التمادي في الشعور بالمهانة والألم بعد حب فاشل منقطع الرجاء ، ذلك الشعور الذي حملها على مغادرة ألتاميرا ، وعلى الرغم من ذلك فإنها ظلت تمنى نفسها بقدوم سانتوس لكي يطلب إليها العودة معه . ومن أجل هذا فإنها لم تتخذ أهبتها للمقام في دار «مرج النخيل» زمنًا طويلاً ، بل كانت تحاول كفاية حاجاتها وضروراتها العاجلة كأنما كانت ترى أن إقامتها هناك لابد أن تكون عابرة مؤقتة ، أما بقية اليوم فقد كانت تقضيه جالسة على حافة البئر وهي شاخصة ببصرها إلى حيث كان الطريق المؤدي إلى ألتاميرا في انتظار قادم من هناك .

ولكن هذا الحنين القاتم كان ينقشع عن نفسها في بعض اللحظات ، ويعلو وجهها البشر ، فتطلق ضحكة وهي تتصور الغضب الذي سيتملك سانتوس حينما يعود إلى الدار فلا يجدها فيها ، ويظن حينئذ أنها معابثة صبيانية عابرة مما اعتاد الأطفال أن يفعلوا إذا غضبوا ، فلعله يعتقد أنها تعمدت الاختباء حتى تنتقم منه جزاءً وفاقًا على ذلك التأنيب العنيف الذي صبه على رأسها كأنها ارتكبت جريمة حينما دفعها حبها له إلى محاولة إنقاذه من سحر أمها الأسود

الشرير ، ولكنها لم تكن تصل في حديثها لنفسهـا إلى هذا الموضع حتى تعاود مخيلتها صور ذلك المشهد الكريه ، فتجثم على قلبها الهموم ، وترين على روحها الظلمات .

وأخيراً بلغها نبأ رجوع سانتوس إلى ألتاميرا ، ومرت الأيام دون أن تتلقى منه شيئًا ، فانقطع الرجاء ، وانطفـأت ذبالة ذلك الأمـل التى كانت تخفق فى قلبها .

وخاطبت ماريسيلا نفسها تقول :

– لقد كنت أعلم أنه لن يأتى لمحاولة حملى على العودة إلى داره ، ولن يهمه شيء من أمرى بعد اليوم . ولقد صح الآن ما كنت أقوله من أن كل شيء كان حلمًا ومضى كما تمضى الأحلام !

هذا بينما كان مستر دينجر هو الذى لا يكف عن زيارة بيت لورنثو باركيرو فى يوم من الأيام . صحيح أنه كان أقل جرأة منه فيما مضى ، فهو لم يعد يمد إليها يديه الكبيرتين ؛ إذ كانت الفتاة فى محضره تلتزم الجد والصرامة وتتمسك بكرامتها على صورة كانت تجبره على احترامها والتأدب معها ، ولكن الأمريكى كان يضيق كل يوم عليها حصاره بعد أن أصبحت الآن فريسة فى متناول براثنه من جديد ، لا سيما وأن أنوثتها الآن قد نضجت وجمالها قد اكتمل ، فكان كثيراً ما يأتى إليها فى دارها ليلقى عليها بمداعباته المعتادة فى هذا المرح الذى كان لا يزايل نفسه قط ، مازجًا بين ذلك وبين عباراته المتعالية الآمرة ، شأن الرجل الذى اشترى ودفع الثمن فى انتظار تسلم البضاعة .

ولم تكن ماريسيلا تتمالك نفسها فى بعض اللحظات وهى تحت وطأة الحنق على سانتوس لإهماله إياها من التفكير فى لذة وشماتة فى أن مصيرها سيكون الوقوع بين ذراعى ذلك الرجل فى عاجل أو آجل ، ولكنها سرعان ما

كانت تعود إلى التفكير المتزن العاقل ، فتطرد عن نفسها تلك الخواطر البشعة الكريهة ، وتحاول علاج الموقف بوسائل ناجعة مجدية .

وفى يوم من الأيام لمحت خوان بريميتو ، وكان يحوم حول الدار من بعيد ، دون أن يجرؤ على الدنو ، فقد كان يخشى أن تكون لم تغفر له بعد ما فعله حينما وكلت إليه أمها الإتيان بالخيط الذى أخذ به مقياس قامة سانتوس ، ولكنها نادته وكلفته بأن يحمل هذه الرسالة إلى «ضيعة الرعب» .

– اذهب فأبلغ ... أنت تعرف من أعنى : أبلغ السيدة كما تسميها أنت أننى عدت أنا وأبى إلى دار مرج النخيل ، ولكننى أريد أن أذهب من هنا إلى أبعد مكان يتاح لى بلوغه ، وأنا أحتاج من أجل ذلك إلى نقود ، ولكن لتعرف أن ما أريده ليس عدة دريهمات ، فأنا لا أطلب إليها صدقة ، بل أريد مبلغًا كافيًا أستعين به فى الرحلة أنا وأبى إلى «سان فرناندو» .. والآن ما الذى سوف تقول لها ؟ كرر على ما قلته لك ... نعم . أبلغها ذلك بالحرف الواحد وإلا فلا ترنى وجهك بعد ذلك مرة أخرى .

وظل خوان بريميتو يكرر الرسالة حتى لا تفوته كلمة واحدة مما قالته ماريسيلا حتى وصل إلى الضيعة ، وأبلغ الرسالة إلى السيدة باربارا . أما هذه فقد فكرت فى أول الأمر فى تجاهل الرسالة ومقابلتها بالصمت أو بإرسال رد عنيف جارح ، ولكنها تروت فى الأمر وهداها إمعان النظر إلى أنه من الخير لها أن ترحل ماريسيلا إلى سان فرناندو كما قالت . فتوجهت إلى صوانها ، وأخرجت منه قبضة من النقود الذهبية التى كانت قد تسلمتها منذ قليل ثمنًا لرء وس من الماشية أتمت صفقتها ، وأعطت المبلغ لخوان بريميتو قائلة :

– خذ هذا القدر فاحمله إليها ؛ فإن فيه خمس عشرة قطعة من الذهب ، وقل لها أن تذهب من هنا مع أبيها وتقطع كل صلة لها بهذه الأرض ، ولتجتهد فى ألا أعرف عنها شيئًا بعد الآن .

ومضى خوان بريميتو بما حمل من مال ، وهو يقطع الطريق فى وثبات سريعة هائلة ، وقد ملأه الفرح لنجاحه فى مهمته ، ووصل إلى بيت ماريسيلا وهو يلهث ، فأخرج منديله الذى أودعه النقود وقدمه إليها وهو يقول :

- انظرى إلى هذا ياطفلتى ماريسيلا ... وتحسسيه بيديك . إنه ذهب ! خمس عشرة قطعة من الذهب تبعث السيدة بها إليك . عديها حتى ترى ما إذا كانت كاملة العدد !...

فأجابته ماريسيلا :

- ضعها على هذه المائدة .

ولم تتمالك شعوراً بالخجل والذلة يغزو نفسها ؛ إذ اضطرت إلى هذه الوسيلة المهينة للحصول على المال حتى تحرر نفسها وأباها من ربقة مستر دينجر وتستغنى عن لفائف الطعام التى ظل أنتونيو يرسل بها إليها من ألتاميرا ، والتى كانت تعتبرها ضرباً من ضروب الصدقة والإحسان .

ورآها خوان بريميتو كأنها تعاف لمس النقود ، فقال لها وهو يتوجه لغسلها فى ماء الجب :

- لعلك مشمئزة من المنديل الذى حملتها فيه ياطفلتى ماريسيلا . انتظرى إذن لحظة فإنى سوف أغسلها وأقدمها لك نظيفة تلمع .

- لا حاجة بك إلى ذلك ، فإنك مهما غسلتها فسأظل متقززة دائمًا من لمسها . دعها فى مكانها ، فليس منديلك هو الذى يبعث فى نفسى ذلك الشعور. فأجاب الغبى:

- لا تكونى بلهاء ياماريسيلا . الذهب ذهب ، وسواء أتى من هنا أو من هناك فإن بريقه هو بريقه . إنها ثلاثمائة «بيزو» ! بهذه الدراهم تستطيعين أن تتخذى رأس مال يدر عليك دخلاً ثابتًا وفيراً . إن فى «مجاز الخوار» على

الضفـة المقابلة لـنهر «الأراوكا» حـانًا معـروضًا للبـيع ، فإذا كنت تريديـن فإنى مستعد للذهاب إلى هناك فى وثبة واحدة لأسأل لك بكم يعرضونه حتى تقومى بشرائه . إن هذا عمل رابح مضمون الكسب يامـاريسيلا ، فهو فى موضع يكثر الناس من التـردد عليه ؛ إذ لا يجتـاز به أحد قـادم من هناك إلا وقف لدى ذلك الحـان ، ولا أقل من كـأس يشـربهـا فيـه ، ولو أنك أزمـعت شـراءه فـأنا على استعداد للذهاب معك لكى أشتغل بخدمة العملاء فيه بغير أجر . دعينى أذهب إلى هناك حتى أسأل لك عن ثمنه .

– لا ، لا . اتركنى أفكر فى الأمر أولاً ، والآن اذهب ودعنى وحدى فليس لدى اليوم من اعتدال المزاج وطيب النفس ما يسمح لى بمبادلتك الحديث . فخذ لنفسك قطعة من هذه القطع واترك الباقية على المـائدة .

– أتريدين منى أن أضـع يدى على إحـدى هذه القطع لآخـذها لنفـسى ؟ شلت يدى إذن يامـاريسـيـلا ! تبارك اسم الـعذراء الطاهرة ! خـيـر لى إذن أن أذهب . آه ... لقـد نسيت أن أبلغك أن السيدة تقـول لك ... لا ... لا شىء ! وأخيـرًا افعلى ما قـلت لك : اشترى ذلك الحـان القائم على الجـانب الآخر من المجاز ، فإنهـا صفقة رابحة ، وبذلك تذهبين بعـيدًا عن هــذا المكـــان الــذى لا ترغبين فى المقام به .

ومـضى خوان بريميـتـو ، وبقـيت النقـود الذهبيـة على المـائدة ، وأخـذت ماريسيلا تفكر فى هذا المشروع الذى اقترحه الرجل عليها :

– صاحبـة حان ؟ وأى ضير فى هذا ؟... وهل أطمح إلى مـا هو أكثر من كـسب معـاش ثابت، لى وراء رف مـشـرب ؟... صاحـبـة حـان !... وأخيـرًا سـأتزوج ، أو أعيش من غـير زواج مع أجـير من أجـراء هذه الضيـاع ... وربما شاءت الصـدف بعد ذلك أن يمر الدكـتور لوثاردو يومًا على حـانى ، فيـتوقف ويطلب إلىَّ أن أقـدم له شرابًا ... أمـا الخـمر فـلا ؛ فهـو لا يشرب ، ولكنه قـد

يطلب إليَّ أي مشروب آخر ، فـأبيعه إياه ، ويتناوله ثم يذهب ، دون أن يتبين له أن التي قدمت شرابـه هي ماريسيلا ... ماريسـيلا نفسها ... تلـك التي قدم بها العهد ، ومضت الذكريات !...

ومرت على ذلك ساعات ، ثم دخل عليها مـستر دينجر ، فلما رأى النقود الموضوعة على المـائدة - وكانت قد تركتهـا في مكانها منذ خروج خوان بريميتو - اتخـذ من ذلك مادة لبـعض مداعـباتـه ونكاته المعهـودة ، حتى إذا فـرغ وهـم بالانصراف توقف قليلاً ثم أخرج من جيبه ورقـة مكتوبة ، فبسطها وقدمها إلى لورنثو باركيرو وهو يقول :

- وقع هنا ياغـــلام ! إن هـذا هو وثيقـة عقـد البيـع الذي أتممنا صفـقتـه بالأمس .

ورفع لورنثو رأسه إليه بعد أن بذل جهداً كبيراً ، وأخذ ينظر إليه في تخدر وذهول من حـضيض سكرته النكراء وهو لا يعـي شيئًـا ، ولكن مسـتر دينـجر أسرع فـوضع القلم بين أصـابعه ، ثم أخذ بـيده وحمله عـلى وضع توقيـعه في أسفل الصحيفة ، وإن لم يكن في خط هذا الـتوقيع من لورنثو باركير في شيء إلا رعشة اليد التي كان الأجنبي يجربها على الورقة .

وصاح الأمريكي بعد أن انتهى من أمـر التوقيع وهو يحفظ القلم في جيب صدره :

- «أول رايت !» .

ثم بسط الورقة وبدأ في قراءتها بصوت مرتفع :

- «أقر بمقتضى هذه الوثيقة أنني بعت للسيـد جيرمو دينجر ابنتي ماريسيلا بخمس زجاجات من البراندي» .

كانت إحدى تلك الدعابات الوحشية التى اعتاد عليها الأمريكى ، ولكن ماريسيلا أخذتها مأخذ الجد ، فاندفعت إليه لتنتزع «الوثيقة» من بين يديه ، بينما كان لورنثو يعود إلى الانغماس فى غيبوبة عميقة ، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة بلهاء ، وتدلى من فمه خيط من اللعاب .

أما مستر دينجر فقد ترك ماريسيلا تختطف منه الورقة ، ومضى يطلق ضحكاته المدوية بينماكانت الفتاة تمزقها تمزيقًا شديدًا ، ولكن قهقهة الرجل زادت من حنقها ، فصاحت به مزمجرة فى صوت مبحوح ، وقد علت وجهها حمرة الغضب ، وبللت عينيها الدموع :

- اخرج من هنا أيها الوقح !

ولكن الأمريكى ظل يقذف بضحكاته القاصفة وقد نصب قامته الطويلة وفتح رجليه ، ووضع يديه على جانبى خصره ، فاندفعت ماريسيلا نحوه محاولة دفعه إلى خارج الدار .

غير أن قواها لم تكن كافية لتزحزح هذا الجبل الراسخ فى الأرض قيد أنملة ، وأنفد ذلك صبرها وهاج من نار غيظها ، فانهالت بجمع يديها تمطر صدره الرياضى العريض بوابل من اللكمات ، دون أن يتحرك أو تنقطع ضحكاته الساخرة العالية ، أما هى فقد كان الغضب يزيد من تورد خديها وبهاء طلعتها . ولم تنل ماريسيلا من ذلك الجهد إلا أنها أوجعت يديها وكادت تدميهما على ضلوع الأمريكى التى كانت فى صلابة الصخر ، فلما أعياها الأمر أسرعت فاختطفت قلم الحبر الذى كان قد أودعه جيب صدره ، ففتحته واندفعت تحاول إغماده فى عنقه ، ولكنه قبض على ذراعيها فى شدة ، فأعجزها عن الحركة، ثم رفعها فى الهواء، وظل يدور على عقبيه دورات عديدة ، وهى فى يديه محومة حوله، وضحكاته ماتزال تقصف فى جو الغرفة ،

وأخـيراً توقـف، وأودعهـا الأرض ، وقـد استـولى عليـهـا الدوار والغـثيـان ، فأجـهشت بالبكاء وعاد هو فـاتنصب وانتصب أمامـها مرة أخرى واضـعًا يديه على وسطه، ولكنه توقف عن الضحك، وراح يشهق شهيقًـا عاليًا وهو يلتهمها بنظرات قد ألهبتها شهوة مسعورة .

وفي هذه الأثناء كان لورنثو باركيرو قد اسـتيقظ على ضحكات الأمريكى وصيحات ابنتـه ، فتجمع فى سريره يرقب المشهد ، ثم ثارت فى نفسه الحمية ، فانـتزع سكينًا كـبيـراً كان قد علـق على حائط الغـرفة ، وأقـبل من وراء مسـتر دينجر ، وفى عينيه تعبير عن هياج مجنون ، يحاول إغماد السكين فى ظهره .

ولكن ماريسـيلا تنبهت إلى ما كـان أبوها يهم بفعله ، فندت منها صـرخة ذعر ، فالتفت مستر دينجر خلفه ، وألقى على وجـه المخمور صفعة قوية أفقدته توازنه ، فانكفأ عـلى أرض الكوخ انكفاءة رضت عظامه ، وهو يقذف بصـيحة ألم وغضب مقهور لا حول له ولا قوة !

وأخـرج مسـتـر دينجـر «بيبـتـه» ثم أشـعلها فى هدوء ، وهـو مول ظهـره لمـاريسيلا ، وأقبل على لورنثو باركيرو يقول له بين نفثات الدخان :

– كانت دعـابة أردت أن أمازح بها ماريسـيلا ، إن مسـتر دينجر لا يعجـبه أخذ الأشـياء بالـقوة ، ولكن على مـاريسيـلا أن تعلم أن مسـتر دينجـر يريدها لنفسه .

وواصل كلامه وهو يتأهب للخروج :

– وأما أنت ياسيد لورنثو فلا تعد إلى حمل سكين لمستر دينجر . وإلا فقل السلام على البراندى والنبيذ وكل شىء آخر !

ولم يكد الأجنبى يغـادر الكوخ حتى نهض لورنثـو عن الأرض ، ودنا فى خطواته المتـعثـرة المتطوحة إلى حـيث كانت مـاريسيـلا تتأوه وتنـتحب ، فـأخذ بذراعها ، وقال لها بصوت ينبض بالألم وإن كان ما يزال متسمًا بالتبلد :

- هيا بنا يابنتى ... لنذهب من هنا !

وظنت ماريسيلا لأول وهلة أنه يهم بالعودة إلى ألتاميـرا ، فتركته يساعدها على النهـوض ، ومسحت الدمـوع من عينيـها ، ولكن لورنثـو مضى مـواصلاً حديثه يقول :

- هناك ... لنمض إلى هناك ... إلى مـستنقع الطين الرجراج حـيث ينتهى كل شيء ... هيا بنا نلق بأنفسنا فيه ، ونضع بذلك حدًا لهذه الحياة المـلعونة .

وحينئذ أفاقت ماريسيلا فضـبطت مشاعرها وتغلبت على آلامها وحاولت الابتسام وهى تجيبه :

- لا ... لا يا أبى . خـفض من روعك ! إنها لم تكن إلا دعـابة من مسـتر دينجر . ألم تسمعه يقول لك ذلك ؟ هدئ نفسك ، وعد إلى النوم مرة أخرى . لقـد كـانت دعـابة ، ولكن عـدنى بأنـك لن تعـود إلى طلب الشـراب من هذا الرجل .

- لا ... لن أعود ، ولكنى سأقـتله ... لا ... لم تكن دعـــــابة ! لم تكن دعابة ! والآن ... أعطينى ... أعطينى تلك الزجاجة هناك ...

- لا يا أبى ... نشـدتك الله . لقد وعـدتنى بأنك لن تشـرب مرة أخـرى . والآن استلق على سريرك ونم فى هدوء .. لقد كانت دعابة !

وربتت الفتاة بيـدها على جبينه الذى كان يتـصبب منه عرق لزج ، وظلت تمسح له شـعـره فى رفق ، وهى تهـز سـريره لتـعيـنه على النوم ، وبقـيت على

الأرض بجواره حتى رأته يغط فى نوم عميق ، ثم جففت اللعاب المزبد الذى كانت خيوطه تنحدر من جانبى فمه ، وقبلته فى جبهته ، وشعرت وهى تمس جبهته بشفتيها بتحول جديد يعتمل فى صميم روحها .

إنها لم تعد هذه الفتاة التى كانت تعيش فى ألتاميرا غير مبالية بما حولها ، متلهفة على السعادة تنشدها فى نهم وجشع ، فى وجهها ضحكة ، وعلى شفتيها أغنية وكأنما لا يعنيها شىء من أمر أبيها . ذلك الحطام الجسدى والخلقى بمنظره المنفر المؤلم . كانت ماريسيلا فى شغل عن تلك الروح المعذبة بما كان قد تفتح أمامها من عالم مشرق يبهر عينيها نوره ، ويجتذب قلبها بما كان يتماوج فيه من مرح وسعادة . هذا العالم الذى لم يكن إلا قلبها الخافق بالأمل كان قد ظل مستغلقًا تجثم فوقه الظلمات حتى كشفه لها سانتوس ، ولهذا فما كان لأحد أن يتربع فيه أو يملأه غيره . كان هو الذى غسل لها بيديه ما كان قد تكاثف على وجهها من قذر ، وكلماته هى التى أماطت اللثام عن جمالها المخبوء الذى لم تكن تعرفه ، ودروسه ونصائحه هى التى أخرجتها من تبلد الجهل وفظاظة البداوة ، وأكسبتها من التهذيب والتحضر ما جعل منها روحًا رقيقة ، وذوقًا مرهفًا ، وحولت طباعها وعاداتها إلى ما ينسجم مع تلك الروح الرقيقة والذوق المرهف . كان قلبها الذى قد أفعمته السعادة أشبه بكهف تلألأ بالنور فجأة ، ولكن كان فى قرارته ركن صغير لم يزل بعد سابحًا فى الظلمات ، أما هذا الركن فإنه ينبوع الرقة والبر ، وإنما ظل كذلك - غارقًا فى الظلمات ؛ لأن الشعور الوحيد الكفيل بتفجيره وإلقاء الضياء عليه كان هو الشعور بالألم .

والآن هاهى ذى قد ذاقت مرارة الألم لأول مرة ، ومن ثم فقد تكشفت لها فى هذه اللحظة ماريسيلا جديدة يبهر نظرها هذا الاكتشاف العجيب الذى انزاح ستاره لها فى جوف نفسها . إن نور الحنان يشرق الآن فى وجهها ويغمره

بشعـاعه المقدس ، هو يجـرى الآن فى عروق يدها التى أقـبلت لأول مرة تربت فى رقة ولين عـلى جبين أبيهـا المعذب مـعبرة عـن شعور من البنوة لـم تكن قد أحست به قط من قبل .

ها هو ذا لورنثو قـد غاص بشقائه وتعـاسته فى نوم هادئ مسـتكين بفضل مسحـات ابنته الرقيقة على جـبينه وشعره ، وهو يغط فى نومه ، ولكن الفـتاة ما تزال تجرى يدها على رأسـه وهى تتأمله فى حنان ، ولكن عينيـها كانتا تتـجهان عفـواً إلى ركن المـائدة التى كانت قطع النقود الذهبـية تلمع عليه منذ أن تركـها خـوان بريميتـو هناك وإن كانـت تنظر إلى تلك القطع بعـينين لا تريان ، وظلت كذلك لحظات حتى ظهر على باب الكوخ أنتونيو ساندوفال .

ومـا إن أحست به مـاريسيـلا حتى أشـارت إليـه بالتزام الصـمت واضعـه سبـابتها على شـفتـيها حتى لا تكدر على أبيها صـفو هذه النومـة الهادئة ، ثم نهضت من الأرض وخرجت لتستقبله فى خارج الكوخ حريصة على ألا يوقظ حديثهما أباها عن رقاده الهنيء ، وكان التعبير الذى يفيض به وجهها وحركات يديها الهادئة تدل على مدى ذلك التحول الروحى العـميق الذى انبثق فى نفسها ، حتى إن أنتونيو أحس بشىء من ذلك ، فسألها فى قلق :

– ماذا بك اليوم ياماريسيلا ؟ فإنى ألاحظ علـى وجهك اليـوم شيئًا غريبًا لا عهد لى به !

– آه ... لو علمت يا أنتونيـو !... إننى أيضًا أشعر اليوم كـأننى قد تحولت إلى إنسان آخر !

– إننى أخـشى علـيك أن تكونى قـد أصـبت بحـمى من مـسـتـنقع الطين الرجراج .

- لا ... هو شىء آخر ، هو شىء يوجد أيضًا على صفحة المستنقع مادمت قد تعرضت لذكره : هو شعور بالسلام ... وبالطمأنينة العذبة إذا غمرت النفس ، إننى أحس بهدوء تنسكب مياهه الرفيقة على روحى حتى قرارتها ، هدوء أظنه هو الذى يحس به المستنقع حين يعكس على صفحة مائه صور النخيل والسماء بما يعبرها من غمام وطيور الكراكى والبلشون الواقعة على ضفافه .

واستبدت الدهشة بأنتونيو فقال :

- ماريسيلا ... أيتها الطفلة دعينى أقل لك ما أشعر به : إننى لم أسمعك من قبل قط تتكلمين بمثل هذه اللهجة ، ولا أكتمك سرورى لذلك وإعجابى به ؛ إذ إنه سيهبنى الجرأة على أن أفاتحك فى الأمر الذى دفعنى إلى المجئ اليوم إلى دارك . إن ألتاميرا فى أشد الحاجة إليك ياماريسيلا . فقد انزلق الدكتور فى طريق ليست طريقه ، ولن تؤدى به إلى نهاية طيبة . فقد كان - كما تعرفين - متمسكًا باحترام حقوق الآخرين إلى درجة الإسراف والاشتطاط . حتى ولو كانت هذه الحقوق منتزعة بالعسف والاغتصاب ، وكان لا يفعل شيئًا إلا إذا كان جاريًا على جادة القانون ملتزمًا للطرق المشروعة . أما الآن ، فهو على العكس من ذلك لا يخطر بباله عمل من أعمال العنف والتسلط إلا سارع إليه . وقد أقلقنى ذلك وشغل بالى ، فإن الدم إذا نزع فى عروق رجل إلى طبيعة آبائه وأجداده على هذه الصورة فمعنى ذلك أن الأمر خطير ينذر بوخيم العاقبة . وما كان ليؤلمنى الآن شىء بقدر أن أرى سانتوس وقد حلت به نهاية آل لوثاردو كلهم من قبله . لست أقول بذلك إنه ينبغى أن يفرط فى حقوقه أو يترك الآخرين يعبثون بها ويمدون أيديهم إليها ، ولكن لا حاجة به فى الوقت نفسه إلى الوثوب على حقوق الناس ينتهكها ماوسعه الانتهاك . إن كل شىء فى هذه الدنيا بين طرفى رذيلة : تقصير وإسراف ، وقد مضى الدكتور الآن فى طريق الإسراف حتى بلغ غايته . وإلا فكيف أصف ما فعله مع السيد جيرمو دينجر إن

لم أقل إنه عمل قبيح ما كان جديراً بأن يصدر عنه ؟ ولست بذلك أزكى هذا الرجل ، فنحن جميعًا نعلم أنه رجل سوء ، ويعلم الله أننى لم أقل لأحد شيئًا عن ذلك ، وإنما أنا أقوله لك إذ هو الحقيقة الواقعة . أما أمره بإقامة سياج على مرج «كوروثاليتو» على الرغم من تحققه من أن هذا المرج لم يعد ملكًا له فقد كان من ضروب الاستفزاز والإثارة ، وهو فى حد ذاته اعتداء صارخ غير أنه لم يلبث أن زاد الطين بلة حينما قال لمستر دينجر متحديًا له : «إذا كنت معترضًا على ذلك ، فهل أنت مستعد لمنعى من القيام به بقوة السلاح ؟» فهذا الكلام لم يخلق لكى يفوه به سانتوس لوثاردو ، ثم إنه لا يمكن أن يترتب خير على مثل هذه الأعمال والأقوال ، فإن الأجنبى فى هذه الأرض يتمتع دائمًا من الحقوق والضمانات بما لا يعرفه المواطن . ولست على الرغم من ذلك قلقًا خائفًا مما سيجره هذا من عواقب ، ولكن قلقى وخوفى مما تعنيه مثل هذه الكلمات صادرة من فم الدكتور . ألا ترين أنت فى ذلك ما أراه أنا ؟ وكأن ذلك كله لم يكن كافيًا ، حتى أتمه باقتحام أرض السيدة باربارا مرتين حتى الآن ليخرج ماشيته من هناك دون أن يلتزم بأدنى الشروط المتبعة فى مثل هذه الأحوال ، وهو استئذانها أولاً . صحيح أنه لم يخرج من أرضها إلا ماشيته هو ، ولكن الذى تفرضه علاقات الجوار هو أن يطلب إليها الإذن له فى ذلك كما اعتاد أصحاب الضياع أن يفعلوا هنا كلما أرادوا أن يخرجوا ماشيتهم التى ترعى فى مروج جيرانهم . ولست أقول ذلك تخليًا عن سانتوس أو تنصلاً من تبعة أعماله ، فقد قلت له من قبل حينما بادأ الناس بالعدوان : اعلم أنك فى أى طريق مضيت فكن على ثقة من أننى وراءك ومعك أيان تذهب ! غير أن كل إناء بما فيه ينضح ، ولهذا فما كنا ننتظر من سانتوس لوثاردو أن يتبع فى أعماله وأقواله ما لا نستغرب من السيدة باربارا .

فسألته ماريسيلا ووجهها يتضرج بحمرة الخجل ، وإن كانت السكينة التى ملأت نفسها منذ اكتشافها العجيب لنفسها ماتزال مرتسمة على أساريرها :

- وهل تعتقد يا أنتونيو أننى لو كنت هناك لما حدث كل ذلك ؟

فأجابها ساندرفال :

- انظرى ياماريسيلا : لست أدعى ثقافة ولا علمًا ، ولكن لى مع ذلك من نفاذ النظرة ما أستطيع أن ألمح به أشياء معينة ، وحتى لو صرفت النظر عما يمكن أن يكون بينك وبينه ، وهو شيء ليس من شأنى أن أعرف ما إذا كان صحيحًا واقعًا أم لا ، فإن الذى بوسعى أن أقول هو أن ... كيف أعبر لك عنه ؟ سأقوله لك بطريقتى الخاصة : إنك بالنسبة للدكتور - ومعذرة فى هذا التشبيه - أشبه شيء بالحداء الذى درجنا على أن نسوق به الماشية ، إذا لم تسمع الترنم به فإنها سرعان ما يدركها النفار والجموح، فتظل مضطربة تواقة إلى الاستيحاش والتفرق . لست أدرى ، ما إذا كنت قد أحسنت التعبير عما أردت أن أقول .

فردت عليه ماريسيلا وقد علت وجهها حمرة الحياء مرة أخرى ، وإن كان تشبيه أنتونيو قد لقى من نفسها قبولاً واغتباطًا :

- نعم ... إنى أفهم ما تريد أن تقول .

- الحمد لله . إذن أنتهى الآن من حيث بدأت : إن ألتاميرا فى حاجة إليك ياماريسيلا .

ولكن ماريسلا أخلدت لحظات إلى التفكير ثم قالت .

- إننى آسفة جداً يا أنتونيو ، ولكنى لا أستطيع الرجوع إلى ألتاميرا ، على الأقل فى هذه الأيام . إن أبى لا يوافق على ذلك ، وأنا لا أستطيع أن أعصى له

أمرًا ، ثم إن لدى واجبًا ينبغى على أداؤه ؛ إذ إننى أريد أن أحمل أبى إلى سان فرناندو لأرى ما إذا كان فى وسع الأطباء هناك أن ينقذوه من داء الشراب ويصفوا له من العلاج ما قد يرد عليه بعض صحته ، فقد حطمه المرض ، وذهب بكل ما له من قوة .

فعاد أنتونيو يقول :

- ولكنى لا أرى بين الأمرين تعارضًا يمنع من الجمع بينهما .

فقالت ماريسيلا :

- بلى . أما أبى فإنه لا يريد العودة إلى ألتاميرا ، وما كان لى أن أخالفه فى هذا الأمر ، ثم إننا قمنا بالتجربة فى ألتاميرا ، فلم تأت بنتيجة مرضية ... انظر إليه الآن إلام انتهى ! ربما كان صحيحًا ما تقول من أن ألتاميرا فى حاجة إلىَّ ، ولكن أبى هنا إلىَّ أحوج .

- هذا صحيح لاشك فيه : فأبوك أولاً وقبل كل شىء ، ولكن ... من أين لك المال اللازم للذهاب إلى سان فرناندو ولعرضه على الأطباء ؟ أتريدين أن أتحدث فى هذا مع الدكتور ؟

- لا ... لا تقل له شيئًا على الإطلاق . إن لدى من النقود ما يكفى لذلك . لقد طلبته ممن كان ملزمًا بأن يعطينى إياه .

فقال أنتونيو وهو ينهض للانصراف :

- حسنًا ليكن ماترين، سيظل سانتوس من غير حداء يسكن ما جمح من نوازعه ، ولكنك محقة فيما قلت : أبوك أولاً وقبل كل شىء . وإنى أسأل الله أن توفقى إلى هذه الأدوية التى ستبحثين عنها للسيد لورنشو ، ولكن مثل هذه الرحلة تقتضى دابتين لكما وشخصًا يرافقكما . فإذا كنت تريدين ألا أتحدث

إلى الدكتـور عن ذلك فإنى أستطيع أن أرتب لك الأمـر دون أن يعلم ، فأرسل إليك رجلاً موضعًا لثقتى من رجـال الضيعة ومعه دابتان لك ولأبيك، ولو أننى أرى من الخير أن تذهبا فى أحد المراكب ، فـإنى لست أظن أن السيد لورنثو فى حالة تسمح له باحتمال سفر شاق طويل على ظهور الخيل .

- الصواب مارأيت ، فهو فى غاية من الضعف والتهالك .

- إذن دعى لى هذا الأمر ، فأنا زعـيم بتدبيره لك ، فمن المحقق أنه سـيمر علينا بين اليوم والغد أحد تلك المراكب التى تأتى مـصعدة فى مياه «الأراوكا» ، وأرجح الظن أنه سـيكون فارغًـا ، ففـى وسعك أنت وأبوك أن تجـدا فيـه مكانًا يكفيكما حتى يوصلكما إلى سان فرناندو .

ومضى أنتونيو ، أما ماريسيلا فـقد عادت إلى البيت ، فوقفت لحظات أمام السـرير الذى كان أبوها مـستلقـيًا عليـه ، وجعلـت تنظر بعينين ملؤهمـا الحب والعطف إلى ذلك الوجـه الذى حـفـرته الأخـاديد... نظرات لم يسـبق لهـا أن رمقته بها تتأمله كمـا تفعل الآن، ثم دنت من المـائدة ، فتناولت من فوقها تلك النقود الذهبيـة التى ستمكنهما من عـرض أبيها على الأطباء ومحـاولة شفائه ، وحـينما قـبضت يداها على هذه القـطع لم تشعـر بأى تفزز أو نفـور . لم يكن خوان بريميتـو قد غسل تلك الدراهم ، ولكن هذا الينبوع الخفى الذى اكـتشفت وجوده فى قرارة نفسها فى ذلك اليوم : ينبوع الرقة والبر كان كفيلاً بأن يسكب على نقود أمها من مياهه الصافية ما يطهرها تطهيراً .

الفصل السابع

تدبير غامض

أشعة شمس الأصيل تلقى ذهبها السائل على جذوع الأشجار المنتصبة فى الفناء، وعلى أعمدة السياج الخشبى ، وعلى الحظائر ، وعلى أوتاد الأكواخ الرابضة تحت الظلال البنفسجية التى تلقيها السقوف الشهباء ، وأخيراً غاب القرص الذهبى منحدراً وراء الأفق ، مخلفًا على فضاء المروج الهائل سحبًا طويلة تعترض الأفق الذى كان الظلام يهبط عليه شيئًا فشيئًا كأنها شرائح ضخمة غليظة من معادن منصهرة ، بعد أن ألقى عليها الشفق ألوانه المحمرة التى تشع الوهج والحرارة . وهناك على مدى البصر نخلة وحيدة سامقة تخط قوامها الفارع على صفحة الفراغ الذى كانت تسطع فيه آخر أشعة الشمس الغاربة .

من وراء هذا الأفق البعيد كانت تقع ألتاميرا ، وإليها كانت تتطلع نظرات السيدة باربارا التائهة كأنما كانت تريد أن تستشف الفضاء وتخترق الأبعاد .

وكان قد وصل إلى «ضيعة الرعب» منذ ثلاثة أيام نبأ إحراق بيت «الماكانيال» وسجن الأخوين «الموندراجونس» بعد أن سلمهما سانتوس لوثاردو إلى السلطات ، كذلك وصلت أنباء اقتحام سانتوس ورجاله لأرض ضيعة الرعب مخرجًا منها رءوس ماشيته دون أن يستأذن من السيدة باربارا قبل الشروع فى تلك المجاولات فى أرض غريبة ، أما رجال ضيعة الرعب فقد كانوا ينتظرون بفارغ الصبر أن تلقى إليهم سيدتهم بإشارة البدء فى أعمال الثأر والانتقام .

وطال انتظارهم دون أن يبدو على السيدة أنها مقبلة على اتخاذ قرارها فى ذلك ، وأخيراً قرر بالبينو بايبا أن يضطلع بسؤالها الشروع فى أعمال الانتقام ،

ودنا بالبينو إلى حيث وقفت السيدة باربارا متكئة على خشب السياج ونظراتها الشاردة الساهمة تتأمل المروج فى تفكير عميق صامت .

ولم يقدم بالبينو على الدخول فى الموضوع الذى أتى من أجله ، بل أراد أن يمهد له تمهيداً ملائمًا ، فأقبل ينتقل من موضوع إلى آخر فترة ما ، ولكنها لم تكن تعير حديثه كثيراً من الاهتمام ، بل كانت تجيبه بكلمات مقتضبة من مقطع واحد ، وكانت تتخلل عباراتها لحظات طويلة من الصمت كانت تتزايد وتستطيل حتى لا تبدو لها نهاية .

وفى هذه الأثناء كان رعاة الضيعة قادمين ببعض القطعان لإيداعها الحظائر ، وأغانيهم وحداؤهم تتردد فى الفضاء الهائل الصامت .

ووصلت الرءوس الأولى من القطيع يتقدمها قائدها ، وكان ثوراً كبيراً سنجابى اللون ، على أن هذا لم يلبث أن توقف فجأة لدى شجرة التين التى كانت تظلل باب الحظيرة ، ثم أطلق خواراً شديداً رج المكان كله ، وذلك أنه قد شم رائحة دماء كانت متخلفة بعد ذبح أحد رءوس الماشية هناك فى صبيحة ذلك اليوم ، واضطرب القطيع من ورائه ، وبدأ فى الحركة التى كانت تنذر بالثورة والجموح ، أما الثور السنجابى فقد ظل يدور حول الشجرة ويثير الأرض بأظلافه ويتشممها متحققًا من ذلك الشئ الفظيع الذى حدث فى هذا المكان ، فلما لم يبق هناك شك أطلق خواراً آخر هائلاً لم يكن فى هذه المرة يعبر عن خوف ولا ألم ، ثم انطلق إلى المروج الفسيحة ورءوس القطيع تركض من ورائه هاربة .

وصاح بالبينو فى الرعاة وهو يريد أن يريهم سلطانه وقدرته على الأمر والنهى .

– من منكم هذا الذكى الذى اختار باب الحظيرة لكى يذبح عنده البهيمة هذا الصباح ؟ ...

هذا بينما هرع الرعاة على صهوات جيادهم لكى يسدوا تلك الثغرة ، ويلاحقوا الماشية الهاربة حتى يعيدوها إلى حظائرها . وأخيراً استطاعوا تجميعها من جديد وسوقها إلى حظيرة أخرى بعيدة عن شجرة التين .

وأغلق الرجال أبواب الحظيرة ، ولكن البقر ظل فى داخلها يضطرب ويخور فى جزع وخوف ، وفجأة قالت السيدة باربارا :

- حتى الماشية نفسها تتقزز وتفزع من دم أمثالها !

ونظر إليها بالبينو نظرة خزراء وقد علت وجهه الدهشة ، وتساءل مخاطبًا نفسه :

- ياللعجب ! أمثل هذا الكلام يصدر عنها هى ؟

ومضت لحظات ، وواصل بالبينو تفكيره مخاطبًا لنفسه :

- هم ... م ... م ! ليس فى العالم «بوصلة» يمكن للمرء أن يكشف بها عن اتجاهات هذه المرأة ونزعاتها وما يدور فى خلدها . إن الحصان - وهو بهيمة عجماء - لا يعسر على الرجل منا أن يعرف فيم يفكر إذا نظر إلى أذنيه فرأى أيهما أمال ، أما هذه المرأة فإن الذى يحاول أن يستكنه سر ما يدور فى تفكيرها يكون أشبه بالراقص على الحبل .

ثم انصرف عنها فى يأس .

والواقع أن معرفة ما كانت تفكر فيه باربارا لم تكن عسيرة مستعصية على بالبينو بايبا وحده - فقد كان هذا بطبعه غبيًا بطئ الفهم - بل إنها هى نفسها لم تكن فى هذه اللحظة تعرف حقيقة ما كانت تفكر فيه وتدبره .

لقد كانت باربارا تريد فتح صفحة جديدة فى كتاب حياتها وسلوك سبيل أخرى غير التى سلكت حتى ذلك الوقت ، ولكن ماضيها وأعمالها عادت مرة أخرى تسد عليها الطريق . إن كلمات لوثاردو التى ألقى بها فى وجهها معرضًا

بأنها هى مدبرة جريمة «مرج الشجرة» مازالت تتردد فى أذنيها ، وهى التى كانت مقدمة فى هذه اللحظة عينها على أن تبوح له بأنها قد اكتشفت مرتكب الجريمة أو كادت ، وبأنها ستسلم الجانى إليه شخصيًا بمجرد وضع يدها على القرائن الكافية . لقد كانت شكوك سانتوس فيها هذه المرة ضربًا من الظلم والافتراء ... ولكنها تمعن فى التأمل فيسوقها ذلك إلى هذه النتيجة : ولكن ألم يكن فى هذا الاتهام الظالم أولاً وأخيراً تحقيق لحكم من أحكام العدالة فى تصرفاتها وجرائمها الماضية ؟ وإذا كانت حقًا بريئة من جريمة «مرج الشجرة» فكم من جريمة دامية وكمين غادر احتفظت بأسرارها أدغال تلك المروج ومكامنها ؟ وإذا كان بالبينو بابيا هو الذى لطخ يده بدم ذلك القتيل لرغبة فى نفسه دفعته إلى اقتراف تلك الجناية لحسابه هو فكم من مرة أخرى كانت يد ملكيادس هى صاحبة الضربة الغادرة القاتلة تنقض على السائر فى تلك المروج من حيث لا يحتسب ، بتدبير منها هى أحكمته ووضعت خطته ؟ ثم بالبينو بابيا نفسه ، ألم يكن بالنسبة لها مخلب قط تستخدمه أداة طيعة لتنفيذ خططها الشريرة البشعة ؟

نعم ... كانت كل هذه الجرائم لاتنفك تعرض لباربارا فتقف أمامها عثرات فى تلك الطرق الجديدة التى كانت تحاول انتهاجها ، فظلت خلال هذه الأيام الثلاثة منقطعة إلى التفكير فى ماضيها الأسود ، وسياط من الغضب تنهال على قلبها واحدًا بعد الآخر ضد جميع من كانوا أعوانها أو أدواتها فى تلك الجرائم : ضد بالبينو بابيا الذى علق سانتوس على رأسها جريمته ، وضد حامى ظهرها المشئوم الذى احتفظ صدره بكل ما اقترفت يداه بأمرها وتدبيرها ، بل كانت نار غضبها تتأجج فتنقلب أيضًا على ضحايا جشعها وقسوتها ، فقد كانت لا تخليهم من تبعة تلك الطريق التى أمضت حياتها فيها ؛ إذ إنهم اعترضوا حياتها «فاضطروها إلى إزالتهم والتخلص منهم» ، وضد هؤلاء الرجال المحيطين بها فى الضيعة ممن لم تكفهم كل تلك الجرائم ، فجاءوا يطالبونها بأن تبدأ سلسلة جديدة من أعمال الثأر والانتقام ، وهى تنعم النظر فى

هؤلاء الرجال الـذين كانوا يعملـون فى خدمتـها : إنهم ليـسوا إلا عـصابة من المجرمين وقطاع الطرق ، شركـاء وصنائع لها فى جرائمها الماضيـة ، متعطشون إلى الـدم ، فـمـا أكثر مـا كانوا يرفـعون نظراتهم إلى وجـهها حينمـا يرونها وكأنهم يـتساءلون : « مـا الذى تنتظرينه لكى تأمـرينا بقتل الدكـتور لوثاردو ؟ ألسنا هنا من أجل ذلك ؟ ألا يكفى مافعله بنا حجة قاطعة تقتضى منا أن نسفك دمًا بدم ؟» .

وأخيرًا انطلق خوان بريميتو إلى ألتاميرا يحمل رسالة إلى سانتوس لوثاردو :

- «فى هذه الليلة عند طلوع الـقمـر سيكون فى انتظارك فى مـرج «الركن العميق» شخص لديه ما يقوله لك حول جريمة «مرج الشجرة» ؛ فإذا كنت تجسر على لقائه فاذهب وحدك لتسمع ما سوف يلقيه عليك» .

وذهب خوان بريميتو ثم عاد إلى سيدته بجواب لوثاردو :

- «قل لها إنى موافق ، سأذهب وحدى» .

وكان ذلك فى الصباح بعد أن نادت ملكيادس وقالت له :

- أتذكر ما قلته لى منذ أيام ؟

- أذكره ياسيدتى ، وهو لا يفتأ ماثلاً أمام عينى !

- إذن كن مسـتعـداً ، ففى هذه الليلة عـند طلوع القمـر سيكون الدكـتور لوثاردو فى مرج «الركن العميق» .

- وأنا سآتيك به حيًا أو ميتًا !

* * *

الليل يقترب ، وعن قريب سيمـضى حارس ظهر السيدة باربارا فى طريقه إلى المكان الموعـود ، ولكن باربارا لا تتـمكن حتى هذه اللـحظة من معـرفة مـا كانت هى نفـسهـا تهدف إليه من هذا الكمين ، ولا أى شـعور سـيضطرب فى نفسها وهى تنتظر طلوع دارة القمر فى الأفق .

لقـد ظلت باربارا حتى ذلك الوقـت سرًا مـستـغلقًا على الجـميع . كـانت «المرأة الغامضة» التى لم يفطن أحد أبدًا على حقيقـة مراميها وأهدافها ، ولكنها الآن سر مـستغلق على نفـسها ، وهى لا تفكر فى مـراميها وأهدافـها إلا ورأت نفسها فى ظلام مطبق عميق .

الفصل الثامن

المجد الأحمر

لم يفت سانتوس لوثاردو أن فكرة دعوته على هذه الصورة البعيدة عن كل منطق لكى يقع فى الكمين الذى أعد له لم تكن لتنبع إلا من ذهن مضطرب مخبول ، ولكنه كان بدوره قد بدت عليه.مظاهر التهور وعدم الاتزان حينما قرر أن يغتنم هذه الفرصة لكى يثبت للسيدة باربارا أنها لن تكسب شيئًا من محاولة إرهابه ، وإذا كان قد ثبت له أنه لن يتمكن من المطالبة بحقوقه المغتصبة أمام سلطات القضاء التى كانت خاضعة لمايفرضه عليها العنف ، فإنه سيعرف كيف يحمى تلك الحقوق فى المستقبل مستنداً إلى القانون الوحيد الذى تدين به الهمجية : قانون القوة المسلحة . كان هذا العزم الجرئ قد استقر فى نفس سانتوس لوثاردو حينما اتخذ طريقة وحيداً فى عصر ذلك اليوم إلى «الركن العميق» ، على أنه لم يذهب فى الموعد المحدد ، بل أراد أن يسبق الساعة حتى يتجنب أى ضربة غادرة توجه إليه تحت ستار الظلام .

ولكنه لم يكد يصل إلى قرب المكان الموعود حتى استطاع أن يتبين هناك فارسًا قد وقف لدى سفح الجبل الذى كان يدور حول المرج الذى تحدد اللقاء فيه ، وخاطب سانتوس نفسه قائلاً فى غيظ :

– أنا هكذا دائمًا ... أتخلف مهما أسرعت !

غير أنه لما دنا إلى حيث لاح له شخص الفارس إذا به يرى أنه باخاروتى .

حتى إذا كان منه بحيث يسمعه سأله فى لهجه آمرة :

– ما الذى أتيت تصنع هنا ؟

فأجاب الرجل :

- سأشرح لـك كل شيء يادكتور : حينمـا اجتمع بك خوان بريميـتو فى هذا الصـباح ليـبلغك الرسـالة التى أوعـزوا بها إليـه ثار فى خـاطرى أن ذلك شيء لايمكن أن يأتى منه خـيـر ، فتـبعـت خطاه وتركتـه حـتى توارى عن نظرك ، ثم شددت وراءه حتـى لحقت به ، وغرست مسـدسى فى صدره لا لشيء إلا لبث الخوف فى نفسـه ؛ إذ إنى أعلم أنه لايكاد يرى مسدسًا حـتى تكاد روحه تزهق من جسده ، ثم أرغمته على أن يكرر على مـسمعى الرسالة التى حملها إليك ، وعرفت منه أيضًا أنك وعدت بالذهاب إلى الموعد ، ولقد هممت أكثر من مرة بأن أنصحك بألا تـفعل ، ولكنى كنت أرى على قسـمات وجـهك العزم الذى لارجعة فـيه ، وهكذا قلت لنفسى : إنه لم يبق إلا أن أسـبقك إلى المكان وأقف إلى جوارك منتظرًا لما يكون خيراً أو شراً .

فقال له سانتوس فى جفاف :

- لقد أسأت صنعًا بتدخلك هذا فى أمورى الخاصة .

- لست أعارضك فيما تقول ، ولكنى مع ذلك غير نادم على مافعلت .

فإنه إذا كـان من الحق أن لديك من الشجاعـة ماليس لدى كثـير من الناس فاسمح لى أن أقول إنه ينقصك شئ مـن المكر والدهاء . هل تعرف يا سيدى ما إذا كان القادم للاجتمام بك رجلاً واحداً ؟ .

- حتى ولو كانوا رجالاً كثيرين ، فاذهب ودعنى وحدى .

فأجاب باخاروتى وهو يحك رأسه :

- انظر يادكتور . الأجير من أمثـالى أجير على كل حال ، وعليه أن يسمع ويطيع إذا ما أصدر إليه رئيسه أمراً ، ولكن اسمح لى بأن أذكرك بشيء : هو أن رجل السهـول ليس أجيـراً إلا فى أثناء العمل ، أمـا فى هذه الساعـة التى نحن فيها ، وفى ذلك الموضع الذى اجتـمعنا لديه ، فليس هناك أجير ولا رئيس ، بل رجل هو أنت ، ورجل آخر يريد أن يظهـر لك أن مستعـد للتضحية بـحياته فى

سبيلك ، ولهذا فإنه قدم وحده وكان بوسعه أن يحضر معه رفاقه وأصحابه ... قدم حتى يتحمل معك مايمكن أن تتعرض له من سوء. هذا الرجل هو أنا ، وهو لن يتحرك من هذا المكان .

وبلغت كلمات باخاروتى الصريحة من نفس سانتوس لوثاردو كل مبلغ ، بما فيها من تعبير صادق ، لاتعمل فيه ، عن الإخلاص والولاء ، حتى إنه بدأ يراجع نفسه ويقول إن القوة المسلحة ليست هى كل شىء فى قوانين حياة السهول ورسومها ، بل إن فيها وفى أهلها خلالاً أخرى جديرة بأن يقدرها المرء حق قدرها ، وقبل سانتوس رفقة باخاروتى بعد أن شد على يده فى صمت .

وأضاف باخاروتى :

- ولتذكر أيضًا يادكتور ما أنا قائل لك فهو خلاصة تجربة طويلة : إن السهلى يمكن أن يذهب وحيداً إلى حيث يقولون ، ولكنه لايجئ إلا وفى رفقته أحد ، أما العكس فإنه لايحدث على الإطلاق . وشىء آخر لاتنسه أبدًا : ابدأ بالهجوم إذا رأيت نفسك فى خطر ، لقد فتشت نواحى هذه الجبال كلها ، فتبين لى أن المدخل منها ينبغى أن يكون فى هذا الاتجاه الذى نحن الآن ناظرون إليه . فلنعمل على الاختباء وراء هذه الشجيرات ، ولنتربص هناك حتى يطلع علينا القادم أو القادمون ، وحينئذ نخرج ونحن عارفون على أى صورة نرد الهجوم ، ولكنا إذا فعلنا فلا بد أن ننقض بسرعة حتى نفاجئ الخصم ، واعلم ياسيدى أن الذى يضرب أولاً فإنه يضرب مرتين .

وكمن الاثنان فى المكان الذى اختاره باخاروتى ، وظلا هناك وقتًا طويلاً وهما يرقبان البطحاء الممتدة فى سفح الجبل من حيث ينبغى أن يخرج القادمون من «ضيعة الرعب» ، وكانا ملتزمين للصمت ، وإن كانت تتردد فى آذانهما أصوات جماعات القردة وهى تتلاغط متوجهة إلى مواضع نومها المعتادة . وهبط الظلام على المكان فغمره كله ثم بدأ القمر فى البزوغ من أقصى أطراف المرج ، ومع أشعته الأولى بدا فى الأفق شبح «الساحر» على ظهر حصانه ، فلما رآه سانتوس تمتم وقد بدت على وجهه علائم الاستياء :

- إنه قادم وحده بالفعل ، بينما أنا أنتظره ومعى رفقة .

فأجابه باخاروتى وهو يريد أن يخفف عنه ويزيل تحرجه :

- تذكر ياسيدى ماقلته لك منذ قليل: السبق بالهجوم إذا شممت الخطر أو توقعت الغدر ، وما فى أخذ الحذر عليك من عار . إن هذا الرجل آت وحده على مايظهر ، إلا إذا كان له رفاق قد كمنوا من ورائه فى بعض المراصد . ولكن هاهو «الساحر»، وهو رجل لم نعهد منهم أن يبعثوه لكى يطرب الأسماع بحديثه . وإذا كان قادمًا وحده فالأمر أسوأ والنية على الشر أعظم ؛ إذ إنه ممن لايقبلون رفقة أحد إذا كان موفدًا لمهام معينة لها خطرها ، فاتركه يطمئن ويستوثق حتى يخرج من تلك البطحاء ، ثم نطلع عليه نحن . ولو أنى أوشك أن أقول لك : دعنى أنا له ، فأنا كفيل بأن أستل هذا الشبح من ثيابه على الرغم من كل ما شاع من شهرته وصيته ، فإن أشجع منه وأكبر قد تركوا من قبل قمصانهم بين يدى هاتين !

فقال لوثاردو :

- كلا ! إن هذا الرجل قادم إلىَّ ، وعلىَّ أنا أن أخرج إلى لقائه وحدى دون غيرى؛ فأبق أنت هنا ولاتتحرك .

ثم خرج من مكمنه إلى حيث المرج المكشوف .

أما «الساحر» فقد واصل التقدم ، ومطيته تسير به فى بطئها المعهود، ولكنه توقف بعد ذلك فجأة ، وتوقف سانتوس أيضًا وظل الرجلان يرقب أحدهما الآخر من بعيد فى صمت ، وبدا على «الساحر» أنه لاينوى المضى فى طريقه ، ونفد صبر لوثاردو وهاج الانتظار من أعصابه ، فهمز جواده وركض بسرعة قاطعًا المسافة التى كانت تفصله عن الرجل الواقف إزاءه .

وقال لوثاردو :

- إذن هم ضربوا لى هذا الموعد حتى تتمكــن أنت ومن معــك من قتلى كـمـــا يقـتــل كلب من الكــلاب ؟ فـإذا كـان الأمـــر كـذلـك فليـخـرج رفاقــك الكامنـــون وراءك مرة واحدة .

وأحس سانتوس بحركة من خلفه ، فقدر أن باخاروتى لم يطع أمره بالبقاء ساكنًا فى مكمنه، بل مـضى من ورائه يتعقب خطاه ، فـهم بالالتفات إليـه حتى يأمره بالتراجع ، وفى هذه اللحـظة رأى التماع مسدس «الساحـر» وهو يخرجه فى سرعة من ملحفته التى بسطها على ظهر الجواد .

وأخرج لوثاردو مـسدسه فى عـجلة ، ثم دوى فى الجو صـوت طلقتين فى وقت واحد، وإذا بملكـيادس ينكفئ على عـتق مطيته ، فـتملك الذعـر جواده ، ونفر قاذفًا بـه إلى الأرض ، فهوى جسد الرجل صريعًـا لليدين وللفم ، جـامداً لا حراك به .

وأحس سانتوس فجأة بهول مافعل ... كان إدراكه للموقف أشبه بوميض برق ساطع لمع فى روحه فجأة ، ولكن وقعه عليه كان كوقع فأس على عنقه ... لقد أزهق روح رجل !

ودنا منه باخاروتى ، فأخذ يتأمل جسد القتيل لحظة ثم قال :

- حسنًا يادكتور . والآن ماذا نفعل بهذا الميت ؟

وكان سـانتوس لوثـاردو فى شغل عن سـؤال تابعه ، فـقد كان سـادراً فى تفكير عـميق بعيد حتى إن كلـمات باخاروتى الموجزة الواضحـة بدت كأنما لم تصل إلى حيث قـبع ضميـر لوثاردو إلا بعد رحلة طويلة اختـرقت فيهـا أجواء فـضاء واسع حـتى تحـدرت إلى غور سـحيق . وأخيـراً اضطر باخـاروتى إلى الإجابة عن سؤاله :

- خير مـا نستطيع أن نفعل هو أن نثبتـه على دابته ، ثم أربطها إلى دابتى ، ونمضى به إلى بيوت «الرعب» ، حـتى إذا بلغناها فككت جواده وهجـهجت به حتى يركض إليـهم ، ثم أصيح بهم : «إليكـــم ذلك الشىء الذى بعـثتم به إلينا فى الركن العميق !» .

وبدا على سانتوس كأنما كان يصحو من حلم ثقيل مخيف ، ثم ترجل عن دابته وقال :

- أعطني جواد هذا المجرم . سأتكفل أنا بحمل جثته إلى التى بعثت بها إليَّ .

وردد باخاروتى إليه أنظاره ، فإن اللهجة التى نطق بها سانتوس لوثاردو هذه الكلمات كانت تلقى على صوته مسحة غريبة لم تعهد فيه من قبل ، كذلك كان التعبير المظلم المتوحش الذى ارتسم على وجهه جديداً غير مألوف :

- افعل ما أمرتك به . أعطنى هذه الدابة .

وأطاع باخاروتى ، ولكنه عاد إلى اعتراض سانتوس من جديد حينما رآه منحنيًا على الجثة محاولاً رفعها عن الأرض :

- لا ياسيدى الدكتور . هذا عمل لايليق بك أن تقوم به . احمل أنت جسد هذا الرجل إذا شئت إلى السيدة باربارا مادمت مصراً على أن تقدم إليها هذه الهدية ، ولكن على باخاروتى أن يتولى رفعه عن الأرض ، فأمسك أنت الدابة ريثما أضعه على عنقها .

وأتم الرجلان العمل ، ثم ربط باخاروتى مطية «الساحر» إلى حصان سانتوس ، وأراد أن يظل ملازمًا له فى مسيره ، ولكنه خشى أن يأبى لوثاردو ذلك عليه ، فعمد إلى الحيلة ، وقال لسانتوس ناصحًا له :

- إنى أرى هنا على الأرض آثاراً لأظلاف بعض ماشية «ضيعة الرعب» ، فلو أننا تبعناها لأوصلتنا سريعًا إلى بيوت الضيعة ، فلنسر فى اتجاهها .

ووافق سانتوس على مرافقة باخاروتى له ، ولكنه لم يكد يصل إلى حيث تراءت لهما بيوت الضيعة حتى قال لتابعه :

- انتظرنى هنا .

وعـاد سـانتـوس إلى تأمل نفسـه . هـا هو ذا يرى أخـيـرًا كـيف بدأ هذا الإرهاص الذى كان يعتـمل فى نفسه يتحـول إلى حقيقة رهيـبة على الرغم من إرادته ، لقد كان أكثر مايخشاه هو أن يعـود إلى تلك الهمجية التى طالما جثمت مشاهدها المفـزعة على صدره فى صباه المبكر ، ولكن ها هو ذا نفـسه يعود إلى الوقوع بين براثنهـا مرة أخرى على أسـوأ صورة ، وها هو ذا يرى كـيف تنتهى إلى فـشل ذريع كل تلك الجـهود التى بذلهـا حـتى ينجو من سـيف الوحـشيـة المصلت على حياته ، وحـتى يخمد هذه الانفعالات المتهورة العـنيفة التى كانت جـذوتهـا كامنـة فى دماء أجـداده وآبائه من آل لوثـاردو ، أولئك الذين توارثوا المزاج المتـفجـر كابرًا عن كـابر ، والذين كانوا لايدينون إلا بشـريعة الـشجـاعة المسلحة المتوحشة . لقل ظل سانتـوس طيلة سنواته الماضية فى المدينة يجتهد فى أن يتحول إلى رجل متحضر لايـنقاد لعواطفه ، بل يخضع هذه العواطف لمنطق المبادئ وأحكام المثل ، وكان يبـذل فى سبيل ذلك جهدًا لايفـتر ، ويواصله بعزيمـة لا تلين ، ولكن كل هذا العمل الذى استـغرق منه خير سنى حيـاته قد انهار فى لحظات كأن لم يكن ، فى أمسـية ذلك اليوم الذى أراد أن يستعرض فـيه جرأته ورجولته ، فمضى بقدميه إلى الكمين الذى نصب له فى «الركن العميق» .

ولم يكن أهول مـا فى الأمر وأبشـعه كـونه اضطر للدفاع عن نفـسه بقـتل روح حـية ، ولا ذلك الموقف الوحـشى الذى جعله يـرتكب خطيـئة ترتعد لهـا أوصال المبـادئ والمثل التى تأصلت جذورها فى نفسـه ، وإنما كان اكتسـابه مثل هذه التجـربة التى كتبت عليـه كما يكتب القـدر هو ما يثيـر الرعب والهول فى نفسه ، كان هو شعوره بأنه قد اندرج منذ تلك اللحظة فى سلك أولئك الرجال الذين تلوثت أرواحـهم وأيديهم بالدم المسفـوك . كان سـانتوس لوثاردو يـقدر ذلك العمل الذى أتته يداه : صحيح أن لقتله ذلك الرجل - وإن كان أمرًا ممكن التـجنب لو أنه عـدل عن قـبول التـحـدى والمضى إلى الكمين المدبر - عـوامل تخفف من وقعه ، بل وتبرره ، فهو لـم يقتـل إلا دفـاعًا مشروعًا عـن النفس ؛ إذ كان ملكيادس هو البادئ بمد يده إلى السلاح ؛ ولكن كسب تلك التجربة

نفسه هو الذى وصم روحه بوصمة لايغفر فيها ذنب ولايشفع تبرير ، فهو أمر لم يكن نابعًا من انـدفاع تلقـائى ولا إرادة مبيـتة ، بل هو ناتج عن اتفـاق ظروف مشئومة لاتجتمع إلا فى هذه البيئة المتوحشة المسيطرة على السهول . لقد انتمى لوثاردو بهـذه الفعلة إلى زمرة الـرجال الذين اضطروا إلى تحقـيق العدالة بأيديهم المسلحة ، وهذا هو أسـوأ مافى الأمر، وهو الحقيـقة التى ليس الآن منها مفر ولامهـرب . منذ الآن سيطير ذكره فى حوض الأراوكا تتـوجه أكاليل الغار الأحمر بعد أن قتل حامى ظهر السيدة باربارا وأكثر رجالها بطشًا وجرأة ، ومنذ الآن ستظل حـياته كلها حـتى آخر رمق له مرتبطة بهـذا المجد ؛ إذ إن الوحشـية لاتغفر لمن يحاول الملاءمة بينها وبين أفعاله ... الوحشية هى التى تسود وحدها تلك البيئـة ، وعلى من يقبل السير فى طـريقها أن يستسلم لأحكـامها عند نداء السلاح .

ولكن ... ألم يكن يعرف - حـينما قرر المضى إلى «الركن العـميق»- أنه مقـدم على قطع آخر خيط يربطه بالحـياة المتحضـرة ؟ ألم يكن منذ هذه اللحظة مصممًا على أن يصبح زعيم هذه السهول وقائدها الأوحد حتى يتخذ من ذلك وسيلة تمكنه من القضاء على همجية الإقطاعيين ؟ وكيف كان يتمكن من تحقيق ذلك إلا بالقـوة المسلحة و «المجـد الأحمـر» حتى يتـخلص من أعدائـه وأعداء الحـضـارة ؟ ألم يقل من أول الأمـر إنه يقـبل الطريق التى رسـمـوها له، والتى كانت تقتضى منه أن يرد العـدوان بالعدوان ؟ لقد مضى فى تلك الطريق ، وهو الآن لا يستطيع الرجوع .

وتقـدم سـانتوس لوثـاردو وحده إلى بيت الـسيـدة باربارا يحـمل حـمله الرهيب ... تقدم وحيداً وقد تحول إلى رجل آخر !

الفصل التاسع

مهارشات مستر دينجر

كان مستر جيرمو دينجر يستعد للذهاب إلى فراشه حينما سمع نباح الكلاب في الخارج ، ووقع حوافر حصان يدنو من باب داره ، وتساءل الرجل وهو يفتح الباب ويطل منه :

- ترى من يكون القادم فى مثل هذه الساعة ؟

وكان القمر قد بدأ فى الطلوع ، ولكن مروج «القناة الملحة» حيث كان الأمريكى يقيم كانت ماتزال مجللة بظلام كثيف تحت سماء تلبدت فيها الغيوم ، فجعلت الجو حاراً خانقًا .

وصاح مستر دينجر أخيراً وهو يتبين طلعة ذلك الزائر الذى أتى على غير موعد :

- أوه ! السيد بالبينو ! ما الذى أتى بك إلى هنا فى مثل هذه الساعة ؟

- لا شيء إلا تحيتك ياسيد جيرمو ، فقد كنت ماراً من هنا بمحض الصدفة ، فلما رأيت نفسى قريبًا من دارك قلت : لأعرج على السيد جيرمو حتى أحييه وأتحدث معه قليلا ؛ إذ إننى لم أره منذ أن قدم من «سان فرناندو» .

ولم يكن مستر دينجر ممن ينطلى عليه مثل هذا القول ، فهو لم يكن يثق فى صدق بالبينو ولاسيما فى تلك العبارات التى حاول بها أن يصطنع علاقة من المودة لم تتوثق قط بينهما ، ثم إنه حتى ولو وجدت مثل هذه العلاقة فإن مستر دينجر ماكان ليعتز بها ولا ليقدرها ؛ إذ إن بالبينو - بغض النظر عما كان يجمع بينهما من التواطؤ فى بعض أعمال السطو - لم يكن بالنسبة إلى

الأمريكى إلا واحداً من هؤلاء الذين كـان يسميهم «أصدقـاء الويسكى» ، فقد كان الرجل يقدمه إليهم فى كرم وحفاوة .

ولهذا فإنه سرعان ما استقبله فى عبارات ترحيب مشوبة بالسخرية :

- أوه ! ياله من شرف عظيم قـد أوليتنى إياه ياسيد بالبيبنـــو؛ إذ جئـــت لتحيتى فى هذه الساعة وأنا أكاد آوى إلى فراشى . شكرًا جزيلاً ياسيد بالبينو ! ألا ترى أن هذه العبارة تستحق كأسًا من الويسكى ؟ تفضل بالدخول والجلوس ريثما أعـد لك الكأس . ولا تخف من الفهـد الصغيـر ؛ إذ لم يعد هناك خطر منه ؛ فقد مات مع شديد الأسف ... المسكين ! .

فصاح بالبيبنو وهو يجلس :

- أحقـا ! ياله من خبر محـزن ! لقد كان هذا الفلو حيـوانًا جميلاً حـقًا ، وقد كـنت شديد الولع به . لابد أن فـقده كـان شديد الوقع عليـك ، فقـد كان يؤنسك فى وحدتك .

- أوه ! تصور أنت : لقد كنت متعوداً على ألا آوى إلى مضجعى كل ليلة حتى أقضى معه وقتًا ليس بالقصير ألاعبه وأهارشه .

قال ذلك مستر دينجـر وهو يصب الويسكى فى قدحين من زجاجة جديدة كان قد فتحها لتوه .

وشرب الرجلان كأسيهما ، ثم مسح بالبينو شاربيه الغليظين وقال :

- شكرًا ياسيد جيرمو ، جعله اللّه لك صحة دائمة .

ثم واصل حديثه :

- وأنت ... كيف أخـبارك ؟ لقد مكثت فى «ســان فرناندو» زمنًا طويلاً فى هذه المرة ، ترى ذلك لنسيان الألم الذى خلفه فى نفسك موت الفهد ؟ لقد تردد بين الناس هنا أنك قـد عـدت إلى بلادك ، ولكنى كنت أقـول لهم : إن السيـد

جيرمـو لن يعود إلى بلاده ، فقد أصبح جزءاً من هذه الأرض وأصـبحت جزءاً منه ، بل إنه أكثر حقًا فى المقام بها من كثير من أهلهـا ، ولو أنه غاب عنها زمنًا لعاد به إليها حنينه إلى «الجواتشافيتا» (*) .

- صدقت ياسيد بالبينو . لقد ذكـرتنى ... إن «الجواتشافيتا» هى ألذ ما فى هذه الأرض . وإنى فى ذلك لأتمثل بما كان يقـوله «جنرال» من قوادكم العظـام لا أذكر اسـمه الآن ؛ فقـد كان كثـيراً مايقـول : «إذا انتهت «الجـواتشافيـتا» من أرضكم فإنى ذاهب !».

وأطلق ضحكة عريضة كوجهه العريض الأحمر :

- ألم أقل أنا ذلك ؟ إنك قد أصـبحت أكثر تأصـلاً فى أرضنا من صلصة «الجواساكاكا»(*) .

- و «الجواسـاكاكـا» أيضًـا لذيذة على الرغم من طعمـها الحـارق اللذاع . لكأن كل الكلمات التى تبدأ بمقطع «الجوا ...» هى المتعة بعـينها : «الجواتشافيتا» ، و«الجواسـاكاكا» و «الجواريتـشا(*) » الجمـيلة ... لنشرب كأسًـا أخرى نخب لذائذ الحيـاة ، كما اعتـدت أن أفعل فى رفقة الأصـدقاء الخلص حينمـا يضمنا مجلس شراب وأنس .

فـقال بالبـينو فى لهجـة متـملقـة وهو يمهد الجـو لما أراد أن يمضى فيـه من حديث :

- آه يامـسـتـر دينجـر ! ألا ليت جـميع الأجـانب الذيـن يأتون إلى بلادنا مثلك!

ثم أقبل مسـتر دينجر على ضيفه يسـائله وقد أخرج «بيبته» وأخـذ منها عدة أنفاس:

- وأنت ياسيد بالبينو . كيف أحوالك ؟ وكيف حال العمل ؟ وهل السيدة باربارا كـالعهـد بهـا جـمالاً وأنوثة ؟ إن هذه شىء لايبـدأ بمقطع «الجـوا ...»،

ولكنه رغم ذلك لذيذ ممتع . أليس كذلك ياسيد بالبينو ؟ ... ياللك من بالبينو ماكر تعرف كيف تدير رءوس النساء ! ...

وتعالت ضحكات الرجلين كما هي عادة الخبثاء إذا كان بعضهم كاشفًا لسر صاحبه ، ولكن بالبينو اعتدل بعد ذلك في جلسته ، ودخل في الموضوع الذي أتى من أجله بعد تلك المقدمة ، وبعد أن تحسس شواربه عدة مرات :

- أما العمل فإنه لم يكن سيئًا هذه السنة ، ولكنك ياسيد جيرمو تعلم أن الفقير فقير دائمًا ، وهو مايزال متعرضًا أبدًا لأزمة طارئة تزيد من حاجته إلى المال .

- أوه ، لا تصطنع البكاء الآن ياسيد بالبينو . إن لديك كثيرًا من المال مدفونًا تحت الأرض ... نعم ... مال كثير . إن مستر دينجر يعرف ذلك !

وبدت من بالبينو لفتة مذعوة صدرت عنه من غير وعي ، ولكنه تمالك نفسه وأسرع بالإجابة :

- ليت ما تقول صحيح . إنما نحن نعيش على الكفاف فقط مصلحين من أمورنا ما اعوج على قدر مانستطيع . إن تجارةً رأس مالها لايزيد على أربعة دوانق - وهو كل ما أستطيع أنا وضعه - لتجارة كاسدة لايمكن أن تسمح بادخار مال له قيمة . هذا شيء يصلح للسيدة باربارا أو لك أنت وأمثالكما ممن يملكون أرضًا وماشية ، أما أنا فإنني لم أستطع أن أجمع طوال هذه السنة إلا نحو أربعين رأسًا اقتنصتها من هنا وهناك . ومادمنا قد تحدثنا عن ذلك فإن لي رجاء إليك ياسيد جيرمو : اشتر مني هذا القدر من الماشية فإنني الآن في أزمة وأنا محتاج إلى بعض المال ، وكن واثقًا من أنني سأتركه لك بمبلغ زهيد .

- هل أحكمت إزالة السمات المكوية على جلود هذه الماشية ؟

وكان بالبينو أبرع الناس في استخدام هذه الوسيلة التي كانت موضوع سؤال مستر دينجر ، فقد كان يعمد إلى تلك الماشية المسروقة من الضياع

المجاورة ، فيزيل ماحملته أفخاذها من سمات الضياع التى سرقها منها حتى يبيعها بعد ذلك على أنها ماشيته دون أن يفطن المشترى إلى ذلك أو يتعرض هو لأية شبهة ، وعلى الرغم من أن بالبينو بايبا لم يكن يهمه أن يتحدث عن ذلك فى صراحة إلى الأصدقاء الذين ارتفعت بينه وبينهم الكلفة ، فإن سؤال مستر دينجر فى هذه المرة لم يقع منه موقع الرضا ، فأجاب فى كبرياء وتعال كأنه اعتبر ذلك السؤال إهانة لشرفه وطعنًا فى أمانته :

- إن هذه الماشية كلها من حر مالى لم يدخلها حرام قط !

فقال مستر دينجر :

- هذا إذن شىء آخر ؛ إذ إن هذه الرءوس لو كانت مما وضعت عليه اليد من ماشية الدكتور لوثاردو - حتى وإن كانت السمات التى تحملها غير واضحة - فإننى لن أمد يدى إلى مثل هذه الصفقة .

فتساءل بالبينو فى دهشة وإنكار :

- وهذا التورع ياسيد جيرمو ، منذ متى بدأت بالتزامه ؟ ومن أى وقت أصبحت تتحرى مصدر ماتشتريه من ماشية ؟ لقد عهدتك دائمًا تشترى ماشية مسروقة من ضيعة لوثاردو بعد كشط السمات التى تحملها . وأنت تعرف ذلك دون أن تعترض عليه أدنى اعتراض . ففيم هذا الحذر والتوقى اليوم ؟ أم لعل هذا الصبى مخنث ألتاميرا قد تمكن أيضًا من بث الخوف فى نفسك وأرغمك على أن توصد دونك أبواب حظيرتك كما اعتاد الناس أن يقولوا هنا ؟!

وامتعض دينجر من هذه الإشارة فأجاب وقد بان عليه الضيق :

- لست ملزمًا بأن أبين لك ما إذا كان قد أرغمنى على إيصاد أبواب حظيرتى كما تقول أم لا . كل ما هناك هو أننى قلت لك إننى لن أشترى شيئًا مصدره ألتاميرا : لارءوس ماشية ، ولا خيلاً ، ولا ريشًا ... هذا هو كل مالدى أفضيت به إليك فى صراحة .

- أمـا الريش فإنه لـم يسبق لنا حـديث عنـه ، ولـم أعرض عليك شـراء شيء منه .

وكان مستـر دينجر يهم بالإجابة حينما حـدث شيء لفت نظره واستوقف اهتمامه ، فإن الكلاب التى كانت مستلقـية فى الدهليز المواجه لباب الغرفة التى اجتمع فـيها مستر دينجـر بضيفه لم تلبث أن نهضـت من مكانها وتوجهت إلى الخـارج وهى تهـز ذيولهـا دون أن تهـر أو تنبح ، كـما لو كـانت قـد خـرجت لاستقبال شخص تعرفه وتألفه .

أما بالبـينو فإنه لم يلاحظ شـيئًـا ولم يتنبه إلى مـا حدث ، فقـد كان مـوليًا ظهره للباب مواجـهًا لصاحب البيت فى جلسته . وأراد مستـر دينجر أن يتحقق من الأمر ، فقال لضيفه :

- كأسًا أخرى ياصديقى بايبا ؟

ثم تناول الكأسين الـلتين شربا فـيـهـما من قـبل ونهض إلى باب الـغرفـة متظاهراً بأنه ينوى إلقـاء مابقى فيها من سؤر ، فـأطل من الدهليز ، وألقى نظرة استطلاع سريعة استكشف بعدها أن الشخص الذى كان يتحرك هناك هو خوان بريميتو مـحاولاً الاختبـاء وراء شجرة ، وقد تواثبت من حولـه كلاب البيت فى ألفة ، فقد كانت صديقة له شأن سائر كلاب البيوت فى هذه البقاع .

وتمكن مستر دينجر من فـهـم الموقف بسرعـة : «لقـد أرسلت السيـدة باربارا ذلك الرجل لكى يتـجسس على بالبـينو» ، ولكن فكرة مـاكـرة لعـوبًا خطـرت لـه : «لنطلق لسـان هذا الصعلوك ، ولـنحلل عقدة لـسانه !» ، ولم يكن للأمريكى هـدف من ذلك إلا التـلاعب ببالبينو والسخـرية منه ، فلما عاد إلى القاعـة ملأ الكأسين ، ثم شـرب كأسـه فى جرعة واحـدة ، واتخذ مـجلسه مواجـها لبالبينو ، وبقـى صامتًا عـدة لحظات مـتشاغـلاً بسحب أنفـاس مـن «بيبتـه» ، ثم استطـرد يقـول مواصـلاً ما كان قطـعه من حديث :

- إننى لم أذكر الريش إلا لأنك بعت لى فى العام الماضى شيئًا منه . ألا تذكر؟

- بلى ، هذا صحيح ، أما فى هذه السنة فإنى - لحسن الحظ - لم أستطع أن أشترى شيئًا منه . إن كل ما لدى كما قلت لك هى هذه الرءوس الأربعون أو نحوها ، فهى كل رأس مالى .

- ولقد أحسنت إذ قلت «لحسن الحظ» ؛ إذ إنه من الخطر أن يعرض أحد ريشًا للبيع بعد الذى حدث فى «مرج الشجرة» . أليس كذلك ياسيد بالبينو ؟

- بغير شك ، وأى خطر !

واستلقى مستر دينجر فى مقعده مادًا رجليه ، ثم قال وهو مايزال عاضًا بأسنانه على «البيبة» ، وكأن كلامه لم يكن إلا ثمرة فكرة عابرة لاخطر لها :

- وبهذه المناسبة قل لى ياسيد بالبينو : ألم يسبق لك المرور أبدًا بدغل «مرج الشجرة»؟

فابتلع بالبينو ريقه بصعوبة ، وتحامل على نفسه ، ثم قال بلهجة من يتحدث عن أشياء قليلة القيمة مما يعرض فى غضون الحديث :

- أما بالدغل نفسه فلا ، ولكنى مررت قريبًا منه عندما كنت أتخذ طريقى إلى سان فرناندو .

وحك مستر دينجر رأسه وقال :

- شىء غريب !

فتساءل بالبينو وهو يرمق مضيفه بنظرة فاحصة نافذة كأنما كان يريد أن يسبر غوره :

- ما هو ذلك الشىء الغريب ؟

ولكن مستر دينجر تجاهل السؤال وقال فى هدوء :

- أمـا أنا فقـد مررت بـذلك الدغل منذ قريب . كـنت فى طريقى إلى هنا عـائداً من سان فـرناندو ، وكان ذلـك فى اليوم التـالى لمعـاينة السلطات لذلك المكان بعد العثور على الجثة التى كانت طريحة هناك . فقمت بتفتيش المكان كله بعناية ، وقد زاد اقتـناعى بعد ذلك بأن الله لم يخلق عيونًا فى وجـوه قضاة هذا البلد إلا للزينة ، كما اعتاد أن يقول أحد أصدقائى من أهل سان فرناندو .

وكان مستر دينجر يفوه بـكلماته هذه وهو مضطجع على كرسيه الطويل ، وقد ألقى برأسـه إلى الوراء على مسند الكـرسى ، وهو متظاهر بتـأمل حلقات الدخان المتصاعدة من بيبته ، ولكن نظره لم يكن يفارق وجه بالبينو ، ثم مد يده إلى درج المائدة القائمة بجواره ، ففتحه وأخرج منه شيئًا لم يستطع بالبينو تبينه ؛ إذ إن الأمريكى احتفظ به فى قبضة يده الكبيرة .

ومـر على بالبينو وقت لم يـكن يعرف مـداه ، حتى إذا هم بالإجـابة بدا له كأن زمنًا طويلاً قـد مضى عليه ، مع أنه بادر بالكلام بمجـرد انتهاء مخـاطبه من عبارته :

- وما الذى رأيته أنت مما لم يتنبه له رجال السلطة ؟

- رأيت ...

ولكنه قطع جملتـه ليردد النظر إلى الشىء الذى ضم عليـه قبضتـه بعد أن أخرجه من درج المائدة ، وبدا على وجهه شعور من يجد بين يديه شيئًا لم يخطر بباله أنه سيقدر له العثور عليه ، ثم نظر إلى بالبينو ، وسأله وهو يفتح يده :

- أليست هذه علبتك ياسيد بالبينو ؟ إننى أظنها كذلك .

وأبرز لمحدثه علبة صغيرة منحـوتة من خشب ثمين أسود فى هيئة قلب من تلك العلب التى يحتفظ فيها بالتبغ من اعتادوا لوكه فى أفواهم .

وامتـدت يدا بالبينو فى حـركة آلية إلـى جيوب قـميصـه يتحسـسهـا حتى يتحقق من وجود علبة تبغه فيها دون أن يذكر أنه فقدها منذ وقت طويل .

أما مستر دينجر فقد واصل حـديثه وهو يتأمل حروف اسم بالبينو المنقوشة على غطاء العلبة تأملاً فاحصًا :

- نعم . إنها علبتك أنت على وجه التأكيد ياسيد بالبينو .

وفقد بالبينو السيطرة على أعصابه ، فنهض قائمًا فى اهتياج ، وامتدت يمينه إلى مسدسه ، ولكن مستر دينجر قال فى هدوء وسخرية :

- أوه ! لاضرورة لكل هذا ياسيد بالبينو . خذ علبتك ، فإنى لم أكن أفكر فى الاحتفاظ بها لنفسى .

وبدا على بالبينو أنه يبذل مجهوداً هائلاً حتى يستعيد هدوء أعصابه ورباطة جأشة ، ثم تساءل :

- ما الذى يعنيه كل هذا يامستر دينجر ؟

- إنه فى غاية الوضوح والبساطة ... ومـجمله أنك نسيت هذه العلبة ، ثم وجدتها أنا ، فقلت لنفسى : «إن هذه هى علبة السـيد بالبينو ، فلأحتفظ له بها ، حتى يقدم للـسؤال عنها» ، غير أنى أراك تصـورت شيئًا آخـر . ولكن لا ياسيد بالبينـو ، لا تقلق نفسك ولاتزعج تفكيـرك ، فإنى لم أجد هذه العـلبة فى دغل «مرج الشجرة» ، ولاتحت شجرة «البرجوتان» القائمة فى حظيرة «لاماتيكا» .

وكان مسـتر دينجر فى هذه العبـارة الأخيرة يعرض بالمكان الـذى دفن فيه حمل الريش الذى استولى عليه بعد قتل كارمليتو .

وكان بالبينو بعد ارتكاب جريمتيه كثيراً مايخاطب نفسه مزهواً فخوراً «لقد دبرت كل شىء فأحـسنت تدبيره ؛ فإنى لم أتـرك أى أثر لى يمكن الاهتداء عن طريقـه إلىّ فى مـرج الشجـرة ، أما الـريش فإنه لن يتـعـرف على الموضع الذى خبأته فيه ولا أكثر الناس تمكنًا من فنون السحر والكهانة» .

ولكن ها هو ذا يرى الآن أن كل مـا كان يطمـئن به نفسـه قد تبخـر فى لحظة واحدة ، وهو وإن كان لا يذكر ما إذا كان قد حـمل معه هذه العلبة التى يعيدها

مستر دينجر إليه الآن إلى مرج الشجرة فإن ذهنه قد أصبح من الاضطراب والتشوش بحيث لايستطيع التأكد مما إذا كان قد فقدها هناك أو فى مكان آخر ، ثم إن هذه الإشارة إلى «شجرة البرجوتان» فى حظيرة «لاماتيكا» لاتدع مجالاً لأى شك : إن مستر دينجر كان يعرف سر كل ما وقع فى مرج الشجرة ، بل هو يعلم أيضًا أين أخفى بالبينو جسم الجريمة .

وخاطب بالبينو نفسه يقول : «علىَّ اللعنة ! ما الذى أتى بى إلى هذا الرجل لكى أعرض عليه شراء ما لدى من رءوس الماشية ؟ إنه الطمع : أضاع على الإنسان ما جمع !» .

وكان هذا هو ماحدث بالفعل ، فإن بالبينو كان قد عقد العزم على الفرار من الضيعة بغنيمته ، متجهًا إلى حدود «كولومبيا» منذ أن انصرف عن السيدة باربارا قبل ذلك بقليل حينما سمعها تقول : «حتى الماشية نفسها تتقزز وتفزع من دم أمثالها !» ولم يكن ينتظر للهرب إلا حلول الظلام حتى يتمكن من إخراج حمل الريش من الحفرة التى أودعها إياه ، غير أنه كان يحتفظ كذلك فى حظيرة «لاماتيكا» بعدد من رءوس الماشية التى كان يسرقها بين الفينة والفينة من أموال السيدة باربارا ، ولم يهن عليه أن يترك هذه الرءوس ، ثمرة سطواته على ماشية المرأة الداهية طوال الأيام الماضية ، وهكذا حمله الطمع على أن يذهب إلى مستر دينجر لكى يعرض عليه شراءها منه .

ولما أدرك بالبينو أنه لم يعد هناك أى سر بينه وبين الأمريكى رأى من الخير أن يحاول علاج المسألة بصراحة كاملة ، فتساءل :

– قل لى يامستر دينجر : ما الذى تريد أن تقول بإشارتك هذه إلى شجرة «البرجوتان» فى حظيرة «لاماتيكا» ؟

– أوه ! بسيط جداً ! إنها لم تكن إلا محض مصادفة ، فقد كنت أنا هناك فى تلك الليلة متربصًا بنمر حدثونى أنه كان يحوم فى ذلك المكان حتى أتمكن

من إطلاق النار عليه ، وفيما أنا فى ذلك إذا بى أراك تدفن صندوقًا تحت شجرة «البرجوتان» ، وعلى أية حال فأنا لا أعرف ما الذى كان يحتوى ذلك الصندوق .

وحينئذ تحققت شكوك بالبينو ، فلم ير بدا من المجاهرة بكل شىء ، فقال :

- بل أنت تعلم علم اليقين ما احتوى عليه الصندوق ياسيد جيرمو ، فدع عنك كل هذا اللف والدوران معى ، إنه لامناص لنا - فى هذا الموقف الذى أنا فيه ، ومع هذا الطراز من الرجال الذى ينتمى إليه أمثالك - من أن نسمى الأشياء بأسمائها : «أن نسمى الخبز خبزاً والخمر خمراً» كما يقول المثل . إننى فى الحقيقة لم آت لأعرض عليك شراء رءوس ماشية ، بل حملاً من ريش البلشون ... ربعين كاملين ، ومن أجود أنواع هذا الريش ، فقدر له ثمنًا معقولاً ، ولنعتبر الصفقة منتهية . وهذا على أية حال لن يكون أول حمل من الريش المسروق تقوم أنت بشرائه .

وكانت خطة بالبينو تقوم على أساس شراء تواطؤ مستر دينجر معه وإشراكه فى جريمته حتى يضمن سكوته ، وكان مستعداً فى نظير ذلك لقبول أى ثمن يعرضه عليه مستر دينجر مهما كان انخفاضه ، ثم إنهاء الصفقة فى اليوم التالى ، والفرار على الفور بما ينال من غنيمة ، وكل ما كان يسعى إليه بالبينو فى هذه اللحظة هو أن يتمكن فى أسرع وقت مستطاع من الخروج من المأزق الذى ورط نفسه فيه .

ولكن مستر دينجر أطلق قهقهة عالية وقال :

- لقد أخطأت يا سيد بالبينو . إن مستر دينجر لايعقد أبدًا صفقة لم تكن داخلة فى خططه منذ البدء . والحق أننى كنت أريد أن أتسلى بمعابثتك والمزاح معك قليلاً ، وأنا الآن أصارحك بأن علبة التبغ هذه لم تخرج من هذه الغرفة قط ، فقد نسيتها أنت هنا على المائدة منذ زمن ما ، وبأننى لم أكن أبدًا فى دغل

«مرج الشجـرة»؛ إن كل ماقلته لك لم يكن أكثر من دعـابة كنت أتلهى بها معك ، هذا باستثناء ماذكرته عن شجرة «البرجوتان» ، فلاتنس ذلك .

وألجم الغضب لسان بالبينو ثم قال :

- هل مـعنى ذلك أنك اختـرتنى فى هذه الليـلة لكى أمـثل لك دور ذلك الفهد الذى كنت متـعوداً على مهارشته وملاعبـته قبل أن تـأوى إلى فراشك ؟ ألا تعلم أن مثل هذه الملاعبات قد تكون خطيرة وخيمة العواقب ؟

ولكنه فى هذه اللحظة سمع هرير الكلاب فى الخارج ، فهرب دم الشجاعة الغاضبة من وجهه ، وأطل من الباب محـاولاً أن يستشف بعينيه أستار الظلام ، وعلى الرغم من أنه لم ير شيئًا فإنه قال :

- إن هناك شخصًا كان يتلصص هنا ليـتسمع ما كان يدور بيننا من حديث ، وقد لاذ بالفرار فى هذه اللحظة .

وعاد مستر دينجر إلى إطلاق ضحكاته المدوية ثم قال :

- أترى الآن ياسـيد بالبـينو أنك لاتصلح فى هذه الليـلة لإلقاء الفـزع فى نفـوس الناس ؟ إن أخطر مـايمكن أن يتـعـرض المرء له اليـوم هو عـرض ريش على الناس لشرائه ، ولكن لأقل لك شـيئًا فى النهاية : إن مستـر دينجر لن يفوه بشىء ، لا لأنه يخـاف من وعـيدك وتهـديدك ، ولكن لأنه لايهـمـه شىء على الإطلاق مما حدث فى «مرج الشجرة» والآن ...

ثم فرقع له أصابعه مشيراً إلى باب الخروج .

وماكـان بالبيـنو فى حاجـة إلى طرد ، فقـد كان عازمًـا على الخروج بغـاية مايسـتطيع من سرعـة ، ولكنه لم يفعل إلا بعـد أن رمق الأمريكى بنظرة رهيـبة أودعهـا كل ما كـان يحس به من غضب وحنق على ذلك الرجل الذى اتـخذ منه لعبـة وأضحـوكـة فى هذه الليلة ، وشـفع ذلك بما اعـتـاده من تحسس شـاربيـه الغليظين . ولم يكد بالبينو يـصل إلى خارج الدار حتى ثبت قدمـيه فى ركاب

جواده واعتلى صهوته ، وأسرع راكضًا إلى حظيرة «لاماتيكا» وهو يقول لنفسه : «الآن لم يعد هناك وقت لأضيعه فلأعمل دون إبطاء على استخراج صندوق الريش من مدفنه ولأشرع فى الهرب من ليلتى هذه ، فلو أننى واصلت الرحلة متخذًا من الليل ستارًا ، ثم قضيت النهار مختبئًا فى أدغال الأعشاب لتمكنت من اجتياز حدود «كولومبيا» قبل أن يتمكن أحد من اقتفاء أثرى» .

أما مستر دينجر فقد بقى وحده يحدث نفسه قائلاً بين ضحكاته المتعالية :

- لابد أن خوان بريميتو قد وصل الآن إلى «ضيعة الرعب» حاملاً القصة التى سمعها إلى السيدة باربارا ، ولابد أن هذه تريد الآن أن تقاسم بالبينو فى صندوق ريشه ... مسكين بالبينو !

وبعد أن انتهى مستر دينجر من هذه الرياضة التى عدل بها مزاجه وبث المرح فى نفسه أخلد إلى نوم عميق هادئ ، تمامًا كما كان يفعل فى حياة فهده الصغير حينما كان لا يأوى إلى فراشه إلا بعد أن يواثبه ويلاعبه على حصير الغرفة .

الفصل العاشر

ردّ الأمانة

مضى وقت غير قصير على سماع صوت الطلقات النارية التى ترددت فى «الركن العميق» ممزقة سكون الليل وصمته المطبق ، وما زالت السيدة باربارا تنتظر فى شوق ولهفة معرفة ماحدث هناك ، وهى تفتقد هذه المقدرة الغريبة التى كانت دائمًا تعينها على التنبؤ بالأحداث التى تقع بعيدًا عنها ، والتى كان الناس هناك ينسبونها إليها باعتبارها من القوى السحرية الممدة لها بعون من لدنها ، فلا تجد لها أثرًا ، وهى بعد أن خذلتها تلك القوى الخفية - لاتملك إلا ذرع دهليز دارها جيئة وذهابًا وهى مهتاجة النفس ثائرة الأعصاب ، بينما تحاول أن تخترق ببصرها حجب الظلام الذى يلف المروج من حولها ، فلا تتبين شيئًا . وأخيرًا بدا لها شبح خوان بريميتو وهو قادم إليها يهرول ، فلما اجتمع بها ألقى إليها النبأ وهو يلهث :

- فى حظيرة «لاماتيكا» ... تحت شجرة «البرجوتان» ... هناك دفن بالبينو صندوق الريش ...

ثم مضى يقص عليها تفصيل الخبر الذى اكتشفه ، ولكنه لم يبدأ فى سرده حتى انطلقت السيدة باربارا - وكانت تعيره قليلاً من الاهتمام - إلى خارج الدهليز ! بينما كانت كلاب الدار أيضًا قد تراكضت إلى خارج الدار ، وهى تنبح فارسًا كان مقبلاً فى الظلام ، وقد ربط دابة إلى جواده .

ولم يدن شبح القادم من باربارا حتى رفعت صوتها مسائلة :

- ملكيادس ؟

ولكن سانتوس لوثاردو أجاب :

- لا ... لست ملكيادس .

ثم أوقف حصانه ، وبدأ فى فك حبل الدابة التى أتى بها جنيبة ، فى نفس الهدوء الرهيب الذى كان «الساحر» يؤدى به مثل هذه المهمة لو أن الأقدار انقلبت فكان هو القاتل ولوثاردو القتيل .

وتقدمت السيدة باربارا حتى أصبحت منه على قيد خطوات ثم ألقت نظرة سريعة على جثة حارس ظهرها ، كما لو كانت تنظر إلى شىء غير ذى قيمة ، وأثبتت نظرها بعد ذلك فى سانتوس لوثاردو الذى لم يكن مشتغلاً إلا بالعمل الذى كانت تباشره يداه . لقد كانت نظراتها تعبر عن الإعجاب والذهول فى وقت واحد . كان هذا الجانب الذى لم تكن تتوقعه من شخصية ذلك الرجل الذى تعلق به قلبها يثير فى نفسها كل ماكانت تضطرب به من حب ومن رغبة فى تجديد حياتها وتطهيرها ، وقد اختلطت كل هذه الانفعالات الهائجة فى شعور واحد هائل .

وتمتمت باربارا :

- لقد كنت أعرف أنك ستأتى لتسليم جسده !

وأدار سانتوس إليها رأسه فى حركة سريعة مفاجئة ، لقد باحت له المرأة المشئومة بهدفها من خطتها الملتوية الخبيثة ؛ إذ إنها لم ترد إلا التخلص من حارس ظهرها وشريكها فى جرائمها ، فأرسلت به إلى «الركن العميق» حتى يلقى مصرعه على يد لوثاردو ، وبهذا استطاعت أن تحول خصمها إلى أداة من أدواتها الطيعة ، ثم لم تتورع بعد ذلك عن التصريح له الآن بتدبيرها المبيت فى قحة وتبجح ، إنه يرى - منذ هذه اللحظة - كيف لم يَعْدُ أن أصبح واحداً من جملة هذه العصابة من المجرمين والقتلة الذين يعملون فى خدمة إقطاعية وادى «الأراوكا» !

واستولت على نفس سانتوس لوثاردو فى هذه اللحظة رغبة جامحة فى أن ينقض بجواده على تلك المرأة ، فيقذفها تحت قوائم الدابة ، ويظل يطأها حتى

يسحقها سحقًا ، ولكن ذلك الشعور المتوحش الذى كان يغلى فى صدره لم يلبث أن تفتت فجأة ، فألقى تحت قدمى باربارا بعنان جواد «الساحر» ، ثم شد زمام حصانه هو ، ومضى عنها مظلم الوجه وهو يكرر فى نفسه ماكان قد عرض له تفكيره : إن ماوقع فى «الركن العميق» منذ لحظات لم يسبغ عليه حتى ذلك «المجد الأحمر» الذى كان سادة السهول يرفعون رايته بعد فرض سلطانهم بالنار والدماء ، وإنما منحه تلك السمعة المشئومة : سمعة المجرمين الذين تستخدمهم المرأة الداهية فى تحقيق مآربها .

وظل حصان «الساحر» وقتًا طويلاً وهو يحمل على ظهره حمله المخيف : جثة صاحبه وقد شدت إلى سرجه ، وكان الحصان قد لوى عنقه ملتفتًا برأسه إلى حيث كانت السيدة باربارا ، كأنما كان ينتظر ما ستنتهى إليه من قرار ، وكذلك فعلت كلاب الضيعة التى أقبلت أولاً تتشمم يدى القتيل ورجليه المتدليتين عن جانبى الحصان ، ثم ظلت واقفة لاحراك بها ناظرة إلى وجه المرأة فى ترقب وانتظار . ولكن هذه بقيت فى مكانها مستغرقة فى التفكير ونظرها مايزال معلقًا بالمكان الذى اختفى فيه شبح سانتوس لوثاردو فى أطواء الظلمات . وأخيراً تحركت الدابة إلى الكوخ الذى كانت لديه مرابط الخيل ، تحركت فى بطء خطوة خطوة كأنما كانت تريد تجنب إحساسها بالحمل الرهيب الذى تدلى مـتطوح الأطراف عن جانبى ظهرها ، ومضت الكلاب من ورائها فى هرير مبحوح .

وبقيت السيدة باربارا فى موضعها جامدة الحركة ، ولكن الذهول والإعجاب اللذين كانا يرتسمان على وجهها قد زالا بعد أن ابتلع الظلام شبح سانتوس لوثاردو ، وانعقدت جبهتها تعبيراً عن تفكير قاتم كان يعتمل فى ذهنها .

وبدا لها كأن غريزتها قد هدتها مرة أخرى إلى تحقيق ماكان تفكيرها يسعى إليه على الرغم من الطريقة الساذجة البعيدة عن المنطق التى حاكت بها خطة

«الركن العميق» ، فقد ترتب عليها أخيراً مايتفق مع مراميها وأغراضها ، لا لأن هذا كان فى الحقيقة هو الذى تأمل الوصول إليه وتتوقعه ؛ إذ إنها فى هذا الأمر - شأنها فيه كشأن سائر خططها وتدابيرها - لم تكن صادرة إلا عن اندفاع تسوقها إليه عواطفها وانفعالاتها الهائجة ، دون أن يهمها إلا الوصول إلى أى نتيجة ... خبطة عشواء قذفت بها وليترتب عليها مايترتب حتى تحل بها موقفًا قد تعقد عليها واضطرب ، فأرادت أن تضع له حداً على أية صورة . وقد حدث فى هذا الأمر ماكان يحدث دائمًا ؛ إذ رأت فى تلك النتيجة مايوافق أغراضها ، وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن إلا مجرد صدفة فإنها حاولت أن تخدع نفسها قائلة إنه هو ماتوقعته وماكانت تسعى إليه .

فقد كانت باربارا - من ناحية- فريسة لعواطف متضاربة إزاء سانتوس لوثاردو : غرام مشبوب ، ورغبة عارمة فى الانتقام منه ، ومن ناحية أخرى كان يتملكها الغيظ المسعور من ماضيها الذى سبق به القدر المكتوب ، والذى كانت جرائمها فيه تسد عليها كل طريق جديدة تحاول بها أن تطهر روحها من شوائب ذلك الماضى . وهى لم تدبر خطة «الركن العميق» إلا وهى واقعة تحت نفوذ كل تلك المشاعر المتناقضة ، وكانت تريد من وراء خطتها تلك أن تصل إلى أى نتيجة : إما موت لوثاردو وإما موت «الساحر» ، وكلاهما حل للموقف العسير الذى انتشبت فيه ، وعلى كليهما يتوقف مصير حياتها بعد . أما الانتقام من لوثاردو فقد كان مصرعه على يد «الساحر» يكفل لها الانتهاء منه إلى الأبد ، ولكن قتله هو لذلك الرجل ساعدها الأيمن لم يكن دون ذلك إضراراً بغريمها اللدود ؛ إذ إن حياته الآن بين يديها ، ويكفيها أن توجه الاتهام إلى لوثاردو بأنه هو قاتل «ملكيادس»، ثم تستغل نفوذها المعهود الذى كانت تفرضه على قضاة المنطقة وحكامها ، وبذلك تضمن تحطيم حياة لوثاردو والإلقاء به فى قرارة السجن . ولكنها لوفعلت لكان معنى ذلك هو تخليها النهائى الكامل عن الطريق الجديدة التى كانت تتمنى سلوكها من أجل تطهير روحها وحياتها ، والعودة إلى الجريمة التى وصمت وجودها كله وإلى الأعمال التى نفذ بها حكم

القـدر المكتـوب ، والتـى كـانت باربارا تسـعى بكل قـواهـا إلى التـحـرر من سلطانها .

لقد بدأت السيـدة باربارا فى التحرر من ربقة هذه الأعـمال ، وشرعت فى تصـفية تركـة هذا الماضى الرهيب . إنهـا الآن فى تلك الطريق الجديدة بـعد أن بدأت فى «رد الأمـانة وأداء الرسالة » ، فـالأخوان «الموندراجـونس» قد أودعـا السجن دون أن تهتم هى ببـذل أى جهد لإنقاذهما من مصيـرهما المحتوم ، وها هو ذا ملكيادس مربوطًا إلى سرج حصانه يتدلى منه ذراعاه ورجلاه ...

وقطع أفكار السيدة باربارا ضجيج رجال الضـيعة وجلبتهم وهم يتوافدون إلى حيث كان جسد ملكيادس منبوذًا على ظهر جواده ، وكان أحد البقارين قد رأى المنظر، فأسرع إلى حيث كانت السيدة باربارا لينهى إليها الخبر .

وحينمـا تنبهت باربارا وأفاقت من تفكيـرها رأت خوان بريميتـو الذى كان قد شهد كل شىء من الموضع الذى وقف فيه فى دهليز الدار ، وقد تملك الذعر نفسه ، وهو يرسم علامة الصليب على صـدره ، وأعملت المرأة تفكيرها بسرعة ، ثم نادته قائلة :

- إنك لم تر شيئًا مما حدث . فـلا تفتح فمك بكلمة واحدة ، والآن اذهب من هنا ، ولايخطر ببالك أن تشير بحرف واحد إلى ماشهدت .

وغاب الأبله عن بصـرها فى ظلام المروج فى وثباته السـريعة ، أما السـيدة باربارا فإن وجهها اكتسى قناع الجـمود الذى كانت تصطنعه لكى يخلو وجهها من كل مايمكن أن يكشف عن حقـيقة مشاعرها ، بينما كـانت تنصت إلى الخبر الذى أتى الرجل البقار لكى يلقى به إليها كما لو كانت تجهله .

وكانت صيـحات هذا الرجل الذى كان أول من رأى جثـة «الساحر» على ظهر حصانه قد أيقظت سائر رجال الضيعة ، فخرجوا مهطعين وخرجت النساء من المطبخ، وكـذلك صبيـان الضيـعة الذين كـان النوم مايزال مـغالبًا أعـينهم ،

وأحاط الجميع فى حلقة كبيرة حول دابة «ملكيادس» وهم يتبادلون التعليقات ، وصرخاتهم تتعالى من هنا ومن هناك ، حتى إذا دنت منهم السيدة باربارا صمتوا كلهم فجأة ، وتعلقت أنظارهم بوجهها الغامض فى انتظار أية حركة أو لفتة منها .

ودنت المرأة من الجسد المطروح على الجواد ، ثم ألقت نظرة على الجرح الذى كان باديًا على صدغه الأيسر ، وقد انساب منه خيط من النجيع الأسود الغليظ ، ثم قالت :

- أنزلوه عن الجواد ، وأضجعوه على الأرض حتى تروا ما إذا كانت فيه جروح أخرى .

وهكذا فعل الرجال ، وبينما كان أحدهم يفتش ثياب القتيل كان يبدو عليها هى أنها مستغرقة فى تفكير عميق كان يلقى على وجهها مسحة قاتمة .

ونهض أخيراً الرجل الذى كان منحنيًا على جسد «الساحر» يتحسسه ، وقال :

- لا أثر فيه لجروح إلا هذا الذى نراه على صدغه ، إنها إصابة تشرفه وتزيده نبلاً ، وأظن أنها قتلته فى الحال .

وعلق آخر :

- إن الذى أطلق عليه النار كان صائب النظر سديد الرمية بغير شك ، ولكن الذى يبدو من موضع الجرح أن قاتله لم يكن مستقبلاً له وجهًا لوجه ، ولعله كان يترصد له لاقتناصه من وراء شجرة .

وسددت باربارا نظرة إلى الرجل الذى أطلق هذا التعليق ، ثم قالت :

- أو كان يسير إلى جواره مرافقًا له ؟

فتمتم الرجل معبراً عن قبوله لهذا التأويل الذى كانت تفترضه تلك المرأة التى لم تكن فى حاجة إلى رؤية الأحداث حتى تعرف كيف وقعت :

- وهذا أيضًا احتمال ممكن الوقوع .

وعادت السيدة باربارا إلى تسديد نظرها إلى الجسد المطروح على الأرض ، وقد امتزجت على وجهه الشاحب أضواء القمر الذابلة وخيوط زرقاء متراقصة من شعاع قنديل كانت إحدى النساء تحمله مقربة إياه من وجه القتيل بيد مرتجفة ، وكانت حلقة المحيطين بالجسد فى صمت بالغ ، وعيونهم قد تعلقت بوجه سيدتهم فى انتظار نتيجة ماكانت تفكر فيه .

وظلت هى ملتزمة الجمود لحظة ، ثم رفعت نظرها فجأة ، ونظرت حواليها كما لو كانت تبحث عن أحد ، ثم قالت :

- أين بالبينو ؟

وعلى الرغم من أن كل الحاضرين كانوا يعرفون أن بالبينو لم يكن بينهم فإن نظراتهم اتجهت بشكل آلى باحثة عنه فى غمار صفوفهم ، وتملكهم جميعًا شك مفاجئ فى بالبينو بعد هذا السؤال الذى لم تقصد به باربارا إلا إثارة مثل هذا الاحتمال ، لاسيما وأن كثيراً من الحاضرين كانوا يكرهون وكيل السيدة باربارا ويتمنون حلول أى كارثة به ، وتبادل الرجال نظرات كانت تحمل هذا السؤال :

- أتراه بالبينو ؟ أيكون هو مرتكب هذه الجريمة ؟

واغتبطت باربارا فيما بينها وبين نفسها ، حينما رأت أن كلماتها قد أتت بالثمرة المرجوة ، فقد وجهت شكوك الجميع إلى بالبينو ، ثم توجهت بعد ذلك إلى الرجال الذين كان بوسعها أن تختار من بينهم خليفة لـ « ملكيادس جامارا» ، وقالت فى لهجة تعمدت أن تضفى عليها الغموض الذى تعودت أن تطبع به نبوءاتها وكهاناتها حينما تقوم بتمثيل دور الساحرة المطلعة على مغيبات المجهول ، وأشارت إلى رجلين من بين رجالها وهى تقول :

- توجها إلى حظيرة «لاماتيكا» ، فإن هناك تحت إحدى شجر «البرجوتان» صندوقًا مدفونًا فيه حمل الريش الذى سرق من الدكتور لوثاردو ، ولابد أن يكون بالبينو هناك الآن محاولاً إخراجه من باطن الأرض ، فامضيا بسرعة وتسلحا بمدفعين رشاشين من طراز «الونشستر» و ... أحضرا الريش إلىّ . أتفهمان ؟.

ثم ألتفتت إلى بقية الرجال وقالت لهم :

- فى وسعكم الآن أن تحملوا الجثة . احملوا القتيل إلى داره ، وأشعلوا الشموع، وأقيموا الصلوات على روحه طوال الليل .

أدلت بذلك الأمر ، ثم توجهت إلى غرفتها فى الدار تاركة للرجال موضوعًا خصبًا يفتقون فيه الحديث على هوى كل منهم فى جلسة سمرهم التى كانوا مقدمين على عقدها إلى جوار السرير الذى يضطجع عليه جسد ملكيادس طول الليل .

ويقول أحد الرجال :

- الذى أؤكده أنا أن بالبينو هو القاتل ، ترصده من وراء شجرة ضخمة من ذلك الشجر الذى يملأ هذه المروج . أقول ذلك لأن الفقيد كان أعظم عليه من أن يتمكن من لقائه وجهًا لوجه .

ثم يخلد المجتمعون إلى الصمت منتظرين ما يأتيهم من أخبار الرجلين اللذين خرجا إلى حيث كان بالبينو ، وظلوا هكذا يتسمعون حتى صكت آذانهم أخيرًا أصوات طلقات نارية قادمة من اتجاه حظيرة «لاماتيكا» .

ويعلق أحد الرجال :

- إن رشاشات «الونشستر» قد بدأت عملها .

ويضيف آخر :

- ولكن هناك صوت مسدس يجاوب طلقاتها : ألا ترون من الخير أن نتجه لمعونة رفيقينا اللذين مضيا إلى لقاء بالبينو ؟

وبدأ بعض الرجال يستعدون للحاق بصاحبيهم فى «لاماتيكا» ، وبينما هم فى ذلك إذا بالسيدة باربارا تطل عليهم من النافذة فتقول :

- لا حاجة بكم إلى ذلك ، فقد سقط بالبينو !

وتبادل الرجال النظرات فيما بينهم وقد أثار عجبهم وخوفهم نبوءة المرأة «التى ترى مالا يرى الناس ، والتى يكشف لها الغيب عن حجبه»، وحينما همت المرأة بالعودة إلى غرفتها قال أحد الرجال مدليًا بالتفسير :

- ألم تتنبهوا إلى أن صوت المسدس هو الذى سكت أولا ؟ وإلى أن الطلقات الأخيرة كانت هى الصادرة عن المدافع الرشاشة ؟

ولكن ... من الذى كان يستطيع أن ينزع عن رءوس الرجال من خدام «ساحرة الأراوكا» أنها «رأت وسمعت» كل ماكان يحدث فى حظيرة «لاماتيكا» ؟

الفصل الحادي عشر

نور في قرار الكهف

كان الليل قد انتصف ، ومر عليهما في مسيرها الصامت أكثر من ساعة حينما قال باخاروتي وقد لاحت له معالم دار «مرج النخيل» لدى موضع «لاتشوسميتا» :

- نور في مثل هذه الساعة في بيت السيد لورنثو ؟ لابد أن هناك شيئًا يحدث الآن هناك .

وكان سانتوس منذ أن فصل من «ضيعة الرعب» مطأطئ الرأس منصرفًا عن كل مايدور حوله ، فرفع رأسه كما لو كان قد استيقظ من حلم عميق ، لقد مرت ثلاثة أيام منذ تلك الليلة التي خبره فيها أنتونيو ساندوفال بأن ماريسيلا قد عادت إلى دار أبيها القديمة في «مرج النخيل» ، ولكنه لم يخطر بباله قط مايمكن أن تتعرض له الفتاة من العوز أو الخطر ، على الرغم من أنها كانت شغله الشاغل خلال الشهور العديدة التي قضتها في بيته . فقد كان يحجب ذهنه غشاوة من التفكير في الانتقام العنيف ممن قتلوا تابعه غدراً واغتيالاً ، وكانت تلك الأعمال التي أراد بها الأخذ بثأره من أعدائه قد جرفته في تيارها حتى لم يعد يدور في رأسه أي تفكير آخر ، ولكن هذه الموجة أخذت في الانحسار منذ أن قدم من «ضيعة الرعب» مثيرة في ضميره أزمة شديدة خانقة.

واعترف سانتوس بأنه كان مخطئًا إذ ترك الفتاة لمصيرها ، وكأنه وجد شيئًا من الراحة في هذا الاعتراف من عذاب روحه الذي كان يلاحقه ، وأحس ببعض السكينة تسري في صدره وهو يحاول أن يوسع فيه مكانًا لشعور طيب نبيل ، وهكذا قرر أن يعرج متخذاً طريقه إلى دار المرج .

وبعد لحظات كان سانتوس وصاحبه واقفين على باب الدار ، مطلعين على المشهد الأليم الذى بدا أمام عيونهما تحت ضوء قنديل محتضر يوشك على الانطفاء : كان لورنثو باركيرو غائصًا فى سريره يحمل طابع الموت على وجهه ، وإلى جواره ماريسيلا جالسة على الأرض ويدها تربت على جبينه ، وعيناها شخاصتان إليه وهما تسكبان الدموع فى صمت ، مفرقة وجهها فى فبض عبراتها .

كانت ماريسيلا قد أعانت أباها على تجرع غصص الموت فى استسلام بفضل مسحها لجبينه والحنو عليه هكذا فى رفق وبر ، وعلى الرغم من أن جبهته لم تعد تحس بلمسات يد الفتاة إلا أنها لاتنفك تربت عليها فى حنان .

وكان أكثر ما أثر فى قلب سانتوس ولمس مواضع الحساسية فيه ليس هو مافى هذا المنظر من الألم فى محضر الموت ، ولاتذكره لتلك الحياة التعسة الشقية التى وضعت وفاة لورنثو لها حدًا . ولا جو البؤس والشقاء الذى كان يسيطر على المكان ، بل ولا وجه الفتاة الذى كان الألم يرسم عليه صورة مؤثرة تهز النفس ، وإنما كان مايشيع على المنظر كله من رقة وإنسانية : يد الفتاة وهى ماتزال تمر على جبين أبيها الميت ، والتعبير عن الحب الذى كان مرتسمًا فى عينيها السابحتين فى الدموع ... هو هذا الحنان الذى لم يكن يظن أن ماريسيلا قادرة على أن تودعه روحها أو تحس به إحساسًا حقيقيًا !

ولم تكد الفتاة ترى سانتوس حتى صاحت فى نبرة مؤثرة ، وهى تغطى وجهها بيديها وتلقى بنفسها إلى الأرض :

- لقد مات أبى !

وتحسس سانتوس جسد لورنثو حتى تحقق من أنه قد مات بالفعل ، ثم توجه إلى ماريسيلا ، فأنهضها عن الأرض حتى يجلسها على كرسى ، ولكنها ارتمت على صدره وهى تبكى وتشهق .

وظلا هكذا لحظات فى صمت ، حتى انحلت عقدة لسانها ، فأقبلت تقول وقد زادها الألم بيانًا :

- إننى كنت عازمة على حمله غدًا إلى سان فرناندو حتى أعرضه على الأطباء ، فقد كنت أعتقد أن شفاءه مايزال ممكنًا بعد ، ولقد حدثت أنتونيو بما أنوى القيام به حينما أتى لزيارتى مساء هذا اليوم ، فتطوع الرجل بأن يتفق لى مع مركب كان قادمًا من أعلى النهر ، فلما خرج أنتونيو دخلت أنا على أبى حتى أحمله على أن يقوم بنزهة قصيرة معى قبل أن أعد له الطعام ، فقد كان منذ هذا الصباح أسوأ حالاً وأضعف صحة مما اعتاد أن يكون ، ولهذا فقد كنت أخشى تركه بمفرده وقتًا طويلاً ، وبينما نحن كذلك إذا به يحاول الجلوس على سريره ، ثم يظل ينظر إلىَّ بعينين جاحظتين ، ويصيح : «بركة الطين الرجراج! ... الطين يبتلعنى ... خذى بيدى ولاتدعينى أغص فى الطين ! ... » ، كانت صرخة هائلة مخيفة ، ولكأنها تتردد فى أذنى حتى الآن ، ثم سقط مستلقيًا بظهره مرة أخرى على السرير وبدأ يحتضر ، وهو يردد بغير انقطاع : «إننى أغوص ... إننى أغوص ! ... » ، وكان يقبض على يدى فى شدة ويضغطها وهو تحت وطأة ألم هائل رهيب .

فعلق باخاروتى قائلاً :

- نعم ... كان ذلك هو موضوعه الشاغل ، فقد كان لاينفك يقول إن بركة الطين الرجراج سوف تبتلعه !

وبقى سانتوس يستمع فى صمت ، وهو يؤنب نفسه على إهماله شأن الفتاة وأبيها بغير مبرر ولاذنب . وواصلت ماريسيلا حديثها فى عصبية وهياج :

- لقد كنت أنوى حمله غدًا بغير إبطاء إلى سان فرناندو ، وقد تكفل أنتونيو بتدبير مكان على ظهر أحد القوارب القادمة من هناك .

فقاطعها سانتوس وهو يجذبها إلى صدره فى حنان أبوى :

- كفى ! لقد تحدثت بما فيه الكفاية .

- دعنى أنفس عن نفسى بعض ما أجد . لقد ظللت طول الليل أقاسى وأتعذب فى صمت ... قضيت الليل كله وحيدة شقية وأنا أراه يغوص ... ويغوص ... ويغوص ، فقد كان يبـــدو حقيقة كما لو أن بركة الطين الرجراج تبتلعه قليلاً قليلاً ! ... لطفك يارب . ما أفظع الموت ! ... وأنا وحيدة أتعذب ، وأحاول أن أخفف عنه سكرات الموت ... وهأنذا الآن أكثر وحدة وعذابًا ... سأظل وحيدة هكذا وطول مابقى من حياة . ترى كيف أصنع الآن يارب ... لطفك اللهم !

- الآن سنعود إلى ألتاميرا . وسنرى بعد ذلك ماسنصنع . إنك لم تبقى وحيدة شقية كما تظنين . اذهب ياباخاروتى الآن فَائْت بمن يلزم من الرجال ، وهات مطية مسرجة لماريسيلا . وأما أنت فاذهبى إلى فراشك حتى تنالى قسطًا من الراحة ، وحاولى النوم .

ولكن ماريسيلا أبت أن تغادر مكانها إلى جوار أبيها ، فانتقلت للجلوس على ذلك الكرسى الذى اتخذ لورنثو باركيرو عليه مقعده حينما قدم سانتوس لزيارته لأول مرة ، تاركًا لضيفه المقعد الجلدى الذى يجلس عليه سانتوس الآن من جديد . وهكذا بقى الاثنان وقتًا طويلاً صامتين وقد فصل بينهما السرير الذى كان لورنثو مسجى عليه .

وكان القمر فى خارج الدار يلف بضيائه الساطعة المرج الممتد حول شجر النخيل ، وقد غلب السكون على أرجاء المكان ، وانعكست صورة البدر على مياه البركة الراكدة . كان السلام يخيم على ذلك المنظر المقمر عميقًا شفافًا ، ولكن القلوب المعذبة الهائجة كانت تحس بأنه ثقيل الوطأة مشئوم الطلعة .

أما ماريسيلا فقد كانت لاتكف عن التنهد والزفير بين وقت وآخر ، وأما سانتوس فقد انصرف إلى تفكير عميق وقد تجهم وجهه وعلته وجمة قاتمة ،

بينما كـان يسترجـع بذاكرته تلك الكلمات التى وجـهها إليه لورنثو فى عـصر ذلك اليوم الذى قدم فيه لزيارته الأولى :

- «وأنت أيضًا ياسانتوس لوثاردو ؟ أنت أيضًا سمعت النداء ؟! ...

ها هو ذا لورنثو باركـيرو قد سقط أخيـرًا ضحية «لمفتـرسة الرجال»، ذلك اللقب الذى لم يكن يعنى السيدة باربارا بقـدر مايصدق على هذه الأرض التى لاترحم ، هذه الأرض الخـشنــة القاسية بخلوتهـا المخيـفة التى تثير الغـرائز المتوحـشة فى نفوس الرجـال ... بركة الطين الرجراج التى أغـرقت فى وحلها ذلك الرجل الذى كـان يعـتـبر فى وقت مـا مـفـخرة آل باركـيـرو . وها هو ذا سـانتـوس لوثاردو يسـيـر فى نفس الطـريق ، هو أيضًـا بدأ يغـوص فى بركـة الهمـجية الموحلة التى لاترحم أبدًا من يلقى إليـها بروحه ، هو أيضًـا قد أوشك على أن يتحول إلى فريسة أخرى لمفترسة الرجال . لقد انتهى لورنثو، وها هو ذا سانتوس قد بدأ من حيث لاحت له تلك النهاية :

- «سانتوس لوثاردو ! انظر إلى نفسك فىّ أنا . إن هذه الأرض لاترحم !» .

ذكر سانتوس هذه الكلمات وهو يـتأمل هذا الوجه الشاحب الأشوه الذى غشاه الموت باصفرار فى لون التراب ، وسرعـان ماسرح به خياله ، فإذا به ينظر إلى الجـسد المسـجى أمامـه وقد استـبـدل بوجه لورنثـو وجهـه هو ، بينما كـان يحدث نفسه قائلاً :

- عـما قـريب سأقـبل على الخمـر أغـرق فيـها عـذاب روحى ، وأتلمس النسـيان ... وسـرعان مـا سأصـبح هكذا ... كمـا كان ذلك الرجل ... وقـد ارتسم الموت بصورته البشعة الرهيبـة على وجهى ، وحينما يحل بى الموت فإنه لن يكون إلا موت شبح لرجل كان قد انتهى ... موت الجيفة المنتنة المرمة !

كان يرى نفـسه فى داخل هذه الجـثة المطروحة ، ولهـذا أدهشه أن تخـاطبه ماريسيلا كما لو كان حيًا بعد :

- لقد حـدثونى بأنك كنت غريبًـا جداً فى هذه الأيام ، وأنك كنـت تفعل أشياء ماكانت لتصدر عنك ...

- ومع ذلك فقد أقلوا وأقـصروا ... إن ماذكروه لايعد شيـئًا إلى جوار ما أنا قائل: إننى قتلت رجلاً فى هذه الليلة !

- أنت ؟ كلا ! ... هذا مستحيل !

- وأى غريب فى هذا ؟ إن آل لوثاردو كانوا دائمًا قتلة سفاكين للدماء .

فأجابت ماريسيلا :

- هذا غير معقول ... حدثنى ... حدثنى .

فبدأ سانتوس يقص عليها الخبر السيىء كما صوره له خياله المهتاج ، وكما حدث فى الحقيقـة لولا خطأ فى التأويل أوقعه فيه تفكيره المحـموم ، فلما انتهى من روايته قالت له ماريسيلا :

- ألا ترى كيف لاتستقيـم هـــذه الروايـــة مع مـاقلت من كونك أنت القـاتل ؟ إنه لـو صح مـاقصـصت أنت عـلىّ فـإن الذى قتـله ينبـغى أن يكون باخاروتى . ألم تقل إن «الساحر» كان يقف مـواجهًا لك ؟ وإن الإصابة القاتلة إنما كانت بادية على صـدغه الأيسر ؟ إن الوحيـد الذى كان بوسعه إصـابته من هـــذا الجانب هو باخاروتى وحده دون غيره .

ياللعجب ! لقد ظل سانتوس ساعات كاملة وهو يستعيد المشهد فى ذهنه ، ويعيد تركيب تفاصيل ماوقع فى تفكير عنيد متواصل ، ومع ذلك فإنه لـم يفطن بعـد تلك الساعـات الطويلة إلى مـاتنبـهت إليه مـاريسـيلا فى لحظة واحـدة ! وانتعشت نفسـه وسرى فيها تفاؤل جـديد ، فشخص إليها ببصـره مبهور النظر التائه الضال فى قاع الكهف المظلـم إلى شعاع من النور يدنو إليه باعثًا فى روحه الرجاء الميت !

ولم يكن هذا النور إلا فـيض الشعلة التى أضـاءها هو فى روح ماريسـيلا وصفاء الإلهام المتوقد فى ذهنها الذى أزال هو نفسه ماكان يرين على ذكائه من صدأ ، وإشراقـة الخير ومض بريقهـا فى فكرها حاملة كلمة الطمـأنينة والسلام إلى فؤاده القلق المعذب . إن ما تنبهت إليه مـاريسيلا موقظة إياه من غفلته لم يكن إلا ثمرة صنيعه هـــو ؛ إذ إن رسالته لم تكن فى الحقيقة مـا انساق إليه في الأيام الزخيرة من محاولة استئصال الشر بالنار والدماء ، وإنما كانت استكشاف ينابيع الخيـر المخبـوءة هنا وهنـاك فى أرضه وفـى قلوب أهل هذه الأرض . نعم ... كانت هذه هى رسالته الحـقيقية التى هجرها قبـل أن تتم ، منذ أن جرفه تيار من الحقد والرغـبة فى الانتقام فى لحظة مـشئومة من لحظات حـياته . ولكن ... ها هى ذى كلمة ماريسيلا ترد عليـه جميله ، فتعيد إليه ثقته بنفـسه واحترامه لهـا ، لا لأنه يتبين بها أن رصاصة باخاروتى لارصـاصته هو هى التى قتلت «الساحر» ، فــذلك فى الحقـيقـــة لايغـير واقــع الأمـــر ؛ إذ سواء أكـان هذا أم ذاك فإن غشاوة العنف التى كـانت تحجب عينيه هى التى قـادته إلى تلك الطريق فى كلا الأمرين ، ولكن لأنه شـعر بأن تلك الكلمـات الصادرة عن ماريسـيلا من أجل تهدئته وبث الطمأنينة فى نفسه لم تنبع إلا من الثقة التى أودعته إياها ، وهى ثقة كانت جزءًا لايتجزأ من روحه ، بل كانت أفـضل جوانب روحه وأكثرها تشبعًا بالخير مما غرسه هو بيديه فى قلب إنسان آخر .

وقبل سانتوس هدية السكينة والسلام ، ومنح الفتاة فى لقاء ذلك كلمة باح لها فيها بحبه .

وفى هذه الليلة رأت ماريسـلا أيضًا شعاع النور ينحـدر إلى قرارة الكهف المظلم .

الفصل الثاني عشر

النقط على الألفات

كان الناس مشتغلين بتقطيع الحبال فى الفناء الذى يتوسط أكواخ الضيعة وقد حل وقت الأصيل حينما قال باخاروتى فجأة بعد أن وجه بصره إلى المروج :

– إننى لفى عجب من أمر بعض الناس الذين يعجبهم أن يقيموا بين سفوح الجبال أو يؤثرون السكنى فى بيوت مغطاة السقوف ! ... إن هذه السهول الطليقة هى أرض الله منحها لشياطين الرجال !

وتوقف الرجال عما كانوا فيه من إعمال سكاكينهم فى شرائح الجلد الذى لم يدبغ بعد ، والذى كانت تنبعث منه رائحة كريهة نفاذة ، ثم رمقوا بنظرات متسائلة رفيقهم صاحب النوادر الطريفة والخطرات الغريبة .

وواصل هذا حديثه قائلاً :

– إن الأمر فى غير حاجة إلى شرح ولاتفصيل ، فهو أوضح من عرائش متسلقة بدت على صفحة ربوة : فالرجل فى السهول يكفيه أن ينظر من بعيد حتى يتبين ماهو آت إليه قبل أن يصل ، بينما هو فى الأرض الضيقة المغلقة لايسير إلاَّ وتعاريج الطرق كأنها قرون ثور قد أخذت بمخنقه ، أما الذى يعيش فى بيوت مغطاة السقوف فما أشبهه بالأعمى الذى يسأل «من الرجل؟» بعد أن يكون قد ارتطم به فى مسيره .

وأثارت كلمات باخاروتى استطلاع رفاقه ، فاتجهت أنظار جميعهم إلى المرج حيث تبينوا من بعيد فارسًا يشد فى اتجاه بيوت الضيعة .

كان رجال ألتـاميرا منذ أن أتاهم نبأ ماحدث فـى «الركن العميق» ينتظرون بين لحظة وأخـرى قـدوم فـرقة من رجـال السلطة لتـقـوم بإلقـاء القـبض على الدكتور لوثاردو ، وعلى الرغم من أنهم كانوا لايتوقعون أن يكون القادم رجلاً واحداً فإن ظهور أى شخص غريب فى الأفق كان بالنسبة لهم نذير شر ، ومثيراً للقلق والريبة فى نفوسهم .

أما باخاروتى فلم يكن يبدو عليه اهتمام بالأمر ، بل انصرف إلى عمله فى هدوء وهو يضـحك فى أعماق نفـسه من ذلك الجـهد الهـائل الذى كان رفـاقه يبذلونه من أجل تمـييز هذا الفارس القادم والتـعرف على شخصـيته . وذلك أنه منذ ظهر هـذا الرجل وباخاروتى يرقبـه خفـية بين الفينة والفـينة دون أن يلحظ أحد من زمـلائه ماكان يفعل ، وهو مـتأهب لكى يهرب إلى شعب مـن شعاب الجبل يلوذ به إذا تبين له منه أمر يريب ، غيـر أن بصره الذى ألف النظر من بعيد عـبر المروج الواسـعة كـان قـد عرف فى ذلك الفـارس الغـريب صديقًـا له من البقـارين الذين كانوا يعملون فى إحدى ضـياع «الأراوكا» المجاورة ، وكـان قد مر على ألتاميرا منذ أيام فى طريقه إلى عاصمة الإقليم فى بعض شئونه .

ولما دنا منهم الفارس حتى استطاعوا أن يميزوه ؛ قالوا فى النهاية :

– آه ... إنه ليس إلا «إنكارناثيون» الأقرع !

وقال لهم باخاروتى فى صياحه المعهود :

– ياله من اكتـشاف مبكر ! مـا أصلحكم لتكونوا حراسًـا على أبراج قلعة تستطلعون من فوقـها كل طارق غريب ! هذا ولو أن رفيقى ماريا نييـبس كثيراً مايفخر بأنه منظار مقرب !.

فأجاب ماريا نييبس على الفور :

– حقًا لقد كان باخاروتى هو أول من تبين شخص القـــادم ، ولكـــن هذا لم يكن إلا كرامـة من كرامات «سـيدنا الخوف»! فليس من الغـريب حتى على

العمى أن يبصروا الخطر إذا قدمت أيديهم شراً وكانوا ينتظرون من هو آت لكى يحاسبهم على شر أعمالهم .

وتدخل فنانثيو فى الحديث كما كانت عادته إذا أراد تحريض الرجلين على تبادل الهجاء الساخر وتراشق التعريضات اللاذعة كلما عرضت له فرصة لذلك ، من أجل بث المرح فى نفوس حاضرى المجلس ، فقال مثيراً باخاروتى :

- غط هذه الثغرة ياباخاروتى ، فقد رماك الأشقر بآبدة ما لك منها فرار .

غير أن هذا لم يكن فى حاجة إلى من يثيره ويحرضه :

- أما أن «سيدنا الخوف» ولى عظيم له معجزاته وكراماته فمما لايشك فيه أحد ، وأما أن أشبه أنا بالعميان فأمر فيه نظر ، وإلا فإننى على الأقل لم يحدث لى ماحدث لصديق لى هو قائد للقطعان وأشقر اللون إذا أردتم تحديد صفته ، فقد تسبب إشعاله للفافة من التبغ فى ظلام الليل فى وقوعه أسيراً فى أيدى قوم كانوا يتربصون به ، ولم ينتبه هو لشىء ؛ إذ إن عود الثقاب الذى أشعله بهر عينيه ، فأخذوه فى سهولة ويسر كأنهم يقتنصون ضباً متقبضاً على نفسه ، وماكان إشعاله للثقاب عن جرأة ولا اصطناع للشجاعة ، فقد كان الخوف يملأ قلبه على ما اعترف لى هو بنفسه ، ولكنه لم يكن فى مكر باخاروتى الذى لايشعل عود ثقوب إذا ماكان مسافراً فى ظلام الليل إلا بعد أن يفتح عيناً ويغمض أخرى حتى إذا بهر الضوء عينه المفتوحة استطاع أن يواصل سيره دون أن يتعثر مستعيناً بالعين التى اعتادت الرؤية فى الظلام .

وعاد فنانثيو إلى تهييج نار المعركة ، فصاح بقريع باخاروتى يستثيره :

- أدرك الأسود ياماريا نيبيس ! ألا تراه قد أثار فى وجهك الغبار ؟.

وكان فنانثيو يعرض فى هذه الإشارة بما درج عليه باخاروتى مكراً ودهاء من أنه كان إذا سافر فى فصل الصيف فإنه كان يجتهد فى أن يضع نفسه على رأس القافلة حتى يتجنب ماتثير دواب الآخرين من الغبار ، أما فى الشتاء فقد

كان يحرص على التـأخر عن الركب حتى يضطلع المتقـدمون بخوض القنوات التى يملؤهـا مـاء الفـيـضـان والسـيـول باحـثين عن المسـلك الصـالح ، وبهـذا يتجـشمون هم مـشقة العـمل بينما يسـير باخاروتى وراءهم تابعًـا الطريق التى سلكوا قـبله ، وإلى هذه الحيلة أشـار فنانشيـو فى عبـارته الأخيرة ، ولكـن ماريا نيبيس بادر بالجواب :

– لا بل إنه الآن فى مـؤخـرة الركب ينتظـر أن يقـوم السـابق بـإفـسـاح الطريق له !

غير أن جـواب ماريا نيبيس كـان له معنى مزدوج لايفهـمه إلا باخاروتى ، وذلك أن مـاريا نيبـبس – حـينما قص علـيه صـاحبـه خـبر مـاوقع فى «الركن العميق» – كـان قد استنتج أن الرصاصة التى أطلقـها لوثاردو لم تكن هى التى أدت إلى مصرع «الساحر»، غـير أن باخاروتى لم يرد أن ينسب فضل ذلك إلى نفسه ؛ إذ آثر أن يذهب سيده لوثاردو بفضل تلك «المكرمة» ، فقد كان ذلك فى نظره ضـربًا من المروءة ... المروءة الهمـجيـة ، والتواضع الذى جـعله يتنازل عن فخـر هذا الصنيع للدكـتور لوثاردو ، وإلا فـإن قتل «السـاحر» كـان يعتـبر لدى رجال ألتاميرا عملاً مجيداً جديراً بالذكر المأثور والصيت الطائر . كذلك لم يرد باخاروتى أن يسـتأثر بذلك الفضل لسـبب آخر : فقد كـان يعرف أنه إذا حلت ساعة الحسـاب وتحديد التبعات أمام القانون فـإن لوثاردو أقدر منه على الدفاع عن نفسـه والخلوص من ذلك المأزق ، ومن أجل هذا أطلق ماريا نيبيس كـلمته تلك مـشيراً إلى تأخـر باخاروتى عن الـسير حـتى يتجـشم أحد مـئونة إفساح الطريق له .

وكان الـرجلان إذا اشـتبكا فى مناقـضة أو مـهاجـاة لايكفان عن الملاحـاة بأعنف لسـان وأشد عارضـة ، غير أن باخـاروتى لم يكن ينتظر أن يخـرج عليه صاحبه بما خرج به ، فبقى متحـيراً يعيبه الجواب . وتصايح الحاضرون عند ذلك فى مرح :

- ها هو الأسود قد وقع ، فاغتنم الفرصة يا أشقر ، ولا تبق عليه . اطرحه إذن على الأرض ، وأنفذ فى أنفه الخطام ، فقد أصبح ملك يمينك ! ولكن ماريا نيبيس أدرك أن الدعابة أصبحت ثقيلة فقال :

- إن رفيقى يعلم علم اليقين أننا نتمازح ، ولكن لايبلغ أحدنا من أخيه مثل هذا المبلغ !.

وابتسم باخاروتى . أما الحاضرون فقد اعتبروا ماريا نيبيس هو المنتصر فى هذه المعركة الهجائية ؛ إذ أفحم صاحبه وأعجزه عن الجواب ، ولكن الأمر كان مختلفًا بين الصديقين ، فقد فهم باخاروتى أن صاحبه قد أدرك حقيقة ماجرى فى «الركن العميق»، وهو أن الذى قتل «شيطان المروج» وأكثر أتباع السيدة باربارا رجولة وجرأة إنما كان باخاروتى نفسه ، ومن أجل ذلك فقد كان صديقه يعجب به لهذه المأثرة ويغبطه عليها .

وبعد ذلك بلحظات أقبل «إنكارناثيون الأقرع» إلى الفناء الذى تجمع فيه الرجال، وخرج باخاروتى وماريا نيبيس لاستقباله ، وسأله هذا الأخير :

- ما الذى أتى بك إلى هنا ياصديقى ؟

- لاشىء إلا الرغبة فى أن أنام قليلاً تحت سقف مرفوع إذا كنتم تسمحون لى بذلك ، ثم رسالة كلفونى بحملها إلى الدكتور ... هى رسالة من قاضى المنطقة .

فصاح به باخاروتى :

- ومنذ متى كنت تحتاج إلى الاستئذان من أهل هذا البيت لكى تنصب سريرك حيث تشاء ؟ انزل عن جوادك وخذ قسطًا من الراحة فى المكان الذى تريد . وأعطنى هذه الرسالة التى تحملها إلى الدكتور .

ومثل باخاروتى بعد ذلك أمام لوثاردو وقد حمل الرسالة فى يده وهو يقول :

- يبدو أن الأمر قد اتسعت خروقه ياسيدى الدكتور . هذه رسالة إليك من قاضى المنطقة .

وكانت الرسالة من موخيكيتا ، وفيها يقص على لوثاردو أشياء بدت له غريبة مذهلة :

«بالأمس تقدمت إلينا السيدة باربارا ومعها الربعان اللذان سرقا فى «مرج الشجرة» من الريش ، وقررت مايلى : أنها كانت تشك فى أن مرتكب الجريمة هو المدعو بالبينو بايبا الذى كان وكيلاً لك فى إدارة ضيعة ألتاميرا حتى قمت بطرده عند وصولك إلى هناك ، فقامت السيدة بتكليف بعض رجال ضيعتها بمراقبته وتعقبه ، وكان أن اثنين من هؤلاء الرجال - صادعين بأمرها - تبعا خطواته حتى المرج المعروف باسم «لاماتيكا» ، وهناك باغتاه متلبسًا باستخراج صندوق كان قد أودعه باطن الأرض ، وتبين أن هذا الصندوق هو الذى كان يحتوى على حمل الريش المسروق ، فطلبا منه أن يستسلم ، ولكنه أبى وأسرع بإطلاق النار عليهما ، فجارياه على عدوانه وأصاباه إصابة قاتلة . وقد توجهت السيدة بمجرد وقوع ذلك إلى دار الحكومة المدنية ومعها حمل الريش المسروق لكى تدلى إلى السلطات ببيان ماحدث ، ولكى تنهى إلينا أيضًا خبر مقتل «ملكيادس جامارا» المعروف بلقب «الساحر» على يد بايبا المذكور ، قبل حادث «لاماتيكا» بلحظات ؛ إذ إنه كان مِمَّنْ عُهِدَ إليهم بمراقبة بالبينو بايبا ، فقتله هذا تخلصًا منه» .

وأنهى موخيكيتا رسالته قائلاً إن السيدة باربارا - فى رغبتها فى أن تقوم هى نفسها بكل شىء - قد واصلت الرحلة بعد ذلك إلى سان فرناندو حتى تسلم حمل الريش إلى التاجر الذى كان كارمليتو قد عقد معه الصفقة ، ثم مهنئًا لوثاردو على تكشف الحقيقة والحل الموفق السعيد الذى انتهت إليه تلك القضية بعدما كان يبدو فيها من تعقيد وغموض فى الأيام السابقة .

ورأى سانتوس بعد انتهاء الرسالة حاشية كتبها السيد بيرناليتى بخط يده :

«ألم أقل لك يادكتور لوثاردو ؟ هاهى ذى النقط قد وضعت على الألفات ، وأما الريش الذى سرق منك فهو الآن فى الحفظ والأمان فى يد صديقتك التى ستسلم تلك الأمانة إلى أصحابها ثم تحمل إليك ثمنها . وهذا هو ماكان ينبغى لك أن تفعل من أول الأمر : صديقك «بيرناليتى» .

وأخذت الحيرة مأخذها من سانتوس بعد قراءة هذه الرسالة : حمل الريش قد أعيد إليه ، وبالبينو هو قاتل ملكيادس ، وكل ذلك بتدبير من السيدة باربارا !

وصاح باخاروتى حينما أفضى إليه سانتوس بالنبأ :

- ها أنت ذا ترى ياسيدى الدكتور أنه لم يكن هناك مبرر لكل هذا القلق الذى كان يبدو عليك . والآن وقد انتهى كل شىء فإن فى وسعى أن أصرح لك بشىء : هو أن الرصاصة التى قتلت «الساحر» لم تكن تلك التى أطلقتها أنت ، وإنما هى رصاصتى أنا ، فلعلك تذكر أنك كنت مقبلاً عليه بوجهك بينما كنت أنا مستقبلاً منه جانب سرجه ، وقد كانت إصابته من هذه الناحية ... فى صدغه الأيسر . ألا تذكر ؟ فإذا كان الأمر كذلك فقد كنت أنا المجهز على هذا « الشيطان» ، غير أن القاضى يصر الآن على أن قاتله هو السيد بالبينو ... فليكن ، وليحمل بالبينو على رأسه دم القتيل !

فاعترض سانتوس :

- ولكن هذا ظلم صارخ . إن حقنا فى الدفاع عن أنفسنا مشروع لاغبار عليه ، فقد كان ملكيادس هو البادئ بالعدوان ، سواء أكنت أنا قاتله أم أنت - مادمت الآن معترفًا بذلك - فإن لنا أن ننام فى هدوء بال وراحة ضمير ، ولكن الظلم الواقع الآن على بالبينو سيحرمنا - منذ هذه اللحظة - من ذلك الهدوء وتلك الراحة إذا لم نتقدم أمام القضاء حتى «نضع النقط على الحروف» لا على الألفات كما هى موضوعة فى هذه الرسالة !

فصمت باخاروتى وقد عاوده القلق والتشكك ثم قال :

- انظر ياسيدى الدكتور . إنك إذا ذهبت الآن للاعتراف بالحقيقة كلها هادمًا بذلك الحكم الذى أصدرته السلطة القضائية فأرجح الظن أن يستشيط السيد بيرناليتى غضبًا ، ولست أظنه حينئذ يحجم عن إيداعك قرارة السجن حتى لاتعود مرة أخرى إلى ارتكاب مثل هذه الفعلة التى تتجاوز السذاجة والبراءة إلى ماهو شر منهما! ... ثم لتذكر ياسيدى أخيرًا أن هذا الذى حدث ، والذى يبدو لك ظلمًا صارخًا ليس فى الحقيقة شيئًا فعلته السيدة باربارا ولا القاضى ولا الحاكم المدنى ، بل سبق به حكم اللّه نفسه ، واللّه أعلم بما يفعل . وتأمل ما أقول يادكتور : لقد أطلقنا رصاصنا على الساحر : أنت أو أنا - فقد رأى باخاروتى من مصلحته الآن ألا يصر على أنه هو قاتل الرجل - ولكن من الذى يستطيع أن يؤكد أن القتيل لم يلتفت برأسه فى اللحظة التى أطلقنا فيها النار ؟ والمهم هو أن الرمية كانت مسددة صائبة على أية حال . والذى يحمل دم القتيل على رأسه الآن هو بالبينو ، وهو رجل يعلم اللّه مدى ما ارتكب من جرائم لم ينل عليها قصاصه العادل . دع الأمر ياسيدى فى يد اللّه ، فهو خير الحاكمين ، وهو منتقم جبار شديد العقاب .

وعلى الرغم من خطورة الموقف فإن سانتوس لم يتمالك نفسه من الابتسام ، فقد كان «إله» باخاروتى مثل ذلك «الصديق» الذى تقمص السيد بيرناليتى شخصيته : كلاهما لايرى بأسًا فى أن توضع له «النقط على الألفات» ! ...

الفصل الثالث عشر

بنت الأنهار

منذ وقت طويل لم تأت السيدة باربارا لزيارة سان فرناندو .

وكما هى العادة لم يكد خبر وصولها يذيع فى المدينة حتى بدأت الحركة ودب النشاط في أوساط المحامين متوقعين قضية من هذه القضايا الطويلة المجهدة التى اعتادت سيدة حوض الأراوكا ومحتكرة أراضيه أن ترفعها على جيرانها . وهى قضايا كانت تعود بالخير العميم على محترفى مهن المحاماة والقضاء والسياسة على اختلاف ألوانهم وتباين أخلاقهم : أما الخبثاء من أصحاب «الذمم الواسعة» فقد كانوا يغرفون من القدْر غرفاتهم ؛ إذ كان على السيدة باربارا فى سبيل اغتصاب ماتستطيع من أرضَ الجيران أن تدع صرراً من النقود الذهبية فى أيدى القضاة والمحامين الموكلين بالدفاع عن خصومها أو فى جيوب زعماء السياسة ومحترفيها ممن يعينونها بنفوذهم وسلطتهم ، وأما المحامون ذوو الذمم النظيفة فإنهم كانوا أيضًا يربحون بمقدم السيدة؛ إذ كان لهم نصيب فى الغنيمة يتأتى لهم من كثرة الجدل الفقهى واحتدامه وتضخم الملفات القضائية مما يقتضى منهم شحذ قرائحهم لاستنباط ما يستطيعون من حيل قانونية تكفل لهم الدفاع عن حقوق موكليهم من ضحايا السيدة باربارا ضد أحابيل خصومهم ذوى الضمائر المرنة . غير أن أساطين المحاماة وزعانفها أصيبوا فى هذه المرة بخيبة أمل حطمت ماكانوا قد بنوه من أمانى ؛ فإن السيدة باربارا لم تأت اليوم لرفع قضية ولا لإثارة نزاع ، بل قدمت لأشياء أخرى كانت موضع دهشة الجميع .

غير أن هذه الحركة والجلبة لم تقتصر على من اتخذوا من الصراع فى ساحات المحاكم مهنهم وأعمالهم ، بل شملت أهل المدينة كلهم ؛ إذ لم

يسمعوا بمقدم السيدة حتى بدأ لغطهم وتعليقاتهم المعتادة ، وشرعت الألسنة مرة أخرى فى رواية آلاف الأقاصيص عن غرامياتها وجرائمها ، وهى أقاصيص أكثرها مخترع ملفق مما نسجه الخيال الشعبى الخصب ، وكانت تضفى على المرأة طابعًا قاتمًا من البطولة لا يخلو من السحر والفتنة ، حتى كأن الوحشية التى كانت تكمن فى روحها على حد ماكانت تذكر تلك الأقاصيص لم تكن توحي بالكراهية والاشمئزاز بقدر ما تعبر عن ضرب من الإعجاب والتقديس يشعر بهما مواطنوها نحوها . كانت باربارا تقيم فى ركن بعيد متوار فى قرارة السهول المهجورة ، ولم تكن تطل على المدينة إلا فى أوقات متباعدةً لممارسة ضروب من الشرور والمكايد ، ومن أجل هذا تحولت فى أنظار الناس إلى بطلة من أبطال الأساطير تحيط بها هالة سوداء دامية ، وتثير فى نفوسهم شتى المشاعر المتضاربة ، وتغذى خيالاتهم المحمومة .

وكان من الطبيعى أن يزيد من إهاجة عواطف الناس واستثارة تساؤلهم ما عرفوه من أن قدوم السيدة هذه المرة لم يكن إلا من أجل تسليم ماسرقه عشيقها الجديد إلى خصمها الألد ، وكأن ذلك وحده لم يكن كافيًا ؛ إذ أبت إلا أن تقوم بنفسها بهذه المهمة على الرغم من أن قيمة المسروق كانت مما يسيل له اللعاب . وأرواح الناس فى هذه المنطقة كالعهد بسائر أهل السهول سريعة التأثر ، وخيالهم سهل الانفعال بكل ما يبدو أمرًا غريبًا بعيدًا عن التصديق ، وكان الهدف من قدوم السيدة باربارا فى هذه المرة أحد هذه الأمور التى هى أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة ، ولهذا فسرعان ما أقبل أهل المدينة يقلبون الأمر على وجوهه ، وخلق ذلك لها فى محيط الناس جوًا من المودة والإعجاب خفف من وقع الأقاصيص الشائعة التى اعتادت أن تصورها بصورة المرأة المشئومة الخبيثة .

وبدأ كل يخترع ما حلا له من أحاديث ، وأخذت تدور بين الناس ملاحم جديدة من حياة السيدة باربارا ، ولكن الاتجاه فى هذه المرة كان مخالفًا للتيار الذى كان يغلب على الروايات القديمة ؛ إذ إن الحوادث التى كانت السيدة

باربارا بطلتها فى تلك الأقاصيص الجديدة أصبحت تصورها امرأة قد نزعت إلى الخير وتلمست التوبة والندم . لم يكن للناس فى المدينة حديث غير ذلك : أما النساء فكانت حلقاتهن تجتمع فى البيوت فى حديث متصل متهامس ، وأما الرجال فكانت مجالسهم منعقدة حول موائد المقاهى وقد اتخذت من موضوع المرأة مجالاً واسعًا ينفقون فيه وقتهم ، بل إن الشارع الذى كان يقع فيه فندقها قد أصبح فجأة ميدانًا للذاهبين والجائين من هواة الاستطلاع .

وكان الفندق الذى نزلت فيه المرأة دارًا كبيرة لها دهليز طويل يؤدى إلى شارع مواجه لأحد ميادين البلد الكبرى ، وكانت السيدة باربارا تتخذ مجلسها فى فنائه على كرسى متأرجح ، وهى تتنسم النفحات الرطبة التى تهب من النهر ، وكان شاطئه لا يبعد عن الفندق إلا بنحو مائة متر . كانت جالسة وحدها ، وقد ألقت برأسها إلى الوراء على مسند كرسيها ، وهى فى استرخاء وجمود ، دون أن تعير أدنى اهتمام لكل ما كان يدور من حولها .

ولم يكن يدور حولها إلا حب الاستطلاع الذى كان يسود المدينة بأسرها فقد وقف على الرصيف المقابل للفندق جمع كبير من الرجال يتأملها فى صمت مأخوذ ، بينما كانت جموع أخرى من الآنسات والسيدات الشابات يمررن بين لحظة وأخرى تحت حنايا الفندق والمتاجر المجاورة الممتدة حتى ضفة نهر «الأبورى» ، ولم يكن لهن غرض من خروجهن من بيوتهن فى ذلك المساء إلا النظر إليها ... أما الآنسات فإن عيونهن الحيية المحتشمة لم تكن تقع على المرأة حتى يعلوهن الخجل حياء من أن يفاجئهن الرجال الواقفون على مقربة وهن يشبعن بنظراتهن فضولهن الجرئ ، وأما السيدات فكن يملأن عيونهن منها فى تفحص دقيق بينما كن يتبادلن التعليقات بين ابتسامات ماكرة لها مغزاها .

وكانت باربارا ترتدى ثوبًا أبيض مشغولاً مطرزًا يكشف عن كتفيها اللتين أبدع الخالق تشكيلهما وتدويرهما ، وكانت هذه أول مرة يراها الناس هناك فيها

على هذه الهيئة التى تبدو فيـها الرقة والأنوثة . فلم ير النساء اللاتى كن يتأملنها - حتى ألذعهن لسانًا وأكثرهن تصيداً للعيوب - بدًا من أن يعترفن :

- يالها من امرأة ! ... إنها مازالت قديرة على إدارة رءوس الرجال !.

- وأما الأخريات فكن يطرينها فى غير تكلف ولاتحفظ :

- إنها رائعة ! ... ما أجمل عينيها ! .

وكانت بعضهن تعلق :

- إنهم يقولون إنها مدلهة فى حب الدكتور لوثاردو .

فتضـيف إحدى العوانس فى مـرارة العفة التى خاب رجـاؤها فى اقتناص رجل :

- ... وسيـتزوجـها فى النهـاية . إن هذا الصنف من النساء ينال دائـمًا فى النهاية مايصدق عليه العزم ، فالرجال كلهم مجانين أغبياء !

وأخيراً تعب الناس من الإعجاب والتعليق والتهامس ، وبقى الشارع خاليًا مقفراً .

وكانت أشعة القمر تلمع فى ضعف وتخاذل على رؤوس الأشجار القائمة فى الميدان بعد أن غـسلتها مياه المطر التى انسكبت عليـها منذ قليل ، أو تنعكس على البرك الصـغيرة الـتى خلفها المطر على صـفحة الشـارع هنا وهناك . وبين وقت وآخر تهب نسمة باردة فتهز فروع الشجر وتبعث فى الجو رطوبة ملطفة ، وقد عاد المارة إلى بيوتهم ، ولـم يبق إلاّ عدد من الجيران كانوا يتلمسون النسائم الرطبة فى خارج منازلهم وقد اعـترضوا أرصفة الشارع على كراسى مـتأرجحة ومقاعد طويلة ، غـير أنهم بدأوا ينصرفون أيضًا فى جمـاعات ، وبعضهم يلقى على بعض تحية الوداع فى أصوات بطيئة متراخية :

- إلى الغد . لنأو إلى الفراش ، فقد حانت ساعة النوم .

وبدأ السكون يمد وطاءه على البلد . إن هذه الكلمات الكسولة المسـترخية التى كان الناس يتبادلونها مودعين أو متـداعين إلى النوم لـم تكن إلا تعبيراً عما

يكمن فى حياة المدن الصغيرة الكئيبة من مأساة يومية متجددة ، حيث المأوى إلى الفراش يعتبر أمراً له خطره ، بعد يوم مر كغيره ... بلا عمل له قيمة ... يوم سقط من حساب الحياة ومن حساب الأمل . ومع ذلك فإنهم يتمتمون دائمًا :

- غداً ... سيكون يومًا آخر !

وهكذا كانت تفكر السيدة باربارا : لقد ردت الأمانة وسلمت الرسالة وتحررت من جرائم الماضى التى كانت تسد عليها طريق حياتها الجديدة . كانت باربارا تحلم كما لو كانت فتاة صغيرة مراهقة تفتح قلبها على أول حب ، وتتمسك بحبل الرجاء فى أنها قد ولدت الآن من جديد لحياة مختلفة عن تلك التى عاشتها حتى الآن ... حياة تنسى فيها ذلك الماضى الأسود ، وكأن هذا الماضى قد انصرم إلى الأبد باختفاء حامى ظهرها المشئوم ذى اليد المسلحة المخضبة بالدماء ، وبمصرع العشيق الجلف ذى الحب الجسدى الغليظ . والآن ... ما الذى ستستقبل به غدها القريب من أفكار وآمال ؟ إن هذا الغد سيشرق عليها وقد أعد لها مشهداً رائعًا عجيبًا : مشهدها وهى سائرة فى طريق مختلفة لم تسلكها من قبل ، وقلبها وهو يتفتح على مشاعر لم تألفها أبداً فى حياتها الماضية ... إن انتظار الغد قد أصبح نوراً يسطع على هذه المنطقة المجهولة من روحها، والتى بدأت تتكشف لها قليلاً قليلاً ، حيث كانت تتحرك ظلال هائمة لذلك الحب الطيب الذى قضى عليه فى مهده، والذى أحست به وهى صبية غريرة بعد حينما كانت تصغى إلى كلمات أسدروبال ... هذه الكلمات التى أيقظت روحها وكشفت لعينيها عالمًا جديداً من الأحاسيس المختلفة عن تلك الرغبات المسعورة الفظة التى كانت تعتلج فى نفوس قراصنة النهر على ظهر القارب .

ولكنها وهى فى غمار هذا الفيض من الأحلام المذهبة التى فقدت معها باربارا الذاكرة وأصبح ماضيها بفضلها نسيًا منسيًا ... إذا بفكرة تندس فى هذا التيار منزلقة متلصصة ، فتعكر عليها صفو تلك السكينة ... لعلها شعور

كمـن فى وعـيـها البـاطن ، أو كلمة ترسبت فى قاع روحهـا حتى اضطربت فجـأة ثم شبت وطفت إلى السطـح ، هى أشبه مـا تكون بجسم صـغيـر غريب تحدر فى أنابيب آلية ، فأوقفها عن العمل . من أين أتت هذه المرارة المفاجئة التى قبضت نفسها وقطبت أساريرها بلا وعى ولا إرادة ؟ وما الذى أعاد إلى لسانها هذا المذاق الكريه ... مذاق الحقد والكراهية الذى كـانت تظن نفسها بمنجاة منه ؟ ولماذا هاجمتـها فى هذه الـلحظة تلك الذكرى الـقاسـية : ذكـرى الطائر الذى يسقط بين أيدى الصائدين وقـد بهرت نظره شعل النار يضرمونها ثم يـطفئونها فجـأة ؟ ... وهكذا كان قلبـها الآن أضاءته إشـراقة الآمال الزاهبـة ، ثم باغتـته الظلمة وصَـوَّحَتْ فيـه الآمال !.. ألم يكن ردها للأمـانة وإحراقهـا للماضى المشئـوم كافيًا إذن ؟

إن هذا الشـعور المفـاجئ لم يكن إلا ثمرة تأمل الجـماهيـر المتجـمعـة على الرصيف المقابل لها ، وتطلع النساء إليها وهن ذاهبات جائيات يرمقنها بنظرات فاحـصة ، هذه النظرات التى كـانت تعبـر عن إعجـاب برئ ساذج أو فـضول ينطوى على تعـريض مـاكر لم تكن إلا رغـبـة من المدينة بأسـرها فى تذكيـرها بماض كانت تصـر هى على نسيانه وكأنما كـانت عيون الناس تهتف فى أذنـيها قائلة :

- «لكى تظفـرى بحـب رجل مـثـل سـانتـوس لوثاردو ينـبـغى أن تكـونى امـرأة بلا ماضٍ ... بلا تاريخ !» .

وماضيـها يعود الآن إلى ذاكرتها ملحًـا ثقيل الوطأة من فاتحتـه الأولى كما اعتاد أن يفعل : «قـارب صغير يشق الأنهار الواسعـة التى تحف بها غابات المطاط الكثيفة ... ».

ونهضت باربارا عن مجلسهـا تحت حنايا الفندق ، وسارت على مهل على رصيف الشارع تحت أقواس المتاجر القريبة الممتدة على شاطئ نهر «الأبورى» ، تقودهـا رغبة كـامنة قاهرة فى أطواء نفـسهـا المظلمة إلى تأمل منظر الـنهر : إن

«بنت الأنهار» تحس من جديد بهذه الجاذبية الغـامضة التى تشد روحها إلى الماء المتلاطم بين ضفتى النهر .

وكانت أشعة القمر الشـاحبة تنفذ عبر سماء انساح على صفـحتها ضباب خفـيف ، فتـقع على واجـهات المنازل المطلة على ضـفة النهـر ، وعلى سـقوف السعف التى تتـوج البيوت الريفـية المتناثرة البـعيدة ، وعلى سـفح الجبل المطلع على الوادى ، وعلى صفحة «الأبورى» الهادئة ، وكانت مياهه العكرة قد بلغت أدنى درجات انخفـاضها بحكـم موسم الجفـاف ، وانكشفت عن شاطئ واسع تملؤه الرمال. وعلى الضفة اليـمـنى - حيث سارت باربارا - كان هناك زورق بخارى وقاطرة مـلحقة به لحمل الماء والفـحم ، وقد قبع كلاهمـا إلى جوار سد صغير أقيم على النهر ، وعلى مقـربة منهما طفا على سطح الماء مجاز أنشئ من ألـواح الخـشـب وعـدة قـوارب سـوداء مـثـقلـة بالحطـب وثمـار الموز ، ومركب فارغ قد دهن بطلاء أبيض مازال طريًـا بعد ، وقد نام على ظهره صبى صغير .

وبدا الشاطئ مهـجوراً خاليًا ، فقد انـصرف الرجال الذين قضوا أمسـيتهم يشربون أو يتـبادلون الحـديث تحـت أشـجار الضفـة أمـام المقـاهى ، ولـم يبـق إلا الخدم وهم يجمعون الكراسى والموائد ويقـفلون الأبواب ويطفئون المصابيح التى كانت أنوارها تنعكس على صفحة ماء النهر .

وبدأت باربارا نزهتها على الرصيف الخالى .

الحديث يدور بين أصحاب القوارب والملاحين المطلين عليهم من المركب : حديث بطئ كـتيار النهـر المنساح على الأرض الأفقـية المنبسطة ، مـسترخ كـما تمضى الليلة النائمة تحت سماء غشاها الضبـاب ، متثاقل تثاقل خطوات السيدة باربارا وهى تذرع رصيف الشاطئ فى صمت ، كأنها شبح هائم .

كل هذا يثيـر فى نفسهـا ذكريات الأنهار الواسعـة التى تخترق السـهول ، والأحداث الهائلة التى تعرضـت لها حياتها على صفحـات مياهها ... كل شيء

يذكرها بذلك الماضى . سفح الجبل الصامت تحت ظلام الليلة الساكنة ، والنهر الذى ينحدر قادمًا من الجبال البعيدة متسللاً فى هدوء ، ونعيب طائر نهرى يقترب محومًا على سطح الماء النائم ، وحديث الملاحين البطئ ...

هذا والسيدة باربارا ذاهبة فى خطواتها المتثاقلة تحت الظلال الزرقاء الخفيفة التى تلقيها الأشجار ، ثم تعود فترى المنظر نفسه : الليلة الصموت ، والنهر الزاحف بلا هدير ولاصخب متجهًا للقاء نهر آخر بعيد ، ونعيب الطائر الأرق الذى اختفى عن الأنظار ، وحديث الملاحين الذى يغالب النوم ، ومع هذا كله ذكريات الحوادث المشئومة الواقعة على أرض متوحشة تزحف عليها أنهار عريضة غامضة ! ...

وهى لا تنظر ولا تسمع إلى شىء آخر ، المدينة النائمة على ضفة النهر اليمنى لاوجود لها فى باطن شعورها ، فهى لا تعير اهتمامًا إلا لهذا الشىء الذى سيطر على روحها فجأة : سحر منظر الماء ، والفتنة الطاغية التى تلوح على صفحات الأنهار الغامضة حيث بدأت قصة حياتها : «الأورينوكو» الأصفر ... و «الأتابابو» الأحمر ... و«الجواينيا» الأسود ! ...

الليل ينتصف ، والديكة تبدأ أذانها المبكر ، ومن بعيد يتردد نباح الكلاب ، ثم يعود الصمت العميق ، ولا يسمع إلا صفق أجنحة البوم ، أما الملاحون فقد سكتوا عن الكلام ، ولم تبق إلا همسات الأمواج المتثاقلة البطيئة وهى تداعب آذان القوارب السوداء .

وتتوقف باربارا عن المسير ، وتنصت إلى صوت يهيب بها :

- كل شىء يعود إلى المكان الذى منه خرج !

الفصل الرابع عشر

بريق النجوم في العيون

. . . كـان ذلك بداية النهـاية ، والخـفـقـات الأخـيـرة لنجم آفل . إن المرأة الجموح الشـرسة التى لم تكن تتـورع عـن شىء تجـد الآن نفسـها أمام شىء لا تعرف كيف تقـاومه أو تتحرر منه ، لقد كان التـدبير الذى أعدته فى « الركن العمـيق » خبط عـشواء ، أما الدافـع الذى حملها على أن تـلصق ببالبينـو بابيا مصرع « الساحر » فقد كان هو المقدمة لاستسلام نهائى لا رجعة فيه .

كانت باربارا تحس إحساسًا خفيًا بفشل ما علقته من آمال على «رد الأمانة» ونسيان الماضى ، وكان التوكل والإيمان الأعـمى بالقدر المكتوب وهو شىء كان يجرى فى نفسـها الهندية مجرى الدماء فى عـروقها - يسوقها إلى الاسـتسلام والانخلاع عن كل شـىء ، ولـم يكن تذكرها للمـاضى .. لطفولتهـا المتوحـشة على صفحات أنهار الغابة العريضة إلا وجوها ملثمة لفكرة جديدة بدأت تتولد فى نفسها : الانسحاب وإفساح الطريق ! ..

وعلى الرغم من ذلك فـإنها تحـاملت على نفسـها وتغلبت علـى ما طوف بذهنها من التـخاذل والخور ، وقررت العودة إلى الضـيعة حاملة مـعها خطاب التاجر الذى سلمت إليـه حمل الريش باسم سانتوس لوثاردو ، وفـيه يعلن إليه أنه تسلم السلعـة ونقد السـيدة باربـارا ثمنها على أسـاس سعـر الريش فى يوم تسلمه ، وكان هذا السعر أغلى منه فى اليوم الذى كان مقدرًا له لو أن كارمليتو حمل البضـاعة إليه فيـه ، وكذلك حملت باربارا وثيقة الـبيع الصورى للأرض التى انتزعـتها منه فى ساحـات المحاكم ظلمًا وعدوانًا ، وهـو مـا كانت تفـكر فى عرضـه على سانتوس لـوثاردو مرة أخرى بعـد أن رفض اقتراحـها الأول .

وكانت باربارا قد أودعت هذه الأوراق آخر ما بقى لها من أمل ، ولو أنه الآن أمل مضطرب غير متحدد الصورة ، فقد انقطع رجاؤها أو كاد من الظفر بحب لوثاردو ، هذا الحب الذى طالما كان يحثها على المضى فى الطريق التى سلكت. نعم .. إنها تشعر بذلك شعوراً خفياً حينما تطالع صفحة النهر ؛ إذ هى لا تفعل حتى ترتسم لها على الماء صورة سانتوس لوثاردو ، وقد اختلطت معالمها بوجه أسدروبال الذى بعد به العهد ، فلم تعد ذاكرتها تعى من ملامحه إلا طيفاً غامضاً مضطرباً ، ولكنها تحس بأن لوثاردو بعيد عنها بقدر بعد حبيبها الأول ، فهى لا ترى منه إلا ظلاً يبتعد حتى يختفى فى عالم الوهم وقد أحاطت به هالة من النور الشاحب .

ومع ذلك فقد كانت باربارا تريد أن تحقق ما صدقت عليه عزمها حتى النهاية ، كانت حاجة ملحة قاهرة تدفعها إلى إتمام ما بدأت ؛ إذ إنها لو توقفت الآن وهى فى منتصف الطريق لكان ذلك ضربة قاضية لعلة وجودها ، ووجودها نفسه فى هذه اللحظة قد أصبح هشاً فى مهب الريح .

* * *

موسم الجفاف قد بدأ ، والساعة قد أزفت لقيادة القطعان التى كانت تجهل مواضع السقيا أو نسيتها تحت وقع سياط الظمأ الملتهب ، كان على الرعاة أن يقودوا تلك القطعان إلى حيث أعدوا ما يروى عطشها . وهنا وهناك انتثرت بين القنوات الجافة الضامرة وعلى المروج التى أحال الجفاف لونها إلى الشهبة – قواديس كبيرة من الفخار اتخذوها موارد تستقى منها الماشية ، وكانت أشعة الشمس الملتظية قد حولت قيعان القنوات إلى قشور صلبة من الأرض المبيضة تغطى برك الطمى المنتنة كأنها قروح اندملت دون أن يتماثل حاملها للشفاء ، ولكن بعض البرك كانت ما تزال مكشوفة ، وقد بقيت فيها فضلات من ماء غليظ حار ، تهافتت عليها بعض رءوس الماشية التى أصابها الظمأ بضرب من الجنون المسعور ، فأقبلت تنهل منها حتى تضخمت بطونها وعسر عليها الخروج

فراحـــت تغـــوص فى ماء تلك البـرك قليـلاً قليلاً ، وأسـراب الدود المتعـطشة إلى الجيف المرمة لا تشـهد ذلك حتى تقبل فى جـيوش كثيفـة زاحفة على تلك البرك التى تحولت إلى أشراك للرمم . إن الموت فى السهـول أشبه برقاص ساعة هائل يتأرجح عليها : من السيول إلى الجفاف ، ومن الجفاف إلى السيول ! . . .

والأعشاب اليابسة تتقصف وتتكسـر تحت الأشعة القاسية ، والمروج تلتمع بين دوائر السراب المحيطة بالأفق ، وهى تبدو من بعيد كـأنها برك زرقاء يستقر فيهـا المـــاء القراح عذب الإغــراء ، ولكنه ماء ملعـون يورث الجنون واليأس : لا يكاد الظمآن يهرع إليه حـتى يراه على نفس المسافة . . . هناك فى نهاية الأفق البـعـيد . . . وهـكذا كانــت السيـدة باربارا : تحث مـطيتـهـا إلى سـراب حب مستحيل !

ووصـــلت باربارا أخيراً إلى الضيعـــة وقـــد أجـهدها السفر ، وكان الليل قد اقتـرب ، ولكنها مع ذلك لم تتلبث فى دارها إلا ريثمـا غيرت دابتها المتـعبة واستبدلت بها أخرى ، وأصلحت من هندامهـا قليلاً حتى تستعد للقاء لوثاردو فى نفس الليلة ؛ إذ كان شوقـها إلى ذلك اللقاء وتلهفها عليه يمـنعها من تأجيله إلى اليوم التـالى ، ولكنها لاحظت أن أكواخ الضـيعة بدت مهـجورة ، والمطبخ مغلقًا ، والحظـــائر خاليـــة . . . لم يكن هناك إلا خوان بريميتـو وهـو يتسـكع فى ذلك الفراغ الكبير الأصم ، فسألته :

- ما الذى وقع هنا ؟ وأين ذهب رجال الضيعة ؟ .

فأجاب الغبى وهو لا يجرؤ على الاقتراب منها خشـية أن يستثير غضبها بما كان مقدماً على أن يلقى به من حديث :

- لقد هربوا جـميعًـا ، فهم يقولون إنهم لا يريدون أن يظلوا فى خـدمتك بعـد الآن ، إذ إنك لم تعودى نفس المرأة ، وإنه ليس من الـغريب المستبـعد أن تشدى وثاقهم ثم تسلميهم واحدًا واحدًا !

ولمعت نظرات الغضب فى عينى المرأة ، أما خوان بريميتـو فقد أسرع يبلغها بقية الأنباء :

- أتعرفين أن السيد لورنثو قد مات ؟

- كان عليه أن يفـعل منذ وقت طـويل ، فقـــد أرخى له من العمـر أكثر مما يستحق وهى أين هى الآن ؟ .

- الطفـــلة مـاريسـيلا ؟ لقــد عـــادت مـــرة أخـــرى إلى ألتـاميـرا . . . حملها الدكـتور معه إلى هناك فى داره ، والناس يتحدثون بأنه ســيـتزوج منها فى يوم من الأيام القادمة .

ولم تكد باربارا تسـمع هذا الخبر حـتى ارتسمت على وجـهها من جديد ملامح المرأة المشئومة الرهيـبة ذات النوايا المظلمة والسطوات المنكرة ، ولم تعلق على الخبر بشىء ، بل عادت إلى امتطاء جـوادها وتوجهت إلى ألتاميرا وقد دل وجهها المكفهر على أنها بيّتت النية لشر مستطير .

ووقف خـوان بريميتـو فى ذعـر يرسم علامـة الصليب ، ثم عـاودته نزعتـه المجنونة ، فركض مـسرعًـا إلى حيث وضع أوانيه وقـدوره لكى يملأها بما يروى «طيور الشـؤم» من شراب . هذا بينمـا كانت باربارا تحث جـوادها حثًـا شديداً حتى تستخرج كل ما تستطيع من سرعته مدمية ظهره بوخزات مهمازها فى غير رفق ، وهى تحدث نفسها بصوت عال كأنها تهذى .

- مـعنى ذلك أننى أضعـت وقتى فى رد الأمـانة وتسليم الرسـالة ونسيـان الماضى ؛ إذن فأنا مستعدة لاستـرداد ما سلمت ، ولأحتفظ معى بكل ذلك حتى أحمل إلى قبرى . ولنر من هو المنتصر فى النهاية . إنه لم يخلق بعد من يستطيع أن ينتزع منى ما صممت على أن يـؤول إلىَّ ! . . . وللموت خير لى من أعيش تحت ذل الهزيمة ! .

وهكذا حتى وصلت إلى بيوت التاميرا ، ودنت باربارا من بيت لوثاردو متسترة بظلام الليل ، ومن الباب المؤدي إلى الدهليز الأمامي للدار رأت سانتوس إلى المائدة مع ماريسيلا .

وكانا قد فرغا من العشاء ، وكان هو يتحدث إليها ، وهي مصغية تنظر إليه كأنها مسحورة وقد اتكأت بمرفقيها على المائدة ، وخداها بين راحتيها .

وتقدمت باربارا حتى أصبحت على بعد رمية رصاصة منهما ، فأوقفت حصانها ثم أخرجت مسدسها من قرابه المعلق على السرج فى بطء وقد تجهم وجهها بما كان يرتسم عليه من نية إجرامية خبيثة ، وصوبت المسدس إلى صدر ابنتها الذى كان يلوح لها واضحًا بفضل ما كان يسطع عليه من ضياء المصباح القريب .

كان بريق نظرات ماريسيلا ومضات من نور النجوم الطاهر استقر فى عينى الفتاة بين أطواء الظلام الأسود المتربص الذى كان يهدى نظر باربارا المتوحش إلى تلمس قلب الفتاة ، غير أن النجم الذى كان يلمع فى عينى ماريسيلا بدا كأنما تحول إلى شهاب انقض فجأة على اليد الحاملة للموت ، فأنزلت باربارا سلاحها دون أن تطلق النار ، وأعادته إلى قرابه فى بطء . إنها لم تملأ عينها من تلك النظرات المسحورة التى كان يتألق بها وجه الفتاة حتى رأت باربارا نفسها فجأة وقد انسكبت عليها أنوار شعلة تتوهج إلى جوار شاطئ مهجور ، وهى تنصت فى لهفة مأخوذة إلى كلمات أسدروبال . وأخمدت الذكرى الأليمة نار الوحشية التى كانت تتلظى فى عروق المرأة فى تلك اللحظة .

وظلت باربارا وقتًا طويلاً تتأمل ابنتها السعيدة ، وشعرت بأن هذه الرغبة الجائحة التى طالما سادت نفسها من أجل فتح صفحة جديدة فى كتاب حياتها قد تجسمت الآن فى عاطفة أمومة لم يكن قلبها ينبض بها حتى هذه اللحظة .

– هو لك . . . فليهبك الله السعادة معه ! .

. . . وأخيرًا انتصر حب أسدروبال . . . ذلك الخيال الهائم فى حطام روح مظلمة موحشة . . . فقد كان نابعًا من إحساس نبيل طاهر ! . .

الفصل الخامس عشر

أرض كلها آفاق.. كلها طرق

فى تلك الليلة لم يشتعل السراج ولا الشموع فى صومعة المناجيات الخفية مع الشريك» ، ولكن السيدة باربارا لم تخرج إلى الفناء فى صباح اليوم التالى حتى لم يكد يتعرف عليها الرجال الباقون فى الضيعة . . . لا خوان بريميتو ولا الرجلان اللذان رافقاها لحراستها إلى سان فرناندو ، وكانا هما اللذين تكفلا بقتل بالبينو بايبا والوحيدين الباقيين على الإخلاص لها بعد أن هجرها الجميع . لم يعرفها هؤلاء الرجال إذ كانت تبدو كما لو كان العمر تقدم بها سنوات فى ليلة واحدة ، فقد تخدد وجهها بما ارتسم عليه من آثار الأرق ، غير أن ملامحها ونظراتها كانت تشف أيضًا عن ذلك الهدوء الرهيب الذى كان يطبع وجهها دائمًا حينما تكون قد عزمت على اتخاذ قرار حاسم .

ووقف الرجال الثلاثة فى انتظار ما تأمر به ، فتقدمت إليهم السيدة باربارا ، ووضعت فى أيدى الحارسين مبلغًا من المال ، وهى تقول :

- إليكما ما أدين به لكما ، وأما ما زاد على ذلك فإنه لكى تستعينا به على شئونكما حتى توفقا إلى العثور على عمل جديد ؛ إذ لم يعد لكما ما تعملانه هنا ، ففى وسعكما الآن أن تذهبا إلى حيث شئتما . أما أنت ياخوان بريميتو فاحمل هذا الخطاب إلى الدكتور لوثاردو ، ولا تعد إلى هنا . إبْقَ هناك إذا سمحوا لك بالبقاء .

وبعد ذلك بساعات رآها مستر دينجر قادمة وقد خلفت وراءها القناة الملحة ، فحياها من بعيد ، ولكنه لم يتلق على تحيته جوابًا ، فقد كانت تسير

ساهمة سـادرة في تفكيرها ، ونظرها شاخص إلى الأمام لا يتـجه يمنة ولا يسرة ، وجوادها ماض في طريقه ببطء رتيب ، ويداها المستلقيـتان على رجليها ترخيان له العنان على عاتقه .

وتنظر السيـدة باربارا في سيرها الـبطيء إلى السهول المحـيطة بها : أرض يابسة مقـفرة قد شققـتها الحرارة فتصـدعت قشرتها بالأخاديد والبـرك الجافة ، وهنا وهناك أبقار مـهزولة ضامـرة قد استبـد بها سعـار العطش ، فراحت تلعق جدران الأكـواخ المتقوسـة في نهم مخبـول ، وهنا وهناك انتثرت عظام المـاشـية التي هلكت ضـحيـة الأرض الملحـة التي كانـت تجذبهـا إليهـا ، فـتظل مجـرية ألسنتها عليـها حتى تموت من الجـوع بعـد أن نسيت مراعيـها ، والجيف المنتنة قد حجبتها عن الأنظار أسراب الدود الهائلة تذرع المكان المقفر الكئيب .

ووقـفت باربارا لحظة تتـأمل هذا السـعار الـذي أصاب الماشـيـة فجـعلهـا تنصرف عن مراعيها وتزهد فيهـا لكي تخنق جوعها وظمأها لاعقة ذلك الطين الملح ، وكأنما أحـست باربارا بعدوى ذلك الجنون تسري إلى نـفسها ؛ فـها هي ذي تتذوق في لسـانها الجاف المُمْلح ألهـبته الحمى وأيبسـه العطش كل ما في هذه الأرض من خشونة ومرارة . ما أشبـهها - وهي تلتمس حلاوة ذلك الحب فلا تجـد إلا علقم الفشل في فـمهـا - بألسنة تلك الماشيـة التي أرادت أن تطفئ عطشها فأخذت تلعق الملوحة المرة في إلحاح محموم ! .

كان لهــذا المنظر سحــر طاغ يجـذبها إليــه ، ولكنهـا أرادت أن تتخلص من ربقته ، فبذلت مجهوداً كبيراً في التحرر من سلطان تلك الأرض التي كانت تشـدها إليهـا شداً ، ثم وخزت جوادها فـانطلق بها مواصلة سـيـرها الساهم في وجوم .

ووصلت باربارا أخيراً إلى بركة الطين الرجراج . . . شيء غريب يدور الآن في هذه البركة التي يخـيم عليها دائمًا سكون الموت . إن أسرابًا كـبيرة من البط

والبلشـون كانـت تحلق فى الجو تطـلق صرخـات رعب هائلة . وكـانت بعض عصائب هذه الطيور مما أبعدت تحليقها فى الجو تختفى هناك وراء شجر النخيل ، أمـا الأخرى فكانت تهـبط ثم تسـتقـر على شطآن البـركة المخـيـفة ، ثم يسـود الصـمت . . . صمت مـتقطع أشبه بوقفـة يسيـرة مشـبعـة بالألم ؛ إذ لا تلبث الطيور الراسـية على الضـفة أن تعاود طيرانها ، والتى اخـتفــت وراء النخيــل أن تعود للظهور والتحليق المتواصل حول الموضع الذى بث فى قلوبها الفزع .

وكانت السيدة باربارا مـاتزال مستغرقة فى تفكيرها العمـيق ، غير أن جلبة الطيور وحـركتها المسـتمرة أخرجتها من شرودها ، فأوقفت دابتـها فجأة لتتأمل ما كـان يحدث : كانت هناك بقـرة صغيـرة السـن تقف عــلى شاطئ البـركة وهى تخور فى جـزع شديد محاولة أن تنقـذ نفسها من حـية مائية التـفت حول مشـافرها وغـاصت فى الماء بقيـة جسدهـا الطويل ، فلم يطف على سطح الماء منها إلا جزء من رأسها .

كانت قوائم الـبقــرة مشدودة فى توتر مـرتجف ، أما أظلافها فـقد غاصت فى طين الشـاطئ اللين الـلزج ، وتصلب عنقـهـا مـحـاولة التـراجع فى جـهـد مستبسل يائس ، وقد ابيضت عيناها من الذعر ، كان الحيوان الأسير يستنفد كل قواه لكى يستنقـذ نفسه من الضغط الهائل الذى كـان جسد الحية يباشـره عليها فى طياتها القاتلة ، وكان عرق الموت يتصبب غزيراً على جلد البقرة المسكينة .

وتمتمت السيدة بابارا وهى تتأمل ذلك الصراع :

- إن هذه لن يقدر لها الخلاص ! . . لقد ضمنت بركة الطين غذاءها اليوم .

وأخيراً بدأت الحيـة تشد عضلات جسدها حول البـقرة خارجة عن سطح الماء ، وشرعت البقرة فى بذل آخر ما بقى لها من قوة وهى تحرك رأسها فى شدة وعنف حـتى تخلص من الأنشـوطة المحيـطة بمشافـرها ، ولكن الحـية عـاودت ضغطها الشديد فى بطء ، وخـارت قوى الفريسة ، فاستسـلمت وتركت نفسها تحت رحمـة الحية تجـرها إلى داخل البركة ، ثم بدأت تـغوص فى الطين ببطء ،

وهى تطلق خواراً هائلاً ينطق بالفزع اليائس ، وأخيراً اختفت تحت سطح الماء العكر المنتن ، فانقفلت دوائره عليها متلاطمة مصطفقة ، كأنها لسان امتد ليلعق آخر رشفة من طعام لذيذ !

أما الطيور فقد ظلت محلقة حول المكان وهى تطلق نعيبها المتواصل المذعور ، وأما السيدة باربارا فقد بقيت تتأمل المشهد صامتة بغير حراك ، ثم أقلعت الطيور ، وعاد الصمت الرهيب يسود البركة كما كان ، ولم تبق على الماء إلا تموجات خفيفة تعلو سطحه ، وفقاقيع من الغاز المحتبس تعلوه فى المكان الذى غاصت فيه البقره كاسرة ما كان فيه من أعشاب خضراء وشقائق طافية .

كانت فقاقيع الهواء تظهر ثم تتفجر ، ولكن واحدة منها كبيرة الحجم ظلت قليلاً على سطح الماء وهى منتفخة فى داخل غشائها الأصفر العكر ، كأنها عين محتقنة بالغضب . . .

وبدا كما لو كانت هذه العين الحانقة تنظر إلى المرأة الواجمة المتفكرة !

* * *

الخبر تتلاقفه الأفواه من لسان إلى لسان : لقد اختفت إقطاعية حوض « الأراوكا » ! . . .

ويقال إنها ألقت بنفسها فى بركة الطين الرجراج إذ إن آخر من رأوها يؤكدون أنهم شهدوها وهى تتوجه إلى ذلك المكان ، وقد ارتسم فى وجهها عزم رهيب حاسم ، غير أن بعض الناس يتحدثون عن مركب رأوه هابطًا فى مياه الأراوكا ، ويقولون إنهم رأوا فيه امرأة يظنون أنها هى .

الأمر المحقق على أية حال هو أنها اختفت ، تاركة وصيتها الأخيرة فى خطاب أرسلته إلى الدكتور لوثاردو تقول فيه :

« ليس لى وريث إلا ابنتى ماريسيلا ، وأنا بذلك معترفة بها ابنة شرعية أمام الله وأمام الناس ، فتكفل أنت بكل ما يتصل بشئون التركة » .

غـير أنـه لما كان من المعـروف أن للسـيـدة باربارا مـالاً كثـيـراً من الذهب الخـالص كانت تـدفنه فى باطن الأرض ، ولم يشـر خطابهـا إلى شىء عنـه - فقد تحـدث الناس عن احتمال آخر حـول مصيرها : وهو كونهـا اختفت راحلة بذهبـها هذا إلى مكان آخـر ، لاسيمـا وأنهم عثـروا فى الصومـعة التى أفـردتها لمناجيـاتها السـحرية على آثار اسـتخـــراج شىء مـدفـون فى ثرى الأرض ، ومـــن ثم كان البـعض ينكرون فكرة انتحـــارها ويقـولون إنها آثرت الاختـفاء من الميدان إلى مـكان لم يوفق أحد إلى معـرفتـه ، وكثر لذلك حـديث هـــؤلاء عـــن ذلك المركب الذى يقـولون إن أشخاصًا كـــثيرين أحسوا به وهو مُصَوِّبٌ فى مياه الأراوكا .

* * *

ووصلت أخـيرًا أحـمـال الأسلاك الشـائكة بفـضل ثمن ريش البلشـون ، وبدأت أعمال تسوير الضيعة ، وها هى ذى الأعمدة قد نصبت ، وبدأت خيوط الأسلاك تـخرج من اللفـائف دائرة مع حدود الأرض . . . الأرض التى كـانت كلها طرقًـا لا يحصيها العـد ، والتى كانت الآمال تتيـه فى صحرائها الشـاسعة المنبسطة قد خطت فيها الآن طريق واحدة مستقيمة . . . إلى المستقبل .

وكان مستـر دينجر ينظر إلى العمل الذى انهمك فيـه الرجال ، فرأى كيف أخذت الأسلاك تحاصـر تلك القناة الملحة التى كان يتخذها شركًا لصـيد الماشية الغريبة والاسـتيلاء عليها بأنـاشيط حباله كلما أقـبلت لتلعق ترابها الملح ، رأى مستر دينجر كيف أفلت منه هذه المورد ، فهز كتفيه فى استخفاف وقال لنفسه :

- لقد انتهى عملنا هنا يامستر دينجر !

وأخذ بندقيـته وعلقها على كـتفه ، ثم امتطى صهـوة جواده ، وصاح وهو ماضٍ فى طريقه بالرجال الذين اشتغلوا بإقامة الأسوار :

- لا حاجة بكم إلى إنفاق أسلاككم فى تسوير القنوات الملحة ! قولوا للدكتور لوثاردو إن مستر دينجر ذاهب أيضًا !

وينقضى الوقت الذى حدده القانون حتى تستطيع ماريسيلا أن تباشر ملكيتها لتركة أمها التى لم يعد أحد يعرف عنها شيئًا ، ويختفى اسم « الرعب » من تلك الأرض ، وتعود كلها لتصبح « ألتاميرا » .

. . . سهول فنزويلا ! . . . تلك الأرض الصالحة للعمل المنتج والجهد المثمر كما كانت من قبل صالحة للبطولات وللملاحم . . . أرض الآفاق الواسعة المفتوحة حيث يعيش شعب طيب يعرف كيف يحب ، وكيف يقاسى ، وكيف يأمل ! . .

ثبت

بالألفاظ التى تحتاج إلى تفسير(*)

ص ٣٨ : **« عصا الماء » بالإسبانية Palodeagua** شجرة خاصة بالبيئة الأمريكية تنبت على ضفاف الأنهار وهى فارعة وارفة الظلال .

ص ٥٣ : **« موقعة كابيتى » Cavite** : دارت هذه الموقعة فى مياه جزر الفلبين عندما مانشبت الحرب بين إسبانيا والولايات المتحدة بسنة ١٨٩٨ ، وقد انتهت بهزيمة بحرية ساحقة للأسطول الإسبانى وبعدها انتهى الحكم الإسبانى فى هذه البلاد واستقلت ظاهرياً ، إذ إنها فى الحقيقة خضعت بعد طرد الإسبان لنفوذ الولايات المتحدة الأمريكية .

ص ٥٤ : **« بورتوريكو » Puerto Rico** · إحدى جزر بحر الكاريبى ، وكانت الحرب الناشبة بين إسبانيا والولايات المتحدة فى سنة ١٨٩٨ وهى التى أشرنا إليها فى التعليق السابق قد دارت فى مياه الفلبين ومياه البحر الكاريبى ، وكان انتصار أساطيل الولايات المتحدة على إسبانيا مؤدياً إلى إنهاء الحكم الإسبانى فى الفلبين وكوبا وبورتوريكو آخر ما بقي لإسبانيا من مستعمراتها فى آسيا وأمريكا . والإشارة إلى بورتوريكو بالذات فى كلام فيلكس ابن خوسيه لوثاردو إنما هى تعريض بهزيمة إسبانيا وتعبير عن التشفى فيها وفى أنصارها ، إذ إن بورتوريكو لم تلبث بعد طرد الإسبان أن وقعت تحت سيطرة الولايات المتحدة .

ص ٦٦ : **« تايتا » Taita** : لفظ من أصل هندى ، يستخدم فى بعض بلاد أمريكا اللاتينية للدلالة على الاحترام لمن هو أكبر سناً ، وهو قد يطلق لهذا على الوالد أيضاً عند حديث الابن عنه .

(*) هى الألفاظ التى وضعت فوقها علامة النجمة .

ص ٦٩ : « الياكابو » Yacabo : اسم طائر يكثر فى غابات فنزويلا ، وهو يعتبر نذيراً بالشؤم ، والنعيب الذى يطلقه قريب من نفس الاسم الذى سموه به : يا . . . كا . . . بو . . . و ! ومن غريب الاتفاق أنه يكاد ينطبق على اللفظين الإسبانيين Ya acabó (ومعناهما · قد انتهى !) ولعله من أجل ذلك اعتبر مشئوماً يتطير به .

ص ٧٠ : « الجفان » Gaván : طائر صغير يعيش فى غابات فنزويلا .

ص ٨٩ : « التشجويرى » Chiguire : حيوان قارض برى مائى ، يبلغ طوله متراً ، وهو يكثر فى فنزويلا والبرازيل وباراجواى والأرجنتين وغيرها من بلاد أمريكا الجنوبية ، ويوجد دائماً بقرب ضفاف الأنهار ، ويتغذى على الأسماك والأعشاب ، ويمكن أن يستأنس بسهولة ، ولكن لحمه غير طيب ، وإنما ينتفع بجلده فى الغالب .

ص ٩٩ : البلشون (بالإسبانية Garza) : هو طائر أبيض ناعم الريش وهو يهاجر فى أسراب كبيرة ويعرف فى كثير فى بلاد العالم وإن تباينت أنواعه .

ص ٢١١ : اسم هذا الأمريكى أصلا William Danger والاسم الأول يقابل بالإسبانية Guillermo والثانى ترجمته بالإسبانية Peligro أى خطر .

ص ١٤٨ ، ٢٦٢ · « الميريكورى » Merecure : شجر ضخم وارف الظلال تتميز به السهول العليا فى فنزويلا .

ص ٣٣٣ . « الكويباس » Cuibas : قبيلة هندية تسكن على شواطئ نهر الميتا E El Meta فى سهول فنزويلا ، وهى معروفة بشدة التمرد وقوة البطش .

ص ٣٦٥ : « التشيبولا » Chipola
ص ٣٦٥ : « الخوروبو » Joropo
} رقصتان شعبيتان فى فنزويلا

ص ٤٠١ . « الكوروكورا » Corocora : طائر ذو ساق طويلة ، يضرب لونه إلي الاحمرار القاتم .

ص ٤٠٧ : « **البرجوتان** » Praguatan : شجر معروف بجودة خشبه وطيب رائحة أزهاره .

ص ٤٤٥ : « **الكيريبرى** » Querevere : شجر يكثر فى فنزويلا ، ولا سيما في حوض نهر الأبورى Apure وفى غيانا ، وله بنور يستخدمها هنود هذه المناطق فى إعداد نوع من أنواع الخبز .

ص ٥١٩ : « **الجواتشافيا** » Guachafita : لفظ يستخدم فى فنزويلا للدلالة على الصخب والضجة ، ويقصد بها فى الغالب السهرات الصاخبة التى يصحبها غناء ورقص وشرب .

ص ٥١٩ : « **الجواساكاكا** » Guasacaca : صلصة لاذعة حريفة تتخذ من « الشطة » .

ص ٥١٩ : « **الجواريتشا** » Guaricha : المرأة الجميلة ، ويقصد بها فى الغالب اللعوب سهلة المنال .

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التـوازن بين المعـارف الإنسـانيـة فى المجـالات العلمـيـة والفنيـة والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١ – اللغة العليا (طبعة ثانية)	جون كوين	ت : أحمد درويش
٢ – الوثنية والإسلام	ك. مادهو بانيكار	ت أحمد فؤاد بلبع
٣ – التراث المسروق	جورج جيمس	ت شوقى جلال
٤ – كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتنكوفا	ت : أحمد الحضرى
٥ – ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	ت : محمد علاء الدين منصور
٦ – اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد
٧ – العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	ت يوسف الأنطكى
٨ – مشعلو الحرائق	ماكس فريش	ت . مصطفى ماهر
٩ – التغيرات البيئية	أندرو س. جودى	ت محمود محمد عاشور
١٠ – خطاب الحكاية	جيرار جينيت	ت · محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١ – مختارات	فيسوافا شيمبوريسكا	ت : هناء عبد الفتاح
١٢ – طريق الحرير	ديفيد براونيستون وايرين فرانك	ت . أحمد محمود
١٣ – ديانة الساميين	روبرتسن سميث	ت عبد الوهاب علوب
١٤ – التحليل النفسى والأدب	جان بيلمان نويل	ت · حسن المودن
١٥ – الحركات الفنية	إدوارد لويس سميث	ت : أشرف رفيق عفيفى
١٦ – أثينة السوداء	مارتن برنال	ت بإشراف / أحمد عتمان
١٧ – مختارات	فيليب لاركين	ت . محمد مصطفى بدوى
١٨ – الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	ت طلعت شاهين
١٩ – الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	ت : نعيم عطية
٢٠ – قصة العلم	ج. ج. كراوثر	ت: يمنى طريف الخولى / بدوى عبد الفتاح
٢١ – خوخة وألف خوخة	صمد بهرنجى	ت : ماجدة العنانى
٢٢ – مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	ت · سيد أحمد على الناصرى
٢٣ – تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	ت : سعيد توفيق
٢٤ – ظلال المستقبل	باتريك بارندر	ت . بكر عباس
٢٥ – مثنوى	مولانا جلال الدين الرومى	ت · إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦ – دين مصر العام	محمد حسين هيكل	ت أحمد محمد حسين هيكل
٢٧ – التنوع البشرى الخلاق	مقالات	ت . نخبة
٢٨ – رسالة فى التسامح	جون لوك	ت . منى أبو سنه
٢٩ – الموت والوجود	جيمس ب. كارس	ت . بدر الديب
٣٠ – الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	ت . أحمد فؤاد بلبع
٣١ – مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه – كلود كاين	ت : عبد الستار الحلوجى / عبد الوهاب علوب
٣٢ – الانقراض	ديفيد روس	ت · مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣ – التاريخ الاقتصادى لإفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	ت : أحمد فؤاد بلبع
٣٤ – الرواية العربية	روجر آلن	ت . حصة إبراهيم المنيف
٣٥ – الأسطورة والحداثة	بول . ب . ديكسون	ت . خليل كلفت

٣٦ – نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ – واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ – نقد الحداثة	آلن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ – الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ – قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ – ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم فتحى / محمود ماجد
٤٢ – عالم ماك	بنجامين باربر	ت : أحمد محمود
٤٣ – اللهب المزدوج	أوكتافيو پاث	ت : المهدى أخريف
٤٤ – بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	ت : مارلين تادرس
٤٥ – التراث المغدور	روبرت ج دنيا – جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ – عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ – حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتى
٤٩ – الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ – ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١ – مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م بينياليستى	ت : محمد أبو العطا
٥٢ – العلاج النفسى التدعيمى	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ – الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ – المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحى
٥٥ – ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ – الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ – الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ – مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ – المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ – التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الغنى
٦١ – موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور – سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهرى
٦٢ – لذّة النّص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ – تاريخ النقد الأدبى الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ – برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ – فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ – خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ – مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدى أخريف
٦٨ – نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ – العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ – ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ – السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

٧٢ – السياسي العجوز	ت . س . إليوت	ت : فؤاد مجلي
٧٣ – نقد استجابة القارئ	چين . ب . توميكنز	ت . حسن ناظم وعلي حاكم
٧٤ – صلاح الدين والمماليك في مصر	ل . ا . سيمينوڤا	ت حسن بيومي
٧٥ – فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	ت . أحمد درويش
٧٦ – چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من الكتاب	ت : عبد المقصود عبد الكريم
٧٧ – تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣	رينيه ويليك	ت مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨ – العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	ت : أحمد محمود ونورا أمين
٧٩ – شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	ت سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠ – بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	ت . مكارم الغمري
٨١ – الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	ت . محمد طارق الشرقاوي
٨٢ – مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	ت . محمود السيد علي
٨٣ – مختارات	غوتفريد بن	ت . خالد المعالي
٨٤ – موسوعة الأدب والنقد	مجموعة من الكتاب	ت : عبد الحميد شيحة
٨٥ – منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	ت . عبد الرازق بركات
٨٦ – طول الليل	جمال مير صادقي	ت أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧ – نون والقلم	جلال آل أحمد	ت ماجدة العناني
٨٨ – الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩ – الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	ت : أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠ – وسم السيف (قصص)	نخبة من كُتاب أمريكا اللاتينية	ت · محمد إبراهيم مبروك
٩١ – المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربر الاسوستكا	ت محمد هناء عبد الفتاح
٩٢ – أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجل	ت · نادية جمال الدين
٩٣ – محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	ت عبد الوهاب علوب
٩٤ – الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	ت : فوزية العشماوي
٩٥ – مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	ت سري محمد محمد عبد اللطيف
٩٦ – ثلاث زنبقات ووردة	قصص مختارة	ت · إدوار الخراط
٩٧ – هوية فرنسا (مج ١)	فرنان برودل	ت . بشير السباعي
٩٨ – الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	نماذج ومقالات	ت : أشرف الصباغ
٩٩ – تاريخ السينما العالمية	ديڤيد روبنسون	ت إبراهيم قنديل
١٠٠ – مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	ت إبراهيم فتحي
١٠١ – النص الروائي (تقنيات ومناهج)	بيرنار فاليط	ت . رشيد بنحدو
١٠٢ – السياسة والتسامح	عبد الكريم الخطيبي	ت : عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣ – قبر ابن عربي يليه آياء	عبد الوهاب المؤدب	ت · محمد بنيس
١٠٤ – أوبرا ماهوجني	برتولت بريشت	ت : عبد الغفار مكاوي
١٠٥ – مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	ت . عبد العزيز شبيل
١٠٦ – الأدب الأندلسي	د. ماريا خيسوس روبييرامتي	ت : أشرف علي دعدور
١٠٧ – صورة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة	ت . محمد عبد الله الجعيدي

١٠٨ – ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من النقاد	ت : محمود على مكى
١٠٩ – حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	ت : هاشم أحمد محمد
١١٠ – النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	ت : منى قطان
١١١ – المرأة والجريمة	فرانسيس هيندسون	ت : ريهام حسين إبراهيم
١١٢ – الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	ت : إكرام يوسف
١١٣ – راية التمرد	سادى پلانت	ت : أحمد حسان
١١٤ – مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	ت : نسيم مجلى
١١٥ – غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	ت : سمية رمضان
١١٦ – امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	ت : نهاد أحمد سالم
١١٧ – المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
١١٨ – النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ت : لميس النقاش
١١٩ – النساء والأسرة وقوانين الطلاق	أميرة الأزهرى سنبل	ت : بإشراف/ رؤوف عباس
١٢٠ – الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	ت : نخبة من المترجمين
١٢١ – الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
١٢٢ –نظام العبودية القديم ونموذج الإنسان	جوزيف فوجت	ت : منيرة كروان
١٢٣–الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	نينل الكسندر وفنادولينا	ت: أنور محمد إبراهيم
١٢٤ – الفجر الكاذب	چون جراى	ت : أحمد فؤاد بلبع
١٢٥ – التحليل الموسيقى	سيدريك ثورپ ديڤى	ت : سمحه الخولى
١٢٦ – فعل القراءة	ڤولڤانج إيسر	ت : عبد الوهاب علوب
١٢٧ – إرهاب	صفاء فتحى	ت : بشير السباعى
١٢٨ – الأدب المقارن	سوزان باسنيت	ت : أميرة حسن نويرة
١٢٩ – الرواية الاسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	ت : محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠ – الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	ت : شوقى جلال
١٣١ – مصر القديمة (التاريخ الاجتماعى)	مجموعة من المؤلفين	ت : لويس بقطر
١٣٢ – ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	ت : عبد الوهاب علوب
١٣٣ – الخوف من المرايا	طارق على	ت : طلعت الشايب
١٣٤ – تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	ت : أحمد محمود
١٣٥ – المختار من نقد ت. س. إليوت (ثلاثة أجزاء)	ت. س. إليوت	ت : ماهر شفيق فريد
١٣٦ – فلاحو الباشا	كينيث كونو	ت : سحر توفيق
١٣٧ – منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية	چوزيف مارى مواريه	ت : كاميليا صبحى
١٣٨ – عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	إيڤلينا تارونى	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩ – پارسيڤال	ريشارد فاچنر	ت : مصطفى ماهر
١٤٠ – حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	ت : أمل الجبورى
١٤١ – اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	ت : نعيم عطية
١٤٢ – الإسكندرية . تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	ت : حسن بيومى
١٤٣ – قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديريك لايدار	ت : عدلى السمرى
١٤٤ – صاحبة اللوكاندة	كارلو جولدونى	ت : سلامة محمد سليمان

١٤٥ - موت أرتيميو كروث	كارلوس فوينتس	ت : أحمد حسان
١٤٦ - الورقة الحمراء	ميجيل دى ليبس	ت . على عبد الرؤوف البمبى
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة	تانكريد دورست	ت : عبد الغفار مكاوى
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية)	إنريكى أندرسون إمبرت	ت : على إبراهيم على منوفى
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	ت : أسامة إسبر
١٥٠ - التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	ت منيرة كروان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١)	فرنان برودل	ت : بشير السباعى
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى	نخبة من الكُتاب	ت : محمد محمد الخطابى
١٥٣ - غرام الفراعنة	فيولين فانويك	ت : فاطمة عبد الله محمود
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	ت خليل كلفت
١٥٥ - الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	ت : أحمد مرسى
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	ت مى التلمسانى
١٥٧ - خسرو وشيرين	النظامى الكنوجى	ت عبد العزيز بقوش
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	ت . بشير السباعى
١٥٩ - الإيديولوجية	ديڤيد هوكس	ت : إبراهيم فتحى
١٦٠ - آلة الطبيعة	بول إيرليش	ت حسين بيومى
١٦١ - من المسرح الإسبانى	اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	ت زيدان عبد الحليم زيدان
١٦٢ - تاريخ الكنيسة	يوحنا الآسيوى	ت صلاح عبد العزيز محجوب
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
١٦٤ - شامپوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	ت نبيل سعد
١٦٥ - حكايات الثعلب	أ . ن أفانا سيفا	ت سهير المصادفة
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	ت : محمد محمود أبو غدير
١٦٧ - فى عالم طاغور	رابندرانات طاغور	ت شكرى محمد عياد
١٦٨ - دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	ت شكرى محمد عياد
١٦٩ - إبداعات أدبية	مجموعة من المبدعين	ت : شكرى محمد عياد
١٧٠ - الطريق	ميغيل دليبيس	ت : بسام ياسين رشيد
١٧١ - وضع حد	فرانك بيجو	ت : هدى حسين
١٧٢ - حجر الشمس	مختارات	ت : محمد محمد الخطابى
١٧٣ - معنى الجمال	ولتر ت . ستيس	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء	ايليس كاشمور	ت : أحمد محمود
١٧٥ - التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	ت : وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	ت جلال البنا
١٧٧ - أنطون تشيخوف	هنرى ترويا	ت . حصة إبراهيم منيف
١٧٨ - مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	ت محمد حمدى إبراهيم
١٧٩ - حكايات أيسوب	أيسوب	ت إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠ - قصة جاويد	إسماعيل فصيح	ت سليم عبدالأمير حمدان
١٨١ - النقد الأدبى الأمريكى	فنسنت . ب . ليتش	ت محمد يحيى

١٨٢ - العنف والنبوءة	و . ب . ييتس	ت : ياسين طه حافظ
١٨٣ - جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	ت . فتحي العشري
١٨٤ - القاهرة .. حالة لا تنام	هانز إيندورفر	ت . دسوقي سعيد
١٨٥ - أسفار العهد القديم	توماس تومسن	ت عبد الوهاب علوب
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل أنوود	ت . إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧ - الأرضة	بُزُرج علوى	ت علاء منصور
١٨٨ - موت الأدب	ألفين كرنان	ت . بدر الديب
١٨٩ - العمى والبصيرة	بول دى مان	ت سعيد الغانمى
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	ت . محسن سيد فرجاني
١٩١ - الكلام رأسمال	الحاج أبو بكر إمام	ت مصطفى حجازى السيد
١٩٢ - سياحتنامه إبراهيم بيك	زين العابدين المراغي	ت . محمود سلامة علاوى
١٩٣ - عامل المنجم	بيتر أبراهامز	ت . محمد عبد الواحد محمد
١٩٤ - مختارات من النقد الأنجلو - أمريكي	مجموعة من النقاد	ت ماهر شفيق فريد
١٩٥ - شتاء ٨٤	إسماعيل فصيح	ت محمد علاء الدين منصور
١٩٦ - المهلة الأخيرة	فالنتين راسبوتين	ت أشرف الصباغ
١٩٧ - الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	ت جلال السعيد الحفناوى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	ت إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداوى	ت جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠ - ضحايا التنمية	جيرمي سيبروك	ت . فخري لبيب
٢٠١ - الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	ت : أحمد الأنصارى
٢٠٢ - تاريخ النقد الأدبي الحديث جـ٤	رينيه ويليك	ت . مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣ - الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	ت . جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	ت . أحمد محمود هويدى
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي - سفورزا	ت أحمد مستجير
٢٠٦ - الهيولية تصنع علمًا جديدًا	جيمس جلايك	ت علي يوسف علي
٢٠٧ - ليل إفريقي	رامون خوتاسندير	ت محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٠٨ - شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	ت . محمد أحمد صالح
٢٠٩ - السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	ت . أشرف الصباغ
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائي	سنائي الغزنوى	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١ - فرديناد دوسوسير	جوناثان كلر	ت : محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان	مرزبان بن رستم بن شروين	ت يوسف عبد الفتاح فرج
٢١٣ - مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر	ريمون فلاور	ت سيد أحمد على الناصرى
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	ت محمد محمود محي الدين
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جـ٢	زين العابدين المراغي	ت محمود سلامة علاوى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	ت . أشرف الصباغ
٢١٧ - مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت	ت : نادية البنهاوى
٢١٨ - رايولا	خوليو كورتازار	ت على إبراهيم على منوفى

٢١٩ – بقايا اليوم	كازو ايشجورو	ت : طلعت الشايب
٢٢٠ – الهيولية في الكون	باري باركر	ت : علي يوسف علي
٢٢١ – شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	ت : رفعت سلام
٢٢٢ – فرانز كافكا	رونالد جراي	ت : نسيم مجلي
٢٢٣ – العلم في مجتمع حر	بول فيرابنر	ت : السيد محمد نفادي
٢٢٤ – دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد
٢٢٥ – حكاية غريق	جابرييل جارثيا ماركث	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٦ – أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	ت : طاهر محمد علي البربري
٢٢٧ – المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	موسى ماردينا ديف بوركي	ت : السيد عبد الظاهر عبد الله
٢٢٨ – علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن
٢٢٩ – مأزق البطل الوحيد	نورمان كيمان	ت : أمير إبراهيم العمري
٢٣٠ – عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣١ – الدرافيل	خايمي سالوم بيدال	ت : جمال أحمد عبد الرحمن
٢٣٢ – مابعد المعلومات	توم ستينر	ت : مصطفى إبراهيم فهمي
٢٣٣ – فكرة الاضمحلال	أرثر هيرمان	ت : طلعت الشايب
٢٣٤ – الإسلام في السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	ت : فؤاد محمد عكود
٢٣٥ – ديوان شمس تبريزي ج١	جلال الدين الرومي	ت : إبراهيم الدسوقي شتا
٢٣٦ – الولاية	ميشيل تود	ت : أحمد الطيب
٢٣٧ – مصر أرض الوادي	روبين فيدين	ت : عنايات حسين طلعت
٢٣٨ – العولمة والتحرير	الانكتاد	ت : ياسر محمد جاد الله وعربي مدبولي أحمد
٢٣٩ – العربي في الأدب الإسرائيلي	جيلارافر – رايوخ	ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠ – الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كامي حافظ	ت : صلاح عبد العزيز محمود
٢٤١ – في انتظار البرابرة	ك. م كويتز	ت : ابتسام عبد الله سعيد
٢٤٢ – سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	ت : صبري محمد حسن عبد النبي
٢٤٣ – تاريخ إسبانيا الإسلامية جـ١	ليفي بروفنسال	ت : مجموعة من المترجمين
٢٤٤ – الغليان	لاورا إسكيبيل	ت : نادية جمال الدين محمد
٢٤٥ – نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس	ت : توفيق علي منصور
٢٤٦ – قصص مختارة	جابرييل جرثيا ماركث	ت : علي إبراهيم علي منوفي
٢٤٧ – الثقافة الجماهيرية والحداثة في مصر	وولتر أرمبرست	ت : محمد الشرقاوي
٢٤٨ – حقول عدن الخضراء	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٢٤٩ – لغة التمزق	دراجو شتامبوك	ت : رفعت سلام
٢٥٠ – علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ت : ماجدة أباظة
٢٥١ – موسوعة علم الاجتماع ج ٢	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهري
٢٥٢ – رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	ت : علي بدران
٢٥٣ – تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	ت : حسن بيومي
٢٥٤ – الفلسفة	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥ – أفلاطون	ديف روبنسون وجودي جروفز	ت : إمام عبد الفتاح إمام

٢٥٦ - ديكارت	ديف روبنسون وجودى جروفز	ت إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	ت محمود سيد أحمد
٢٥٨ - الغجر	سير أنجوس فريزر	ت : عُبادة كُحيلة
٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمنى	نخبة	ت : ڤاروچان كازانچيان
٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٣	جوردون مارشال	ت بإشراف : محمد الجوهرى
٢٦١ - رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	ت : إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢ - مدينة المعجزات	إدوارد مندوثا	ت . محمد أبو العطا عبد الرؤوف
٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن	چون جريبن	ت : على يوسف على
٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة	هوراس / شلى	ت . لويس عوض
٢٦٥ - روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	ت . لويس عوض
٢٦٦ - مدير المدرسة	جلال آل أحمد	ت . عادل عبد المنعم سويلم
٢٦٧ - فن الرواية	ميلان كونديرا	ت بدر الدين عرودكى
٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢	جلال الدين الرومى	ت إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١	وليم چيفور بالجريف	ت . صبرى محمد حسن
٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢	وليم چيفور بالجريف	ت : صبرى محمد حسن
٢٧١ - الحضارة الغربية	توماس سى . باترسون	ت . شوقى جلال
٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر	س. س. والترز	ت إبراهيم سلامة
٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط	جوان آر. لوك	ت : عنان الشهاوى
٢٧٤ - السيدة بربارا	رومولو جلاجوس	ت . محمود على مكى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٨٦٦ / ٢٠٠١

المجلس الأعلى للثقافة

DOÑA BARBARA

Rómuls Gallegos



مؤلف هذه الرواية « رومولو جاييجوس » (١٨٨٤ - ١٩٦٩) هو كاتب وسياسي ومفكر فنزويلي ، له مكانة عظمى في تاريخ الأدب والثقافة في أمريكا اللاتينية الناطقة بالإسبانية وقد أوصله نتاجه الأدبي ، ولا سيما في ميدان الفن الروائي ، وكفاحه السياسي إلى إن يصبح رئيس جمهورية فنزويلا في سنة ١٩٤٧ .

أما الرواية فإنها تدور حول الكفاح الذي يضطلع به « سانتوس لوثاردو » الشاب الجامعي القادم من المدينة إلى سهول نهري « أبوري » و« الأراوكا » ضد عوامل الفساد المتمثلة في السيطرة الإقطاعية التي تبسطها على السهول امرأة غامضة رهيبة ، وهي « السيدة باربارا » تعاونها في ذلك مجموعة متنافرة من الرجال لم تجمع بينهم إلا نوازع الشر وفنون الإجرام ، وأمريكي مغامر كأنه رمز للتدخل السافر أو المستتر الذي تباشره الولايات المتحدة في شئون أمريكا اللاتينية .

تصميم الغلاف : أسامة العبد